

مِیَاهُ الْفَلَسْفَةِ

تألیف
وِک دِیورانت

تقدیم
الدکتور ابرار اہم بیومی مدکور

ترجمہ
الدکتور احمد فواد الایہوانی

مباح الفلسفة

الكتاب الأول

تأليف
رون ديورانت

تقديم
الدكتور إبراهيم بيومي مدكور

ترجمة
الدكتور أحمد فؤاد الإهواني

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة

١٩٥٥



هذه الترجمة مرخص بها ، وقد قامت مؤسسة فرانكلين
للطباعة والنشر بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق

This is a translation of part I of "Pleasures of
Philosophy" by Will Durant. Copyright, 1929, 1953
by Will Durant.

مِثَالُ الْفَلَسْفَةِ

الكتاب الأول

نشر بالاشتراك

مع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

القاهرة - نيويورك

المشتركون في هذا الكتاب

المؤلف

ول ديورانت : ولد عام ١٨٨٥ من أبوين كنديين في نورث أدامز بماسشوست ، حيث تلقى العلم في المدارس الكاثوليكية . وفي كلية القديس بطرس في نيوجرسي ، وفي جامعة كولومبيا في نيويورك . ثم اشتغل مدة الصيف مخبراً في جريدة نيويورك ، ولكنه هجر ذلك العمل المثير حين رأى أنه لا يصلح له . واشتغل بعد ذلك بتدريس اللاتينية والفرنسية والإنجليزية والهندسة في كلية سيتون هول في جنوب أورانج بنيوجرسي (١٩٠٧ - ١٩١١) . وهناك التحق بمعهد الدراسات العليا الدينية في عام ١٩٠٩ ، ثم هجره للأسباب التي ذكرها في كتابه المسمى « الانتقال Transition » . وانتقل من هذا المعهد مباشرة إلى أكثر الأوساط تحراً في نيويورك ، وأصبح في مدرسة فيرر الحديثة (١٩١١ - ١٩١٣) : « الرئيس والمعلم والمتعلم » ، وكانت تلك المدرسة تجربة في التربية المتحررة . وفي ١٩١٢ طاف بأوربا من كيلازني إلى يالتا على نفقة ألدن فريمان الذي اتخذه صاحباً وتعهد أن يوسع أفقه . وانقطع ١٩١٢ إلى الدراسة العليا بجامعة كولومبيا ، فتخصص في علم الحياة على مورجان وكالكنز ، وفي الفلسفة على وودبرج وديوي ، وحصل على الدكتوراه ١٩١٧ ، ودرس الفلسفة مدة عام بجامعة كولومبيا . وفي ١٩١٤ بدأ يلقي تلك المحاضرات في الفلسفة والأدب والتاريخ والعلم والفن التي مهدت لكتابه « قصة الفلسفة » وذلك في كنيسة برسبيري في نيويورك . ولم تكد « قصة الفلسفة » تظهر حتى كانت أحسن كتب ذلك العام انتشاراً مما أثار دهشة مؤلفها وناشرها . فتم تحرير عام ١٩٢٧ من العمل المدرسي عقب نجاح « قصة الفلسفة » لينقطع إلى كتابة تاريخ الحضارة ، فطاف أوربا مرة أخرى في ١٩٢٧ ، وحول العالم في ١٩٣٠ لدراسة مصر والشرق الأدنى والهند والصين واليابان . ومرة ثانية في ١٩٣٢ لزيارة اليابان وكوريا و منشوريا وسيبيريا وروسيا . ثم أصدر في ١٩٣٥ - بعد سبع

سنوات من الرحلة والدرس - كتاب « تراثنا الشرقى » وهو المجلد الأول من كتاب « قصة الحضارة » . ومع أنه زار اليونان وإيطاليا في ١٩١٢ و ١٩٢٧ و ١٩٣٢ ، إلا أنه عاد إليهما سنة ١٩٣٦ ، فأضاف بذلك معلومات جديدة إلى الدراسة المنظمة التي تلقاها عن الجزويت في اللغات والآداب القديمة . وأصدر في ١٩٣٩ كتاب « حياة الإغريق » وفي ١٩٤٤ « يسر والمسيح » . وأمضى في ١٩٤٨ ستة أشهر في أم. ب. ا. الشرقين الأدنى والأوسط يدرس المعالم والآثار المسيحية والإسلامية من أذنة إلى شيراز . ونشر في ١٩٥٠ كتاب « عصر الإيمان » وهو تاريخ الحضارة في العصر الوسيط - مسيحية وإسلامية ويهودية - منذ قسطنطين حتى دانتى . ثم أمضى في إيطاليا وفرنسا سبعة أشهر درس فيها معظم المناظر والفنون الموصوفة في عصر النهضة . وهو موضوع المجلد الخامس ، وقد صدر في ١٩٥٣ . وهو يعمل الآن في كتابة المجلد السادس من المجموعة ، ويأمل أن يصدره في ١٩٥٨ بعنوان « عصر الإصلاح الدينى » . وإنه ليرجو إذا وافته الظروف وأعانته الصحة أن يتم هذا العمل سنة ١٩٦٣ بإصدار كتاب « عصر العقل » الذى يمضى مع القصة حتى القرن التاسع عشر .

وليس ول ديورانت غريباً عن قراء العربية . فقد ترجم من كتابه قصة الحضارة المجلد الأول في خمسة أجزاء ، والمجلد الثانى عن اليونان في ثلاثة أجزاء ، ويجرى الآن طبع المجلد الثالث ، وذلك على نفقة الجامعة العربية التى اختارت الكتاب ضمن برنامجها الثقافى ، وقد عهد بالترجمة إلى الأستاذين محمد بدران وزكى نجيب محمود .

ويسر مؤسسة فرانكلين أن تقدم له فى العربية الكتاب الأول من « مباحج الفلسفة » . ومع أن الكتاب فى طبعته الأصلية يقع فى مجلد واحد فقد دعت بعض الاعتبارات إلى إصداره فى العربية فى كتابين ، وترجو أن يصدر قريباً الكتاب الثانى الذى يشتمل على فلسفة التاريخ ، والفلسفة السياسية ، وفلسفة الدين ، والحياة والموت .

(ب)

صاحب المقدم

الدكتور إبراهيم بيومي مديكور : أتم تعليمه في مصر ، وأوفد في بعثة ١٩٢٧ إلى باريس فحصل على ليسانس الفلسفة ، ودكتوراه الدولة من السوربون ١٩٣٤ ، وعاد إلى مصر واشتغل بتدريس الفلسفة بجامعة القاهرة ، حتى نزل ميدان السياسة فانتخب عضواً لمجلس الشيوخ ١٩٣٧ ، حيث برزت مواهبه البرلمانية . وعين وزيراً ١٩٤٢ ، ثم رئيساً لمجلس الخدمات وعضواً بمجلس الإنتاج ، إلى أن استقال من رئاسة مجلس الخدمات ليتفرغ لمجلس الإنتاج . وهو عضو بالجمعية اللغوية ، وجوائز الدولة ، وغير ذلك من اللجان العلمية .

له من المؤلفات بالفرنسية L'Organon d'Aristote dans le Monde Arabe أي « منطق أرسطو في العالم العربي » و La Place d'Al Farabi dans l' Ecoie Philosophique Musuimane أي « منزلة الفارابي في الفلسفة الإسلامية » وبالعربية « دروس في الفلسفة » مع الأستاذ يوسف كرم ، و « في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه » و « أداة الحكم » مع الأستاذ مرييت بطرس غالي . وهو رئيس لجنة تحقيق كتاب « الشفاء » لابن سينا ، وقد صدر منه حتى الآن « المدخل » ١٩٥٢ و « الخطابة » ١٩٥٤ .

وعلى الرغم من اشتغاله بالمسائل العامة لم يقطع صلته بالفلسفة ، فألقى بجامعة السوربون بباريس أثناء الصيف ١٩٥٤ وما قبله محاضرات في الفلسفة الإسلامية .

صاحب الترجمة

الدكتور احمد فؤاد الاهواني : التحق بكلية الآداب بالجامعة المصرية منذ أول إنشائها ، فأخذ الفلسفة على أعلامها الفرنسيين : برييه ، ولا لاند وري ، وحصل على الليسانس ودبلوم معهد التربية العالي والدكتوراه . وعين بالجامعة لتدريس الفلسفة .

وله من المؤلفات خلاصة علم النفس ، والتعليم في رأى القابسي (وهي رسالة الدكتوراه) وتاريخ المنطق والمنطق الحديث ، ومعاني الفلسفة ، وفي عالم

الفلسفة ، والحب والكراهية ، والخوف ، والنسيان ، وأسرار النفس . ونشر من المخطوطات : كتاب النفس لابن رشد وأربع رسائل ، وكتاب الكندي إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى ، وإيساغوجي لفرغوريوس الصوري ، وأحوال النفس لابن سينا ، واشترك في تحقيق « المدخل » من الشفاء لابن سينا (وهو أحد أعضاء اللجنة) . وترجم كتاب النفس لأرسطو وراجع الأب قنواي ، وطريقة ديكرولي وراجع الدكتور يوسف مراد . وآخر ما ألف كتاب « فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط » اعتمد فيه على جميع نصوص الفلاسفة التي نقلها إلى العربية .

مصمم الغلاف

رفيق البابلي : مهندس ، حصل على بكالوريوس الهندسة قسم العمارة ١٩٥٤ . نال جائزة فرانكلين عن تصميم غلاف كتاب « كيف تتكامل الشخصية » . قرأ « مباحج الفلسفة » في أصله الإنجليزي ليتبين الفكرة عنه ، فأخرجها في هذا الرسم المطبوع على ظاهر الكتاب . وخطر له أن ديوجينيس بمصباحه وهو يبحث عن الحقيقة رمز يمثل الفلسفة .

مِقْدَمَةٌ

بقلم الدكتور إبراهيم سرور

كانت الفلسفة لغةً الخاصة وشُغلَ فريق من الناس ، وعُدَّت زمنًا بين التعاليم السرية والمضنون به على غير أهله . وقدِمًا احتفظ بها الأفلاطونيون في الأكاديميا ، والمشاؤون في اللوقيون ، وأتباع زينون في الرواق . وفي العصور الوسطى حوربت وصودرت كتبها وحرِّمت دراستها ، وإن أُبيحت فلنفر قليل من كبار المفكرين ورجال الدين ، وعدَّ خُرْقًا أن تُبسَّط وتصبح سهلة التناول . وفي التاريخ الحديث بقيت وقفًا على مدارس محدودة ، وسلعةً ممتازة لا يمكن أن تُتداول في جميع الأسواق .

ويراد بها اليوم أن تنزل من سماءها وتعيش مع عامة الناس على أرضهم ، وتنتقل من أرسقراطية الفكر إلى ديمقراطية البحث السهل الطليق : فتيسر سبلها ، وتكتب بلغة العصر وروحه ، وتذل للقارئ العادي بحيث يجد فيها من اللذة والمتاع ما يجده في ألوان الثقافة الأخرى . ولعل من أخص خصائص الأدب المعاصر أنه وثيق الصلة بالعلم والفلسفة ، نفذ إليهما وكساها بكسائه الوثير اللين ، وغذياه بدورها بمادتهما الخصبه وأفكارها المتجددة . وهناك اتجاه عام أساسه أن يفلسف الأدب وتؤدب الفلسفة . وأنصاره كثيرون ، يكفي أن نذكر منهم برتراند رسل بين الفلاسفة ، وأندريه جيد بين الأدباء .

وإعداد أول ديورانت — بحق — في مقدمة من ساهموا في هذا المضمار . فبقائه
السيال وأسلوبه العذب طوع الفلسفة ، وجعل مباحثها الدقيقة ، ونظريات المعقدة ،
بسيرة المنال . مهبة القيم . وكيف لا وهو أديب بقدر ما هو فيلسوف . يجتذب
القارئ بيبانه . ويسحره خياله وشعره . بحسب ويشبه . ويبدج إلى الحجز
والاستعارة . فتتحول الفكرة المجردة في يديه إلى حقيقة موهوسة . وهو فوق هذا
كاتب ساخر . وسخريته لأذعة أحياناً . ينتقد هذا ويتبكم من ذلك . وفي السخرية
ما فيها من عوامل التشويق وإثارة الانتباه . لهذا يمكن غريباً أن يسمى كتابه
الذي تقدم لترجمته « مباحث الفلسفة » . وهذه التسمية قصة . فإنه كان يسمى أولاً
« قصور الفلسفة » . ورغم أن أعيد طبعه اقترح له نشره هذا الاسم . والنشرون
أعرف ما يكون بميول القراء ورغباتهم .

وديورانت رحالة . طوّف في الآفاق ما طوّف . ومؤرخ حضارة عاش في
الماضي بقدر ما عاش في الحاضر . وهو يرى أن حضارتنا الحاضرة أضحت ماديةً
إباحية ، استبدلت بالزهد الترف ، وأحلت الأبيقورية محل الحرمان ومجاهدة النفس .
تخاطب الجسم قبل أن تخاطب الروح ، وتتذكر لما تواضعنا عليه من مثل عليا . وتحارب
ما ألفناه من عادات وتقاليد . وتجاوز هذا إلى معتقداتنا الدينية ، فتحاول أن تنزع
منا أعزها . وأصبحنا وكأننا في بحر جلى تتقاذفنا فيه الأمواج ، ولا ندرى أين المرق .
وأصبحت حياتنا الخلقية مهددة بالانهيار ، وحياتنا العقلية تفاجأ بالجديد كل يوم .

وما ذاك إلا لأن هذه الحضارة لا تقوم على دعائم عقلية ، ولا تعتمد على
أسس كلية . وما أحوجنا إلى أن نفلسفها فلم نشعها ، ونزيل تناقضها ، ونكوّن
من شتى مظاهرها كلاً منسقا ، ونرسم لها أهدافاً أسمى وأكمل . وسبيلنا إلى ذلك
أن نرتاد علم الأخلاق لنكشف عن طبيعة الحياة الفاضلة ، وفي ضوئها نستطيع
أن نعالج أسرنا المنحلة ، وروابط جنبا المترخية ، ونخرج من الأثرة الضيقة الأفق

إلى إيثار كريم ، يعيش الناس تحت ظله إخواناً متحابين ، ونعيد في اختصار بناء الأخلاق من جديد . وسيعيننا على ذلك ما تمليه فلسفة الدين والتاريخ من دروس ، وما نستمدده من علم الجمال من تماذج ومثُل .

وقد اضطلع ديورانت بهذا العبء ، وشاء أن يقيم فلسفة متماسكة للحياة . أو كما يسميها « أخلاقاً طبيعية » تحل محل الزواجر العلوية التي بطل أثرها في سلوك الناس . ولا أظنه يزعم أنه قدّم بهذا فلسفة جديدة ، أو مذهباً مبتكراً . وإنما أراد أن يعرض الآراء السابقة ليستخلص منها أمثلها . وهو في عرضه ظليق كل الطلاقة ، فلم يلتزم تسميات الفلاسفة التقليدية ، ولم يتقيد بأدلتهم المألوفة . وإنما عرض على النحو الذي بداله ، فجاء عرضه شيئاً جديداً ، يؤذن باطلاع واسع وإلمام تام بالفلسفة والتاريخ والعلم والأدب .

وإذا كنا نتفق معه على موطن الداء ، فإننا نتساءل إذا كان من اليسير أن يقدم له الدواء ؛ وإذا كنا نقدر البواعث التي دفعته إلى إقامة « فلسفة الحياة » ، فإننا لا ندرى إلى أي مدى وفق في تشييد صرحها .

ومهما يكن من شيء ففي كتاب « مباحج الفلسفة » جهد كبير ، وعرض شيق ، ودرس نافع . وسيجد فيه القارئ العربي لذة ومتاعاً عظيمين ، لا سيما وقد عرف معرّبيه كيف ينقله في صدق وأمانة ، ويترجمه في وضوح ودقة . والمعرب الكريم في غنى عن التعريف ، وإنتاجه متصل ، وآثاره تأليفاً وترجمةً يتداولها القراء دون انقطاع . وهو فوق هذا فيلسوف متخصص ، يعرف كيف يعالج النظريات والمصطلحات الفلسفية ، ويستطيع أن يتخير أكل السبل لنقلها إلى العربية .

ويحق لي بهذا كله أن أقول إن مؤسسة فرانكلين للنشر أحسنت كل الإحسان في تخيرها لهذا الكتاب ، وعرفت كيف تكل ترجمته إلى أيد أمينه ، فأضافت بذلك حلقة ثمينة إلى سلسلة نشاطها المتواصل ، وغذت المكتبة العربية بغذاء ممتع . وإذا كنا نقدم اليوم لترجمة الجزء الأول من كتاب « مباحج الفلسفة » ، فإننا نرجو ألا يمضي زمن طويل إلا وقد وُضِعَ جزؤه الثاني في أيدي الباحثين والقراء .

محتويات الكتاب الأول

صفحة

١	المشركون في هذا الكتاب
٥	مقدمه بقلم الدكتور ابراهيم مذكور
١	اعتراف
٣	دعوة

الجزء الأول مدخل

الفصل الأول : فتنة الفلسفة

١١	١ - تمهيد
١٣	٢ - أصحاب المعارف
١٦	٣ - اللاهوتيون
٢٠	٤ - العلماء
٢٥	٥ - ملحة العلوم

الجزء الثاني المنطق والابستمولوجيا

الفصل الثاني : ما الحقيقة ؟ (*)

٣٣	١ - الإحساس في مقابل العقل
٤١	٢ - المعرفة الغامض
٤٩	٣ - العقل في مقابل الغريزة

الجزء الثالث المتافيزيقا

الفصل الثالث : المادة والحياة والعقل (*)

٦١	١ - مقدمة لأدرية
٦٢	٢ - المادية
٦٦	٣ - المثالية

(*) الفصول المرقومة بنجمة فنية متخصصة .

صفحة

٦٨ ...	٤ - ما المادة ؟
٧٦	٥ - الحياة
٧٩	٦ - المادى يتكلم
٨٤	٧ - المثالى يرد
٨٦	٨ - التركيب

الفصل الرابع : هل الإنسان آلة ؟

٩١	١ - استعراض
٩٦	٢ - الميكانيكية ...
١٠٣	٣ - اُخْتِمِيَّة
١١١	٤ - عصر البيولوجيا (علم الحياة)

الجزء الرابع
مشكلات أخلاقية

الفصل الخامس : أخلاقنا المتغيرة

١١٧ ...	١ - نحية الأخلاق
١٢٠ ...	٢ - القانون الزراعى
١٢٤ ...	٣ - القانون الصناعى ...
١٢٩ ...	٤ - رجالنا المتحررون ...
١٣١	٥ - الأسرة
١٣٣ ...	٦ - الأسباب

الفصل السادس : الأخلاقية واللااخلاقية

١٣٩ ...	١ - الأخلاقية واللااخلاقية ...
١٤١	٢ - الأخلاق الطبيعية
١٤٧ ...	٣ - ميزان الأخلاق ...
١٥٢	٤ - الأخلاق الكبرى ...
١٥٤	٥ - الحياة الجنية والأخلاق ...

الفصل السابع : الحب

١٥٧ ...	١ - لماذا نحب ؟ ...
١٥٨	٢ - من الناحية البيولوجية
١٦٧	٣ - الأساس الفسيولوجى
١٧١ ...	٤ - النمو الروحى ...

الفصل الثامن : الرجال والنساء

١٧٩	...	١ - حرب الحرب
١٨١		٢ - اختلافات الخلق
١٩٠	...	٣ - الاختلافات العقلية ...
١٩٣		٤ - المرأة والعبقرية ...
١٩٦	...	٥ - هل الاختلافات موروثه

الفصل التاسع : المرأة الحديثة

١٩٩	...	١ - التغير الكبير ...
٢٠٢	...	٢ - الأسباب ...
٢٠٧	...	٣ - بناتنا ...
٢١٢	...	٤ - ربات بيوتنا

الفصل العاشر : انهيار الزواج

٢١٨		١ - تطور الزواج
٢٢٣	...	٢ - انحلال الزواج
٢٢٨		٣ - إعادة بناء الزواج
٢٣٦	...	٤ - في إنجاب الأطفال

الفصل الحادى عشر : فى الأطفال - اعتراف

٢٣٩	...	١ - نظرة شخصية
٢٤٠		٢ - فى الأمور الجسدية ...
٢٤٢		٣ - فى الأمور الأخلاقية
٢٤٩		٤ - فى الأمور الجنسية ...
٢٥١		٥ - فى الأمور العقلية ...

الفصل الثانى عشر : إعادة بناء الخلق

٢٥٨	...	- عناصر الخلق
٢٦٤		١ - الخلق السلبى
٢٦٦		٢ - صاحب الخلق الإيجابى
٢٦٩		٣ - بناء خلق جديد ...
٢٧٤		٤ - علاجات

الفصل الثالث عشر: ما الجمال؟

٢٨٣	١ - حاسة الجمال عند الفلاسفة
٢٨٦	٢ - حاسة الجمال عند الحيوان ...
٢٨٨	٣ - الجمال الأولى : الأشخاص
٢٩٢	٤ - الجمال الثانوي : الطبيعة ...
٢٩٦	٥ - الجمال الثالث : الفن
٣٠٠	٦ - الجمال الموضوعي

اعتراف

هذا الكتاب . على الرغم من عنوانه الجديد المرح ، طبعة منقحة من كتاب « قصور الفلسفة Mansions of Philosophy » الذي طبع عام ١٩٢٩ ، ونفدت طبعته منذ عشر سنوات ، وبهافت الطلب عليه إلى الحد الذي يغتفر معه إصدار طبعة جديدة . وفي الكتاب صفحات تدل على أن تأليفها كان منذ ربع قرن مضى ، وسوف يبتسم القارئ عند كثير من الأفكار التي تحويها . ومع ذلك فقد رأيت من الأسلم أن أكتب عن الماضي لا عن المستقبل . وهناك بعض صفحات تفيض بالعاطفة ، ولكنها لا تزال تعبر عن ذات نفسي أصداق تعبير ؛ و صفحات أخرى ساخرة أو متشائمة بغير حق . وبخاصة في الفصل الثامن عشر . وإذا كشفت أتي غير معصوم من الخطأ . فقد ينبغي اليوم أن أكون أشد رفقاً بالزملاء والحكومات . وإني لأعتقد أن في الكتاب - على الرغم من هذه الأخطاء - صفات تعين على النجاة . لهذا السبب أقيته مرة أخرى في بحر المداد حتى يلتبس من هنا ومن هناك صحبة الأرواح الموتلفة في دولة العقل .

ول ديورانت

نيويورك في ١٥ نوفمبر ١٩٥٢

دعوة

هذا الكتاب محاولة لإقامة فلسفة متماسكة في الحياة : فهو يسعى إلى أن يصنع بمشاكل الفلسفة ما حاول كتاب « قصة الفلسفة » أن يصنعه بالنسبة لشخصيات معظم الفلاسفة ومذاهبهم . أى أن يقربهم إلى الأفهام بالعبارة الصافية : وأن ينتقلهم إلى الحياة بالتطبيق الحديث . وسوف نسقط من هنا الكتاب قصص العباقرة ومأثور أقوالهم التي نخفت مني حمل ذلك الكتاب . ولعلنا نلتقي الجزء الحسن حين نقرب اقتراباً أليق بمشاكل حياتنا الخاصة في هذه الأيام : ذلك أن الموضوع الذي يعيننا هنا هو أنفسنا .

ونحن نلاحظ أن سلوك الإنسان واعتماداته تخضع اليوم لتغيرات أشد عمقاً وأعظم اضطراباً مما كانت عليه عندما نمت الثروة وظهرت الفلسفة فوضعتنا حياً للديانة الإغريق المتوارثة . فنحن الآن في عصر سقراط مرة ثانية : حياتنا الخلقية مهددة بالانهيار ، وحياتنا العقلية بتضاعف سيرها وتتسع آفاقها ، وذلك كله على حساب التقاليد والعتقادات القديمة . وكل شيء ، سواء في أفكارنا أو في أعمالنا ، جديد وتجريبي : ولم يعد هناك شيء مستقل أو مؤكد . وليس للتغير الحاصل في زماننا من جهة سرعته وتعقده وتعددته مثل في التاريخ حتى في أيام بركليس ، فقد تعدلت جميع أوضاع الحياة وصورها من حولنا ، ابتداء من الآلات التي تقلب الأرض رأساً على عقب ، والعجلات التي تدور وتضج بغير انقطاع حول الأرض ، إلى هذه التجديدات في علاقاتنا الجنسية ، والأوهام الكاذبة عن نفوسنا . وقد أدى الانتقال من الزراعة إلى الصناعة ، ومن القرية إلى المدينة ، ومن المدينة إلى الدولة ، إلى رفع شأن العلم ، والحط من منزلة الفن ، وتحرير الفكر ، وأقول أنجم الملكية والأرستقراطية ، ونشأة الديمقراطية والاشتراكية ، وتحرير المرأة ، وانحلال رابطة الزوجية ، وانهيار القوانين الأخلاقية الموروثة ، وبدلت بالزهد الترف ، وأحلت النزعة الأبيقورية محل نزعة التزم ، وعظمت

الحياة المثيرة على الهدوء والرضا ، وحدت من كثرة الحروب ولكنها أصبحت أعظم رعباً ، واقتلعت من أنفسنا كثيراً من أعز معتقداتنا الدينية ، وقدمت لنا في مقابل ذلك فلسفة في الحياة ميكانيكية وجبرية . فجميع الأشياء تجري كما يتدفق الماء في النهر ، وليست لنا حيلة في التماس برٍّ أو مستقر .

ويظهر في كل حضارة نامية عصر يتضح فيه أن الطبايع والعادات القديمة لا تتناسب مع المؤثرات التي تغيرت ، وعندئذ تهوى النظم والأخلاق العتيقة حين تدفقها مطرقة الحياة السائرة في طريق النمو ، فتتهشم تحتها كما تهشم القوقعة من الصدف . فقد انهارت أنواع النظم القائمة على الاستجابات التلقائية والطبيعية في مجال إثر آخر ، بعد أن هجرنا المزرعة والبيت إلى المصنع والمديوان والعالم ، ولا يزال العقل مضطرباً في إجراء تجارب ترشده عن وعى إلى طرق جديدة بدلا من سلوك أجدادنا الطبيعي البسيط وأساليبهم القديمة . فينبغي أن نفكر اليوم في كل شيء ، ابتداء من « التركيب » الصناعي الذي نغذى به أطفالنا ، و « السعر الحراري » و « الفيتامينات » التي يعقدها لنا علماء التغذية ، إلى الجهود المدهشة التي تبذلها الحكومات المعاصرة لتوجيه طرق التجارة التي تجري اعتباراً وتنسيقاً . لقد أصبح مثلنا الآن مثل ذلك الذي لا يستطيع أن يمشى دون أن يفكر في ساقبه ، أو لاعب الكرة الذي يجب أن يحلل كل حركة وكل ضربة وهو يلعب . لقد ذهبت عنا تلك الوحدة السعيدة المستمدة من الغريزة ، وأصبحنا نتخبط في بحر من التفكير والشك . فنحن في غمار المعرفة الجديدة والقوة الطارئة في شك من أغراضنا وقيمنا وأهدافنا .

والمهرب الوحيد الجدير بالعقل الناضج من هذا الاضطراب هو أن نرتفع عن النظر إلى الشوارد والأجزاء كي نتأمل الكل ، لأن ما فقدناه قبل كل شيء هو هذه النظرة الكلية . وتبدو الحياة من التعقيد والتحرك بحيث يصعب علينا إدراك وحدتها ومفهومها . إننا نفقد صفة المواطن فلا نصبح سوى مجرد أفراد ، وليس لنا غايات تذهب أبعد من لحظة موتنا ، فنحن بضعة من الناس ولا شيء سوى ذلك . ولا تجد اليوم أحداً يجسر على وصف الحياة في كليتها . والحل سريع والتركيب بطيء . ونحن نحشى الاخصائيين في كل ميدان ، فنقصر أنفسنا طلباً

للسلامة في حدود اختصاصنا . وكلُّنا منا يعرف دوره ، ولكنه مجهل معناه بالنسبة إلى الرواية . بل الحياة نفسها تنمو خالية من المعنى ، حتى إذا بدت أكمل ما تكون أصبحت فارغة .

فلنخلع عنا خوفنا من الأخطاء التي لا يمكن تجنبها ، ولنعالج جميع مشكلات أحوالنا محاولين رؤية كل جزء وكل معضلة في ضوء المجموع . من أجل ذلك سوف نعرف الفلسفة على أنها النظرة الكلية ، والعقل الذي يَبَسِّطُ الحياة ويحيل الاضطراب إلى وحدة . ولما كانت الفلسفة في نظرنا ليست لعباً ملبساً بالتصورات الميتة البعيدة عن اهتمام المجتمع والإنسان ، فسوف تشتمل في هذا الكتاب على جميع المسائل التي تؤثر تأثيراً حيوياً في قيمة الحياة الإنسانية ومعناها ، بصرف النظر عن مقدماتها التاريخية مهما تكن يسيرة . ولن نقف عند المنطق إلا ريثما ننفض أيدينا منه ؛ أما نظرية المعرفة فسنمر بها مر الكرام لنتبين حدود العقل البشري . إذ لن نجد مثل هذه النظم المفروضة إلا مكاناً متواضعاً هو الذي تحتاج إليه في قصور الفلسفة . ثم نقفز بعد ذلك إلى اللب الميتافيزيقي للأشياء فنأمل المذهب المادي ونرى رأينا فيه ، أياكون الفكر وظيفته للمادة ، أم أن الاختيار خداع آلة حية سريعة الزوال . ومن هذه الزاوية نرتاد عالم الأخلاق ، ونبحث في طبيعة الحياة الفاضلة ، فنتمسك بأسباب أخلاقنا المتغيرة وما يترتب عليها من نتائج ، وننظر في زواجنا المنحل ، وروابط حبنا المتراخية ، وناقش أمر المرأة الحديثة التي فقدت دلالتها وتخلت عن شهوتها للانتقام ؛ ونقابل بين زينون وأبيقور باحثين عن مواطن السعادة ، ثم نشق الطريق الذي يجمع بين الهداية في التربية وإعادة بناء الأخلاق . وسوف نقف عند علم الجمال لحظة لننظر معنى الجمال ومطامع الفن . وسوف نتأمل التاريخ ونبحث عن دروسه وقوانينه ، ونسأل عن صفة التقدم ، ونزن مصير حضارتنا . فإذا استهوتنا الفلسفة السياسية رأينا أنفسنا مسوقين كما كنا نفعل في حماسة الشباب إلى مناقشة مشكلات الفوضوية والشيوعية والاشتراكية والتقليدية والديمقراطية والأرستقراطية والدكتاتورية . أما فلسفة الدين فسوف تعود بنا إلى تلك المباحث القديمة عن الخلود والله ، ثم نحاول أن ننظر إلى ماضي المسيحية ومستقبلها من خلال تاريخ الدين العام . وأخيراً سوف

نضع المتشائم والمتفائل في صعيد واحد مفاضلين بين نعيم الحياة الإنسانية وآلامها ،
ثم ننظر نظرة كلية محاولين استخلاص قيمة حياتنا ومعناها . إنها جولة في
اللانهاية (١) .

ولعل القارئ المحب يسأل : أهنالك فائدة من كل هذه الفلسفة ؟ إنه سؤال
مخجل ؛ فنحن لانسأل هذا السؤال عن الشعر الذي يعد نأليفاً خيالياً لعالم ليس
معروفاً معرفة كاملة . وإذا كان الشعر يكشف لنا عن الجمال الذي تحضنه أعيننا
الغريزة ، وكانت الفلسفة تبين الحكمة التي بها نفهم ونعفر ، فلنا في الفلسفة غناء ،
بل أكثر مما في العالم من ثراء . ولن تجسم الفلسفة أهدافنا أو ترفعنا إلى منازل
شاهقة في دولة ديمقراطية ، بل إنها على العكس قد تجعلنا نهمل هذه الأمور
بعض الشيء . إذ ماذا يهمنا أن نضخم أهدافنا ونرتفع إلى منزلة عالية ثم نظل
مع ذلك في سداجة جاهلة : لم نزود عقولنا بالمعرفة ، ولم نهذب سلوكنا الوحشي ،
ولم نستقر في أخلاقنا ، ولم ننتظم في رغباتنا ، ونظل في تعاسة عمياء ؟

وإذا كان النضج يتم في الكل ، فلعل الفلسفة ، يمكن إذا أخلصنا لها ، أن
تهبنا سلامة وحدة النفس ؛ ذلك أن تفكيرنا في غاية التهويش والتناقض ، فلعلنا نجلو
أنفسنا ، ونجمع قوانا إلى التماسك ، ونخجل أن ننتهي إلى رغبات أو اعتقادات
متعارضة . وقد نخرج من هذه الوحدة في العقل إلى وحدة الهدف والخلق ، تلك
الوحدة المكونة للشخصية ، والتي تخلع على حياتنا بعض النظام والكرامة . والفلسفة
هي المعرفة الموثلفة التي تؤدي إلى حياة موثلفة . إنها تنظيم النفس الذي يرفعنا
إلى الصفاء والحرية . والمعرفة قوة ، وإمكن الحكمة وحدها هي الحرية .

وثقافتنا اليوم سطحية ، ومعرفتنا خطيرة ، لأننا أغنياء في الآلات فقراء
في الأغراض . وقد ذهب اتزان العقل الذي نشأ ذات يوم من حرارة الإيمان
الديني ، وانتزع العلم منا الأسس المتعالية لأخلاقنا ، ويبس العالم كله مستغرقاً
في فردية مضطربة تعكس تجزؤ خلقنا المضطرب . إننا نواجه مرة أخرى تلك

(١) يقتضى الترتيب المنطقي لسوء الحظ البدء بأصعب المواد أولاً . ويحسن بالقراء الذين
أقبلوا على الفلسفة حديثاً أن يبدأوا بالفصل الخامس ، مرجئين الفصول من الأول إلى الرابع
بعد ذلك .

المشكلة التي أقلقني بالسقراط ، نعتي : كيف نهتدي إلى أخلاق طبيعية تحل محل الزواج العلوية التي بطل أثرها في سلوك الناس ؟ إننا نبدد تراثنا الاجتماعي بهذا الفساد المماجن من جهة ، وبهذا الجنون الثوري من جهة أخرى ، حين نفقد الفلسفة التي بناونها نفقد هذه النظرة الكلية التي توحد الأغراض ، وترتب سلم الرغبات . إننا نهجر في لحظة مثاليتنا السلمية ونلقى بأنفسنا في هذا الانتحار الجماعي للحرب . وعندنا مائة ألف سياسي وليس عندنا « رجل حكمكم » واحد . إننا نطوف حول الأرض بسرعة لم يسبق لها مثيل ، ولكننا لا نعرف إلى أين نذهب ولم نفكر في ذلك ، أو هل نجد هناك السعادة الشافية لأنفسنا المضطربة . إننا نهلك أنفسنا بمعرفتنا التي أسكرتنا بخمر القوة ، ونحن ننجو منها بغير الحكمة .

ول ديورانت

الجزء الأول

مدخل

الفصل الأول

فتنة الفلسفة

١ - تمهيد

لماذا لم تعد الفلسفة اليوم محبوبة ؟ ولماذا اقتسم أبناؤها - أى العلوم - ميراثها ، وألقوا بها خارج الدار ، كأنها الملك لير Lear ، فى عقوق أشد قسوة من رياح الشتاء ؟

كان أقوى الرجال فى قديم الزمان على استعداد أن يبذلوا أرواحهم فى سبيلها . فقد أثر سترواط أن يكون شهيداً لها من أن يعيش مولياً الأديار أمام أعدائها ؛ ونخاطر أفلاطون بنفسه مرتين ليفوز بمملكة لها ؛ وعشقها مرقص أوريليوس أكثر من عرشه ؛ وحرِّق برونو حياً ولاءً لها . وكانت الفلسفة يوماً ما مصدر خوف للعروش والبابوات فألقوا المؤمنين بها فى السجن حتى لا تسقط الأسر الحاكمة . ونفت أثينا بروتاجوراس . وارتعشت الإسكندرية أمام هيبتايا . وخطب أحد البابوات العظام ود إرازمس خوفاً منه . وطارد الحكام والملوك فولتير من بلادهم ، ثم أكلت الغيرة نفوسهم عندما انحنى العالم المتحضر فى النهاية أمام عظمة قلمه . ومنح ديونيسوس وابنه أفلاطون حكم سراقوسة . وجعلت معونة الإسكندر الملكية من أرسطو أعلم رجال فى التاريخ . وكاد الملك التلميذ أن يرفع فرانسيس بيكون إلى زعامة إنجلترا وجماه من أعدائه . وناز فرديريك الأكبر فى منتصف الليل ، بعد نوم قياده العظام ، الشعراء والفلاسفة ، حاسداً إياهم على اتساع ممالكهم غير المحدودة ونفوذهم الخالد .

كانت تلك الأيام عصر عظمة للفلسفة ، حين طوت فى شجاعة كل معرفة تحت جناحها . وتقدمت فى كل مكان صفوف التقدم العقلى . كان الناس يمجّدونها فى ذلك الزمان ، إذ لم يكن شىء يعد أشرف من محبة الحق . ووضع الإسكندر ديوجينيس فى أول منزلة بعده هو فقط ، وأمر ديوجينيس الإسكندر

أن ينتحى جانباً حتى لا يحجب جسمه الملكى الشمس . واستمع الحكام والمفكرون والفنانون في سرور إلى أسبانيا ، وحج عشرة آلاف من الطلبة إلى باريس ليأخذوا العلم على أبيلارد . لم تكن الفلسفة حينذاك العانس ذات الحياء التى تحبس نفسها داخل الأبراج بعيدة عن أعمال الدنيا . لم تحش عيون الفلسفة الصافية ضوء النهار . بل أقدمت على العيش في خطر . ورحلت بعيداً إلى بحار مجهولة . أكانت تقنع أبداً في تلك الأعوام التى تقربت فيها من الملوك أن تحدد نفسها في هذه الخلود الضيقة التى تقيدها اليوم ؟ لقد كانت يوماً من الأيام ضوءاً متعدد الألوان يملأ أغوار الأنفس حرارة ونوراً . ولكنها الآن تابع مظلم يدور في فلك العلوم والمذاهب المدرسية . لقد أتى عليها حين من الدهر كانت أعظم عروس في سائر العالم العقلي . وشمخت على خدامها السعداء . أما الآن وقد تجردت من جماها وسلطانها فإنها تقف منعزلة بائسة لا يبجلها أحد (١) .

ليست الفلسفة محبوبه اليوم لأنها فقدت روح المغامرة . ذلك أن ظهور العلوم المفاجيء استلب منها واحداً بعد الآخر عواملها القديمة الشاسعة : فأصبحت « الكوسمولوجيا » علم الفلك والجيولوجيا ، و « الفلسفة الطبيعية » علم الحياة والطبيعة ، وتحولت « فلسفة العقل » في هذه الأيام إلى علم النفس . لقد هربت منها جميع المشكلات الواقعية والبارزة ، ولم تعد تعنى ببحث طبيعة المادة وسر الحياة والنمو ، أما « الإرادة » التى دافعت عن « حريتها » في مئات من المعارك الفكرية فقد تهشمت في عجلة الحياة الحديثة الآلية ، والدولة التى كانت مشكلاتها ذات يوم من اختصاصها فهى ميدان سعيد لنفوس صغيرة وقل أن تطلب شرف نصائح الفلسفة . ولم يبق لها إلا قمم الميتافيزيقا الباردة ، والغاز الإبستمولوجيا (نظرية المعرفة) الصببانية ، ونزاع أكاديمي حول أخلاق فقدت كل أثرها على الإنسانية . بل حتى هذه النفايات سوف تنتزع منها ، حين تنشأ علوم جديدة تغزو هذه الميادين بالبوصله والمجهر والمسطرة . ولعل العالم ينسى أن الفلسفة كانت موجودة ، وأنها حركت القلوب وأرشدت العقول .

(١) يجب أن ننوه ببعض الاستثناءات ، فقد جلب برجسون الباب المستعين بفصاحته ، وكان لبرتراندرسل شرف إخافة إحدى الحكومات .

٢ - أصحاب المعارف Epistemologists

والفلسفة على النحو الذى دونت به خلال مائتى العام الأخيرة قد تكون جديرة بهذه الاستهانة وهذا الإغفال . كيف أصبحت الفلسفة بعد موت بيكون وسبينوزا ؛ أصبحت فى الشطر الأعظم منها إيستمولوجيا (١) . (نظرية المعرفة) ، وهى التى كان يبحثها علماء الكلام فى العصر المدرسى . إنها المعرفة الفنية والمستورة Esoteric ، إنها النزاع الغامض وغير المفهوم حول وجود العالم الخارجى . لقد انصرف ذلك العقل الذى كان يمكن أن يصنع الملوك الفلاسفة إلى تعمق البحث فى تحليل الأدلة التى تؤيد أو تنفى إمكان وجود النجوم والمحيطات والبكتريا والبحيرة فى حالة عدم إدراكها . وقد استمرت هذه المعركة التى تشبه المعركة بين الضفادع والفيران مائتين وخمسين عاماً دون أن تخرج بشرة لها قيمة فى الفلسفة أو الحياة ، وبفائدة لأى شخص اللهم إلا فائدة طابع الكتب .

ويرجع بعض اللوم فى هذا كله إلى عبارة ديكارت البسيطة التى تكاد تبلغ حد السذاجة : « أنا أفكر ، إذن أنا موجود » . ذلك أن ديكارت كان يأمل فى أن يبدأ فلسفته بأقل ما يمكن من الافتراضات ، فامتحن « بالشك المنهجي » جميع اعتقادات الناس ، بل بديهياتهم ، وحاول أن يبنى مذهباً متمسكاً للمعرفة من هذه المقدمة الوحيدة : « أنا أفكر ، إذن أنا موجود » . وقد كان من الخطر العظيم أن نجعل الوجود معتمداً هذا الاعتماد على الفكر ؛ وأجمعت العقول على أن هذا الأساس يجعل الوجود امتيازاً أرستقراطياً ، وقد يذهب الزهاد بفضل سلطان ذلك الأساس إلى حرمان جنس بأكمله ، لا من النفس فقط (كما أراد أن يفعل ذلك فايننجر Weininger) بل من الحقيقة .

(١) Epistemology هى نظرية المعرفة ، Theory of Knowledge ، والاصطلاح من اللفظة اليونانية Episteme أى العلم . ولم يكن القدماء من فلاسفة العرب يتعملون لفظة « المعرفة » بل « العلم » ، ولكننا آثرنا استعمال المعرفة دون العلم لأن اللفظة الأخيرة أصبحت تطلق فى مقابل Science . ونظرية المعرفة تبحث فى العقل البشرى ومبادئه ومناهجه لا من الناحية البيكولوجية بل من الناحية الميتافيزيقية .. ومن أمثلة هذه المباحث هل المعرفة فطرية أو مكتوبة . (المترجم) .

أما الخسارة الكبيرة فقد أصابت الفلسفة ، إذ أن بناء تصور للعالم على هذه الحقيقة وهي أن شخصاً واحداً يفكر ، جدير بأن يخلق مثل هذه الشبكة من الصعوبات التي ظل أصحاب المعارف عشرة أجيال يجتهدون في حلها بغير نتيجة . وأول كل شيء هنا « أنا » في عبارة ديكارت مما كانوا يتصورونه « نفسا Soul » روحية لا مادية . ثم إن الجسم ، فيما نفترض ، لا يمكن أن يتحرك إلا حين يتصل بغيره من الأجسام ؛ كيف إذن يمكن أن يؤثر هذا الروح اللاجسماني في جزيئات المخ المادية ؟ ونشأت عن هذا المأزق الطريف عجائب مذاهب المادية والمثالية والتوازي النفسى . واحتج صاحب مذهب التوازي بأن العقل والمخ مختلفان اختلافاً كبيراً ، وأن أحدهما لا يمكن أن يؤثر في الآخر ، وأن سلسلتى الأحداث المادية والعقلية ، الخفية والفكرية ، يجب أن تكونا مفترقتين متسيرتين بغير أن تؤثر إحداهما في الأخرى . بل هما متوازيتان بشكل عجيب . واحتج المادى بأن « العقل » ما دام يؤثر أثراً لا يذكره أحد في الجسم ، فينبغى أن يكون شبيهاً بمادة الجسم ، فالعقل جسماني ومادى كالمرارة التي تفرز الصفراء . واحتج المثالى بأنه ما دامت الحقيقة الوحيدة التي يمكن أن نثق بها هي تلك التي ابتداء ديكارت منها – حقيقة الفكر – فجميع أنواع الوجود الأخرى ليست حقيقية بالنسبة إلينا إلا باعتبار أنها ملركة بحواسنا ومبينة بعقولنا ؛ فالجسم مُدْرَك حسي ، والمادة ليست إلا حزمة من الأفكار .

ونشأت بذلك حرب بهيجة ؛ ولم تبق اليوم إلا الحرب فقط وذهبت البهجة . وقد يظهر بين حين وآخر فيلسوف من أصحاب المعرفة تشرق البسمة على كتاباته مثل برادلى ووليم جيمس . وقد يظهر في بعض الأحيان من يفهم أن « مذهبه » ليس إلا لعبة ، فهو يلعبها بغمزة عينه مثل دافيد هيوم . أما سائر الباقين فقد بلغت رزائهم حد الموت ، وأطال الفلاسفة – من جون لوك حتى رودلف إيكن Eucken – وجوههم ، وزادت مع كل جيل طولا ، حتى تستقيم مع مذاهبهم الكئيبة . وأعلن الأسقف بركللى أنه لا شيء يوجد إلا حين يدركه الإنسان أو الله . ولم يتسم الأسقف بقدر ما نعرف ، ولو أننا نشك في أمر هذا الإيرلندى الماهر .

أما أنه لا شيء يوجد في « أي عقل » بل في « هنا » العقل الذي يدرك ، فلا ريب أنها حقيقة تبلغ مبلغ السذاجة والسخف واللغو . ولكن ما أبعد العالم عن هذه العبارة التي تلتبس غالباً بها ، وهي أنه لا شيء يوجد إلا إذا كان مدركاً . وقد كان ذلك اللبس لازماً وثميناً لأوثك الفلاسفة الذين ارتجفوا من المادية الخشنة ، مادية هولباخ ، ومولسكوت ، وبونخر . ونقد كان بركلي بارعاً حين تخلص من كل مادية بضربة واحدة في الصميم بإثبات أن المادة لا توجد ؛ لقد كان عمله بناء شاهقاً فريداً في باب من الشعوذة المنطقية ، وينبها بحق إلى أن الذين يدرسون الفلسفة يجب أن يفتحوا أعينهم على الفيلسوف . ولكن غشه كان بسيطاً ، وكان ينبغي على الأسقف أن يتردد إزاء هذا الغش التقي . ومن أقوال أناتول فرانس : « إن ما يميز الإنسان عن الحيوان هو الكذب والأدب » (١) والآن كم من هذه الإيستولوجيا المثالية ينخرج تحت باب الأدب ؟

ليس معنى ذلك أنه لا توجد مشكلات في نظرية المعرفة . ويعلم الله أن فيها مشكلات كثيرة مما تسنح لنا الفرصة لبيانها . ولكن هذه الأحاجي الخاصة بالعلاقة بين الذات والموضوع ، والطريقة التي يعرف بها العارف المعروف ، والعناصر الموضوعية والذاتية في المعرفة ، وموضوعية المكان والزمان ، والصفات التي نخضعها على الأشياء إلى أي حد تتعلق بالأشياء وإلى أي حد تتعلق بالعقل الذي يدركها - وهذه كلها بجميع تفصيلاتها أحاجي لعلم النفس ، وميادين للملاحظة والتجربة المتكررتين المضبوطتين ، ولم تعد مشكلات خاصة بالفلسفة ، كما خرجت عن نطاقها أسرار التحول الكيماي Metabolism أو كيمياء قطعة مشوية من اللحم ، وكل مشكلة تتعلق بالفلسفة كهذه المشكلة التي لا تتعلق بها إلا من جهة اتصالها بسائر غيرها . ومن الحطة أن يغتصب ممثل واحد في هذه الدراما الكبيرة للأفكار جميع الأدوار ، وأن يلتقي وحده جميع العبارات في تمثيلية الفكر الفلسفي الحديث .

(١) Brousson, J. J. Anatole France en Pantoufles. p. 134

٣ - اللاهوتيون Theologians (١)

ويكاد يشبه ما سبق سوءاً الزعم بأن وظيفة الفلسفة القيامُ بدور الناقد للمنهج العلمي . وهنا أيضاً نجد الرغبة تتسلسل لتحتضن الفكر ؛ ذلك أن الأساتذة المدافعين عن اللاهوت حين عجزوا عن بيان لا حقيقة Unreality المادة اتجهوا إلى إظهار اللائقة بالعلم . وما ذهب إليه ماخ Mach ؛ وبيرسون Pearson . وبوانكاريه Poincaré - من أن نتائج العلم ليست إلا صيغاً « مختصرة » لـ « عادات » عن طبيعة لا يمكن أن تلاحظ ملاحظة كاملة أبداً ، وأن هذه النتائج قد تُنقض وتُستبعد عقب ملاحظاتٍ أوسع - قد تلقفها قوم للدفاع عن علم اللاهوت . فها هنا فرصة ذهبية لبيان نقص العقل ووقوعه في الخطأ . وأن العلم لا يقدم لنا اليقين بل الاحتمال فقط ، وبناء على ذلك يمكن أن تستخرج جميع العقائد العزيزة علينا في طفولتنا من المتحرف ، ثم تكسى بثياب جديدة من عبارات غير مفهومة ، وتباع للجيل القادم على أنها بضاعة لم يصبها إلا تلف يسير . وهب قوم من كل مكان يفحصون في جرد بديهيات الرياضيات ، ومفاهيم المكان والزمان ، والعدد والقياس ، والكم والكيف ، وانتهوا بعد النظر إلى التعاليم القديمة Abracadara (٢) إلى وجود مهدي منتظراً ، أو سائناً كلوز .

فلا غرابة بعد هذا الخداع المغيب أن ينبذ فضلاء الناس الفلاسفة . إذ ما جدوى كل هذا المنطق إذا لم تكن أقيسته إلا ستاراً غير أمين يخفي وراءه آمالنا الخفية ؟ وفي ذلك يقول برادلي Bradley : « الميتافيزيقا هي الكشف عن أسباب باطلة لما نعتقد بالغريزة ، ولكن الوقوع على هذه الأسباب غريزة كذلك (٣) » . وقد تكون الميتافيزيقا في بعض الأحيان هي إيجاد أسباب باطلة لما نود أن نعتقد الآخرون . وكان فولتير أميناً حقاً حين قال إنه يرغب أن يؤمن طاهيه ونخادتمته

(١) يسمى هذا العلم ثيولوجي Theology ، أو العلم الإلهي ، نسبة إلى ثيوس باليونانية أي إله ، ودرج الاصطلاح عند الفلسفة المسيحية على أن يقال علم اللاهوت ، وهو عند المسلمين علم الكلام . (المترجم) .

(٢) كلمة دينية تكتب في عدة أسطر يقل كل سطر منها بحرف حتى تبلغ حرف الألف ، ويتكون من الكلمة شكل مثلث الألف رأسه ، وكانوا يلبسونها تعويذة من المرض (المترجم) .

(٣) Appearance and Reality, p. XIV

بالمعتقدات التقليدية لزمانها ومكانها ، وقد ظن أن هذا يقلل بعض الشيء فرصة سلب مجوهراته أو تسميم طعامه . وقال لوتز Lotze : إن النظرية الفلسفية محاولة لتسوية نظرية أساسية عن الأشياء سبق اعتناقها في فجر الحياة^(١) . وكتب نيتشه الأمين يقول : « إن جميع الفلاسفة يزعمون أن آراءهم الواقعية قد كُشِفَتْ بطريق جدل ينشأ في داخل أنفسهم ، وهو جدل إلهي ، نقي ، جامد ، لا صلة له بهم... على حين يدل الواقع على أن فكرة متحيزة أو قضية أو اقتراحاً هي على العموم رغبة قلوبهم قد تجردت وتهذبت ، ثم أخذوا يدافعون عنها بالأدلة التي يجتهدون في الحصول عليها بعد نشأة الفكرة »^(٢) .

ولعلنا نجد هنا رموز الأخطاء التي تشوه الفلسفة : فهي تسيء إلى الحقيقة في الوقت الذي تبحث عنها ، وتصبح المدافعة عن عقيدة مؤقتة ، وتقتصر مع الأسف عن ذلك الضمير العقلي ، وذلك الاحترام الصابر لطلب الوضوح ، وذلك الانتباه العسير إلى الأحوال السلبية ، مما يتميز به عالم مثل همبولد Humboldt أو دارون ، أو فيلسوف « أدبي » غير محترف مثل ليوناردو أو جيته . ولما كان المدرسيون Scholastics الذين يُنظَّمون خطأً في سلك الفلاسفة ، لاهوتيين في ابتداء أمرهم ، فقد أحدثوا بدعة إخضاع البحث عن الحقيقة لنشر الإيمان . وكانت أعظم تأليفهم الجوامع Summas عبارة عن كتب صفراء رسمية تصدر عن مكتب الدعاية في الفاتيكان لحرب الزندقة . وكانوا يقولون بصراحة إن الفلسفة تمهيد للاهوت «Philosophia ancilla theologiae» فالفلسفة خادمة اللاهوت . ومع أن آباء الفلسفة الحديثة العظام – بيكون وديكارت وسبينوزا – قد احتجوا على هذه الخطيئة الفلسفية ، فقد سلم أحفادهم في هذا العصر إلى حد كبير بالتقاليد القديمة .

وأخذت أخطاء الفلسفة الأخرى تنمو من هذه الصبغة اللاهوتية كما يتزايد بشكل غامض نمو العلة الناشئة عن مرض موروث . وإذا لم يكن غموض الفلسفة راجعاً إلى نقص صانعها ، فما الشيء الآخر الذي يعزى هذا الغموض إليه ؟ ولا ريب أن بعض الظلمة التي تغشى الفكر الحديث ترجع إلى خداع الحقيقة ، ووعورة الاعتبارات الكونية ؛ على أن الغموض إذا كان من هذا الضرب وحده فلا ينبغي أن يقف حجر عثرة في سبيل اهتمام الإنسان ، فهذا شللي Shelley

(١) In Muirhead, Contemporary British Philosophy, p. 15.

(٢) Beyond Good and Evil, L, § 5.

غامض ، ولكن من منا لا يمجده على الأقل بقلبه ؟ . والمرأة غامضة ، ولكن أى رجل لا يفتنه هذا الجانب من النقص فيشغل نفسه على الدوام بالنفاذ إلى لب ذلك الغموض وحل ذلك اللغز ؟ كلا . . . في الفلسفة الحديثة غموض آخر يختلف اختلافاً بيناً . عندما يغازل الرجل يكون فهمه للغزل أكثر صعوبة منه حين يحكى حقيقته . إذ لكل واقعة أكثر من تصور ممكن . والبرع وحده هو الذى يستطيع أن يجعل باطله متماسكاً كالحق . ولكن البارعين في التزييف لا يصبحون فلاسفة . لأن السلك السياسى فى أمس الحاجة إليهم ، وتبقى الفلسفة الإغية فى أيدي روائيين من طبقة دنيا تنحل عقدهم الروائية عند أول اتصال بهذا العالم الخي .

وجملة القول إن هذا الكذب الأول هو الذى يولد المذهب الفكرى -Intellect-ualism العقيم السائد فى النظر الحاضر . ومن لا يثق فى وحدة عقله يتجنب المشكلات الحيوية للمعيشة الإنسانية : إذ فى أى لحظة قد يكشف معمل الحياة الكبير عن أكنوبته الصغيرة ، ويتركه عارياً يرتعش فى وجه الحقيقة . ومن أجل ذلك يبنى لنفسه برجاً عاجياً من المؤلفات المستورة والمجلات الفلسفية الفنية ، التى لا يجد الراحة إلا فى صحبتها ؛ بل إنه ليخشى واقعية منزله المثيرة . إنه يهيم بعيداً ، وبعيداً جداً عن زمانه ومكانه ، وعن المشكلات التى يستغرق فيها أهل وطنه وعصره . ولا تعنيه بل تفرغه الأمور التى تتصل حقاً بالفلسفة ، ولا يحس بأى هوى يدفعه إلى ربط بعض الأشياء ببعضها الآخر ، ولا إلى وضع شىء من النظام والوحدة فى فوضى عصره الكثيرة . ولكنه ينزوى خائفاً فى ركن صغير ، ويعزل نفسه عن العالم بطبقة فوق طبقة من الاصطلاحات الفنية ، وعندئذ يبطل أن يكون فيلسوفاً ويصبح من أصحاب المعارف Epistemologist

ولم يكن الأمر على هذا النحو فى اليونان ، حيث كان الفلاسفة أقل اصطلاحاً بالتدريس وأكثر اشتغالا بالتفكير . ولقد حوّم بارمنيداس بتفكيره حول لغز المعرفة ، ولكن الفلاسفة السابقين على سقراط ظلت أعينهم مفتوحة بمنطق معتدل على الأرض الثابتة ، وآثروا الكشف عن أسرارها بالملاحظة والتجربة على توضيحها بالجدل ، فلم يكن بين الإغريق من ينطوى على نفسه إلا القليل .

ولنتأمل صورة ديمقريطس ذلك الفيلسوف الضاحك ، ألا يكون رقيقاً ذا خطر لأولئك المدرسين الجاهلين الذين حولوا النزاع حول واقعية العالم الخارجي إلى مقالات ذاعت في العصر الوسيط عن عدد الزوايا التي يمكن أن تستقر فوق رأس إبرة ؟ ولنتحضر صورة طاليس الذي تحدى باحتكار السوق الذين قالوا إن الفلاسفة قوم بُلُه ، فحقق ثروة كبيرة في عام واحد . ولننظر إلى صورة أنكساجوراس الذي صنع للإغريق ما صنعه دارون ، فأحال بركليس من سياسي عملي إلى مفكر ورجل دولة . ولنتعرض صورة سقراط الذي لم يرهب الشمس أو النجوم ، وأفسد في مرج الشباب ، وقلب الحكومات . ترى ماذا يمكن أن نعمل بهؤلاء المتفلسفة المشوهين العقيمين الذين يتسكعون الآن بأبواب تلك المملكة التي كانت عظيمة في قديم الزمان ؟ لم تكن نظرية المعرفة عند أفلاطون وعند أولئك الأبطال من السابقين عليه ، إلا مدخلاً للفلسفة شبيهاً بالغزل الذي يسبق الحب ، فقد يستمتع المرء بنظرية المعرفة ساعة ، ولكنها لا تكفي في إطفاء جوى محب الحكمة . ونحن نجد أفلاطون بين حين وآخر يغازل في محاوراته القصيرة مشكلات الإدراك الحسي ، والتفكير ، والمعرفة ، ولكنه كان يمد بصره في تأليفه الكبرى فوق ميادين أكثر سعة ، غبى لنفسه مدناً فاضلة ، وأخذ يتفكر في طبيعة الإنسان ومصيره . وأخيراً شرفت الفلسفة عند أرسطو في سائر ميادينها غير المحدودة وعظمتها اللانهائية ، فقد كشف جميع قصورها وجعلها بالنظام ، ووضع كل مشكلة في مكانها ، فقدم كل علم فروض الطاعة للحكمة . لقد عرف أولئك القوم أن وظيفة الفلسفة ليست أن تئد نفسها في ظلمات الإبيستيمولوجيا ، بل أن تفتح بشجاعة كل ميدان للبحث ، وأن تلم بأطراف كل معرفة حتى تنسق الأخلاق الإنسانية ، والحياة البشرية ، وتلقى الضوء عليها . لقد فهموا أن ميدان الفلسفة ليس لغزاً صغيراً يختفي وراء السحب ، ويخلو من الاهتمام أو التأثير في أمور الناس ، ولكن ميدانها هو المشكلة الشاسعة الشاملة لمعنى الإنسان وقيمه وإمكانياته في هذا العالم اللانهائي المتدفق .

٤ - العلماء

وإذ كان هذا كله يصور لنا ما ليس للفلسفة . أو ما لا ينبغي أن يكون لها ، فقد بقي لنا أن نقول ما الفلسفة ؟ أو ماذا يمكن مثالياً أن تصبح ؟ أو يمكن أن نعيد مذكرة العلوم إلى مبادئها وقوتها السابقين ؟ أو يمكن أن نتصور الفلسفة مرة أخرى على أنها المعرفة الموحدة والموحدة للحياة ؟ أو نستطيع أن نضع تخطيطاً لنوع من الفلسفة قد يجعل عشاقها قادرين أولاً على حكم أنفسهم ثم الدولة . أو تلك الجديرون حقاً بأن يكونوا ملوكاً فلاسفة ؟ (١)

والفلسفة في الاصطلاح الفني ، كما عرفناها منذ زمن طويل . هي : « دراسة التجربة ككل ، أو دراسة شطر من التجربة في علاقته بالكل (٢) . ويتضح في الحال أن أي مشكلة يمكن أن تكون مادة للفلسفة بشرط أن تدرس من زاوية شاملة في ضوء سائر التجارب والرغبات الإنسانية . ذلك أن طابع العقل الفلسفي ليس في دقة النظر بمقدار سعة النظرة ووحدة الفكر . يجب أن نستبدل الأنواع الكلية بالأنواع الأزلية *Sub specie totius Sub specie eternitatis* التي ذهب إليها اسبينوزا . الواقع كلتا النظرتين تركزان على النتيجة نفسها كما تلتقي العينان على الشيء المرئي ؛ غير أنه إذا كان في استطاعة الإنسان أن يجمع تجاربه في كل منظم نسبياً ، فإن رؤية الأشياء من عين الأزل ميزة الآلهة المخلدتين ، ولعلمهم غير موجودين .

ولا تحتاج صلة العلم بالفلسفة إلى مزيد من الإيضاح : فالعلوم هي النوافذ التي ترى الفلسفة العالم من خلالها ، أو هي الحواس هذه النفس ؛ وتصبح معارف العلوم بغير الفلسفة عاجزة مضطربة كالإحساسات التي ترد إلى الذهن المشوش فيؤلف منها الأبله قصة . لقد كان سبنسر على حق حين قال : الفلسفة هي أعم معرفة ؛ ولكنه كان كذلك على باطل : لأنها ليست معرفة فقط ، إذ تتضمن ذلك النظر السامى والصعب الذى ترتفع فيه مجرد المعرفة لتصبح نظرة شاملة تنظم

(١) يشير المؤلف إلى نظرية أفلاطون عن الملك الفيلسوف التي بسطها في « الجمهورية »

(٢) *Philosophy and the Social Problem, p. I.* (الترجم)

اضطراب الرغبة وتوضحها . إنها تشتمل على تلك الصفة الغريبة المتميزة التي تسمى حكمة .

والفلسفة بغير العلم عاجزة : إذ كيف تنمو الحكمة اللهم إلا على أساس المعرفة المكتسبة كسباً صحيحاً ، بالملاحظة الأمنية والبحث الصادق ، تسجلها وتوضحها عقول بعيدة عن الهوى ؟ وبغير العلم تتدهور الفلسفة وتنحط . إذ تنعزل عن تيار النمو الإنساني ، وتقع أكثر فأكثر في سخافات المدرسية الكثيرة . ولكن العلم بغير فلسفة لا يصبح عاجزاً فقط بل مخرباً وهامراً . والعلم وصفي : إنه ينظر بالعين أو التلسكوب ، بالميكروسكوب أو الاسبيكتروسكوب ، ثم يحدثنا عما يراه . ووظيفته أن يلاحظ الوقائع المروضة بعناية ، ويصفها موضوعياً وبدقة دون نظر إلى نتائجها بالنسبة إلى الإنسان . هذا نترولوجسرين أو غاز الكلورين ، فهمة العلم تحليلهما في هدوء ، وإخبارنا ما هنا المركب أو هنا العنصر بالضبط ، وماذا يمكن أن يعمل كل منهما ، من إهلاك مدن بأسرها ، أو تخريب أبهى صروح الفن الإنساني ، أو إفساد حضارة كاملة ومحوها بجميع ما فيها من لطائف مدخرة وحكمة مدونة - نخبرنا العلم عن ذلك كله وكيف يمكن عمله علمياً ، وسريعاً ، وبأقل نفقة لدافعي الضرائب إذا قدر لهم أن يعيشوا . ولكن هل يجب أن تخرب الحضارات ؟ . . . أي علم نخبرنا عن ذلك ؟ أتكون الحياة أحلى حين تتضخم بالكسب وتتعلق بالملك ، أم حين تستغرق في الإبداع والبناء ؟ هل الأفضل أن نبحث عن المعرفة وننشد الحقيقة العارية عن الوهم ، أو نطلب الذشوة العابرة للجمال ؟ وهل يجب أن نحاول التنازل عن جميع الجزاءات العلوية Supernatural في حياتنا الخلقية ؟ أيجب أن ننظر إلى المادة من وجهة نظر العقل ، أم ننظر إلى العقل من وجهة نظر المادة ؟ وما جواب العلم عن هذه المسألة ؟ وكيف نلقى الضوء على هذه الاختيارات التصوي في حياتنا ، اللهم إلا إذا كان ذلك بنور تجاربنا الشاملة ، وبذلك الحكمة التي ليست المعرفة إلا مادتها الخام ، فتجد جميع العلوم من خلال نظرة الحكمة الكلية المكان والنظام والمعنى المرشد ؟

والعلم هو الوصف التحليلي للأجزاء ، والفلسفة هي التأويل التركيبي للكل ،

أو هي تأويل جزء من الأجزاء من حيث مكانه من الكمال . وقيمته بالنسبة إليه .
العلم مجلس يقرر الطرق والوسائل . والفلسفة مجلس يصدر القرارات والمناهج .
فالوقائع والآلات لا قيمة ولا معنى لها إلا في علاقتها بالضرورة . فإذا كان لا بد
للرغبات ذاتها أن تكون متماسكة . وأن تصبح أجزاء منظمة لشخصية مؤتمنة
وحيدة موحدة . فهذا أيضاً من مهام الفلسفة . ومن أعني هذا .

والفلسفة بالضرورة أكثر عماداً على الفروض من العلم . حقاً العلم نفسه
يجب أن يستخدم الفروض . ولا يمكن بشرط أن يكون مجرد بداية فقط . ويجب على
العلم أن يكون علمياً بمعنى الكلمة . أن يصدر في ثوب من المعرفة التي يمكن تحقيقها
مستقلة موضوعياً عن المنفعة الفردية أو أهوى الشخصي . أما الفلسفة : على العكس
من ذلك ، فتتخذ من العلم والوقائع والمعرفة عميقة بداياتها (فإذا لم تكن قد
فعلت فقد حان لها أن تفعل) : ثم تشرع في افتراض فروض أوسع حول
المشكلات القصوى التي لم نصل فيها بعد إلى حقائق مقررّة نهائية . والفلسفة
تكمين خطر وخيال الفهم ، فهي تملأ الفجوات الموجودة عندنا عن المعرفة العلمية
بالعالم بافتراضات لا يمكن إثباتها تجريبياً . ومن هذا الوجه بعد كل إنسان
فيلسوفاً . ولو بالرغم منه ؛ ذلك أن أكثر الشكاك حنراً ، أو أشد اللادريين
تواضعاً ، أو أعظم السوكيين تمسكاً بالواقع ؛ يتفلسف في الوقت نفسه الذي
يعلن احتجاجه للعام أجمع أن الفلسفة مستحيلة . فلو فرضنا أن أحد اللادريين
كان يعيش في حيادية كاملة بحيث لا يعتقد أو لا ينكر وجود الله ؛ ولو فرضنا
أنه قد يوزع أفكاره وأعماله بغير تحيز بين القبول والإنكار ، فقد يتوقف حكمه
على الفلسفة توفيقاً لا حراك فيه ولا حس ، أشبه بما يكون بالإغماء الفلسفي وحالة
عدم الوعي بالكون . وهذا شيء عسير وبعيد عن الإنسانية ، لأننا في الواقع
نتخذ جانبيين : إما أن نحيا في الإنكار أو نحيا في القبول ، ونتصرف كما لو أننا
قد اخترنا إحدى المتاهتين المفرعتين اللتين تكوّنان الفلسفة . فنحن نصنع الفروض ،
ولو كما فعل نيوتن . ذلك أن سحر المطلق يجذبنا دائماً .

ألنا أن نقرر أن الفلسفة تناقض نفسها باستمرار مع تتابع مذاهبها ؟
وأن الفلاسفة جميعاً خاضعون لثورة جنون قتل الإخوة فلا يهدأ لهم بال حتى

يحطموا كل منافس يطالب بارتقاء عرش الحقيقة ؟ وكيف يجد الإنسان المشغول بالحياة من فسحة الوقت ما يفسر به هذه المتناقضات العلمية أو ما يهدى به هذه الحرب ؟ ألا يهدم هؤلاء الفلاسفة بعضهم البعض ؟ انظر إلى عمر الحيام يقول في تجربته :

كنت أغشى وأنا صغير مجالس الأطباء والفقهاء

وسمعت منهم مناظرات حول الطب والفقہ

فلم أظفر بنتيجة عن حقيقة الأمر

وكنت أخرج من الباب الذى أدخل منه .

أكبر الظن أن عمر الحيام كان يصور قصة ، ولعله لم يخرج حقاً من الباب نفسه الذى دخل منه ، اللهم إلا إذا كان قد ترك عقله مع نعليه عند باب المسجد كما يفعل المسلم الورع . ولست تجرد أحداً يغشى صحبة عظماء الفلاسفة دون أن يغير عقله ويوسع نظرتيه فيما يختص بالآلاف من المسائل الحيوية . فماذا بدل إيمان طفولة عمر إلى عبادة مشوبة بالشك فى الجمال والخمر ؟ أليست الفلسفة هى التى تضيف إلى رباعيات الحيام هذه العظمة ؟

فليدرس أحدنا تاريخ العلم وسوف يكشف فيه من التغيرات العجيبة ما يجعل تذبذب الفلسفة بين اليمين والشمال يتبدد فى غمار سعة وعمق إجماع العلم الأساسى واتفاق كلمته . إلى أى نجم بعيد ذهبت نظريتنا السديمية المشهورة ؟ هل يؤيدها علم الفلك الحديث ، أو يسخر من وجهها المغرب ؟ وأين ذهبت اليوم قوانين نيوتن العظيم حين قلب أينشتين ومينكوفسكى وغيرهما الكون رأساً على عقب بمذهب النسبية غير المفهوم ؟ وأين مكان نظرية عدم فناء المادة وبقاء الطاقة فى الفيزيقا المعاصرة وما يكتنفها من فوضى وتنازع ؟ وأين أقليدس المسكين اليوم ، وهو أعظم مؤلف للمراجع العلمية ، ليرى كيف يصوغ الرياضيون لنا أبعاداً جديدة بحسب أهوائهم ، ويتنادعون لامتناهيات يحتوى أحدها الآخر كجزء منه ، ويثبتون فى الفيزيقا والسياسة كذلك أن الخط المستقيم هو أطول مسافة بين نقطتين ؟ وأين علم الأجنة اليوم ليرى البيئة الناشئة تحل محل الوراثة التى كانت إله العلم ؟ وأين جريجور مندل الآن ليشهد انصراف علماء الوراثة

عن وحدة الصفات . . . ؟ وأين دارون الهدام الدقيق ليرى كيف حلت طريقة التغيرات السريعة محل الاختلافات الذاتية والمتصلة في التطور ؟ وهل هذه التغيرات هي الثمرة المشروعة لاختلاط الهجائن ؟ وهل نضطر إلى الرجوع في تفسيرنا للتطور إلى الوراء عند نظرية انتقال الصفات المكتسبة ؟ أنجد أنفسنا وقد عدنا مرة أخرى أكثر من قرن إلى الماضي نعانق رقبة زرافة لامارك ؟ وماذا نصنع اليوم بمعمل الأستاذ فونط Wundt وباختبارات ستانلي هول . حين لا يستطيع أى عالم نفساني من أتباع السلوكيين أن يكتب صفحة واحدة في علم النفس الحديث دون أن يلقي بمخلفات أسلافه في الهواء ؟ وأين علم التاريخ الحديث اليوم حيث يضع كل عالم في تاريخ قدماء المصريين كشفاً بالأسرات وتواريخها على هواه . ولا يختلف عن كشف غيره إلا ببضعة آلاف السنين ؟ وحيث يسخر علماء الأجناس البشرية من تيلور ووسترمارك وسبنسر ، وحيث يجهل فريزر كل شيء عن الدين البدائي لأنه قد رحل إلى العالم الآخر ؟ فماذا أصاب علمونا ؟ هل فقدت فجأة قداسها وما فيها من حقائق أزرية ؟ أيمكن أن تكون «قوانين الطبيعة» ليست سوى فروض إنسانية ؟ ألم يعد هناك يقين أو استقرار في العلم ؟

لعلنا إذا شئنا التماس الاستقرار في العقل والنفس لو وجدنا أنه أقل في العلم منه في الفلسفة . ذلك أن اختلاف الفلاسفة يرجع إلى تغير مدلول الاصطلاحات في عصرهم أكثر مما يرجع إلى العداوة بين أفكارهم . أو قل إن هذا الاختلاف يرجع إلى حد كبير إلى تقلب العلم نفسه ، من جهة تعلقه القوى بفرض من الفروض فترة من الزمن ، ثم تشعبه به ، ثم كراهته له ، وتحوله إلى وجه جديد لنظرية حديثة . وبعد ، فأى اتفاق عجيب يوجد في حكم عظماء المفكرين على المشكلات الحيوية للحياة الإنسانية عندما تنحل أساليب كلامهم المختلفة في تفكيرهم الأساسي . أما سنتاينا فإنه يعلن في تواضع أن ليس عنده شيء بضيفه إلى أرسطو ، وكل ما سيقدمه عبارة عن تطبيق لتلك الفلسفة القديمة على عصرنا الحديث ؛ فهل يمكن أن يتحدث أى عالم طبيعي معاصر أو بيولوجي أو رياضي مثل هذا الحديث عن أى عالم يوناني ؟ لقد نقض العلم الحديث اليوم علم أرسطو في كل ناحية ، ولكن فلسفته ستبقى مشرقة وعميقة في الوقت الذي يصبح فيه علم اليوم موضعاً للاحتقار والسخرية عندما يلقيه جانباً علم مقبل وثيق لعصر جديد .

٥ - ملكة العلوم

قد نشعر إذن أن الفلسفة لا تزال ملكة العلوم Regina Scientiarum ، ويجب أن يعترف بها كذلك في كل مكان إذا لبست ثوب عظمتها القديم ، وأخضعت جميع العلوم لخدمتها ، واتخذت من سائر أنواع المعرفة آلة لها . فالعالم موضوعها ، والكون ميدان اختصاصها . ولاكن كما أن الملكة الحكيمه تعين مهرة الحكام في الأقاليم المختلفة من المملكة ، ويعهد هؤلاء الحكام إلى أتباعهم بجمع الوثائق وتصريف الأمور الجزئية ، على حين يقصر الحكام وملكهم أنفسهم على تنظيم التدبير والسياسة ، كذلك الفلسفة تقسم مملكها إلى ميادين متعددة ، وتوجد في جنبها قصور كثيرة .

وأول ميادين في مملكها ، ودهليز في دارها ، هو ذلك الذي يسمى باسم يخلو من السحر وهو « المنطق » ، وكأن الفلسفة قد أخفت جمالها بمحض إرادتها عن أعين الغرباء ، وأوجب على طلابها أن يمروا بخلال هذه المحنة أولاً حتى يثبتوا جدارتهم بالمشاركة في مباحثها العزيرة . ذلك أن مباحث الفلسفة تشبه مراقب الحب التي لا تسمو إليها أي نفس وضيعة . وكيف نعلم الحقيقة حين ننظر إليها إذا لم نكن على أقل تقدير قد تعلمنا أن نتصور شبحها ، ولم نكن قد تدبرنا شتى الاختبارات والامتحانات التي تؤمن أنفسنا من « حضورها الحقيقي » ؟ كيف يمكن أن نجيب عن سؤال بيلاطس الخادع ؟ أنتبع عقلنا العاجز المغامر ، أم إلهامنا العميق الغامض ، أم الحكم الغشيم لأعيننا وآذاننا وأيدينا التي تتحسس ؟ كيف نصفي حواسنا وأفكارنا من جميع الآراء المتحيزة التي تشوهها ، ومن سائر « الأصنام » الخادعة ، محتفظين بمصابيح العقل مضاءة حتى تجرد كل حقيقة طريقها إلينا ، فترحب بها ، ونضعها في موضعها اللائق ؟ كيف ندرّب أنفسنا ، كما يفعل الرياضيون ، على طلب الحكمة ومحبتها ؟

وثمة ميدان آخر لا يزال بعيداً عن عرش المملكة وقلبها ، هو بيت ذلك التنين العظيم المسمى الإبيستمولوجيا « نظرية المعرفة » Epistemology . وإذا كانت أقدامنا قد تعثرت في مفاوز المنطق ، فأعيننا في هذا الميدان لن تبصر في الظلام .

سوف نترنح في أكثر من طريق ، وقد نهيم على مقربة شديدة من غم التنين ،
فتسحرنا لغته العظيمة ، ثم نبتلع فجأة في كهفه الفارغ ، ونصبح بعد ذلك من
أصحاب المعارف إلى الأبد . ولكن لا بد أن نواجه هذا الامتحان أيضاً ، وأن
نجيب بطريقة مقبولة عن لغز المعرفة . ومشكلة حقيقة العالم الذي ندركه ومبلغ
صدقه . ولعلنا بعد ذلك نخطو إلى الأمام ونقف في تواضع في بلاط الملكة
العظيمة .

وهناك ميدان ملكي أيضاً هو « الميتافيزيقا » ، وهو مظلم كذلك ولا يستضيء
إلا بالنور الذي نجلبه له ، ولكنه زاهر بكنوز تتغذى بها النفس . وهنا نجد
أن الطبيعة تخفي ماهيتها الباطنة وتخيرنا بما تقدمه من مئات الحلول . وهنا نجد
أن الفلسفة تكشف لنا عن جانب من تلك « الأنغام السامية » التي كانت تغنيها
لفيثاغورس ، ذلك أن الطبيعة تصبح بوساطتها واعية ، وتنتقد أهدافها الخاصة ،
وتصبح شيئاً له معنى . وهنا قد نستطيع أن نتعمق مشكلات الحياة ، والمخ
والعقل ، والمادية والروحية . والميكانيكية والحيوية ، والجبر والحرية . وما الإنسان؟
أهو شيء مركب من أسلاك وزنبركات وعجلات متشابكة تتحرك من خارج
بقوى عمياء من الأرض والسماء ؟ أم هو إله خالق بطريقته الصغيرة المضحكة ؟

وميدان آخر هو « التاريخ » حيث يقدم لنا مئات الألوف من الدهاء
وبعض العباقرة من بلاد بعيدة وأزمة حقيقة حكمتهم ليتسنى لنا أن نتأملها موحدة ،
ونتعلم دروسها . وهناك أي معنى في الماضي ؟ وهناك أي قوانين لنشأة الدول
وانهيارها تبين ، وقد تحدد ، قيام الأمم والأجناس والحضارات وسقوطها ؟ وهنا نعرض
لمنتسكيو وباكل Buckle يتحدثان عن أثر الجغرافيا في مصائر الشعوب .
وهنا نجد كوندورسيه Condorcet وهو على فراش الموت يعزى نفسه بفكرة
التقدم وقابلية الإنسان اللامحدودة للكمال . ونجد هيغل Hegel يعرض لنا ألعابه
الجدلية ، وكارليل أبطاه ، ونجد المتطرفين من الغلاة يغنون أنشودة قوة جنسهم
ويلعنون ظهور المتبربرين . ونجد ماركس يخيفنا بجمال من الأرقام والحجج التي
يسوقها للدلالة على نظرية الجبر الاقتصادي للتاريخ . ولعلنا نصادف في طريقنا
باحثاً أو أكثر يفسر لهؤلاء المفتونين أن حقايقهم ليست إلا وجوهاً من الواقع ،

وأن التاريخ والطبيعة أكثر اختلافاً مما توهموا في فلسفاتهم . وسوف نجد في ركن بعيد نيتشه المتشائم يغني أنشودته عن « الدورة الأزلية » ، ونجد شبنجلر يثبت بحماسة انهيار العالم الغربي .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى ميدان آخر سنسمع بحثاً عن « السياسة » . سنفرع بعض الوقت خشية اكتشاف أمريكا . ولكن ليس ثمة ما يدعو إلى الفرع ، لأن رجالها يناقشون الديمقراطية بغير توقير ، والنواصي بغير خوف . إنهم يحبون الاشتراكية مع علمهم بنتائنها ، ويمجدون الأرسطراطية مع احتقارهم ظلمها المواهب غير ذات الحسب . وفي بعض الأحيان يتحدثون في حماسة الشباب عن بلاد جميلة تسمى طوبيا utopia (مدينة فاضلة) لا يحكمها إلا الحكماء ، وتزخر كل مدينة بالعلم والجمال .

بهذه الكلمة الأخيرة التي لا تزال تطربنا نغمتها ننفذ إلى قلب الميدان ، ونشخص إلى الفلسفة ذاتها وهي تكشف للمغممين بها عن الجمال والخلود والخير . ذلك أن للفلسفة غير مكتومة من « الفن » ، وتنفس عليها شغفها الخالق للجمال . وهنا ، لا في العلم ، نجد منافسها العظيم الذي يسعى لغزو قلوب أنبل الناس وولائمهم له . وقد تخضع الحكمة في رقة وهي تسلم بأن عبادة الجمال أولى من البحث عن الحقيقة ، ذلك أن الحقيقة الأزلية تهرب متعاطمة حتى لا تكاد تسمح لنا بأن نلمس أطراف جلبابها ، على حين يرحب الجمال الذي يعلم أنه مقضى عليه بالفناء بإعجابنا ويكافئنا عليه . ولنلك تدرس الفلسفة الجمال في تواضع ، أما الفن فيجعله ويخلقه خلقاً ثانياً . الفن يلمس الجمال في حرارة مودة الحب ، وفي عظمة بناء المعابد ، وجلال أشكال التماثيل ، وحرارة الألوان ، وموسيقية الألفاظ ، وتتابع الأصوات العذاب . أما الفلسفة فلا تعرف مع الأسف إلا مشكلات الجمال : ما مصدر الجمال ، وماذا يعني ، أيوجد في الصورة نفسها ؟ أم لا يوجد إلا في قلوبنا العطاش ؟ وهذا هو ميدان « علم الجمال » Aesthetics الذي جعلته عقول المدرسين قروناً طويلة موحشاً ، ولكنه لا يزال زاخراً بالعجب والبهجة .

وهنا أيضاً في قلب المملكة ميدان « علم الأخلاق » ، وهو ميدان قاحل

بالتجريدات الأكاديمية ، ولكنه من بعض الجهات أغنى قصور الفلسفة ، لأن فن الحياة أسمى حتى من حياة الفن ، وعلم الأخلاق هو حكمة فن الحياة . وهنا نجد الفلسفة تسمو بمعارفها المتعددة إلى حكمة حية ، وتجمع من قصورها المختلفة الهداية للإنسانية . وبعدها فما هي أفضل حياة ؟ وما نفع الخير ، وأى حق يوجد في القوة ؟ أنجد أسمى الفضائل في حكمة سقراط ، أو شجاعة نيتشه ، أو سماحة المسيح ؟ أنكون رواقين مع زينون وسبينوزا . أو أبيقوريين مع أبيقور ورينان ؟ أتكون اللذة غاية الحياة ؟ هل الحب يناق الأخلاق إلا إذا وافق القانون ؟ وما العدالة ؟ وما رأى العدالة في عالمنا الصناعي ؟ وهنا نجد أكثر من أى مكان آخر مشكلات حيوية تجعل مصير حضارات بأسرها في كنف القادر . هنا معضلات تمس كل دولة وكل قلب ، وهي مشكلات يبدو بجانبها العلم بتسجيلاته واختصاراته وسائله وصلبه وغازه شيئاً بعيداً وغير إنسانى ، شيئاً أدنى إلى الصلة بالموت منه إلى الاتحاد بالحياة .

غير أن الموت يتعلق أيضاً بالفلسفة ، وعندما بصمت لسان جميع المناقشات ، يتحول الفكر في خوف لينظر إلى « العدو الأكبر » وتدخل الفلسفة أبواب « الدين » . واللاهوت Theology هو البحث في الكائنات العلوية Supernatural وصلتها بالإنسان ، ولا تولى الفلسفة برأى عن هذه الكائنات ، وإنما تتحدث عن علاقة الإنسان بجملة الحياة ومجموع الأشياء ، وعن أصله على هذه الأرض ومصيره الأخير ، ولو أنها تتحدث حديثاً متوازناً يتناسب مع الجهل البشرى . إنها تتعلق بمسألة الخلود تلك المسألة التي تتعلق بكل نسيج حيوى . ولعلنا يمكن أن نعرف الفلسفة بأنها مسألة حياة وموت . وأخيراً فإنها تتعلق بالله ؛ ولسنا نعنى إله اللاهوتيين الذين يتصورونه خارج عالم الطبيعة ، بل إله الفلاسفة ، وهو قانون العالم وهيكله ، وحياته ومشيته . فلو كان ثمة أى عقل يدبر هذا الكون فإن الفلسفة تود أن تعرفه وتدرك كنهه حتى تسايهه في الفكر مع الاحترام . فإذا لم يكن ثمة عقل مدبر ، فإنها تود أن تعرف ذلك أيضاً حتى تواجهه بغير خوف . هل النجوم ليست إلا تجمعات عابرة لسدم اعتباراً ؟ وهل الحياة عرض غروى Colloidal مستمد من تلقاء نفسه وفائض فيضاناً ذاتياً ؟ وهل

الإنسان ليس إلا مركباً كيميائياً مصيره إلى الانحلال ثم الفناء تماماً ؟ وهل نشوة الفن ، وحكمة الحكيم الهادئة ، وتشهد القديسين بإرادتهم ، كل ذلك ليس إلا لمحات بارقة في البراعم البروتوبلازمية للأرض ؟ وما الموت إلا الجواب عن كل مشكلة ومصير كل نفس . . . إذن فعلى الفلسفة أن تواجه هذا أيضاً ، وأن تسعى إلى إيجاد بصيص من اللدالة والسمو في عين الإنسان داخل هذه الدائرة الضيقة .

هل لنا أن نشرع في البداية ؟

الجزء الثاني

المنطق والإبستمولوجيا

الفصل الثاني

ما الحقيقة ؟ (١)

١ - الإحساس في مقابل العقل

يقول السيد نيتشه المتشبهه بالقديسين مهاجماً ما أمكنه إلى ذلك سبيلاً :
« لا تظهر في العهد الجديد بأسره إلا شخصية وحيدة جديرة بالتبجيل ، هي شخصية بيلاطس نائب الإمبراطور الروماني . . . ذلك أن الاحتقار النبيل لأحد الرومانيين ممن كانت تبذل أمامه لفظة « الحقيقة » في غير نجمل ، قد زود العهد الجديد بما فيه من عبارة وحيدة لها أي قيمة . . . ما الحقيقة ؟ » (٢)
وقد عدها أناتول فرانس أعمق سؤال أثير على الإطلاق (٣) ؛ إذ أي سؤال آخر لا يتوقف عليه ؟

والمنطق صحفة صغيرة (طبق) من المشهيات في مأدبة الفلسفة . وهو يغلق ألف شهية في مقابل شهية واحد يفتحها . إننا نحذر المنطق لأننا تعلمنا أن معظم الاستدلال عبارة عن رغبة مغشاة بغلالة رقيقة من التعقل Rationality . فنحن نزعم أننا نقيم صروحاً من التفكير المحايد ، على حين أننا في الواقع لا نختار من الحقائق والأحكام إلا ما يعزز رغبة شخصية أو وطنية . إننا نحذر المنطق لأن العصر الوسيط علمنا أن الحياة أوسع وأشد ثقة وأكثر عمقاً من قياساتنا ؛ والمنطق ساكن Static قائم على أساس من « الحقائق الثابتة » ، في حين أن الحياة متدفقة ومتغيرة ، وتفاجئنا جميع القوانين Formulas بما لا نتوقعه . « وإن عدد

(١) أنظر هامش الفهرست .

(٢) ضد المسيح Antichrist القسم ٦ ؛ ؛ يشير إلى القديس يوحنا ، XVIII ٣٨

(٣) الحياة والرسائل ، السلسلة الأولى ص ٨ .

الأشياء التي رفض العقل أول الأمر الاعتراف بها ثم قبلها في النهاية كبير جداً» (١) ولنا في الشباب قد حفظنا جميع قواعد التفكير السليم ، فإذا بنا نجد أن درك المعرفة ، والتعرف على الحقيقة ، وحكمة الحياة ، كل ذلك يقع بعيداً البعد كله عن هذه الدائرة المنظمة نظاماً أنيقاً . فما أسعدنا حين نلتقى إلى الأبد بهذا المنطق الذي يجعل حتى الفلسفة جافة وبغير روح ، بدلا من الاحتفاظ بها سداً يقف في وجه مشكلات لعلاها ليست أساسية إلا بمقدار بسيط ، ولكنها أدخلت في حياتنا وأكثر حيوية لها . ومع ذلك فلا ينبغي لنا أن نطرح المنطق ، لأننا لا نستطيع أن نمضي في بحثنا عن الحقيقة بغير أن نحدد من قبل ماذا نبحث عنه ، وما الطريق الذي نعزم أن نسلكه له ، وكيف نعرف أننا بلغنا ما نريد بلوغه . ولن يكون أي نظام آخر منطقياً .

ونحن نجد في أطراف الدائرة مشكلة المنطق الرئيسية وقد وضع أيديهم عليها بوضوح ، وأجاب عنها بوضوح ، أولئك المعلمون الأحرار الذين لم يقدرُوا في العالم القديم حق قدرهم ، ونعني بهم السفسطائيين . فقد قالوا : (ويقال إن لوك بعد ألفي عام من زمانهم قد كشف ذلك) إن المعرفة تأتي من الحواس فقط ؛ وبناء على ذلك فإن معيار Test الحقيقة هو الإحساس ؛ وفي هذا جواب سؤال بيلاطس . فالحقيقة هي ما تذوقه وتلمسه وتشمه وتسمعه وتراه . أي شيء يمكن أن يكون أبسط من ذلك ؟ ولكن أفلاطون لم يقتنع وقال : إذا كانت هذه هي الحقيقة فليس ثمة حقيقة ، لأننا جميعاً نذوق ونشم ونسمع ونلمس ونرى الأشياء بشكل مختلف ؛ وبناء على ذلك يكون القرد مقياس الحقيقة كالحكيم سواء بسواء - ومن يفصل بينهما ؟ لقد كان أفلاطون على يقين من أن العقل هو مستقر الحقيقة ، فمعاني العقل بالنسبة إلى شهادة الحواس كالساسة بالنسبة إلى الشعب من حيث تجميعهم مراكز للنظام ووسط جمهور فوضوي .

ووافقه أرسطو في ذلك وجعل المنطق لأول مرة دراسة منفصلة ، وذلك بالسعي إلى وضع قوانين العقل ؛ فلا يجب أن نحكم على أمر بأنه صادق إلا إذا

(١) ليون : تطور المادة ، ص ٧٢ .

أمكن أن نجعله نتيجة لقياس مضبوط ، مثال ذلك : الإنسان حيوان عاقل (ولا تزال هذه القضية الساذجة مستعملة في كتب المناطقة) ، وسقراط إنسان ، إذن سقراط حيوان عاقل . ولقد أنكر فيرون (١) أن يكون الأمر كذلك ، فكل قياس صادرة على المطلوب . لأن المقدمة الكبرى لا يمكن أن تكون صادقة إلا إذا كانت النتيجة صادقة مقدماً . وليس من حقلك أن تزعم ذلك . وإذا لم تفترض أن سقراط عاقل فلا يجب أن تبدأ بهذه القضية وهي أن الإنسان (الذي يشمل سقراط) حيوان عاقل . لعله ليس إلا حيواناً يستعمل العقل . وبناء على ذلك فالعقل دائماً غير يقيني . وهنا قال أبيقور : حسناً ، فلنرجع إلى السفستائيين ، ولنثق في حواسنا . واكن الشكاك Sceptics تساءلوا مرة أخرى وقالوا : كيف يمكن ذلك ؟ فالشمس في نظرنا صغيرة كالبطيخة (القرعة) ، وقد تكون النجوم كالطفح المتناثر على صفحة السماء ، فهل نصدق حواسنا ؟ وانتهى فيرون إلى القول بأنه لا شيء يقيني ، وعندما توفي لم يحزن تلاميذه عليه بالرغم من محبتهم له ، لأنهم لم يكونوا واثقين من موته .

وظلت لعبة الحواس في مقابل العقل تشغل أيام الفلاسفة ، إلى أن توارى اليونان والرومان من المسرح ، تاركين أوروبا للمسيحية والكنيسة . وعناد نسي الناس السفستائيين وأبيقور ، لأن العقائد الإلهية كانت تقسرم على الإيمان ، فكانوا يعتقلون عن طريق التقديس فيما تنكره الحواس . ومع أن المدرسين عرفوا الحقيقة بأنها مطابقة الفكر للأشياء ، إلا أنهم اتبعوا أفلاطون وأرسطو في تمجيدهما للعقل . وعندهم أن التفكير القياسي Deductive هو أفضل تفكير لأنه يستخلص من عقائد محدودة وثابتة نظاماً متماسكاً للعالم . والمعاني حقائق أعظم من الأصوات والمرئيات ، لأن هذه الأشياء المجسدة ظهرت إلى الوجود ثم اختفت ، أما « الكلليات » Universals أو الأنواع فإنها لا تموت ، وتوجد قبل الأشياء الفانية ومعها وبعدها ، وتشخص بها . فالإنسان أكثر حقيقة من هذا الإنسان أو ذاك ، والجمال أكثر حقيقة من هذه الوردة أو تلك . بل إن ديكارت ظل عبداً لما حرر

(١) Pyrrho - ٣٦٠ - ٢٧٠ ق.م. - (أوعاش من ٣٦٥ - ٢٧٥ ق.م. - فيلسوف

يوناني من الشكاك كان يعتقد في عدم إمكان معرفة الحقيقة (المترجم)

الناس منه ، فطلب من كل فيلسوف أن يطرح شهادة الحواس ، ولا يقبل شيئاً على أنه يقينى إلا الفكر الواضح .

وبدأ التجديد بإعادة الإحساس إلى عرشه ، مع جاليليو في العلم ، وبيكون في الفلسفة . فقد ضاعف الفلكي الحواس بالآلات ، وأدّب الفيلسوف العقل بالملاحظة ، وساق أشد الاستدلالات قداسة إلى محكمة الاستقراء . ولو وجب أن يقرأ أحدنا المنطق فليبدأ قبل كل شيء بكتاب بيكون « الأورجانون^(١) » الجديد *Novum Organum* « حيث نجد فيه المنطق مشرقاً كأنه مبارزة ، ويصبح التفكير مغامرة وفتحاً ، ويقرأ الفلسفة قصة بوليسية ، الحقيقة فيها هي اللص المطارد . وما أكثر ما نجد فيه من أمثلة وحكم ! انظر إلى استهلال الكتاب حيث يقول : « إن الإنسان باعتباره المهيم على الطبيعة والمفسر لها يسيطر على نظام الطبيعة ويفهمه بمقدار ما تسمح له ملاحظاته ، وهو لا يعرف ولا يستطيع أن يعرف أكثر من ذلك » رأيت قط نذير حرب على كل تصوف ، وكل مذهب مظلم *Obscurantism* ، وكل حذقة ، أكمل من هذا النذير ؟ لقد كان هذا هو : « الناكوس الذي اجتمعت على رنينه العقول » وتبّه الأذهان إلى خطر عصر النهضة .

ثم نشب جدال عنيف بين إنجلترا والقارة الأوروبية ، ذلك أن لينتز وكانط وهيجل غشوا الحواس بالشكوك ، وأيدوا مزاعم العقل باعتباره الحاكم في كل شهادة للحس . وازدرى هوبس ولوك ومل كل عقل اجترأ أن يطلب الحقائق دون أن تكون في متناول البصر واللمس والذوق والشم والسمع . ولكن كانط قال : لا ريب أن الرياضيات مستقلة عن الإحساس ، وأنها صادقة أولاً *apriori* ، أى قبل التجربة ، فإن مربع ٥ هو ٢٥ بقطع النظر عما يمكن أن تقوله الحواس . وأجابه مل بقوله : لا ، إننا لا نعتقد في أن $2 \times 2 = 4$ إلا لأننا شعرنا أو رأينا أن ٤ هي نتيجة 2×2 مرة بعد أخرى في تجربة الأفراد أو في تجربة الجنس التي

(١) « أورجانون » يعنى آلة ، وكان القدماء يعرفون المنطق بأنه آلة الفكر ، فجاء ليكون يعارضهم بآلة جديدة .

(المترجم) .

انتقلت اجتماعياً . وقال نوك بأن كل معرفة مستمدة من الحس . بل إن أعظم الاستنتاجات في الرياضيات العالية تظل مزعومة غير يقينية حتى تدمغها تجربة الحواس بالتأييد .

ولم ينته أى جدال إلى نهاية أغرب مما انتهى إليه هذا الجدل : فالمنهج الأولي Apriorism الذى يدافع عن وجود الحقائق مستقلة عن التجربة ، مات فى القارة ، وهاجر إلى إنجلترا . والمنهج التجريبي Empiricism الذى يرجع كل معرفة إلى الإحساس باعتباره أصله ومعياره ، مات فى إنجلترا ، وبعث فى أمريكا . لقد كان اتجاه إنجلترا قرونًا طويلة عملياً ، وانعكست نتائج منطقتها على قواعد حياتها فى الطبقة الوسطى . أما الآن فعلى الرغم من أن هذه الطبقة الوسطى ما زالت توالى تفوقها على رجال القارة . فإن المفكرين الإنجليز بعد أن أصبحوا فجأة مراوغين وغير مفهومين ، واستوردوا جميع مخلفات كانط وهيجل ، جعلوا الحواس لا تفيده شيئاً ، وأقاموا من التفكير القياسى قوانين جديدة للفكر لا تصلح للمنطق فحسب ، بل للعالم أيضاً . وسمى برادلى Bradley التجربة المطلق Absolute ، ثم حلها بعد ذلك وبددها هباء . ورد بوزانكيه Bosanquet المنطق إلى استدلال نفسانى ، ثم عرف الاستدلال بعظمة توتونية بأنه : « هو الإشارة غير المباشرة لحقيقة الفصول الداخلة فى كلى ، بوساطة عرض هذا الكلى فى الفصول التى ترجع مباشرة إلى الحقيقة » (١) . وانصرف برتراند رسل عن تعريف المنطق بأنه « علم التفكير » ، وذهب إلى أنه « علم أكمل المجردات » . واشترك هو والأستاذ هوايتهد Whitehead فى بناء أساس رياضى من الحقائق القياسية اليقينية ، وفصل هذا البناء فصلاً كاملاً عن كل تجربة ، ثم أضاف إلى ذلك تعريفه للحقيقة :

« تكون الصيغة اللفظية صادقة إذا كانت لها صلة معينة بواقعة Fact معينة . وأى صلة بأى واقعة ؟ إنى أعتقد أن الصلة الأساسية هى ما يأتى : تكون الصيغة اللفظية صادقة إذا انتهى الشخص العارف باللغة إلى هذه الصيغة حين يجد نفسه

(١) دائرة المعارف البريطانية ، مادة « منطق » .

في بيئة تحتوي على معالم هي دلالات تلك الألفاظ ، وتحدث هذه المعالم في نفسه آثاراً من القوة بحيث يستعمل الألفاظ التي تدل عليها « (١) .

يا للأسف ! هل يتعلم البريطانيون إنجليزيتهم بالألمانية ؟ وهل نحن في عصر آخر من الفلسفة المدرسية التي تطلب المعاني بغير صلتها في التجربة أو نفعها في الحياة ؟ كم من فكر معاصر يقوم على وضع ما يعرفه كل إنسان في معرفة لا يمكن أن يعرفها أي إنسان ؟

وقد بدأ لوليم جيمس ، وهو يستند إلى أرض أمريكا الفياضة بالعمل والتي لا تصبر على التجريدات ، أن الغموض ليس ضرورياً للفلسفة ، وأن معنى الحقيقة هو من البساطة بحيث يصاغ في عبارات يفهمها حتى رجل الأعمال . فالحقيقة Truth هي ما كان فعلاً Efficacy . وبدلاً من الحكم على المعنى بالرجوع إلى أصوله ، أو بالاستدلال من مبادئ أولى ثابتة ، أخضع جيمس المعنى لاختبار العمل ، وتساءل عن آثاره العملية حين يطبق ، وأعاد وجه الفكرة مرة أخرى للأشياء . أما عند جون ديوي فقد بدا له أن الفكر أداة Instrument كالمعدة والرجلين ، ومعيار الفكر هو بناءً على ذلك قيام الفكر بأداء وظيفته أداء صحيحاً ، أي فهم الحياة والتحكم فيها . وهنا نجد أن التقاليد الإنجليزية الاستقرائية التجريبية قد عادت إلى الشباب . وأصبح البرجماتزم : « اسماً جديداً لطريقة غريبة في التفكير » . والبرجماتزم هو الصياغة الوحيدة لوجهة نظر سيكون من أن « القاعدة الأشد فعلاً في العمل هي كذلك الأصدق في النظر » ، ولفلسفة بنام الصناعية من أن المنفعة هي معيار كل شيء .

وهناك أخطاء كثيرة في البرجماتزم ، لأن مبدعها العبقري سمح لبسطاء العقول أن يفترضوا أن جميع معتقداتهم العزيزة عليهم صادقة إذا كان لها أي أثر في معاونتهم ، والعمل على راحتهم ضد عدالة العالم القاسية . ولكن ما من شك في أن المنفعة الشخصية والموقفة لا تخلع على العقيدة رداء الحقيقة ، بل المنفعة الدائمة

(١) كتاب « الفلسفة » ص ٢٦٢ . ويجب أن نضيف أن هذا الغموض غير معهود في شخص هو أوضح الفلاسفة المعاصرين وأكثرهم إصابة للموضوع .

والكلية فقط هي التي تجعل الفكرة صادقة . ولما كان ذلك شرطاً لا يمكن تحقيقه تماماً ، فلم تصبح الحقيقة قط أكثر من احتمال . وعندما قال بعض البرجماتيين عن عقيدة إنها صدقت « مرة » لأنها كانت نافعة وقتاً ما ، فقد كانوا يتكلمون بعلم لا معنى له ، لأن تلك العقيدة كانت باطلاً نافعاً لا حقاً . ولن نكون أبداً على يقين من أن أعز حقائقنا قد لا تكون كما يقول نيتشه إلا « أنفع صور للخطأ » عرفناه . فالعالم لم يخلق للعقل .

وبذلك نعود وراءاً إلى السنسطينيين ، فنجد أن النتيجة التي انتهينا إليها ليست إلا ما انتهوا إليه ، نعى أن الحواس هي معيار الحقيقة . ولكن المعيار هو الحواس « كلها » ، فقد نخدعنا حاسة واحدة ، كما نخدعنا الضوء بالنسبة للألوان ، أو المسافة بالنسبة للحجم . ولا نستطيع أن تصحح ما تخدعنا حاسة من خطأ إلا حاسة أخرى . « والحقيقة هي الإحساس الثابت » غير أن الإحساس يجب أن يشمل كل ما نتعلمه من الآلات التي توسع بها دائرة الحواس ونجعلها دقيقة . فالمطياف (اسبيكتروسكوب) والمكبر (تلسكوب) ، والمجهر (ميكروسكوب) والأفلام الحساسة ، وأشعة إكس ، هي كلها وسائل مضاعفة ما تبصره عيوننا . والتليفون ، وسماعة الطبيب ، بل الراديو ، هي امتداد لآذاننا العجيبة . وأخيراً يجب أن يشمل الإحساس الحاسة الباطنة ، فشعورنا الداخلي بحياتنا الخاصة ونفسنا ، هو شعور مباشر وصادق بهذه الحياة وهذه النفس كأي خبر يأتينا من أعضاء الحس التي تتصل اتصالاً مختلفاً بالعالم الخارجي . وبعد ، فعلى الرغم من براعتنا في خداع أنفسنا ، فليس هناك شيء يفضل معرفتنا بأنفسنا ذاتها .

ومن الحق أن الإحساس يخطيء في إصابة اليقين ، وكذلك الحياة . ولقد كان هيوم على صواب : فالحواس لا تكشف عن أي « سببية Causality » غامضة ، ولكنها تبين فقط التابع ، ولا يمكن أن نستيقن تماماً من أن « ب » سوف تقع بعد « ا » دائماً ، لأن « ب » كانت تتبع « ا » دائماً . فالإحساس لا يمكن أبداً أن يضمن أي لحظة في المستقبل . ويجب أن نحاطر بروعوسنا اعتماداً على هذا الاحتمال ، وهو أن النظم الملاحظة في الماضي ستستمر في المستقبل .

وهذا هو كل ما نحتاج إليه ؛ غير أن المنطق يطلب أكثر من ذلك . فالعالم فيه من الاختلاف والتغير ما يجعل « حقائقنا » على الدوام ذات جانب واحد وناقصة . وليس ثمة أمور مطلقة ، بل أمور نسبية فقط ، وعلينا أن نتعلم كيف نساير الأمور النسبية .

وهناك غيرنا من الناس في هذا العالم ، ولن تتفق حواسهم دائماً ، وبالتالي حقائقهم ، مع حواسنا . فعندما تقول السنيورا شيني Cini في رواية بيراندييللو ، إنها سوف تصدق ما تراه بعينها وتحسه بأصابعها ، يقول لها لوديزي Laudisi : « يجب عليك أن تظهرى بعض الاحترام لما يراه غيرك من الناس بأعينهم وبحسونه بأصابعهم ، حتى لو كان ذلك هو الضد لما ترين وتشعرين » (١) . نعم ، عندما تختص الحقيقة بأكثر من واحد منا ، فيجب أن تكون إحساساً متماسكاً اجتماعياً ؛ وعندما تختص بأكثر من لحظة من الزمان ، فيجب أن تكون إحساساً متماسكاً على الدوام . فالحقيقة عبارة عن قبة من البلور المتعدد الألوان ، ويرى كل واحد منا من ركنه الصغير تأليفاً مختلفاً من الألوان خلال نظارته اللونية . ولعل الحق ليس إلا الدليل المشترك لأوهامنا ، ولعل اليقين خطأ يتفق عليه جميع الناس . ويجب علينا أن نقنع بذلك .

أين إذن موضع العقل من منطقنا الشعبي المضحك ، ذلك المنطق الذى يؤيد آراء رجل الشارع المتحيزة ؟ وظيفته هنا كما هي فى كل مكان ، التنسيق ... ينسق الإحساسات إلى معان ، والمعانى إلى معرفة ، والمعرفة إلى حكمة ، والغايات إلى شخصية الفرد ، والأفراد إلى جماعة ، والجماعات إلى سلام . إن عمل العقل فى الظفر بالحقيقة ثانوى ولكنه حيوى : إذ يجب أن ينسج فوضى الحواس المختلفة وما بينها من تناقض فى نتائج موحدة ومنسقة ، تكون عرضة للتحقيق والتأييد أو الحذف بواسطة الإحساس المتكرر . ولست تجد ما يقرب من نصف اليقين كالإحساس ، ذلك : « أننا حين نتخطى ما يعرض بواسطة الإدراك الحسى الحاضر ، فلا ريب أننا نستعمل نوعاً من الاستدلال » (٢) ، وكل خطوة استدلالية تبعد عن الإحساس المباشر تخفض من احتمال الحقيقة . ولكن هذا

(١) Right You Are If You Think You Are, p. 161

(٢) برادلى : مبادئ المنطق ص ٢٢٥ .

أيضاً مقاومة يجب على الحياة أن تفعلها ، إذ يجب أن نحاول التوفيق بين الحواس المتنافرة والآراء المتحيزة إذا شئنا أن نبسط فهمنا على العالم وسيطرتنا عليه . وكما أن قدرة كوهلر Köhler كانت تبلغ أفضل تفكير لها وهي في تمام الموقف الملائم ، فكذلك الحقيقة التي نستدل عليها بالعقل بالنسبة إلينا . مثل الفلسفة والحكمة . والأخلاق والجمال ، هي منظر كلي ، هي الوحدة المتسقة للجزء مع الكل . إننا نقف على أقدامنا ثابتين على الأرض بواسطة الإحساس . أما بواسطة العقل فإننا نرفع عين العقل إلى ما وراء دائرة الحس الحاضرة . فنبصر حقائق جديدة قام تحققها الحواس يوماً ما . فالإحساس معيار الحقيقة ، ولكن العقل هو المكتشف لها .

٢ - سر المعرفة الغامض

ها نحن نقف معرضين للخطر في كل ناحية . ذلك أن المثالي يحتقر صدق Veracity الإحساس وينكره ، ويتساءل الصوفي عن صلاحية العقل للاعتماد عليه . فماذا نحن قائلون لهما ؟

« بالعرف والعادة يوجد الحسن والقبيح ، والحلو المر ، أما في الواقع فليس ثمة إلا الذرات Atoms والخلاء Void » . بهذه العبارة أقام ديمقريطس الفيلسوف المادى أساس نظرية المعرفة (الإبيستمولوجيا) . وأساس المذهب المثالي . فمن الواضح من ذلك النص الغريب أن الفيلسوف الضاحك^(١) كان يذهب إلى « ذاتية الصفات المستمدة من الحواس » ، بالأ يكوّن اللون ، والصوت . والثقل ، والحرارة . والشكل ، والطعم ، والرائحة ، والألم ، موجودة في الأشياء التي نحسها بل في الكائن الذي يشعر بها . ولقد قال هوبس بعد عشرين قرناً من رصيفه اليوناني : « جميع الصفات التي تسمى حسية موجودة في الشيء الذي تنبعث منه حركات كثيرة للمادة ، تلك الحركات التي تضغط على حواسنا بشكل مختلف » . فالصوت حركة الهواء ، والضوء حركة الأثير أو تأثير الجسيمات على العين ، والحرارة ليست إلا حركة جسيمات سريعة ، ويعتمد اللون على سرعة أمواج الضوء

(١) اشتهر ديمقريطس في الزمن القديم باسم الفيلسوف الضاحك ، لأنه كان يسخر من الناس وتهافتهم على الشهوات .
(المترجم)

وسعة انتشارها والجزء من الحديقة الذى يتأثر بها . « فالحقيقة الموضوعية » فى ذاتها ليست حارة ولا باردة ، ولا منهوسة ولا عادلة ، بل معتمدة لا لون لها وصامتة . كيف يمكن أن يوجد ثمة ضوء لولا وجود عيون أو غشاء حساس فى العالم ، وكيف يمكن أن توجد أصوات لولا وجود آذان ؟ إن أجمل قوس قزح هو فى أبصارنا لا فى السماء .

ولندع المثالى يتكلم ، ذلك الذى يعتقد أننا لا نعرف شيئاً سوى المعانى ، فيقول : « هذا العالم الذى تفترض أنه موجود وجوذاً مستقلاً إلى جانبك ، هو أول كل شىء عالم من الألوان . ولكن الألوان ذاتية . . . إنها موجودة فيك لا فى الشىء الذى تراه . وهناك بعض الناس مصابون بعمى لبعض الألوان ، فلا يبصرون مثلاً أى لون أحمر فى الطبيعة . فلو أننا كنا جميعاً مثل هؤلاء ، أكانت الوزدة حمراء ؟ ويتغير اللون كلما انتقلت من الفجر إلى الظهر إلى السحر إلى الضوء الصناعى ، فأى هذه الألوان «حقيقى Real» ؟ أهو لون النسيج الذى تشتريه حين تراه فى الدكان ، أم لونه فى ضوء الشمس فى الهواء الطلق ؟ وتختلف عيون الحيوانات البديئة مثل القشريات Crustacea فى تركيبها عن أعيننا ، ومن المفروض أنها تسجل الأشكال والألوان بطريقة تختلف عنا ، فأى شكل أو لون هو « الحقيقى » ؟ ثم إن عيوننا لا تحس بمساحات كبيرة من الطيف ، على حين ترى بعض الحيوانات الأشكال والأطيف اللونية أكمل منا . فأينا يرى العالم « كما هو » الحيوان أم الإنسان ؟ وهذه المنضدة التى تقول عنها إنها مستديرة ، أحقاً تباو لك مستديرة حين تنظر إليها بعين بعيدة عن الهوى أم أنها تباو بيضاوية ؟ وهل جميع الأشكال ، مثل جميع الألوان ، تتوقف على المارك لها ؟ .

« وانظر إلى الروائح والطعوم ، فإنك تجد طعاماً يستفيد منه شخص ، وهو سم لشخص آخر . وهناك آلاف من الناس يحبون الكافيار ، وملايين يزعمون أنهم لا يحبونه . ويستطيب فقراء الصينيين طعم السمك الفاسد ، وأغنياء الأوربيين طعم الجبن العفن . كذلك الحال بالنسبة للحرارة والبرودة : ضع إحدى يديك فى ماء حار ، والأخرى فى ماء بارد ، ثم ضعهما بعد ذلك فى ماء فاتر ، فيباو هذا الماء بارداً بالنسبة لإحدى يديك ، وحراراً بالنسبة للأخرى ، فأىها يكون «فى الحقيقة» ؟

وكذلك الأمر في اللذة والألم : إذا قطعت الأعصاب التي توصل بين الحلق والمخ ، أو أصابها برد ، لا نحس بطعم ما نأكله ، فهل الطعم في الغذاء أو الحلق ، أو المخ ؟ هل تتألم من سننك ؟ نحدر العصب الموصل بينها وبين المخ ، ولن نحس بألم السن . أهى السن التي تؤلم ، أم المخ فقط ؟ وكذلك الحال في إجمال والتبجح : أنت تقول هذه المرأة جميلة ، فهل هي بمثل هذا الإجمال في نظر أخيها أو منافستها ، كما هي جميلة في نظرك ؟ أيركون جماها في ذاتها أم في رغبتك ؟ انزع عن العالم « الموضوعي » سائر هذه الصفات التي تخلعها عليه بوجودك وإدراكك ، فماذا يبقى بعد ذلك ؟ « الذرات والخلاء » ؟ - المادة والمكان والزمان ؟

« ولكن هذه المادة كيف تعرفها ، اللهم إلا بالإحساسات التي اجتمعت في هيئة معان في عقلك ؟ وما المكان إلا أن يكون الوراثة والأمام ، والجانب ، والتحت ، وفي القمة ، وهنا ، وهناك ، وقريباً ، وبعيناً ، وكبيراً ، وصغيراً ، وما هذه كلها سوى مواقف للعقل المارك ؟ أتكون الأشياء في ذاتها إلى الأمام أكثر منها إلى الخلف ، هنا لا هناك ، كبيرة لا صغيرة ، أم أنها ليست كذلك إلا بالنسبة إلى أنفسنا ؟ « ا » تبدو « ا » للعين ، و « ب » للميكروسكوب ، و « ح » للتلسكوب ، فما « ا » في الحقيقة ؟ وقال كلب مسيو برجيرييه : « يصبح سيدي أكبر حين يقرب ، وأصغر حين يبتعد ، أما أنا فالكائن الوحيد الذي يحتفظ بحجمه كما هو أنني ذهبت » . وما الحجم الحقيقي للبرتقالة . . . حجمها بالنسبة إلى الذبابة التي تطير حولها ، أو كما تبدو لي حين أمسكها بيدي ، أو كما تبدو للرجل الذي يعبر الطريق ؟ ولن تهرب من المشكلة حين تقبس الشيء بالمسطرة وتسمى هذا القياس حقيقة ، لأن البوصة في مسطرتك أو مقياسك كالبرتقالة نفسها ، أصغر بالنسبة إليك منها بالنسبة إلى الذبابة ، وأكبر في نظرك مما قد تبدو مخلوق ضخم يزورنا من المريخ . حقاً : « الإنسان مقياس الأشياء جميعاً » (١) وهو الذي يخلق معظم العالم الذي ياركه .

« ويعلن أينشتين كنتيجة أساسية لنظريته في النسبية : « أن البقية الأخيرة

(١) يشير إلى عبارة بروتاجوراس السفاكي المشهور . (المترجم) .

للموضوعية الطبيعية تؤخذ من المكان والزمان» (١) ما الزمان سوى شعورك بالقبيل والبعد عن نقطة تقسم تجربتك نفسها؟ وهل يكون ثمة قبل وبعد إذا لم يوجد أى عقل؟ لعل الإحساس بالزمان أحده عند الحشرة التي تسحقها على الحائط منه في حياتك البطيئة الحركة. وأى زمان « حقيقي »؟ لقد اشتكى إنسان زحل في قصة فولتير من أن طول الحياة فوق ذلك الكوكب السريع الدوران لا يبلغ إلا خمسة آلاف سنة، فماذا يستطيع المرء أن يتعلمه أو يعمله في هذه المدة القصيرة؟ إن السنة التي تزخر بالتجارب تلبو أطول من السنة التي لانجم فيها وقفة لذكري. ويتضاعف الزمن دائماً فوق كرسى طبيب الأسنان. وحكي فلاماريون قصة الرجل الذي رأى حوادث الثورة الفرنسية تتتابع مقلوبة على عكس نظامها في الزمان، لأنه كان يبتعد من الأرض بسرعة تفوق سرعة لضوء. والمكان يغير الزمان كما يحدث ذلك في رحلة على سطح المحيط، أو كما حدث للمسيو باسبارتو Passepartout في « رحلة حول العالم في ثمانين يوماً ». والزمان يغير المكان: فالنجم الذي نراه في أقصى الشمال من السماء ليس هناك، لأنه تحرك منذ أن أرسل الضوء الذي يصل إلينا الآن. فالزمكان (٢) أمر معقد شديداً التعقيد يتركب من الوضع والحكم، إنه ضرب من الإدراك وليس شيئاً خارجياً. وعقلك عبارة عن سجن، ولا يمكن أن يعرف أبداً مقدار ما يعرفه من الشيء، أهو في الشيء أو في العقل الذي يعرف. فهذه هي الإحساسات التي يعطيك حكمها « الحقيقة ».

« كلا، لا يمكن أن يكون الإحساس معيار الحقيقة. فكل ما نعرفه هو أفكارنا، ولا يمكن أن نختبر هذه الأفكار بوساطة عالم خارجي ساهمت إحساساتنا في صنعه مساهمة كبيرة. وكيف يمكن أن نكتشف حقيقة الشيء وقد اضطر إلى التخفي في هذه الإحساسات البصرية والسمعية واللمسية والشمية والذوقية، وهي وحدها التي نعرفه من خلالها؟ وهذه « الأشياء » التي تفترض أنها أحكام الفكر هي من بناء الفكر نفسه؛ إنها المعاني التي تكونها من الإحساسات

(١) Cassirer, E. Substance and Function p. 356.

(٢) مركب مزجي من لفظي الزمان والمكان Space-time (المترجم) .

المتعددة التي جاءت إلينا من طرق مختلفة أشد الاختلاف عبر أعصابنا ، ، وقد
تجمعت في خليط متعسف كالفسيفساء . فنحن نجتمع بين المرئيات والأصوات
والضغوط والطعوم ، ونسمى التكوين الناتج هذا الشيء أو ذاك ؛ إننا نخلق
« الشيء » بإدراكه . والعالم الوحيد الذي لا شك في وجوده هو عالم العقل . عالم
المعاني . وكل شيء علماً ذلك افتراض .

أذلك كذلك ؟ قد يكون . فالفلسفة لا تختص بالأمور اليمينية ؛ ولا نستطيع
أن نقول في نظرية المعرفة ، كالحال في الفن ، إلا أنه لا جدال في الأذواق .
وفي نظر الشخص الذي يتحيز للوضوح يظل هذا الهدم المثالي للعالم الخارجي
عملاً من أعمال العبث المنطقي لا يقنعه ، وبقية من مخافتات السحر البدائي وأسرار
العصر الوسيط . ولا يمكن أن تكون التجربة هي كل شيء ، إذ يجب أن نلتمس
أصلها وراءها ؛ وهذا الأصل هو الذي نسميه المادة . لولا أننا لا نستطيع
أن نقول عنها أكثر مما قاله ستيوارت مل . . . إنها « الإمكان الدائم للإحساس » .
ويقوم السر في لعبة المثالي على الخلط بين المعنى وبين الوجود . فالأشياء
التي لا يدركها أي كائن ليس لها معنى ، ولكنها مع ذلك قد يكون لها وجود
ساذج . ويقول برادلي : « يجب أن يقع الشيء ، في دائرة الإحساس حتى يكون
حقيقياً ، أو حتى مجرد أن يكون موجوداً (١) . ولكن ألم توجد النجوم البعيدة
قبل أن تنكشف بواسطة تلسكوباتنا ؟ وهل يجب أن نقول إنه لا نجم يوجد الآن
مما لم يدخل في نطاق آلاتنا ؟ لا ريب أن النجوم لم توجد ، ولا توجد كما نراها
بالضبط . فهذه النقطة من الضوء التي نسميها الشعري اليمانية قد تكون كتلة من
المادة المعتمة يذبعث عنها جسيمات فيها من السرعة الحرارية البيضاء ما يجعلها
تصبح مضيئة في الطريق . ولكن أصل الجسيمات يوجد « هناك » وليس التلسكوب
خالقاً لها . وقد تبدأ أحد الرياضيين بعد الحساب الدقيق بأن المراسد إذا وجهت
تلسكوباتها في ساعة معينة نحو بقعة معينة في السماء ، فقد يكتشف التلسكوب
كوكباً لم يعرف من قبل . ونظرت التلسكوبات ، واستولت على فريستها ؛ فهل
نخلق العلماء نبتيون ؟ (٢) .

(١) برادلي : الظاهر والحقيقة ، ص ١٤٤ .

(٢) أنظر دائرة المعارف البريطانية ، المجلد العاشر ، ص ٢٨٦ .

ويجب أن نسلم بأن وجود النجوم قبل رؤيتها ليس إلا استدلالاً ،
ولا استدلال مؤكداً . ولكن الاستدلال الذي نحقق بالإحساس المباشر ليلة
بعد أخرى آلافاً من السنين ، فهو استدلال معقول جداً ، وكاف للحياة الإنسانية ،
ولكل فلسفة ترجو أن تؤثر في الحياة لا أن تلعب وحيادة على النوام . عندما
نبرح حجرة الدرس ، ولا يبقى فيها كائن حي (فيما نفترض) يدركها ، هل
تقف الحجرة عن الوجود ؟ الأرجح أنها لا تقف ، لأنها مع الحظ الغريب
توجد هناك دائماً عندما نعود . ومما يبعث على الراحة أن نجد السيدة ماي سنكلير ،
التي تسلي نفسها إلى جانب كتابة القصص بالتأليف في الدفاع عن المثالية ،
تسلم بأنها لا تلد حجرتها حين تدخلها (١) . إن علم اللاهوت يحسن نطاق النساء ،
ولكن الرجال ينخدعون كذلك بنظرية المعرفة .

ماذا تعني ألفاظ « الموضوعي Objective » و « الذاتي Subjective » ؟ لعل
اللعبة تقوم على عدم تحديدهما ؟ سنسلم بما يقوله المثالي ، ونفصل علم المعاني
الذي يسميه وحده علماً حقيقياً ، عن تلك الحقائق الأخرى التي توجد بالنسبة
إلينا ، ولا توجد بالنسبة إليه . سيتألف العالم الذاتي من المعاني وحدها ، وكل
شيء آخر سيكون « موضوعياً » . ولكن هنا تقع مشكلة ، لأن هذا العالم الموضوعي
يشتمل على بدن الشخص المترك ، بكل ما في هذا البدن من أجهزة كالعينين
والأنف واللسان والأذنين وأطراف الأصابع ، وحواسه ولا شك جزء من العالم
الخارجي مثل رجليه ، ورجلاه ولا شك جزء من العالم مثل الأرض التي يقف
عليها هذا الوقوف الفرضي . فإذا تبين ذلك ، فقد وضح أن الصفات المستمدة
من الحس محدودة في الأغلب بشروط موضوعية . فهل بنا تر ذلك .

ماذا يحدد اللون ؟ أمور ثلاثة : الأول التكوين الفيزيقي والكيميائي للسبب
الخارجي في إحساسنا . (إننا نفترض وجود هذا السبب الخارجي للأسباب
المذكورة آنفاً ، وسوف نسميه بعد ذلك « الشيء ») . والثاني مقدار الضوء
وطبيعته وسقوطه ، ويدخل في ذلك التركيب الكيميائي لأصله ، وسرعة موجاته
وقوتها . والثالث العينان ، وأعصاب البصر ، ومراكز الإبصار في المخ عند

(١) المثالية الجديدة ، ص ٥ . (ماي سنكلير May Sinclair ١٨٧٠ - ١٩٤٧ قصة
إنجليزية مشهورة - المترجم)

الشخص الذى يدرك . ولا شرط من هذه الشروط « ذاتى » . ومن الواضح أن المرء يستطيع أن يرى حياقته وأعصابه البصرية نفسها بل مراكز الإبصار فى مخه ، بوساطة آلات لا تزيد فى دقتها عن تلك الموجودة عندنا . وهذه كلها جزء من « العالم الخارجى » ، وليست جزءاً من الشعور أو المعنى المدرك .

وتكون هذه الشروط المحددة للضوء مما يمكن أن نسميه « الموقف الموضوعى » والذى يتركب من السبب والوسط والحاسة . ويختلف اللون وقد يتغير بسبب أى واحد منها . فبممكننا أن نجعل الخلوى حمراء بتركيبات كيميائية ، ويمكن أن نجعل البز (القماش) الأزرق أسود بالضوء الصناعى ، ويمكن أن نجعل الخدقة تنقل الإحساس بنجوم أرجوانية دقيقة بالضغط على العين . فاللون صفة تختلف باختلاف الموقف الموضوعى . وليس اللون صفة لا تتغير للشيء ، ولا هو من خلق العقل المدرك . ويعتقد المثالى بحق فى عدم وجود أى شجرة خضراء إذا لم تكن ثمة عين تراها . إنه يفترض افتراضاً خاطئاً أن إدراكه هو الذى يصنع اخضرار الشجرة . إذا كان الأمر كذلك فقد يجعل إدراكه جميع الأشياء خضراء . . . الشجر والسحب والورد والشعر الذهبى . والحل موجود دائماً : عندما تكون المتضادات موضع نزاع ، فالحقيقة فى الوحدة بينها .

وهنا صحيح بالنسبة للون . ومن الواضح أن الأمر لن يكون كثير الاختلاف بالنسبة للشكل ؛ وكذلك بالنسبة للصوت : فهو يتحدد بموقف موضوعى يتركب من سبب خارجى (كأن يصطدم جسمان فجأة) ، وأمواج الهواء المتوسطة ، وعصب السمع . والأمر كذلك فى الماء الفاتر الذى يكون بارداً وحاراً . فالحرارة التى نحس بها مزيج من أعصاب الحس والشروط الفيزيقية . ولما كانت إحاسى اليدين فرضاً أدفاً من الأخرى ، فإن الإحساسات الحاصلة تختلف بالنسبة لكل يد . ولكن الشروط ، وهى الماء واليدان ، موضوعية جميعاً ، ولم يضع العقل المدرك أى شرط منها . ما اللون الحقيقى ، والشكل الحقيقى ، ودرجة الحرارة الحقيقية ، والصوت الحقيقى؟ لا يستطيع أحد أن يقول قولاً جازماً (دجماطيقياً) فحواس كل شخص تتدخل فى الموقف ، والحواس مختلفة . ويكفى لتحقيق أغراض الحياة أن نعتبر تلك الظواهر التى يدركها أفراد مختلفون إدراكاً مماثلاً

كأنها « حقيقية » . وقد نعتقد أن تلك العناصر التي يتفق في ملاحظتها أفراد مختلفون هي عناصر موضوعية ، مستقلة عن فواتهم المنفصلة . فالحقيقة هي الإحساس الدائم اجتماعياً .

ولقد أربأنا القول في مشكلات المكان والزمان لأن الخلط بشأنها بلغ حد اليأس منها حتى سلم علماء مثل شتينمتر Steinmetz وأنيشتين لكناظ . فالمكان باعتباره الإحساس بالمسافة أو مقياسها هو في شطر منه ذاتي ، ما دام الوضع والمسافة نسبيين لأنفسنا . غير أن المكان باعتباره مجموع كل خطوط الحركة الممكنة هو مع الأسف مستقل عن الإنسان . وقد نتصور أن المثالية في هذا الموضوع قد رُفِضت بما فيه الكفاية بما بينه وبين جيمس ، متفقاً مع العقل السليم Common sense من أن العلاقات تدرك إدراكاً مباشراً كأي شيء آخر . وإذا لم يكن هذا القول كافياً ، فإن تجارب كوهلر على القردة قد وضعت لهذا الأمر حداً إلى الأبد . فنحن ندرك التجاور ، واللامساواة ، والحركة ، والسكون . ونحن نرى حشرة تتحرك على أرض ثابتة فإننا ندرك مباشرة الزمان والمكان معاً .

ذلك أن الزمان ابن الحركة ؛ وإذا لم توجد أي حركة فلا يوجد أي تغير ؛ وإذا لم يوجد أي تغير فلا يوجد أي زمان . والزمان باعتبار أنه إحساس بالقَبْلِ والبَعْدِ ، وشعور بالسيلان ، ذاتي ، والعقول وحدها هي التي يمكن أن تقدمه للعالم . والزمان باعتبار أنه تغير موضوعي ، ولا ريب أنه ماضٍ في سبيله حتى لو مات كل عقل . فالشجرة تبرعم وتزهو ، وتزدهر وتورق ، على توالي الربيع والخريف حتى تموت ، على الرغم من عدم وجود أي عقل يدركها . والماء والخزر دائبان على مدهما وجزرهما ، ولا تزال القارات تذوب في البحار ، ولو أن أي عقل لا يشعر بها أو يقيسها . ولقد كان المحيط يموج قبل أن يأمره بيرون ، وبعده أن عاش ليكتب آخر بيت في قصيدته . فالعالم ، وحتى الزمان والمكان ، واقع غشوم Brute ، يحسن بالحكيم أن يقبله ، ولا يقل صحة عما يعتقده الفيلسوف . ووجود العالم هو شرطنا ، وحدودنا ، وأصلنا . وما يعطيه العقل للعالم هو الدلالة وليس الوجود . وليس العالم الأشياء من معنى إلا ما نصبه فيه . ولعل ذلك هو السبب في أنه غير مفهوم إلى هذا الحد .

إننا نلر جو أن ينتهى التجديد الإبتدءى (المعرفى) فى حركة الفلسفة ، وأن نسمع من جديد قريباً القضايا الواضحة عن مشكلات الحياة والموت . ومع أن المثالية كانت ذات فائدة فى تتبع ما تجلبه الحواس للعالم الذى يدركه الإنسان ، فقد كان فيها شىء من البلاءة . ولو أن حياة المثاليين كانت مطابقة لنظريتهم ، ولو أنهم سلكوا سلوك من يعتقد حقاً فى أن العالم الخارجى غير حقيقى ، فقد يمكن أن نمجدهم كما نمجد القديسين الذين يمارسون ممارسة رواقية أو هامهم النبيلة . ولكن الغريب أن هؤلاء المنكرين للعالم عاشوا وتمتعوا كأى واقعى Realist ، وهفت نفوسهم إلى الذهب غير الموجود . بل إن فشته ، كما اقترحت مدام دى ستال ، لابد أنه شك فى لحظاته المتواضعة أىكون قد خلق زوجته بإدراكه لها . لقد جاءت هذه القصة الخرافية الكبيرة ، قصة العقل الذى خلق العالم ، من ألمانيا ، بلاد القصص الخرافية ، ونشأت هذه الأسطورة من الحركة الرومانتيكية كرد فعل للشعور والخيال ضد الواقعية والمادية والشكسية ، وهى المذاهب التى سادت فى عصر فولتير . لقاء كانت احتجاجاً ضد احتقار كوبرنيق للبشرية . ثم بدأت تضعف يوماً بعد يوم فى وجه الداروينية ، ولعلها تبطل فى القريب . فنحن نسمع قليلاً نسبياً عن المثالية فى فلسفة فرنسا ، فالناس هناك ميالون للإفصاح عن رغباتهم بغير نفاق ، وهم لا يظنون أنهم لكى يصبحوا خالدين يجب أن يحطموا العالم . ذلك أن العالم كان موجوداً هنا قبل مجيئنا ، وسيظل باقياً بعد ذهابنا إلى العالم الآخر . إن العالم ليضحك حين يسمع أن الإنسان مقياس الأشياء جميعاً ، لأنه يعرف أن الإنسان ليس إلا بيتاً فى قصيدة أوديسيا الطبيعية . والفلسفة محاولة لرؤية الجزء فى ضوء الكل . فلنكن متواضعين .

٣ - العقل فى مقابل الغريزة

لقد عاجلنا هجوم المثاليين على الحواس من عالى . والآن يجب علينا قبل أن يقودنا المنطق إلى أنياب الحياة أن نواجه هذا الهجوم الغامض الموجه ضد العقل من أسفل . لقد لاحظ هيوم أنه حين يقف العقل ضد الإنسان ، يسارع الإنسان بالوقوف ضد العقل . وإذا لم يستطع الفكر أن يعقل الرغبة فى ثوب من

المنطق ، فإن الرغبة قد تذكر في نهاية الأمر كل سلطان للفكر . واتقاد كان من المتوقع في حياة تقوم على آمال تجاوز العقل تجاوزاً كبيراً أن يخترع الناس منطقاً لا يقوم على العقل بل بسوِّخ أحلامهم .

وكما أن ديمقريطس المبادئ أرسى قواعد المثالية . كذلك أعان زينون الشاك Sceptic^(١) الإيلي على ظهور قضية التصوف . ذلك أن زينون الذي ظهر قبل سقراط بقرن من الزمان سخر من العقل بمتناقضاته التي ردتته إلى الخُلْف . فهذا أخيل يسابق السلحفاة ، وإذ كان السلحفاة قد سبقته ، وإذن فلن يلحقها أخيل أبداً . ذلك أن أخيل حين يقطع المسافة من نقطة بدايته إلى حيث بدأت السلحفاة ، تكون السلحفاة قد تقدمت مسافة معينة مهما تكن صغيرة . وعندما يقطع أخيل هذه المسافة تتحرك السلحفاة من جديد . . . وهكذا إلى ما لا نهاية له . وإذا بك ترى أن العقل لا يستطيع أن يثبت أى شيء ، وبناء على ذلك لا يثبت شيئاً على الإطلاق^(٢) . وكذلك السهم المنطلق لا يتحرك ، لأنه ما دام الشيء في مكان واحد وفي المكان نفسه فهو في ساكن ، ولكن السهم المتحرك هو في كل لحظة في مكان واحد فقط ، فهو إذن ساكن في هذه اللحظة ، فهو بناءً على ذلك ساكن في كل لحظة من حركته . وينتهي أاناتول فرانس إلى القول بأن : « أى شيء يمكن إثباته بالاستدلال ، فقد برهن زينون الإيلي على أن السهم المنطلق لا حركة له . وقد يستطيع أحدنا أن يثبت العكس ، ولو أن ذلك في الحقيقة أصعب »^(٣) .

(١) من الغريب أن يصف المؤلف زينون بأنه من الشاكك، وهذا ولا ريب تعسف منه، لأن حجج زينون كانت تهدف إلى تأييد مذهب بارمنيدس في إثبات الوجود، لا في الشك فيه. (المترجم).
(٢) تقوم المشكلة على افتراض أن حركة أخيل والسلحفاة يمكن أن تقسم إلى ما لا نهاية له إلى « لحظات » - أنظر الهامش اللاحق .

(٣) سيرة ورسائل ، لندن ، ١٩٢٤ ، المجلد الرابع ، ص ٦ . ويظن برتراند رسل أن زينون على صواب في قوله إن السهم ساكن في كل لحظة من انطلاقه ، ولكنه ينكر الاستدلال بأن السهم يظل في الموضع نفسه - ولو أن الاستدلال يبدو منطقياً . (مادة زينون في دائرة المعارف البريطانية ، وفي مبادئ الرياضيات ص ٣٤٦) . ولعله من الأفضل (إذا أراد المرء أن يلعب هذه اللعبة) أن ننكر المقدمة القائلة بأن السهم الذي يكون في أى لحظة في مكان واحد وفي نفس المكان يجب أن يكون ساكناً . فهذا تفسير ستاتيكي للحركة يخرجها عن الحركة . فلا يوجد شيء يسمى « لحظة » بمعنى محطة أو وقفة في الزمان . فالزمان لا يقف في أى محطة ، وله حركة وليس له لحظات . أما اللحظات فهي تقطيعاتنا العقلية للزمان المتصل غير المنقطع .

لقد كان الإغريق والرومان رواقيين حتى حين كانوا أبيقوريين . فإذا وجدوا أن العقل يعارض الرغبة قبلوا تحميد العقل في هلسوس ، وسعوا إلى اتباع العقل ، مع أنهم كانوا يبتسمون لمزاعمه . ولكن قوى التصوف المتجددة على الدوام في أمل البشر نبعت من الشرق وتدفقت إلى بلاد اليونان ، فقلبت حياة العقل التي ازدهرت هناك رأساً على عقب ، تلك الحياة الضعيفة العاجزة . وجاء الإلهام والوحي الإلهي يبعثان الراحة إلى نفوس المظلومين . وعندما تحطمت بلاد اليونان وأصبح كل يوناني فقيراً ، مات العقل ، ووضع الإيمان (الذي لا يموت أبداً) حداً للعالم القديم . وأصبح ما يثبته المنطق قليل الأهمية ، فقد تكلم الله بأمر عجيبة ، وحتى لو بدأت مستحيلة فكم يكسب المرء بتصديقها . وأصبح شعار الملايين من العبيد : « إني أعتقد في المستحيل Credo quia impossibile » وظلت الحقيقة تُعرف خلال خمسة عشر قرناً من الزمان ، لا بالإحساس أو العقل ، بل بالرجوع إلى الأناجيل وعقد مجمع الكرادلة .

ولقد انحطت الكنيسة : خطأ عظيم حين سمحت بلعبة المرسيين في إثبات الوحي بالعقل ، إذ كيف أمكنها أن تعلم أن اللعبة ستضئ في طريقها ، أو أن تصادعاً غير منتظر قد يستهوي ألمع العقول نحو جانب العقل ؟ وهذا هو الذي حدث . فقد وقع ديكارت في هوى العقل ، ومات اسبينوزا جوعاً في سبيله ، وأحرق برونو من أجله . ومجد الناس هذه الخلية الجديدة وهي العقل ، وكلملاً زادت عشاقها عذاباً أغروا بها . وأصبحت عبادة العقل نفسه ديناً وإيماناً ، فقد وضع عصر التنوير على أساسه اعتقاده النبيل في « كمال البشرية اللانهائي » . وأقامت الثورة الفرنسية الهياكل لربة العقل الجميلة . ولم يبق ثمة فضل لا يستطيع العقل أن يمنحه للناس .

ولم يكن روسو سعيداً في هذا الجو الخفيف الهواء . لقد كان يقاسى كثيراً وكان محتاجاً إلى اعتقاد كثير . وحين سخر العقل منه سماه مرضاً ، فقال : « إني لأجروء على التصريح بأن حالة التأمل مضادة للطبيعة ، وأن الإنسان المفكر هو حيوان فاسد » . ومثلت رواية الإغريق والشرق من جديد ، فقد سئم الناس الحياة وملوا الثورة والإرهاب والعظمة ، وعادوا جماعات إلى حظيرة الإيمان ،

وغطوا انسحابهم بالدعوة إلى الغريزة والشعور. وقال دى موسىه: «يجب أن نفكر». وقام هيوم الفيلسوف الشاك معونة غير بارعة للعدو برده السببية والاستقراء والعلم إلى مستوى الزعم والاحتمال. أما كانط فهو أنفذهم جميعاً منطقاً. فقد سار على نهج زينون. وأعلن لأوربا أنها تستطيع أن تعتقد كما تشاء في الله وحرية الإادة وإخلود ما دام العقل شيئاً ناقصاً لا يستحق أن يقبل من الإنسان تضحية السماء والمدينة الفاضلة. وأنضج شوبنهاور خدمات العقل اليسيرة للإرادة. وأثبت فرويد بآلاف من الأمثلة سطحية العقل الذي يكسو أهداف البدن الأنانية بأدلة محترمة. وسمى نيتشه الغريزة: «أذكي صور العقل». وأعلن برجسون - كأي فيلسوف مادي تكويني - أن العقل عبارة عن سيدنا تفقد في صورها الاستاتيكية اتصال الحياة وروحانية النفس. لقد كان كل ذلك العصر الطويل من «إميل» إلى «التطور الخالق»، من روسو وكانط إلى شوبنهاور ونيتشه، إلى برجسون ووايم جيمس، رد فعل رومانتيكي ضد عصر العقل. واليوم لا بد أن تنشأ المعركة من جديد، معركة الصراع بين كونفوشيوس ولاوتسى، بين سقراط وزينون، بين فولتير وروسو. ويجب أن تسوِّغ مناهج العقل مرة أخرى ضد الغريزة والحدس والتصوف والإيمان غير المفهوم.

ما الغريزة؟ إذا كان لنا أن نوّمن بآخر المذاهب في علم النفس فيجب أن نستبعدا باعتبار أنها اسم لشيء ليس له وجود. غير أننا حين نرى أولئك الذين ألقوا بالغريزة من الباب يعيدونها مرة أخرى من الشباك باسم «الاستجابة التي لم تعلم» فقد نفتنح باستبقاء الزجاجات القديمة للخمر المعتقة، ونسمى بصريح العبارة غريزة ميولنا الموروثة إلى المشي والجرى، والأكل واللعب، والكفاح والحرب، والإلف والزواج، ومحبة البنين حين يولدون.

فهذه أنواع من السلوك مختصرة نافعة تطورت لمواجهة المطالب السريعة في حياة الجنس دون انتظار بطء الروية. ولكن هذه الأنواع لا تلائم إلا ما بيننا وبين هذه المواقف القديمة الثابتة فقط. لقد قامت لتسد حاجات معيشتنا الحيوانية وحياة الصيد. ومع أنها تحسن خدمتنا حين لا نجد وقتاً للتفكير،

إلا أنها تلتأم الأمس أكثر مما تلتأم اليوم . فقد يجرى الطفل من ثعبان ويلعب
ببندقية محشوة . وقد يكون الرجل فيلسوفاً عميقاً ويربط نفسه إلى آخر حياته
بلمية بلهاء - وكذلك تزوج سقراط اكرانثيب ، وجوته كرستيان . إننا بالغريزة
« لا نخشى حملة الملاريا والحمى الصفراء ، ولكننا نخشى الرعد والظلام ؛ ولا نرتى
الموهوبين المحرومين من العلم ، بل المتسولين ذوى القروح الدامية ؛ ولا يثيرنا ظلم
كبير كما يثيرنا جرح بسيط ؛ ويؤلمنا ازدياد الخادم إذا لم يأخذ حلواناً (بقشيشاً)
أكثر مما نتألم من كسلنا وجهلنا و حماقتنا » (١) . لعل الغريزة كانت كافية لحياة الصيد
البدائية : فدوافعنا الطبيعية تلتأم حالة الصيد أكثر مما تلتأم حياة الزراعة ، وإلى
تلك الحالة نصبو في رغباتنا الموسمية وجموح الشباب ، نحو « الرجوع إلى الطبيعة » .
ولكن منذ أن قامت الحضارة أصبحت الغريزة غير ملائمة ، وطرقت الحياة
أبواب العقل .

متى بدأ العقل يسير سيرته ؟ لعل ذلك حين هبطت أمواج ضخمة من
الجليد في بطن من القطب ، فجعلت برودة الهواء قارسة ، وأهلكت الزرع في
كل مكان تقريباً ، وأبادت كثيراً من أنواع الحيوان العاجزة القاصرة عن التكيف ،
ودفعت عدداً قليلاً من الأحياء إلى الجنوب في منطقة حارة ضيقة تعلقت عدة
أجيال بنحط الاستواء في انتظار غضب الشمال أن يذوب . أكبر الظن أنه في
تلك الأيام العصبية ، حين بطلت جميع أساليب الحياة القديمة مع غزوة البرد ،
ولم تلق طرائق السلوك الموروثة أو التقليدية أى نجاح في بيئة تغير فيها كل شىء ،
هلكت الحيوانات مع تزودها بسلاح كامل ، ولكنه غير مرن ، من الغريزة ،
لأنها لم تستطع تغيير أنفسها من الداخل لمواجهة التغير في الخارج . أما الحيوان
الذى نسميه الإنسان وقد وهب مرونة مزعزعة ، فقد تعلم فنون النار والطهى
واللبس ، وقاوم العاصفة ، وارتفع إلى منزلة يمتاز فيها بلا نزاع عن سائر أنواع
الغابة والسهل .

ونشأ التفكير البشرى - أكبر الظن - في مثل هذه الحال الطارئة من الحياة
والموت . ونحن نرى اليوم نفس هذا النقص وهذا التكيف لردود الأفعال الطبيعية

(١) ثورندايك : طبيعة الإنسان الأصلية ص ٢٨١

في الطفل ، وهو تكيف يبيح له احتمال التعلم ، ولو أنه أدنى في مستواه من وليد الحيوان - نقول هذه المرونة نفسها هي التي أنقذت الإنسان والثدييات الراقية ، على حين أن كائنات هائلة وقوية مثل الماموث والماستودون ، وهي التي كانت تتجول سيدة المنطقة ، رزحت تحت عبء التغير الجليدي ، ولم تصبح إلا موضعاً لاستطلاع علم الحفائر الحيوانية . وقد ارتجفت تلك الحيوانات وزالت على حين بقي الإنسان الضئيل . وهنا بدأ الفكر والاختراع . ونشأ عن حيرة الغريزة المعطلة أول الفروض البسيطة ، وأول محاولة للجمع بين اثنين واثنين ، وأول التعميمات ، وأول الدراسات الشاقة في تشابه الصفات وانتظام التابع ، وأول ملاءمة بين الأشياء المتعلمة وبين المواقف التي بلغ من جدتها أن أخفقت الردود الغريزية والمباشرة إزاءها إخفاقاً تاماً . ونشأت عندئذ نماذج من العمل وتطورت إلى أساليب من التفكير وآلات للعقل : فأصبح ما كان ارتقاباً وتربصاً للفريسة انتباهاً ، وأضحى الخوف والهرب حذراً وروية ، وأمسى القتال والوثب استطلاعاً وتحليلاً ، وصار العبث باليد تجريباً . وانتصب الحيوان فأصبح إنساناً لا يزال عبداً لآلاف الظروف ، وشجاعاً في جبن إزاء المخاطر العديدة ، ولكنه مؤهل بطريقته المزعزعة إلى أن يكون سيد الأرض .

ونشأ العقل من مثل هذه البدايات حتى اليوم . كما يقول جراهام ولاس ، ولكنه لا يزال إلى حد ما غريزياً . فإذا عرض علينا موقف جديد ترددنا بالغريزة ، إلى أن تبعث أوجه المشكلة المختلفة أثرها فينا ، وتصبح استجابتنا سلوكاً معقداً ورداً كاملاً نسبياً على موقف يكاد يكون تام الإدراك . والفعل المنعكس استجابة موضعية لمؤثر موضعي ، كما يحدث عندما نحك قرحة . أما الغريزة فهي استجابة عامة لعنصر واحد في موقف من المواقف ، كالحال عندما نلح في النظر إلى وجه جميل . والعقل استجابة كلية لموقف كلي ؛ وعندئذ يحطم العقل الحب وقد يهلك الجنس . وكما تتجمع الإحساسات في ظل الرغبة فتكون نظاماً من المعاني والفكر ، كذلك الغرائز والعادات تقع مع الاستجابات البطيئة بعد آلاف من التجارب والأخطاء في هيئة من العقل . وليس بين الغريزة والعقل فرق في النوع ، بل في الدرجة . وكل واحد منهما يقدم للآخر عناصره ، فالروية بديل عن اللدواع

المتعارضة ، والتمييز أو الفطنة فصل الموقف إلى عناصره كمقدمة للرد الكامل ،
والعقل تحليل المؤثر وتركيب الاستجابة .

والعلة في عجز العقل هو هذه المهلة التي تتمخض عن ظهوره . وقد
أهلكت المواقف كثيراً من الفلاسفة الناضجين قبل تحليلها بما يرضيهم . ولقد قال
جريفويلز Griffuehles النقابي : « إذا أطلنا التفكير لم نتم شيئاً » . ومن أجل
ذلك أحب نقاييو فرنسا مذهب الحدس Intuitionism البرجسوني . وقد
اقترح برجسون أن نقفل باب الفكر ، وأن نبداً بالتنتاج والدوافع أولاً ثم بالاستدلال
بعد ذلك . . . مع الفراغ الذي يعقب ذلك . هذا إلى أن العقل حين ينسى ولاءه
للإحساس قد لا يؤثر الحجة البيّنة Evidence ، بل المراوغة Subtlety وعندئذ
يصبح أشبه بالتاريخ المكتوب ، فيصبح المدافع الكاذب عن أي رغبة قوية .
فالعقل ، كما نخبرنا أي طالبة في الممارس ، قد لا يكون غير فن تعقيل الرغبة .
ونحن في أغلب الأحيان لا نفعل الأشياء لأن عندنا أسباباً لعدم فعلها ،
ولكننا نلتمس الأسباب لأننا نود فعلها . ومن أبسط الأمور في العالم أن نبنى
فلسفة تقوم على رغباتنا ومصالحنا . ويجب أن نحذر أن نكون شيوعيين لأننا
فقراء ، أو محافظين لأن مصلحتنا في جانبهم . وكلما أدخلت الفلسفة البهجة
على أنفسنا ازداد حذرنا منها . وقد أحسن برتراند رسل حين قال : « ليست
إرادة الاعتقاد هي ما نحتاج إليه ، بل الرغبة في البحث ، وهو شيء على
النقيض تماماً » (١) .

ومرة أخرى قد يفضى بنا التفكير إلى الشك ، والفتنة ، والسخف . فكل
تفكير ينشأ عنه تفكير مضاد ويساويه يكاد يبلغ من الحتمية مبلغ القانون الثاني
للحركة . وفي ذلك يقول أناطول فرانس لبروسون Brousson : « هذا ولا ريب حق ،
ولكن الضد حق كذلك » (٢) ثم ينقل عن باريس Barrès المتصوف قوله :
« إن ما يميز الدليل عن اللعب بالألفاظ أننا لا نستطيع ترجمة النوع الأخير » (٣)

(١) مقالات شكية ص ١٥٧ Sceptical Essays

(٢) Anatole France en Pantoufles, p. 45

(٣) On Life and Letters, Fourth Series. p VI

نعم ، العقل آلة ناقصة كعلم الطب ، أو عين الإنسان . ونحن نستفيد منه أفضل استفادة في نطاق ما أودعه القدر والطبيعة . ولا نشك أن بعض الأمور نحسن أداءها بالغريزة أفضل من الفكر . ففعل الأحكم في حضرة كليوباترة أن نظماً مثل أنطونيوس من أن نفكر كتمبصر . ولعل الأفضل أن نحب ونفقد المحبوب من أن نحسن التفكير . ولكن لماذا يكون هذا أفضل ؟ أذلك لأن الغريزة أسد ، أم لأن ضرباً من الحدس الصوفي قد كشف لنا عن هذه الحكمة ؟ كلا ، بل لأن التجربة - وهي الإحساس مع مرّ الزمن - قد علمتنا أن ساعة من النعيم تساوي سنة من التفكير .

وإذا كنا نفكر فليس ذلك لأننا نهوى التفكير ، بل لأننا يجب أن نفكر ، فعالمنا الحديث كثير المزالق والتغير بحيث لا يسمح بمواجهة الاستجابات الثابتة الطابع . لعله لا تزال توجد طرق قديمة في الحياة تفيهاها الغريزة كالأمومة ، والزراعة ، والاستقرار في البيت . ولكن حتى في هذه الأمور يجب أن يتدخل العقل ، مثل منع الحمل لتحديد الأمومة الغريزية ؛ هذا إلى أن المرأة قد خرجت من البيت البسيط إلى الصناعة المعقدة ، وأصبحت المزرعة التي كانت يوماً ما منعزلة مقراً لشبكة من العلاقات مع الوسطاء والأسواق البعيدة ورجال المال المحترفين . أما نحن الذين نسكن المدن فإن الاستجابة المباشرة والغريزية تصبح يوماً إثر يوم خطرة ، لأن لكل غريزة أنانيته وإيثارها الخاص لنفسها ، وتسعى إلى إرضاء ذاتها بأي ثمن على حساب مجموع الشخصية . وكل غريزة هي جزء منا يزعم السيادة على غيره ، ولن نستطيع أن نحقق الوضوح والوحدة والصحة والعقل إلا بالتأليف بين هذه الأجزاء من أنفسنا .

انظر إلى الغريزة الجنسية : إنها تسوقنا إلى التساقد ، ولعلها تسلمنا إلى الإباحية . ويضيق نظر هذه الغريزة بما فيها من شدة ، فلا تقف لتفكر في النتائج . إننا نتزوج بالغريزة ، ونطلق بالعقل . وقد تلتقى الغريزة بكل فتاة في أحضان أول جندي يعترض طريقها . وقد تجعل من كل زوج فاسقاً ، ومن كل أم مجرد أم فقط لا تكاد تظلم حتى تحمل . إنها تضاعف مقدرة الفم بالسرعة التي يضاعف بها العقل والاختراع إيجاد الأقوات ، فيصبح آخر حالة للإنسان

سيئة كأول أحواله . وبالغريزة يبحث الإنسان الجائع عن الطعام ثم يذبح نفسه ويموت ؛ وبالغريزة يتعلم الطفل المشي فيمشي على قمة الدرج أو على حافة الطنّف . وبالغريزة ترتعش في خوف لا فائدة منه حين تزار الأسود داخل أقفاصها في حديقة الحيوان . وبالغريزة يصبح الجندي الحديث الخائف وحثاً في المعركة ، حاد الأنياب والأظافر ، أعمى بالبغض واليأس ، معرضاً لميته قدرة ، على حين يقف القائد المثقف المفكر آمناً في المؤخرة يكتب قصة انتصاره ، ثم يعود إلى الوطن فيرث الأرض .

لذلك فنحن نترك لإخواننا الصابرين في الدير إلهاماتهم التي لا يمكن تحقيقها ، وإيمانهم المريح ولكنه مزعزع ، كما نترك لأبناء عمومتنا في الغابات والأحراش غرائزهم العالية في دقتها وسدادها . ولقد قال كونفوشيوس : « لا يختلف الإنسان عن الحيوان إلا قليلاً ، ومعظم الناس يطرحون هذا الشيء القليل » . أما نحن فنلقى نصيبنا من الإحساس والعقل ، قانعين بقبول الحياة كمعيار لتفكيرنا ، عازمين بقدرة الطاقة على إضافة التفكير لحياتنا . سوف نقع في أخطاء كثيرة ، وليس ثمة ضمان أننا نبلغ السعادة في النهاية . إن بهجة الفهم الممزوجة بالألم مثل نشوة الحب . وسنطرح في طريقنا الفكري كثيراً من اليقينيّات ، وستهوى كثير من الأوهام التي كانت تبث فينا الشجاعة . ولكن : « الحياة بغير التفكير غير جدية بالإنسان » . ونحن نؤثر أن نكون سقراط في السجن من أن نكون كالبيان Caliban (١) على العرش . فلنمض معاً في التفكير .

(١) كالبيان شخصية ابتكرها شكسبير في رواية العاصفة ، وجعله ابن الشيطان ، مشهوراً ، وعبداً .

[المترجم]

الجزء الثالث

الميتافيزيقا

الفصل الثالث

المادة والحياة والعقل

١ - مقدمة لأدرية

ما طبيعة العالم؟ ما مادته وما صورته، وما مكوناته وهيكله، وما مواده الأولى وقوانينه؟ ما المادة في كيفها الباطن، وفي جوهر وجودها الغامض؟ ما العقل؟ أهو على الدوام متبديز عن المادة وذو سلطان عليها، أم هو أحد مشتقات المادة وعبد لها؟ أيكون كلا العالمين، الخارجى الذى ندركه بالحس، والباطنى الذى نحسه فى الشعور، عرضة لقوانين ميكانيكية أو حتمية، كما قال الشاعر: « ما يكتبه الخالق فى مطلع الصبح نقرؤه فى آخر النهار »، أم ثمة فى المادة أو فى العقل أو فى كليهما عنصر من الاتفاق والتلقائية والحرية؟ هذه أسئلة يسألها قلة من الناس، ويحجب عنها جميع الناس، وهى منابع فلسفاتنا الأخيرة التى يجب أن يعتمد عليها فى نهاية الأمر كل شىء آخر فى نظام متماسك من الفكر. إننا نؤثر معرفة الإجابات عن هذه الأسئلة على امتلاك سائر خيارات الأرض.

ولنسلم أنفسنا فى الحال لإخفاق لا مناص منه، لا لأن هذا الباب من الفلسفة يحتاج فى إتقانه إلى معرفة كاملة ومناسبة بالرياضيات والفلك والطبيعة والكيمياء والميكانيكا وعلم الحياة وعلم النفس فقط، بل لأنه ليس من المعقول أن نتوقع من الجزء أن يفهم الكل. فهذه النظرة الكلية وهى فتنتنا فى هذه المغامرات اللطيفة ستبعد عن فكرنا جميع الفخاخ والمفاتن. ويكفى أن نأخذ أنفسنا بقليل من التواضع، وشىء من الأمانة، لتؤكد من أن الحياة والعالم فى غاية التعقيد والدقة بحيث يصعب على عقولنا الحبيسة إدراكهما. وأكبر الظن أن أكثر

نظرياتنا تبجيلاً وقد تكون موضع السخرية والأسف عند الآلة العليمة بكل شيء . فكل ما نستطيع أن نفعله هو أن نفخر باكتشاف مهاوى جهلنا . وكما أكثر علمنا ، قلّت معرفتنا ، لأن كل خطوة نتقدمها تكشف عن غوامض جديدة وشكوك جديدة . فالجزء ينكشف عن الذرة ، والذرة عن الإلكترون (الكهيري) ، والإلكترون عن الكوانتوم Quantum (الكويمية) ويتحلى الكوانتوم سائر مقولاتنا Categories وقوانيننا وينطوى عليها . والتعليم تجايد في العقائد وتقام في فن الشك . وآلاتنا كما نرى مرتبطة بالمادة ، وحواسنا بالعقل . وفي خلال هذا الضباب يجب علينا نحن « الزغب على الماء » أن نفهم البحر .

لذلك فنحن نقبل على هذه المشكلات كما يقبل القسيس على المذبح لأول مرة ليتلو سر القديس . لن نحل هذه المشكلات . وأفضل ما نعمله أن نكشف فقط عما توثره أنفسنا . فإذا أساء الدين إلينا بعظم معتقداته فقد نرتد محتجين إلى مادية مجردة ، كما فعل شللي الطائش ، الذي كان يعتقد في الله وفي الخلود ، وسمى نفسه « ملحداً » ليهدف بتحديه في وجه الكنيسة الرجعية المغرورة بنفسها . وإذا كنا من أصحاب العقول الرقيقة فسوف نتعلق بالإيمان ، ونعتبر أن عالماً ميكانيكياً بغير إله أمر بصعب وجوده . أو لعنا نتقدم في السن فتبدو اليوم ثورات شبابنا غير ضرورية ومسرفة . إن الحقيقة لتشرق مرة أخرى من الأفكار القديمة التي بدت يوماً ما خادعة وباطلة . ونحن نقبل مرحبين شاكرين أي أنباء من عالم العلم أو التاريخ ، قد تعيد إلينا بعض البصيص من معتقداتنا القديمة . ولن تكون علومنا في الطبيعة والكيمياء والفلك والحياة سوى ميادين للصيد ، تقتنص فيها الكرامة لمزاعمنا ، أو الراحة لآمالنا .

ومع ذلك . . .

٢ - المادية

كما أن المادية هي أول فلسفة يعتنقها ذلك الذي خلع عن نفسه رداء المعتقدات الغيبية ، فهي كذلك أول تصور عن العالم يظهر في أمة أخذ دينها

الرسمي في الزوال . كان المفكرون قبل سقراط ، وهم الذين رفع بيكون ونيشيه من شأنهم على خلفائهم ، جميعاً من الماديين تقريباً . فقد فسر طاليس وأنكسمندريس وأنكسمانس الكون على أنه من مشتقات الماء أو النار أو الهواء . وقدم لوقيبوس وديمقريطس للمادية تلك الصورة الذرية التي أرضت سائر الهراطقة الصميمين ، إلى أن تفتت الذرة تحت تأثير علمي الطبيعة والكيمياء الحديثين .

وظلت هذه الفلسفة التي تعد أبسط الفلاسفات متماسكة عدة أجيال ضد شك زينون ، وثنائية أنكساجوراس . ثم انصرف سقراط عن البحث في العالم الخارجي ، واكتشف النفس التي بلغ من اختلافها عن المادة أنه ظن أنها محصنة عن الموت . وسمى أفلاطون المادة « العدم » ، وأعلى من شأن العقل فوق كل شيء ، وكان يرى أن العالم الخارجي خاضع للعقل في الحس ، وللمثل في التركيب والعدل . وبدا له أن العالم كله صورة متوسطة لنموذج كامل ملرك بوساطة نفس خالقة . ووجد أنه طو البيولوجي العالم شيئاً متغيراً متحركاً ، ولم يستطع أن يرده إلى الذرات والخلاء ، وجوهره هو الكمال الأول (انتلخيا Entelechy) ، ففي كل مادة قوة خفية لا تهدأ حتى تتحقق . وكل « صورة » هي « مادة » صورة أعلى ، وكل حقيقة فهي حامل بالنمو ، ولم تستطع المادية أن تصف وصفاً صالحاً هذه الحيوية المتفجرة . ونسى ديمقريطس قرناً من الزمان . وتجسد ديمقريطس في شخص أبيقور الذي يكاد يسبق بلانك Planck وبور Bohr وكوري فرأي في الذرة مبدأ للحرية وعلم الثبات ، ومع ذلك رمزاً للهلاك والفساد . فجميع الأشياء حرة ، وجميع الأشياء إلى موت . وفرح لوكريتيوس وقد سئم الحياة بأن يسمع عن هذا الموت الأكيد اللانهائي . وخيل إليه أن القول بأن الشعراء أنفسهم مركبون من ذرات هو أمر جميل ولو أنه كئيب ، وكذلك القول بأن كل كائن وكل ذرة إلى انحلال وزوال في أمن من الألم إلى الأبد .

ثم ظهرت المسيحية وبقيت المادية خمسة عشر قرناً منبوذة في الفلسفة . وكانت بعض الفرق القديمة المخالفة لتعاليم الكنيسة قد نصورت النفس غازاً

لطيفاً ، وأن الله نفسه غاز أكثر لطافة . . . وهم بذلك يقتربون من تعريف هيكل Haeckel في شبابه الألوهية بأنها « فقريّة غازية » . gaseous vertebrate . ولكن المادة في الأغلب كانت الملاك الذي غوى ، وإبليس الفلسفة ، ومحنة الروح وسجنها . ومن الغريب أن المادة وجدت مكاناً رحباً في فلسفة القديس توماس الأكويني ، فجعلتها قديمة بالقوة علم الزمان ، وأصبحت « مبدأ التشخيص » ، فيصير الواحد كثيراً خلال صورها وتحولاتها ، وينقسم محيط الروح إلى بحيرات صغيرة تسمى الأنفس الخالدة .

مهما يكن من شيء فلم تبدأ المادة تستعيد منزلتها حتى ظهور ديكارت . ومن الحق أن الفيلسوف الفرنسي (١) الخذر لم يرتفع بالمادة حتى تصبح الحقيقة الواحدة ، وحين استهل فلسفته بالنفس والفكر قائلاً : « أنا أفكر ، إذن أنا موجود » فقد فتح الباب لتلك المثالية نفسها التي أصبحت أنجبت عدو للمادة . ولكنه تصور العالم تصوراً ميكانيكياً ، وأشرف الحيوانات كآلات منومة . وكل شيء ما عدا نفس الإنسان يخضع لمبادئ الطبيعة ، بل إن الظواهر المعقدة كالهضم والتنفس والإفراز والتناسل تدل على عظمة الميكانيكا . وفي هذه الكوسمولوجيا الديكارتية الصعبة ولدت المادية في شبابه الثاني .

وهناك حركتان كبيرتان في الفكر الحديث ، دعوى Thesis ونقيضها Antithesis ، كما يقول هيجل ، في انتظار دعوى تركيبية Synthesis يجب على جيلنا الحاضر أن يشرع في عملها . وتبدأ الحركة الأولى بالعالم الخارجي ، بالمادة ، والطبيعة ، والميكانيكا ، والرياضة . وهي تمثل ، وكأنها ثورة الفرد البريء عن الأوهام ، أول رد فعل وأكثره تطرفاً ضد فهم الكون فهماً غيبياً . وهي تصوغ قوانين الحقيقة من ملاحظة المادة ، ثم تفسر العقل في عبارات مستمدة من هذه القوانين الموضوعية . ونتائجها بالضرورة هي المادية Materialism والميكانيكية Mechanism ، والحتمية Determinism ، والسلوكية Behaviorism التي تفخر بعجزها الطبيعي عن الانتقال من المادة إلى الشعور . وأبظالها هم جاليليو ، وديكارت ، وهوبس ، ونيوتن ، وديدرو ، وهولباخ ، ولامترى ،

(١) في الأصل « الغالي » نسبة إلى بلاد الغال ، وهي الاسم القديم لفرنسا (المترجم) .

وهيكل ، وسبنسر . ورسال . وواطسون . أما الحركة التي تكافئها وتضادها - فتبدأ من الشعور ، وترى نفسها عاجزة عن الانتقال منه إلى المادة . وهي تقف في داخل العالم الباطني وما فيه من عقل ونفس ومعرفة وأخلاق . وهي تمثل رد فعل متطرف ضد تصور الكون تصوراً مادياً . وهي ترى جميع الأشياء كإحساسات وأفكار ، وترد من أجل ذلك المادة إلى حالة من أحوال العقل . ونتائجها بالضرورة هي الروحانية Spiritualism . والمثالية Idealism والحيوية Vitalism ، وحرية الإرادة . وأبطاها هم ديكارت (انظر ما سبق) وليبنتز ، وبركلي ، وكانط ، وفشته ، وهيغل ، وشوبنهاور ، ونيتشه ، وبرجسون ، ووليم جيمس . وهمكننا تتحارب الفلسفات المتعادية كالذكر والأثني ، ولا تصبح مثمرة إلا حين يندمج بعضها في بعضها الآخر .

وتغلبت الحركة الأولى على الفكر الفلسفي الأوربي في القرنين السابع والثامن عشر . أما سبينوزا فقد انتحى عن هذه الحركة جانباً ، وواجه المشكلة على هواه في برجه المنزول ، وقدم للعالم مذهب وحمة النفس Panpsychism (١) حلاً للمشكلة : فالمادة والعقل هما الوجهان الخارجي والداخلي لحقيقة واحدة معقدة ، و « جميع الأشياء مهما تختلف درجاتها مملوءة بالحياة » . ولم تصليق أوروبا هذه المقالة ، على العكس من ذلك رد هوبس الحقيقة إلى المادة ، وأعلن أن كل اصطلاح أو عبارة لا تدل على شروط مادية ، فهي لفظية مدرسية . وأثار جسندي Gassendi بأدب ضد ديكارت اعتراضات متعددة على تصوره الثنائي لاستقلال المادة عن الفكر ، وزعم أن الفلسفة لا تتقدم بعد عن نظريات ديمقريطس . وفي الوقت الذي كان نيوتن يمارس العبادة بتقوى عظيمة ، ويكتب شروحاً غريبة على سفر الرؤيا ، حبل العالم الخارجي إلى قوانين في الحركة بلغت من البساطة والترتيب أنها حين حمت في فرنسا لم يستطع فلاسفتها لغريمون بالمنطق إلا التسميم بأن هذه القوانين تنطبق على كل شيء ، على سبيل التفتاحة وعلى صلاة المرأة . وأخرج لامتري بشجاعة كتابه : الإنسان الآلة ، وبين

(١) لا ندري ، عند الخليف عن وصف مذهب سبينوزا بأنه وحدة الوجود Pantheism أي أن الله والعالم شيء واحد . كما هو معروف ومشهور ، إلى القول بوحدة النفس (لمرجم)

كيف تؤثر الأحوال الجسمية المختلفة كالحفاصة أو المرض على العقل ، فتكشف بذلك عن تكوينها الفيزيقي . وأخضع هوبباخ الإنسان والمادة على حد سواء في كتابه : « نظام الطبيعة » لهذا النظام المنطقي المتيقن . ورد هلفتيوس الأخلاق والفضيلة للقوانين الطبيعية . ولم يكن ديدرو على يقين من أن نظرية المعرفة تستطيع تفسير الشعور ، واضطر إلى الخروج مع اسبينوزا بهذه النتيجة . وهي أن المادة غريزة ممزوجة بالعقل ؛ إلا أنه صمم مجرد النكايه أن يسمى نفسه مادياً « حتى يشق آخر رجل بأمعاء آخر قسيس » .

والمادية أُنحت الاشتراكية : فهي علمٌ يرفعه الشباب الثائر والضال احتجاجاً في وجه الرجعية والاستبداد . وهي راية يطويها العصر الوسيط ويخفيها في هدوء عندما يرى الفكر النامي نحو النضج والتواضع التعقيد اللاعقل في حياة العالم .

٣ - المثالية

وفي أثناء ذلك وجدت الحركة الثانية رسوفاً في الأسقف بركلي . وقال الأسقف إنه على الرغم من كل شيء فإن هذه المادة التي نقول بها لا نعرفها إلا خلال الإحساس والإدراك . والموجود هو المترك *Esse est percipi* ، أي أن الموجود إذا لم يدركه عقل من العقول فلن يوجد على الإطلاق (بمقدار ما نعرف) . وأضاف كانط أن الأمر لا يقف عند هذا الحد ، فهذه الإحساسات هي في ذاتها خليط لا معنى له ، بل « الوحدة الأولية الشرطية *Transcendental* للإدراك » هي التي تنسج فوضى شهادة عدة حواس في عالم من الفكر المرتب . وأكبر الظن أن الترتيب والوحدة من عمل العقل ، ويخلق نصف « الشيء » بإدراكنا له . فكيف يمكن أن يكون مثل هذا العقل التكويني نتيجة سلبية للمادة التي أبدع العقل صورتها نفسها ؟

وقال آرثر شوينهور - أوضح رؤسائهم على الإطلاق - : إنك على صواب ؛ فالحقيقة الوحيدة التي نستطيع ملاحظتها مباشرة وفي صلة وثيقة هي أنفسنا ذاتها التي نتأملها تأملاً باطنياً . ومن السخرية أن نرد ذلك الذي نعرفه مباشرة إلى « مادة »

لا نعرفها إلا على أنها معنى في فكرنا ، وإلا خلال التوسط المنحرف خواسنا
الناقصة . ولعلنا إذا استطعنا أن نعرف المادة من الداخل معرفتنا لها من الخارج
كما نعرف أنفسنا . فقد نجد في قلب المادة طاقة من الإرادة أكثر شياً بقوى
عقولنا الدقيقة من الميكانيكية الخارجية والحقيرة لأجسادنا . وفي مثل هذه
الظروف تكون المادية في ضوء المنطق الدقيق مستحيلة . أما بخر Buchner
ومولسكوت وفويرباخ فإنهم أصرار ، وفي ذلك يقول شوبنهاور :

« إن المادية المتهاففة التي لا تزال حتى الآن في منتصف القرن التاسع عشر
تقدم تحت ستار الوهم الجاهل على أنها أصيلة لتتكبر بحقوق القوة الحيوية ،
وتحاول أول كل شيء تفسير ظاهرة الحياة بالقوى الطبيعية والكيميائية ، ثم تفسر
هذه القوى مرة أخرى بالآثار الميكانيكية للمادة ولكني لا أعتقد أبداً أنه
حتى أبسط التركيبات الكيميائية تسمح بالتفسير الميكانيكي ، فما بالك بخصائص
الضوء والحرارة والكهرباء ، فهذه تحتاج دائماً إلى تفسير ديناميكي » (١) .

وورث نيتشه هذه النظرة إلى المادة إلى جانب « إرادة القوة » ، وهي طبيعة
مسروقة من « إرادة » شوبنهاور . ولن تجد زنديقاً أشد عداوة للمادية من هذا
الذي كان يحتقر القساوسة ورجال الدين . ويقوم برناجه الذي لا محل فيه للتوفيق
على : « الإبعاد المطلق للميكانيكية والمادة ، فكلاهما لا يكونان إلا صوراً من
التعبير عن المراحل الدنيا ، وهي أقل صورة روحية تتشكل بها إرادة القوة » .
إنه يتقصد الموقف المثالي كله كأي ألماني طيب ، ويرى أن المادة وهم ، وتركيب
عقلي نصنعه لتفسير إحساساتنا ، ويقول : « أما فيما يختص بالمذهب الذي
سأنتي فهو ليس مذهب يسمي رفضه من بين جميع مذاهب التي ظهرت ،
وأكثر لظن أنك لا تجد في أوروبا أي شخص في الوسط متعدي يبلغ من
منافاة لعدم حبه ، يجعله يخلع عن ذلك المذهب دلالة جديدة » . ثم يلمس كما فعل
شوبنهاور إلى هذه النتيجة فيقول : يجب أن نجازف بهذا الفرض ، وهو أن جميع
الأعمال الميكانيكية من حيث هي قوة تعمل من داخل ليست بالضبط قوة

الإرادة بل نتيجة لها . فالذرة ليست إلا كمية من طاقة (كوانتوم)
إرادة القوة (١) .

ومن المدهش أن نرى مبلغ ما كان للمثالية من أثر في الثائرين النزاعين
إلى المادية كسلاح ضد الاعتقاد الديني . وفي ذلك يقول هربيرت سبنسر :
« إذا كان لنا أن نختار أحد هذين الأمرين وهما : ترجمة الظواهر العقلية إلى
ظواهر طبيعية ، أو ترجمة الظواهر الطبيعية إلى ظواهر عقلية ، فالأمر الثاني
أدنى إلى القبول » (٢) ويكتب برتراند رسل في أيامنا هذه - وهو الرسول الممتع
للقنوط - ما نصه :

« إن الاعتقاد في أن المادة وحدها حقيقية لن يسلم من دليل الشك المستمد
من ميكانيكية الإحساس الفسيولوجية وقد نعد تاريخياً المادية نظاماً من
العقائد أعلن لمحاربة العقائد الأرثوذكسية وتبعاً لذلك نجد أنه كلما انحلت
العقائد القديمة أفسحت المادية الطريق أكثر فأكثر لمذهب الشك . وفي الوقت
الحاضر نجد أن أهم الممثلين للمادية هم جماعة من أهل العلم في أمريكا وجماعة
من رجال السياسة في روسيا ، لأن الديانة التقليدية في هذين القطرين لا تزال
قوية » (٣) .

٤ - ما المادة؟

بعد أن مررنا بهذه الشكوك الإستمولوجية - وقد نظرنا إليها بما فيه الكفاية
في الصفحات السابقة - ومع التسليم بأن العالم الخارجي « حقيقياً موضوعياً » ،
هذا العالم الذي لا ينفك يذكرنا بوجوده بما يقدمه لنا من أشد المثيرات وأبعدها
عن التنازع ، فلننضم إلى الأمام ، ولنبحث في تكوين المادة .

وأول شيء نكتشفه هو أن المادة القديمة غير المتحركة التي وصفها
طبيعيات القرن التاسع عشر قد ذهبت . وكانت « مادة » تنبذال وهكسلي غير

(1) Will to Power §§ 712 and 634 ; Joyful Wisdom § 109; Beyond Good and Evil, §§ 12 and 36.

(2) Principles of Psychology, vol j, p 159.

(3) Introduction to Lange's History of Materialism, pp xi,xii.

فاسدة ، فهي تقعد وتنام أنى وضعتها ، كذلك الصبي البدين في قصة « أوراك بكويلك »^(١) . وهي تقاوم بكل ما فيها من وقار الحجم والثقل كل جهاد لتحريكها ، أو لتغيير وجهة حركتها متى أخذت في الحركة . وبقيت برجسون في يسر شديد أن مادة في مثل هذا الحمود لا يمكن أبداً أن تفسر الحركة ، ومن باب أوى لا تحدث الحياة والعقل . ولكن رجال الطبيعة مع ذلك ، كما كتب برجسون ، كانوا في سبيلهم إلى هجر تصور المادة خامسة ، وإلى الكشف فيها عن حيوية لا ريب فيها . فهذه مثلاً الكهرباء لا يمكن أبداً تفسيرها في صيغ من الحمود والذرات ؛ فما هذه القوة الخفية التي تضاف إلى الكتلة فتزيد في طاقتها وأكثها لا تضيف شيئاً إلى أبعادها وثقلها ؟ وكيف تسرى الشحنة الكهربائية في سلك أو في الهواء اللاسلكي ؟ أهى شيء يتحرك في داخل السلك والذرات ، فهناك إذن ذرات أصغر من الذرات ؟ وما الذى يتحرك في تلك الموجات الكهربائية التي تكاد تبلغ في سرعتها سرعة الضوء نفسه ؟ أهى الذرات . أو « الأثير » ، أو لا شيء ؟ وفي أشعة إكس ، عندما تمر شرارة كهربية في فراغ باعثة أشعة تنفذ من جدران الأنبوبة وتغير من اللوح الحساس كيميائياً ، فما هذا الذى يمر خلال الفراغ أو الجدران ؟ وعندما بدت المادة نشطة لا تفرغ كما هو الحال في الراديوم ، وبدت الذرات (التي لا يمكن أن تنقسم) منقسمة إلى ما لا نهاية ، وأصبحت كل ذرة نظاماً كوكبياً من الشحنات الكهربائية تدور حول شيء لا يزيد جوعده عن شحنة كهربية أخرى . . . فأى مأزق وقعت المادة فيه حين فقدت كتلتها ووزنها وطولها وعرضها وعمقها وعدم قابليتها للنفاذ ، وسائر تلك الخصائص الثقيلة التي ظفرت باحترام كل مفكر قويم واقعي . أفكان الحمود أسطورة ؟ أيمكن أن تكون مادة حية ؟

نعم كانت هناك دلائل من قبل على وجود هذه الطاقة في مادة : فالنحاس ، والمزلف ، والمتنفر ، كانت توحى بها . ويبدو ليوم من تحتس أن تكون هذه الصفات وكذلك الكهربائية والمغناطيسية صورا من « طاقة الذرية »

(Fickwick Papers قصة شهيرة لشارلز بيكرز . وكان سار بيكرز بطل القصة .

(المترجم) .

وهي ظواهر ترجع إلى حركة الإلكترونات الدائبة في الذرة . ولكن ما الإلكترون؟
أهو جزء من « المادة » يظهر في ثوب من الطاقة ، أو هو مقدار من الطاقة
منفصل تمام الانفصال عن أى جوهر مادي؟ ولا يمكن أن نتصور الفرض
الأخير . ويقول ليبون : « قد يمكن ولا ريب لعقل أسمى من عقلنا أن يتصور
الطاقة بغير مادة ولكن مثل هذا التصور في غير مقدورنا . فنحن
لا نستطيع أن نفهم الأشياء إلا بوضعها في الإطار المشترك لأفكارنا . ولما كانت
ماهية الطاقة مجهولة فنحن مضطرون إلى صوغها صياغة مادية حتى نفكر فيها» (١)
فنحن كما يقول برجسون ماديون بالطبع ، فقد ألفنا التعامل مع المادة والأمور
الميكانيكية . وإذا لم ننصرف عنها كى ننظر في أنفسنا فإننا نتصور كل شىء
كآلة مادية . ومع ذلك فإن أوستوالد Ostwald يصف المادة على أنها صورة
من الطاقة وحسب . ويرد رذرفورد الذرة إلى وحدات من الكهرباء الموجبة
والسالبة . ويعتقد لودج أن الإلكترون لا يشتمل على نواة مادية أكثر من شحنته .
ويقول ليبون ببساطة : « المادة صورة مختلفة من الطاقة » (٢) . ويقول ج.ب.س
هالدين : « يعتبر بعض الناس من أقدر المفكرين في العالم اليوم المادة كمجرد
ضرب خاص من الاضطراب التوجي » (٣) . ويقول إدنجتون : إن المادة
مركبة من بروتونات وإلكترونات ، أى شحنات موجبة وسالبة من الكهرباء .
فاللوح : « هو في الحقيقة مكان فارغ مشتمل على شحنات كهربية مبعثرة هنا
وهناك » (٤) . ويقول هوايتييد : « إن مفهوم الكتلة في طريقه إلى فقدان
امتيازه الوحيد باعتبارها المقدار الواحد الدائم في النهاية فالكتلة الآن اسم
لكمية من الطاقة في علاقتها ببعض آثارها الديناميكية » . (٥) وإلى هذه المرتبة
الوضيعة سقط الجبار ، ورجعنا إلى بوسكوفيتش Boscovich (٦) الجزويتى
القديم ، إلى تلك العبارة غير المفهومة من أن المادة التى تشغل « المكان » مركبة

The Evolution of Matter p. 13

(١)

(٢) المرجع السابق ص ١٠

Possible Worlds, p. 296

(٣)

The Nature of the Physical World, p 3.

(٤)

Science and the Modern World, p. 149.

(٥)

(٦) بوسكوفيتش (١٧١١ - ١٧٨٧) فيلسوف يوجوسلافى من دلماشيا أذاع في بلاده فلسفة نيوتن (المترجم)

من نطق لا وجود لها . وفي ذلك يقول نيتشه : « لقد كان بوسكوفتشس وكوبونيق حتى الآن أعظم نخصيين وأكثرهما نجاحاً في دحض شهادة العيان » (١) .
فلا غرابة أن يستنتج ديوى أن : « مفهوم المادة الذى يوجد بالفعل في تطبيق العلم لا يمت بصلة إلى مادة الماديين » (٢) .

أيمكن أن يكون شيء أكثر غموضاً وغمراً من هذا القول الذى يقونه علماء الطبيعة من أن « المادة » بمعنى الجوهر المتحيز Spatial قد بطلت عن الوجود ؟ فهم يقولون إن الإلكترونات ليس فيها شيء من خصائص المادة : فهي ليست صلبة ، ولا سائلة ، ولا غازية ؛ وهي ليست كتلة أو صورة . وانحلالها إلى نشاط إشعاعي يلقى شكوكاً على أعز عقيدة في العلم الحديث ، أى عدم قابلية المادة للفناء . ولنسمع رأى أحد علماء الطبيعة مرة أخرى :

« إن عناصر الذرات التى تنحل تفنى تماماً ، فهي تفقد كل صفة المادة بما في ذلك الثقل وهو أكثر صفاتها أساسية . ذلك أن الميزان يعجز عن وزنها ، ولا شيء يستطيع أن يعيدها إلى حالة المادة ، فقد اختفت في عظمة الأثير ... واطرارة ، والكهرباء ، والضوء ، إلى غير ذلك . . . تمثل آخر مراحل المادة قبل اختفائها في الأثير . . . والمادة التى تنحل تخرج عن مادتها بمرورها في حالات متتابعة تنزع منها تدريجياً صفاتها المادية حتى تعود في النهاية إلى الأثير الذى لا يمكن وزنه ، ذلك الأثير الذى يبدو أنها نشأت عنه » (٣) .

الأثير ؟ ... ولكن ما هو هذا الأثير ؟ لا أحد يعرف . ليس الأثير فيما يقول لورد سالسبورى إلا اسماً على الفعل « يتموج » (٤) . والأثير خرافة ابتدعت لإخفاء جهن المثقف العلم حديث فهو غامض غموض الشبح أو الروح ، وافترض أينشتين وجود الأثير حين أعاد تفسير إحصائية . وعزاه أخيراً أن يدخره إلى حين مع تخديده منطاته . وكلنا يعجز عنه من علماء الطبيعة ويتحير يقول :

Beyond Good and Evil, § 12.

(١)

Experience and Nature, p. 74.

(٢)

(٣) بيوتن : المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

(٤) نقلاً عن ريم جيسن في كتابه معنى الحقيقة ص ٥٩ .

« الأثير » . ويقول الأستاذ إدنجتون أحدث حجة في هذا الموضوع : « ليس الأثير نوعاً من المادة ، فهو لا مادي » (١) . ومعنى ذلك أن شيئاً لا مادياً يحيل نفسه إلى مادة بوساطة بعض الالتواءات Contortions الغامضة (دوامات Vortices كما سماها لورد كيلفن) . ويصبح ذلك الذي لم يكن له بعد أو ثقل بإضافة أجزاء منه بعضها إلى بعض ، مادة متحيزة ، ويمكن أن توزن . أهو اللاهوت قد أعيد أم هو علم مسيحي جديد ؟ أم هو صورة من البحث الطبيعي ؟ وفي الوقت نفسه الذي يحاول علم النفس بكل سبيل أن يتخلص من الشعور حتى يرد العقل للمادة ، يأسف علم الطبيعة في تقريره أن المادة لا توجد . ولقد قال نيوتن متعجباً : « أيتها الطبيعة احفظيني مما بعد الطبيعة (٢) (الميتافيزيقا) (٣) » . فيا للأسف لن تقدر الطبيعة أن تفعل أكثر من ذلك .

يقول برتراند رسل : « يقرب علم الطبيعة من المرحلة التي يبلغ فيها الكمال » (٤) . وجميع الدلائل تدل على العكس من ذلك . أما هنري بوانكاريه فيرى أن علم الطبيعة الحديث في حالة من الفوضى ، فهو يعيد بناء جميع أسسه ، وفي أثناء ذلك لا يكاد يعرف أين يقف . وقد تغيرت الأفكار الأساسية عن الطبيعة تغيراً تاماً في العشرين السنة الأخيرة فيما يختص بالمادة والحركة كليهما . ولم تعد تسمح أعمال كوري ورذرفورد وسودي وأينشتين ومينكوفسكي لأي تصور قديم عن الطبيعة التيونونية بالبقاء . وكان لابلاس يحسد نيوتن لأنه كشف النظام الوحيد للعالم ، وحزن على عدم وجود نظم أخرى تكشف . ولكن عالم نيوتن قد انتحى اليوم جانباً . ولم يعد الثقائل Gravitation مسألة « جاذبية » Attraction ، وتمزقت « قوانين » الحركة في كل جهة بنظرية النسبية . وقد كانت الفلسفة تبحث ذات يوم في « الأشباح » والمجردات ، وكان العلم يبحث في المادة ،

(١) المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٢) نقلاً عن بروسون : ذاتون فرانس بالنتوقل ، ص ٢١٨ .

(٣) ترجم العرب قديماً لفظة الميتافيزيقا بقولهم ما بعد الطبيعة ، ولكن هذا الاصطلاح طويل وتصعب النسبة إليه ، لذلك احتفظنا بلفظة ميتافيزيقا . وهي من اليونانية ميتا أي بعد ، وفيزيقا أي طبيعة (المترجم) .

(٤) What I Believe, p 2.

أى « المحسوس » والحقائق « الواقعية ». أما الآن فعلم الطبيعة مجموعة مستورة esoteric من القوانين الخجدة . « وفكرة المادة مفقودة بالكلية في الدوائر العلمية » (١) . وكان على الفلسفة أن تنتحى جانباً (ولا يزال بعض الناس يتوقعون موتها خلال « خمسين عاماً ») أما العلم فعليه أن يحل مشكلاتنا . والآن - في الوقت الذى يحمل رجل الشارع العلم والعلماء جميع أفكار الإلهام واليقين التى كانت متصلة ذات يوم بالإنجيل والكنيسة - يقال لنا فى تواضع : إن « البحث العلمى لا يقضى إلى معرفة طبيعة الأشياء الباطنة » (٢) . وبدلاً من ذلك يقوون لنا إن الساعة الدقاقة تسير أسرع تبعاً للسرعة التى تُحمل خلالها فى الفضاء ، وإن المسطرة قد تطول بعملية بسيطة هى تغيير موضعها من زاوية قائمة إلى خط مستقيم فى اتجاه حركة الأرض . فعلينا أن نتواضع إزاء القوانين غير المفهومة التى حلت محل وضوح علم الطبيعة القديم . ومن يدري لعلها تكون صحيحة ؟ ومع ذلك فنحن نحذر العلم الذى يزيد عمقاً يوماً بعد يوم ، ويرفض فى يومه ما آمن به فى أمسه . فيوماً يقدم لنا الذرات ، ثم الإلكترونات ، ثم الكوانتا (نظرية الكم) ، وأخيراً صورة مقدسة لعالم مادى مبنى بأعجوبة من الشحنات الكهربية بغير نويات مادية . وكان اشبنجلر وحده من الشجاعة بحيث يسمى هذا الأمر باسمه الصحيح : « كل نظرية ذرية هى خرافة وليست تجربة » (٣) .

ولنكن على حذر من اللاهوت أثنى نجله ، حتى إذا صادفناه فى العنوم « المضبوطة » . ولعل المادة تستمر فى الوجود على الرغم من علمنا الواسع الكثير الخيل . ولعل الحجر الذى اصطدم بإصبع الدكتور جونسون كان حقيقياً كالأم الذى أحسن به . حقاً كان الحجر فى نظر الدكتور « حزمة من الإحساسات »

(١) إدنجتون ، ص ٢٧٤

(٢) لمرجع السابق ، ص ٣٠٣

(٣) المحطات الغريب ، المجلد الأول ، ص ٣٨٧ . فقدت نظرة « علمى » عند المفكرين المعاصرين الشديدى العمق والاضطراب نفحة الكمال ، وأصبحت عشاً لا يلقى . نكل علم فى نظر اشبنجلر « خرافة مريجة » ، وميثولوجيا تحتل فيها « الكهرياء » و « الطاقة الموضعية » و « القوى » و « القوانين » محل الأرواح والآلهة ، ويقيد العقل المصورواقعيات الحياة فى صور من « الرياضة والميكانيكا » . وستكون مهمة القرن العشرين التى يتميز بها التخلص من هذا النظام القائم على السبية السخية ؛ المجلد الثانى ، ص ١٨٠ ، ٣٠ ، ٤٦ ، ١٤٤ ، ٣٠ .

فقط ، كما كان هيوم يصفه ، ولكن عندئذ تكون هذه الخزنة - هذه المقاومة
الصاخبة لعضلاتنا وحواسنا - هي بالضبط ما نعنيه بالمادة . وقد نلتى بأنفسنا
في هذا العلم المدرسى الجليد ، ولكننا في الحياة الواقعية ننتظر أن نجد كل طاقة
مرتبطة بالمادة ، بشيء متحيز ، ذي ثقل ، « شيء يختلف عن أنفسنا هو الذي
يبعث الإحساسات » .

ونحن لا نعرف إلى الآن ما المادة ، ولنقل ذلك حتى لا نقع في الخطأ .
ولكننا على يقين من أمر واحد ، وهو أن هذه المادة اللطيفة ليست هي المادة
الخاملة التي كان العلم في القرن التاسع عشر يقول بها . إنها صورة الطاقات غير
المحسوبة وسبيلها . إنها حية بما فيها من التحام وجذب ودفع ، وعمليات الكترولية
(أى قابلة للتحليل الكهربى) واسموزية osmotic (أى قابلة للانتشار) ،
وحرارة وكهرباء وضوء ، وإلكترونات ترقص ولا تستقر . فالحرارة ، والطاقة ،
والحيوية في كل مكان ، ولسنا نجروء على تسمية أى شيء عديم الحياة . « إن
جسماً صلباً في مظهره مثل كتلة من الحديد يمثل ببساطة حالة من التوازن بين
طاقته الداخلية نفسها وبين الطاقات الخارجية - الحرارة ، الضغط ، الخ ... -
التي تحيطه . . . وعندما نضع يدينا على مقربة من كتلة من المعدن تتعدل حركة
جزيئاتها » (١) .

ومن المفيد أن نضيف إلى ذلك التشبيه القديم الذي ذكره لوكريتيوس :

« عندما تنزل فرق الجيش القوية في استعراض تحاكي فيه الحرب فتحملأ
السهل ، ويرتفع بريقةها إلى عنان السماء ، وتومض الأرض بالنعاس ، وتتصاعد
جلبة وقع أقدام الجناد ، وتنضارب الصيحات في الجبال فتنعكس أصواتها إلى
النجوم في السماء . . . ومع ذلك فلا تزال هناك بقعة في أعلى الجبل يبدو منها
جميع هؤلاء الرجال المتحركين واقفين بلا حراك ، ويلدعون فقط كنقطة ساطعة
في السهول » (٢) .

وكلما ازدادت دراستنا للمادة نقصت رؤيتنا لها كشيء أساسى ، وازداد

(١) ليون : المرجع السابق ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

(٢) في طبيعة الأشياء ، ترجمة مزرو ، الكتاب الثانى سطر ٣٢٣ وما بعده .

إدراكنا لها كظهر خارجي للطاقة فقط ، كما أن لحمنا هو العلامة الخارجية للحياة والعقل . ويقول إدنجتون : « فيما يختص « بالفعل » فقد اضطلع علم الطبيعة بهذا الأمر ، وألح في اعتبار الفعل أساس كل شيء » (١) وبين عالم طبيعي هندي هو السر وجاديس شنيرا بوس وجود « التعب » في المعادن – أي عجزها عن الاستمرار في رد الفعل بالنسبة لبعض المؤثرات فترة من الزمن – واختفاء هذا التعب بعد الراحة . وأوضح كذلك حساسية المعادن للمثيرات ، والمسكنات ، والسموم . وقد تكررت هذه التجارب وثبتت صحتها في قارات ثلاث (٢) . وأصبح اصطلاح « حياة المادة » الذي كان يخلو من المعنى منذ خمسة وعشرين عاماً من الاصطلاحات الشائعة الاستعمال . « وإنا لنرى الآن علماء الطبيعة والكيمياء يجرون وراء الأفكار البيولوجية . وقد يكون امتداد التصورات البيولوجية إلى الطبيعة بأسرها أقرب مما كان يبدو متصوراً بضع سنين مضت » (٣) . فنحن نسمع عن « تطور المادة » . ويظهر أن الذرة تولد ، وتنمو ، وتفقد حيويتها ، وتموت . ويدعوننا هنا العلم الحديث الطبيعي للطاقة إلى صياغة المشكلة القديمة الخاصة بالمادية في مقابل الروحية صياغة جديدة . أي مظهر للعالم الخارجي أكثر أساسية – المظهر المتحيز الممتد الذي كان علم الطبيعة يصفه « بالمادة » أو المظهر الفعال المحرك الذي نسميه الطاقة ؟ لا بد أن تكون الطاقة هي الجواب . والطاقة هي « ما لا يمكن معرفته » Unknowable ، و « الشيء في ذاته » و « المطلق » (٤) وهل تكون الطاقة ذاتها شيئاً متحيزاً ممتداً ، أي جوهرأ مادياً ؟ لا يمكن أن نتصورها كذلك ، كما لا يمكن أن نتصور الفكر متحيزاً ومادياً . ويوجد في قلب المادة شيء غير مادي يهبها الصورة والقوة ، وهو شيء له تلقائته الخاصة وحياته . وهذه الحيوية اللطيفة ، المسترة ، والتي تتكشف مع ذلك على الدوام ، هي الجوهر الأخير اكمل شيء نعرفه .

(١) ص ٢٤٠ .

(٢) ليون ، ص ٢٥٠ – ٢٥١ .

(٣) هالدين : الميكانيكية والحياة والشخصية ، ص ١٠١ .

(٤) يشير المؤلف إلى سبنر في « ما لا يمكن معرفته » وإلى كانط في « الشيء في ذاته » وإلى

هيجل في « المطلق » (المترجم) .

ولكن هذين اللفظين « قلب » و « في » استعارتان تميلان بنا إلى طريق أعمى ، فلا ينبغي أن نسمح لأنفسنا بالتفكير في الطاقة كشئ مستقل عن المادة ، وتسكن فيها كالزئبق الذي كان يتأرجح في تماثيل ديدالس (١) حتى يمنحها الثبات والحياة الظاهرة . وليس هذا العنصر الحيوى ، هذه الطاقة الفعالة ، كما يظن معظم أصحاب المذهب الحيوى أمراً منفصلاً يمكن أن ينزول عن المادة ، بل هو مرتبط بها ولا ينفك عنها ، كما يتصل العقل بالجسم ، ويكون مع المادة المظهرين الداخلى والخارجى لكل واحد لا يقبل الانقسام . والمادى بمعنى واسع على حق ، فهو حين يُعظَّم المادة إنما يعنى التعبير عن إيمانه بعدم وجود انقطاع فى اتصال النمو والتقدم ، وبأن الفلاسفة نشأوا من القرده ، وأن القرده قد تطورت عن البروتوزوا Protozoa (الحيوانات الأولية) ، ونشأت هذه فرضاً من المواد غير العضوية ، وهذه من أبسط الذرات . ولكننا لا نستطيع أن نعتقد هذا الأمر إلا إذا اعتمدنا كذلك فى وجود مبدأ للحياة ، وقوة تقصر على التطور داخل جسم المادة الحامدة فى الظاهر (لا يزال التشبيه المتحيز يتسرب) . فنحن لا نسد الثغرة بين المادة والعقل بأن نهبط بالعقل ، بل بأن نرتفع بالمادة . والعالم كما يظن المادى عالم واحد ، وكل جزئية فيه مكونة تكويناً مادياً . ولكن فى داخل كل جزئية من ذلك العالم المادى تعمل طاقة من تلقاء ذاتها تماثل الحياة والعقل ويعتمدان عليها . وقد نقول عن أحقر قطعة من الطين ما قاله هرقليطس عندما استقبل زواراً من عليه القوم فى مطبخه البسيط البدائى : « أقبلوا ، وادخلوا ، فهنا أيضاً توجد آلهة » .

هـ - الحياة

لقد حاولنا التوفيق بين الروحية والمادية بالربط بين الوضع الأناسى لإحداهما - أن لب جميع الأشياء أقرب إلى العقل منه إلى المادة - وبين وضعين أساسيين للأخرى - أن الحياة والعقل مرتبطان بالمادة ارتباطاً لا فكاً منه ،

(١) ديدالس Daedalus أحد المثالين فى كريت قديماً ، وصفه هوميروس فى أشعاره ، وكان يضع الزئبق داخل التمثال ليتحرك . فلما بحث الفلاسفة النفس الإنسانية تصوروا أنها شئ يوجد فى الجسم ويحركه مثل تماثيل ديدالس . وانتقد أرسطو هذه النظرية فى كتاب النفس (المترجم)

وأن جميع الكائنات الراقية (أى الأكثر تعقيداً) قد نشأت من كائنات أدنى أقل تعقيداً. وقد دافعنا عن الوضع الأول بكلام علماء الطبيعة أنفسهم ، ولكن لا يزال علينا أن نواجه الصعوبات التي تثيرها القضية الأخرى . ولنبدأ بالمشكلة الأخيرة ، ولنبحث في الاتصال بين الصور العليا والدنيا من الحقيقة .

إذا كان هذا الاتصال يتضمن نظرية التولد الذاتي Abiogenesis – أى نشأة الحياة من الأشياء غير الحية – فأدلة علم الحياة تنقضها . فليس ثمة أى حالة معروفة لمثل هذه النشأة . ويبدو أن تجارب باستير التي أجراها في فترة تبلغ سبع سنين (١٨٦٢ – ١٨٦٩) لا تؤيد الفكرة القائلة بأن البروتوزوا يمكن أن تنشأ من المادة غير العضوية . ويردد رأى العلم الحديث في صور مختلفة شعار سير وإيم هارفي : « كل بيضة تنشأ عن بيضة ، وكل خلية عن خلية ، وكل حياة من شئء حى » . ويقول ج . س . هالدين : « ليس ثمة أى احتمال بعيد لاستخلاص العضوى من غير العضوى » (١) . ويقول جوستاف بونيه متعجباً : « أن نخلق المادة الحية ؟ كيف يمكن أن نأمل في ذلك مع الأحوال الحاضرة للعلم ، حين تفكر كم من الخصائص المتجمعة ، والوراثة ، والمستقبل المعقد يوجد في قطعة من البرتوبلازم الحية ؟ » (٢)

ولكن على الرغم من صورة هذا الشك ، فلنا أن نرتاب في أن هؤلاء الشكاك يوازنون بغير شعور تقريباً بين المادة « الميتة » وبين الكائنات المعقدة . وتقل الصعوبة حين نقصرها على الثغرة بين أبسط الكائنات وأعقد الغرويات (٣) Colloid . وتنتج الكيمياء التركيبية اليوم ١٣٠٠٠٠٠ مركب كربونى عضوى . والدجماطى فقط الذى لم يتعلم بعد إمكان ممارسة « المستحيل » هو الذى يقف على يقين من أن الكيمياء لن تحدث الحياة أبداً . وما تفعله الطبيعة ممكن ، وقد يتعلمه الإنسان ذات يوم . ولكن عندما يحيل النبات أشعة الشمس والمواد الكيميائية الموجودة في الأرض إلى عصارتها وأنسجته نفسها فنحن ، أمام التحول من المواد

(١) الميكانيكية والحياة والشخصية ، ص ١٠٠ .

(٢) نقلا عن ليون في كتابه « تطور القوى » ، ص ٣٦٩ .

(٣) الغرويات ، أو الهلاميات ، مادة عضوية لا تذوب عادة ولا تتبلور (قاموس شرف) .

غير العضوية إلى المواد العضوية . حقاً تتدخل هنا وساطة الكائن الحي ، ولكن التحول مع ذلك حقيقى وهو المقابل الطبيعى وميزان تلك العملية التى يتغير بها العضوى إلى غير العضوى فى فسادة وموته ، وهى عملية غامضة كذلك ، ولكن من الواضح أنها غير مستحيلة . ولعل العضوى وغير العضوى مظهران أو قطبان فى عملية واحدة من التطور والانحلال . ومن يدرى لعل المادة كما ذهب إلى ذلك فشرليست إلا فساداً للمادة الحية ، وأن غير العضوى و « الميكانيكى » أثاران وفضلتان عن الحياة الماضية ؟

ومن المفروض أن الأرض كانت ذات يوم غير صالحة للكائنات الحية ، ومن المفروض أن الحياة لم تظهر على وجهها إلا حين تهيأت البيئة الملائمة . ولن يفيدنا أن تتبع أرينيوس^(١) Arrhenius إلى النجوم البعيدة باعتبارها أصل الحياة . وتأجيل المشكلة هو الهرب من مواجهتها . ولنفرض أن كارثة قتلت سائر الحياة النباتية والحيوانية على ظهر الأرض ، ولنفرض أنه بعد فترة طويلة عاد إلى الظهور طقس يشبه فى اعتداله ورطوبته ما يسود كوكبنا اليوم مع سائر الشروط الطبعمكائية^(٢) Physico-chemical . أليس من المحتمل أن تعود الأرض فتنتج البكتريا ، والبروتوزوا ، والنباتات ، وملايين الصور من الحياة ؟ فمتى سلمنا بالتطور لا نستطيع أن نحدده ، فلا موضع فى الخط من شكسبير إلى الباراميكيوم Paramecium يمكن أن نقف عنده ونهجر الاتصال لتدخل معجز . وكما احتج هكسلى بأن الثغرة بين الإنسان والشمبانزى ليست من السعة بمقدار الثغرة التى بين أدنى النسانيس وأرقى القردة ، فكذلك يمكن أن نقول إن الثغرة بين البروتينات التركيبية وبين الأميبا أضيق من الخط غير المنقطع الذى يفصل بين الأميبا والقديس ويربط بينهما .

إن التصور الجليد عن المادة بأنها « حية » يلطف من حدة التباين بين العضوى وغير العضوى ، ويخفض من صعوبة تصور التطور المتصل . والحياة

(١) أرينيوس كيمائى سويدى كان عميد جامعة ستوكهلم ، ونال جائزة نوبل عام ١٩٠٣ فى بحث عن نظرية الانحلال الالكترولى ، وأصبح مديراً لجائزة نوبل منذ عام ١٩٠٥ ، ولد ١٨٥٩ وتوفى ١٩٢٧ (المترجم) .

(٢) مركب مزجى من لفظى الطبيعة والكيمياء (المترجم)

نتيجة لا لذلك المظهر الخارجى من الحقيقة التى تعطى لنا الثقل والصلابة والامتداد ، بل لذلك المظهر الداخلى الذى يقدم لنا طاقة الذرة ، وكهرباء « الأثير » التى لا تستقر ، وحيوية الخلية التى تتحسس بها . لقد جعلت تصورات القرن التاسع عشر فى الطبيعة والكيمياء الثغرة بين الحى وغير الحى مما لا يمكن عبورها ، حتى إن سبنسر مع أنه كان تواقفاً أن يجعل التطور كاملاً إلا أنه اضطر إلى الهرب من المشكلة فكتب يقول : « نحن مضطرون إلى الاعتراف بأن الحياة فى جوهرها لا يمكن أن نتصورها فى اصطلاحات طبعكائية » (١) وعندما تأخذ الطبيعة والكيمياء فى التسليم بالتصور الخاص بالحياة على أنه موافق لنهاية التصور الخاص بالمادة ، يخفى تقسيم الحقيقة والنشوء إلى نصفين لا يمكن التوفيق بينهما ، وتتحد المادة التى يكون قلبها الحيوية ، مع الحياة التى تكون صورتها المادة ، حتى يهبان العالم تلك الوحدة الكاملة والائتلاف التام اللذين بغيرهما لن يهدأ للعلم أو الفلسفة بال .

٦ - المادى يتكلم

ولكن إذا كان ثمة بعض الصعوبة فى قبول فكرة تطور الحياة عن المادة غير العضوية ، فكم يبدو الأمر أكثر صعوبة فى قبول فكرة التطور الطبيعى لما نسميه تسمية غامضة « العقل » . ولقد قال نيتشه : « إن نمو المادة (أسلوب قديم فى التعبير) إلى شخص مفكر أمر مستحيل » . وسوف نجد هنا ، كما وجدنا من قبل ، أن تصور المادة خاملةً يفضى إلى مأزق من الصعوبات لا يمكن التغلب عليها إلا بتضحية نظرية اتصال التطور . وتقدم لنا الروحية والمادية مرة أخرى أدلتها التى لا يمكن دحضها ، ثم يتركاننا موزعين بين نصفين من الحقيقة لا يقنعان بأن يكونا جزأين من كل . فلنتابع هذين النصفين من الحقيقة بعض الوقت .

يبدأ المادى بأن « يضع الاتصال » . وتشير تجارب بوز Bose إلى سياسة خاصة فى المادة ، فلو وضعنا قضيباً رفيعاً من البلاتين فى مقياس

(١) مبادئ علم الحياة ، المجلد الأول ، ص ١٢٠ .

التشعع (البلومتر bolometer) (١) لاستجاب لارتفاع في درجة الحرارة يبلغ واحداً من مائة مليون درجة (٢) . لا ريب أن هذه الحساسية مختلفة في نوعها عما نجده في الكائنات الحية . وهي لا تؤدي إلى رد فعل متلائم يرتفع بقوة الكائن فوق بيئته ، ولكنها توحى لنا بالطريقة التي سدت بها الطبيعة الثغرة بين المادة والعقل .

وتظهر المرحلة الثانية في تطور العقل في حساسية رد فعل النباتات للوضع ، والتماس ، والحرارة ، والرطوبة ، والضوء . ويعتقد يركس Yerkes أن أهم خاصية للعقل وأقواها - القدرة على التعلم ، والقدرة على الاستجابة استجابات مختلفة نتيجة التجربة - علامة تميز حتى أدنى بروتوبلازم . وقد روع «بوز» مرة أخرى (٣) اللجنة البريطانية لتقدم العلوم حين أوضح أمامها التشابه المفصل بين الجهاز الدوري في النبات والإنسان ، وقابلية العصارة السائلة للتأثر بالموثرات والمسكنات والسموم . واكتشف إدوارد تانجل خيوطاً دقيقة من البروتوبلازم تمر في النبات من خلية إلى أخرى ، ويعدها معظم النباتيين شبيهة بالألياف العصبية في الحيوانات (٤) . وهناك بعض النباتات شديدة الحساسية للضوء ، حتى لقد تحولت « ساعات نباتية » floral clocks . وثمة خمسمائة نوع من النباتات آكلات الحشرات ، ولبعضها كما بين دارون حليمات حساسة قادرة على كشف ما مقداره $\frac{1}{78}$ من الجرام (٥) . ونحن نجد أول بدايات محدودة للعقل في هذا التكيف البدائي لرد الفعل نحو غايات تفيد الكائن الحي .

وتزيد الحساسية مع القابلية للتحرك . فليس على النباتات مع قوتها على تحويل المواد غير العضوية إلى غذاء أن تتحرك ، فيما عدا الذهاب يجذورها في الأرض ، أو بسوقها في السماء . ولكن النباتات تدفع ثمن هذه الحياة البسيطة بتضحية كثير من قواها الخاصة بالاستجابات الموجهة . وأصبحت النباتات التي

(١) آلة دقيقة لقياس إشعاع الحرارة .

(٢) ماكيب : تطور العقل ، ص ٣٣ .

(٣) مجلة ٦ أغسطس سنة ١٩٢٨ .

(٤) هولت : فكرة الشعور ، ص ١٧٢ .

(٥) ماكيب ، المرجع السابق ، ص ٢١ .

كانت تتحرك حيوانات ، وتقاوم فيها عضو المغامرة والضغط : الجهاز العصبي ، ذلك العضو النفيس والموئم . ومع ذلك فإن أدنى الحيوانات لا يوجد فيها جهاز عصبي ، إذ تعمها الحساسية - أو الاهتياج irritability كما سماها بعض علماء الحياة المختصين في الأعصاب - وتظهر دون تمييز في سائر أنسجة الكائن . ولكن حتى في تلك العوالم المنحطة يبدأ بعض التخصص ؛ ففي الفطر volvox وغيرها من البروتوزوا المتجمعة تظهر الخلايا الخارجية اهتياجاً خاصاً ، على حين تظل الخلايا الداخلية أو التناسلية غير حافلة نسبياً بالموثرات الخارجية . ويزيد التخصص في الحساسية . عندما ترتفع مرحلة أخرى في السلم ؛ ففي الحيوان البحري المسمى « فرج البحر » Jelly fish ترتبط بعض الخلايا العصبية الخارجة من سطح الكائن بحلقة من « شبكة عصبية » مكونة من خلايا موصلة تدور حول حافة « ناقوس العوم » umbrella . وهنا نجد أن التخصص قد فصل الخلايا العصبية إلى نوعين : « أعضاء طرفية » end-organs حساسة ، وأنسجة عصبية موصلة . وهذا أول ظهور لجهاز عصبي ، وهو الآلة المحركة للعقل .

أما الدودة المسطحة flatworm فخلتان عصبيتان من خلاياها ذات حجم غير عادي ، وتؤديان عمل « المركز العصبي العقلي » central ganglia أو المخ للخلايا الأخرى من الجهاز . وقد خلق تحديد هذه الخلايا العقدية بالقرب من الفم الرأس . ونما الرأس لحماية الفم ، كما نما البدن حول المعدة لحماية عملية الهضم ومساعدتها . وفي دودة الأرض يعقد الخط العصبي نفسه إلى مراكز عقدية في كل فلقة أو قطعة من الجسم ، ومن هذه المرحلة إلى الإنسان « يُقَطَّع » الجهاز العصبي : أي يقسم إلى مراكز عقدية موازية في الخيوط العصبية لفقرات العمود الفقري . وهذه المراكز العقدية على الرغم من اتصالها في دودة الأرض فإن كل مركز منها يكاد يكون مستقلاً عن الآخر بحيث يمكن أن يتلوى أي جزء يقطع على هواه . ولكن مع تعقد تركيب الأنواع العليا وتعقد وظائفها ، نمت الضرورة للاتصال والتنسيق . ومع أن مراكز النخاع الشوكي استمرت في أداء عملها كمراكز للأفعال المنعكسة الموضعية ، فقد ازداد عدد الألياف التي تمر من هذه المراكز إلى مراكز المخ في الدماغ ، وظهر « جهاز عصبي مركزي »

قادر على الشعور وعلى حكم الجسم ككل . وليس التكامل تاماً حتى في الإنسان ، إذ تظل وظائف كثيرة خارج رقابة المخ ، وتخضع فقط « للجهاز العصبي السمبتاوي » وهو البقية من مرحلة الشبكة العصبية . أما ما نسميه « العقل » فإنه يعمل في أظهر الأمر بطريق الجهاز « المركزي » أو « المخي الشوكي » قبل كل شيء . ووظيفة العقل الأولى والأولية هي تكامل السلوك ، وإخضاع الاستجابات الحركية للهداية المركزية ورقابتها . ومن الواضح أن الفكر بطريق الجهاز العصبي أصبح حقيقة .

ولو كان لنا أن نستدل من علم الأجنة ، فقد نشأ العقل من توسيع العصب الشمي ، فقد كان عصباً متواضعاً متصلاً بالأنف ، وظل العقل يعمل عصوراً عدة بطريق حاسة الشم . ثم ارتبطت أعصاب أخرى بالمراكز الخفية : أعصاب من العينين ، والوجه ، والأذنين ، والحلق ، واللسان ، والرقبة ، والأمعاء . وانتقلت الأعصاب الشوكية شيئاً فشيئاً إلى الجهاز المخي ، وأخذ الرأس يحكم البدن أكثر فأكثر ، ونمت وظائف التنسيق والتكيف والرقابة بين الفعل ورد الفعل مع نمو المخ . ويزن المخ في الأسماك $\frac{1}{668}$ من وزن الجسم ، وفي الزواحف $\frac{1}{1342}$ ، وفي الطيور $\frac{1}{314}$ ، وفي الثدييات $\frac{1}{383}$ ، وفي شمبانزي عمره سنتان $\frac{1}{4}$ ، وفي طفل عمره سنتان $\frac{1}{8}$. فهذا هو السلم الذي ارتقىناه .

هناك إذن أمر واحد واضح : أعقد عقل هو تطور طبيعي من الاحتياج غير المتخصص لأبسط بروتوبلازم في أدنى درجة من الحياة . إنه يمثل فقط تخصصاً واحداً أكثر في المادة الحية ، وعضواً واحداً أكثر للتحكم في البيئة . هذا إلى أن تعقد العقل ينمو خطوة بعد أخرى في الجنين والفقرات ، وفي الفرد والجنس ، مع نمو تعقيد التركيب في الجهاز العصبي . ويصحب النمو من الحساسية العامة إلى المراكز العقدية إلى المخ بالتقدم من الانتحاء tropism إلى الفعل المنعكس ، إلى الاستجابة عن تعلم . ولا يقضى انتزاع مخ الحيوان عليه ، كما يتنجلوتز على كلبه ، ولكن ذلك الانتزاع يقضى على الإنسان دائماً لأنه لا يستطيع أن يعيش إذا نسي كل ما تعلمه منذ الولادة . ويبدو أن هذه التجارب الفردية تخزن في ألياف الترابط الموجودة في السحاء ، والتي تبين نمواً كبيراً من الطفل إلى البالغ ، ومن الحيوان إلى الإنسان .

ولم يجب أحد قط عن هذا السؤال وهو : كيف يمكن أن يؤثر الجسم والعقل أحدهما في الآخر إذا كانا من التميز التام كمادة لا عاقلة وعقل لا مادي ؟ وفي ذلك يقول اوكريتيوس : «حين نرى الروح تحرك أطراف البدن ، أو توظف الجسم من النوم ، أو تعدل المزاج ، أو تهدي المرء كله وتوجهه ؛ وعندما نرى أن شيئاً من هذه الآثار لا يتم بغير لمس ، ولا يتم اللمس بغير البدن ، أفليس لنا أن نسلم بأن العقل والروح من الطبيعة نفسها كالبدن ؟ » (١) أو فلنقفز ألقى عام لنجد الفيلسوف العايت مارك توين يقول :

«الشيخ (يتهمكم) : ألا يمكن للعقل ما دام روحياً أن يتأثر بالموثرات الطبيعية ؟»

الشاب : كلا

الشيخ : أیظل العقل متزناً حين يسكر الجسم ؟ » (٢)

وقد ينشأ الجنون عن إصابة المخ ، وقد ينشأ النوم عن التعب ، وقد يغيب المرء عن الوعي بالعقاقير ، أو المرض ، أو نقص الأوكسجين ، أو الدم . ويتوقف الوعي على الإحساسات . وكان صبي سترمبل strümpell وليس له من الحواس إلا البصر يستغرق في النوم دائماً حين يغمض عينيه . وعند الإحساس بالشعور ينشأ الوعي من الصراع بين الدوافع أو الأفعال المنعكسة . فإذا انعدم الصراع يؤدي العمل أداء أفضل بلون الانتباه إليه . ولعل الوعي مرحلة انتقال مضرة . فالحيوان إذا كان كامل التكييف لحاجاته بطريق دوافعه وحواسه لا يكون واعياً . وذهب نيتشه إلى أن الوعي قد يضعف ويختفي عندما تتطور عادات الإنسان التي تستلزمها البيئة إلى أوتوماتيكية ثانوية .

أما النفس فليست إلا المجموع الكلي لصفات الكائن الوراثة وتجاربه المكتسبة . فإذا تغيرت التجارب تغيرت النفس ، فالرجل ينظر إلى نفسه عندما كان صبياً كأنه يتأمل شخصاً خارجياً أجنبياً . وإذا أصيب أحدهنا ببعض الاضطرابات ازدوجت شخصيته ، وذلك إذا انفصل مركز من مراكز التجربة أو

(١) الكتاب الثالث - سطر ١٦١ وما بعده .

(٢) ما الإنسان ؟ : ص ٩٧ .

عقدة من الألياف في المخ عن الباقي ، واستقل المركز أو العقدة بالعمل لحسابه .
فمن الواضح أن النفس وحدة مزعزعة تتكون من الوراثة والذاكرة والغاية ، وهي
إلى الفناء أدنى منها إلى البقاء .

والتفكير فعل بدائي ؛ فالانتباه توتر ، والنفور تجنب ، والشهوة بحث ،
والانفعال حركة . والفكرة أول مراحل الاستجابة . ونحن نسمى الفكرة كذلك
لأن نزوعاً آخر إلى الفعل قد اعترض طريقها قبل تحققها الخارجي . والروية
بديل عن استيلاء بدايات الأفعال والانفعالات والرغبات المتنافسة على البدن .
والانفعالات كما بين « كانسُن » Cannon شروط للدم تحدث عن إفرازات الغدد ،
فلن نعصب دون وجود الغدة الأدرينالية (الكظران) ، ويصبح المرء أبله
بلا غدة درقية . فكل فعل ، وكل فكر ، محدود بالرغبة ، والرغبة أحد شروط
البدن ؛ فالجوع فراغ في بعض الخلايا ، والحب امتلاء في بعضها الآخر .
وتنشأ التصورات الشهوانية من النضج الفسيولوجي . ويرجع نصف الشعر في
العالم إلى اختلال الخلايا . فالعقل في جميع وظائفه جزء من الجسم ، ينمو مع
نموه ، ويفنى بفنائه . وليس العقل أكثر بعداً عن الطبيعة الجسمية من الهضم ،
والتنفس ، والإفراز ، فهو ليس إلا أرقى وظائف الجسد .

٧ - المثالي يرد

يقول المثالي : هذا منجمل ؛ فلا شيء أكثر سخرية من هذه المادية
السادجة . أي يمكن أن نتصور أن المادة يجب بأى نحو من أنحاء التحويل
أن تصبح قادرة على التلفت حولها لتحس وتعرف وتحكم نفسها؟ فأحط صور العقل
غير مفهومة في العبارات المادية ، إذ كيف تستطيع المادة مثلاً أن تحس الألم؟
قد نتصور أن المادة تتذكر ، أما مادة تتبصر أو تتعرف فكيف يكون ذلك؟
إذا كان العقل هو المخ فيجب أن نعثر على آفات بالمخ لكل فجوة في الذاكرة .
ولاكننا لا نجد شيئاً من ذلك (١) . وقد أخفق سائر الجهد الذي بذل لربط العقل
بالمخ ، اللهم إلا إذا كان ذلك على سبيل التوجيه ، والأداة ، والسيادة ، والآلية .
أتوجد هزيمة عقلية في عصرنا الحاضر أعظم من إخفاق علم النفس الفسيولوجي؟

(١) برجسون : المادة والذاكرة ، لندن ١٩١١ ، ص ٣١٦ .

غير أن هذه اعتبارات بسيطة : فلتلقت حولك ، ولتأمل الفكر . حقاً
لقد أخبرنا وليم جيمس وهو يستبطن نفسه أنه لم يجد شعوراً آخر سوى : «أنا
أتنفس» . ولكن ال «أنا» هي الشيء المهم هنا ، لا «أتنفس» . فنحن لا نرى
شيئاً عند الاستبطن introspection لأننا نبحث عن شيء متحيز ومادى .
إننا نجد مشقة في الإخبار عما « نرى » لأننا نسعى وراء الصور المحسوسة ، بل
إن « نرى » عبارة عن افتراض مادى . ولكن أحداً لم يشرع في سد الثغرة بين
العلاقات المكانية التي تكون العالم الخارجى ، وبين عمليات العقل اللامكانية .
فنحن نستطيع أن نفكر في مساحات كبيرة بمثل السهولة التي نفكر فيها في
مساحات صغيرة . ولا يشغل تصورنا الميل من الحيز أو الجهد أكثر مما تشغله
البوصلة . وقد نفكر في دهور عظيمة من الزمان ، أو نركز انتباهنا في لحظة من
الذاكرة . ونستطيع بالإرادة أن نعظم الصور الذهنية ، أو نرد بعضها إلى بعض ،
أو نربط بينها ، بصرف النظر عن كيفية ارتباطها في التجربة . وليست الصورة
الذهنية هي الفكر ، فكثير من الملاحظين لا يجدون في بعض الأحيان أى صور
في تفكيرهم . ومهما يكن مقدار الصور الموجودة عندنا فإنها ليست أساسية ، بل
أدوات نستعملها ؛ فقبة مثلثة ، أو يد موضوعة على بطن شخص يدين ، من الصور
التي تفيد في نقل فكرة idea نابليون في مئات من المظاهر والمفاهيم . وكلما
كثرت تفكيرنا في شيء قلت الصور التي نحتاج إلى استعمالها . ولا تكون الصورة
مهمة إلا حين تكون إعادة لفعل من الأفعال ، أى صورة منطبعة في المخ
لحركة نوى أن نفعلها . أما حيث لا يوجد أى فعل ، فالفكر يجرى في طريقه
بأقل ما يمكن من الصور ، ومن الواضح أنه يصبح عملية تتخطى كل قالب
مادى أو استعارة مادية .

والشعور بوجه عام بندقية يصعب على المادى كسرهما . وهو يحل المشكلة
بالاعتماد على الشجاعة أكثر من اعتماده على الصراحة ؛ فيزعم أن الشعور لا وجود
له . فهو على قدم المساواة عقلياً وخلقياً مع المثالى المتطرف الذى ينكر إنكاراً تاماً
حقيقة العالم الخارجى . فالفلاسفة هم دائماً آخر من يكتشف الحقيقة . فقد ظلوا
ثلاثمائة عام يبحثون حتى اكتشفوا أن العالم الخارجى موجود . وعندما نفخ

الواقعيون المحدثون New Realists في أبواقهم ، ودقوا طبوهم ، فأعلنوا أن الشيء يكاد الآن يكون يقينياً ، امتلأت سماء الفلسفة بالدهشة والشك ... فأخيراً جعلت عالماً خارجياً ؟ فلعل بعد ثلاثمائة عام يكتشف السلوكيون والماديون العالم الداخلي كما يكتشفون حقيقة الشعور وفعله . وعندئذ ينتهي علمهم آخر الأمر إلى مقدار ما يعلم رجل الشارع .

وقد سلم هكسلي في أمانة غريبة أن المادية لا يمكن أن تفسر الشعور ، وأنها بمقتضى منطقتها ومقدماتها مضطرة إلى القول بأن الشعور « ظاهرة ثانوية » epiphenomenon ، أي زيادة لا نفع فيها تضاف إلى المخ والأعصاب ، كالحرارة في المصباح ، أو الضوء في النار . حقاً هناك أبنية structures لا نفع لها تعيش بعد التطور ، ولكن لعل ذلك لأنها لم تكن مضرّة ، أو أنها بقية لأشياء كانت نافعة في وقتها . ومع ذلك فالمادى ممنوع من الاعتقاد بأن الشعور كان نافعاً أبداً ، أو حتى أنه لم يكن مضرّاً . أو إذا كان المادى في أكبر الظن من المفكرين على استحياء ، فقد يسلم بأن الشعور بالذات يمكن أن يكون تدليلاً أو ضرراً . وبعد فمن منا يستطيع أن يحسن المشى وهو يفكر في رجله ؟ وكيف يغفل المادى الدليل الواضح بأن الشعور قد نما جنباً إلى جنب مع قوة الحياة ومرونتها ، وأن تلك الحيوانات الموهوبة أعظم درجة من الشعور تتحكم في الخلق ؟

٨ - التركيب

لقد حان الوقت الذي نجمع فيه بين هذه الخيوط ، وننسج أنصاف هذه الحقائق نسيجاً واحداً . وقد اقترح ليبنتز أن ينقد السفينة الغارقة بنظرية « التناسق الأزلي preestablished harmony » : فالعقل والجسم يتوازيان ، ولكنهما مستقلان ، فيجري أحدهما إلى جانب صاحبه رأساً برأس ولكن دون أن يتماسا أبداً أو أن يؤثر أحدهما في الآخر . أما وفاقهما الظاهر في كل لحظة فليس إلا دليلاً من جملة الأدلة على العناية الإلهية . والمزية الوحيدة لهذه النظرية أنها ليست في حماقة غيرها من النظريات . وليس مجال الاختيار بينها وبين أحدث الأزياء

الفلسفية وهي « المادة المحايدة » كبيراً . فعلم الطبيعة في نظر « الواحديين المحايدين » الذين يعد برتراند رسل أقلهم إقناعاً ، قد رد المادة إلى نظام من العلاقات والأحداث ، والإدراك هو العبور الزائل لهذه العوالم المتقاربة . فهنا أيضاً لا بد أن يكون توفيقاً إلهياً للمتناقضات القديمة . ومن هذا البحر من « المادة المحايدة » - هذا النسيج الغشائي من العلاقات والأحداث - ينشأ كلا المادة والعقل . لقد انكشفت الأنفس والأبدان إلى مثل هذا الغشاء الرقيق .

أما نحن فنستمر في الاعتقاد بأن « الأحداث » التي تكوّن معرفتنا بالعالم الخارجي تكشف عن حقيقة ملموسة وموثره جديرة كل الحدارة بأن تسمى مادة ، ومستقلة مع الأسف عن رغباتنا ومشاعرنا . ولما كانت المادة غير خاملة بل حية ، فإن مشكلة المادة والعقل تنهى إلى مغالطة تقوم على فساد المقدمات . ولا ريب في أنه من الصعب أن تتطور المادة الخاملة التي يقول بها الماديون إلى العقل . ولكن الشخص الذي يتتبع مغامرات علم الطبيعة الحديث لن يكون على يقين من أن المادة الديناميكية التي يقول بها العلم هذه الأيام ليست حيوية وغامضة مثل حيوية العقل نفسه وغموضه . وليس من العجيب أن يكون العقل قد تطور عن مثل هذه المادة . ولكن ليس موضع السؤال أن يكون أحدهما قد تطور عن صاحبه ، بل المشكلة حين توضع من جديد هي ما يأتي :
أيمكن أن تنمو أدنى صور العقلمادة mind-matter⁽¹⁾ إلى أرقى الصور ؟

ذلك أن العقل ليس المادة ولا المادة هي العقل ، بل ثمّ عقلمادة . وليس العقل شيئاً متميزاً يقوم في داخل المادة ، كما أن الحياة ليست شيئاً يسكن في البدن كالرجل في البيت . « العقل » اسم مجرد ، وهو اسم جمعٍ نطلقه على عمليات المادة الحية حين تفكر ، كما أن البصر اسم نطلقه على عمليات المادة حين تبصر ، أو كما نطلق اسم الحب على عمليات المادة حين نحس بالجوع إلى الامتلاك أو الصلة الجنسية . فهناك « تدخل بين العقل والجسم » لا على معنى وجود شيئين متميزين يوثر أحدهما في الآخر ، بل فقط على معنى أن شيئاً واحداً هو عضو من أعضاء الجسم ووظيفة له (الأعصاب - الفكر)

(1) العقلمادة مركب مزجي من اصطلاحي العقل والمادة معاً (المترجم) .

يؤثر في أعضاء الجسم ووظائفه و يتأثر بها (الرئتان - التنفس ، المعدة - الهضم ، الأطراف - النملة ، الغدد التناسلية - التناسل ، الغدد - الإفراز) . فجزء من المادة الحية الأرق تطوراً يتكامل بوساطة « فعل أجهاز العصبى الموحد » مع بقية الكائن ويهديه السنوك . إن أرق صور « العقل » قريبة في طبيعتها و متصلة في نموها بأدنى صور الحياة والحيوية الأولية للذرة . بل إن الشعور . مع أننا لا نستطيع تفسيره (أن نرسم له رسماً بيانياً مادياً ومبكانيكياً) يتبع بشكل مفهوم داخل خطة التطور ، لأننا لا نستمدده من مادة الماديين الخامدة الهامة . بل من تلك الطاقة الغزيرة وهى مادة الحياة .

فإذا كنا نتحدث عن الفكر كأحد وظائف الجسم ، فليكن مفهوماً أن هذا الجسم لا نتصوره على أنه « مادة » بل على أنه حياة . والحيوية حتى في أبسط الخلايا مركزية ، والهيئة المادية ليست إلا قشرة ، مع استعمال الاستعارة الخادعة مرة أخرى . وليست الحياة وظيفته للهيئة ، بل الهيئة أو الصورة Form من نتاج الحياة . وثقل المادة وصلابتها نتيجتان للطاقة الذرية الباطنة وتعبيران عنها (١) ، وكل عضلة أو عصب في الجسم آلة مشكلة للرجبة . ومن الخطأ افتراض أن الحياة والعقل يبدأان من الإحساسات التى تبنى نفسها آلياً إلى فكر ، فالأمر على العكس من ذلك ، إذ أن الرغبة أو الطاقة المتشكلة هى جوهر الكائنات العضوية بالذات . فالرغبة فيما عدا الاستدلال الخارجى هى التى تحدد الغرض والميول والحركة ، وتختار من أجل ذلك الإحساس والتجربة . وليست التجربة هى « المطلق » كما ظن برادلى ، لأنها آلة مخلوقة للرغبة . وإذا وجب أن يكون لنا « مطلق » فهو الطاقة التى ترتفع من حيوية الذرة غير الموحدة إلى النشاط الموحد الخاص بالعقل الناضج الذى يجعل أغراضه غرضاً واحداً ، ويصر جميع الأشياء في ضوء الكل . إنها طاقة المادة الحية التى خصصت للأعضاء والأعصاب والأفخاخ وشكلتها . فإذا كنا نستطيع التفكير اليوم فذلك لأن لنا أمخاخاً ، ولكن الحياة - وهى تحاول التفكير في قديم الزمان - كما خضت المخ ، فلا يزال المخ ينمو حتى اليوم عن طريق محاولة الفكر الراغب وخطئه . فالحياة هى أول كل شئ .

(١) ليون : تطور المادة ، ص ١٠ ، ٢٠٩ .

وفي كل شيء . والمادة القديمة قدم الحياة في الزمان ، والتي لا تنفك عنها في المكان ، تأتي في الخلل الثاني بعد الحياة في الجوهر والمنطق والمفهوم . فالمادة هي صورة الحياة وما به يمكن رؤيتها .

فهذا هو المذهب الحيوي vitalism ، ولكنه مذهب واحدى monistic يسلم بالحياة على أنها الحقيقة الأساسية ، والمادة (أى الامتداد) هي رداؤها الخارجى . ولكن المذهب لا يسلم مع برجسون بأن المادة والحياة قد ينفصلان ، فالاثنان في كل مكان شيء واحد . ولن نسمح لأحد أن يتهمنا بالغموض في هذا الموضوع ؛ فلم تعد وحدة المادة والعقل الموجودة في كل مكان شيئاً أنعمض أو أعسر فهماً من الاتحاد بين الفكر المقصود والحد غير المستقر في الإنسان الحي . وكيف يكون ثمة غموض في التسليم بأن الحياة أساسية ، حين تكون معرفتنا لها أكثر مباشرة وأوثق صلة من أى شيء آخر ، وتكون معرفتنا لسائر الأشياء الأخرى بوساطة هذه الحياة ؟

ولقد كانت الميكانيكية المادية هجوماً على الدين ، والمثالية الذاتية حملة على الإلحاد ؛ فإذا لم نرهب أفكارنا أو عصرنا فقد نرفض المذهبين معاً . ومع ذلك ففي هذه الواحدة النفسطبيعية psycho-physical monism لم ترفض مذاهب المادية ، والمثالية ، والروحية ، إذ تلتقى وتتداخل ؛ فالمادية من جهة أنها ترى جميع الحقائق مرتبطة في حقيقة واحدة من التطور والوحدة المتصلين بغير انقطاع ؛ والمثالية من حيث إنها ترجع جميع حقائق المعرفة للتجربة ؛ والروحية من جهة أنها ترى جوهر الحقيقة لا في الامتداد والصلابة والثقل بل في القوة الدافعة إلى الفعل ، وهي في وقت واحد حياة الذرة وسر العبقرية والطاقة المولدة لها - « وهي حركة وروح تدفعان جميع الأشياء المفكرة ، وموضوعات جميع الأفكار ، وتنفذان إلى باطن كل شيء » . وقد أثبت العلم صحة هذا الخيال الشعري .

لقد حاولنا نظرة تركيبية تسعى إلى حد ما أن تلم بأطراف المنظر الكلى للعالم وما فيه من تعقيد شديد . ولا ريب في أننا قد أخفقنا في هذه المحاولة ، اللهم

إلا أن نكون قد جعلنا ما ندركه ونشعر به أكثر غموضاً . ومرة أخرى كيف
للقطرة أن تفهم لبحر ؟

لا العقل يقنع ولا العظات تفيد
رطوبة الليل تسرى إلى أعماق نفسي
وأقلب اليوم نظري في الفنسات والأديان
إنها قد ترضيني كل الرضا في قاعة الدرس
ولكنها لا تصلح أبداً في رحاب السحاب
وفي بساط الأرض والمياه المتدفقة

وليس ذلك إلا لأن المياه المتدفقة والأرض الواسعة ، بل السحب الشاسعة ،
تتواحم في خضم الحياة .

الفصل الرابع

هل الإنسان آلة ؟

١ - استعراض

ننتقل الآن من العالم الخارجى إلى الداخلى ، لا لنبحث فى طبيعة العقل ، بل فى كيفية عمله . وليس لنا أن نفصل بين العالمين ، فقد رأينا أنهما منفصلان فى الفكر فقط ، أما فى الواقع فهما وحدة فى المكان والزمان معاً : فكل ذرة لها نواة حية ، ولكل عقل صورة مادية . ويرتبط أرقى عقل فى تطوره المتصل بأدنى ذرة ، ويجب أن تكون قوانين أحدهما هى قوانين الآخر . فإذا كانت الذرة آلية mechanical ، فالإنسان آلة .

ومذهب الحتمية أقدم الفلسفات ، كما أن مذهب الأنيمزم Animism أقدم الأديان . فالإيمان الساذج يرى فى كل شىء إرادة غريبة ؛ وكان أول رد فعل من أصحاب النظر العقلى على هذا الاعتقاد الظاهر هو التسليم بعجز الفرد أمام القانون فى كل مكان . فقد يبلغ الدين والفلسفة هدفاً واحداً من هاتين البدايتين المختلفتين ؛ إذ يمكن أن تجرد الإرادة الكلية من أهوائها وتصبح شيئاً واحداً مع نظام العالم الثابت . ففي الشرق القديم ، حيث كثر التناسل حتى فاق ما يتناسب مع ما تجود به الأرض ، وانكسرت نفسه بالعمل الشاق وضافت بزحمة السكان المتزايدة ، فقد أخذ الاعتقاد البدائى فى الإرادة يتجه نحو الزوال من الدين كما أخذ فى الزوال من الفلسفة . وأصبح الناس يتصورون السعادة على أنها خمود الرغبة ، ونعمة الشخصية المعتسمة ، واصطنع الكاهن وأحكام مذهب القضاء والقدر . ولم يكن من الممكن أن يحصل الفرد على قيمة أساسية أو أهمية فى تلك المراحل من الإنسانية التى كانت تغلى بمن فيها ، وكان الفرد يرى نفسه

وهو معتمد على هذا الماضي المتفجع اللانهاى ذرةً تافهة قد أقيمت في هذا الحضم ، غير مسئولة عن شيء . تكافح عبثاً بعض الوقت ، ثم تبتلع في الظلام ولا حيلة لها في دفع هذا الغائل كأنه أمام عدو محنون . وقد تبين الخيام تلك الحال فنظمتها في أبيات حفظها عن ظهر قلب كل شاب ثائر .

أما في الحضارات الفعالة والمتقدمة - حيث تسيطر شعلة الفكر الغامضة ، التي تحترق وتبرق في وجه القدر ، بعض السيطرة العابرة على البيئة ، وتترك المعابد الطاهرة للألوهية وللنظم الفلسفية المختلفة - فإن الفرد يجد أمامه سبباً أفضل للإيمان بشخصيته الخالقة . فهو يحس في نفسه بشرارة من التلقائية ، ويصوغ على مثاله حتى آلهة أو يمجس . ثم رأى الإغريق الكون ينمو ويتطور : فقالوا بوجود الآلهة في كل مكان ، وظهور الائتلاف بين الأضداد ، وظن أفلاطون وأرسطو أن العالم كله يتحرك نحو غاية كاملة وكأنه منجذب بما تراه عين العاشق . ومع ذلك فلم تكن تلك الحضارة الخصبة إلا فترة سعيدة نشأت عن ازدياد الثروة والنصر في الحرب . ولم يعد يبدو أن الناس أشبه بالخالدين حين حطمت إسبرطة أثينا بعد عصر بركليس ، وحين هدم الإسكندر مدينة طيبة . وانتهت الفلسفة مع زينون الرواقي إلى النتيجة التي أعلنها سوفوكليس عدة أجيال من قبل من أن القضاء الأعمى Moira صاحب السلطان على الآلهة والبشر .

والحضارات الكليلة كالنفوس الهرمة تُعَظَم في أحضان مذهب الحتمية . فهي حين تعجز عن التغلب على قوى الموت تعظم كلالها وتسميه قضاء ، وترفع من شأن هزيمتها وتسميها قدراً . ونمت المسيحية في سواد هذا اليأس كأنها زهرة بسيطة من الأمل في عالم متفكك الأوصال . وفي قلب الدين الحديد يستقر دائماً التشاؤم الذي خرج منه ذلك الدين . (وقد يكن الدين الحديد مثقلاً بالطقوس الوثنية والمباهج) فأخانب الآخر من الإيمان بالآخرة يقابله الارتياب والخوف من الحياة . ويبلغ هذا الشك القائم في الإيمان مداه في مذهب كالفين Calvin الحزين عن العناية الأزلية : فقد قدر الله كل شيء وكذلك مصير كل إنسان ، وكتبت على كل نفس سعادتها أو شقاوتها قبل مولدها ، ولئن تجرؤ المستقبل على الخروج عما سبق في علم الله الأزلي . وانتهت المسيحية بعض الوقت إلى عقائد

أقصى وأمر من الحظوظ الأرضية ، تلك المسيحية التي جاءت تسعى إلى راحة المحروم ، وعزاء المظلوم .

وأخذ المفكرون في العصر الحديث يعظمون هذا اللاهوت القاسي بعصمة العلم الجديدة . فذهب جاليليو ، وقد افتتن بما كشفه في النجوم من نظام دائم صابر ، إلى أن هذا النظام هدف كل علم ، ويجب أن يرد العلم ميدان معارفه إلى القوانين الرياضية والكمية . وسحرت شهرة نيوتن العالية ، وكمال عمله المؤقت في الميكانيكا ، كل طالب . وبحث علماء الفسيولوجيا وعلماء النفس عن التفسيرات الميكانيكية والقوانين الرياضية لتعليل نمو الخلية واضطرابات الرغبة . وعندئذ أصبحت الفلسفة مفتونة بالرياضة ، فذهب ديكارت في غموض مشوب بالخطر إلى أن العالم كله آلة ، أي هندسة في حركة . وطابق نيوتن بين نظام الكون الدقيق وبين التركيب الأوقليدي لفكره . وابتهج ثوار عصر النور حين علموا أن الإنسان ليس مخلوقاً على صورة الإله ومثاله ، بل الأولى أن يكون ذلك على نسق الآلات التي أخذت في عصرهم تحمل محل عمل الإنسان وإرادته .

أما الثورة الصناعية فهي التي قوضت أركان فلسفة الحرية ؛ لأنها أولاً عودت العقل العمل بالآلة ، ثم بعثته على التفكير أكثر فأكثر في العلل على أنها ميكانيكية . وأما العامل المحصّن داخل جدران المصنع ، حيث يرى جميع الحياة الحافقة من حوله تسير على بكر وتدور على عجل ، فقد نسي الحياة الزراعية القديمة التي بدت فيها الحياة مسألة بذور تنبت بأعجوبة من الأرض التي تستجيب في نشاط لكل فلاح ، وتفيض بخصوبة تلقائية . وأما العالم الذي كان ذات يوم ميداناً لنمو النبات ، والأطفال ذوي الإرادة ، والأمهات المغرمت ، والرجال الطامحين ، فقد أصبح كل أولئك في نظر العقل الحديث نظاماً شاسعاً من الميكانيكيات ابتداء من الكواكب التي تدور دوراناً ميكانيكياً حول الشمس ، إلى الحياة الميكروسكوبية التي تتجمع ميكانيكياً حول شعاع من الضوء . كان العلم على يقين من أنه قد دخل آخر الأمر خلف ستار الدراما الكونية ، فتعجب من هذه الآلية غير المنتظرة التي خلقت الأوهام ، وبدلت آفاقاً من المناظر . واستنتج العلم في إعجاب متواضع أن الإنسان الممثل هو صاحب الرواية ، وأن الأسلاك هي الرواية .

ولكن مرة أخرى الثورة الصناعية هي التي خنقت المدن ، وخلقنت المدن الجماهير . وخطمت الجماهير الناس . ومرة أخرى ظهرت في المدينة الجديدة تلك الشروط التي مزقت في الشرق شخصية الفرد وقيمه . فأفضت إلى فلسفة مماثلة من خيرية وإيثار . وأصبح المرء في هذا حشد مضطرب من السكان رقماً أو « يداً » ، فالعقل أداة للقياس والحساب . والإنسان جزء من الآلات التي يديرها . وأصبحت الديمقراطية ذاتها التي استهدفت تحرير الفرد آلة ، وسلسلة من « الآلات machines » التي تقود الجماهير غير العاقلة آلياً إلى صنابير الانتخابات . وكان من العيب أن يحتج الفرد على هذا النظام من الأسلاك والدوافع والمحركات ، كما كان من العيب أن يعترض بنفسه في وجه الجماهير الساحقة والمعاش الخطمة في الشرق القديم . بل أصبح « القادة » أجزاء نصف حية من البدعة الجديدة يبلغون من البلاهة وفقدان الإرادة مبلغ القطعان الضالة التي تدرج رهوسها (أولاً تدرج) في جداول الانتخاب .

فإذا كان العيب قد ثاروا في وجه هذه الميكانيكية فذلك عن فلسفة تعرف بامتياز الآلات وقداستها . ولم تترد الاشتراكية socialism في ربط نفسها بعجلة الحتمية determinism والعلم الميكانيكي ، فكانت تغذي جنودها على مائدة بوخيز وهيكل وسبنسر وماركس . ولم يكن العالم وحده آلة ، بل التاريخ آلة لا تتم فيه أي حركة إلا بثمن الخبز ، ويستطيع الاقتصادى البارع إذا كان على معرفة كافية بالماضي والماضي أن يتنبأ بيقين محتوم بكل وجهة أو مصير في المستقبل . فالإنسان هو الآن مخلوق مركب من الوراثة والبيئة ، وأي شيء بعينه فهو ثمرة لعقل موروث أو طبيعوي ، والتي لا سلطان به عيب . فالإنسان إن هو إلا آلة منحركة بذاتها عجيبة ذات حياة ظاهرية . ويترتب على ذلك أنه غير مذنب . فإذا ارتكب جريمة فالله يقع على المجتمع ، وإذا كان مجنوناً فتلك غلظة الآلة التي سمحت عجلاتها بتربيته . ولا ينبغي أن يحرم هذا السبب من حقه في الانتخاب أو أن يكون رئيساً للدولة . كل ما كان العالم في حاجة إليه هو آلة أكبر وأفضل ، آلة مؤتمنة nationalized ، إلى مائة مليون آلة تديرها آلة واحدة مسندة حين يضغط الرئيس على أحد الأزرار ضغطاً ميكانيكياً .

وقد كان من الممكن أن يسمح القادة في العصر الأرستقراطي للجواهر المضطهدة باحتكار هذه الفلسفة المخدرة . أما في عصر الديمقراطية فقد أحس أعظم المفكرين بأنفسهم مندوبين للمشاركة الوطنية في فلسفة الجمهور . وأصبح الشك في الآلة الموجودة في كل شيء والقادرة على كل شيء بدعة قديمة تليق بعصر ما قبل الطوفان . وأسرع المفكرون فأعلنوا أنهم أنفسهم آلات وضعت فيها الأفكار متصلة بالزمان ، منذ ملايين الملايين من السنين من قبل . واعترف تين Taine بالإله الحديد ، وابتكر نظرية نقدية في تمجيده . وكتب زولا تمثيلات كثيرة يبين فيها أن المرء يجب أن يدفع ثمن أجداده . وعرض توماس هاردي الإنسان في هيئة العاجز بين مخالب الظروف . ورثي أناتول فرانس في عبارات رشيقة نقية عبودية النفس ، وعبث الحياة . ورأى دانزيو في كل مكان انتصار الموت وسخريته .

لعل نزول الشخصية عن عرشها أحد أسباب هذا الحزن الغامض الذي يمتحن وراء بريق الفكر الحديث وبراعته . لهذا لن نجد من يقرأ كتاب «ما الإنسان» تشاوم مارك توين غامضاً أو غريباً ، ذلك أن هذا الكاتب الساخر البائس كان من غلاة مذهب الحتمية ، وكان يعتقد أن سائر نكاته (قفشاته) المرحة مفروضة من قبل في التركيب الغازي للسدم الأولية (أي جرائم لم يسأل عنها هذا الغاز المسكين ؟) ولم ير في حيوية توم سوير Tom Sawyer النابضة سوى فوران مركب كربوني . حقاً إن اليسير من الفلسفة عظيم الخطورة ، إذ تميل بعقل الإنسان نحو التشاوم . ويقال إن الآلة المرحة التي خلقت هكابرى فن Huckleberry Finn واجهت بعض الصعوبات مع زوجته . ولكن كيف يمكن أن تشارك المرأة في سلام في مخدعها وطعامها مع آلة نائرة تنظر إليها على أنها مجموعة من العجلات دارت في طفولة الزمان ، وتبطل الآن عن الدوران مصدرة أصواتاً صاخبة لا لزوم لها وسطحية ، حتى تنتهي إلى عجز وصمت أبديين ؟

ولا ريب في أن فقدان إيمان طفولتنا قد أحرزنا ؛ كما أن الحرمان المزدوج نكل بالغ فقدت نفسه مثل طفولتها اللاهوتية ثم بعد ذلك مثل شبابها الاجتماعية ، مما يترك قلب الشاب مثقلاً بعض الشيء بعبء هذا العالم غير المفهوم . وقد

فإن الكائن يكتيف نفسه تكييفاً فلسفياً مع البيئة الجديدة ، ويتراجع تماماً عما لا حيلة له فيه (١) . فليشجذ لعالم ميكانيكي ذهنه لتفسير هذه الردود الانتخائية والمتكيفة التي نجدها في أدنى صنف من المملكة الحيوانية . سيريح نفسه مجادلاً . ويؤكّد لنا كأيّ منحد قائلًا : استجدذات يوم . بطريقة ما . تفسيراً ميكانيكياً هذه الأمور . لقد كان أناتول فرنس يقول : ليس العلماء محبين للاستطلاع Les savants ne sont pas curieux : لقد نقد العلماء فن الشك .

أو فلنبحث في الخضم . بعض النباتات الحساسة مثل الدوينية أو ورد الشمس drosera يطبق على الغذاء الموضوع على سطحه ويمتصه . أما إذا وضعت على سطحه مواد غير صالحة للغذاء فلا يستجيب هذا النبات أبداً . وتنفي الأميبا بطبيعتها ما لا يصلح لتغذيتها . واخيوان الميكروسكوبي الذي يشبه اليم swan-animalcule المسمى ديلبتوس أنسر dileptus anser ، يبرز عنقاً مملوءاً أكياساً شعيرية trichocysts (خيوط ملفوفة لاسعة) ، لا يلقبها إلا على الغذاء الملائم . ونجد أن خلايا أمعاء الإنسان انتقائية في فعلها ، فكل نوع من الخلايا يؤثر في أطعمة معينة ولا يؤثر في غيرها . وكل خلية في بدن الإنسان تنقى من مجرى الدم ما تحتاج إليه من المواد الخاصة بنوعها specific وتتجاهل غير ذلك . وتصب في الدم نفاية ما تنتجه من تغيرات كيميائية . إنها تفتت المواد التي تنتقيها إلى أجزاء . ثم تعيد تركيب عناصرها إلى مركبات تحتاج إليها في بقائها ونشاطها . إنها تنفس ، وتأكل ، وتفرز . وتنمو ، وتتكاثر ، وتموت ، كما لو كانت كائناً حياً له فرديته الخاصة . وفي ذلك يقول ليبون :

« إن ما تحقّقه هذه الخلايا في كل لحظة من حياتنا يسمو نمواً بعيداً على كل ما يستطيع بعد المتعدّد أن يحقّقه . وإن الطالب القادر أن يحل بعقله المسائل التي تحلها كل لحظة خلايا أدنى المخلوقات هو أسمى بكثير عن غيره من البشر حتى لقد يعدونه بالنسبة إليهم إنفاً (٢) . »

ولنتأمل النمو : كيف يمكن أن تنمو الآلة ؟ وماذا تعنى بالنمو ؟ أوجدت

(1) Jennings, H.S. Behavior of the Lower Organisms. pp. 170-5.

(2) Le Bon, The Evolution of Forces, p. 363.

قط آلة تبلغ من العجب أن تشبه امتداد الحياة المدهش؟ انظر إلى زنابق الوادي؛
أى قوة ساحرة تجلبها من سجنها في الأرض، وترفعها ببطء وصبر نحو الشمس؟
أو تأمل العصافير تطير في الهواء، فلا تجد فيها تروساً ولا بكراتاً ولا عجالات.
ومع ذلك فنحن كما قال الشاعر:

إننا نحتقر ونبغض ونفخر كذلك ونرهب
ولو كنا جنساً خلق لا للبكاء والنصب
كيف يمكن لست أدري من سرورك نقرب

هذا طفل، فلماذا يجوع ويتعطش للغذاء، ويمد أصابعه الرقيقة ليمتلك
العالم؟ انظر إلى الطفل ينمو: إنه لا يحتاج إلا لغذاء واحد يصنع به خديه
السميتين، وشعره الغزير، وعينه الضاحكتين. تأمل الطفل يقف وحده لأول
مرة، في خوف وشجاعة، منتصب القامة في كرامة. لماذا يشاق هكنا إلى
الوقوف والمشي؟ لماذا يضطرب بالفضول المستمر، والطموح الشره الخطر،
يلمس ويندوق، يتأمل ويسمع، يبحث بيديه ويجرب، يلاحظ ويفكر،
«ينمو» - إلى أن يبحث في الأرض، ويقيس أبعاد النجوم؟ وما أعرض هذا
التغير في الهيئة الذي يحدث مع المراهقة، ذلك التغير الذي ينقل الصبي إلى رجل
هاديء عريض، ويصوغ الفتاة إلى قطعة حية من الجمال أبهى من أى
أثر فى؟

انظر إلى تجدد النمو. اقطع غضروفاً من جناح نجمة البحر، تجد أن
الغضروف ينمو ثانية. اقطع جميع الغضاريف تجد أن المركز يولدها ثانية.
اقطع المركز كله تجد أن الغضاريف تعيد نموه. إن الآلة إذا تعطلت فلا تصلح
أجزاءها بنفسها. إنها تقف لا حراك بها ولا حس، في انتظار لمسة من يد حية
تعيد إلى أجزائها نظامها في تأدية مهمتها. وليست هذه الظواهر الكبرى التى
وصفها برجسون أعظم دلالة، فأبسط شفاء لأتفه جرح أمر غير ميكانيكى،
ويكفى في الدلالة على العجب. ما هذا الفن الذى تنمو به الخلايا الحديدية فوق
اللحم المصاب كما لو كان ثمة عقل خلوى يهدى إلى هذا العمل المفيد. نعم نحن
نقدم معونة ميكانيكية أو كيميائية إلى هذه العمليات الحيوية، ولكننا نعلم أن لها

نفس الصلة بالقوة الطبيعية على الشفاء ، كالرخام أو الطين في يد الفنان . ونحن نعلم أن طاقة الحياة ودفعها ستحملنا ، بطريقة لن توضحها الميكانيكية أبداً ، خلال آلاف من المعارك وآلاف من الإصابات حتى تستنفد هذه الحيوية المرنة ، وتلتبس لنفسها صورة تعيد إليها الشباب .

تأمل الشعور . ما هذه الملكة الغامضة التي ندرك بها أننا نشعر بما نعمل ، أو ما عملنا ، أو ما ننوي عمله ؛ وندرك بها الصراع بين أفكارنا ورغباتنا ، ناقلين بعضها ببعضها ؛ وبها نتصور أنواع الردود الممكنة ونتوقع بوساطة الذاكرة النتائج الممكنة ؛ وأخيراً نواجه بها الموقف فنحله في صبر معتمدين على كل ما فينا من أفكار ورغبات فنسق بينها ونعيد صياغتها في رد فعل خالق ؟ وقد نقضت تجارب كوهلر ، التي بينت عمل الاستبصار insight الكلي في التعلم ضد الفعل المنعكس الشرطي ، التصور الميكانيكي للعمليات العقلية (١) .

ما هذا الكذب الغبي الذي أصابنا ففرض علينا أننا اليوم إذا شئنا مسaire الجمهور فيجب أن ننكر وجود الشعور حتى نظفر بفلسفة ميكانيكية لا يمكن في أكبر الظن أن تفسره ؟

إننا نبدأ من الأشياء التي لا نعرفها إلا خارجياً فقط ، في هيئتها الخارجية والسطحية (كالمادة التي هي في علم الطبيعة الحديث الهيئة الظاهرة للطاقة) ؛ ثم من الطبيعي أن نجد أنفسنا في حيرة كيف ننتقل من هذه الميكانيكيات الظاهرة إلى ذلك الشعور الباطن وهو أكثر الحقائق الواقعة مباشرة ووضوحاً في معرفتنا كلها . ولكن السلوكي behaviorist لا يتردد في التضحية بالوقائع الواضحة في سبيل نظرية مشكوك فيها . فهو يعلن في شجاعة أن هذه العقبة المزعجة من الشعور التي تعجز انيكانيكية عن تفسيرها من النوافل وليس لها وجود حقيقي . إنه يتلقى عقائده مثل رجال الدين الطيبين من الخارج (مثلاً من رجال الطبيعة الأموات) ، ويعنى باستبعاد الوقائع التي تضايق تعميمه . حقاً السلوكي عالم نفساني ممتاز ، ولكنه ليس إلا فيلسوفاً ضعيفاً ، ولو أنه في بساطته المتسامية يعتقد أيضاً ألا قيمة للفلسفة ، وأنها ستموت بعد جيل (واحد) . أما أن هذه

(١) أنظر كتاب دين مارتين البديع عن « معنى التربية الحرة » ، ص ٣٦ - ٣٩ .

اللاهوت المقلوب أخذ في كسب الأنصار بالسرعة التي كسب بها مقابله ومكمله العالم المسيحي فهذا دليل على شعبية الفكر المعاصر وسطحيته . أى مازق نواجهه الآن حين ينكر بعضنا المادة ، وينكر بعضنا الآخر الشعور . ونستطيع أن نتصور الابتسامة الحزينة التي قد ترسم على وجه جيته أو فولتير عند رؤية هذا الحنون الفكري في عصرنا .

وتأمل آخر الأمر التناسل . فهذه بويضة صغيرة جداً لا ترى بالعين . وهذه نطفة لا تستقر وتتحرك من حولها في عوالم لم تتحقق . وكل من هاتين الخليتين المكر وسكوييتين غنيتان غني عظيمًا بالصفات الموروثة التي تحمل ذكرى آلاف من الأجيال . وتحمل كل منهما في داخلها صفات فريدة ودقيقة عن الجسم والعقل ، ودوافع وميولاً واستعدادات ، وجوعاً وشوقاً وحباً . ولعل في بلازمتها (١) Plasm تستقر من قبل شهوة العبقرية وصبرها . حسناً ، فلتتحد النطفة بالبويضة ، وإذا بتلك الإمكانيات تصبح فجأة حقائق ، وتظهر معجزة حياة جديدة . وتنقسم الخلية المحصبة بنوع من الضرورة الباطنة وقد نفذت بدم المشيمة إلى خليتين ، ثم أربع ، ثم ثمان ، إلى مئات الملايين من الخلايا التي يبدو أنها تنمو في وحدة كلما تكاثر عددها . ويتكون القلب ويبدأ في النبض ، ويتكون المخ ويأخذ في الحس ، وتبرز اليدين والرجلان وتتحرك في الرحم . ثم تخرج الأعجوبة الصغيرة إلى العالم فتصطدم بالهواء والبرودة والصوت والضوء ، وتفتتح العينان والشفتان والأذنان ، وتهتز جميع أعصابها بالإحساس . لقد نفذت الحياة من خلال الموت مرة أخرى ، وأخذت تتدفق بغزارة في هيئتها الجديدة ، مرحلة وقوية وشابة من جديد .

أهذا شيء ميكانيكي ؟ لقد اكتشف جاك لوب Jacques Loeb أنه يستطيع تخصيب بويضة قنفذ الماء (٢) بمحلول من الملح أو بوخزة دبوس ، فسارع إلى استنتاج أنه أثبت الطبيعة الميكانيكية للتناسل . الحقيقة أنه بين فقط أن بويضة الأنثى في بعض الحالات يمكن أن تولد بنفسها خلفاً حتى بدون تلك

(١) البلازم هو السائل الدموي ، أو صورة الدم ، أو المادة الأولى الحية . (المترجم - عن قاموس شرف) .

(٢) Sea-Urchin ، هو الرتزا المعروفة بالاسكندرية (المترجم - عن قاموس شرف) .

المعونة العارضة التي تحددها الطبيعة للذكر . لقد أعاد كشف التناسل بدون نكاح الذكر^(١) parthenogenesis الذي عرفه علماء الحياة منذ ألف عام . ولا حاجة بنا إلى القول بأن الأنثى ذاتها تكاد تكون ميكانيكية كالدبوس ، أو بسيطة كيميائياً كالملح . الحق أن تناسل الأنثى بغير ذكر يبدو أكثر عجباً من أخواتها الأكثر حظاً . وهذا الضرب من التناسل نذير سوء كذلك ، ويدل على أن تحرر الجنس الذي كان ذات يوم أضعف قد يفضي في عصرنا إلى نهاية لا تسر .

وكانت كشوف هانس دريش Hans Driesch^(٢) المشتركة أكثر دلالة من تلك التجارب التي أجراها لوب . وقد نشأ دريش في معمل إرنست هيكل في مدينة يينا Jena . وكانت جميع البواعث تدفعه إلى أن يكون من أصحاب المذهب الميكانيكي الخالص . غير أنه وجد ظواهر لا يحلم بها أستاذه . لقد قطع بويضة مخصبة نصفين ، ومع ذلك نمت نمواً طبيعياً . ثم شوش نظام الخلايا اعتباراً بعد القسمة الثانية ، ومع ذلك نمت الخلايا نمواً طبيعياً . وحصل على النتيجة نفسها بعد القسمة الثالثة وتشويش نظام الخلايا . والآن حاول أن تخيل أولاً مزوجة آلتين من جيل الآلة الثالثة . وتخيل أن كل جزء من الآلتين موهوب بقوة التناسل واعتياده ، وأنه يستمر في التكاثر والنمو . وتخيل بعد ذلك أن بعض أجزاء الآلة الأب تلتئم لتكوين نموذج للآلة الجديدة ؛ وأن النموذج يولد الآلة الكاملة بأن ينقسم تلقائياً إلى اثنتين ، وأربع ، وثمان . . . ؛ وأنها كلما تكاثرت كلما أصبحت واحدة . وتخيل ظهور شخص جبار مثل دريش ، فيقطع الآلة الملتزمة إلى أنصاف ، أو يوزع أجزائها إلى فوضى . جملة القول تخيل أن الآلة تشرع في العمل بشكل طبيعي وبنجاح كما لو أن شيئاً لم يحدث . أوجدت قط أضحوكة أبدع من ذلك في العلم أو الفلسفة ؟ أئمة أى معجزة في أى دين قديم أو متوسط أو أمريكي يمكن أن تقارن بهذه الأسطورة البديعة والمهولة .

(١) التولد الذاتي أو التناسل بدون ذكر بآثى ومثله في أنواع من المدوزة والشيا والنحل (عن قاموس شرف) .

Science and Philosophy of the Organism.

(٢)

٣ - الحتمية

يقول لنا صاحب المذهب الميكانيكي إننا غير منصفين ، وإننا حملنا مصطلحه على معنى حرفي ، وهاجمناه في موضع لم يكن مستعداً فيه للدفاع . وقد نتصور جوابه على هذا النحو :

« ليس ما نعنيه بصفة السلوك الإنساني الشبيهة بالآلة أكثر من التابع الضروري بين السبب والنتيجة في العالم العقلي والعالم الطبيعي ؛ فالإنسان جزء من الطبيعة ، وأكبر الظن أنه خاضع لقوانينها . فلا يمكن أن نتصور وجود انقطاع في سلسلة السببية ، لأن مثل هذا الانقطاع قد ينشأ عنه فناء الطاقة أو تولدها . ولكن استمرار الطاقة وبقائها ماثلاً بوضوح في كل مكان . أوقف تغذية إنسان تجد أن ردود أفعاله تبطل . أطعمه الغذاء الصحيح يصبح فاضلاً محبباً لوطنه . أطعمه غذاء غير ملائم تجعل منه شخصاً عاجزاً ، أو مجرماً أو متشاملاً ، أو أحمق ، أو مؤمناً بحرية الإزادة . قس نشاط إنسان منذ ولادته إلى وفاته ، تجد أن ذلك النشاط يكاد يتطابق بالضبط مع الغذاء الذي تناوله . فمن الواضح أن الطاقة العقلية في الإنسان ثمرة الطاقة الموجودة في المواد العضوية التي يتغذى بها . ولكن هذه المواد مستمدة في النهاية من مواد غير عضوية موجودة في الأرض والهواء ويتم تحويلها في خلايا النبات . فإذا سلمنا بوجود سلسلة محكمة من الأسباب والمسببات في العالم غير العضوي ، فلا بد أن نسلم بوجودها حتى في أدق عمليات الحياة الإنسانية أو الفكر الإنساني .

« ومرة أخرى يتضح أنه كلما ازدادت معرفتنا بالسلوك الإنساني ازداد نجاحنا في التنبؤ به . وأكبر الظن أننا إذا عرفنا جميع الشروط المؤثرة في أصدقائنا تذبذباً باستجاباتهم نفسها بالدقة التي نتنبأ بها عن أوجه القمر وحسوفه . فإذا كانت الحتمية غير صادقة ، ولو كانت أعمال الإنسان لا تتبع قوانين لا تتغير ، لكان من المستحيل أن نتطور بالتنبؤ عن السلوك الإنساني والتحكم فيه عن طريق زيادة معرفتنا بالإنسان .

« ومن الواضح فوق كل شيء أن سلوك المرء هو ثمرة صفاته والظروف

التي تحيط بأفعاله . وصفاته ثمرة بيئته الماضية (ها هو ذا يعود إلى فكرته) ووراثته . ونحن نهاية سلسلة التطور عن الدودة الشريطية Tape-worm (١) ، فنحن لا نولد شيئاً ، ولا نبرم أمراً ، بل نحركنا وتوجهنا وتقسرنا في النهاية قوى خارجية عنا ، وليست لنا عليها عند التحليل الأخير رقابة . والاختيار وهم ، فهو مجرد تأليف بين القوى المحتومة . وفي ذلك يقول سينيوزا : « يظن الناس أنفسهم أحراراً لأنهم شاعرون بإراداتهم ورغباتهم ، ولكنهم يجهلون الأسباب التي أفضت بهم إلى الإرادة والرغبة » (٢) الحق أن سلوكنا تخمه في إحكام القوى التي تولدنا وتحيطنا ، كما تحدد كتلة الحجر وسرعته واتجاهه سقوطه في الزمان والمكان . فالإنسان على هذا المعنى آلة .

فليواجه الحتمي بصراحة ماتتضمنه فلسفته . فإذا كان كل فعل هو بالضرورة ثمرة الشروط الطبيعية الموجودة سابقاً في نهاية الأمر ، فيجب علينا أن نستنتج أن الميكانيكية والحتمية شيء واحد ، وأن تقوى ميخائيل أنجلو ، وعاطفة شكسبير ، وأنف سقراط ، وابتسامة كليوباترة ، كل ذلك يرجع إلى التركيب الميكانيكي والكيميائي للسديم الأولى . فهذا نظام شاسع ، ولقد يعجب المرء حين يبادر جماعة من الشكاك المحترفين مثل تين ورينان وأناتول فرانس إلى ابتلاع مثل هذا الحمل المحتوم . ولكن حتى الشكاك مؤمنون بهذا « العصر الحديدي من الإيمان » . ذلك أن رفضهم العلمي المتعالى لعقيدة من العقائد ، يتبعه في الحال قبولهم الإنساني الأعمى لعقيدة أخرى . ولا يشك الميكانيكيون أبداً كيف يخفى اعتقادهم الساذج خلف شكهم غير المنهجي .

سيعد المؤرخون كيف أن هذا السديم الهائل لم يقطع رقبة الاعتقاد أعجوبة من الأعاجيب . ما هذا التنويم المغناطيسي الذي جعلنا مدة جيل نسلم بأنظمة الطبيعة العابرة على أنها قوانين حياتنا ورموزها ؟ من منا اعتقد حقاً أنه آلة ، وتصرف بصراحة حسب هذا الغرض المضحك ؟ أو هل علمنا سراً من خلال هذا الزعم البيروني Byronic أن الحس والعقل فاعلان ومنفعلان كغيرهما من

(١) Mark Twain, What is Man? p. 5.

(٢) سينيوزا ، الأخلاق ، الكتاب الأول ، ملحق .

الأمر ، وأنا في طرائقنا الصغيرة مراكز للخلق في تيار القوة ؟ كيف يمكن أن نتصور حقاً في اصطلاحات من الميكانيكية والحتمية تعدد أنواع الحياة الهائل وخصوبتها ، وتجاربها وصورها غير المحدودة ، وأفانيتها التي لا تنفذ ، وتعديلها الحازم للأرض وغزوها إياها ؟

لقد جاء مذهبنا الحتمي من تصور لوك العقل لوحة بيضاء تسجل عليها الإحساسات ، أو قطعة سلبية من الشمع تشكلها الأشياء الخارجية وتعيد تشكيلها ولا حيلة لها في ذلك . ولكنهم يعلموننا اليوم ضرباً آخر من علم النفس . ففي أعماق أنفسنا نجد الرغبة ، هذه الرغبة التي « هي جوهر الإنسان بالذات » ويمكننا أن نتبع بآلاف من الوسائل أثر الرغبة الانتقائي والتكويني في إحساساتنا وإدراكاتنا ، وذاكراتنا ، وأفكارنا . وقد قسمت الحياة جوعها الكبير إلى دوافع وقوى متخصصة . وهذه هي التي تحدد أفعالنا واتجاهاتنا ، ووجهة حواسنا . إننا لا نشعر بموثرات لا يحصيها العد تحاول عبثاً أن تبث برسائلها إلينا . إننا نجهل عوالم شاسعة من الحقيقة المحسوسة ، لأننا نختار من خلال أغراضنا الإحساسات التي نحتاج إليها . إننا نسمع بعض الأصوات التي تهمننا ، ونصم أنفسنا عن آلاف غيرها . إننا نتأمل بعض الأشياء التي تخلو مؤقتاً من المعنى ونرى من خلالها هدفاً يشغل أذهاننا ، ويوجه بناء على ذلك أعيننا . فأغراضنا هي التي توؤول الإحساسات إلى مدركات وأفكار . يقال لنا مثلاً أن نجمع عدددين ، وإذا « بالهيئة الذهنية mental set » للجمع « تحتم » بغير مجهود ارتباط المؤثر بالاستجابة ، وحين نسمع ما حاصل جمع « ٧ و ٧ » ، نجيب « ١٤ » . أما إذا طلب منا الضرب ، فرد فعلنا على ذلك الإحساس « المطابق » هو « ٤٩ » . فالغرض إذن ، لا الحدة ولا كثرة الوقوع ولا الوضوح ، هو الذي يفسر ترابط المعاني . ولنا شيئاً عاجزاً وفريسة تنفعل بأي مؤثر يطبعها الحظ على بدننا ، بل نحن فاعلون للاختيار . وهذا الاختراع المنشئ نفسه الذي ملأ مصانعنا بالآلات هو أفضل نقض للنظرية التي تشبه عقل المخترع بالنتاج السلبي لمح .

في هذه العملية من التكيف الفعال تأتي بأعاجيب عقلية يصعب تصورها على أنها ميكانيكية . فنحن نحلل الكل إلى أجزائه ، ثم نعيد تأليف الأجزاء في

كلمات wholes جديدة . ونحلل الأفكار إلى مدركات ، ثم نعيد تركيبها في استدلالات . إننا نزل الأغراض منزلة الاعتبار ، ونزن القيم ، ونتخيل النتائج ، ونبتدع الوسائل والطرق لتنفيذ أخص رغباتنا الباطنة . ونسترجع من الماضي الحلول في الاستجابات السابقة ، ونرى ما يشبهها في محيطها ، ونحكم عليها في ضوء أغراضنا . فالمعرفة هي تذكر نتائج الأساليب المختلفة من الفعل . وكلما عظمت معرفتنا ازداد بصرنا بالمستقبل . وكلما كانت بصيرتنا foresight أعظم اتسع نطاق حريتنا . ويمدنا الشعور بمرحلة نقف عندها لنستعيد الاستجابات المتخيلة . فنحن نستبعد بوساطة الذاكرة والتخيل والتفكير الاستجابات الحمقاء ، ونعبر في شيء من النجاح عن هدفنا الأخير . والحرية ، كالتفكير ، هي استجابة متمهلة تؤدي إلى الاستجابة الشاملة . وتنمو حريتنا لأننا بالتمهل نسمع للموقف المعقد أن يثير فينا جميع الدوافع المناسبة ، ولأننا بالتخيل نضم هذه الدوافع الجزئية إلى استجابة كلية تعبر عن نفسنا الكاملة والناضجة .

فالميكانيكية ثانوية ؛ أما ما نراه كشيء أولي ، وأساسي ، ومباشر ، وما نقبله قضية مسلمة في فلسفة حياتنا الواقعة والصحيحة ، فهو أن كل كائن حي بالنسبة إلى مرونة تركيبه مركز لقوة يعاد توجيهها ، ولبداءة تلقائية إلى حد ما . والحياة خالقة لأنها تبتدع قوة جديدة من لا شيء ، بل لأنها تضيف طاقتها المصاغة من جديد إلى القوى التي تتدخل من خارج . وليست الإرادة حرة إلا بمقدار ما تعيد الحياة ، التي هي صورة لها ، تشكيل العالم بنشاط . ولكي تعيد الحياة تشكيل العالم « تخترع » و « تنشئ » الرياضة والميكانيكا للتعامل بها مع الأشياء الخارجية . فالحياة تسخر من هذه المخلوقات التي ابتدعتها وإرادتها ، وتتعالى عليها حين تتلفت هذه المخلوقات بصلف حولها تحاول فهم الحياة في ضوء تلك الاصطلاحات التي ابتدعتها الحياة ذاتها .

أبستطيع هذا التصور للحرية الصمود في وجه حملات الحتمى ؟ سيدكرنا إذا كان بارعاً بأن « الإرادة » اصطلاح مجرد ، وسيجعل نصب عينه أن يتناسى أن « القوة » ليست أقل تجريداً . وجوابنا على ذلك أننا لا نعني بالإرادة شيئاً مجرداً بل السلوك المسير والموسع للحياة نفسها . أما ما للحياة ؟ فقد حاولنا الإجابة عن ذلك في صفحات سابقة ، ولكننا لا نريد أن نقلب الحقيقة إلى سر غامض .

أو سيدكرنا الحتمى بعدم فناء الطاقة ؛ فالكائن الحى لا يمكن أن يستنفد من الطاقة أكثر مما يتلقى . إنه ينسى أن الحياة نفسها طاقة من الواضح أنها تحول ما يأتيها من قوى ومواد إلى مركبات تهدف إلى السيطرة على البيئة بالفكر ، وقد نجحت في ذلك عرضاً . وقد لا تزيد كمية ما يخرج مع الفعل عن مقدار ما يدخل مع الإحساس ؛ ولكن ما أعظم اختلافهما في الكيفية . فقوة الحياة المشكلة هي أسى طاقة نعرفها . ومعرفتنا لها أكثر مباشرة وتأكيذاً من أى طاقة أخرى في العالم . وهي منبع حريتنا المتواضعة وأملها .

يفترض الحتمى أن الحرية وهم ؛ لأن الدافع motive « الأقوى » يتغلب دائماً . ولا ريب أن هذا لغو باطل . فالدافع القوى بما فيه الكفاية للغلبة ، أقوى من تلك التى تهزم . أليست موافقة الدافع للإرادة والرغبة وجوهر النفس هي التى جعلته أقوى من غيره ؟ - « ومع ذلك فلا فعل بغير سبب » . وهذا صحيح ، ولكن الإرادة جزء من السبب ، ويجب أن تشمل ظروف الفعل مطالب الحياة المقبلة . وكل « حالة state » للعقل تنشأ طبيعياً من مجموع الحالة السابقة للحقيقة كلها . ولكن هذه الحالة وتلك تشملان الطاقة المشكلة للحياة والإرادة . - « نفس النتيجة تتبع دائماً نفس السبب » . ولكن السبب ليس هو ذاته أبداً ، لأن النفس التى نحن بصددتها في جريان دائم ، والظروف متغيرة على الدوام . - « إذا عرفت جميع ماضيك وحاضرك استطعت أن أتنبأ باستجابتك دون خطأ » . وتستطيع ذلك إذا عرفت أيضاً طبيعة دفعة الحياة وقوتها الموجودة في داخلي . لعلك تستطيع ذلك إذا هجرت المبادئ الميكانيكية ، وسألت نفسك مسترشداً ماذا أنت - أى الحياة - فاعل في هذه العقدة المعقدة من الظروف . أكبر الظن أنك لن تستطيع - حتى مع ذلك - التنبؤ بنجاح . أكبر الظن أن الحياة فيها عنصر لا يمكن حسابه ، وفيها تلقائية لا تتفق مع قوالب عقولنا categories « وقوانيننا » ، وهذا العنصر هو الذى يخلع على التطور العضوى وأمور الإنسان لذة وصفة خاصتين . فلنطلب من الله ألا نعيش أبداً في عالم محكوم بالقضاء والقدر . ألا تبدو صورة مثل هذا العالم متناقضة بشكل مضحك مع الحياة - فالميكانيكية كما قال برجسون مزاح عابر ؟

« ولكن كل فعل فهو نتيجة الوراثة والبيئة ». ليس الأمر كذلك بالضبط ، فالحتمى مع التواضع فى معرفة نفسه ، فهو يفترض مرة أخرى أن الحياة ثمرة سلبية لقوى خارجية . إنه يهمل (مع استعمال اللغو) حيوية الحياة نفسها وحياتها . إننا لسنا مجرد أسلافنا وظروفنا ، بل نحن أيضاً بحار من الطاقة المشكلة ، وأجزاء من ذلك التيار للقوة الموجهة ، للقدرة على الاختيار والفكر المكيفين مما كان أسلافنا كذلك يتحركون ويعيشون فيها . فهوؤلاء الأسلاف هم فى الحقيقة أحياء يعملون فى داخلنا ، ولكن الإرادة والحياة اللتين كانتا فيهما فيما مضى من الزمان توجدان فى كل واحد منا الآن وتخلقان « الأنا التلقائى » . والحرية أضيق وأوسع مما كانوا يتصورونها فى القديم . ولا ريب أنها تخضع لتحديدات موروثه وبيئته من كل نوع ، ولكنها مع ذلك عميقة عمق الحياة ، عريضة عرض الشعور . إنها تنمو فى مداها وقوتها مع تعدد التجارب ، وسعة المناظر ، ووضوح الفكر (١) فالإرادة حرة بمقدار ما تكون الحياة خالقة . وبمقدار ما تدخل بطاقتها المشكلة كشرط «واحد» من الشروط المحددة للاختيار والفعل . وليس فى مثل هذه الحرية انتهاك لحرمة « القانون الطبيعى » ، لأن الحياة نفسها عامل factor طبيعى ، وعملية process طبيعية ، لا قوة خارج ميدان الطبيعة المتغير . والطبيعة نفسها ، كما يدل عليها اسمها اللطيف ، هى تلك القوة الحية التى تنشأ عن طريقها جميع الأشياء . ولعل هذه التلقائية وهذه الدفعة القاهرة مما زعمناه للحياة تتخفيان خلال العالم ؛ إذ بأى سبيل أخرى استطاعت الحياة أن تكتسب هذه التلقائية ؟ (٢)

(١) أنظر جيته : « ليس على المرء إلا أن يعلن حرته فيحس باللحظة التى يخضع فيها للشروط . أما إذا كان المرء من الشجاعة بأن يعلن نفسه مشروطاً فعندئذ يحس بأنه حر » . نقلاً عن شبنجلر فى « سقوط الغرب » الجزء الثانى : ص ٢٦٧ .

(٢) يمكن أن نضيف بعض الاعتبارات الفنية التى توحى بهذه الوجهة من النظر . وليس طلاب مناهج العلوم فى حاجة إلى تذكيرهم بأن ماخ وبيرسون وبوانكاريه قد غيروا تصورنا من « القانون الطبيعى » من قوة خارجية تنظم الظواهر ، إلى صياغتنا الذاتية لبعض الأحداث المتابعة فى التجربة الإنسانية . وجميع اصطلاحات العلم وقوانينه هى تعبيرات « مختصرة » لنظريتنا الفرضية عن العالم . ويذهب الحتميون إلى أن كل ما نعرف يدل على الحتمية ، وهذا لأنهم يحنون بلفظة « كل » معرفتنا بالعالم الطبيعى والكميائى . فن السخرية القول بأن كل ما نعرفه عن العالم العقلى أو الطبيعى يدل على الحتمية . على العكس نجر بننا المباشرة وهى آخر معيار للحقيقة تطلعنا على تلقائية غريبة فى كل مكان . و « قوانيننا » مستمدة من عالم « المادة » ، ثم تطبق اصطناعياً على « العقل » . « لقد وضع العقل بقوته الانتقائية عمليات الطبيعة فى إطار من القانون ، وهو قالب إلى حد كبير =

ومن الصواب أن نقول إن صفاتنا تحدد أفعالنا . ولكننا وصفاتنا شيء واحد We «are» our characters فنحن الذين نختار . ومن الصواب — ومن اللغو

— من اختياره نفسه . . . والعقل في كشفه هذا النظام من القانون يمكن أن ننظر إليه كأنه يسترد من الطبيعة ما سبق أن وضعه العقل في الطبيعة « (إدنجتون ، طبيعة العالم الفيزيقي ، ص ٢٤٤) . بل إن قانون عدم فناء المادة والذرة نفسه قد كشف في « الكوانتوم » عن درجة من اللاتحديد واللاتعيين تكاد تكون إنسانية .

إن نظرية الكوانتوم ، التي يسلم بها اليوم عملياً جميع علماء الطبيعة ، تصف حركة الإلكترونات على أنها منفصلة وغير منتظمة ، فليس ثم نظام يمكن التنبؤ عنه في سلوكها . ومع أنها قد تغير مكانها أو سرعتها ، فمن الواضح أنها تتحرك من مكان إلى آخر أو من من سرعة إلى أخرى دون أن تمر بالمواضع أو بالسرعات المتوسطة . . . وفي ذلك يقول الأستاذ هوايتيد : « إنها كما لو أن سيارة تتحرك بمعدل ثلاثين ميلاً في الساعة لم تعبر الطريق في اتصال ، بل كانت تظهر على التابع في معالم متتابعة ، وتبقى في كل معلم دقيقتين » . (العلم والعالم الحديث ، ص ٥٢) .

ويقول إدنجتون : « من نتائج نظرية الكوانتوم أن علم الطبيعة لم يعد مغموراً في نطاق القانون الحتمي . فقد فوجئت الختمية مفاجأة تامة بالقوانين الأخيرة للطبيعة النظرية ، وأصبحت عودتها إلى مكانها موضع شك فالقوانين الكبرى التي كانت تقبل على أنها خاضعة للسببية تظهر عند الفحص الدقيق أنها ذات صفة إحصائية ، وأن كل تنبؤ إنما يرجع إلى الانتظام الإحصائي لحزئيات غير محدودة (إدنجتون ، ص ٢٩٤ ، ٢٩٨) . وهذا يعني أن التنبؤ بخسوف القمر يرجع إلى متوسط السلوك الخاص بالذرات المكونة للشمس والأرض والقمر . ويمكن التجاوز عن عدم حساب الفعل الذري في كتلة كبيرة ، وهذا بالضبط كما يستطيع موظف البريد أن يحسب بدقة كبيرة عدد الخطابات المجهولة التي ترسل خلال عام . ولكن كيف يكون الحال إذا كانت العمليات العقلية مختلفة عن هذه الظواهر « الواسعة النطاق » التي منها نتمد « قوانيننا » .

ومع أن برتراند رسل لا يزال من الحتميين فإنه يصور الموقف تصويراً صادقاً ، قائلاً : « لقد رأينا أنه على أساس علم الطبيعة نفسه يمكن وجود حدود للحتمية الطبيعية . فنحن لا نعرف قانوناً يدلنا متى تقع عملية الكوانتوم ، أو متى تفنى الذرة المشعة . ونحن نعرف جيداً جداً ماذا يحدث « إذا » حدث شيء ما ، ونعرف المتوسطات الإحصائية التي تكن في تحديد الظواهر الواسعة النطاق . ولكن إذا كان العقل والمخ متداخلين تداخل السبب بالسبب ، فإن أصغر تغيير في المخ يجب أن يصحب بتغيير عقلي ملحوظ . وهكذا قد نضطر إلى النزول في ميدان التغيرات في الكوانتوم ، وأن نهجر المستوى الكبير الذي تصلح له المتوسطات الإحصائية . فلعل الإلكترون يطفو حين تريد ؛ ولعل الظاهرة الدقيقة في المخ التي تسبب الخلاف كله في الظواهر العقلية تتعلق بالميدان الذي لم تعد القوانين الطبيعية تحدد تحديداً نهائياً ما يجب أن يحدث . وليس هذا بالطبع إلا مجرد احتمال نظري ولكنه اعتراض يقف في سبيل الدجماطيقية المادية » (الفلسفة ، ص ٣٩٣) . « وبمقدار ما تستطيع نظرية الكوانتوم أن تقدمه في الوقت الحاضر فقد يمكن أن تكون الذرات موهوبة بحرية الإرادة ، ولو أنها محدودة مع ذلك باختيار طريق واحد من بين عدة طرق ممكنة » (تحليل العقل ، ص ٣٨) .

ولن يهتم المرء بإقامة فلسفة من الفعل على مثل هذا الأساس المزعزع في النظرية الطبيعية المؤقتة . فأفضل أساس يستند إليه الاعتقاد في حقيقة الاختيار هو إدراكنا المباشر والشخصي بالطبيعة غير الميكانيكية لحيويتنا الخاصة وفكرنا ذاته . ولعل تصور السببية كعملية حية سيكون الخطوة التالية في الفلسفة .

كذلك - أن نقول مع هكسلي إننا قد نكون أحراراً في إبراز رغبتنا في صورة من الفعل ، ولكننا لن نكون أحراراً أبداً في اختيار ما يجب أن تكون عليه رغبتنا ، لأننا ورغباتنا شيء واحد ، والرغبة هي الحياة ذاتها ؛ وفي تحقيق رغباتنا إنما نحقق أنفسنا . ولا يكفي أن نقول إن القوى الخارجية والموروثة ترغمنا وتقهرنا ، فهناك جانب آخر من الحق هو أن الحياة نفسها قوة ذاتية لها ، ولها وجهتها الخاصة ومقدرتها ، ولو أنها مخلوذة ومرغمة ، إلا أنها تؤثر بإرادتها إلى حد مدهش ، مرتفعة من أدنى الكائنات الحية إلى سمو العبقريّة الفذ ، منتشرة في أرجاء العالم بصورها وانتصاراتها . ولو لم تكن الحياة قوة فعالة ومشكلة ، ميالة إلى جانب النمو ، ما ظهر أي تطور قط .

هذا التحقيق لحيويتنا الموجهة يعيد إلينا مسئوليتنا وشخصيتنا ، وتكامل نظريتنا بحياتنا . ذلك أننا حين كنا نتحدث عن الحتمية كنا نعرف بطلانها . ولم يحدث أن تعاملنا مع أنفسنا أو مع أبنائنا كآلات^(١) . فإذا كان البحث في فلسفة الحرية يتكرر على الدوام فذلك لأن الإدراك المباشر لا يمكن أبداً أن يخضع للقوانين ، ولا الإحساس للتفكير . وفضلاً عن ذلك فقد رأينا في الميكانيكية شيئاً من الجبن بإرجاعها الجريمة إلى الوراثة والمجتمع - وهما الضحيتان المحردتان المسكينتان اللتان تقدمهما ستاراً لرديلتنا وكسلنا . ولعل ضعف الخلق في عصرنا وعدم استقراره مرتبطان ارتباطاً مسبب بالسبب بسيطرة الفرد بالآلة في الفلسفة والحياة . فالآلات تكسب نصراً بعد آخر ، وتبسط بشكل عظيم قوتنا على تحقيق غايات قديمة ومتناقضة : فنحن نتحرك فوق السحب ، وفي أعماق البحار ، وننتج ملايين من البضائع الموحدة كل واحدة منها رخيصة في الثمن وفي الصناعة . وهكذا تختفي المهارة خطوة خطوة أمام الميكانيكية ، ويتوارى الكيف أمام الكم ، والفن أمام الصناعة ، والخلق أمام الثروة ، وسيختفي الإنسان نفسه قريباً ولا يبقى إلا الأزرار والمحولات switches .

(١) أنظر برود Broad « لوأن شخصاً أشار إلى أخيه أو إلى قطته قائلاً : هذه آلة عجيبة ، فلا بد أن نعرف أنه إما مجنون أو عالم فيولوجي . فلا أحد في الحياة العملية يسلك مع نفسه أو مع زملائه أو مع حيواناته المتأنسة سلوكه مع آلات . ولكن العلماء الذين لم يدرسوا الفلسفة النظرية يظهر في الغالب أنهم يظنون من واجبهم أن يتمكوا نظرياً بما لا يمكن أن يسلم به عملياً أي شخص بعيد عن مستش المجازيب .

فهل يستغرب من جيل يقنع بالسيدنا الناطقة بدل المسرح ، وبالناطحات بدل البيوت ، بأعمدة التلغراف بدل الأشجار ، بالساسة بدل رجال الدولة ، أن يسلم آخر الأمر بجميع شخصيته وقدرته على المبادأة ، وأن يسمح لنفسه أن يوصف بأنه عملية آلية ؟

وقد انعكست الميكانيكية أيضاً على ظلال الشخصية بوساطة المدن المتزايدة في النمو ، والديمقراطيات الجشعة ، فمن العسير أن يحتفظ الفرد في الغوغاء أو في الانتخابات بمبادئه أو بفرديته . وفضلاً عن ذلك فقد كانت الحتمية نتيجة افتتان علم الطبيعة بعظمته الخارجية ذاتها ، فظن أنه يطوى عالم العقل والفن والحب في قوانينه المزعزعة والجزئية . وعندما تنتقل ببطء من عصر الآلات إلى عصر الثقافة المبدعة ، سننعم أن نرى من وراء الميكانيكية السطحية الأرض والحياة النابضة تحتها . وسنفهم بعد كثير من الأخطاء والشكوك أننا بحالتنا البسيطة نساهم أيضاً في نشاط العالم ، وأنها إذا شئنا فقد نكتب بالخيال والمعرفة بعض السطور في المسألة الغامضة التي نلعبها .

٤ - عصر البيولوجيا (علم الحياة)

نود أن نشير في الختام إلى أن التفسير الميكانيكي الساذج أخذ يخفى من الفلسفة ، وعلم الحياة ، وعلم النفس ، وعلم وظائف الأعضاء ، بل في علم الطبيعة نفسه . وفي ذلك يقول لوسيان بوانكاريه : « لقد هجرت على وجه العموم اليوم الفكرة القائلة بأن جميع الظواهر تخضع لتفسيرات ميكانيكية »^(١) ويقول كاسيرر : « إن النظرة الميكانيكية للعالم في علم الطبيعة الحديث قد استبدلت أكثر فأكثر وحل محلها النظرة الديناميكية الكهربائية »^(٢) . ويقول ليبون : « لقد أصبحت الفسيولوجيا على الرغم من جهود آلاف العمال عاجزة عن إخبارنا شيئاً يختص بطبيعة القوى التي تنتج ظواهر الحياة ، وليس لها مثيل بما يدرس في علم الطبيعة »^(٣) وكما يحتاج علم الكيمياء إلى فكرة الكيف بالإضافة إلى فكرة الكم التي يحاول علم الطبيعة الاكتفاء بها ، كذلك يحتاج علم الفسيولوجيا

(١) ليبون ، تطور القوى ، ص ٨ .

(٢) Substance and Function p. 355

(٢) ليبون : ص ٣٦٧ .

إلى جانب الكيف والكم ، هي فكرتي الكائن الحي organism والمجموع totality . فالطبيعة والكيمياء يدرسان الأجزاء التي تحدد مكونات مجموعتها ؛ وعلم الحياة يدرس الكلات wholes التي تحدد مكونات أجزائها . حتى العلم يجب ذات يوم أن يتعلم كيف يرى الأشياء ككلا .

لقد أصبح رفض الميكانيكية بين علماء حياة أنفسهم أمراً مألوفاً : فأسماء دريش وبافلوف وهالدين تجعل أي ميكانيكي يفكر طويلاً وينعم بالنظر . وكانت حركة (الحشالت Gestalt) في علم النفس رد فعل عدل عن وجهة النظر الميكانيكية إلى العضوية . ويقول هالدين :

« لقد سارت النظرية الميكانيكية على وجه العموم سيراً غاية السوء . فقد هجرت نظرية شوان Schwann البسيطة الميكانيكية . ونحن نعرف الآن أن جميع الخلايا تتكون بالانقسام عن خلايا سابقة . وأن مشكلة عملية نمو الخلية وتغذيتها ليست من العمليات التي نرى حلها في الوقت الحاضر بأي اتجاه ميكانيكي . كما أنها ليست مختلفة أي اختلاف عن مشكلتي الإفراز والامتصاص . فالنظريات البسيطة الكيميائية الخاصة بالتنفس وغيره من عمليات التحويل . . . قد اختفت كذلك . . . وأصبح من الواضح أن أي نظرية بسيطة فسيوكيميائية physio-chemic تفسر الحركة العضلية أو أي حركة أخرى فسيولوجية غير كافية . . . فكل عام من التقدم الفسيولوجي يبعثنا فيما يظهر أكثر فأكثر من أي أمل في مثل هذا الحل . . . فأبحاث شرنجتون Sherrington وغيره تجعل من الواضح تمام الوضوح أنه ينبغي هجر الفكرة القديمة عن الأفعال المنعكسة الميكانيكية البسيطة واخذلة خاصة بأجهزة العصبي . . . ويستأري - بصفتي عاملاً في فسيولوجيا - أي فائدة من النظرية القمالة بأن حياة ككل عملية ميكانيكية . فهذه النظرية لا تساعدني في شيء ، وأظن أنها ولا ريب تعرف الآن حظيرة تقدمه الفسيولوجيا . ولأن الأثر أن تعود إلى أسطورة نجددنا السكسون من نيتسك بالفسيولوجيا الميكانيكية » (١) .

(١) Mechanism, Life and Personality, p. 62

ومن الأمور التي غا دلائلها أن شوبنهاور ونياتشه - على ما فيها من عداء
للاهوت التقليدي - قدر فضا باحتقار قبول الميكانيكية . وفي ذلك يقول نياتشه
ساخراً من العالم الطبيعي الميكانيكي :

« زعمك بأن تفسيراً واحداً للعالم صواب ، وهو تفسير تؤيد به
موقفك ، وبه يتقدم البحث وينجح علمياً في « نظرك » ، هذا التفسير
الذي يعترف بالعد والحساب والوزن والمشاهدة واللمس ولا شيء بعد ذلك -
مثل هذه الفكرة إلا تكن جنوناً وبلاهة فهي بشاعة وسذاجة . . . إني أقول هذا
القول هاهنا في أذن أصدقائي الميكانيكيين الذين يودون اليوم مسابقة الفلاسفة .
ويعتقدون اعتقاداً مطلقاً أن الميكانيكا تعاليم أول القوانين وآخرها . . . التي يجب
أن تبني عليها جميع أنواع الوجود . . . أليس العكس أكثر احتمالاً ، وهو أن
صفات الوجود الخارجية الأكثر ظهوراً . . . هي التي تفهم أولاً ؟ » (١)

ويقف علم البيولوجيا ساكناً اليوم ، لأنه كان يبحث في الموت أكثر
مما يبحث في الحياة ؛ في نماذج محفوظة في الكحول ، في الفراشات المقيدة
بالدبابيس لا الطائرة بالأجنحة ، في الحث التي سمحت بها المشانق لغرض
التشريح ، في « مستحضرات » من الأنسجة موضوعة على الزجاج slides
الميكروسكوبي . ولقد تنبأ جوته بهذا كله منذ مائة عام وقال على لسان
شيطانه البارع :

إن من يدرس كائناً حياً ويصوره
يظن من الأليق أن يبدأ بالبحث
عن طريقة الانتزاع الروح منه .
فإذا فعل ذلك أمسست يديه

رييرون «الأسرة الثمان في ثوانت

Joyful Wisdom. Eng. Tr. p. 339

اخضر قد نقلوا عن الميكانيكية . وفي ذلك يقول شنجلير « من العتس محاولة حصول على علم
« مضبوط » من النفس الغامضة على المدود » (سقوط الغروب - جزء الأول ، ص ٣٠٠) ويقولون
كيسلر فيج : « إذا كان المثقفون قد احتازوا مريحة لمادية فاجبهرو في صريقتهم اليق » لغاه
في التكوين ، ص ٣٦٥

الأجزاء التي عليه أن يسميها ويثبتها.
ولكن وأسفاه إن رباط الروح
الذي غزل الأجزاء وجمع بينها
قد تبدد وذهب وتبخر
هذه العملية هي التي يسر
علماء الكيمياء أن يطلقوا عليها
« اسم الاشتغال بالطبيعة »

Naturæ encheiresis

وهم حين يفعلون ذلك يجعلون أنفسهم
سخرية دون أن يشعروا (١)

لعل علم الحياة سوف يثور قريباً على سيطرة الميكانيكية بمناهج علم
الطبيعة وتصوراتها . سيكتشف أن الحياة التي يمتاز بدراستها أدنى إلى أسس
الحقيقة من « مادة » الطبيعة والكيمياء ، وحين يتحرر علم الحياة آخر الأمر
من قبضة المنهج الميكانيكي الميتة ، فسوف يخرج من المعمل إلى العالم . سوف
يشرع في تعديل الأغراض الإنسانية كما غيّر علم الطبيعة وجه الأرض . وسيقضى
على الاستبداد المتوحش للآلات على البشرية . وسيكشف ، حتى للفلاسفة
الذين ظلوا خلال قرنين من الزمان عبيداً لعلماء الرياضة والطبيعة ، عن الوحدة
الموجهة ، والمعين الخالق ، وتلقائية الحياة الباهرة .

(١) فاوست ، ترجمة مارتن ص ٨٧ . وهذا مثال لما يحدث لجوته حين يترجم .

الجزء الرابع

مشكلات الأخلاقية

الفصل الخامس

أخلاقنا المتغيرة

١ - نسيية الأخلاق

تغير الأخلاق اليوم ، وهي التي تتغير ببطء شديد ، كما تتغير الحجب تسوقها الرياح . فقد ذابت أمام أبصارنا التقاليد والنظم القديمة قدماً لا تعيه ذاكرة الإنسان ، كما لو كانت عادات بسيطة ، اكتسبت حديثاً ويسهل نسيانها . فالفتوة التي هي كما يقول نيتشه «لا يستطيع المرء أن يكون شديد الرقة مع النساء» ، والظرف *gallantry* الذي يكسو الأبدان رشاقة والعقول كياسة ، لم يسلموا من تحرر المرأة . فقد قبل الرجال تحدى المساواة ، ووجدوا من الصعوبة عبادة جنس يطريهم بما لا يليق تقليداً . أما العفة والحياء مما كان يغري العاشق بأعمال البطولة ، وبضعف قوة كل قوة ، فقد سقطا إلى الحضيض ، وأخذت المرأة في سن الشباب تخطب ود أعدائها بالإفراط في إظهار مفاتها ، حتى لم يعد حب الاستطلاع معيناً على الزواج . وجمعت حياة المدينة ملايين من جياح الذكور فوقوا فريسة سهلة في أيدي عملاء اللذة . وأخذ المسرح ينافس أيام شارل الثاني ، وأصبح الأدب الحديث من الإباحية *phallic* ^(١) كما كان في عصر التدين قديماً . وبدأ الزواج يفقد ما كان له من رواج ، وهو الذي كان السبيل إلى كل متعة جسدية ، والذي إذا تم مبكراً أدى إلى شيء من الاستقرار في الحياة الإنسانية وفي السلوك . فقد أخذ الرجال يظنون أن فوائده يمكن الحصول عليها بغير آلامه . فهو يضيق

(١) يشير المؤلف إلى أعياد اليونان الدينية قديماً حين كانوا يحتفلون بإله التناسل ويحملون عضو التناسل أثناء الاحتفال من جملة المراسم . وفي صورة قدماء المصريين الموجودة على جدران المعابد ما يدل على هذا النوع من التقديس (المترجم) .

من كل جانب ويتوقف بالتأجيل إلى سنين غير طبيعية ، وبمشاغبات الطلاق .
أما الأسرة التي كانت فيما مضى مهد الأخلاق والأساس المنيع للنظام الاجتماعي ،
فقد انحلت إلى فردية الصناعة في المدينة ، وتمزقت إرباً إرباً خلال جيل واحد .
وأصبحت البيوت التي بنيت بعرق الجبين لسر البنين والبنات صامتة ومهجورة ،
فقد تفرق الأطفال سعياً وراء أشغال بعيدة ، تاركين الأب والأم وحدهما في
بيتهما الكئيب ينظران إلى الكراسي الخالية ، ولا تردد أي غرفة أصوات الأسرة .
فلننظر كيف أصاب التحول العظيم الذي نجتازه أخلاقنا وبلدنا .

من المسائل الدقيقة التي يبحثها علم النفس في الوقت الحاضر هذه المسألة
وهي : هل يشعر صغارنا في خطاياهم التي يباهون بها بلذات أعظم مما يشعر به من
هم أكبر سناً في الشكوى منها ؟ ويبدو أن الحياة من وجهة نظر الأخلاق تنقسم
إلى مرحلتين ، ننعس في اللذات في الأولى ، ونعظ في الثانية . ثم ينهي الأمر
بالشهوة إلى الحذر ، وتصبح تيارات الرغبة المتدفقة كلاماً يتدد في الهواء .
ويتراخي وقع الحياة ، ويتغير المزاج ، ويصعب على الشيخوخة أن تغفر
للشباب . و « الحقيقة » في هذه الأمور وظيفة للعمر ، و « اللاأخلاقية »
immorality عند قوم هي أخلاقية عند الآخرين .

ونحن الذين قد انصهرنا في بوتقة الشباب ، ولم نجد بعد إلى الشيخوخة
(من يدري؟) ، قد نحاول إذا واتانا الحظ فهم خلفائنا ، وقد ننجح في بلوغ هذا
الفهم . وأفضل سبيل إلى هذا الفهم هو النظر التاريخي ، فعلينا أن نتأمل في
تغير « الخير » ، وفي النسبية السيالة للأخلاق . يجب علينا أن ننظر في أصل
الأفكار الأخلاقية الأرضية وغير المعصومة ، وفي اعتمادها على الأسس المتغيرة
للحياة الإنسانية .

والأخلاق Morals ، في الاصطلاح اللغوي والتاريخي ، مستمدة من
التقاليد (customs (mores) . والأصل في الأخلاقية هو التمسك بتلك التقاليد
التي تعد جوهرية لسلامة الجماعة وحفظها . وبعض التقاليد مجرد اصطلاحات ،
مثل استعمال الشوكة والسكين على المائدة ، وليس لها مظهر أخلاقي . فإذا
قطعت « سلطة salade » غيرك بسكين فليس ذلك ذنباً ، مع أنه يعاقب بشدة

أكثر من الفسق . ولكن بعض التقاليد مثل عدم تعدد الزوجات monogamy أو تعددها polygamy ، والزواج من داخل القبيلة endogamy أو من خارجها exogamy ، وتحريم القتل داخل القبيلة وإباحته خارجها ، تعتبر حيوية للصالح العام ، وتضمان بضروب عاطفية من الحظر والوعظ والحرمان . والاصطلاحات تقاليد إلى الممارسة أدنى منها إلى الوعظ . والأخلاق تقاليد إلى الوعظ أدنى منها إلى الممارسة . هي واجبات نطلبها من جيراننا .

ومن المدهش أن نرى كيف اختلف القانون Code الأخلاق من زمان إلى زمان ، ومن مكان إلى آخر . فقد انزعج القديس أغسطين من تعدد زوجات إبراهيم ، ولكنه بين بحق أن قدماء اليهود لم يروا « لا أخلاقيا » أن يدفع أحدهم نفقات عدة زوجات ، فهي عادة الوقت ، ولم تكن تعتبر مضرّة بالجماعة . حقاً قد يصبح تعدد الزوجات في عصر الحرب فضيلة تبارك بكثرة الأولاد . وقبل أن يحل النظام الاجتماعي محل النزاع المستمر بين قبيلة وأخرى ، كان معدل الوفيات بين الرجال يزيد زيادة عظيمة على مثله بين النساء ، فكان تعدد الزوجات نتيجة طبيعية للتفوق العددي في الجنس الذي كان فيها مضي ضعيفاً . إن المرأة لتؤثر امتلاك ظفر من رجل على الحرمان من الرجال على الإطلاق . أما الاقتصار على زوجة واحدة فعقوبة من عقوبات السلم القبلي .

وهلم بنا نستعيد بعض الأمثلة على نسبية الأخلاق . فالشريقون يغطون رءوسهم دليلاً على الاحترام ، والغربيون يكشفونها . والمرأة اليابانية (ولو أن ذلك مثل كثير من الحقائق قد تغير) لا تلتقي بالآ إلى عرى عامل ، ومع ذلك قد تبلغ من الحياء مبلغ بريسكيلا دين Priscilla Dean . وكان من « الفحش » obscene (المعنى الحرفي « على المسرح » - إشارة إلى إباحية أرسطوفان في كوميدياته القديمة)^(١) أن تكشف المرأة العربية عن وجهها ، أو المرأة الصينية عن قدمها ، وتغطية هذا الجزء أو ذلك يدعو إلى إثارة الخيال وبعث الرغبة ،

(١) يشرح المؤلف الاصطلاح الإنجليزي ويرده إلى أصله اللغوي ، وكان أرسطوفان أعظم شعراء الكوميديا في أثينا ، وكان معاصراً لسقراط ، وله تمثيلات كثيرة مشهورة ، ولم يكن الأدب المكشوف عيباً ، كما لم يكن ذلك عيباً في الاحتفالات الدينية (المترجم) .

فيخدم مصلحة الجنس . وكان سكان الملايو يثدنون المريض والشيخ ، وظنوا أن ذلك طريقة كريمة للتخلص من نفاياتهم^(١) . ويقول لا بوك Lubbok : كانوا في الصين يعدون إهداء تابوت لشيخ من ذوى القربى من الهدايا الملائمة ، وبخاصة إذا ساءت صحته^(٢) .

ويقول سومر : « يباع لحم الإنسان في جزيرة بريطانيا الجديدة في الحوانيت ، كما يباع اللحم عند القصابين في بلادنا . وفي بعض جزر سولومون على الأقل يسمن الوطنيون من البشر كالحنازير (ويفضلون النساء) إعداداً إياهم لوثيمة »^(٣) . ومن أيسر الأمور أن نجمع مئات غير ذلك من الأمثلة تبين أن « اللا أخلاقي » في عصرنا وبلدنا « أخلاقي » في عصور أخرى وبلاد أخرى . وفي ذلك قال أحد مفكري الإغريق القدماء : إذا جمعت في كومة سائر التقاليد التي تعد في بلد مقدسة وأخلاقية ، ثم نزعت منه جميع التقاليد التي تعد في بلد آخر كفراً ولا أخلاقية ، فلن يبق في الكومة شيء^(٤) .

٢ - القاتون الزراعي

من الواضح أن القوانين الأخلاقية قد تتغير ؛ فما الذي يغيرها ؟ ولماذا؟
تعد بعض الأفعال حسنة في زمان أو في مكان ، ثم تصبح قبيحة في زمان
أو مكان آخر ؟

من المحتمل أن تبدل الأساس الاقتصادي للحياة هو الذي يحدد التغيير الأخلاقي . ولقد وقع في التاريخ نوعان من التغيير العميق من هذا القبيل : أحدهما الانتقال من الصيد إلى الزراعة ، والآخر الانتقال من الزراعة إلى الصناعة . فهذان هما الحادثان المحوريان في التطور البشري ، وعليهما تلور سائر الحوادث والعمليات الأخرى . وفي كل طور منهما اتضح أن القانون الأخلاقي الذي كان

(١) Sumner, W.G, Folkways, pp. 324, 431, 440.

(٢) The Origin of Civilisation, p. 24.

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٢٤ .

(٤) جومبرز ، مفكرو الإغريق ، الجزء الأول ، ص ٤٠٤ .

يرعى صالح الجماعة في الطور السابق من الحياة أصبح غير ملائم ، وأخذ يتعدا بطيئاً مضطرباً في ظل النظام الجديد .

وقد عاشت جميع أجناس البشر تقريباً في القديم على مطاردة الحيوانات ، وقتلها ، وتقطيع أجسادها - في نفس المكان عادة - ثم أكلها ، وغالباً نيئة ، ودائماً بما يملأ معدة الصياد إلى أقصى ما تطيق . ذلك أن الحضارة بمعناها الاقتصادي من التموين والأمن security ، لم تكن قد ظهرت بعد ، وكانت الشراهة فضيلة لازمة لحفظ الذات . كان الإنسان البدائي يأكل كما يأكل الكلب في العصر الحديث ، لأنه لم يكن يعرف متى يتناول وجبته التالية . والقلق insecurity أم الشراهة ، كما أن القسوة بنت الخوف . وما أكثر ما ترجع القسوة والشراهة ، والعنف المتجدد ، ونزعة الإنسان العارضة للحرب في الوقت الحاضر ، إلى مرحلة الصيد . استمع إلى هذا الرجل في المطعم يهمس في أذن الخادم : « هات الشواء ناقص النضج » . إنه لا يزال في مرحلة الصيد .

وكل رذيلة كانت ذات يوم فضيلة ، وقد تسرد اعتبارها مرة أخرى ، كالكراهية التي يصبح لها احترامها في الحروب . كانت الوحشية والشراهة ضروريتين في قديم الزمان للكفاح في الحياة ، وهما الآن ارتداد atavism سخيف ، وليست خطايا الإنسان ثمرة سقوطه ، إنما بقايا تخلفت عن صعوده . وعندما نختار الدوافع الملائمة للحاجات الحارية بمطرنا الآباء والجيران والوعاظ بوابل من المدح أو الذم كما نعطي الكلب الذي ندربه السكر أو نضربه بالسوط . وعلى هذا النحو تشجع بعض الحاصل التي وهبتها لنا الطبيعة في اعتدال ، وتهذب بعض الحاصل الأخرى التي تفيض عن الحاجة الاجتماعية المعاصرة بأساليب من الصرف مثل الحجز بعد المدرسة ، أو الكمي في الكرسي الكهربائي . دع ضرباً من السلوك يذم الآن أو يمدح ، ويزيد أو ينقص إلى حد الإفراط - أي إلى حد تعريض الجماعة للخطر - تجد أن الذم censure أو المدح praise يتحولان بالتدريج إلى اللوم blame أو التشجيع encouragement . وعلى هذا النحو احتضنت أمريكا دوافع الكسب ، واستعادت من الفضائل الحربية مادام أن مواردها في حاجة إلى الاستغلال في الداخل ، وإلى حماية بسيرة من الخارج . أما الآن

فيبدو أن الحاجة إلى الاستغلال أقل ، وإلى الحماية أكثر (كما يقولون) ؛ فلم يعد أحدنا يبجل أصحاب الملايين بخرد ثروتهم في الوقت الذي يطير فيه ضباطنا بعظمة غير مألوفة . فهناك عرض وطلب في الأخلاق كما يوجد في البضائع ، وإذا كان الطلب يخلق العرض في ميدان أبطأ منه في الآخر ، فذلك لأن النفس ألطف من الأرض وأقل منها انقياداً . ولكن النفس ستلتقي كذلك بدوراً مختلفة فنتج ثماراً حلوة أو مرة .

ولسنا نعرف بالضبط متى وكيف انتقل الناس من الصيد إلى الزرع ، ولكننا على يقين من أن هذا التحول العظيم خلق طلباً لفضائل جديدة ، وانقلب كثير من الفضائل القديمة رذائل مع « روتين routine » المزرعة المستقر والهادئ . وأصبح الدأب على العمل ألزم للحياة من الشجاعة ، والاقتصاد مرغوباً فيه أكثر من القسوة ، والسلم أعظم نفعاً من الحرب . وفضلاً عن ذلك تغيرت منزلة المرأة ، فأصبحت أعظم قيمة في الأرض منها في الصيد ، لأنها الآن تكسب بأداء مئات اللوازم في الدار ثمن بقائها أضعاف المرات . والزواج أرخص من استخدام امرأة تكلف نفقة أكثر لأداء هذه المهام المتعددة . بل أكثر من ذلك: كل طفل تلده الزوجة تصبح المعونة التي يقدمها أكثر من تكاليف غذائه اليسير وكسائه البسيط أضعافاً مضاعفة . فالأبناء يساعدون آباءهم في الحقل حتى يتم بلوغهم ، ولا يحتاجون إلى مال ينفق في تعليمهم . حتى البنات كن نافعات إلى حد ما . من أجل ذلك ارتفعت الأمم إلى مرتبة القداسة ، واعد منع الحمل منافياً للأخلاق ، وكسبت الأسرة الكثيرة العدد رضا الإله .

وفي ذلك الوسط الزراعي اتخذ قانوننا الأخلاقي الموروث شكله . لأن الإنسان كان ينضج في الحقل في سن مبكرة ، ينضج في العقل كما ينضج في الاكتفاء الذاتي ، فكان يفهم في العشرين من العمر مهام الحياة كما يفهمها وهو في الأربعين ، إذ كان كل ما يحتاج إليه محراثاً ، وساعداً قوياً ، وعيناً يستطلع بها تقلبات الجو . ولهذا السبب كان يتزوج في سن مبكرة ، حالما تتطلب الطبيعة منه ذلك ؛ ولذلك لم يطل تبرمه بالقيود التي يفرضها القانون الأخلاقي على الصلات الجنسية قبل الزواج . ولهذا بدت الحاجة إلى الطهارة أمراً معقولاً، حتى إذا أطلق

لنفسه العنان . أما عفة النساء فكانت أمراً لازماً لأن انتهاكها يفضي إلى أمومة بغير حماية .

وكان من المعقول كذلك أن تقبل تعاليم المسيحية علم تعدد الزوجات وعدم انفصال الزوجين ، ذلك أن زوجة الفلاح كانت تلد له كثيراً من الأطفال ، وكان من الصواب أن يحتفظ الأب والأم بولاء أحدهما للآخر إلى أن يستقر هؤلاء الأطفال في العالم ، حتى إذا بلغ آخر أطفالهما سن البلوغ ذبلت شهوة التنويع مع فتور الحسد وامتزاج روحهما ومشاكلتهما . وكان قانون البيوريتان^(١) Puritans (المتطهرين) على شدته عملياً في الريف ، وأنتج جنساً قوياً استطاع أن يغزو قارة في قرن واحد . لقد طلبت الفضيلة دائماً أكثر مما تتوقع كي تحصل على حاجتها .

وظل هذا النظام الأخلاقي الزراعي : من العفة ، والزواج المبكر ، والاقتصار على زوجة واحدة بغير طلاق ، والميل إلى كثرة النسل ، متمسكاً خمسة عشر قرناً من الزمان في أوروبا ومستعمراتها . وكان ذلك أمراً في غاية اليسر ، ما دامت الأسرة في الريف هي وحدة الإنتاج ، يتعاون أفرادها على زرع الأرض ، ويقتسمون ثمارها . بل إن الصناعة حين أخذت في الظهور كانت صناعة منزلية ، تجرى في البيوت لا في المصانع ، وتملاً أرجاء الدار بجلبة جديدة وشغل جديد ، ووظائف جديدة ومعنى جديد . حتى إذا انتهى أداء العمل اليومي ، اختلف الأسياد من الجماعة الصغيرة إلى مائدة واحدة في المساء ، أو تجمعوا أمام نار المدفأة ، يلعبون الألعاب ، أو يقرأون الكتب التي تقص عجائب العالم البعيد . كان كل شيء يتأمر على تقوية الأواصر التي تربط الأخ بأخيه ، والابن بأبيه ، والرجل بزوجته . لقد كان لتلك الحضارة البيوريتانية (المتطهرة) فضائلها .

(١) فرقة دينية ظهرت في إنجلترا في القرن السابع عشر ودعت إلى التشدد في الدين وإلى الطهارة ، واضطهدت أسرة ستيفارت أصحابها فهاجروا إلى أمريكا وكانوا سبباً في استعمارها .
(المترجم)

٣ - القانون الصناعي

ثم ظهرت المصانع فجأة . وأخذ الرجال والنساء والأطفال يهجرون البيت والأسرة ، والسلطة والوحدة ، ليعملوا كأفراد يأخذ كل منهم أجره بمفرده ، وذلك في أبنية موحشة أقيمت لتأوى الآلات لا البشر . ثم نمت المدن فأخذ الناس بدلا من البذر والحصاد في الحقول يكافحون معركة حياة أو موت في ورش مظلمة قدرة مع السيور والطنابير وضخام السكاكين والمناشير ، وآلاف العجلات والمكابس ، وأذرعة وتروس من حديد . وتوالدت الاختراعات كما توالدت الطبقة العاملة التي تشتغل بها ، وفي كل عام كانت تظهر أنواع جديدة من الآلات تجعل الحياة أصعب تناولا وفهماً . وأصبح النضوج العقلي أكثر تأخراً عما كان في الريف . فالرجل في العشرين من العمر في المدينة الحديثة لا يزال صبياً في وجه عالم متغير ومعقد ، ويحتاج إلى عقد آخر من السنين حتى يتخلص من أوهامه العظيمة عن الرجال والنساء والدول . ولعله قد يبلغ في الأربعين النضوج العقلي . وطالت فترة البلوغ وأصبح التحلي بقدر عظيم من التعليم ضرورياً ليتلاءم الذهن مع مطالب الحياة الحديثة .

وأخذ انتقال الإنسان من الزراعة إلى الصناعة يؤثر في الحال على سلوك الناس الأخلاقي . وتأخر النضوج الاقتصادي إلى الحد الذي تأخره النضوج العقلي تقريباً ، إلا في طبقة العمال اليدويين حيث يبلغ الفتى سن الاكتفاء الذاتي في الواحدة والعشرين من العمر ويستطيع أن يتزوج . أما في الطبقات الأعلى فإن سن الاكتفاء الذاتي ترتفع مع ارتفاع المنزلة والرفاهية ، إذ يتأخر النضوج الاقتصادي كلما ارتفعت المهنة . وفي التجارة والصناعة ظهرت آلاف من العوامل تؤثر في عمل المرء من قريب أو من بعيد ، وقد تؤدي إلى فقدان عمله في أي وقت .

وأخذ الرجل - وقد أثقلته مطالب الحياة ومراوغاتها بما لم يعهد من قبل - يرى المرأة وقد تجردت من وظائفها مع نمو المصانع والآلات ، وإذا تزوج كان مضطراً بحكم التقاليد المنحدرة عن القانون الزراعي إلى الاحتفاظ بزوجه في البيت ، وهو بيت أصبح الآن مجرداً من الأهمية والعمل ، فتكون الزوجة حملاً

جميلاً ، أو تمثالاً حياً يزين داخل البيت ولا شيء أكثر من ذلك . فجميع أنواع العمل التي كان عليها أن تقوم بأدائها في الأيام الخوالي أصبحت الآن تؤدي في المصانع ، وعلى الرجل أن يدفع ثمنها مما يكسبه من عمله . وإذا أرادت المرأة شغل وظيفتها بالحمل ازدادت مصاعبها لوجودها في المدينة : فالحمل في الوقت الحاضر يكلف المال الكثير أجراً للأطباء والمرضات والمستشفيات والأدوات . وليس من اليسير على المرأة في العصر الحديث أن تنجب من الأطفال بالسهولة والبساطة كما كانت جدتها تفعل من قبل . وكلما كثر عدد أولادها ازدادت الحالة سوءاً ، فكل ولد منهم غرم لاغنى ، وهم في حاجة إلى التعليم حتى السادسة عشرة ، وقد يمتد تعليمهم إلى السادسة والعشرين . هذا إلى أنهم يضاعفون أجرة البيت ونفقة السفر ، ويذهبون إلى المسارح والملاهي بانتظام ، كما يحتاجون إلى ملابس من أحدث طراز لمساية غيرهم من الأطفال الذين يرغبون في مجاراتهم بالمثل . حتى إذا بلغوا السن التي يكسبون فيها قوتهم هربوا من سلطان الأبوة إلى حرية الحياة الفردية الحالية من المسئولية . بل حتى إذا لم يهجروا البيت بمحض رغبتهم فإن نداء العمل والكسب ، وتفرق الأسواق والمصانع والحرف في أماكن بعيدة ، ينزعهم من البيت ويبعثهم كما تتناثر الشظايا من القنبلة المنفجرة . من أجل ذلك بدأ الحمل في المدن صورة من الاستعباد ، وتضحية سخيفة في سبيل حفظ النوع ، تؤخر المرأة الحبيبة وقوعه إلى أكثر ما تستطيع ، وكثيراً ما تؤثر العقم على تأجيل الحمل . وارتفع تحديد النسل إلى فضيلة تتضاعف مكانتها ، وأصبحت وسائل منع الحمل إحدى مشكلات الفلسفة .

واختراع موانع الحمل وذيوعها هو السبب المباشر في تغير أخلاقنا . فقد كان القانون الأخلاقي قديماً يقيد الصلة الجنسية بالزواج ، لأن النكاح كان يؤدي إلى الأبوة بحيث لا يمكن الفصل بينهما ، ولم يكن الوالد مسئولاً عن ولده إلا بطريق الزواج . أما اليوم فقد انحلت الرابطة بين الصلة الجنسية وبين التناسل وخلقنا موقفاً لم يكن أبوانا يتوقعونه ، لأن جميع العلاقات بين الرجال والنساء آخذة في التغير نتيجة هذا العامل ، ويجب على القانون الأخلاقي في المستقبل أن يدخل في حسابه هذه التسهيلات الجديدة التي جاءت بها الاختراعات لتحقيق الرغبات المتأصلة .

وأثمرت هذه الشروط كلها علة أوسع وأعم لتغير أخلاقنا، وهي الزواج المتأخر . فقد كان متوسط سن الزواج بين الرجال في باريس سنة ١٩١٢ الثلاثين وكان في إنجلترا ستاً وعشرين^(١) . ومن المحتمل جداً أن يكون هذا المتوسط قد ارتفع في إنجلترا خلال السبع عشرة سنة الأخيرة ، ومن الواضح أن باقى العالم « المتحضر » (أى المصنَّع) أخذ في الاتجاه في نفس الوجة ، لأن الأخلاق كالأزياء تفد من باريس . وهذا التأخير في الزواج أشد بين طبقات الميسرين في مجتمعات المدن ، مع أنهم في منزلة تجعلهم أقدر على تربية الأطفال عقلياً وجسدياً تربية حسنة . وكثير منهم لا يتزوج على الإطلاق . فمن بين ٣٦ مليوناً وهم سكان إنجلترا وويلز سنة ١٩١١ ، تخلص ٧ ملايين من الزواج ، من جملة عدد البالغين وهم ٢٠ مليوناً^(٢) . وكلما هجر الناس الريف وازدحمت بهم المدن ارتفعت سن الزواج ، وطالت صحة الرجل لخيلة تنهى به إلى العجز عن الزواج . واتجهت أكثر فأكثر نزعة رجال الطبقة المتوسطة إلى اعتبار الزواج خسارة عليهم ، فهناك آلاف من النساء ينتظرن إقبال الرجل لإشباع رغبته الجنسية . وماذا يمكن للزواج تحقيقه أكثر من ذلك ، وقد أصبح الأطفال حملاً ثقيلاً ، والبيت شقة في عمارة كبيرة ؟ ويتأمل الأعزب حال أصدقائه المتزوجين ، ويرى كيف يتهاكون على العمل ليحتفظوا للزوجة بحياة ناعمة وفاسدة تنفق مع وضعها ، فيعجب ما الذى دفع هؤلاء الذكور إلى هذا الاستعباد الذى لم يسبق له مثيل . أو يرى المستوى الراقى من الحياة والوجاهة حين يحيط الأب من الطبقة المتوسطة بناته بهالة من الفرو والسيارات والخدم . اجتذاباً للزوج ثمين ؛ فيعجب كيف يستطيع بدخله المحدود . في أول الشباب مسامرة هذه الرفاهية التى حققها الأب في بيته بعد زمن طويل ، ويرجع الشاب إلى رصيده في البنك فيقرر إثارة السلامة إلى حين .

فحياة المدينة تفضي إلى كل مشط عن الزواج ، في الوقت الذى تقدم فيه إلى الناس كل باعث على الصلة الجنسية وكل سبيل يسهل أداءها . ولكن النمو

(١) Gallichan, W.M. The Great Unmarried, p. 47.

(٢) المرجع السابق .

الجنسى يتم مبكراً عما كان من قبل ، كما يتأخر النمو الاقتصادي فإذا كان قمع الرغبة شيئاً عملياً ومعقولاً في ظل النظام الاقتصادي ، أما الآن فإنه يبدو أمراً عسيراً وغير طبيعي في حضارة صناعية أجلت الزواج بالنسبة للرجال حتى لقد يصل إلى سن الثلاثين . ولا مفر من أن يأخذ الجسم في الثورة ، وأن تضعف القوة على ضبط النفس عما كان في الزمن القديم . وتصبح العقدة التي كانت فضيلة موضعاً للسخرية ؛ ويختفي الحياء الذي كان يضمن على الحمل جمالاً ؛ ويفاخر الرجال بتعدد خطاياهم ، وتطالب النساء بحققها في الاتخاس في مغامرات غير محدودة على قدم المساواة مع الرجال . ويصبح الاتصال قبل الزواج أمراً مألوفاً . وتختفي البغايا من الشوارع بمنافسة الهاويات لا برقابة البوليس . لقد تمزقت أوصال القانون الأخلاقي الزراعي ، ولم يعد العالم المدني يحكم به ..

وذهب لينتز إلى أن زواج الرجل مسألة يستغرق في تحبها طول عمره (١) ، ومن الواضح أن شباب اليوم يوافقونه على ذلك . فبعضهم يفكر طويلاً وطويلاً ، ثم يصبح أعزب ، وينتهي أخيراً إلى الزواج عن ملال . وإينك ليرى هذا الصنف في الحدائق العامة يسعى أحدهم إلى الاستمتاع بالحياة مع فتاة عرفت مع غيره الحياة ، منتقلامع ذلك من ساقطة إلى أخرى ؛ أو يتردد على (الكباريات) حتى تفر نفسه ويسأم استعراض السيقان العارية المختلفة الأشكال ، ويكتشف أن جميع الفتيات في (الحوقة) متشابهات . فيمل آخر الأمر الرذيلة نفسها . ثم يجد أن صعوبات الزواج ليست شيئاً مذكوراً بالقياس إلى الفراغ الذي يحس به معظم العزاب في حياتهم . فتلك المسؤوليات المتزايدة ، والمشكلات المتلاحقة أفضل ألف مرة من الشعور المتزايد بعدم الكمال ، وحياة الإنسان وحيداً كالغصن المعطل عن حمل الثمار .

ولسنا ندري مقدار « الشر الاجتماعي » الذي يمكن أن نجعل تأخير الزواج مسئولاً عنه . ولا ريب في أن بعض هذا الشر يرجع إلى ما فينا من رغبة في التعدد لم تهذب ، لأن الطبيعة لم تهيئنا للاقتصار على زوجة واحدة . ويرجع بعضها الآخر إلى ولاء المتزوجين الذين يؤثرون شراء متعة جنسية جديدة على

(١) Williams, H.S., The Science of Happiness, p. 218.

الملال الذي يحسونه في حصار قلعة مستسلمة . ولكن معظم هذا الشر يرجع في أكبر الظن في عصرنا الحاضر إلى التأجيل غير الطبيعي للحياة الزوجية . وما يحدث من إباحية بعد الزواج فهو في الغالب ثمرة التعود قبله . وقد نحاول فهم العالل الحيوية والاجتماعية في هذه الصناعة المزدهرة ، وقد نتجاوز عنها باعتبار أنها أمر لا مفر منه في عالم خلقه الإنسان ، وهذا هو الرأي الشائع لمعظم المفكرين في الوقت الحاضر . غير أنه من المنجمل أن نرضى في سرور عن صورة نصف مليون فتاة أمريكية يقدمن أنفسهن ضحايا على مذبح الإباحية وهي تعرض علينا في المسارح أو كتب الأدب المكشوف ، تلك التي تحاول كسب المال باستثارة الرغبة الجنسية في الرجال والنساء المحرومين وهم في حمى الفوضى الصناعية من حمى الزواج ورعايته للصحة .

ولا يقل الجانب الآخر من الصورة كآبة ، لأن كل رجل حين يؤجل الزواج بصاحب فتيات الشوارع ممن يتسكنن في ابتدال ظاهر . ويجد الرجل لإرضاء غرائزه الخاصة في هذه الفترة من التأجيل نظاماً دولياً مجهزاً بأحدث التحسينات ومنظماً بأسمى ضروب الإدارة العلمية . ويبدو أن العالم قد ابتدع كل طريقة يمكن تصورهما لإثارة الرغبات وإشباعها . ولكن الفتاة التي سوف يتزوجها بعد تجربة استغرقت عشر سنوات ، يجب أن تحافظ على عفتها ، فلا يقربها أحد حتى يتلقاها بين أحضانها المخربة . (شبه بلزك العروس في ليلة الزفاف بقرد يحاول العزف على الكمان) . وهذا وضع غير معقول بعض الشيء في ترتيبه . ولا نزاع في أن ذلك يرجع إلى حد ما إلى ما كان يقتضيه الآباء المغرمون ببناتهم من مهر غال ثمناً اعفنهن ، وقت أن كان الزواج يشترى صراحة . ولا ريب كذلك في ارتباط هذا الأمر بذلك العرف المزدوج الذي أصبح مقدساً على مر الزمن ، والذي يقتضى إخلاصاً من جانب واحد هو جانب الأم حتى تمكن التعرف على الورثة ، وإثبات حقهم في الميراث . وهذا في نظر « العقل الخالص » ظلم فادح ، ولن يطول استمراره على الأرض .

ولا يشك عاقل يخلو من الهوى في أن كبح جماح الشهوة بعد البلوغ أمر غير طبيعي . فالكبت الجنسي يؤدي إلى ضروب كثيرة من الأمراض

العصبية والانحرافات ، وهو ضغط لا مسوغ له على العقل والجسم في هذه المرحلة الدقيقة من التحول ، حين يحتاج العقل والجسم إلى صحة وافرة . ومن التناقض أن يقدح عالم الأخلاق في العلاقات الجنسية قبل الزواج إلا إذا هيا مقاومة فعالة للقوى المنفضية إلى تأخير الزواج . ولن نستطيع تحقيق هذه الحاجات إلا إذا أمكن أن تعود مرة ثانية تلك الشروط التي كانت معقولة في ظلها . وقد حان الوقت لمواجهة هذه المشكلة دون موارد : فيجب إما أن نطلق حرية العلاقة الجنسية قبل الزواج ، وإما أن نحث على الزواج بالرجوع إلى السن الطبيعية .

٤ - رجالنا المتحررون^(١)

جرت العادة أن نربط بين العريضة الجنسية والشباب ، ولكن هذه العريضة تسود جميع الأعمار التي لم تنزل فيها بقية من قوة ولم ينهكها العمل . فقد فاضت المدن بسبب تأخير الزواج بالرجال والنساء الذين يسعون إلى استبدال مشيرات التنويع الخارجية بمهام الأبوة وتدبير المنزل مما كان يستغرق وقت الآباء والأمهات . وهذا الضرب من الناس بوجه خاص (وكذلك الرجال من أهل الريف حين يذهبون إلى المدينة في اجازة) هو الذي يملأ حانات الليل night-clubs ، حيث يذهب الغر وحيداً ويسمح لنفسه أن يندثر بالشراب ، وأن تسلب ماله تلك الفريسة اللطيفة التي يظن أنه قد يجد في أحضانها بديلاً عن الزوجة . وعادات هذه الطبقة آخذة في الانتشار بسرعة بين جميع الطبقات ، فقد أصبحت الإباحية بدعة ، ولا يجرؤ أي رجل على التسليم بأنه أمين لزوجته ، أو يؤثر الصحو على السكر . فطابع العصر في الوقت الحاضر أدنى إلى إباحية الرجولة منه إلى رومانتيكية الشباب .

وقد رأينا أن تأخير الزواج هو الأصل في تحول أخلاقنا الجارف في المجتمعات الحديثة . وهنا أيضاً بمقدار ما تتدخل العوامل الشخصية يجب أن نلمس علة التغيير في الآباء لا في « الجيل الأصغر » . وغرائز الشاب راسخة

(١) يتكلم المؤلف عن المرحلة التي تلي مرحلة الشباب ، وسمى أصحابها « الأكبر سناً elders » ، وفي اللغة العربية تسمى هذه المرحلة بالرجولة وتعقبها الكهولة ثم الشيخوخة . (المترجم) .

قوية وقد تقوده سريعاً إلى التقييد بحبل الزواج ، ولكن الأب الحذر والأم الغيور يسألان الشاب في سخط كم يكب من مال يبيح له متابعة هذا الغرام المحنون . ويبدو أن حكمة الحبيب هي التي تكون فلسفة الوالدين الأساسية وهما في منتصف العمر . ولكنهما ينسيان شهوتهما الخاملة ولا يخطر ببالهما أن عاطفة الشاب قد تسوّغ أموراً لا يستطيع عقل الشيخ فهمها . فالجيل الأكبر سنّاً إذن هو الأكثر بعداً عن الأخلاق . فهو الذي لا يحفل بصالح المجتمع أو الجنس ويحد من دوافع الطبيعة الحكيمة ، فينصح بالفعل أن يقضى الشباب سنوات عدة من الإباحية تمهيداً للظفر بزواج سعيد وأطفال أشداء . أما إذا كانت نظرة الآباء أوسع فيجب عليهم أن يضعوا المال في المرتبة الثانية بالنسبة إلى سعادة وصحة الفرد والجماعة ، وأن يتعاونوا مع الطبيعة ، وأن يقدموا بعض التضحية يتمكن بها أبناؤهم من الزواج المبكر . وإلى أن تسود هذه النظرة فلنا أن نرد لأخلاقية الشباب إلى فلسفة الآباء التجارية .

ومن الذي يقول إن خلاعة الشباب أسوأ من عدم استقرار الزواج في سن الكهولة ؟ انظر إلى طغيان الطلاق المستمر على الزواج تجد أنه يزعب حتى أولئك الذين لا يؤمنون إلا بالإحصاء . ففي دنفر عام ١٩٢١ كانت نسبة الطلاق مساوية لنسبة الزواج . وارتفعت نسبة الطلاق عن الزواج في السنوات الأربع السابقة من ٢٥ إلى ٥٠ (١) . وفي شيكاغو عام ١٩٢٢ تم ٣٩٠٠٠٠ زواج ، و ١٣٠٠٠٠ طلاق . وفي ولاية نيويورك عام ١٩٢٤ قلت نسبة الزواج ٤٦ في المائة عن عام ١٩٢٣ ، وارتفعت نسبة الطلاق إلى ٨٢ في المائة (٢) و (٣)

أما « الأسباب » التي تبني عليها المحاكم الحكم بقطع حبل الزواج فسطحية مع براعتها : مثل الهجر ، والقسوة ، والإهمال ، والسكر ، وما إلى ذلك . . . كأن هذه الأسباب كانت مجهولة حين كان الطلاق نادر الوقوع . ذلك أنه تحت

(١) Literary Digest, Feb. 17, 1923.

(٢) New York Times, Nov. 15, 1925.

(٣) في عام ١٩٤٩ كانت نسبة الطلاق الربع في ولاية نيويورك - أنظر لوس انجلز تايمس ،

١٠ أبريل سنة ١٩٤٩ .

هذه العوامل السطحية يوجد هذا النفور الحديد من الأبوة ، وهذه الشهوة إلى التنويع المتأصلة في طبيعة الإنسان والتي تضاعفت اليوم أضعافاً مضاعفة مع مع فردية الحياة الحديثة ، وتعدد المثيرات الجنسية في المدينة ، والاتجار في المتع الجنسية .

وترجع جاذبية المرأة كزوجة إلى جمالها إلى حد كبير . فالرجل يختار الزوجة لما فيها من جمال ، لأن الجمال كان في القديم سبيلاً إلى أمومة قوية . ولكن الزواج يطول على مرّ الزمان ، ويأخذ الجمال في الذبول . والرجل الذي يتزوج المرأة لجمالها لا يستمتع بها إلى الأبد . أما جاذبية الرجل كزوج فترجع إلى حد كبير إلى الشخصية والفحولة . ومع ذلك فإن ألمع شخصية ، وأقوى رجولة يجب أن تخبو بعد ألفة وصحبة إجبارية تدوم سنين عدة ، لذلك ينجو الرجل بنفسه بالتغيب عن البيت بعض الوقت كل يوم . وتسعى المرأة إلى الاحتفاظ بجمالها بأن تؤجل الحمل ، وبمعالجة بشرتها بألوان من المنحدرات الكيماوية تصبح الأسمدة الزراعية العلمية إلى جانبها بدائية . ولكن سرعان ما يظهر جوهر المسألة إلى الوجود . إذ يجب أن تحل جاذبية الأمومة محل الجاذبية الجنسية حتى يحتفظ بكيان الزواج ، وعندئذ تزدهر الزوجة بألوان من البهاء لم يكن الزوج يحلم بها في فلسفته . فهي تتغير الآن ، وتنمو ، وتتفتح مرة أخرى ، ويلفها الإعجاب الغريزي بالطفل بغلالة جديدة قوية من السحر . وإذا فقدت الزوجة هذه الصفات أصبح البيت داراً عبارة عن جدران ميتة تضم جسد الزوجين ، ثم لا تلبث أن تضم شخصين متباعدين ولا غير ، حيث كان من المحتمل أن تنشأ في تلك الدار أسرة .

٥ - الأسرة

ومع ذلك فالأسرة أكثر النظم الاجتماعية تلقائية ، وأشدّها قرباً من الطبيعة ، لأنها تتركز مباشرة على ميول موروثية لا تدفع إلى مجرد الاتصال الجنسي فقط ، بل إلى إنجاب الأطفال وتربيتهم ، ولذلك لا نجد في العادة ضرورة لطرح هذا الموضوع على البحث الأخلاقي . وما نسميه « غريزة التناسل » عبارة عن متاهة

معددة من دوافع واستعدادات واتجاهات يؤثرها صاحبها . وأكبر الظن أن الدافع إلى الاتصال الجنسي يجب أن يتميز تميزاً دقيقاً عن الميول التناسلية كالرغبة في الإنجاب ، والميل إلى المثابرة على العناية بالأطفال بعد ولادتهم . ذلك أنه ولو أن بعض النساء وكثيراً من الرجال يعتقدون في خلوهم من الرغبة في الإنجاب ، فهناك قليل من الرجال وقلة أقل من النساء لا يكتشفون في الحال أن الطفل ظاهرة رائعة ومحبوبة حتى إذا كان مكروهاً ومُشكلاً . إن أبرد الفلاسفة متحيز لصالح طفله ، فإذا كان الطفل سقيماً نما حبه في القلب مع العناية به ، كما يزداد حب الفنان للصورة التي تتشكل بين يديه . وإذا كان الطفل قبيحاً أعمت الطبيعة الرحيمة عين الآباء وبسطت جناح الخيال على الحس . وكما قيل : « إن الله ينزل الدواء مع وقوع المرض » . وقد كان القدر رحيماً لأنه حرماناً هبة رؤيئة أنفسنا كما يرانا غيرنا من الناس .

ولا نزاع في أن الأطفال لا يعيشون من أجل آبائهم ، بل الآباء هم الذين يعيشون من أجل الأبناء . وتستمد الأسرة أصلها ومعنى وجودها من عجز الطفل الشديد . ولقد كانت الأسرة أداة حماية لتلك العادات والفنون ، والتقاليد والأخلاق التي تكون مادة تراثنا الإنساني ، وتقوم مقام الملائم في البناء الاجتماعي . فالطفل فوضوي ، ولا يشعر باحترام لأي قانون أو عرف ، ويعتبر ألوان الحظر فريسته الطبيعية . ولكن الأسرة - بطريق الأطفال والآباء كذلك - تحيل الفرد الصغير بالرشوة والعصا ، وبالخلوى والأوامر ، إلى كائن اجتماعي راغب في التعاون - بل وبعض الوقت إلى شيوعي راغب في القسمة . والأسرة هي أول وحدة اجتماعية يتعلم الفرد الولاء لها ، ويجب أن يقوم نموه الأخلاقي على تعلم الولاء لكل وحدة أكبر ، إلى أن يبلغ قلبه أخيراً أقصى حدود بلاده . ولكن الشاب حين يخرج عن أرض البيت الثابتة ، تبتلعه دوامة المنافسة ، فيفقد مع الزمن الرغبة التي غذتها الأسرة في التعاون . والإنسان في منتصف العمر ، مع أنه ناجح ولكنه غير سعيد ، يرجع بين حين وآخر إلى بيت الأسرة مع شعور بالراحة والتفريح ، وكأنه يرجع إلى جزيرة شيوعية في بحر من الفردية .

وقد نشأت هذه الوظيفة للأسرة، كمركز أخلاقي وموحد للمجتمع، من

وضعها باعتبار أنها الوحدة المنتجة للنوع الإنساني . وكلنا يعلم أن هذا الوضع المركزي للأسرة قد انتهى ، وأن السكان المصنعين يعيشون معلقين بشرط متغير يهددهم بتحويل قانونهم الأخلاقي عن نظام فقد أساسه الاقتصادي والسياسي . ذلك أن هجرة الصناعة من البيت والحقل إلى المصنع والشارع ، وتطور المهن الحرة مع تغير المركز الجغرافي بحياة الفردية ، وحركة العمل المتغيرة التي تنسب إلى وفرة رءوس الأموال أو ظهور موارد طبيعية جديدة ، كل ذلك قد مزق الروابط التي كانت تصل بين الأبناء والآباء لحفظ وحدة البيت . وأخذ الإخلاص للأسرة والولاء لها يذبلان ، وامتصت الوطنية ما فيها من عاطفة قوية ، كما تنوب قوة الأبوة عاماً بعد آخر في وظائف الدولة المتوسعة وقواها النامية . ففي كل مكان ينهار التعاون التلقائي الصادر عن الترابط الطبيعي في الإنسان ، ويجد بديلاً مزعماً في الروابط الصناعية والخارجية للقانون والنظام ، والخضوع للمذهب والقهر . وفي نهاية الأمر تجد أن هذه الفردية الاقتصادية والسياسية تعكس نفسها في فردية أخلاقية ليس لها مثيل من جهة نظام توزيع الأرباح ، ولا توجد إلا في تلك العصور التي ذابت فيها الحضارات الكبرى في غياهب الماضي .

٦ - الأسباب

ولنلخص ما سبق أن ذكرناه . فالعلة الأساسية لهذه التغيرات الأخلاقية هي الثورة الصناعية التي كان لها يد ، إن خيراً أو شراً ، في معظم كل تحول حديث ، فقد أخرج قيام نظام المصانع الزواج لأنه جعل الفرد غير آمن ، وزادت الإباحية بهذا التأخير الداعر ، وبإلقاء الملايين من الناس في بحر حياة المدينة ، وما فيها من صلات مثيرة وستار المساواة . كما أدى قيام المصانع إلى تحرير (تصنيع) المرأة فنتجت عن ذلك عرضاً تجربة الصلة الجنسية قبل الزواج ؛ وإلى إضعاف أثر الأسرة الأخلاقي ؛ وإلى استبدال الزهد والحرمان البيوريتاني بالانغماس الأبيقوري في كل لذة وفي كل انحراف . وتوافق نمو وسائل منع الحمل مع ظهور كل سبب من هذه الأسباب ، وتعاون وإياها على العمل والتأثير .

وكما كانت ثروة عصر النهضة سبيلاً إلى تحريره وحرите وفنونه ، كذلك

ثروة العصر الحاضر السائدة في كل مكان ، والتي فاقت كل ثورة أدبية ، هي التي بدلت قانون الحجاج القاسى بتساهل النفوس المتحررة . ويعد تغير أيام الآحاد عندنا من أيام راحة وعبادة إلى رحلات وأفراح وثنية لا حد لها ، دليلاً واضحاً على تبدل أخلاقنا وحياتنا المتحررة . ومن الأسهل أن يكون الإنسان فاضلاً حين يكون فقيراً ، وقد يقاوم الإغراء في بعض الأحيان إذا كان فادح الثمن . ولكن دع جيوبنا تتضخم بالمال ، ودع عزلة الناس تحجبنا عن أعين الجيران ، وسوف نلتمس نسيان الهموم في وجوه الحسان ، ونتحرق لإظهار رجولتنا لقلوبنا ذاتها . ومن العبث أن يرثى علماء الأخلاق لحال رفاهيتنا الحديثة في الزينة والمزاج ، فهذا الأمر يقوم على دوافع كانت موجودة على الدوام وتجدر الآن أمامها فرصة نادرة للظهور . وستظل النتيجة على ما هي عليه حتى تغير الظروف الاقتصادية من هذه الحال . فما دام نظام الآلات يضاعف أوقات الفراغ ، ويستبدل الأعمال العقلية بالأعمال اليدوية ، فإن الطاقة التي كانت تصرف مع الأعمال الجسمانية سوف تصعد إلى الدم ، وتجعلنا في غاية الحساسية للمؤثرات الجنسية .

وأكبر الظن أن هذا التجدد في الإقبال على اللذة قد تعاون أكثر مما نظن مع هجوم مذهب دارون على المعتقدات الدينية . وحين اكتشف الشبان والفتيات وقد أكسهم المال جرأة ، أن الدين يشهر بملاذمهم ، التمسوا في العلم ألف سبب وسبب للتشهير بالدين . وأدى التزمت في حجب الحياة الجنسية والزهد فيها إلى رد فعل في الأدب وعلم النفس صور الجنس مرادفاً للحياة . وكان علماء اللاهوت قديماً يتجادلون في مسألة لمس يد الفتاة أيكون ذلك ذنباً (١) ، أما الآن فلنا أن ندهش ونقول : أليس من الإجرام أن نرى مثل تلك اليد ولا نقبلها .؟ لقد فقد الناس الإيمان وأخذوا يتجهون نحو الفرار من الحذر القديم إلى التجربة الطائشة . إنها عقوبة جماعية تدفع الأخلاق اليوم ثمنها لأنها ارتبطت بالعقائد الغيبية . فقد بنى القانون الأخلاقي على الخوف - الخوف من العقاب في الحياة الدنيا ، ومن النار في الآخرة - ولكن المعرفة عدو الخوف ، وهي آخذة في النمو ، فلا يمكن

Ellis, Studies in the Psychology of Sex, Vol. VII, p. 180.

(١)

أن يعيش القانون القديم إلى جانب التعليم الجديد . إن حياتنا الصاخبة تنادى اليوم بأخلاق جديدة تستند إلى طبيعة الإنسان وقيم هذه الحياة ، وتنقذ سفينة الحضارة التي تركت لتهدى بنفسها بعد أن طارت الآلهة عنها فجأة .

ويجب أن نضيف إلى زوال الزراعة وتحلل الدين تدهور الحضارة الأنجلوسكسونية . فقد هوى المذهب البيوريتانى، لا لأن قيوده على الدوافع الإنسانية والتي كانت معقولة أصبحت غير معقولة في ظل الشروط المتغيرة في العصر الحاضر ، بل كذلك لأن أولئك الأرقام الذين لا يزال القانون القديم يجد فيهم مثلاً وعضداً قد أصبحوا في مدننا (١) قلة لا حساب لها ولا حيلة . وقد أدت الهجرة وارتفاع نسبة المواليد إلى التسامح بالعامة وانتزاع ذوى السلطان من مراكزهم . فالأجناس « غير الشمالية » من إيرلندا وروسيا وجنوب أوروبا هم الذين يسيطرون اليوم على الحياة السياسية في مدننا الكبرى ، ويضيفون على الأدب والحياة طابعهما العام الذى يتميز بالتهاون في القانون الأخلاقى . ففضائل الأنجلوسكسون المنزلية لا تناسب مرح الإيرلندى ، أو حماسة الإيطالى ، أو تساهل السلافى . وكما أن عصر نيو إنجلاند قد زال من أدبنا حين أخذ المهاجرون المتأخرون يتلمسون في بطء وخشونة هيئة جديدة وأسلوباً جديداً لفلسفتهم الواقعية والتشاؤمية ، كذلك أخلاقنا في الوقت الحاضر تتعثر في حال من الفوضى ، على حين أصبحت الأقليات التي كانت مضطهدة من قبل هي صاحبة السلطان على الأدب والمسرح والكنيسة وعلى الدولة بشكل أوسع . لقد غيرت الأخلاق في أمريكا أساسها البشرى كما غيرت أساسها الاقتصادى .

وكانت الحرب العظمى الأولى آخر عامل في هذا التغيير . ذلك أن تلك الحرب قوضت تقاليد التعاون والسلام المتكويين في ظل الصناعة والتجارة ، وعودت الحند الوحشية والإباحية ، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها عاد آلاف منهم إلى بلادهم فكانوا بؤرة للفساد الخلقى . وأدت تلك الحرب إلى رخص قيمة الحياة بكثرة ما أطاحت من رءوس ، ومهدت إلى ظهور العصابات والجرائم

(١) يشير المؤلف إلى المدن في الولايات المتحدة ، ولذلك يتحدث فيما بعد عن الهجرة إليها من الخارج . (المترجم) .

القائمة على الاضطرابات النفسية . وحطمت الإيمان بالعناية الإلهية ، وانتزعت من الضمير سند العقيدة الدينية . وبعد انتهاء معركة الخير والشر بما فيها من مثالية ووحدة ، ظهر جيل مخدوع ألقى بنفسه في أحضان الاستهتار والفردية والانحلال الخلقي . وأصبحت الحكومات في واد والشعب في واد آخر ، واستأنفت الطبقات الصراع فيما بينها ، واستهدفت الصناعات الربح ، بصرف النظر عن الصالح العام ، وتجنب الرجال الزواج خشية مسؤوليته ، وانتهى الأمر بالنساء إلى عبودية خاملة ، أو إلى طفيليات فاسدة ، ورأى الشباب نفسه وقد منح حريات جديدة ، تحميه الاختراعات من نتائج المغامرات النسائية في الماضي ، وتحوطه من كل جانب ملايين المؤثرات الجنسية في الفن والحياة .

فهذه هي الأسباب المتعددة لتغير أخلاقنا . وفي ضوء انتقال هذه الأسباب من الحقل والبيت إلى المصنع والشارع في المدينة يجب أن نفهم الجيل الذي يحل محلنا في حال شديدة من الاضطراب . فمشاكل هذا الجيل وحياته جديدة ومختلفة عن الجيل السابق ، وهو واقع بين برائن الثورة الصناعية التي تعدل عاداته وأزياءه وعمله ودينه وسلوكه . وليس من العدل ولا مما يتفق مع التاريخ أن نحكم على هذا الجيل في ضوء القانون القديم ، وإلا كنا كمن يفرض عليه أن تلبس الفتاة (الكورسيه) والعجيزة ، وأن يلبس الشباب الحذاء ذي الرقبة ويطلق لحيته كما كان يفعل أجدادنا . فصاحب الخلق وعديم الخلق كلاهما في تغير مستمر ، بين التقاليد الثابتة المولية والعادات الجديدة التي تشق طريقها إلى الظهور . ولا يعرف أحد بالضبط مدلول الأخلاقية أو اللاأخلاقية ، وكيف يمكن تعريفهما من جديد لاستعين بهما في فهم سلوك الإنسان في العصر الصناعي والمدني (١) .

إننا نقف بين عالمين ، أحدهما ميت ، والآخر لم يكده يظهر إلى الوجود . ومصيرنا فوضي لا يليق بالجيل الجديد . فنحن أشبه بسقراط وكونفوشيوس ، في قولهما بأن الأخلاق القائمة على القهر والخوف قد فقدت سلطانها على الناس . ونحن كذلك نحاول أن نلتمس قانوناً أخلاقياً طبيعياً يقوم على العقل لا على الخوف .

(١) مدني هنا بمعنى النسبة إلى المدينة وذلك في مقابل عصر الزراعة ، واللفظة في الإنجليزية

urban (المترجم) .

ويمكن من إقناع الناس ، حتى المتعلمين منهم . ويواجه الآباء في الوقت الحاضر آلافاً من الأسئلة الأخلاقية والنفسانية لم تعد الإجابات القديمة تصلح لها . فنحن مضطرون على الرغم منا إلى أن نكون فلاسفة ، وإلى فحص أفكارنا المزعومة وعاداتنا ، حتى تبنى لأنفسنا مذهباً في الحياة والفكر متمسكاً مع نفسه ومع تجارب العصر ومطالبه . إننا نقف إزاء النجوم ونكاد نكون مجردين من العقيدة الغيبية ومن القانون الخلقى الجديد . فكل شيء يجب أن يبنى من جديد كأننا قد رجعنا إلى حياة القفار نشرع في إقامة حضارة جديدة .

وأين نجد قانوناً أخلاقياً يتفق مع شروط حياتنا المتغيرة ، ويرفعنا مع ذلك ، كما رفع القانون القديم الناس ، إلى الرقة والذعة والحياء والأدب والنبيل والكرامة والفتوة والنجدة والحب ؟ أو يرفعنا إلى فضائل جديدة كهذه الفضائل ؟ وكيف نعرف الخير تعريفاً جديداً ؟ وكيف نعيد بناء الأساس الخلقى للمجتمع الكبير ؟

الفصل السادس

١ - الأخلاقية واللااخلاقية

لنستمع بعض الوقت إلى ما يقوله الفلاسفة عن موضوع الأخلاق .
سيضاغفون بلبلة فكرنا وأحكامنا ، ولكننا لن نستطيع أن نجد استجابة توافق
هذه المشكلة إلا إذا أدخلنا في حسابنا جميع العوامل المتدخلة في الموقف .

وأقدم من نصادفهم يقذفون بنا في قلب المتاهة الأخلاقية الشائكة هم
سفسطاثيو الإغريق ، وهم المؤسسون القساة للأخلاق الأوربية . ذلك أنهم
قدموا اقتراحات وتحليلات تجعل نيتشه بالنسبة إليهم متواضعا ، وتضعه إلى جانبهم
في المحل الثاني . فقد استلبوا قبل ظهوره بألغى عام نصف صيخته التي نادى بها
أقوى رجل في الفلسفة الألمانية . يقول كاليكليسي في محاوره جورجياس التي
كتبها أفلاطون : إن الأخلاق ابتكار الضعفاء لتقييد الأقوياء ، وطريقة تحد
من سلطان السوبرمان داخل حدود قوى طبقة الشعب . والحكيم هو الذي يعلو
على مستوى الفضيلة والرذيلة ، ويصدر عن رغبات قوية ، وينشد صفات القوة
والشجاعة والمهارة في تحقيقها ، باعتبار أنها أنبل الصفات (١) . ويعلن ثراسيماخوس
في محاوره الجمهورية أن : « القوة هي الحق ، وأن العدالة ليست إلا مصلحة
الأقوى ، وأن « الظلم » سيد البسيط والعاذل ، وأن « العادل » هو الخاسر بالإضافة
إليه على الدوام » (٢) . واهتم بأن يضيف أنه « يتحدث عن الظلم على نطاق
واسع » . ويحذر من النصيح بالظلم إذا لم يستطع المرء أن يرتكبه جملة .

هذا النقد القديم للفضيلة له دلالة ، أي هل يتعلق مذهب نيتشه بشباب
الفكر أكثر مما يرجع إلى مرحلة نضوجه ؟ لقد كان السفسطاثيون يمثلون نشوة

(١) أفلاطون ، جورجياس ، ٤٨٣ .

(٢) الجمهورية ، الكتاب الأول .

الحرية التي أصابت الفلسفة اليونانية حين رفعت عن كاهلها قيود الشرك والتقاليد . كان القانون الخلقى القديم في اليونان يعتمد اعتماداً مزعزماً على أساس وعلى جزاء من الدين ، كما يعلق المرء من رجليه في الهواء . فلما ظهر أن الأساس غير وظيفي أصيبت الأخلاق بالضرورة ، وأصبحت اللاأخلاقية ، كالإلحاد والمادية والحتمية ، حدثاً طبيعياً لثورة الشباب العارضة . كذلك الحال بالنسبة إلينا ، فنحن حين نكتشف أن يهوذا الذي كان نحيفنا في طفولتنا - موسى الملائكى الموجود في السماء - ليس إلهاً حقيقياً بل مجرد إنسان نحيف يهدف إلى كفنا عن سرقة البلى ومشاكسة المدرسين ، فإننا نخلص إلى هذه النتيجة المؤقتة ، وهي : أنه ما دام هذا الإله الخاص بالمتبربرين غير موجود ، فسائر الأشياء التي كان يحرمها هي الآن مباحة ، وأن السرقة والقتل والنصب هي ألوان محترمة من النشاط إذا زاوها المرء بصواب مع احترام أوامر البوليس . وفي ذلك قال دستوفسكى : « إذا لم يكن ثمة إله (على المعنى السابق من الرعب الليلي) فكل شيء مباح » . فليس على المرء إلا أن يكون حذراً . ومشكلة الأخلاق (وهي البحث العقلي في الأخلاقية) تنحصر في هذا البحث وهو : هل المطلوب أن يكون الإنسان « فاضلاً » كما يكون حذراً ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف يمكن أن نحث الناس بناء على ذلك ؟

ولا نستطيع أن نفهم منزلة سقراط العظيمة في تطور الأخلاق الفلسفية إلا في ضوء هذه النيثسية السفطائية الفتية . فقد رأى سقراط أثينا تتأرجح بين خطرين : ضغط الأثرية الديمقراطية للرجوع إلى المعتقدات القديمة ، وهذه الفردية المتحررة من الخلق المستهتر التي نشأت من زوال الأوهام عن العقيدة الموروثة ، تلك الفردية التي جعلت من أثينا فوضى تعجز عن الوقوف في وجه أرستقراطية إسبرطة القوية . نحن في حاجة إلى الموازنة بين تلك الصورة وبين صورة عصرنا الحاضر ؟ لقد تصور سقراط مشكلة الفلسفة الكبرى في تطور أخلاق طبيعية تحل محل الأخلاق الغيبية التي كانت الفلسفة قد هدمتها . وإذا استطاع المرء أن يقيم مذهباً أخلاقياً مستقلاً عن المعتقدات الدينية ، فمن الممكن أن تعيش هذه المعتقدات دون أن تحل الروابط الأخلاقية التي تجعل من الأفراد

المنفصلين مواطنين مسالمين في الدولة . فمثلاً لو أن « الحبير » كان يعني « العاقل » ، وكانت « الفضيلة virtue » تعني « الحكمة wisdom » ، ولو أمكن أن يعلم الناس معرفة مصالحهم الحقيقية ، والبصر بالنتائج البعيدة لأعمالهم ، ونقد رغباتهم والتوفيق بينها للخروج بها من فوضى تمحو النفس إلى رغبة كلية خالقة وتهدف إلى غاية - فلعل هذا يمد المتعلم والفسطائي بالأخلاق التي تعتمد عند العامة على الجزاء الإلهي ، وأحكام رجال البوليس . ومن المحتمل أن يكون مرجع كل ذنب إلى الجهل ، وإلى الإخفاق في الوصول إلى نظرة كلية . ألا يمكن أن يكون العقل النامي بالعلم الغزير فضيلة تكفي في حفظ كل نظام اجتماعي ضروري ؟

وفي هذا المذهب تختبئ ، فردية داهية ، كانوا يرونها المقابل الأخلاقي لفلسفة سياسية أرستقراطية . وكان ذلك المذهب يزعم أن شرف طبقة النبلاء يمكن أن يثبت بتعليم الجليل . ولم يخطر ببال أصحاب المذهب أن العقل قد يجعل المحرم أكثر بالعقل إجراماً . وبينك بقيت المشكلة القديمة بدون حل : أن نجعل العقل اجتماعياً ، أو أن نلتصق للأخلاق أساساً خارج العقل والتفكير . وأخذ أفلاطون بالحل الأول : فليس العقل ، كما يقول ، مسألة عقلية فقط ، بل هو التناسب الحميل أو الفني بين العناصر في صفات المرء ، هو التماثل ، والترتيب ، وهو التوافق في السلوك الإنساني . وليس أسمى الفضائل في صفاء الذهن ، أو في القوة العاربية من الأخلاق ، بل هي ائتلاف الأجزاء في كل ، سواء أكان ذلك في الفرد أم في الدولة . وهنا نجد أساساً سليماً يقوم عليه أبحاث أخرى في الأخلاق ، ولكن الفلسفة لم تتابع السير في هذا الطريق . ثم تدهورت بلاد اليونان على الرغم من وجود فلاسفة الأخلاق . حتى إذا جاءت المسيحية كان العالم بأسره مستعداً لقبول قانون أخلاقي يُقوّى بالأمل في حياة آخرة والخوف منها ما يحسه الناس من ضعف في الإيثار والعهد . وبقيت المشكلة القديمة الخاصة بأخلاق طبيعية مستقلة عن الأديان بغير حل .

٢ - الأخلاق الطبيعية

وهنا نجد أن فرانسيس بيكون هو الذي قدم مفتاح الحل ، كما فعل في ميادين أخرى كثيرة . وتجمل إحدى العبارات الهامة من كتابه « تقدم العلم »

نظرية كاملة في الأخلاق الدنيوية . يقول الوزير الأكبر : « في كل شيء نزعة إلى نوعين من الخير ، إحداهما نزعة باعتبار الشيء كلاً في نفسه (ونحن نسمى هذه النزعة بالغرائز الفردية) ، والأخرى باعتبار الشيء جزءاً من كلٍّ أعظم (ونحن نسمى هذه النزعة الأخري بالغرائز الاجتماعية) وهذه الأخيرة أهم وأقوى من الأولى ، لأنها تتجه إلى حفظ صورة أكمل » (١) ومعنى ذلك أن أساس الأخلاق ، كعدم الأخلاق ، موجود في الطبيعة البشرية . فهناك دوافع اجتماعية كما توجد دوافع أنانية ، وغرائز لحفظ الجماعة والجنس كما توجد غرائز لحفظ الذات . ويذهب بيكون إلى أن هذه الغرائز الاجتماعية هي على الإطلاق أقوى من الغرائز التي تستهدف حفظ الفرد . فإن صح هذا القول فهو ولا ريب في غاية الأهمية . وفي هذا الطريق يجب أن يتجه البحث عن أخلاق طبيعية .

وظل هذا الرأي الحديدي الذي قال به بيكون بغير أساس علمي حتى وجد عرضاً عند ظهور دارون . وقد بدت النتائج الأخلاقية لمذهب دارون أول الأمر مؤيدة للنيتشية . ذلك أن التطور إذا كان كفاحاً من أجل الحياة وبقاء الأصلح ، فالبقاء هو معيار الصلاحية في كل شيء ، ولا تستنى الأخلاق من ذلك . فلا ينجح إلا الرجل الفاضل فقط ، وتصبح القوة هي الحق مرة أخرى . ولقد فرغ هكسلي حين رأى إلى أين تقودنا نظرية التطور ، ووافق تينسون على أن الطبيعة (التي كان يعنى بها عملية الانتخاب الطبيعي) كانت « حادة الناب والمخلب » وهي في غاية العداوة لجميع المبادئ الخلقية التي رفعت من شأن الحياة الإنسانية هذا الارتفاع . فالتطور يدل في جميع مظاهره على استعباد القوى للضعيف (وكان بعض علماء التطور مثل كارل بيرسون يحتجون على الآثار السيئة التي يولدها الإحسان) . أما الأخلاق فإنها تعنى مساعدة القوى للضعيف . ويقضى التطور الكفاح من أجل الحياة بأي سبيل ؛ وتقضى الأخلاق الحد من الكفاح ، اللهم إلا داخل حدود الإنسانية والشرف . والغاية القصوى من الأخلاق هي السلام ، والمعيار الأعظم للكفاح هو الحرب . وينتهي

(١) الكتاب السابع ، الفصل الأول .

هكسلي إلى قوله : « لا يعتمد التطور الخلقى للمجتمع على محاكاة عمليات الكون... بل على حربها » (١) .

وكان اتخاذ ذلك الموقف خطيراً ، إذ لو كانت الأخلاق مضادة للطبيعة فالأخلاق مقضى عليها قضاء مبرماً . وقد كان هكسلي نافذ البصر حين رأى هذه النتيجة : « إن الطبيعة الكونية التي تولد مع مولدنا ، والضرورية إلى أقصى حد في بقائنا ، هي ثمرة ملايين من السنين من التجارب القاسية ، ومن حماقة أن نتصور أن بضعة قرون تكفي في إخضاع سيطرتها لأغراض أخلاقية خالصة » (٢) . فالمشكلة الأخلاقية ، نعى تأديب الإنسان بغير طريق الخرافات أو القوة ، لا يمكن حلها إطلاقاً ، إذا كانت الأخلاق والطبيعة متعارضتين هذا التعارض الحاسم .

ويرجع الفضل إلى دارون المتواضع في التماس مخرج لهذه المشكلة . فلم يكن الفلاسفة قد لاحظوا - وما كانوا ليلحظوا لولا أن دهم كروبوتكين (٣) Kropotkin على ذلك - أن « المحرب » (٤) الأكبر في الفصل الرابع من كتاب « تسلسل الإنسان » وضع أسس القانون الخلقى الذى يعتمد على وقائع بيولوجية لا على عقائد إلهية . كان أرسطو ويكفون على صواب ، فالإنسان اجتماعى بالطبع ، لأن المجتمعات وجدت قبل وجود الإنسان بزمن طويل ، وورثت الإنسانية العادات الاجتماعية - أى حملت الزعة الاجتماعية فى دماغها - إلى جانب الدوافع الفردية إلى المنافسة والقتال . وقد تطور التنظيم الاجتماعى ، حتى فى المراحل الدنيا من الحياة الحيوانية ، كما هى الحال فى النمل والنحل ، إلى حد من التعاون أرق من أى ضرب نراه فى الجنس البشرى . ومع تطور المجتمعات ضاق نطاق التنافس من الداخل للحاجة إلى حفظ التماسك الداخلى فى وجه المنافسة الخارجية . وأخذ تأثير الانتخاب الطبيعى يقل فى الفرد ، ويزيد فى الجماعات ؛ فقد يمكن الاحتفاظ بالضعاف من الأفراد مع نمو العادات الاجتماعية لأتباعهم فى المجتمع ،

(١) التطور والأخلاق ، ص ٨٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٤ .

(٣) Mutual Aid as a Factor in Evolution .

(٤) يشير المؤلف إلى دارون (المترجم) .

أما الأمم الضعيفة مثل أسبانيا ، والأجناس الضعيفة مثل أهل طسمانيا (١) ، والأنواع الضعيفة مثل المستدون (٢) Mastodon وإلحاموس ، فيمكن أن تهلك في الحرب والمنافسة بين الجماعات لقد وقف التطور عن أن يكون طبيعياً وأصبح اجتماعياً . وجاء بقاء الأصلح من تماسك الجماعة وقدرتها لا من قوة الفرد . وجعل التنظيم أجهزة الدفاع الثقيلة ، التي تحملها على الدوام الحيوانات المتوحدة المعتمدة على قوتها الفردية فقط وعلى دهائها في الدفاع عن نفسها ، زائدة عن الحاجة . أما في النمل والنحل حيث يكاد يبلغ التنظيم الاجتماعي حد الكمال ، فقد اختفى تقريباً حمل السلاح الفردي ، كالأنياب والأسنان والمخالب والجلد السميك . ووجد نمو الخطر الخارجي والمنافسة الخارجية بين أفراد الجماعة بضروب من التعاطف (بين الفرد والفرد) ، والشفقة (بين الفرد والجماعة) ، وحب العشرة ، وتبادل المعونة . وكان نيتشة يعد وجود النساء ضرورة اجتماعية لبقاء الجماعة ، فظهر بذلك تناقض غريب مؤداه أن عنف المنافسة والتنازع بين المجتمعات هو عنة التعاون والسلام في داخلها . فالحرب ، أو خطر الحرب ، هي التي أدت إلى ظهور الأخلاق كما أدت إلى ظهور الروح المعنوية .

وفي ضوء هذا النظر البيولوجي يصبح من الواضح بما فيه الكفاية أن أساس الأخلاق وتعريفها الطبيعيين والضروريين هو اتفاق الجزء في العمل مع الكل . إنها النظرة الشاملة التي تتعاون فيها كل رغبة مع جميع الرغبات ، وكل فرد مع أسرته ، وكل أسرة مع الدولة ، وكل دولة مع الإنسانية ، والإنسانية ذاتها مع حركة الحياة العليا . ونحن في الشباب نحاول تعريف الأخلاق في عبارات تصدر عن الفرد الثائر ؛ فنخضع العقل للقوانين غافلين عن خضوع العقل المخادع للرغبة ؛ واستعداده الحقيير للتماس الأسباب لكل عمل مشكوك فيه . إننا نتمدح الاعتماد على النفس ، والتوافق conformity والشجاعة . ونشد أغنية « الإنسان البسيط والمتوحد » ، ونقول مع إبسن المتوحد إن الأقوى هو الذي يقف وحده ، كما لو كان براند Brand أو بيرجنت Peer Gynt (٣) قد وجد الأمر كذلك .

(١) طسمانيا جزيرة صغيرة في الجنوب الشرقى من أستراليا (المترجم) .

(٢) حيوان منقرض يشبه الفيل (المترجم) .

(٣) براند و بيرجنت مسرحيتان لإبسن ، ويشير المؤلف إلى شخصية كل منهما (المترجم)

وهذا رد فعل سليم ضد عشرة الأسرة الثقيلة ، ولا يدل إلا على أن الصبي قد نضج ويرغب في إثبات وجوده في العالم . وبعد أن نجتاز مرحلة الشباب نكتشف أن « المجتمع » الذي كنا نزدريه ، والذي كنا نعارض بينه وبين الفرد العظيم ، لا يشمل شيئاً آخر سوى أفراد أيضاً ، كل واحد منهم ثمين كأنفسنا الغالية . ثم نسلم بعد مقاومة طويلة أن الأخلاق لا يمكن تعريفها بأى حال في صيغة الفرد ، ويجب علينا أن نقبل خير اجموع باعتبار أنه المعيار الأقصى الذي به نحكم (حين يجب أن نحكم) على سلوك الفرد .

أما العبارة التي وضعناها بين قوسين فهي السبيل الممهّد إلى النتيجة التي نريد بلوغها . فمتى يجب أن نحكم ؟ وكما أن أفضل حكومة هي التي تحكم أقل ، كذلك أفضل أخلاق ما كانت أوامرها أقل . وحرية الحياة نعمة عظيمة ، حتى ليعد بحق أولئك الذين يرغبون في فرض الأخلاق على جيرانهم أعداء الجنس البشري . وقد رأينا إلى أي حد من التزعزع يبلغ الحكم الأخلاقي ، وأن الأمر المنافي للأخلاق قد لا يكون إلا مرحلة انتقال تحس طريقها بين قانون أخلاقي وآخر . وفضلاً عن ذلك فهذا الزهد في الحكم الأخلاقي « يوصف » لعلاج الرجال والنساء المصابين بالعقرية . فمثل هؤلاء الأشخاص ، كما يقولون ، تعزهم الطبيعة لتجربة أساليب جديدة من العمل والشعور والتفكير . فإذا أخضعناهم لأخلاقنا الاجتماعية المألوفة والضرورية كنا كمن يبطل الغرض نفسه الذي من أجله وجدوا . ولسنا في حاجة إلى أن نكون أكثر قسوة مع هؤلاء العباقر من البابا بولس الثالث الذي قال حين نصّح بسجن شليني (١) Cellini لما ارتكبه من أعمال القتل في ساعة من الحماسة : « يجب أن تعلموا أن قوماً مثل بنفنتوتو Benvenuto الأفاضل في مهنتهم هم فوق القانون » . فلنبسط على عباقرتنا بعض التساهل الذي تمنحه لأصحاب الملايين عندنا .

لقد انتهينا بعد انحراف إلى نتيجة من أقدم النتائج وأشدّها احتراماً ، وهي أن معيار الأخلاق هو الصالح العام . ولكن لا ينبغي أن يخذعنا النظر البيولوجي

(١) بنفنتوتو شليني (١٥٠٠ - ١٥٧١) نحّات مشهور إيطالي ولد في فلورنسا ، ودعاه فرانسوا الأول إلى البلاط ، وله تماثيل مشهورة في فونتنبلو (المترجم) .

فنفترض أن غرائزنا تتفق مع العقل . فالطبيعة لا تعرف جماعة ولا أخلاقاً إلا مايتصل بالخلية والأسرة والقطيع . لقد كان بيكون ودارون و كروبتكين متفائلين في اعتقادهم أن الغرائز الاجتماعية أقوى من غرائز الذات . وقد يكون الأمر كذلك داخل الأسرة حيث نجد التضحية بالذات أمراً طبيعياً ولا تحتاج إلى موثر من خارج أكثر من الحب أو المدح . أما خارج هذا الميدان الصغير فالدوافع الفردية هي المحركة لنا في سلوكنا ، ولئلك كانت البطولة heroism متصفة بالنجدة heroic لندرتها . وهذا هو السر في ابتداع المجتمع شبكة واسعة من النظم التي تقوى الدوافع الاجتماعية كالدين ، والتعليم ، والنشرات ، والتماثيل المقامة في الميادين . ولسنا أكثر الأنواع ميلاً إلى الاجتماع ؛ فنحن في وسط الطريق بين فردية حيوان الغابات وتعاون النمل . وأقصى ما يمكن قوله في هذا الصدد هو أن الغرائز الاجتماعية – التي تبدو أحدث من حيث أصلها من المنافسة والاكتساب ، وأضعف مؤقتاً بسبب تدهور الدين والأسرة – آخذة في التقوى ببطء . مع نمو قيمة التعاون وأثره في البناء . وفي المستقبل البعيد لعل أولئك الذين تعلموا العمل مع أقرانهم في ائتلاف وعدل يقضون على أولئك الذين يتعاطشون إلى التملك الفردي وإلى السلطان . ولكن سنكون عندئذ قد انتقلنا إلى عالم آخر .

وإذا كان المحافظون راضين كل الرضا عن صيغة هذا المبدأ الخلقى ، فليتأملوا بعض نتائجه . فلا شيء ، يناق الأخلاق إلا إذا أضر بأقراننا ، وبناء على ذلك فالانتحار في بعض الظروف ليس جريمة . وإذا اعتقد المرء أن الموت نعمة ، وأنه أدى واجبه نحو بني جنسه ، ولم يخلف من بعده محروماً أو عاجزاً ، فحياته ملك نفسه يفعل بها ما يشاء . ثم إذا دعتنا الغريزة أو اللذة فلا ضير من تلبية نداءهما بشرط ألا يصاب أحد أقراننا بأذى ، وبشرط ألا يصيبنا نحن أى ضرر جسمي أو عقلي على حساب الجنس . وليس « للجريمة » أى معنى إلا إذا تعرض صالح المجموع للخطر .

ويجب أن نسلم آخر الأمر بأن التعاون الذي تقوم الأخلاق على أساسه لا ينشأ من نمو النفس بمقدار ما ينشأ عن اتساع ضروريات الحياة الاقتصادية .

فكما تخرج الزهرة من الأرض ، تنتشر الأخلاق مع ازدياد الوحدات الاجتماعية والاقتصادية . ويزداد المجموع الذي يجب أن تتعاون الأجزاء وإياه على السلامة عظماً ما دام نسيج العالم يغزل من وحدات يتزايد عظمها مع انتشار القطارات والبرق والسفن وأمواج الأثير التي تربط أطراف العالم . لقد أحالت التجارة والمصالح المشتركة القبائل في الزمن القديم إلى أوطان ، وانحلت الأخلاق القبلية فلا يتبعها إلا سفلة القوم . وشيئاً فشيئاً تحيل التجارة والمصالح المشتركة الأوطان إلى جماعات وطنية مترامية الأطراف ، وتصبح أساس أخلاق دولية . وسوف يؤمن العالم في المستقبل القريب بأن الوطنية ليست كافية .

٣ - ميزان الأخلاق

هناك إذن ميزان خلقي يبدو صالحاً في كل مكان وزمان مهما اختلفت الألسنة التي تنطق . ولكن كل حل هو أيضاً مشكلة ؛ إذ لا نكاد نبلغ تعريفنا الأخلاق أنها تعاون الجزء مع الكل حتى تبرز مئات الأسئلة . أي جماعة سنتعاون وإياها ؟ مع الأسرة ، أو الدولة ، أو الإنسانية ، أو الحياة ؟ وماذا نحن فاعلون إذا تنازع حلقاؤنا ؟

عندما يبلغ المرء الأربعين من العمر يصبح أعظم همه أن يتصور الأخلاق في إخلاصه لأسرته فقط . وليس معنى ذلك أنه يعيش بهذا التصور فقط ، إذ لو فعل ذلك فأكبر الظن (كما رأى كونفوشيوس) أنه لن يحتاج إلى أى أخلاق أخرى . ولو نمت الدولة نمواً عظيماً حتى تبتلع حقوق الأبوة ووظائفها الواحد بعد الآخر ، فليس ذلك فقط لأن الحياة الاقتصادية أدت إلى تطور العلاقات والمنازعات المعقدة التي تحتاج إلى سلطة منسقة وحاكمة في قلب الجماعة ؛ بل أيضاً لأن فردية الصناعة قد ضعفت سلطان الأبوة وانتزعت من الأسرة مهامها القديمة . فعندما كادت كل أسرة أمريكية أن تكون مملكة اقتصادية ، تزرع طعامها ، وتغزل لباسها ، وتقتل بنفسها الهنود الحمر ، وقل أن تتعامل مع غيرها من الجماعات ، فقد كان من الممكن أن تكن أخلاق الأسرة . فإذا كان الأب فاضلاً ، والأم صالحة ، وسلم الأبناء بسلطة الأب على أنها السلطة

العليا ، كانت الأسرة وحدة قوية في النظام الاجتماعي تبلغ من الاكتفاء الذاتي حدًا يجعل الدولة إلى جانبها كمية ضئيلة تكاد أن تكون مهملة . ولك أن تتخذ من الصين مثلاً يوضح ما نذهب إليه . أما إذا تمزقت أوصال الأسرة ، أو إذا لعبت العلاقات بين أفرادها وغيرهم من الأفراد والجماعات دوراً حيوياً في حياتها الاقتصادية والحلقية ، انهارت عندئذ الأخلاق الطبيعية القديمة ، فقد يكون الرجل كريماً مع أبنائه ، قاسياً لا يرحم عماله ؛ وقد يبيع الرجل وطنه من أجل حفنة من المال ، ويكون مع ذلك نموذج الزوج والأب . وقد يلجأ الرجل إلى السرقة أو الغش خلسة ليقتني من المال ما يسد به حاجة زوجته ، ويمجد مع ذلك في كل كنيسة يذهب إليها . فأخلاق الأسرة ليست كافية .

فهل نحن مساقون إذن إلى أحضان الدولة المشرفة على كل شيء ؟ أنجب أن يدوب قانوننا الخلقى ولاء للسانة - لرئيس الضبط ، وقائد المنطقة ، و « المنظمة » ، والحاكم ، وعضو الشيوخ ، وقائد الجيش أو الأسطول ؟ هنا هو الجواب الذي يقول به رجال السياسة . ثم تُسكت الدولة وهي مؤيدة بالسلاح وثقة الناخبين كل صوت يرتفع للحد من سلطانها . وفي ذلك كثير من الحق ، إذ إلى أن يصبح النظام العالمى حقيقة واقعة ، وتنظم الإنسانية بحيث تأمن وتؤمن إخلاص الفرد ، فلن تكون الأخلاق المثالية الكاملة - أى تعاون الجزء مع المجموع الكامل - إلا مجرد نصيحة لتحقيق الكمال ، كالأمر بعدم مقاومة الشر . فكل نظام في العالم يجب أن يستند إلى القوة حتى تظهر جماعة أكبر . فإذا كانت الحال على وجه الأرض كما نرى من تزايد عدد سكانها وتحركهم بغير رقابة ، وتهافت أهلها للحصول على أفدح الأجور محطمين كل تجربة في مكافحة الفقر ، فمن الخير أن تحمى أعلى وحدة منظمة نفسها من عدوان الوحدات الأدنى ، كما يجب على الإنسان مهما يكن مخلصاً للحياة أن يحمى نفسه من الحيوانات المتوحشة . ومن الخير على مر الزمن لسائر البشر أن تحمى الطبقة الممتازة نفسها على هذا النحو ، إذ لا غنى في التطور عن وجود فئة ممتازة تكون نموذجاً يحتذى مثاله . فإلى أن تبتدع الصناعة لوناً من الرقابة الدولية ، فإن المجموع

الذى يجب أن تتعاون وإياه ، والذي لا يجب أن تضر بمصالحه ، سيكون المجتمع الوطنى (١) .

ولكن ضميرنا لا يزال ناقص التكوين حتى في داخل حدود هذا المجتمع الأصغر . فهناك أخلاق للصناعة والسياسة ، كما توجد أخلاق للحب والزواج . وأولئك الذين يتدمرون من أهواء الجنس في الوقت الحاضر قد يكونون ممن يختلسون المنافع أو يخونون الأوطان . إننا نغضب لفساد الفتاة ، ولا نجد في قلوبنا الشجاعة للزج بالمفسدين في غياهب السجن . إننا نفترض الرقابة على الكتب ، ولا نحفل بأصحاب مصانع السلاح الذين يشرون الحروب . والصعوبة الوحيدة التي تلفت النظر من بين الصعوبات غير الجنسية التي تواجه الأخلاق اليوم هي تلك الخاصة بشرب الخمر إلى حد السكر . ولا ريب في ظهور نتيجة أخلاقية عن ذلك ، لأن الخروج على القانون، معارضة لقانون هو موضع خلاف، مما يضعف النسيج الخلقي للجماعة بأسرها . ومن دلائل عدم نضوجنا أن تدور أحاديثنا ومعاركنا بالجدل حول شرب الخمر ، في الوقت الذي تفسد فيه مشروعاتنا الجوهرية لحاجتها إلى العناية والفهم .

ها نحن أولاء بإزاء أضخم نظام صناعى عرفه التاريخ، فماذا يحدث لو أنه أدير بغير تفكير صادر من الجميع ، وبغير نظر إلى السياسة الصناعية والتجارية والمالية وأثر ذلك على مستقبل الوطن والجنس البشرى ..؟ أهذا شيء يسير؟ عندما نقول : « الشغل شغل » business is business نغنى في أكبر الظن أن الشغل لا يعرف الأخلاق ، وأن العملية الصناعية بطريق الإنتاج الواسع النطاق ، بصرف النظر عن أصحاب العمل والمنافسة غير المشروعة ، قد أصبحت غير إنسانية وغير شخصية ، أصبحت نظاماً آلياً للشراء الرخيص والبيع الغالى ، أصبحت آلة تحيل المدارس (ورشاً) ومصانع عسكرية ، تؤثر استخدام النساء

(١) ليس معنى ذلك أن قيودنا الحماية المفروضة على الهجرة معقولة أو عادلة . بل على النقيض ليس هذه القيود فيما يبدو أى أساس آخر سوى الخوف والتعصب الجنسى . وسوف يجد رجال الدولة الهجرة ، ومن المحتمل أن يشتد تقييدها عما هو اليوم حتى تتم القضاء على البطالة . ومع ذلك فلن يتم هذا التقييد بالتمييز العنصرى الباطل الذى لا يعتمد على أى سند من العلم ، بل برفع مستوى الصحة والثقافة المطلوب من المهاجر .

على الرجال ، والأطفال على النساء ، وتهدم كيان الأمة وأخلاقها . . . ولكنها تجنى أرباحاً . وهذا التصور عن الحياة الاقتصادية صحيح بالنسبة إلى الطبقة العاملة ، كما هو صحيح بالنسبة إلى أصحاب المصانع . فصاحب المصنع يفكر في مصلحته الذاتية أو في مصلحة طبقته ، وقلما يفكر في صالح المجموع . فكل فئة لها « مثلها » ، ولكن المثل الأعلى في الصناعة أو السياسة هو عادة الرغبة المكبوتة لطبقة من الطبقات تغلف في أثواب كريمة من العقل . ومعظم نظرياتنا الأخلاقية ليست إلا أفكارنا نحن لما ينبغي أن يكون عليه سلوك غيرنا من الناس .

ولقد قال ناسو سنيور Nassau Senior : « علم الاقتصاد علم الثروة لا الرفاهية » . ومعنى ذلك أن الصناعة يجب أن تقصر نفسها على إنتاج أكبر قدر ممكن من البضائع بصرف النظر عن النتائج التي تصيب المنتج أو المستهلك . وكان علم الاقتصاد سابقاً أفضل ولو أن كارليل وصفه بالكآبة . وكان ذلك العلم يسمى نفسه « الاقتصاد السياسي » ، واعترف بأن الاقتصاد على صلة بالهيئة الحاكمة . وشاع في بعض الأوقات الحديث عن « حقوق » الإنسان . ومع أن هذا الاصطلاح فقد الآن ما كان له من شهرة إلا أنه كان يصيب كبد الحقيقة ويدل على قيمة كبيرة ، وهي أن ثمة بعض الحاجات يتطلبها الفرد أو الطبقة من المجتمع ، وأن هذه الحاجات إذا أشبعت تؤدي إلى صالح المجموع . ومن المعقول أن مثل هذا الطلب قد يسمى « حقاً » . فإذا كانت الزراعة مثلاً ضرورية لسلامة الوطن من الحصار والمجاعة ، فللفلاحين عندئذ « الحق » في معونة حكومية قد يحتاجون إليها للاحتفاظ بمستوى معتدل من الحياة . وقد أخذت إنجلترا تعي هذا الدرس . وإذا كانت الصناعات الكيماوية تفسد صحة العمال ، فلهؤلاء العمال « الحق » في كل حماية تستطيع الدولة تقديمها لهم ، لأن صحة مواطنيها تخص الجماعة كلها . وإذا كانت النساء قد أصبحن غير صالحات للأمم بما يشغلن من وظائف ، فمن الحق أن تحمي الحكومة من ترغب منهن في الحماية . وإذا اتبع المخترعون والتجار من الأساليب ما قد يثير عداة الدول الأجنبية ضد أمريكا . فمن حقنا إخضاع مثل هذه الاختراعات والتجارات للوائح الحكومية . ففي كل خطوة تؤثر العمليات الاقتصادية على ثروة المجتمع وتصطدم بالأخلاق .

ولكن الأداة الوحيدة في الوقت الحاضر التي يمكن عن طريقها إخضاع الصناعة للمصالح العام هي الدولة . وليست الدولة أمراً أخلاقياً ، بل مزيجاً دائماً التغير من المنتخبين . ويتطلع المصلح إلى حكومة مطلقة القوة ناسياً أن مثل هذه الحكومة تقتضي حكماً سياسياً مطلقاً . ولخير ألف مرة أن يبتدع الناس أساليبهم الخاصة في التعاون والرقابة من أن يعتمدوا على العمدة ورجال البوليس . ولعل نظاماً اجتماعياً في سبيله إلى الظهور مقتصرأ على طبقات العامة في التوزيع ، وعلى الجمعيات التعاونية التي تتكون كل عام (وتكاد أن تفشل كل عام) حتى يسد الثغرة الواسعة ، ويتجنب جيش الوسطاء المتزايد بين المنتج والمستهلك . وهنا نجد أن الاقتصاد يمس الأخلاق مرة أخرى ، ويتحمس فلاسفة الأخلاق للفكرة القائلة بأن مجهود وتجربة قرن آخر قد يستبدل المنافسة الفردية بالتعاون الذي يجب أن نعتمد عليه في تسيير أمور العالم . إن صورة قوم يعملون معاً ، ويوظفون الفنيين والإداريين جنباً إلى جنب ، ويقسمون الأرباح والخسائر سوياً ، قد تبدو بعيدة عن الحقيقة ، كما بدت صورة التعاون الحديثة بعيدة التحقيق أيام أن كانت الصناعة آخذة في الظهور .

وغرائزنا فردية على الإطلاق (١) ، ولكن منظماتنا وحاجاتنا الاجتماعية تصوغنا أكثر فأكثر نحو التعاون . فالصناعة الحديثة أكثر رحمة بالنسبة إلى فظاعة نظام المصنع منذ مائة سنة مضت . فالرفاهية أصبحت جزءاً في كل مؤسسة حديثة ، وأخذت الصناعة تمول بجانب كبير من أرباحها المستشفيات والمدارس والمكتبات والبحوث العلمية . ولا يزال العالم يلد القديسين ، وما زلنا نقابل أهل النجدة في كل ركن من الشوارع ، ويمكن أن نجد الفتاة ذات الحياء إذا رغبتنا في البحث عنها ، وتزوي الأمهات الصابرات في آلاف البيوت ، ونقرأ عن منافسة البطولة للجزيرة في الصحف اليومية . فهذا فيضان يغرق البلاد ، وإذا بآلاف من الناس يهبون للمساعدة ، ويساهم الملايين في تقديم المعونة المالية . وهذه أمة يصيبها القحط وتتعرض للموت جوعاً ، فيسرع أعداؤها لنجدها . ويضلل الحوَّابون الطريق فيعرض زملاؤهم أنفسهم للخطر إنقاذاً لهم . الحق لم

(١) هذا يناقض ما ذهب إليه المؤلف قبل ذلك من أن بعض غرائزنا اجتماعية . (المترجم) .

يستطع أحد أن يبلغ أغوار قوى الإنسان في سبيل الخير . فورا ما عندنا من فوضى وما نرتكبه من جرائم تقوم الشفقة المتأصلة في النفس الإنسانية . إنها تنتظر حتى تزول الثورة العابرة ، ثم يظهر نظام جديد من الأخلاق يتحسس طريقه بالتجربة ليرفع بالنفس إلى مراتب الشرف والنبيل .

٤ - الأخلاق الكبرى

أكبر الظن أننا في الوقت الذي ننتحي فيه جانباً نتأمل الأمور في سخرية ينشأ عالم من النظام العالمي تحت بصرنا دون أن نراه . وهو عالم تخلقه التجارة والتمويل ، وذلك بالرقابة على الاستثمار ، والرغبة في ضمان المدين وازدهار السوق . وليس العمال هم اليوم أكبر أعداء الحرب ، بل أصحاب الملايين . وإن كنت في ريب مما نقول فاستمع إلى تهليل الجمهور حين تتحدث الحكومة عن الحرب . ثم ارقب آلة تسجيل الأخبار وانظر كيف تشل آلاف الأعمال خوفاً كلما انتشرت أنباء الأعداء . ولم يكن الأمر كذلك فيما مضى من الزمان ، ولكنه يجري على هذا النحو الآن .

وهنا بالضبط ما كان العالم ينتظره ، نغني أن شبكة التبادل التجاري الكبرى ، التي وحدت بين الولايات ، وجعلت من الدول إمبراطوريات ، يجب أن تبنى آخر الأمر نظاماً عالمياً اقتصادياً . ذلك أنه كما أن الانفعالات المثالية في الفرد تكون ضعيفة ومزعزعة إذا لم تقم على أساس فسيولوجي طبيعي ، كذلك الآراء الخلقية والسياسية لا تقف على أقدامها في ثبات إلا إذا قامت على حقائق اقتصادية . وحين يكون لنا نظام عالمي اقتصادي سيكون لنا نظام عالمي سياسي . فإذا تم لنا هذا النظام العالمي السياسي سيكون لنا أخلاق عالمية . فالضمير يتبع رجل البوليس ، لأنه ينشأ من الخضوع للنظام ، وينمو مع التعود . ومن الواضح أن نظاماً عالمياً آخذ اليوم في الظهور . ونحن الآن كلما بدا لنا الصالح الوطني معارضاً لمصالح البشرية ، فليس ثمة ما يمنعنا من الولاء للإنسانية ، ومن التسامى بالأخلاق والدبلوماسية إلى ذلك الشعور بالمجموع وهو سر الحياة الفاضلة ، كما أنه السبيل الذي يهتدى إلى الحكمة ، والمعيار الذي يزن الحق .

من أجل ذلك فلنرحب بكل تجربة ، ولنشجع كل محاولة تتجه نحو نظام العالم الجديد . وليستمر العلم في تنظيم نفسه على أساس يتجاهل الحدود . وليجدد العمل عهوده التي نقضت ضد الحرب . وعلى الرغم مما في عصبة الأمم (١) من ضعف ، وجبن ، وإبعادها روسيا ، ودستورها المستحيل التحقيق (عن قصد) فلننضم إلى العصبة نقويها بالتعاون ، ونضع حداً لنزعتنا الإقليمية ، ونعرتنا الوطنية ، وتنافسنا على التسليح ، وحلم بعض الأوغاد للسيطرة سراً على العالم . الحق أننا نجد هنا - كما قال ميرابو - الأخلاق الصغيرة هي علو الأخلاق الكبيرة . La petite morale est l'ennemie de la grande . فلا يمكن أن نتوقع من الدولة أن تلقن الضمير العالمي لأبنائها في المدرسة ، ما دام خطر الحرب قائماً . أما نحن أحرار الفكر البعيدين عن الأحزاب فما بالنا نظل منقسمين على أنفسنا في هذه المسألة ؟ ما الذي يمنعنا من قبول الأخلاق الكبرى ، ومن الولاء لسائر ألوان الحياة ؟

وخلف هذا الانقسام المستمر بين الأحرار توجد الفردية التي تختفي كالسوس الذي ينخر في عظام كل حرية . فأشهر المحامين عن المجرمين الأمريكيين (٢) يطرب لسخف عصبة الأمم ، على أساس أن نظاماً سياسياً يتجاوز حدود الأوطان هو ضرب آخر من الطغيان ، وأن انفصال الدول ، وتجارها بين حين وآخر ، أفضل من سلطة سياسية هائلة قد تقف كما يقف الطاغية غير المسئول في سبيل تفكير البشرية وحركتها . وهذا شك صادق ومعقول . ولكن إذا كان قد أمكن التجاوز عن هذه المخاطر بتوحيد المستعمرات ، فلا بأس من مواجهة هذه المخاطر ذاتها بتوحيد الدول اليوم ، وقد بلغ العلم حداً يستطيع معه في يوم واحد أن يحو جيوشاً بأكملها ، وأن يلمر مدناً بأسرها ، وأن يرد كل حياة ، وكل نظام ، وكل حرية ، وكل فكر إلى مستوى الهمجية مرة أخرى . إن الخطر على الحرية يكمن في الحكومات الضعيفة لا القوية . ذلك أن الدولة لا تقيد الحريات إلا حين تشعر بالخطر الذي يهددها . وعلينا أن نختار بين سلم روماني أو عالم بقلاني .

(١) كتب هذا الفصل عام ١٩٢٧ .

(٢) هو كلارنس دارو Clarence Darrow

هـ - الحياة الجنسية والأخلاق

لا شيء يحزن له صاحب المذهب الفردي كهذا التعريف للأخلاق الذي يكاد يكون فسيولوجياً بأنه التعاون بين الأجزاء والمجموع . سيحتج بأن الأخلاق الوحيدة الصحيحة هي الذكاء (١) ، أو يمتضى إلى آخر الشوط ويقول مع أناتول فرانس : «الصحة هي الأخلاق الوحيدة L'hygiène est la seule morale» ولكن المجرم قد يستعمل جميع وسائل النظافة ، ومع ذلك يحصل على ثروة كبيرة من الاتجار في المخدرات . وقد يكون رئيس وزراء فرنسا على ذكاء نادر ومقدرة ممتازة ، ومع ذلك يقتل مليوناً من الفرنسيين ليفرض ضريبة على الألزاس واللورين . وقد يقلب الفسق النظيف الزواج إباحية ، والأطفال كلاباً مدللة ، والرجولة الوطنية انحلالاً . قد يكفي الذكاء إذا كان كاملاً ، وأمكن أن يستحيل إلى حكمة . ولكن ماذا نعمل في انتظار كماله ؟ سيسرق الناس ويقتلون ويموتون قبل أن نجعل منهم فلاسفة . كلا ، يجب أن نبدأ بالشباب ونعلمهم التعاون في صبر . يجب أن نبث التعاون في عادات الفرد الناشئة وشعوره . يجب أن نلتصم بطريقة ما نعطي بها حتى الأذكاء، من الناس المعنى الرادع للمجموع . ومن يدري لعل هذا المعنى لا يختلف في النهاية كثيراً عن الذكاء الحقيقي ، ذلك أن النظرة الكلية للفكر ستشمل النظرة الكلية للمجتمع ، وسوف يؤدي الفهم إلى الولاء .

بل إن خلفاءنا الصغار سوف يفهمون حين يكبرون أنه ما دامت حياة الجماعة تقوم على صفات الجنس والعناية بتربية الأطفال ، فينبغي أن تخضع شهواتنا الجنسية لبعض القيود الأخلاقية . قد نتجاوز عن لا أخلاقتنا المتكررة ، وقد نرغب في دراسة ألوان من الشذوذ الجنسي كالجنسية المثلية ، ومباشرة الحيوانات ، وعشق القذارة . . . وقد نبتم حين نرى على المسرح محاولات جريئة تتحسس على غير هدى ضرباً آخر من القانون الخلقى . ولكن قلوبنا لن ترضى عن أى أخلاق تتجاهل الجماعة . وإنا لنشعر عقب أى فعل يتنافى مع

(١) كما فعل المؤلف في كتابه « الفلسفة والمشكلة الاجتماعية » .

المجتمع بالحاجة إلى حياة أصح وأنظف، ونحن في حاجة إلى حياة لا نعرف فيها لذات البدن فقط، بل رضا النفس الناشئ عن حسن الصحة والتعاون. نريد أن نكون حيوانات سليمة، كما نريد أيضاً أن نكون مواطنين.

أيمكن أن نعمل شيئاً لنبدل أخلاقنا من الفوضى إلى النظام، ومن الترخص إلى المسئولية؟ ولا ينبغي أن نجسم تأثير الجدل والآراء في هذا الأمر. فهذه التغييرات في العلاقات الجنسية لم تنشأ عن طريق التفكير، ولن يخيفها منطقنا. ذلك أننا نواجه عملية غير شخصية تختص بالتحول الاقتصادي وأثره على الحياة الخلقية. فإذا لم يساير فكرنا ذلك التيار من الاختراع الذي يحدد مجرى التاريخ، فسوف يلقينا التيار على الشاطئ، مستقبمين ولكن عاجزين.

ومع ذلك فلن تدعنا شهوة الفهم في راحة، إذ علينا أن نتحى بهذا التغيير الخلقى جانباً، فنحلل أسبابه ونتأمله. ولن نفقد الأمل في أن المعرفة هنا أيضاً هي القوة، وأن الوضوح مطية الأحكام، فلنبداً من البداية، ولننحص تلك الشعلة من الحب التي تنفذ في كل قانون خلقى، وتستهلك الفرد، وتحفظ الجنس. ولندرس صفات الجنسين، لنبين طبيعة هذين الكائنين الغريبيين - الرجل والمرأة - اللذين يولد تجاذبهما وتنافرهما مشكلات الأخلاق الجنسية. ولنتأمل بعض الوقت المرأة المتحررة، وننظر في أثر تحريرها المفاجيء على أخلاق هذا العصر ومستقبل البشرية. وسنكون بعد ذلك مستعدين لمواجهة إخفاق الزواج مسلمين بشيء من العلم بأصله وأسبابه. وسنقدم في تواضع بعض الاقتراحات للتوفيق بين هذا النظام العسير وبين سعادة المرء وصحة المجتمع. وأخيراً سوف نزل الأخلاق من السماء إلى الأرض، ونناقش تربية الأطفال وتكوين الخلق. وبهذا تكمل الدائرة.

الفصل السابع

الحب LOVE

١ - لماذا نحب ؟

الحب باعتراف جميع الناس أمتع صور التجارب الإنسانية جميعاً ، ومع ذلك فمن الغريب أن يعنى عدد قليل جداً من المفكرين ببحث نشأته ونموه . وما أكثر ألوان الأدب التي تحدثت عن الحب في كل لغة وبكل أسلوب ، من أناشيد ، وتمثيلات ، وقصص ، وشعر يزخر بالعاطفة ، ومع ذلك ما أقل المباحث العلمية وما أندر الجهود التي بذلت لفحص هذه المسألة العجيبة فحسباً موضوعياً ، ومعرفة أصلها في الطبيعة ، والكشف عن أسباب نمو الحب العجيب من اندماج البروتوزوا البسيط إلى إخلاص دانتى ، وهيام براروك ، ووفاء هلويز لأبيلارد . نعم لا نزاع في اشتياق الرجال إلى النساء ، وفي أن الحب « الذي يحرك الشمس وغيرها من الكواكب » يتسامى بالنفس إلى ضرب من الرفعة أعلى من غايات الحياة . ولكن لم كان ذلك ؟ لقد أعلن الشعر وجهة نظره فذهب إلى أن الحب ينبع منذ الأزل من قلب البشر . ولكن أين يوجد ينبوع الخفي لمساء الحب ؟ لماذا يهتاج الفتى عند رؤية خصلات الشعر المهدلة فوق الحاجب ؟ أو عندما تلمس أصابع المرأة ذراعه ؟ أليكون ذلك لأن الفتاة جميلة ؟ ولكن ألا يخلق حبه جمالها ، كما يخلق جمالها حبه ؟ ولماذا يحب ؟

ولست تجد في أمور الإنسان أغرب من إقبال الرجال - مع ما في ذلك من خوف - على مطاردة النساء ، اللهم إلا أن يكون استعداد النساء - وهذا من جانبهن رزاة - لقبول المطاردة . ولست تجد في سلوك الإنسان أثبت من نظرة الرجل الفاحصة التي يرمى بها المرأة في كل لحظة من النهار . تأمل هذا

الحيوان الخاتل وهو يختلس النظر إلى فريسته زاعماً أنه يقرأ في الصحيفة . استمع إلى حديثه وكيف يدور به حول صيده الأزلي . تخيل ما يتخيله في خياله وكيف يرفرف حائماً حول هذه الشعلة المغناطيسية . فلماذا ؟ وكيف حدث ذلك ؟ وما جذور هذه الرغبة العميقة . والمراحل التي اجتازتها حتى بلغت ما هي عليه من سمو وجرأة ؟

فلنجازف بالبحث عن إجابات لهذه الأسئلة التي لا تخطر أبداً على بال المحبين . ولنضم أطراف هذا العلم بقدر ما نستطيع راجعين إلى ستندال ، وإليس Ellis ومول Moll ، وبولش Bölsche ، وديجور مون De Gourmont ، وفرويد ، وستانلي هول ، لنرى أيمكن أن نركب صورة فيها نظرة شاملة تكشف عن وظيفة الحب ومعناه . ولنتبع بقدر الطاقة الطريق الذي يسير الحب فيه .

٢ - من الناحية البيولوجية

كما تدور حياة الفرد بالتبادل بين الجوع والخب ، كذلك الحياة في مجموعها تدور على التغذية والتناسل باعتبارهما المركزين الكبيرين في فلك الحياة . فالتغذية سبيل إلى التناسل ، والتناسل طريق إلى التغذية . فنحن نأكل كي نعيش ، وننضج ، ونحقق أنفسنا عن طريق الأبوة . وبالتناسل تنفصل من جسدنا الصائر إلى الموت حياة جديدة فيها القوة على التغذية والنمو من جديد ، ولعلها تبلغ في المستقبل هيئة أبداع مما كانت عليه من قبل .

ومن الواضح أن النمو في أبسط الخلايا هو الدافع إلى الانقسام ، الذي يعد أخطر أنواع التناسل . ذلك أن جسم الخلية ينمو أسرع من غشائها الذي تتغذى من خلاله . ولكي تحتفظ الخلية بالتناسب بين جسمها المتزايد وغشائها تنقسم قسمين ، بحيث يتكافأ الغشاء مع الجسم . وإذا كنا في التفسير العلمي نلجأ إلى افتراض نظرية من النظريات فهذا الانقسام نفسه من الوقائع التي لا تحتاج إلى تفسير . فالبكتريا - وهي أصغر الكائنات الحية المعروفة - تتكاثر بالانقسام ، ثم تكرر الانقسام إلى الحد الذي يتعب الدهن من حسابه . وتنفصل

عناصر جسم الأميبا المركزي ، أو النواة ، انفصلاً غريباً إلى نواتين ، ثم تنقسم الخلية كلها وتكون أميبتين جديدتين . فهذه أبوة ، ولكن تمايز الجنسين يوجد بعد ، وأكبر الظن لا يوجد حب .

مثل هذا الانقسام للكائن الحي قسمين هو جوهر حيلة الطبيعة للاستمرار في الحياة ، حتى في الحيوان العاقل *Homo sapiens* . ومع أن الطبيعة تتطور بهذه الصيغة إلى آلاف من الصور المعقدة إلا أنها لا تهجرها أبداً . ويسود هذا التوالد عن طريق الانقسام البروتوزوا (أى الحيوانات ذات الخلية الواحدة) . فالهيدرا^(١) *Hydra* الصغيرة تبرعم من ساق هيدرا أكبر ، وتنمو بالتغذى من حياة أبيها ، حتى إذا تم نضوجها برزت للبحث عن الغذاء فتنافس الكائن نفسه الذى برعمت منه . وأخيراً تنفصل في حرية ، وتلتمس مكاناً آخر ، وهيء لنفسها معيشتها .

وفي بعض الأحيان تبقى خلايا البروتوزون المنقسمة كالحال في بعض الفطريات *Volvox* مستقرة في قالب هلامي وتكون « مستعمرة colony » . وعندئذ يظهر تميز غريب في الوظيفة ، إذ تخصص الخلايا الخارجية بالتغذى ، والداخلية بالتناسل . وتصبح المستعمرة كائناً اجتماعياً تعتمد أجزاؤه بعضها على بعض وتتعاون . فنذ بداية مظهر الحياة ، تقدم الحياة لنا مثالا عن « انعزال جرثومة البلازما » ذلك الانعزال الذى أقام فايسمان *Weismann* على أساسه النظرية السائدة الخاصة بالوراثة في الإنسان .

ولكن مع أن الانقسام عام إلا أنه لا يكتفى ، إذ يأتى وقت بعد عدة أجيال يبدو فيه أن البروتوزوا التى تكرر انقسامها تفقد الطاقة اللازمة لتكوين كائنات جديدة . وهنا تظهر ظاهرة جديدة ، إذ تتحد اثنتان ضعيفتان من البروتوزوا ، وتصيب كل منهما من نواتها تياراً من البروتوبلازما ينفذ إلى جسم الأخرى . ثم

(١) اسمه الشجاع - بالعربية (قاموس شرف) وهو ثعبان مائى متعدد الرؤوس ، إذا قطعت إحداها نمت أخرى . أو هو جنس من الديدان المائية التى تتكاثر بالانقسام . وفي حياة الحيوان للميرى : الشجاع الحية العظيمة وتزعم العرب أن الرجل إذا طال جوعه يعرض له في البطن حية يسمونها الشجاع (المترجم) .

تنفصلان، ويظهر مع الغرابة أنهما قد قويتا بهذا « الزواج المحدد للشباب » ، إذ تنقسم كل منهما بقوة فطرية ، ويحقق الانقسام لعدة أجيال مرة أخرى أغراض استمرار الحياة . فالشأن في البروتوزوا في هذه الحالة شبيه بأنفسنا الإنسانية وجماعاتنا ، إذ يقوى المرء عندما يتزوج ، ويتجدد شـباب الأجناس عندما تختلط .

وعلى ما في هذا الاتحاد البسيط من دلالة فهو لا يشبه ذلك الزواج بين الأفراد المختلفة ، وهو أصل زهرة الحب . يمكن أن نجد مثيلاً لذلك في الحيوانات الدنيئة ؟ نعم ، نقرب من ذلك في البندورينا *Pandorina* ، وهي مستعمرة بروتوزوية مكونة من ستين خلية ، وتنقسم كل منها لا إلى خليتين مستقلتين ، بل إلى أجزاء متناهية الصغر أو إلى « خلايا جرثومية Spores » كلها متشابهة فيما يبلو ، ولا ينشأ كائن جديد إلا باتحاد جرثومتين . ولنتقل إلى مستعمرة بروتوزوية أخرى هي الإيدورينا *Eudorina* فنجد الظاهرة نفسها ؛ إذ تنقسم كل خلية إلى جراثيم مختلفة ، بعضها كبير وساكن ، وبعضها صغير ونشط ، ولا يتكون كائن جديد إلا عندما تنفذ جرثومة صغيرة في داخل جرثومة كبيرة . ففي الإيدورينا تبدأ الطبيعة في اكتشاف الجنسين .

وهنا نجد أن الطبيعة تتردد بعض الوقت ؛ ففي بعض الفطريات نرى طريقة التناسل القديمة تتبادل بغيره مع الطريقة الجديدة . ففي الجيل الأول تتكاثر خلايا المستعمرة بالانقسام المعروف ، ولكن خلايا الجيل الثاني التي حدثت بالانقسام ، تتكاثر كالإيدورينا إلى جراثيم غير متشابهة ، ويجب أن تتحد جرثومتان لتكوين خلايا الجيل الثالث . وهكذا لا يمكن أن يستتب أمر الأشياء الجديدة إلا إذا ألفت بنفسها في أحضان القديم . . . وهذا درس يتعلمه الشباب بعد أن يولى الشباب ! !

وبعض أعضاء الجسم في الكائنات الأكثر تعقيداً ، كأعضاء الذكر والتأنيث في النبات تخصص لإنتاج الجراثيم ، فيتميز نوعان من الجراثيم تميزاً كبيراً ويصبح كل نوع منهما في المراحل المتأخرة من تطور الحياة البويضة ova والنطفة sperm . ولكن هذين العنصرين المتضادين لا يزالان في كثير من الأنواع يحدثان

في الجسم نفسه بوساطة الأب (أو الأم) (١) فقط . فدودة الأرض مثلا تفرز في فلقة من فلقتها بويضات ، وفي فلقة أخرى في موسم آخر نطفة . والحال كذلك في المحار والهلاليات الأخرى ، وبعض ذوات الأغشية ، وسمك الفرخ perch ، بل الرنجة herring المعروفة . ولما كانت الطبيعة قد ترددت في التمييز بين العناصر المولدة ، فقد ترددت كذلك قبل التمييز بين الذكر والأنثى في الكائنات التي تولدهما .

ويظهر أبسط صور التمييز المعروفة في السنجام syngame - وهو طفيلي يعيش في داخل الطيور . وهنا نجد كائناً كبيراً يبدو أنه أنثى ، أي يفرز بويضة . ثم كائناً أصغر منه كثيراً يعيش متصلاً على الدوام بجانب الأنثى ، ولا يعطى بسبب صغر حجمه أي فكرة عن سيطرة الذكر . ويشبه هذا الكائن الصغير الذي يفرز النطفة طفيلياً يعيش على طفيلي أكبر منه ، أو يشبه عضواً في كائن . ولن يشك أحد في أنه زوج الأنثى ..

وانظر كذلك إلى دودة البحر المسماة بونيليا bonellia ، ويبلغ طول أنثى هذا النوع نصف قدم ، وهي عريضة إلى حد ما ، أما الذكر فهو شحمة ضئيلة يبلغ طولها جزءاً من ستة عشر جزءاً من البوصة ، أي إنه أصغر مائة مرة من أنثاه . وتعول كل أنثى نحو عشرين ذكراً من هذه الذكور الضئيلة ، التي تنفذ من داخل مجرى الهضم في الأنثى إلى جسمها ، حيث تلتقي بالبويضات الموجودة داخلها وتلقحها . وأنثى الحشرات تكاد تكون دائماً أكبر وأقوى من الذكر . فأنثى الفراشة أطول من الذكر خمس عشرة مرة وتزن عشرات أضعاف وزنه . وفي بعض أنواع الحشرات يبلغ الذكر من الصغر حداً يكون فيه « أشبه بالتملة التي تدب على ظهر الخوخة » (٢) . ولا يتفوق الذكر إلا في الطيور والثدييات ، وهنا نجد أن قوته ترجع إلى أن الأنثى بعد اضطلاعها بمعظم أعباء التناسل تغلب جسمانياً على أمرها في الحرب الجنسية الأزلية .

(١) في الأصل parent ، وهي في الإنجليزية تدل على أي الوالدين ، لا الأب فقط أو الأم فقط (المترجم) .

(٢) Gourmont, R. de, The Natural Philosophy of Love. (٢)

ويبلغ هذا الاعتماد الذي نراه في الذكر وهو أصغر الجنسين على الأنثى ذروته في تضحية الذكر بنفسه عند عملية التلقيح . ففي كثير من الأنواع تأكل الأنثى الذكر بعد الاتصال الجنسي مباشرة . ويعيش ذكر العنكبوت من فصيلة إبيروس Epirus بعيداً عن الأنثى طلباً للسلامة إلى أن يصاب بنوع من القلق . وعندئذ يقبل في حياء كأنه دانتى يقرب من بياتريس ويتصل بالنسيج الخارجى للأنثى ، ويبني لنفسه بعناية طريقاً للانسحاب والخروج ، ثم يتقدم بحذر . والغالب أن الأنثى تلتهمه في الحال دون أن تسمح لهذا المسكين بمعرفة أى شيء عن لذة الحب . ولعلها تظنه من الأعداء ، وقد تكون ممن يؤثر الطعام على الغرام . أما إذا سادها مزاج السفاد فإنها تمارس شعائر الحياء ، فتراجع في خفر مع أنها أكبر وأقوى من الذكر ، وتترل خيطاً من نسيج بيتها وترفع خيطاً آخر ، على حين يتبعها الذكر الهائج ، وأخيراً تستسلم لقبضة الذكر وتبهىء له وهم السيطرة اللذيذ . ويبلغ انفعالهما في هذه المرحلة مبلغ الرومانتيكية والسمو ، فيربت أحدهما برقة على صاحبه بملامسة peelers ، ويفصحان عن رغبتهما برشاقة . ولا يكاد ينهى التسافد حتى تنقض الأنثى على الذكر وتلتهمه بكل ما في الحب الكامل من سخرية . وقد يكون الذكر في بعض الأحيان يقظاً إلى الحد الذي يجعله يهرب من قبضتها المهلكة ، فيزلق متراجعاً على خيطه ناجياً بحياته العزيزة . ويصبح بعد ذلك فيلسوفاً ، حتى ينتابه القلق مرة أخرى .

ويقول فابر Fabre إن أنثى الجراد mantis تأكل عشاقها بمثل هذه الوحشية مع شراهة أعظم . وترفض الحشرات الأخرى اقتراب الذكر منها بعد تلقيحها ، ولكن أنثى الجراد تسمح لاثنتين إلى سبعة من الذكور وتقبل مغازلتهم ، ثم تأكلهم الواحد بعد الآخر في وقت فراغها . وفي كثير من الأحوال لا تستطيع الأنثى أن تصبر في انتظار وجبتها ، فتدير رأسها وتأكل الجزء الأعلى من الذكر حين يكون مشغولاً بتأدية مهمته الجنسية . ويروي بواري Poiret حالة أنثى أطاحت برأس الذكر بمجرد ظهوره ، ولكن المغرم المقطوع رأسه مضى في أداء وظيفة التناسل وكان شيئاً لم يحدث له ، وكان الرأس لا قيمة له في الصلة الجنسية . وقطع جاك لوب Jacque Loeb بطن الجماروس gammarus

وهو ذكر من القشريات حين كان يسافد ، ولكنه استمر في عملية دون اضطراب ، ومن الواضح أن سائر قواه الحسية اتجهت وجهة أخرى . وفي ذلك يقول لوب : «الواقع إلا إذا كانت ذاكرتي تخدعني أن هذه الذكور المنزوعة بطونها على استعداد إذا أبعدت عن الإناث أن تتصل بغيرها متى وجدتها» (١) .

وإنا لنعجب حين ننظر إلى تبعية دور الذكر في الأنواع الدنيئة ، أمثل ذلك ضرباً من التخصص تطور إليه أخيراً بالطبيعة عن نوع من الكائنات مثل دودة الأرض ، حيث يعيش كلا الجنسين في جسم واحد . وكل ما كان لازماً لظهور الجنس هو تباين يحدث لبعض الكائنات التي مع تولدها من أنواع حتى bisexual إلا أنها تصبح مع ذلك متخصصة الجنس unisexual ، أى قادرة على إنجاب نوع واحد فقط من الأعضاء التناسلية .

ولكن ما الذى أعلن على ظهور هذا التباين ؟ وما فائدة هذا الانفصال الجديد في الحياة إلى أنثى وذكر ؟ لا يمكن أن يكون ذلك لأن الذكر الجديد لا غنى للأنثى عنه ، فالطبيعة والتجربة تشكان في ذلك . فهناك حالات كثيرة تستطيع الأنثى ، حتى في الأنواع التي تم فيها انفصال الجنسين ، أن تنجب فيما يبدو بغير معونة الذكر . مثال ذلك أن بق النبات المسمى أphis يتسافد الذكر والأنثى عادة وقت سقوط الأوراق ، وتضع الأنثى « بيضة شتوية » كبيرة تعيش حتى الربيع ، على حين يموت سائر النوع . وتفقس هذه البيضة الكبيرة في الربيع إناثاً بغير أجنحة ، وهى ، مع أنها لم تر أى ذكر من جنسها ، إلا أنها تنجب خلفاً كلها من الإناث حتى نهاية الصيف . ثم تظهر فجأة بين اليرقات ذكور ، ينضج بعضها ، وتلقح إناث جيلها التي تضع بيضات شتوية من جديد .

لعل هذه الحالات من التوالد بغير تلقيح parthenogenesis ترجع (كما يظن ترمبلى Trembley) إلى انتقال بعض ما اخترنته الإناث الملقحة في موسم سقوط الأوراق إلى البيض الملقح من الأجيال التالية غير الملقحة ، وليست هذه النظرية مؤكدة . أما إمكان الاستغناء عن الذكر بالفعل فقد ثبت بالتجربة

(١) Comparative Physiology of the Brain, p. 231.

في كثير من المعامل . فقد شجع جاك لوب البيض غير الملقح لأصداف البحر sea-urchins ، ونجمة البحر starfish على الفقس والنمو بأن يضع البيض في الكحول والأثير والكلوروفورم والاستركنين والسكر والأملاح والحوامض والقلويات ، فكانت هذه الأصناف المتعددة بديلاً عن الذكر المفروض أنه لا غنى عنه .

فمن الواضح أن ظهور الذكر في الطبيعة لا يرجع إلى الحاجة إلى التلقيح . فإلى أي شيء يرجع إذن؟ أكبر الظن أنه يرجع إلى ضرورة التهجين cross-fertilisation ذلك أن انفصال الجنسين جعل اتحاد الصفات والقوى الوراثية في الذرية ممكناً ، وهي صفات وقوى تنحدر عن أصليين متميزين من الأسلاف . وتبلغ مزايا هذه الوراثة المزدوجة من الوضوح ما يجعلنا نتوقع ظهور ترتيب معين يمنع التوالد الذاتي بغير لقاح . وهذا هو الواقع : فالأزهار (وهي الأعضاء التناسلية في النبات) مركبة بطريقة تجعل نفاذ عضو التذكير في عضو التأنيث من ذلك النبات مستحيلاً . حتى القوقعة التي تضم في جسمها كلا الجنسين ، نجد أن أعضاءها مرتبة ترتيباً لا يسمح باللقاح الذاتي . وهكذا تدبر الطبيعة حتى تبلغ نوع الإنسان فنجد أن العوامل الاجتماعية والنفسية قد تحالفت على تحريم الزواج بين الأخ وأخته ، وتوجد محرمات taboos قوية تمنع الزواج بين أفراد القبيلة الواحدة . وليس تحريم الزواج من الأهل incest ، وقوانين الزواج من خارج القبيلة، إلا أسمى صورة لذلك الاتجاه نفسه نحو التهجين ، وهو المسئول عن التمايز بين الجنسين .

والآن وقد انقسمت الكائنات إلى جنسين ، فعلينا أن نواجه المشكلة التالية وهي تعاونهما بالتقاء أعضاء التناسل . وهنا يذهلنا إسراف الطبيعة ، وإسرافها أعظم في النباتات المزهرة ، إذ هناك آلاف من الأنواع تعتمد على الرياح في نقل بذور التلقيح من نبات إلى آخر ، ويفوح الهواء برائحة حبوب اللقاح التي تكون ذراتها أريج الزهر ، حتى لتشغل ملايين من هذه الذرات مسافة تبلغ خمس ياردات. وتحمل أنثى سمك الدخس sturgeon في جسمها ٣٠٠٠٠٠ بيضة (أي ٩٠٠ رطل) ، وهذا يكفي لعمل ٦٠٠٠ شطيرة (ساندوتش) من الكافيار. أما

في سمك الرنجة فالأمر أشد إسرافاً، إذ تتجمع مئات الآلاف من الإناث والذكور في مكان واحد حتى ليخيل للمرء أنها قطعة كبيرة من الجلاتين، وتفرز البيض والمني *milt* بكثرة شديدة حتى يصبح لون ماء البحر كاللبن. ثم يأتي الصيادون فيمسكون بهؤلاء المغرمين جملة، ويسحبونهم بالآلاف في شباكهم. ومع ذلك يلقح بعض البيض بوساطة المني، أما الطبيعة المهملة التي تحتقر من شأن الفرد فإنها تعزى نفسها بالاحتفاظ بالنوع.

ونحن نجد هذا الإسراف نفسه في نوعنا الإنساني، ولو أنه خفي؛ إذ من بين ٧٢٠٠٠٠ بيضة تفرزها الأنثى، وبلايين النطف التي يفرزها الذكر، لا يستغل في التناسل إلا قلة قليلة (في أيامنا هذه واحدة أو اثنتان فقط) ويعتقد بولش *Bolsche* أن هذه الوفرة ليست مجرد نفاية، إذ أنها تقدم المادة التي منها ينشأ الانتقاء الطبيعي البيض والمني الضعيف وينتخب الأقوى؛ وقد يكون هذا صحيحاً. ولكننا نشك في أن الأستاذ بولش قد أعلى من شأن الطبيعة أكثر مما تستحق، فهي ليست من الذكاء بمقدار ما يظن. ولا ريب في أننا قد ورثنا الغباء الذي لا ينضب له معين من أمنا الطبيعة.

ويصحح هذا الإسراف في الحيوانات الراقية ما تتخذه الطبيعة من احتياط في التركيب لهداية البيضة والنطفة واتحادهما من جهة، وما يتخذه الآباء من عناية نامية من جهة أخرى. مثال ذلك أن نجمة البحر *star-fish* تخضع بيضها الملقح بيديها، وكذلك صغارها بعد فقسها. ويقود ذكر الزقزوق (نوع من السمك) أنثاه إلى حفرة لتضع البيض، ثم تذهب إلى حالها ويعنى الذكر بالنسل بنفسه، كما يفعل الزوج في العصر الحديث. وتضع أنثى فرس البحر من النوع المسمى كامبوس هدسونيوس *campus hudsonius* بيضها في جراب على بدن الذكر الذي يعنى بالبيض إلى أن يفقس. ويبلغ المتوسط السنوي لما تضعه آلاف الأسماك التي تكتفي بوضع البيض ثم تتركه حول مليون لكل زوج. وفي مائتي النوع التي تظهر شيئاً من عناية الأبوة فلا يبلغ المتوسط إلا ٥٦ بيضة للزوج في العام. وتضع الطيور التي لا تبني لها عشاً اثنتي عشرة بيضة في العام. أما التي تبني عشاً خشناً فيبلغ ما تضعه ثمانى بيضات، والتي

تبنى عشها بعناية خماً (١) . وهكذا نجد أن الحب الأبوى يحل شيئاً فشيئاً محل إسراف الطبيعة ويعوضها . وفي الثدييات التي تختص بعناية الأمومة ينجب الزوج ثلاثة صغار في العام ، وتقل هذه النسبة في الأنواع الراقية . ثم تنمو الأسرة ببطء كأنها رحم خارجي يعنى بالنسل خلال فترة أطول من الزمن . وكلما طال زمن البلوغ ارتفعت الحضارة التي تعتمد إلى حد كبير على فترة التربية إلى مستويات أعلى مما كانت عليه من قبل .

والآن ما موقف مشكلة الحب من وجهة نظر هذه الزاوية البيولوجية السريعة ؟ يجيب أرسطوفانس ساخراً في محاوره المأدبة لأفلاطون (١٨٩ - ١٩٢) قائلاً : « كان الجنسان في الزمن القديم واحداً ، ولكن الإله - بسبب خبث البشر ... قطع الإنسان نصفين ، كاللفت الذي يشق نصفين للتخليل ، أو كما نشق البيضة بشعرة ... وكل منا حين انفصل لم يكن إلا نصف إنسان ... يتطلع على الدوام إلى نصفه الآخر ، فالرغبة في الكل والسعي إلى تحقيقه يسمى حباً » . وهذا لعمرى تعريف شريف ، بحثنا على تأويل هذه الأسطورة تأويلاً علمياً ، فنقول : كان كلا الجنسين في قديم الزمان في بدن واحد كما هي الحال إلى الآن في دودة الأرض ، ثم فصلتهما الطبيعة إلى كائنين . ولذلك يحس الآن كل شطر منهما وهو منفصل بأنه ليس إلا نصفاً ، فيشتاق إلى الاتحاد والتكامل .

ولكن الجواب عن سؤالنا « ما الحب » يعد جواباً غامضاً . إذ يفترض ذلك وجود وعى فلسفي عال في أحط الخلايا الجرثومية البروتوزوية . وأكبر الظن أن وظيفة الذكر حين تخصصت أول مرة في كائن منفصل ، لم يسع إلا قلة قليلة من تلك الذكور الأولية إلى الاتحاد « بأنصافها الحلوة » . وتلك الذكور التي سعت ووفقت في الاتصال بنصفها الآخر ، هي وحدها التي أصبحت آباء الجيل التالي . وهكذا كان المحبون في كل جيل - أي الأفراد الذين حققوا الكمال بالاندماج فيمن يكملهم - هم الذين نقلوا شوقهم إلى الاتحاد في مجرى الحياة . أما الذين فقدوا الشعور بهذه النزعة أو شعروا بها شعوراً ضعيفاً ، فقد انقضت

Sutherland, A., Origin and Development of the Moral Instincts, Vol. I, (١)

pp. 4-5.

حياتهم بغير نسل أو بنسل قليل ، وذهب فتورهم بموتهم . من أجل ذلك نمى الشوق الشديد مع كل جيل ، فلا غرابة أن يصبح هو العاطفة الغالبة ، وهى أقوى من الموت . . . ذلك الموت الذى تخدعه هذه العاطفة فى صبر بالاستمرار عن طريق التبدل . ولعل . . . لعل هذا هو الطريق الذى جاء منه الحب .

٣ - الأساس الفسيولوجى

لقد تحدثنا عن الحب بما فيه الكفاية فى تطوره . خلال سلسلة الحياة . . فلتأمل الآن نموه فى الفرد ، أو كما قال أرسطو : إذا أردت أن تفهم حقيقة شىء ما فعليك أن تبحث نشأته وتطوره . .

أى يوجد فى الطفل ما يضاهى عاطفة الحب التى تظهر فيما بعد ؟ يجب فرويد فى ثقة عن هذا السؤال مثبتاً إياه . ، وشيد قصوراً مذهشة من علم النفس الطبى أقامها على الاحتمالات الشبقية لمص الأصابع ورضع الثدي . ولكننا حين نفصل الوقائع عن النظريات نجد الوقائع ضئيلة جداً . فهذا واطسن وأعوانه وضعوا مئات عدة من الأطفال تحت الرقابة فترة طويلة من الزمن ، فلم يجدوا عندهم أى سلوك جنسى من أى نوع (١) .

ومع ذلك فلا يلبث الطفل أن يظهر وعياً بالجنس الآخر ، فيبدو عنده ضرب من الفضول التشرىحي يشجعه عليه الإخفاء والمراوغة . ويصبح كل جنس شيئاً غامضاً بالنسبة إلى الجنس الآخر ، ويثير فيه رد فعل عبارة عن مزيج من الحجل والحاذبية . ولا يكاد يوجد بين الجنسين الصغيرين أكثر من ذلك . فإذا حصل الحب قبل البلوغ فالأشبه أن يكون فى هيئة « عقدة أوديب » ، أى يتعلق الصبى بأمه ، والفتاة بأبيها . ولكن ليس ما يتبينه فرويد هو الشىء الفظيع ، فعقدة أوديب ليست لا شعورية ولا شاذة ، بل هى سبيل الطبيعة إلى إعداد الطفل لحب سليم . أما إذا كانت العلاقة على غير تلك الصورة ، أى حين

(١) Watson, J.B, Behavior, p. 262.

يتعلق الابن عاطفياً بأبيه ، أو تتعلق البنت بأمها ، فعندئذ يكون من المعقول أن ينزعج علماء الطب النفسى .

وعند البلوغ يغنى الحب أنشودته الواضحة . والمعنى الحرفى للبلوغ^(١) puberty يدل على السن التى ينبت فيها الشعر على جلد الذكر ، وبخاصة شعر الصدر الذى يتيه به فى توحش ، وكذلك شعر الوجه والذقن الذى ينتزع فى صبر أيوب . ويبدو أن نوع الشعر وغزارته ينبتان ويقعان (فى الظروف العادية) مع دورة القوة الجنسية ، ويبلغان الأوج عند ازدهار الحيوية . هذا الشعر الذى ينبت فجأة إلى جانب خشونة الصوت من « الصفات الجنسية الثانوية » التى تصيب الذكر عند البلوغ . أما الفتاة النضرة فإن الطبيعة تجعلها لينة الأطراف ثقيلة الأرداف حتى تفتن العين ، عريضة الحوض لتيسير الحمل ، بارزة النهدين لإرضاع الطفل .

فما الذى يسبب هذه الصفات الثانوية ؟ لا أحد يدري . ولكن الأستاذ ستارنج Starling اكتشف ما يؤيد نظريته التى تذهب إلى أن الخلايا التناسلية عند البواغ لا تشرع فى إفراز البويضة والمئى فقط ، بل كذلك بعض « الهرمونات » التى تنفذ إلى الدم وتكون علة حدوث تغيير جسمانى ونفسانى . ولا يوهب الجسم فقط بقوى جديدة ، بل يتأثر العقل والخلق بألوان شتى من التأثير . وفى ذلك يقول رومان رولان : « تمر بالرجل فترات من العمل يحدث فيها تغيير عضوى صامت » - أو بالمرأة . ومرحلة البلوغ هى أهم هذه المراحل . ثم تغمر مشاعر جديدة الجسم والنفس . ويسوق حب الاستطلاع العقل إلى الأمام ، ويرده الحياء إلى الوراء . ويصاب الشاب بالارتباك فى حضرة الجنس الآخر ، وتتعلم الفتاة كيف يحمر وجهها خجلاً . وقد يصبح الطفل فجأة ذكياً بعد أن كان غيباً ، أو يصبح عنيداً بلا سبب معقول بعد أن كان مطيعاً . وتنتاب البالغ نوبات من النظر فى باطن نفسه ، وأحوال غريبة من التأمل

(١) هنا من جملة معانى اللفظة فى الإنجليزية . أما فى العربية فالبلوغ من بلغ سن الرشد ، ويقال أيضاً الاحتلام والحلم والمراهقة ، وبعضها يدل على الإدراك العقلى ، وبعضها يشير إلى الحالة الجنسية المعروفة (المترجم) .

والشroud . ويتفتح الخيال وتظهر دولة الشعر ، ويطمح جميع المثقفين إذا بلغوا هذه السن في التأليف ويحلمون بشهرة خالدة . وتسرع كل قوة عقلية في النمو ، ويهجم العقل بأسئلة جديدة على الكون . وإذا استمر الشاب سائراً في طريق التفكير أصبح عالماً أو فيلسوفاً ، أما إذا هجره سريعاً فقد يصبح رجلاً ناجحاً في الحياة ويرتقى أعلى المناصب .

وفي هذه الفترة يروى ماء الحب المتدفق جذور الفن للمجتمع والإخلاص له . ذلك أن الحب يتخيل الجمال ، ويبحث عنه ، وقد يتدعه . والحب يتخيل الخير ، ويسعى إليه ، ويبرز عازماً على تحقيقه . وإذا كان الدين يعرض نفسه في هذه المرحلة على أنه عقائد إلهية فقد يثير في نفس الشباب شهوة الجدل ، وتتمزق بذلك أوصال الدين . أما إذا عرض نفسه على أنه يطلب الخير تأثرت به مثالية النفس المتغيرة ، وأصبح الدين جزءاً لا يتجزأ من الشخصية .

جملة القول مرحلة البلوغ أعجب مراحل حياتنا . فهو عصر العقل ، وهو مع ذلك فترة الانفعال ، إذ ينثر العقل والقلب في كل جانب وابلًا من أفكار جديدة ومن عواطف المحبة . ولن تجد العالم يبدو أغرب ومع ذلك أحمل ، وأبعد منلاً ومع ذلك أسهل نيلاً ، كما يبدو في هذه السنين التي ينتقل فيها الإنسان من طور إلى طور ، حتى ليشتاق المرء في كل عمر متأخراً إلى الرجوع إليها . سن البلوغ هو ربيع كل قوة ، وزمان البذر لكل حصاد ، وفيها تجد سائر العواطف الشريفة غذاءها . هذه السن هي نهضة الحياة .

ومع ذلك أي قوة داهية هذه التي تسوق الفتى في خوف نحو الفتاة ، وتجعل الفتيات يتمنعن وهن الراغبات ؟ أي سر غامض يعمل في جنبات الجسم ليخلق أبهى زهرة في جميع حياتنا . . . حب الرجل للمرأة ؟

وتأخذ الخلايا الجرثومية في البدن تهتاج وتتفجر بالحوية وكأنها قد عقدت العزم على مغالبة كل جهد للاحتفاظ بهذا النشاط الحديد . وكما أن الأصل البيولوجي للحب هو الانتخاب الطبيعي ونمو الغريزة إلى تحقيق الاتحاد ، كذلك أساس الحب الفسيولوجي في الفرد هو تجمع المادة الجرثومية ، فيحتاج الكائن

بأسره ، لإحساسه بتوقف النمو وقلق الحياة المتوسعة ، ويمتلئ القلب بحزن لذيذ ولكنه ثقيل ، وكأنه قد أدرك أنه ناقص فتعطش إلى أن يكمل نفسه .

وفي ظل هذا الالتهياج يتأثر الشباب بآلاف من المؤثرات كانت تمر به دون أن يشعر بها من قبل ، وتروقه بعض الأصوات ، وتفتنه الموسيقى والغناء إلى أقصى حد ، ويتصف الصوت برخامة جديدة (لعلها بدأت في نداء الذكر من الحيوانات الدنيئة) ، ويستمتع المحب بسماعه . ويعجب الشباب ببعض الروائح ، بعبر البدن النامي ، وأريج النظافة ، وقوة العطر المنبهة للغيريزة ، وهي جميعاً كالخمر التي تسكب في كأس الحب . وتفتنه كذلك بعض الحركات : إيقاع الرقص ومخاصرته ، وهزة جسم الرياضيين وثقتهم بأنفسهم ، ورشاقة الفتيات وخفتن . أما المناظر فتفتن الشباب أكثر من أى شيء آخر ، إذ يفيض موسم الحب بالألوان ، ويفضى اللون الأحمر إلى حب الامتلاك . ويتألق الشباب في الملابس في زمان الألفة ، كما ينبت العرف والريش للطير والحيوانات . ويطلق المتوحشون أجسادهم بالنقوش فيشوهون أنفسهم ليلفتوا إليهم الأنظار ويثيروا الحواس . ولا يصبح اللباس وقاية بل زينة ، ومصدراً للوحى ، وباعثاً على التأثير . وتحقق القلوب الرقيقة للشجاعة والقوة ، وتثير رؤية الأجسام البضة رغبة الشباب . فهذه التجارب الجديدة من الروائح والأصوات والملموسات والمناظر ، ومن العطر والغناء والرقص وشتى أنواع الاستعراض ، تشغل أيام الشباب وأفكارهم الحاملة ، وتصبح بواعث لا يمكن صدها إلى الحب .

ثم تجتمع سائر المؤثرات وتظهر فجأة جميع الشروط ، وتنطق حاجات الجنس بلسان جوع البدن والروح . وعندئذ يولد الحب ويشرق في القلب كما ييزغ النور في الصباح ثم ينتشر فيملاً الكون نوراً وناراً . وفي ذلك ينشد لوكريتيوس العظيم :

« إيه أيتها الزهرة ، إنك وحدك سيدة طبيعة الأشياء ، ولا شيء يرتفع بغيرك إلى عوالم الحياة المقدسة ، أو يصبح بهياً أو مرحاً . وإنك لتملئين جميع القلوب بالحب العميق ، وتسوقين كل قلب إلى أليفه يعملان على استمرار الجنس بالرغبة الحارة ، من خلال سائر الجبال والبحار والأنهار المتدفقة ، وأعشاش الطيور

المورقة ، والسهول المكسوة بالحشائش . إذ ما يكاد الربيع يشرق مع الصباح ، حتى تثب القطعان البرية فوق المراعى الباسمة ، وتعموم في المياه الحارئة ، وقد أسرت قلوبها المباهج الساحرة ، وساقها الحب إلى اتباعك^(١) .

٤ - النمو الروحي

على هذا الأساس الوطيد الطبيعي يقوم ذلك الحب الذى هو روح وشعر ، كما ينشأ إخلاص الأليف لأليفه من شهوة الحياة للاستمرار . ومن هنا الجوع للجسد ينبع أجمل وفاء بين روجين . ومن شهوة الهمجى فى الكهف ينشأ فى النهاية غرام الشعراء . فهذا هو السلم الذى يرتقيه الإنسان .

ويبدو أن البدائين من البشر لم يعرفوا من الحب إلا الشئ اليسير . إذ ليس فى قاموسهم لفظة تدل عليه ، وإذا تزوجوا لم يفعلوا شيئاً يقرب من الغزل أكثر من الرغبة فى البنين ، والاختلاف بانتظام إلى تناول وجبات الطعام . وفى ذلك يقول لابلوك Lubbock (وعلماء الأجناس مغرمون بالبحث فى الأماكن الغربية) : « يحتفل أهل « يوروبا Yoruba » بالزواج بلا أدنى اكتراث . ولا يفكر الرجل منهم فى اتخاذ زوجة إلا بمقدار ما يفكر فى انتزاع سنبله من القمح ولا محل للحب على الإطلاق »^(٢) وكان نيتشة يعتقد أن « الحب الرومانتيكى » من اختراع شعراء الأقاليم troubadours . ولكن لا ريب أن ثمة عنصراً « روحياً » ينمو فى الدافع التناسلى حينما ظهرت الحضارة . وكان الإغريق يعرفون القصص الغرامية ، ولو أن ذلك كان على طريقتهم الشاذة . وتدل قصص ألف ليلة وليلة العربية على أن الحب لم ينتظر حتى ظهور الأغاني فى العصر الوسيط . غير أن مغالاة الكنيسة فى تقديس العفة ، وإحاطتها المرأة بسحر ما يستعصى على النوال ، كان مما ساعد على ازدهار شعر الغزل . ويقول فى ذلك لاروشفوكو : « الحب بالنسبة إلى روح الحبيب ، كالروح بالنسبة إلى البدن الذى تحييه » . ويقول دى موسيه : « جميع الرجال كذابون وغشاشون

(١) On the Nature of Things, Tr. Munro, Book ii, lines 991 f.

(٢) Origin of Civilisation, p. 51.

ونفاجون ومناقون ومختالون ، وكافة النساء معجبات بأنفسهن ومتصنعات وماكرات . . . إلا شيء واحد مقدس وجليل ، ذلك هو اتحاد هذين الجنسين الناقصين . ويقف نيتشة لمجدد الحب قائلاً : « أظهر عبارة سمعتها هي قول القائل : إذا كان الحب صادقاً احتضنت الروح الحسد . »

كيف يمكن تعليل هذا التحول من الرغبة الطبيعية إلى الحب الرومانتيكي؟ ما الذي يجعل الجرح الجنسي يزدهر هنا الازدهار فيصبح ظرفاً ، واهتياج البدن رقة الروح؟ أيكون ذلك لأن الحضارة مع نموها قد أجلت سن الزواج ، وتركت الحسد في شوق إلى رغبة لم يحققها ، ذلك الشوق الذي انعكس في باطن النفس إلى صورة من الخيال ، وألبس المحبوب ألواناً مثالية أضفتها رغبته التي لم تتحقق؟ إن ما نطلبه ولا نجد ، يصبح أغلى لأننا لم نجده . وسوف نرى أن جمال الشيء في قوة الرغبة إليه . وأن الرغبة حين تضعف ، تقوى إذا أشبعت بالزهد فيها . من أجل ذلك كان الحب أكثر روحانية في شباب الفرد وأوج الحضارة ، لأن الكبت يبلغ ذروته في ذلك الأوان ، ويخفف الشعر ما تشعر به الأجساد من حرمان .

فلنتأمل النمو النفساني للحب ، مهما يكن مصدره . إنه يبدأ في الأغلب بانعطاف الفتاة انعطافاً خاصاً نحو أبيها ، وانعطاف الولد نحو أمه . ثم يتحول ذلك إلى ضرب من التعلق القوي بشخص في مثل سن الحبيب . وتجدر في كل حجرة دراسية أطفالاً يحبون المعلم المخالف لجنسهم . وكتب جيته قصة مشهورة يصف فيها غرامه بامرأة حطمت قلبه ، حين دعت طفلهما . ويبلغ الإبداع الرومانتيكي ذروته في هذه الغراميات المؤقتة ، إذ يحرك البدن النامي الخيال فيرى صوراً بديعة ، ولا بأس أن يرفعها إلى مقام الحقيقة ، فيخترن أي شيء يوافق في ظلال هذا الخيال . وليس للعنصر الجسماني أي مدخل يشعر به الإنسان . وفي ذلك يقول جيته : « إن أول نزعة للحب عند الشباب الصالح تتخذ وجهة روحانية خالصة » (١) .

ثم تأتي بعد ذلك مباشرة تلك التجربة اللطيفة التي نسيء تسميتها بقولنا حب « العجل calf. » (١) - ولو أن المرء لا يميل النظر في جمال ذلك الحيوان الوديع . ويكون مثل ذلك الحب خفياً لا يصرح به ، ولا اسم للمواهب اليسيرة التي تنشأ عنه . والبنات في هذه المرحلة أكثر شجاعة من الصبيان ، ومع أنهن يفقدن (في الظاهر) بعض هذه الحرارة حين تتقدم بهن السن الواعية ، فإنهن يحتفظن إلى آخر الأمر بدراية ممتازة في فنون الحب . ويبدو الصبي خجولاً ، ولكن البنت تحتفظ بكيانها وتظل سيدة الموقف . وفي بعض الأحيان يتعد الصبي عن الطريق حتى يتجنب الفتاة التي يشواق إليها ، وينفق ساعات طويلة وحيداً في ظلمة الليل ، أو يهيم على وجهه في النهار ، يتفكر في مראה في تلك الحركات الطائشة التي صدرت منه أو العبارات السخيفة التي بدرت منه في حضرة محبوبته . وقد تبلغ هذه الحساسية عند بعض الشباب الذين يستظلون بظل الأمومة ويتعلقون بها مبلغاً يجعلهم يتقيدون بها ، فيظل الشاب عزباً إلى آخر عمره . وعندما يشتد ساعد الصبي يغذى في نفسه روح حب الظهور ، حتى إذا رأى فتاة أحلامه خاطر بحياته في الألعاب ليضع تحت قدمها إكليلاً من الغار . ويولد الشباب في ميدان الألعاب البدنية ، تلك المصارعات الدامية بين ذكور الحيوان لا متلاك الإناث ، كما يمهد لتلك المنازعات الاقتصادية التي يتنافس فيها الشباب الناضج للحصول على الفاتنات ، والاحتفاظ فيهن بابتسامة الرضا . وهكذا نرى أن الحب يدير عجلة الحياة .

وينتقل الحب من هذه المظاهر المبكرة التي تعقب تمام البلوغ مباشرة إلى مراحل مختلفة تكون سوية إذا عبرت وزالت ، وشاذة إذا دامت . فالانحراف perversion ارتداد atavism إلى صورة قديمة من السلوك كانت ، في الأصل سوية ونافعة ، ثم ظهر ما يفضلها ويسمو عليها . ويتقلب الكائن السليم في هذه الشروط المهمة كما تقلب دانتى في الجحيم ، فهو يجربها ، وتصهره تجربتها ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحب البالغ والسليم .

وتظهر في هذه الآونة أيام الغزل ، وهي أسمى أوقات الحياة الإنسانية .

(١) يقال في العربية النعجة بدلا من العجل ، والمقصود اتباع العجل أمه . (المترجم)

وليس معنى ذلك أن الغزل ظل ينتظر حتى سن النضوج ، لأن نصف ألعاب الطفولة هي ألعاب حب ، حتى إن الطفلة في الخامسة تستطيع أن تغازل ببراعة . ويخدم الغزل أغراضاً حيوية ، فهو يدفع الحب إلى آفاق أرحب ، ويفسح المجال لانتخاب الأفضل ذلك الانتخاب الذي يرفع تدريجاً نوع الحياة . وتمتاز شعائر الغزل عند البالغين بهجوم الذكر للظفر ، وانسحاب الأنثى إغراء ، ولو أننا نجد ضرورياً من الاستثناء لهذه القاعدة . في غينا الحديدية تغازل الفتيات الرجال ويغدقن عليهم الهدايا ، ولكن هذه العادة البديعة لم تغز بعد بلادنا . وقد نجد في بعض الأحيان امرأة مثل حنة Anne تغرى بعد روية وبصيرة المستر تانر Tanner في شباكها . . . على الأقل في رواية برنارد شو . ولكن الذكر عادة هو الذي يلعب الدور الإيجابي والهجومي ، لأنه بالطبيعة هو المحارب وهو الحيوان المفترس . والمرأة بالنسبة إليه غنيمته . يجب أن ينتصر عليها ويمتلكها . فكل غزل مغالبة ، وكل سفاد غلبة .

ويقول ستانلي هول : « من الجنادب ما تبلغ من شدة البأس في القتال حداً يجعلها تتمكن من المنازلة كالديكة . وتحارب ذكور السمك حتى الموت في أثناء موسم التوالد وفي مناطق بيض السمك ، وتصبح أسنان ذكور السلمون البالغة حادة وتختلف اختلافاً تاماً عن أسنان الإناث . وقلَّ أن تلتقي السحالي في الربيع دون أن تتقاتل . وتقاتل معظم الطيور في الربيع فتستعمل المنقار والمخالب والصياصي التي تكون على الأجنحة وتبرز من الأرجل . ويتفق موسم الحرب عند هذه الضروب من الحيوان مع موسم الحب »^(١) . وتنقلب الحرب عند الرجال منافسة على التجارة وضرباً من المباهاة . فنحن نتحارب « بالشيكات » لا بالأنياب ، وتختفي مخالبنا وراء آداب التجارة .

والمرأة إذا كانت حكيمة حاربت بالفرار والعفة . والعفة انسحاب وفق خطة موضوعة ، وهي تنشأ من الخوف والطهارة ، وتنمو بالمداهنة والدهاء . وليست العفة من خصائص النوع الإنساني ، لأننا نجد لها شبيهاً واضحاً وأصلاً في إحجام أنثى الحيوان عن المسافدة في غير موسم أو في غير موضع . ولكن

(١) Adolescence, vol. II, p. 368.

الإنسان، كما قال بومارشيه، يختلف عن الحيوانات في أنه يشرب وهو غير ظامٍ ،
ويطأ في كل موسم. والعفة عند المتحضرين من أبهى مراحل النمو النفساني للحب .
فهي ترتفع إلى مرتبة فذة من العظمة ، وقد تقهر في بعض الأحيان أعماق دوافع
النفس . واتبع حكماء المشرعين في الملايو قديماً طريقة يقضون بها على موجة
من الانتحار سادت بين النساء ، بأن أصدروا أمراً يحتم أن تحمل جثث المنتحرات
عارية في الشوارع (١) .

وكان ولیم جیمس يرى أن العفة ليست غريزية بل مكتسبة ، فقد
اكتشفت المرأة أن البذل يولد الابتذال ، ونقلت هذا الاكتشاف إلى بناتها ..
وذهب نيدرو أبعد من ذلك وأرجع هذه المسألة إلى غير الأزواج الذين أدى
إحساسهم بالميلت إلى فوضى العفة على زوجاتهم . وفي كثير من القبائل لا يأتزر
إلا المتزوجات فقط ، إذ يعتقد أزواجهم (وهم في ذلك أعقل من خالق
« جزيرة بنجوين ») (٢) أن ذلك يعين على الاحتفاظ بحقوق الملكية . وعندما
حل الشراء محل الأسر ، وأصبح ذلك بدعة الزواج الشائعة ، ورأى الآباء أن الأبنكار
أغلى مهوراً ، شجعوا - في فضيلة - على العفة .

وقد نشأت العفة من هذه المنابع المتعددة حتى أصبحت إحدى مفاتيح
المرأة الداهية .. ذلك أن العاهر غير جذابة إلا فترة عابرة للرجال .. والتحفظ
في العرض والاقتصاد في إبراز المفاتيح أفضل سلاح في اصطیاد الرجل . ولو أنهم
علمونا تشريح الأعضاء التناسلية على قارعة الطريق لأثار ذلك فينا الانتباه ،
دون أن تتحرك فينا « النوايا » . وينجذب الشاب إلى ناعسة الطرف لأنه يشعر
دون أن يفكر في ذلك أن هذا التحفظ البارع يخفي في المرأة رقة هي أجمل ما فيها .
فالعفة ، بما تحتفظ به من ثمن ، تحث على إبراز قدرة الذكر وشجاعته ، وتحركه
إلى أعمال عظيمة النتائج وتبعث الطاقة المختزنة وراء المستوى المتوسط المريح الذي

(١) Ellis, H., Studies in the Psychology of Sex, vol I, p. 24

(٢) قصة لاناتول فرانس يعرض فيها تاريخ فرنسا متهاكاً ، وفيها يتصور القيس أنه يعمد

هذه الطيور بدلا من الناس . (الترجم)

نعيش فيه . ومن يدري إلى أى حد ترجع أعمال الرجال الإنشائية إلى المنافسة الجنسية وحب العرض ، كما هي الحال في عظمة ألوان الطيور ؟
ولنفرض أن الفتنة سارت في طريقها ، وتكامل الحب بالأبوة ، واكتملت دائرة الرغبة بانجاب طفل . وأكبر الظن أنه ليس ثمة غريزة نوعية باسم التناسل ، بل ثمة فقط غرائز الصلة الجنسية mating وعناية الآباء بأبنائهم . فالطبيعة تحقق أغراضها بوسائل منحرفة ، والنوع الإنساني ثمرة عرضية لأعظم ما فيها من لذة . ولن نجد شيئاً أكثر سخرية من هذه الطريقة التي تنشر الطبيعة بها المواليد الحمر بالدماء المتفرعة عن أمهاتهم : وإن كنت في ريب فاستمع إلى صراخ النساء وصيحات الولاء في المستشفى . ومع ذلك فما أبرع طريقة الشيطانية في تهدئة نائرة الأم بالنشوة المخمرة ، وقلق الأب بزهو أعمى يجعله يدفع باسم الأجر الباهظة المفروضة الآن لأولئك الذين يجراون على استمرار جنسنا الذي ربما لم يكن ضرورياً .

ويتجدد حب الآباء حين يظهر الطفل إلى الوجود ، ولكنه حب يختلف عن تلك الشعلة التي كانت تحترق من قبل . حقاً لقد كانت تلك الشعلة خليفة أن تدبل في تلك الأيام إلى ذوابة ضعيفة عند ولادة الطفل ، والطفل نفسه جدير أن ينزع من قلبي الأبوين بعض العاطفة التي جعلتهما مؤقتاً شخصاً واحداً . فالأم نجح إلى نسيان الأب في غمرة عاطفتها الجديدة ، ويميل الأب إذا كانت الأعجوبة الصغيرة بنتاً إلى أن يخلع عليها هيامه الذي كان يضيفه على زوجته . على أن هذا اللهو يفقد آخر الأمر سحره ، وتنشأ روابط جديدة تصل بين الزوجين مرة أخرى .

وبعد فهذا هو الألوان الذي يجعل التآلف بين الزوجين كاملاً . ذلك أن تلك الأعوام من الأبوة تزخر بكثير من التجارب والمحن ، وصروف الدهر ، وآلام البدن ، ومخاوف القلب . ويجلب المرض للخيال المتقلب شيئاً من العمق والاعتدال ، ويسير الحب في ركاب حياة جديدة مصيرها إلى الموت . وحين يشترك الزوجان في عمل المشروعات ومحاولة تنفيذها ، ويظفران معاً بالنجاح ، ويبأسمان ، يتداخل عقلاهما المتجانس في شركة روحية قد ترتفع إلى حد

امتزاج الشخصيتين ؛ بل إن وجهيهما قد يتشابهان . ذلك أن مراقبتهما معاً مهد الأطفال ، ورويتهما إياهم ينمون ، ومنحهم بعد ذلك شيئاً فشيئاً حباً أصغر ، كل ذلك يصوغهما شخصاً واحداً .

حتى إذا لم يبق في البيت الذي كان يردد رنين ضحكات الأطفال إلا ذكراهم الصامته ، أظل الحب وكأنه يعزى الزوجين بجناحيه رفيعي العمر الطويل . ذلك أن أنشودة الحب لا تبلغ تمامها حتى تسرى بنغمتها الحارة وحدة العمر واقتراب « العدو الأكبر » . والذين عرفوا الحب على أنه رغبة لم يعرفوا منه إلا جذوره وجسده ، أما روحه فهي الباقية الآن وقد تبدد كل عنصر جسماني . وفي هذا التآلف الحديد بين القلبين القديمين يبلغ الازدهار الروحي لجوع البدن التمام .

فهذه هي دورة الحب . ولنتأمل هذه الدورة مرة أخرى في لحظة واحدة ... في خلايا البروتوزوا المندمجة ، وفي شهوة الحيوان العنيفة ، وفي غلظة الهمجي الغليظة ، وفي عيون الشباب الحاملة الذائبة ، وفي قصائد إليزابيث بروننج أو قصة فرنشسكا ، وفي الرفيقين العجوزين وهما يرتعشان سعادة كلما تجمع أبناؤهما وأحفادهما لإحياء ذكرى نصف قرن من الحب . أهنك أغرب من هذا التحول ، هذا التسامى البطيء من مغناطيسية العناصر إلى أناشيد الهيام والإخلاص لجميع ميادين الحياة ؟ وإنا لنذكر في هذا المقام كلمات سنتاينا العميقة التي يقول فيها : « لكل شيء مثالي أساس طبيعي ، ولكل شيء طبيعي نماء مثالي » . فقل للحب : لا تنجس من أصلك ، ولرغبة أن تذلل إذا لم تسم إلى مراتب العبادة .

لقد كان حب الفيلسفة هو الذي ساق أفلاطون إلى أن يقول : « إن الذي تمسه نار الحب يمشي في الظلام »^(١) . ولأم لابلاس عندما حضرته الوفاة أصدقاءه الذين أرادوا تعزيتته بشهرة كتبه واكتشافاته ، فقال لهم آسفاً : إن هذه الأمور ليست أهم شيء في الحياة ، فسألوه : « وماذا إذن ؟ » وأجابهم العالم الشيخ وهو في النزاع الأخير : « الحب » .

(١) المادة ، ١٩٧ .

فكل شيء إلى موت، ما عدا الحب الذي يهرب وحده من الفناء . ذلك أنه يتخطى القبور ، ويسد ثغرات الموت بالتوليد . وما أقصر ما يبدو الحب في مرارة الحقيقة البعيدة عن الأوهام ، ومع ذلك فما أدومه إذا نظرنا إليه من خلال البشرية . . . وكيف ينقذ بضعة منا آخر الأمر من الهلاك ، فيحفظ حياتنا محددة في شباب الطفل وقوته . ونحن قد نمل الثروة، وقد تكون حكمتنا بصيصاً من النور لا يبعث حرارة ، ولكن الحب يدق القلب بسلوان لا يمكن التعبير عنه ، ويزداد دفء القلب إذا كان عاشقاً لا معشوقاً .

الفصل الثامن

الرجال والنساء

١ - حرب الحب

كان جوركي وتشيكوف يتجولان في القرم. فأقبلا على تولستوى الذى كان يجلس بجانب الشاطئ وقد مال برأسه بتأمل حتى مست لحيته الرمال . فجلسا إلى جانبه وشرعا يتحدثان عن النساء . وظل تولستوى ساعة يصغى فى صمت ثم قال فجأة : « أما أنا فلن أحدثكم عن حقيقة المرأة إلا حين أضع قدمي اليمنى فى القبر . سأعلنها صريحة ، ثم أقفز فى التابوت ، وأعطى نفسي وأقول : « افعلوا ما شئتم بي الآن »^(١) . وحين دعا الكونت كيرلنج برناردشو للمساهمة فى كتابة فصل فى « كتاب الزواج » رفض شو قائلاً : « لا يجروا أى رجل أن يكتب شيئاً عن حقيقة الزواج حين تكون زوجته على قيد الحياة » . ومع ذلك فسوف نشرع فى الكتابة عنه ، مقتصرين فى هذا الفصل على تحليل أنواعه المتوسطة والتقليدية مؤجلين الفحص عن تحرير الأقلية الحديثة من النساء إلى الفصل التالى .

وتعد آداب هذا الموضوع أمتع الآداب وأبعدها عن الثقة . فهى ممتعة لأنها تتصل مباشرة بأنفسنا ، إلا إذا تحدثت عن أخطاء البشرية ورتائلها . أما أن هذا الأدب مما لا يعول عليه فلأنه حكاية عن السيرة الشخصية ، وكل سيرة شخصية فهى ، قصة خيالية fiction ، لأنها فى الغالب صوت الانتقام ، ولا يقدم على كتابتها إلا المحارب المهزوم . وحين يؤلف أحدنا كتاباً عن النساء يدونه بجروحه (وهذا لا ينطبق على مجرد الفصول من كتاب) . وعندما يكسب الرجل قلب المرأة (إذا كان شخصاً مهذباً) فذلك على أمل الزواج منها كما كان يفعل اليونان بعد رقصة الحرب ، ثم يحتفظ بعد ذلك بصمت حكيم . . . لأن

(١) Gorki, M., Reminiscences of Tolstoi, p. 65

اثنين لا يتكلمان في وقت واحد . أما إذا خسر ، فإنه يؤلف الكتب . وأمنع من المقالات التي كتبها شوبنهاور ونييتشة وفيننجر وغيرهم من المصابين بداء الغرام الذين كتبوا عن الجنس اللطيف ، هو ذلك التحليل الذي يكتبه عن الرجال النساء اللاتي يفهمن الطبيعة البشرية ويعاملنها بذكاء أعظم من ذكاء الرجال المشوب بالتردد . ولكن النساء أمكر من أن يفحصن عن ذات أنفسهن في صفحات الأدب ، فهن راضيات بتحقيق رغبتهن ، وعلى عدوهن إذا شاء أن يؤلف الكتب .

وكل شخص عادي لا بد أن يكون متحيزاً بشأن هذا الموضوع ، فهو لا يعرف إلا نصفه معرفة ذاتية ، وأكبر الظن أنه لا يعرف إلا شطراً من هذا النصف معرفة وثيقة ، وحتى هذا الشطر فهو لا يعرفه معرفة صادقة أو جيدة . وكذلك من العسير أن يكون الإنسان منصفاً في زمن الحرب . من أجل ذلك كان العلم ضعيفاً في هذا الميدان . أما ملاحظات الأستاذ ثورنديك البسيطة والعرضية ، ونتائج اختبارات الذكاء ، فإنها محاولات سريعة لفرع من البحث لم يكند يقدم على النمو . ذلك أن آخر بحث في النوع الإنساني هو الإنسان ، وآخر علم هو علم النفس ، وآخر فرع في هذا العلم هو المرأة .

ومع ذلك فلنكن على حذر ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً . سنقسم الطبيعة البشرية تقسيماً مريحاً ولو أنه صناعي ، إلى الغرائز الأساسية التي تتكون الطبيعة البشرية منها ، وسنسال في كل حالة كيف يختلف عقل المرأة وخلقها عن عقل الرجل وخلقها . وسنفترض (مع احترامنا للسلوكيين) أن الإنسان خلق مزوداً ببعض الاستعدادات السابقة والميول الخاصة بالاستجابة والشعور ، التي سماها الفلاسفة وعلماء النفس منذ شوبنهاور غرائز . وسنصنع تصنيف الأستاذ مارشال لهذه الاستعدادات الموروثة بحسب تحقيقها لأغراض الفرد أو الجماعة أو الجنس^(١) . فهناك بعض الغرائز - مثل الحصول على الطعام ، والقتال ، والهرب ، واللعب - تتجه إلى خدمة الفرد . وتتجه بعض الغرائز الأخرى مثل حب الاجتماع Gregariousness وحب التوافق approval - إلى حفظ الجماعة . وغرائز أخرى أيضاً - مثل الاتصال الجنسي والعناية بالبنين - ترمى

Marshall, H.R, Instinct and Reason. (١)

إلى حفظ النوع . وها هنا بعض المسائل موضع مناقشة ، ولكننا لا يجب أن ندخل في مجادلات فنية لا تؤثر في هذه المشكلة تأثيراً حيوياً (١) . كل ما نحتاج إليه هو أن نسأل هل يختلف الرجال والنساء في الحصول على هذه الغرائز نوعاً أو درجة . وسوف نبدأ بالغرائز الجنسية أو التناسلية لأنها بالنسبة إلى غرضنا الحاضر أهم سائر الغرائز ، وتكاد تفيض عن عملياتها المختلفة جميع تلك المميزات التي تفصل بين الجنسين في الجسم والخلق والعقل .

٢ - اختلافات الخلق Character

(١) الغرائز الجنسية Racial

يصدم الذكر بامتياز الأنثى في عالم الحيوان، لا في الحجم فقط (كما رأينا) بل في تفوقها الحيوي باعتبار أنها هي التي تحمل مباشرة جسم الجنس . وفي المراتب الدنيا للحياة. يجري التناسل بالانقسام ولا يوجد جنسان ، وفي النوع الإنساني تم عملية التوليد. فعلا في الأنثى التي تولد بالانقسام تماماً كالحال في الأميبا. أما وظيفة الرجل فعرضية ووسطحية ، وليست ثمة لا غنى عنه ، فقد أبدت تجارب المعمل مظاهر الطبيعة في البرهنة على أن الذكر زائد عن الحاجة على الإطلاق . ويترتب بوضوح على ذلك أن الأنثى من جهة النوع في مرتبة أولى وأساسية ، وأن الذكر ثانوي ومساعد . فالذكر يتضمن الوظائف ويتخصص فيها، وهي تلك التي كانت تؤدي من قبل بدونه . وهو يلعب في مأساة التناسل التي تدور عليها الحياة كلها دوراً صغيراً ، يكاد أن يكون زائداً عن الحاجة . فهو ينتحي في أزمة الولادة جانباً خجلاً عاجزاً ، ويفطن آخر الأمر إلى مقدار تفاهته وتبعيته في تطور الجنس . ويعرف في تلك اللحظة أن المرأة أشد منه التصاقاً بالنوع ، وأن تيار الحياة العظيم يفيض صاحباً عن طريقها ، وأن الخلق

(١) الأسلوب الذي جرت عليه العادة في نفي وجود الغريزة هو بيان أنها ليست متبعة في الصبا . ولكن معظم الغرائز لا تظهر بطبيعة الحال إلا في فترة معينة من الحياة معتمدة اعتماداً أساسياً على نمو القوى الفسيولوجية المطلوبة . ومن أوضح الأمثلة على ذلك المشي والقتال والحب .

من دمها ولحمها ، ويفظن عندئذ لم كان البدائيون وأصحاب الديانات الكبرى يعبدون الأمومة .

ومن الواضح أن عفة المرأة الشديدة تخدم أغراض التناسل . ذلك أن تمنعها على استحياء يعين على الانتخاب الجنسي ، إذ يمكنها من التمييز بين المحبين واختيار ذلك الذى سوف يظفر بأن يكون والد أطفالها . وهنا نجد أن مصالح الجنس والجماعة تتخذ من المرأة سبيلاً إلى التعبير ، كما أن المصالح الفردية تجد صوتها القوي في الرجل . حتى إذا نفذت غرضها وحقت ذاتها بالأمومة زال حياؤها . وإنك لتجد الأم الفلاحة التي كانت قبل أمومتها شديدة الحياء ، تفخر بأن ترضع ابنها أمام الناس في بساطة بهيجة ، وهي على حق في ذلك لأن هذا المنظر هو أحب المناظر والصور في عالم الحياة والفن .

والمرأة أبرع في الحب من الرجل ، لأن رغبتها عادة أقل حدة من رغبته ، فلا تغشى أحكامها بالغموض ، وهذا هو سر حكمتها التي اشتهرت بها منذ القدم . ويذهب دارون إلى أن أنثى معظم الأنواع لا تحتفل بالحب نسياً . ويصور لنا لومبروزو ، وكيش Kisch ، وكرافت إبنج Krafft-Ebing ، وغيرهم من الباحثين الذين اقتحموا أبواب هذا الموضوع الذى يخشى الملائكة بحته ، أن أربعين في المائة من الجنس الضعيف يتمتعن بمثل هذا البرود apathy ، وبلاذنا على العكس من ذلك . ويقولون أيضاً إن المرأة لا تنشد اللذة الحسية بقدر ما تنشد الإعجاب الشامل بحاجاتها والعناية الشديدة بها . وكثيراً ما يرضيها مجرد اللذة بشعورها أنها مطلوبة . وفي ذلك يقول توماس هارى : « حب المرأة أن تكون محبوبه يرضى نفسها غاية الرضا » (١) .

ويجد ما سميناه بشكل غامض بالعنصر الروحاني spiritual في الحب — هذا الجانب من الحب الذى لا يفكر في البدن — صدرأ رحباً في المرأة أكثر مما يجد في الرجل . ويعتقد بعض الباحثين في قلب المرأة المغلق أن حبها أمى maternal أكثر منه جنسى . أو كما يقول لومبروزو : « ليس حب المرأة

(١) Jude the Obscure, p. 286.

في طبيعته الأساسية شيئاً أكثر من صفة ثانوية للأمم ، ولا تنشأ كافة مشاعر الحب التي تربط بين المرأة والرجل من الدوافع الجنسية ، بل من غريزتي الخضوع subordination والاستسلام المكتسبتين بالتكيف^(١) . وكان ألفريد دي فيني يظن أن حب الرجل ذكري رضاعته ثلثي أمه ، ورغبته فيه . ومن يدري لعل كل محب بالنسبة إلى المرأة ليس إلا طفلاً آخر يدل ويطعم ؟

ومع أن حب المرأة أقل في عمقه من حب الرجل ، إلا أنه أعظم عرضاً ، حتى لينفذ إلى كل زاوية من حياتها . فهي لا تعيش إلا إذا كانت محبوبة ، والالتفات إليها محور حيويتها . ويروى أن أحد حكام فرنسا أنب امرأة لمعيشتها إلى جانب لص ، فأجابت : « لست شيئاً إذا لم أحب » . ولعل هذه الحاجة النفسانية هي التي كانت في ذهن فينجر حين ذهب إلى أن المرأة لا « روح » لها أي أن حياتها تتجه (أو كانت تتجه ؟) إلى أن تركز حول رجل . وهذا وهم ، لأن المرأة لا تحاكي إلا أفكاره ، أما فيما بينها وبين نفسها فإنها تظل وحدها ، وتحفظ بعزمها . وهي تعرف أن الرجل في حبه غير المحدود لذاته قد ينفر منها إذا أبرزت الشيء الكثير من شخصيتها .

وإذا كانت المرأة تتفوق على الرجل في فن الحب ، فهو يمتاز عنها بالصدقة . وقد يرتفع الرجال إلى مرتبة الأصدقاء ، أما النساء فلا يتجاوزن نطاق المعارف . وإذا ذكرت المرأة غيرها من النساء بخير اضطربت النجوم في أفلاكها . ويجد النساء صعوبة في الحديث ، ويشعرن بضجر شديد في حضرة بعضهن البعض ، ولا يحتملن ذلك إلا بالتحدث عن الرجال . وهذا شيء طبيعي ، كما لاحظ لاروشفوكو^(٢) La Rochefoucauld منذ زمن طويل فقال : « العلة التي من أجلها لا يقبل معظم النساء على الصداقة ، هي ما يشعرن به بعد هجر الحب من أن الصداقة لا طعم لها » . فالحب كما قال الشاعر يشغل جزءاً

(١) In Kisch, The Sexual Life of Woman, p. 133.

(٢) (١٦١٣ - ١٦٨٠) أحد دوقات فرنسا ، ألف مجموعة من الحكم أو التأملات

(١٦٦٤ - ١٦٦٥) و مذكرات نشرها ١٦٦٢ ، يصف فيها هزائمه السياسية ضد الكردينال

ريشيو . أما حكمه فهي نظرات صائبة حكيمة عن الحياة بوجه عام . (المترجم)

من وقت الرجل ، ولكنه يملاً حياة المرأة كلها . وبعد ، فأحوالنا هي ما يجب أن نكون عليه .

وغيرة الرجل كحبه أكثر عمقاً ، وأقل عرضاً أو طولاً . فالإحساس بالامتلاك أقوى في الرجل ، ويؤلف نصف حبه . فليس الحب مجرد نكران الذات فقط ، بل هو على ما في ذلك من تناقض توسيع للنفس وانتصار لها . والغيرة هي غريزة الكسب التي يضايقها التنافس . إنها إجراء محاكمة للاعتداء على الأصل . أو كما قيل : « أنا السيد يا ربني ، اللهم لا تجعل أرباباً أخرى تقف في طريقي » . ولا تهتم المرأة اهتمام الرجل بأن يكون زوجها خالي القلب من قبل . ولكن غيرتها التي تفقدها في الشدة والعمق تزيد في السعة والعرض ، فهي لا تغار فقط ممن يحب زوجها ، بل من أصدقائه ، وجليونه ، وصحيفته ، وكتبه . ثم تسعى شيئاً فشيئاً إلى الفصل بينه وبين أصدقائه ، فإذا لم تستطع أن تفعل ذلك غازلتهم ، فتجمع بين المكر والخطيئة . ولا يزعجها أن يبدي الرجل غيرة من المعجبين بها ، بل يلد لها هذا الشعور ، وتشجعه فيه ، لأنها تعلم أنها لا تكون مطلوبة إلا حين يجد امتلاكه إياها مزعزعاً . وهي تترك بحكمها الفطرية أن الغيرة لا يفضلها دواء آخر للحب الزائل . ومع ذلك فلا بد من أن نغفر لها هذه الأخطاء البديعة لأنها في مركز ضعيف وتحتاج إلى هذه الفنون توازن بها امتياز الذكر الجسماني . يجب عليها أن تحمي نفسها بأي ثمن ، لأن الجنس يعول عليها في استمراره وقوته . إنها تدفع ثمناً غالياً جداً لنصيبتها الصغير في الحب تبرر به شكوانا من خداعها . ويقول نيتشه : « لا يستطيع أحدنا أن يكون عظيم الرقة مع النساء » (١) .

(٢) الغرائز الفردية

وظيفة المرأة خدمة النوع ، ووظيفة الرجل خدمة المرأة والبنين . وقد يكون لهما وظائف أخرى ، ولكنها تتبع بحكمة هاتين الوظيفتين . ذلك أن الطبيعة قد بثت في هذين الغرضين الأساسيين وشبه اللاشعوريين ما فينا من معنى وسعادة .

من أجل ذلك كان عمل الذكر الطبيعي هو الحماية ، والكسب ، والمغامرة .
ومهمته أن يترك العش أو البيت بحثاً عن الطعام ، فهو سبيل الحياة إلى التغذية ،
كما أن المرأة أداة الحياة للنسل . والطعام غايته القسوى ، وهو إذا أصبح محصلاً
لأشياء أخرى ، أو لأى شىء آخر ، فذلك لأن (ولو أنه لا يشعر بذلك) هذه
الأشياء الأخرى تمثل الثروة التى تؤمن فى الأزمان الحصول على الطعام . وكان
مترو دورس Metrodorus يقول : إن كافة الأشياء الحميلة ذات صلة بالبطن .
ومع أنه ليس من الأدب ذكر هذا القول إلا أنه صحيح إلى حد كبير عن ذكور
النوع الإنسانى ، فالرجل يحب الطعام حباً جماً ، ويمكن بسهولة إخضاعه عن
عن طريقه . وهو أكثر غراماً من المرأة بالطعام والشراب . ومنذ أن قلمت حواء
التفاحة لآدم ، والمرأة تحكم الرجل عن طريق معدته ، مفسدة هضمه وأخلاقه
فى آن واحد .

وأصبح الذكر محارباً بعد أن ضرب فى الأرض يبحث عن الطعام .
وذكور الحيوان تحارب بالأنياب والمخالب ، ويتخذ الرجال من المنافسة المالية
سلاحاً ، أما الأم فتتحارب بالحيوش والأساطيل والصحف . وكان كبلنج يظن
أن الأنثى أشجع فى القتال من الذكر . ولكن لعله قاسى من جرح (شرق
قنال السويس) أفسد نظره . ذلك أن طبيعة المرأة البحث عن المأوى لا الحرب .
وفى بعض الأنواع تبدو الأنثى هادئة بغير غريزة القتال . وهى لا تقاتل مباشرة
إلا من أجل صغارها ، فإذا رأينا فيها قوة توحش فذلك بسبب هذه الضرورات
الجنسية . ولكن من الواضح أنها أقل ميلاً إلى العنف ، وغالباً ما ترتبط جرائمها
النادرة بفترات اضطرابها الفسيولوجى . وهى أكثر من الرجل صبراً . وإذا كان
الرجل أكثر شجاعة فى أزمان الحياة الكبرى وأمورها ، فالمرأة تلجأ إلى قوتها اليومية
الدائبة لمواجهة مشيرات العيش الصغيرة التى لا حد لها . وهى تتحمل المرض أكثر
هدوءاً ، كما لو كانت تجد فيه لذة غامضة وشيثاً من الراحة من عناء عملها
اللانهاى . أما الرجل فلأنه لم يتعود الحياة الراكدة فيتحمل المرض فى قلق ، ويخبر
جميع الناس بالآلامه .

ومع ذلك فالمرأة مقاتلة بكهانة . إنها تقبل على الجندى ، وتبهج بالرجل

ذى السلطان . ويبدو في صيحاتها عند رؤية القوة عنصراً غريباً من القسوة ، حتى لو كانت هي نفسها الضحية . وهي تنتخب في جميع الأجيال الذكر المقاتل ، كأنها تفكر دون وعي في الحماية التي يحتاج إليها بيتها وصغارها . وقد تغلب في بعض الأحيان هذه المتعة القديمة بالرجولة على إحساسها الاقتصادي الحديث فتتزوج من أحمق إذا كان شجاعاً . إنها تخضع بفرح للرجل الذي يستطيع أن يأمر . وإذا كانت المرأة تبدو في هذه الأيام أقل ميلاً للخضوع ، فذلك لأن خلق الرجال أضعف مما كان من قبل . ولعل روتين الصناعة المذهل ، وتكلف الحياة العقلية المثير للأعصاب ، مما عود الرجال العبودية ، وانتزع منهم الشجاعة ..

ولا تنتصر المرأة بالقتال أو الشجاعة ، بل بالمثابرة والثبات . وقاتل الرجل أشد وأصرح ، ولكنه أقل ثباتاً . وهو أكثر منها استعداداً للصلح أو التسليم في سبيل السلام . وقد يزجر في وجه زوجته أو يضربها ، ولكنها تنتصر في النهاية بالتكرار والإلحاح ، كما ينتصر الإعلان . وإذا كانت تعاود الكرة فلأنها لا تستطيع الإضراب ، فالأنواع والشعوب والأجناس والأفراد الضعيفة غنية بالصبر والخداع . فهذا نابليون لم يستطع حكم زوجته ، مع أنه تمكن من حكم قارة . ولم تجد قوته في ضعف جوزفين البدني وجبنها الهدف الذي تتجه إليه ، ولم يكن عنده سلاح يقاوم به أسلحتها التي كانت تستعملها .. وفي ذلك يحدثنا نابليون قائلاً : « كثيراً ما كانوا يمتحدون قوة خلقى ، ومع ذلك فلم أكن في نظر أسرتي إلا رجلاً ضعيفاً ، وكانوا يعرفون عنى ذلك . وكانوا يتغلبون على غضبي بالمثابرة والعناد ، ويرفعون ما يريدون منى لمجرد السأم» (١) . ويعبر هذا الكلام عن الأنشودة اليومية التي تغنى في كل بيت . ولم تكن الأمور في صالح الرجل في تلك الأيام المترفة حين كانت زوجة الطبقة المتوسطة تعيش وتزدهر عاطلة في بيتها الخالي من العمل ومن الأطفال . فالرجل يعود إلى منزله منهوك القوى بعد عمل اليوم ومتاعبه ليجد عدوه القديم في انتظاره على نشاط جم متجدد فينهزم قبل أن تبدأ المعركة . أما إذا حالفه الحظ وانتصر ، فليس على المرأة إلا أن تبكى فينهزم أمامها . وكانت

(١) Johnson, R.M., The Coriscan, p. 45.8

ماريا لويزا تفخر بأنها تحصل دائماً على ما تطلب إذا بكت مرتين . وتتخذ الزوجة الحكيمة هذه القاعدة الأساسية في الحرب : « إذا لم تنجحى أول مرة ، فعليك بالبكاء مرة أخرى » .

ويبدو أن الأنثى تتخذ موقفاً أقل إيجاباً من الذكر مما قد نسميه غرائز الحركة ، كالحب ، والمشى ، والقذف ، والقفز ، والتسلق ، والجرى ، واللعب . فالذكر أميل إلى الحركة عديمة النفع ، والأنثى إلى الاستقرار الزائد عن الحاجة . والمرأة أكسل ، وهى كذلك أخطر الحنسين ، لأن البطالة رأس الفساد . ولكى يكون المرء فاضلاً ، كما يكون سعيداً أو لطيفاً ، يجب أن يشغل نفسه بشىء ما .

(٣) الغرائز الاجتماعية

رأينا فى مجموعة الغرائز التى استعرضناها أخيراً ، وهى الغرائز التى تحفظ الفرد ، أن تفوق الرجل واضح وطبيعى . أما الغرائز التى تحفظ الجماعة ، فالمرأة تتفوق كما تتفوق فى الغرائز التى تحفظ الجنس . فهى أشد ميلاً إلى الاجتماع والمعايشة من الرجل ، وتحب الصحبة والمجتمعات ، وتستسلم فى سرور لإجماع الجماهير . إنها لا تسأل عن أفضل التمثيليات ، أو الحفلات الموسيقية ، أو أماكن اللهو ، بل تسأل عن أكثرها امتلاءً بالحضور ، ولو أن الفرق بينها وبين الرجل فى هذه الناحية ضئيل . (على أقل تقدير تسعى المرأة أن تحب الأفضل ، فى حين لا ينقاد الرجل العادى إلى حضور الحفلات الموسيقية ، ومعارض الفن ، والتمثيليات إلا خوفاً من زوجته) . وهى أقل من الرجل قدرة على العزلة ، وقل أن تجد من بينهن ناسكات . وإنها لتشعر بالنقص بدون الرجل ، أكثر مما يشعر هو بدونها . . . ولا ريب أن ذلك يرجع إلى حاجتها لحمايته ، وعادة لقيادته . إنها حيوان اجتماعى .

لذلك كانت المرأة أكثر ثرثرة . ويقال إن المرأة لا تحفظ سراً . وكان فرانكلين يظن : « أن السر لا يحفظ بين ثلاثة إلا إذا مات منهم اثنان » . فإذا أردنا أن يكون هذا القول صحيحاً عن الحنسين فلا بد أن نرفع نسبة الوفيات . ومع ذلك تستطيع المرأة أن تقاسى فى صمت مدة أطول من الرجل ، وذلك

كما يقول مرديث Meredith : « على طريقة النساء اللاتي تشبه صدورهن القبور »^(١) . والمرأة أكثر من الرجل تعبيراً ، لأنها في الغالب أشد خضوعاً للوجدان والانفعال . وهذا هو السر في أنها أكثر قبولاً للأمراض العصبية - كالكوريا chorea ، والرجفة ، والهستيريا ، والتلبس obsession ، والخوف phobia ، والأوتوماتزم ، والوساطة الروحية ، وغير ذلك - كما يرجع ذلك إلى الكبت القوي الذي يفرضه المجتمع على دوافعها الشهوانية . ونحن نجد أن وجه المرأة يكاد يكون متحركاً كحديثها ، فهي لم تتعلم كرجل الشعب الصابر أو رجل الأعمال الحذر ، أن تحتفظ بسحنة جامدة إزاء تيار المكسب والخسارة ، واللذة والألم . ويصاحب هذا التعبير السريع في وجهها مقدرة أعظم على استقراء علامات الشعور والتفكير في غيرها من الناس . ولذلك كان خداع المرأة أصعب من خداع الرجل - كما يتبين لكل من جرب الاثنين .

ويختلف حب الاجتماع كما وضع جالتون باختلاف الحياء والمحاكاة . فالمرأة تترك عادة المبادأة للرجل ، حتى (على الرغم من شو) في الحب . وهنا تظهر قبل كل شيء سيادته . أما إذا لم تسكره أول كأس من الرغبة ، فقد يظل مبقياً إياها سنوات تنتظر حسابها وجمعه وتجاربه الجنسية . والمرأة غير واثقة بنفسها ، إذ تخضع دائماً لضعفها الحسنى وتبعيتها الاقتصادية ، مما يحد من شجاعتها ، ويحجبها عن الثورة أو العمل . إنها تتشبث بالمألوف والمتعارف ، محاكية الماضي في تقوى ، ومقلدة بحالة عصبية كل ريح حديثة تحمل البدع في الملابس أو السلوك أو الأفكار . وهي أسرع من الرجل إلى اعتناق (التقاليع) والخزعبلات التي تتجه في أمريكا نحو اتخاذ مكان التقدم الفكري السليم . وينقب المحلل النفساني

(١) Ordeal of Richard Feverel, p. 32.

جورج مرديث (١٨٢٨ - ١٩٠٩) روائي انجليزي اشتهر في رواياته بتحليل المشكلات الاجتماعية والدراسة الإنسانية ، وأشهر قصصه « محنة ريتشارد ففريل » كتبها سنة ١٨٥٩ ، وخلاصتها أن ريتشارد يقع في العشرين من عمره في حب فتاة ريفية وهي لوسى ويتزوجها ، فيغضب أبوه ويفرق بينهما ، ويتصل ريتشارد بفتاة من بنات الهوى ، وتقع لوسى في حبائل أحد النبلاء . ويرجع ريتشارد فتعلم بسيرة زوجته ويغضب (المترجم) .

تنقيباً شهوانياً في نفسها المضطربة ، ويهدئها الوسيط الروحاني بظهور الأشباح ،
ويجد كويه M. Coué في خيالها السهل التصديق مادة سهلة .

والمرأة لا تجسر على مخالفة المعايير والمتوسطات دون اهتمام كالرجل ، وهي
تخرج للعالم عدداً أقل من البلهاء ومن العباقرة . وهي أكثر شهاً بينات جنسها
من الرجل بغيره من الرجال . ذلك أن ضغط البيئة المتغيرة ، وتعدد الوظائف ،
والمهن والحرف أدى إلى تميز الرجال إلى أصناف كثيرة . ولكن صناعة البيت ،
التقليدية ، واشتغال المرأة منذ القدم بالبحث عن زوج وتربية الأبناء ، كل ذلك
أثر في معظم النساء وصاغهن في بوتقة واحدة ، وإذا كانت وجوههن مختلفة
فأنفسهن دائماً واحدة . ولعل إلى هذا يرجع بعض السبب في انتقال الرجل في
يسر من محبوبة أو من خليقة ، إلى محبوبة أخرى أو خليقة أخرى ، ولا يحتاج في
ذلك إلا إلى معرفة اسم جديد لا إلى تعلم فن جديد ، بل قد تفيد الحروف
القدمية في بعض الأحيان . أما المرأة التي أحبت وهجرها حبيبها فقد ترى جرحها
مما يصعب اندماله ، لأنها ربطت روحها بصورة خاصة ، وسيعيش قلبها على
الذكريات . أتى ذهبت .

وآخر ما يترتب على غريزة الاجتماع في المرأة غرامها بالتأييد الاجتماعي ،
فراى جيرانها له وزنه بالنسبة إليها أكثر مما هو بالنسبة إلى الرجل ، لأن العلاقات
الاجتماعية تمتص من حياتها الساعات التي لا تشغلها في الحب والأمومة . وهي
تمتاز عن الرجل بالزهو ، لأنها أكثر وعياً بفضائلها وجمالها ، وقد تقضي نصف
ساعة تضع المساحيق على وجهها ، ولو أن الفرق ليس كبيراً بين زهو المرأة
وغرور الرجل . ويؤدي إفضاؤها عن ذات نفسها إلى القيل والقال ، ويقودها
التقليد إلى التطابق . وهي أشد من زوجها شوقاً إلى الظهور في العالم . وتعطشها
إلى المنزلة عبارة عن نصف الريح التي تدفع شراع سفينة زوجها . ولذلك كانت
تحس بنقص شديد عنن هم أعلى منزلة منها ، وأسمى كثيراً ممن هم أدنى منها .
ولكنها لنفس هذا السبب أكثر أدباً من الرجل ، ولحساسيتها الاجتماعية مع
أمومتها أكثر منه عطفاً وشفقة . ويعوض عن زهوها اللطيف حسن اعتبارها ،

ورقتها ، ومسارعتها إلى العناية بالمرضى ومساعدة الضعيف ، وصفاتها الموهوبة التي تميل بها إلى الإيثار والحلق الحميد .

وأخيراً فإن هذه المميزات العقلية والقلبية تجعلها أكثر تديناً . ذلك أن انفعالها المرهف يهديها إلى سرعة الإحساس بنداء الدين العميق الذي يتجه للحواس والمشاعر . هذا إلى أن الكبت الشديد على ميولها الشهوانية يتركها مثقلة بولاء غامض يرتبط بكل موضوع للعبادة . وشعورها بألوان الحرمان التي تجعل الحياة حزينة أكثر حدة من شعور الرجل ، كما أن رغبةا في الاتحاد مرة أخرى بأولئك الذين أحبهم وفقدتهم يقنعها بالاعتقاد في الخلود . والطبيعة نموذج رائع لها . ومن يدري لعل المرأة في عجزها المتواضع عن الفهم ، قد تكون ألصق بسر الطبيعة من علمنا الميكانيكي ؟ إنها تعبد الله بالغريزة ، في الوقت الذي قد ينشد فيه الرجل لرقابة على نفسه . وهي لعجزها الحسائي تلتمس حماية الله القادر على كل شيء ، وتطلب هداية السماء في صلاتها حين يقفل عقلها في هذا العالم . وهي تتعطش إلى الوجود في الحضرة الإلهية خوفاً من العزلة وحباً في المجتمع ، وتعمر الفضاء بالأرواح التي تؤنسها في وحدتها وتعينها على حاجتها . وهي أول من يرحب بالصور الجديدة من الاعتقاد ، وآخر من يتخلى عن القديم . ولقد يقتل الإنسان نفسه في ساعة اليأس ، أما المرأة حين تفقد كل أمل فإنها تعتمد على رحمة السماء ، وتلتمس القوة والعزاء في الرب الحبيب .

٣ — الاختلافات العقلية

هذه هي غرائز الرجال والنساء . لكن لا يجب أن نفترض أن مثل هذه الميول الأولية تظل دون تغيير مع التجربة والتعليم . ففي كلا الجنسين تنمو العادة . ويقوم العقل على أساس هذه الاستعدادات . فكيف يختلف هذا البناء العقلي في الرجال عنه في النساء ؟

العقل في الرجال أوسع وأعلى . فقد خرج الرجال منذ أجيال كثيرة من البيت المعروف إلى فضاء العالم المتعدد الجنبات ، وكان عليهم أن يواجهوا مواقف جديدة وموثرات جديدة . لا تصلح لها استجابات الغرائز القديمة ، فاضطروا

بالضرورة (بعضهم فقط) إلى تنمية هذه القوة اللينة لتستجيب بنجاح في المواقف الحديدية ، وهذه القوة هي التي تكون ذكاء الغريزة . ذلك أن الغريزة أيضاً يمكن أن تكون على ذكاء . وليكن المؤثر أو الموقف من النوع التقليدي الذي واجهته الإنسانية قروناً طويلة ، تجد أن الغريزة خليقة بالكفاية ، بل هي أجدر أن تكون أكثر ذكاء ، نعى أفضل تكييفاً وأكثر نجاحاً من عمليات الفكر المزعزعة . وكانت المهام الأساسية في حياة المرأة إلى عهد قريب البحث عن زوج وتربية الطفل ، ولا يزال هذا الأمر صحيحاً بالنسبة لجميع النساء ما عدا نساء المدن الكبيرة ، وهو صحيح بالنسبة لجميع نساء المدن ما عدا نساء الطبقة الوسطى . وهاتان المهمتان الرئيسيتان من أقدم المشكلات التي واجهتها كل امرأة بمقدار ما نعى الذاكرة . وقد هيأت الطبيعة لهذه المواقف استجابات غريزية قد تؤدي في بعض الأحيان إلى نكبة ، ولكنها عادة نافعة ومعقولة .

لذلك تفضل المرأة (ما عدا الاستثناءات المدنية دائماً) الرجل في وحدة غرائزها وكمالها ودقتها . أما الرجل فأكثر نقداً وشكاً ، وأعظم بهيئة التفكير سقماً . فقد تعطلت غرائزه بالمرونة ، وفقدت ما فيها من مباشرة وثقة . وهو يرتبك دائماً في حضرة المرأة ، لأنها أشد بنفسها ثقة وأكثر استعداداً للعمل ، وأبرع في وضع الخطط وأسرع في تنفيذها ، حيثما كانت المشكلة تتعلق باصطياد الزوج أو الإبقاء على الحب ، أو إقامة البيت . ولا تجد رجلاً في الثلاثين يباري امرأة في العشرين في حرب الحب اللطيفة . راقب أي رجل مهما يكن شيخاً يحب امرأة مهما تكن صغيرة ، وانظر أيهما يطوى صاحبه في إصبعه . فهناك بعض الأمور تعرفها المرأة قبل أن تولد ، وذلك بالحق الأزلي للصبغيات الثانوية ، أما الرجل فلا يعرفها إلا بالتجربة الشاقة بعد زوال الوهم عنه . والمرأة تبصر أكثر مما تقرر ، والرجل يقرر أكثر مما يبصر . المرأة تفكر بغير فكر ، وتكذب بغير تفكير سابق . إنها تسبق الرجل في الكذب المخترع بمراحل واسعة ، وهي التي تفسر بغير اضطراب أي أزمة يكتشف فيها أمرها .

ولما كانت المرأة مهياًة منذ الولادة أفضل من الرجل لمهام الحياة العادية ، فإنها تنضج أسرع ، ومرحلة بلوغها أقصر . وقد وضعها بعض الرجال من أجل

ذلك في مرتبة أدنى من حيث النوع . وفي هذا الحكم شيء من التسرع ، إذ على هذا الأساس تكون السلحفاة أشرف مخلوقات الله . وقد يكون من المعقول أن نستنتج امتياز المرأة العقلية من نسبة وزن مخها الكبيرة ، بالإضافة إلى مخ الرجل ، إلى وزن جسمها . ولعل بلوغها السريع مكتسب ، وقد فرض عليها في ظروف قديمة قاهرة للأمم المبكرة . ويستطيع الرجل كذلك أن يصبح أباً في منتصف السن التي يتزوج فيها الرجل حديثاً ، ولكن الظروف الاقتصادية لا تسمح بذلك . والبلوغ يكون في العقل كما يكون في الجسم ، وله فروق كثيرة . فبعض الرجال يتم نضجهم مبكراً ، والبعض الآخر متأخراً ، والبعض الثالث لا ينضجون أبداً . ومن الواضح أن بلوغنا الإنساني يطول ، لأن عجزنا يزداد في وجه عالم يصبح كل يوم أكثر شمولاً وأبعد عن التجانس لاستعداداتنا وفنوننا الفطرية . وقليل من الرجال في الزمن الحاضر هم الذين يتم بلوغهم العقلي قبل أن يصلوا إلى منتصف الحياة . أما المرأة التي تقوم حياتها على إدراك الأمور الطبيعية والعميقة ببساطة ، فإنها تنضج جسماً وعقلاً في سن مبكرة . وهي أسرع إلى تعلم مباحج السلوك الاجتماعي . وهي أبرع في المدرسة من الصبي الذي يماثلها في العمر . وقد أثبتت أخيراً في كلية ردكليف Radcliffe امتيازها في الاختبارات العقلية على شباب هارفارد المثقفين . ولكن هذا النمو السريع يتجه إلى بلوغ التمام في وقت أسرع عند المرأة منه عند الرجل . فالمرأة لا تنمو بعيداً عما كانت عليه منذ الولادة كما يفعل الرجل المحرب المحنك . وهي تتشبث بالوراثة ، وهو يغامر فيما ينز . إنها أداة استقرار الجنس وأساسه ، وهو سبيل التغيير ونذيره . والمرأة جذع الشجرة الإنسانية ، وجذورها تتشبث بشدة في الأرض التي تنمو عليها ، وتمد جذورها في أمان كما تتطلع بفروعها في السماء .

أما الجانب من هذا الثبات فهو ضرب من المحافظة في الوجدان ولون من القصور في الفكر . ذلك أن مصالح المرأة تتعلق بالأسرة ، وبيئتها عادة هي البيت . فهي عميقة عمق الطبيعة ، ضيقة ضيق الحدران الأربعة . وتلائم الغريزة بينها وبين التقاليد ، ولذلك تحب التقاليد كما يحب الحبير الوسط الذي يكشف عن امتيازها . وهي أقل تجريباً في العقل والأخلاق (ما عدا بعض الاستثناءات

المدنية) . وإذا لجأت إلى « الحب الحر » فليس ذلك لأنها تجد فيه الحرية ، بل لأنها تياس من إتمام زيجة عادية مع رجل مسئول . وكم تفرح إذا استطاعت أن تجذب الرجل إلى جانبها وتضمه في البيت ! وحتى إذا كانت في شبابه قد راعتها عبارات الإصلاح السياسي ، وبسطت عاطفتها رقيقة على الإنسانية كلها ، فإنها تحب هذه المحاولات حين تجد الزوج الأمين . وسرعان ما تفصله ، وتفصل نفسها ، عن هذا الإخلاص العامل ، وتعلمه الولاء العميق المحدود بالأسرة . يقول الشاب في نشوة الغزل : « كم أود أن أهبك العالم » . فإذا تزوج فعل ذلك .

والأمرك كذلك في البيت . فالمرأة تعرف دون حاجة إلى التفكير أن الإصلاحات الوحيدة السليمة تبدأ من البيت . وهي تخدم الجنس حين تحيل المثالي الهائم إلى شخص يخلص لأبنائها . والطبيعة لا تحفل إلا قليلاً بالقوانين والدول ، وغوامها بالأسرة والأبناء ، فإذا استطاعت حفظهم فلا تبالى بالحكومات والأسر الحاكمة ، وتسخر من أولئك الذين يشغلون أنفسهم بتعديل الدساتير . وإذا كانت الطبيعة تبدو اليوم محففة في مهمة حماية الأسرة والطفل فذلك لأن المرأة قد نسيت الطبيعة في هذا التملك . ولكن الطبيعة لن تهزم طويلاً ، إذ تستطيع في أي وقت أن تعترف من مئات الوسائل المدخرة . فهناك أجناس وشعوب أخرى أكثر من عدداً وأعظم انتشاراً تستطيع بوساطتهم أن تحتفظ باستمرارها الثابت العزم ، والذي لا تلوى فيه على شيء .

٤ — المرأة والعبقرية

تولد المرأة مزودة بالذكاء ، الذي يحصله بعض الرجال ، ويستحبه معظمهم . وقد أصبحت الحياة بالنسبة إلى الرجل في ظل فوضى الثورة الصناعية المتغيرة ميداناً فسيحاً من المسئوليات المتعددة الألوان ، وليس له يد في اختيارها ولا يتوقعها . وقد انهارت أعصاب كثير من الرجال ، وتطور عقل كثير غيرهم تطوراً واسعاً ولامعاً بحيث يستخدم سائر الطاقة المخترنة في الجهاز العصبي ، وينشأ عن هؤلاء القوم عدد من العباقره والمجانين لم يعهد من قبل . وكما أن الصناعة

تبتلعهم ، كذلك تخضع المرأة لهذه القوة القاهرة من النمو العقلي . ولكن على الرغم من سرعة تغيرها فإنها لا تزال مختلفة عقلياً عن الرجل . ويبدو أن المرأة لا تستريح إلى الفكر المجرد ، فهي تلمح الوقائع وتحسن تذكرها ، غير أنها لا تحسن التعميم ، أو التأويل المبكر . وقد تنحرف عن الغرض وتغرق في التفاصيل . وهي تهتم بالأشخاص أكثر مما تهتم بالعمليات العقلية أو الأشياء . وهي لا تناقش المشكلات بمقدار ما تناقش الرجال ، لأن الرجل مشكلتها . وقد كتب عليها أن تشغل نفسها بالأشخاص ، بالزوج والطفل . وكتب على الرجل أن يدور في عجلة التجارة والصناعة ، وأن يفكر في الأسباب والعمليات والمسببات كما يتعامل مع النساء والرجال . ومن الأيسر على الرجل أن يسلي نفسه بقراءة كتاب ينشر فكرة . أما الكتاب الذي تقرأه المرأة فيجب أن يقص قصة . . . عن رجل . إنها لا تزال من أصحاب مذهب « الأنيمزم » فترى شخصيات إلهية وإرادة أبطال حيث ربما لا يوجد إلا عمليات غير شخصية لتغيرات كونية واجتماعية واقتصادية .

ومن بواعث رضا الذكور من الباحثين عن الاختلافات العقلية بين الجنسين ملاحظة قلة عدد العباقرة الذين قدمتهم المرأة للعالم . وحتى في الفن الذي قد يقال إن له بعض الصلة بالجمال ، وفي الموسيقى التي تضرب على الحساسية العاطفية ، فالمرأة قد أنتجت أقل مما يظهر أن جهودها وظروفها تسمح بذلك . وهناك نساء يعزفن الموسيقى أكثر من الرجال ، وعدد الرجال الذين يؤلفون المقطوعات الحية أكثر من عدد النساء . وعندما يعترف الرجال بالعبقرية العقلية أو الفنية في المرأة فذلك ريثما يسترجعون هذه العبقرية للرجل معلنين أنها تخص الذكور . ويؤكد لنا شوبنهاور أن ثمة حرباً بين العبقرية والأمومة . فإذا صدقناه انتهينا إلى أنه لا توجد امرأة متفوقة عقلياً دون أن تكون في مثل الشذوذ الخطر الذي كان عليه شوبنهاور . وكانت جورج ساند ^(١) George Sand تدخن سيجاراً خاصاً بالرجال ، وكان سينسر يجد جورج إليوت ^(٢) شديدة الذكورة

(١) جورج ساند (١٨٠٤ - ١٨٧٦) روائية فرنسية اسمها الأصلي أمانثين لوسيل ، ثم ترجمت وأسمت نفسها جورج ساند ، وأخفقت في زواجها وأنجبت طفلين ، ولها مغامرات غرامية كثيرة . (المترجم)

(٢) جورج إليوت (١٨١٩ - ١٨٨٠) روائية انجليزية اسمها الأصلي ماري آن إيفانز وتمتاز قصصها بدراسة الشخصيات والمشكلات الاجتماعية . (المترجم)

يحيث يصعب الانعطاف إلى روحها الباردة . وتذهب مدام جيراردين إلى أن المرء يستطيع أن يتتبع في كل رواية من روايات جورج ساند أثر آخر مجيها وسلوكه . وفي ذلك تقول : « إننا حين نتقد أعمال الكتاب النساء نكون غالباً مضطرين إلى القول في تعجب مع ينفون : - الأسلوب هو الرجل » (١) .

وأسباب قلة العباقرة في النساء كثيرة وعسيرة البحث . ولعلنا نعرف اصطلاح العبقرية في تحيز ناسين أنه قد يكون ثمة عبقرية في الأمومة كما يكون في السياسة أو الأدب أو الحرب . ويجب أن نحكم على المساواة في العبقرية ، لا بالقدرة على عمل كل شيء بمهارة متساوية ، بل بالقدرة على أداء المهام والوظائف الطبيعية لكل سن وجنس أداء ممتازاً . إننا هنا نقع في نفس الخطأ الذي يرى العبقرية أقل في عصرنا من عصور سابقة يبحث فيها الزمن سحرأ . فنحن نميل إلى البحث عن العباقرة اليوم في الميادين ذاتها التي ازدهرت بها في الماضي ؛ ولعل بعض القوة العقلية التي أبدعت الأدب والفن قديماً قد امتصتها الآن ميادين العلم والصناعة الواسعة . فنحن مستغرقون في الوقت الحاضر في ينل الجهود لصياغة العالم الطبيعي صياغة جديدة في ضوء معرفتنا وقوتنا الحديدتين . وعندنا الآن كبار المخترعين والعلماء والمنفذين للأعمال الدولية والمالين العلميين ، فلا ينبغي أن نتوقع في العصر نفسه أن يظهر أمثال أفلاطون وشكسبير وليوناردو وبتروفن .

ولعل الرجال قد تفوقوا على النساء في العبقرية ، لأن العباقرة يظهر ون عادة بين الأقلية المتعلمة من كل جنس ، لذلك كانت الموازنة كريمة إلى أن تتكافأ نسبة المتعلمين تعليماً عالياً في كلا الجنسين . فالعباقرة من الذكور خلاصة ملايين من الرجال المتعلمين . والعباقرة من الإناث زبدقة بضع مئات فقط من المتعلمات ، فإذا أفسح المجال والتدريب للمرأة أخرجت كبار الشعراء مثل سافو Sappho ، والروائيين مثل جورج إليوت ، وعلماء الطبيعة مثل مدام كوري ، وعلماء الرياضة مثل هيباتيا Hypatia وسونيا كوفالفسكي ، والمفكرين مثل أسباسيا ومدام دي ستال ، بل كذلك حكاماً أقوياء مثل الملكة إليزابيث وكاترين دي مديشي . ومن الملاحظ أن الظروف إذا كانت مواتية ظهرت كثرات من

(١) Brandes, G. Main Currents of Nineteenth Century Literature, vol. III, p.

71, note.

العباقره . ومن المحتمل مع ذلك أن المرأة ينتقصها الحيوية الجسدية الخالصة التي يحتاج إليها العمل الفني ، ولعلهن أقل من الرجال موهبة فيما يختص بحاسة الجمال التي تفتن النفس وتبعثها إلى الإنتاج الروحي . وقد يمكن أن نشير هنا مرة أخرى إلى هذا الضرب من الفتور الجنسي - أو قل إنه حساسية متأخرة - في النساء ، والذي يؤكده لنا كثير (من الرجال) من علماء الأمراض العصبية ، ولكن ليس له دليل كاف في الأخلاق المعاصرة . والمرأة على وجه العموم لا تنشد في زوجها الجمال بل القدرة والقوة كعهد بالحماية . أما الذكر فهو الذي ينتخب ناظراً إلى الجمال ، لا لأنه (كما نجد في عبارة ستانداي) سبيل إلى اللذة ، بل لأنه عادة عنوان القوة والصحة . وإذا كانت المرأة تفقد شيئاً من الهوس بالجمال فذلك لأنها لا ترغب في الامتلاك بمقدار ما ترغب في أن تمتلك . فهي لذلك تلهم الفن أكثر مما تنتجه . ولعلها لا تجد في الرجل ، هذا الرجل المتكبر المضحك ، الجمال الذي يبعث على الخلق . ولماذا تنشد الجمال وهي تتجسده ؟ إن الجمال الحى أفضل من أيهى فنون النحت والتصوير ، وأشرف حتى من الذكاء ، لأنها أصل الفن وغاية الذكاء . ولو أن الحياة كانت جميلة ما احتاجت إلى الذكاء ، أما إذا كانت الحياة ذكية فإنها تسعى جاهدة كما تصبح جميلة .

هـ - هل الاختلافات موروثية ؟

ليس أمامنا إلا سؤال أخير : هذه الاختلافات العقلية أهي موروثية أم مكتسبة ؟ والجواب عن هذا السؤال صعب ، لأن هذا الميدان ينافس فيه العلم الفلسفة في زعزعة المعرفة وكثرة الفروض ، وقد يمكن أن نجازف فنفترض بأن هذه الاختلافات ولو أنها مرتبطة بالاختلافات الموروثة للبنية والوظيفة ، إلا أنها في معظم الأحيان تنتقل اجتماعياً وتكتب فردياً . وهي تتوقف إلى حد كبير على المثل العليا التي كونها الرجال لمنفعتهم الخاصة عن النساء ، وفرضوها عليهن من خلال آلاف المؤثرات البيئية . وفي ذلك تقول إحدى الأساتذة محتجة : « يشجع الصبيان على الفردية ، فيدربون على الاستقلال في الفكر والعمل . . . ويشجعون على التجريب وعلى عمل الأشياء بأنفسهم . أما البنات فيعلمن الطاعة ،

والاعتماد على الغير ، والانقياد . ويحملن على الشعور بأن الإسراف في الاستقلال بالرأى أو العمل منقصة لهن ، فلا يلبق بهن ، أو لا يوافق أنوثتهن . أما الصبي فيعلم أن يشعر بأن نجاحه في الحياة . . . يتوقف على قدرته على أداء عمل جديد . . . ولسنا نجد مثل هذا الدافع الاجتماعى مطبقاً على البنات » (١) .

ويمكن من بعض الوجوه نتيجة تجارب واسعة أن نجيب إجابة علمية عما إذا كانت القروق العقلية والحلقية بين الرجال والنساء فطرية أم غير فطرية . وقد وجهت الظروف الاقتصادية التجارب ، وكانت الحياة نفسها المعمل . ويبدو كما لو أن الطبيعة قد وضعت لنفسها المشكلة التي تحيرنا ، وعزمت على حلها باختيار يكاد يكون كونياً . فقد كان الرجال متفوقين عقلياً على النساء : . . . ذلك بالوراثة أم بالبيئة ؟ وللجواب عن السؤال كان لابد من إخضاع عدد كبير من النساء للحياة الاقتصادية المتغيرة والمتباينة التي كانت تصوغ الرجال ، ثم نلاحظ بآى سرعة وعمق غيرت هذه الوظائف الواسعة عقل النساء العاملات وخلقتهن . وأصبحت جميع إنجلترا ونصف أمريكا مسرحاً للتجربة الكبيرة ، وفتحت المصانع والوظائف والمهن أبوابها للكلا الجنسين . وانتزعت الضرورة الاقتصادية الملايين إثر الملايين من النساء عن البيت القديم وقذفت بهن في طيش وحشنى إلى المنافسة الاقتصادية والتجارية مع الرجال . فماذا كانت نتيجة التجربة ؟

كانت النتيجة تحولاً نحو المرأة « المتحررة » . بلغ من السرعة حداً جعل العالم كله يفغر فاه دهشة . ففي خلال أجيال ثلاثة شق العاملات الحديدات بالصناعة طريقيهن في كل ميدان حيث لا غنى عن القوة الحسدية . واكتسبن في جميع هذه الميادين من صفات الرجل العقلية والحلقية ما يكفى لأن يجعل أى عالم أخلاقى في الممالك المسيحية يأسف على ترجل الجنس الذى كان ذات يوم أطف وأضعف . وأبرزت المحاميات وعالمات الطبيعة والحاكمات وقاطعات الطريق قدرة المرأة ، المحدودة بنطاق فرصهن التي لا تزال ضيقة ، على منافسة الرجل في فنونه التي أسسها من قديم . وتخرج في كليات الجامعات نساء لا يود أى رجل الزواج منهن ، لأن امتيازهن العقلى يتنافى مع بعض مزاعم الرجال في

(١) Thompson, H.B., Mental Traits of Sex, p. 178.

القيادة ، وهي مزاعم من لوازم الزواج ومصاحباته . لقد تناقصت الثغرة العقلية والحلقية بين الجنين بالسرعة التي حلت فيها الورش والمصانع محل المزارع والبيوت .

وسندرس فيما بعد هذا التغيير بتفصيل أوفى . ولكننا لا ننظر إلى هذا التغيير الآن إلا على أنه دليل على أن النساء إذا رغبن في حياة الرجل المهنية تماماً ، فعليهن منافسته والتماثل وإياه في الصفات العقلية والحلقية . ولكن أكبر الظن أن المرأة ستفصح عن ذوق أفضل من هذا . وسوف تنقضي هذه الفترة الحاضرة من التقليد ، وتكتشف المرأة أن الرجال لا يستحقون هذا الإطراء . سيدركن أن العقل يختلف عن الذكاء ، وأن السعادة كالحمال والكمال في تحقيق ذاتنا الطبيعية . ولن تسعى أولئك النساء السائرات في طريق التحرير أن يكن رجالاً ناقصات بل نساء كاملات . سيجعلن من الأمومة فناً يحتاج إلى إعداد وذكاء كما تحتاج إدارة الروافع والطنابير والمفاتيح والعجلات . وقد يكتشفن أن الأمومة هي أعظم سائر الفنون .

لقد جلبت عليهن حريتهن الحديدية. مشكلات من التعقيد والصعوبة كتلك التي كانت في عصر عبوديتهن . ولا يستطيع الرجال مساعدتهن في هذا المجال ، لأن عقل الرجل من الميكانيكية والحشونة بحيث لا تسمح له أن يفهم بدقة وعطف التغييرات الخطيرة التي تجعل حياة المرأة وعقلها مضطربين . معرفتها الحديدية وحدها هي التي تستطيع تلمس الحل لهذا الموقف الحديد . وأكبر الظن أنها سوف تنجح . فالطاقة التي حققت حريتها سوف تواجه المطالب التي بعثتها هذه الحرية . ستجد سبيلاً يجمع بين الحنان الذي يزدهر في الحب والأمومة ، وبين القدرة المتنوعة ، والذكاء النافذ ، والحمال الزائل ، مما تتميز به اليوم .

الفصل التاسع

المرأة الحديثة

١ - التغيير الكبير

لقد أغفلنا في التحليل السابق الحديث عن المرأة المصنعة في المدن الحديثة إلى دراسة منفصلة ، لأن هذا الصنف فديين النساء ، عزيز على التصنيف ، ويكاد يكون بغير سابقة في التاريخ . ولو تخيلنا أنفسنا في سنة ٢٠٠٠ ، وتساءلنا عن أبرز ملامح الأحداث الإنسانية في الربع الأول من القرن العشرين ، لرأينا أنه ليس الحرب الكبرى ولا الثورة الروسية ، بل تغير حالة المرأة . ولم يشهد التاريخ مثل هذا التحول المذهل في مثل هذا الوقت القصير . « فالبيت المقدس » الذي كان أساس نظامنا الاجتماعي ، ونظام الزواج الذي كان حائلا دون الشهوة الإنسانية وعدم الاستقرار ، والقانون الأخلاقي المعقد الذي رفع البشر من الوحشية إلى المدنية والتهذيب . من الواضح أنها وقعت بين برائن ذلك الانتقال المضطرب الذي أصاب جميع نظمنا وسائر أساليبنا في الحياة والفكر ، منذ أن اغتصبت المصانع المزارع ، وامتصت المدن موارد الريف الطبيعية والإنسانية . فإذا كانت عقولنا قد ترعزت بعض الشيء في هذا العصر الهائج فلها العذر في ذلك .

أما أن تكون المرأة مجرد جارية في البيت ، أو زينة اجتماعية ، أو متعة جنسية ، فتلك ظاهرة عرفتها عصور سالفة غير زماننا ، فهي مجرد ظاهرة وضرب من الشذوذ الأخلاقي يستحق الملاحظة العامة والالتفات . وقد طالب أفلاطون في جراءة بفتح باب كل عمل ، والمساواة في جميع القرص ، دون نظر إلى اختلاف الجنسين . ولكن أرسطو كان أكثر موافقة لميول عصره فوضع المرأة في مرتبة متأخرة من النمو ، وفسر وجودها على أنها إخفاق الطبيعة في أن تنتج رجلا . فهي

تتعلق بطبقة العبيد من حيث تبعيتها الطبيعية ، وعدم جدارتها بالمشاركة في الأمور العامة .

وتلك كانت كذلك نظرة يهوا Jehovah الذي جمع الأزواج والأمهات مع الماشية والأملاك الثابتة في آخر الوصايا العشر التي يقال إنه أنزلها على موسى . وقد صاغ اليهود (يهوذا) على صورتهم ، وكانوا كأى شعب محارب يعتبرون المرأة كارثة ، وشرّاً لا بد منه يحتمل باعتبار أنه المصدر الوحيد للحصول على الجند في ذلك الوقت . ولم يكن قدماء اليهود يوقدون أى شمعة إذا كان المولود بنتاً . وكان على الأم التي تلد أنثى أن تتطهر مرتين . أما الصبي ، فخوراً بالآية التي كانت عهد (يهوذا) عليه ، فكان يردد بانتظام في صلواته : « أشكرك يارب لأنك لم تخلقني كافراً ولا امرأة » (١) . ولكن اليهود لم يشذوا عن غيرهم ، ولو أنهم كانوا في كثير من الأمور خارجين على القوانين الأخلاقية في زمانهم . ففي كل مكان من الشرق كانت المرأة محتقرة حتى تصبح أم بنين ، ولا تشرف تمام الشرف حتى ينحر أبنائها صرعى في ساحة القتال . وحتى أفلاطون نصير المرأة فقد حمد الله لأنه ولد ذكراً .

ومنذ تلك الأيام حتى عصرنا الحاضر تغيرت دون شك أحوال النساء ومعاملتهن تغيراً عظيماً واختلفت اختلافاً بيناً ، ولسنا في حاجة إلى تفصيل ذلك على هذه الصفحات ؛ فالقيان Hetairai اللاتي أضيفن على الحياة الأثينية قديماً صورة بديعة ، والمحظيات اللاتي كن يعمرن بلاط الملوك في العصر الحديث ، التمس الحرية من سيادة الرجل بإبراز مفاتهن الجنسية والعناية باظهارها : فكانت أسباسيا Aspasia ، وفرينا Phryne تختلطان بالفلاسفة والفنانين ، كما كان صالون مدام دي باري وبومبادور مراكز عقلية لأسمى ثقافة عرفها العالم . وكانت الثورة الفرنسية تبشر في زمانها بحرية عالمية . فقدم كوندورسيه للمجلس الوطني طلباً بحق المرأة في الانتخاب ، وأضافت ماري ولشتنكرافت حقوق المرأة إلى حقوق الرجل . حتى إذا انقشعت دماء الثورة بعد أن قدمت المرأة نصف مليون من بنيتها لتحرير فرنسا ، وجدت أن أحداً لم يفكر في تطبيق الحرية

(١) Royden, A.M., Woman and the Sovereign State, p. 45.

والمساواة على البيت ، وأن الثوار الذين استولوا على التويلرى أمكنهم أن يحكموا زوجاتهم بيد قوية كالرومان الذين كانوا يحبون اصطناع أسمائهم . كانت الحرية وفقاً على الرجال لا غير ، وكانت مؤنثة لغوياً فقط .

وظلت هذه الآراء سارية في هذا القرن . فمن منا اجتاز الأربعين ولا يذكر الرسالة العنيفة التي أثبتت فيها أتوفايننجر أن المرأة لا روح لها ؟ ومن منا نحن الرجال لم يستمتع بقراءة كتاب شوبنهاور « مقال عن النساء » . حيث يقول : « هذا الجنس القمى ، ضيق الكتفين ، عريض الحقتين قصير الرجلين » ؟ ألم تملأنا نشوة التفوق حين نصحنا نيتشه قائلاً : « إذا أقبلت على المرأة فلا تنس أن تحمل سوطك ؟ » لم نلتفت إلى أن هذه الكتب التي استمتعت بها أعظم متعة لم تكن إلا جزءاً من الحرب الأزلية بين الحنسين ، فهي كتب حربية للذين ضرب عليهم الحصار تعبر عن حكمة المهزمين من الرجال . وفاتنا أن نلاحظ ، لأننا نشبه هؤلاء الشهود في تحيزهم ، أن شوبنهاور هجرته عشيقته البديعة وآثرت عليه لقب برون وحسن مظهره . وأن نيتشه قد هجرته عشيقته السمراء لو سالومي Lou Salomé بعد أن تتبعها في نصف ممالك القارة متقرباً إليها بفقها اللغة والأمثال . وأن فايننجر ذلك العجري المتعجرف هجرته قينة في إحدى حانات فينا ، وفي ساعة من ساعات اليأس قتل نفسه رمياً بالرصاص في بيت بيهوفن . إننا نقرأ تلك الكتب راضين لأنها تعبر بدهاء وأمن عن عداثنا الكامن للجنس الذي سوف نظل على الدوام نكن له الحب .

لم يكن للمرأة حتى سنة ١٩٠٠ أو ما يقرب من ذلك أى حقوق يرتبط الرجل قانونياً باحترامها . وفي القرن التاسع عشر كان نساء أفريقيا يشترين ويبيعن كالرقيق أو كالألات الزراعية . وكن في جزر تاهيتي وبريطانيا الجديدة يرضعن الحنازير (١) . وفي مري إنجلترا قد يضرب الزوج امرأته ولا يحاسبه القانون إذا بقيت بعد (العلاقة) على قيد الحياة . وقد يرتكب الفحشاء كل ليلة ، وليس لها أن تفعل مثله إلا إذا هجرها . وإذا اكتسبت مالا فهو من نصيبه ، وإذا كان لها

(١) Thomas, W.I., Sex and Society, p. 138.

مال وقت الزواج فله أن يتصرف فيه . أما أن يكون للمرأة حق العمل في مصنع ،
أو شرف العمل في مصنع ، فشيء لم يخطر على بال أي رجل .

ثم حدث التغيير الكبير ، فأخذت تلك النساء اللاتي كن عبيداً يتحدثن
عن الحرية وغيرها من التناائم ، وعن المساواة وغيرها من المتحيلات ، وحظمن
النوافذ وصناديق البريد ، واشتركن في مواكب لا حصر لها ، ومظاهرات
صاخبة . الخلاصة فلنقل على « طريقة كوميديا الأخطاء » (١) .

في الفراش لم يغمض لنا جفن لاستعجالهن الأمر
وعلى المائدة لم نذق طعم الأكل لاستعجالهن الأمر
وفي صحبتهن كن يلمن النظر إلى هذا الأمر

لقد ركبت المرأة رأسها ، وشقت طريقها . ولا يمكننا اليوم أن نضربها ،
ولن تطهي لنا الطعام ، بل لن تبقِ إلى جانبنا في البيت ليلة واحدة . وبدلاً من
القلق على خطابانا فهن في شغل بخطاباهن . لقد كسبن نفوساً وأصواتاً في الوقت
نفسه الذي يبدو أن الرجال قد فقدوا النفوس ونسوا الأصوات . فالمرأة تدخن ،
وتحلف ، وتشرب ، وتفكر ، على حين يجلس الرجل الفخور الذي احتكر
في الماضي تلك الفنون في البيت يشرف على تربية الطفل .

٢ - الأسباب

كيف نفسر هنا الانقلاب السريع للتقاليد والنظم الثابتة والمحترمة المنحدرة
من عصور أقدم من المسيحية ؟ السبب الشامل لهذا التغيير هو تكاثر الآلات .
أما « تحرر » المرأة فكان عرضاً نشأ عن الثورة الصناعية .

فأول كل شيء دفعت الثورة إلى تصنيع النساء على نطاق لم يعرف من
قبل ولم يحلم به . كن عاملات أرخص من الرجال . وكان صاحب العمل يؤثر
توظيفهن على الذكور الأعلى أجراً والأكثر ثورية . وكان الرجال في إنجلترا منذ

(١) كوميديا الأخطاء Comedy of Errors ، تمثيلية لشكبير ، تقوم على الخلط
بين توأمين شكلهما واسمها واحد ، وتخطيء زوجة أحدهما وتختلي بالآخر (المترجم) .

قرن مضى يجدون مشقة في الحصول على عمل ، ولكنهم كانوا يقرأون في الإعلانات دعوة نساءهم وأولادهم يرسلونهم إلى أبواب المصنع (١) . فأصحاب العمل يجب أن يفكروا في صيغ من المكاسب والأسهم ، ولا يجب أن تشغلهم اعتبارات الأخلاق والنظم والدول . والرجال الذين تأمروا ببلاهة على « هدم البيت » هم أصحاب المصانع الوطنيين في إنجلترا في القرن التاسع عشر .

وأول خطوة قانونية لتحرير جداتنا كان تشريع عام ١٨٨٢ الذي نص على أن نساء بريطانيا العظمى هن الحق في التمتع بمتزية لم تكن هن من قبل ، وهي الاحتفاظ بما يكمن من أجر . كان ذلك التشريع أخلاقياً ومسيحياً إلى أقصى حد ، فرضه أصحاب المصانع في مجلس العموم ليجذبن قتيات إنجلترا للعمل في مصانعهم . ومنذ تلك السنة حتى وقتنا هذا ظل الدافع الذي لا يدفع إلى الحصول على الكسب يجتذب النساء من عبودية البيت إلى ريق الورشة . ونصف نساء إنجلترا اليوم يشتغلن إما في المكاتب أو المصانع . وتزايد نسبة العاملات في الصناعة أربعة أضعاف السرعة التي تزايد بها نسبة الرجال . وأكبر الظن أن كل امرأة في مدينة المستقبل ستعمل خارج البيت قبل عدا فترات أمومتها النادرة . وقد يبدو هذا المنظر لبعضنا كريهاً عند التأمل فيه ، ولكننا سنعاده بعد جيل أو جيلين ، لأن العادة تجعل كل شيء يبدو معقولاً .

ومن الطبيعي أن ينشأ عن تصنيع المرأة فساد الحياة المنزلية . وكلما ولدت الآلات آلات جديدة بكثرة مزايده مستمرة ، وأدى الإنتاج الواسع النطاق المزود بأساليب جديدة من القوة إلى رخص الأسعار ، غلب المصنع البيت وتفوق عليه في مئات الحرف التي كانت تنوع حياة المرأة ، وانتزع منها عملها السابق شيئاً فشيئاً ، وأخذت المهن التي أدت إلى عبوديتها تفر واحدة بعد أخرى ، تاركة البيت خالياً من الاهتمام ، والمرأة نفسها عارية عن الوظيفة وغير راضية .

والمرأة هي التي خرجت لحسابها الخاص من البيت إلى المصنع . لقد بحثت عن العمل الذي طار من يديها . وكانت تعلم أنها بغير هذا العمل لا بد أن تصبح طفيلية لا معنى لها ، وترفاً لا يقوى على اقتنائه إلا ذوو المال الوفير ، أو

Hammond, J.L. and B. : The Town Labourer, 1760-1832.

(١)

فوق العاهات من الرجال . وتلقت المرأة أول أجر لها بالاعتزاز والسعادة التي يشعر بهما الصبي الذي أراد أن يثبت رجولته بالعمل في المصنع والتدخين يوم الأحد ، كى يهرب من المدرسة . فالابتهاج الذي استقبلت به المرأة عملها الحديد كان فرحة عثورها على شيء عمله . فهذه هي السعادة بالوظيفة مرة أخرى .

فلما أصبح البيت فارغاً ، ولم يعد فيه مكان لعمل شيء أو الاستمتاع بالحياة ، هجره الرجال والنساء ، وأخذوا يعيشون في صناديق أو خلايا تسمى شقة في بيت ، وعنابر ينام فيها أولئك الذين يقضون حياتهم ليلاً ونهاراً في الخارج في صخب الشوارع وزحمتها . فهذا نظام استمر عشرة آلاف سنة انهار في جيل واحد . وقد تعلمنا من علماء الاجتماع وعلماء النفس الاجتماعي أن النظم والتقاليد والأخلاق لا يمكن تبديلها إلا بالتدريج البطيء غير المحسوس ، ولكن هنا أحد التغييرات الكبرى في تاريخ الحضارة ، والذي يكاد يبلغ الأوج ، وقع في زمن لا يزيد عن طفولة شخص واحد إلى كهولته . وقد حذر الكتّاب والوعاظ والساسة من السماح للاشترائيين بهدم البيت ، ومع ذلك لعبت العمليات الاقتصادية هذه المأساة تحت أبصارهم وفي قلب حياتهم قبل أن يتمكن علماء الأخلاق من التحقق من أسبابها .

وقد يمكن أن يظل البيت قائماً لو أن الأطفال كانوا يملأونه بالمتاعب والصخب ، غير أن الثورة الصناعية قد انتزعتهم بعيداً جداً . ذلك أن الأطفال الذين كانوا عوناً أى عون وبهجة في المزارع الفسيحة ، أصبحوا عائقاً في المدينة المزدحمة والشقة الضيقة . وكان في العالم كثرة كثيرة من العمال ، لذلك وجب أن يحد الإكثار من النسل على الطريقة القديمة ، حتى لا يظل الناس في فقر دائم وجهل مستمر . وأدى ظهور الآلات إلى وجود المصانع ، وأفضت المصانع إلى نشأة المدن ، وخلقت المدن الديمقراطية والاشتراكية وتحديد النسل . الحق أن أحداً لم يُرد شيئاً من ذلك ، ولم يكن لمظاهرات حقوق النساء البراقة المطالبات بشيء من التوقف عن كثرة الحمل إلا أثر ضئيل جداً في إحداثها ذلك التغيير ، ولم يكن في مقدور عظمات رجال الدين والحكام وقف موجهته . وكان من الواجب على تاريخ أوروبا وأمريكا في مائة العام الأخيرة أن يتبدل ليستبقى هذه

النتائج . ولكن التاريخ كالأطباء لا يسير إلى الوراء ، فهو يحمل في طياته ضرباً من القدر المحتوم ، ويجب أن يجري في مجراه إلى المصير .

ولم يكن الأطفال ضرباً من الترف في المدن حيث لا يمكن دفعهم إلى العمل في الخامسة من العمر ، وحيث يزيد كل طفل جديد في أجرة البيت ، نقول لم يكن الأطفال ترفاً فقط ، بل الحمل نفسه لم يعد حادثاً طبيعياً ، ولكنه عملية خطيرة . ذلك أن المرأة الحديثة لاشتغالها في المصنع ، أو ابتعادها عن العمل في البيت ، أصبحت أضعف فسيولوجياً من أسلافها . ومما زاد الطين بلة تدهور حاسة الجمال عند الرجل في العصر الحاضر لشغفه بالقوام الرشيق الخائر . أما أمثال النساء اللاتي عرفهن روبنز Rubens (١) ، أو الأمهات من مثل لايتشيا Laetitia أم بونابارت ، فلا يرقن في نظر فنائنا أو رجالنا في المدن الذين يحكمون على الجمال في ظل الفتنة الجنسية العابرة أكثر مما يحكمون عليه نديراً لأنومة قوية . وهكذا أصبح النساء أكثر فأكثر عاجزاً عن حمل الأطفال ، وتجنبن الحمل لما استطعن إلى ذلك سبيلاً ، ونزلن به إلى أضيق حد . ووافقهم أزواجهن في معظم الأحوال على ذلك ، وهم لا يعلمون في براءتهم أن الأطفال تكلف من النفقة أقل مما يبذلونه في ملاهي الليل .

ثم جاءت تلك المبتكرات الجديدة المسماة وسائل منع الحمل فكملت الدائرة ، وتعاونت في صمت على تحرير المرأة . فلما تحررت من هم الولادة وتحررت بناء على ذلك من آخر عمل كان يمكن أن يجعل البيت مكاناً محتملاً له معنى ، ذهبت إلى المكاتب والمصانع وإلى العالم . وافتخرت بأنها أخذت مكانها إلى جانب الرجل في الورشة أو المتجر . فهي تؤدى نفس العمل ، وتفكر نفس الأفكار ، وتنطق بنفس الألفاظ كالرجل . والأغلب أن التحرير جاء عن طريق التقليد ، فاصطنعت المرأة واحدة بعد أخرى عادات الرجل التقليدية البالية حسنة كانت أم قبيحة ، فحاكته في تدخينه ، وفجوره ، وإخاذه ، وفي طريقة تصفيف شعره ولبسه السراويل وأدى هذا التقارب بين الرجال والنساء في أثناء النهار إلى تأثر الرجل واسترجال المرأة . وصاغت المهنة والبيئة والمؤثرات

(١) رسام مشهور من بلاد الفلمنك (١٥٧٧ - ١٦٤٠) (الترجم) .

المماثلة الخنسين في جنس يكاد يكون واحداً . ولن يمر جيل حتى يصبح من الضروري أن يميز كل منهما بعلامة تمنع الوقوع في مشكلات معقدة يوسف ها . فلا يستطيع أحدنا الآن أن يكون واثقاً .

فما أعمق التغيير الذي تمثله المرأة العقيم أو ذات الطفل الوحيد بالإضافة إلى المرأة في الزمن السابق ، وما أعظم أثره حين نذكر فرع كلا الرجل والمرأة من تصور العقم . وكان احترام المرأة حتى بداية القرن العشرين يتغير مع عدد الأطفال الذين أنجبهم . وكانت وظيفة المرأة إما أن تكون أمّاً أو عاهرة ، وفي كلتا الحالتين كانت تلد في الغالب ما أمكنها . وكانت ملايين الصلوات تقام كل يوم في أوروبا المسيحية والعالم الوثني يطلب أصحابها من الآلهة أن يهبوهم نعمة البنين ، وكانوا يتلون الأدعية ، ويزورون الأضرحة ، ويتمسحون بالحجارة المقدسة . ومن عادة شعب المايا Maya أن يصوم الزوجان العقيمان ويصليان ، ويقدمان الهدايا اللطيفة لاستعطاف الآلهة لتجود بكثير من الأولاد . وسئل أحد ملوك أفريقية عن عدد أبنائه فأجاب حزينا إنهم عدد قليل ، لا يزيد على السبعين .

لم تؤثر صور الأمومة فينا إلى شغاف القلب وتبعث الدمع إلى العين ؟ لأننا قبل ظهور المدن كنا في حاجة إلى عدد كبير من الأطفال ، وكانت مشاعرنا تعكس تلك الحاجة . أما الآن فليست المدينة في حاجة إلى النسل ، لأنها بأنوارها الساطعة ولياليها الطويلة تستطيع أن تجتذب ذرية أسود الريف الأقوياء . وليس على الإله الحديد إلا أن يبسط ذراعيه ويحمل في أطراف أصابعه ملايين المصاييح المتعددة الألوان حتى يهرع إليه الأطفال ، آلافاً وآلافاً كل عام ، ويرتفعون بدورهم إلى الحكمة والعقم . فالمدينة لا تعتقد أن الأطفال لازمون ، وهي لذلك تعلم النساء أن يصبحن محظيات ، ولا تلوّهن بالحمل . إن الحنان إلى الأمومة الذي يذيب في بعض الأحيان حتى أرواحنا الجامدة المتشككة هو ثمرة عهد الشباب في الريف ، والذي لا يزال النساء يحملن فيه الأولاد بين حين وآخر ، ومشاعرنا تبقى بعد تغير الظروف التي نشأت في ظلها وذهابها . ونحن الذين ولدنا في أواخر القرن التاسع عشر ، ونشأنا على مقربة من الحقول الفسيحة ، وسنظل نعتقد إلى النهاية (كما نحذرنا المثل العربي) « أن أولئك الذين يغير ولد لاسعادة لهم » ، وأن تشييد أسرة مكونة من بنين تسرى فيهم الرجولة ، وبنات ينطبع فيهن

الحنان ، عمل يحتاج إلى خلق أعظم ، وقد يكون له ثمرة أهم من رسم الصور
التأثيرية الحديثة ، أو تأليف الموسيقى المعاصرة ، أو كتابة مقالات عن المرأة في
العصر الحاضر .

٣ - بناتنا

فالمرأة المتحررة: ثمرة تطورات اقتصادية ليس لإرادتها يد فيها ، ومن
التناقض الشنيع أن توجه إليها الحملات الأخلاقية تلومها على ما هي عليه .
أما نحن فقد نستطيع بهذه العين أن ننظر إليها نظراً إلى حد ما موضوعياً وبعيداً
عن التحيز . فهلم بنا نتأملها .

فالمرأة في الصناعة تكيف نفسها بمرونة مذهشة ، مع مرونة عقلية
لا شك فيها . ومعظم حيل الذكاء وعاداته التي أعلن علم النفس الحديث أنها
موروثة. في الرجال يظهر أنها مكتسبات سطحية يمكن للمرأة أن تصطنعها بمثل
السهولة التي تتجمل فيها بالأحمر . راقب فتيات المكاتب الموظفات في كل مكان ،
قد تنقصهن المبادأة: بعض الشيء (إلا في المسائل الجنسية Erotica) ولكن
ما فيهن من منافسة هادئة ، وأدب صابر ، واضطلاع بمعظم أعمال المكتب
الحقيقية - على حين يدخن الرئيس الذكر سيجاره ، ويتكىء إلى الخلف في
كرسيه ، وينظر بعظمة حوله - كل هذا مصدر دهشة مستمرة ، وإعجاب
متواضع . لم يمض إلا جيل أو جيلان حتى حقق الجنس الأضعف من التقدم
في الظفر بمركز في الصناعة ، وفي غزو كل ميدان فيها ما عدا الأعمال الجسدية
الجسيمة ، حتى لقد يعجب اليوم جون ستيوارت مل "الأمين حين يرى إلى أي
حد أصبحت آماله المتواضعة عن الجنس الذي اضطلع بحمايته لا ضرورة لها .
(إنى لأتصوره واقفاً في دهشة ينظر إلى نساء البوليس يرشدن حركة المرور في
أكثر المناطق ازدحاماً في القسطنطينية) (١) . ولا أحد يعرف إلى أي حد سوف
يبلغ هذا النفوذ النسائي في الصناعة . فقد يأتي اليوم الذي توازن فيه سياسة المرأة
العالية ومهارتهن في القيام بالتفصيلات قوة الرجال الأعظم منهن وجرأتهم في

(١) Montreal Gazette, April 2, 1928.

المبادأة . وحين تضطلع القوة الكهربائية بمجهود الصناعة القدر والعضلى ، فسوف ينبغي حتى على الرجل أن يصبح ذكياً للاحتفاظ بمكانه فى العالم الاقتصادى .

ولن نستمع بناتنا فى السياسة بمثل هذا الحظ . ولا ريب فى أن المرأة المصنعة يجب أن تشترك فى هذه اللعبة المؤسفة لحماية نفسها من القوانين التى يفرضها الرجل ، ومن هذا التمييز فى العصر الحاضر . ألم يحط الذكر الشرير بامتيازاته التى شاخت بآلاف من الحواجز التشريعية ، وحصن قوته فى نقط كثيرة بقوانين موقرة ؟ يجب أن تحمل هذه القوانين ، وأن يفتح كل طريق للطاقة المدخرة لهذا الجنس الذى تخلص فجأة من العمل المنزلى وتحرر من أثقاله الأمومة المتكررة كل سنتين . أى قدرة حماسية قذفت بها المرأة فى هذه المعركة من التحرير ؟ لم يسبق لنصف العالم من المقاومة أن انهزم بمثل هذه السرعة ورباطة الجأش . فى الوقت نفسه لم تستطع البروليتاريا (الجبهة الشعبية) فى إنجلترا وأمريكا أن تحقق شيئاً مع ما لها من قوى تماثل المرأة فى الصوت والعدد . إن شجاعة المهندسين من الرجال السكارى بأصوات الحرب وغضبها لم تستطع التغلب على شجاعة هذه النساء المطالبات بحق الانتخاب ، القارعات أبواب كل سلطان ، حتى فتحت الأبواب وأرغمت الديمقراطية على قبولهن . وبعد خمسين سنة من اليوم سوف يتحققن إلى أى مدى من الكمال بلغن .

ويدرك بعض النساء الآن أن حق الانتخاب ليس هو التحرير ، وأن الحرية ليست سياسية بل عقلية . فثمة ملايين من البنات اليقظات السعيدات عملاًن حجرات الدراسة والعنابر والساحات المدرسية بالبشر والبهجة ، تلك الأماكن التى كانت وقفاً على المختالين من ورثة الكون . إننا نراهم فى آلاف الكليات وقد علا الحد وجوههن بما فى العالم من أدب وعلم ، وأعينهن تسطع بالشهوة إلى المعرفة ، وأجسامهن الرياضية تفيض بإحساس أكمل من الحياة . لعل جمالهن يعنى أبصارنا فنغالى فى الحكم على مرجهن الصاحب وطيشهن العميق . ولكن هلا سمعتهن يسألن المعلمين ؟ أراقبتهن وهن يمزقن النظريات إرباباً إرباباً، ويصفن العالم من جديد بحيث يكون أدنى إلى رغبات قلوبهن ؟

ما مصير كل هذا التعليم ؟ أبتعاون مع حياة المرأة الحديثة المتوسعة ومع

آلاف التجارب الحديدية التي تصوغها صياغة جديدة فيها ذكاء قادراً على كفاح هذا العالم المتغير؟ أتمزق هذا التنوع الحديد في العقل والاهتمام وحدة الغريزة وحكمتها، تلك الغريزة التي أحسنت خدمة المرأة قديماً في حربها الأزلية مع الرجل العقلي المتردد؟ أيزعج ذكاء المرأة الحديد طلاب الزواج ويخيفهم، فيصعب على المرأة المتعلمة التوفيق إلى زوج؟ مما يروى أن المواطن الروماني كان يتلى رعباً من صورة الزوجة المتعلمة. وكذلك شأن كل رجل، فهو لا يجد سعادة في صحبة امرأة يكافئ عقلها عقله. إنه لا يحب إلا من هي أضعف منه، كما أن المرأة لا تحب إلا من هو أقوى منها. من أجل ذلك كانت الفتاة، التي تقوم ثقافتها على المعرفة والأفكار أكثر مما تقوم على السحر الطبيعي والمهارة شبه الواعية، بعيدة عن مزية التوفيق إلى زوج. إنها تنهك حرمة الميادين التي احتفظ بها الرجال قرونًا عديدة لأنفسهم. ويدل الإحصاء على أن ستين في المائة من المتخرجات في الجامعة يبقين غير متزوجات (١). وكانت سونيا كوفالفسكي عالمة الممتازة تشكو من أن أحداً لا يقبل على الزواج منها، وفي ذلك تقول: «لم لا يستطيع أحد أن يحبني؟ إنني أستطيع أن أقدم أكثر مما تستطيع معظم النساء، ومع ذلك فإن أتفه النساء تحب ولا يحبني أحد» (٢). الفتاة الذكية هي التي تخفي امتيازها العقلي حتى تبلغ سنًا كبيرة.

لقد أثبتت المرأة إذن خلال خمسين عاماً أن الفوارق العقلية بين الجنسين ترجع إلى البيئة والمهنة أكثر مما ترجع إلى الطبيعة الثابتة. وهذا لا يدل على أن المرأة ستتغلب في زمن قريب على العوائق العقلية التي أحاطها الزمن والعرف بها. فلم يكد تطويرها الثقافي يبدأ، وليس وراءها تقاليد وشدائد انحدرت مع الزمان، ولا مثل كبيرة تلهمها الثقة أو تتخذها نماذج في تطويرها. ولم تتمتع المرأة المتوسطة بفرص التعليم إلا في عصرنا الحاضر فقط، وذلك على نطاق يكاد يقرب من المساواة بالرجل. وستظل نسبة الإناث إلى الذكور في كليات الجامعة لعدة أجيال أقل من نسبة النساء إلى الرجال في عدد السكان عندنا. وأكبر الظن أن

(١) Siegfried, A., America Comes of Age, p. 111.

(٢) in Ellis, H., Studies in the Psychology of Sex. vol. VI, p. 141.

الحمل كذلك على ما هو عليه في الوقت الحاضر من نسبة ضئيلة ، سوف يمتص شطراً كبيراً من طاقة المرأة . ولعلها تعتبره مرة أخرى مهمتها العظمى ، وتقنع بالتنازل عن مثل هذه الوظائف العرضية للرجال كالفن والأدب . وقد تكتشف أن ثمة في هذا العالم أموراً أعظم من الألفاظ المكتوبة ، وأن ثمة بعض الفرق بين العاقل والذكي .

ماذا حدث في أثناء ذلك لحجم المرأة الحديث ؟ هل أدى هجرها البيت وإقبالها على المصنع إلى فساد جسماني ؟ من المحتمل جداً ، فهي لا تبدو في قوة جدتها الريفية أو المتزلية ولا في صحتها . إن لبن بشرتها أقل نضارة ، ولا تستطيع أن تلد أطفالاً دون شعور بالعجز والألم مما يجعل أي فتاة بدائية تنظر إليها باحتقار ، ولكن هذا صحيح بالنسبة إلينا جميعاً ، فالرجال كذلك فقدوا العافية منذ أن هجروا الحقول . حقاً العقل الحديث أكثر يقظة ، فهو يتعمل الآلات المعقدة والمكينات بثقة ثابتة وأمن تسي . ولكن الجسم الحديث عاجز عن حمل الأثقال والمجهودات التي كان يحتملها كجزء من الروتين اليومي .

وعلى الرغم من جميع متاعب المرأة الحديثة فإنها لا تزال جميلة إلى الحد الذي يبهو الفلاسفة حين تخطر أمامهم . ولا يمكن أن نسر منها كثيراً لهذه الفنون الماكرة التي تحافظ بها على جاذبيتها المغرية إلى عمر كان يصل بنساء القرون الماضية إلى الشيخوخة . كانت المرأة إذا بلغت الأربعين عجوزاً متقاعدتة وموضع السر . أما اليوم فلا خطر عليها من ذلك . حتى أحمر الشفاه والمطرييات هي من هذا الوجه من مجلوبات الفن والحضارة ويمكن أن تغتفر ، ولو أن اللون الطبيعي أبدع بديل عن الدهانات .

قد يكون هذا الوهن البديع وهذا الضعف الجسماني في المرأة الحديثة شيئاً عارضاً وسطحياً . ففي عالم يدور بقوة الكهرباء ستكون المصانع من النظافة كما كانت البيوت قديماً . وستنبت المدن ويتنفس الناس الهواء الطلق مرة أخرى . ولعل الفتاة الحديثة مع رياضة المشي والتنس وكرة السلة تستعيد ذلك التورد الذي انتزعته الصناعة المدنية من خديها . ولقد تغلبنا على الملابس المشدودة المعوقة ، إذ تحرر جسم الفتاة المعاصرة من تلك المهمات المحترمة التي كانت إحدى معوقات

الحمل . فالسراويل القصيرة نعمة لجميع العالم ما عدا حائك الملابس . وضررها الوحيد هو في ضمور خيال الرجال - وأكبر الظن أن المرأة لا جمال لها إذا فقد الرجال الخيال . جملة القول لقد أضافت المرأة الحديدية الشيء العظيم إلى ألوان الحياة الحديثة وتعددها ، إذ أصبحت أكثر حيوية وسعادة بدافع حريتها . قد يكون من العسير على بعضنا اعتياد الشعر القصير (ولو أن هذه البدعة قديمة) وتدخلن النساء ، ولكن الجيل المقبل لن يحفل بهذه التغييرات السطحية . وأي شيء إذا أحسنت صنعه أيدي الحسان يبدو في نظر الرجل العادي جذاباً . والعادة تكون الأخلاق ولها كذلك يد في تكوين الجمال . في سالف الأيام كانت العجائز تدخن (البببة) ذات الرائحة الكريهة ولم يحفل العالم بهن . ولن يحفل العالم بعجائز اليوم حين يغازلن ، وتنفخ الشبابات سحب التبغ في وجه حبيبتها . قد يكون التدخين مضراً كما يكون لذيذاً ، فإذا كان الرجال والنساء يؤثران حياة قصيرة وممتعة ، فلهم في ذلك الخيار . أواثقون نحن من أن المرء ليس أحكم من الحكمة ؟

وماذا نقول في هذا « الهوس الاهتزازي delirium tremens » المسمى بالرقص الحديث . أهى المرأة التي اخترعته أم بعض العصبيين من الرجال ؟ أم يمكن أن يثور أجدادنا ثورة خلقية كما نفعل اليوم ، حين كان (الفالس) الشهواني يحل محل الرقص الدائري pirouetting أيام الأرسطراطية (١) ؟ وماذا نقول أيضاً في براعة السيدات النامية في فنون السرقة والقتل والسياسة ؟ في عام ١٩٢٦ كما تروى إحدى صحف (٢) بلتيمور المحترمة قائلة : « نقل شخص مجهول الشخصية إلى المستشفى في حالة خطيرة ، متأثراً من إصابات شديدة يقال إن ثلاث فتيات اعتدين عليه في غابة بالقرب من هيرلوك . كان الرجل ماشياً . . . حين مرت به الفتيات في سيارة وعرض عليه الركوب معهن ، فقبل . وبعد ركوبه مسافة قصيرة أوقف الفتيات السيارة عند طريق منعزل . وفي خلال صحبة صاحبة بعد ذلك . . . غضبت إحدى الفتيات لقله غيرته ، ونشبت معركة ، وكتفته

(١) Cf. De Musset, Confessions of a Child of the Century, p. 112.

(٢) Quoted in the American Mercury, March, 1926.

اثنان منهن وأخذت الثالثة تطعنه بدبوس كبير . ثم هربت القتيات بعد أن تركته على الأرض عاجزاً .. !» أمكن بعد ذلك أن نشك في تحرير المرأة ؟

ويبدو أن هكسلي كان على حق في قوله : « فضيلة المرأة أعظم خرافة شعرية للرجل » . ففي النساء على الدوام هذه الشهوات ، ولكنهن يجتهدن في إخفائها في الزمن السابق لأنهن كن يعتقدن أن الرجال يوثرون الخياء . أما اليوم فيبدو أن الرجال أسرع استجابة لعدم الاحتشام . وتميل الفتاة العصرية إلى الصراحة الحسية والنفسية مما يفتن الخواص فتنة مؤقتة ، ولكنها قل أن تجتذب الروح . والرجل الناضج يطرب للتمتع ويحب في المرأة الأدب الرقيق . ولا ريب في أن الرجل حين يظل ناقص النمو ، منغمساً في الفسق ، غافلاً عن مباحج الصحبة البريئة والإخلاص ، غير شاعر بأي سحر ما عدا سحر الحسد ، فلا يد من اتخاذ وسائل شاذة لبعث اهتمامه واجتذابه إلى الزواج . فإذا أثمرت هذه الحرارة الملائمة زيجة شرعية فإنها سرعان ما تتحطم مع انطفاء شعلة الهوى بألقة الزواج . لقد كان شوخطناً إذ ليس الزواج غاية ما يكون من الإغراء مرتبطاً بغاية ما يكون من الفرصة ، لأن الفرصة باقية ولكن الإغراء سرعان ما يتناقص إلى أقل حد .

٤ - زيات بيوتنا

إن صورة فتاة الطبقة العاملة الحديثة ، مشغولة بالعمل في العالم وممثلة بالحبوية والحرية ، أمتع عند النظر إليها من صورة امرأة الطبقة الوسطى الحديثة المتزوجة ، المطمئنة إلى دخل ثابت ، والتي تحيا حياة تقوم على لعب البردج ، وبالشراء من المحال التجارية ، والاشتغال بالإصلاح الاجتماعي .

فلننظر إلى أنفسنا من خلال عين أجنبية . يقول الكونت كسرلينج (١) : « لقد أصبح الزوج في أمريكا مستبداً به كما كانت الزوجة في الشرق القديم ، مع ما يصحب ذلك من انتكاسات نفسانية تتزايد وضوحاً يوماً بعد يوم . »

(١) الكونت كسرلينج Keyserling (١٨٨٠ - ١٩٤٦) فيلسوف اجتماعي من أستونيا ، أنشأ في مدينة دارمشتات « مدرسة الحكمة » بعد قيام الثورة الروسية . ومصادره : أملاكه . رحل إلى بلاد كثيرة واتصل بثقافات عدة حتى لقد سمى الفيلسوف المتجول (المترجم) .

ويضيف إلى ذلك أن نساء أمريكا أصبحن مسترجلات ضامرات الثدي حتى
ليطبعن المرء بطابع من « البرودة والحشونة وانعدام الروح » (١) - ولو أنا نقول
ماذا كان الكونت ينتظر في أول زيارة؟ وعلينا أن نسمح هنا ببعض الحذف
لآراء مستمدة من ميراث أرستقراطية براندنبرج . ولكن القدر الباقي قد يكفي لأن
يكشف لنا عن خضوع الرجال في المستقبل ، وحاجتهم الواجبة إلى امرأة مثل
سوزان أنتوني (٢) . ولا ريب أنه سيكون عندنا في القريب المرأة المتعددة الأزواج
وسيجمع النساء ذوات السلطان حريماً من الرجال العاملين بحرسهم خصيان من
الإناث . وأكبر الظن أن سيكون لنا في المستقبل ثلاثة أجناس كما هي الحال في النمل
والنحل . فبعض النساء يلدن الجنس ، وسيهب البعض الآخر نفسه هبة كاملة
للنشاط الاقتصادي بحيث يفقدن أولاً الرغبة في الحمل ثم القدرة عليه . وليس
في التطور أي سبب يجعلنا نتوقع من المستقبل أن ينحصر في الماضي .

كيف جاء هذا الانقلاب في الأدوار؟ أكبر الظن بسبب زوال سلطان
التفوق الجسماني (٣) . فقد قام خضوع النساء على أساس بسالة الرجال العضلية .
كان الرجل هو السيد ، لأنه كان يستطيع أن يضربها فيطرحها أرضاً في آخر
الأمر (ولم يكن يؤجل هنا العمل طويلاً) . وإلى الآن يستطيع الرجال أن
يغلبن النساء ، وأصبح من المسائل الدقيقة في الفلسفة تعليل إقلاع الرجال عن
تلك العادة القديمة . ومن المحتمل أن تكون الحاسة الخلقية النامية في الرجل قد
جعلته ينحجل من استعمال آخر حيلة . وكلما كان تحرر المرأة من الرغبة الجنسية
أعظم ، كان موقفها موقف التي تعطي الرجل ما يطلب . ولكن وراء هذه الظاهرة
الثانوية توجد الحقيقة الاقتصادية الأولية من أن تعقيد الأمور الحديثة الذي
يستدعي ذكاء أكثر فأكثر ، ويتطلب قوة أقل فأقل ، قد ذهب بسمعة مجرد
القوة العضلية ، وانزع من رجل الطبقة المتوسطة تفوقه الوحيد على زوجته ،
وأكسبها بعد ذلك تفوقها في الدهاء والتشبت امتيازاً على خجله وحساسيته وتعبه .

(١) Europe, pp. 66-67.

(٢) Susan B. Anthony (١٨٢٠ - ١٩٠٦) زعيمة أمريكية مشهورة قادت حركة

مطالبة المرأة بحق الانتخاب وغيرها من الحركات . (المترجم) .

(٣) Mill, J.S., The Subjection of Women, p. 4.

أما حيث لا تزال سمعة قوة العضلات عالية كما هي الحال في الطبقة العاملة ، فلا يزال الرجل رب البيت ، وتظفر المرأة ببقائها انتقاماً .

تأمل بعد ذلك المرأة العالة على غيرها ، تجد أنها بعد أن تحررت من العمل المنزلي بسبب هجرة الصناعة من البيت ، وبعد أن تحررت من الحمل بأساليب منع الحمل أو المرضات والخدم ، قد تُترك يديها ورأسها وقلبها فارغة غير مستقرة ، وأرض خصبة لزوع غريب . ثم يمضي النمو الطبيعي في طريقه ، فكلما كانت أفرغ من العمل أصبحت أشد كسلاً ، وأقل رغبة في أداء ما يتبقى من العمل الذي جعلها في القديم رقيقاً معيناً لا دمية .

ولسنا نوجه في هذا المقام أي سبة للمرأة التي تعمل في البيت أو في الورشة منتجة للحياة الإنسانية، أو للبضائع الثمينة للإنسان . أما السبة إذا كانت تستحقها فللمرأة التي تتاجر بجمالها في الزواج وفي غير الزواج ، والتي تسرف في ترفها وزينتها إرضاء للشهوة، والتي تنفق أيامها تظل تتأنق وتتطري تصفف شعرها وأخيراً تلبس ، وتمضي الليالي في اللهو والغزل . ولست تجد في سائر مناظر الحياة الحديثة المتنوعة أشد إساءة من هذه النساء المسرفات في الفراغ . وليس هن إلا قليل من الأطفال أو بغير ولد ، ومع ذلك يحتجن إلى كثير من الخدم ؛ وليست هن وظيفية ولا تفرغ هن حاجة . إيهن يتقن فن عمل لا شيء . بألف أسلوب . ونتيجة هذا كله دفع الرجل إلى التهاك العصبي على العمل ، وإلى الشعور بمروءة أن أهميته ليست إلا مجرد كاتب حسابات .

وإذا كانت المرأة اليوم تنتظر بما لم يعهد من قبل أن يعرض عليها الزواج ، فذلك يرجع إلى حد كبير إلى غلطة هذه الطبقة التافهة . لأن مثل تلك المرأة لا تقدم إلى الرجل إلا اليسير جداً ، حتى لقد يجد في تنويع العلاقات والارتباط فيها بمدة قصيرة أمناً عن الزواج . وفي ظل هذه الظروف لا يبدو الزواج في نظر الأعزب البصير تحقيقاً لغاية الرجل الناضج ، بل تسليماً متحضراً بعد فترة طويلة لأمر عزيز على الطبيعة في عالم الحشرات ، حيث نجد الأنثى كما رأينا تلتمهم الذكر بشكل ليس له مثل على حين يكون مستغرقاً في شباك الغرام . فلا غرابة أن يتراجع

الرجال أمام فكرة القيد الذهبي للزواج ، وهم يرون عجز هذه السيدات التام اللاتي زایلهن الشباب . وهكذا تبدد ملايين النساء حياتهن في العزلة لأن ملايين الزوجات بعد اصطیاد فريستها يلتهمها علانية ، فتصحب كل نفس مطلوبة في عزلة ثقافية . وهنا نجد بشاعة عصرنا المنافية للأخلاق لا في الشعر المقصوص أو السروال القصير للفتاة النشيطة .

إننا لنأمل أن تكون هذه الصعوبات مجرد فترة انتقال ، وأن تكون فوضى العقل والأخلاق والسياسة والفن مرحلة مظلمة بين نظام آخذ في الزوال ، ونظام آخر يبرز بطيئاً ، لا من مراثينا وحججنا ، بل من تلمس التوفيق بين الدوافع الإنسانية وبين الظروف الجديدة الصناعية لعصرنا الدنيوي والمدني والصناعي . وقد يكون طول فترة البلوغ الذي أخرج الزواج وبدل الأخلاق دليلاً ما كراً على مستوى أرقى سوف يبلغه الرجل في القريب ، لأن طول مرحلة البلوغ في تاريخ الإنسانية وما يتبعه من تعليم وتدريب كان أحد الدوافع العظيمة إلى تقدم الجنس . وأكبر الظن أننا لا نشهد نهاية الحضارة كما يفترض بعض علماء الأخلاق ، فنحن الشعب الشاذ للأخلاق أقلية صغيرة ، قد تكون مريضة وعصبية ، ومصيرها إلى الزوال مع العقم . وسوف تظل الكتلة العظيمة من الشعب البسيط من حولنا تزوج وتتناسل حتى يرث أبناؤها الأرض . وثمة ألف سبب وسبب يجعلنا نعتقد أنها سوف تمضي بالعالم قدماً إلى أن يرفعها النظام الجديد ، والاستقرار الجديد في السلوك والفكر البشرية ، ويقمها في المستوى الأعلى الذي قد تقودنا إليه تجاربنا العمياء .

الفصل العاشر

انهيار الزواج

وبذلك نصل إلى الزواج .

وأكبر الظن أن برنارد شو هو القائل إن الزواج هو الموضوع الذي دار حوله الكلام الفارغ أكثر من أى موضوع آخر في العالم . ومن البساطة أن يستغل المرء في الحديث عن الزواج كما يستغل في الزواج نفسه ، وعذره في الأولى أقل . وعندما نحاول البحث في هذه المشكلة يدرك المفكر الخالص أن الأفكار ليس لها إلا أثر متواضع (Modest) - ولو أن هذه اللفظة ليست المقصودة تماماً) في العلاقات الجنسية . وأن التغييرات الاقتصادية تتغلب على الفلسفات والأخلاق . وأن أفضل ما يمكن أن يفعله الفكر هو تحليل هذه التغييرات ، والتنبؤ بنموها ونتيجتها ، والتماس شيء من التوافق البصير في السلوك قد يحمي الفرد والنوع . وفي مثل هذه الأمور لا خير في الوعظ ، والفهم أعون .

لقد عميت أبصارنا في غمار حروبنا وآلامنا عن هذا الأمر الواقع وهو أن حقيقة الحياة الأساسية ليست في السياسة ولا في الصناعة بل في العلاقات الإنسانية ، أى في ارتباط الرجل بالمرأة ، والآباء بالأبناء . وتدور الحياة كلها حول هذين المحورين من المحبة ، حب الزوج ، وحب الأم . تأمل قصة العشيقة الثائرة التي حين دفن عاشقها (الذي قتل في ثورة موسكو في ديسمبر ١٩١٧) في « الجنازة الحمراء Red Funeral » ، قفزت إلى القبر واحتضنت التابوت الذي يضم جثته صائحة : « ادفنوني أيضاً ، فماذا يهمني الآن من الثورة بعد أن مات » . قد تكون واهمة في الاعتقاد أنه فذ بين الرجال لا يمكن تعويضه - ونحن نشبهها إلى حد أن قلوبنا وعهودنا المحطمة هي كذلك غير معقولة . ولكنها علمت بحكمة موروثه في دماء المرأة أن هذه الثورة الهائلة شيء تافه عابر

بالإضافة إلى هذا النهر من الزواج والأبوة والموت، وهو التيار الأساسي للحياة الإنسانية . لقد فهمت - ولو أنها لم تجد الألفاظ المعبرة - أن الأسرة أعظم من الدولة ، وأن الإخلاص واليأس أعمق في القلب من السعي الاقتصادي ، وأن سعادتنا في آخر الأمر ليست في المال أو المنزلة أو السلطان ، بل في تبادل المحبة .

١ - تطور الزواج

ما معنى الزواج ؟ لعلنا إذا استطعنا كشف الغطاء عن أصله أن نحسن التحقق من معناه .

تصور نجمة البحر ، وهي من أدنى الحيوانات ، تبسط زعانفها rays أو أذرعها فوق بيضها الملقح وصغارها التي فقست . إنها بداية إحدى الظواهر الأساسية في الطبيعة عناية الأبوة . في عالم النبات والحيوان بوجه عام يحفظ النوع لا يهتموم الأمومة بل بالتناسل المسرف الضائع ، فالزهرة يجب أن تملأ الجو باللقاح ، وأن تفتن بعض الحشرات تتخذها رسلاً إلى الزوج الذي لن تراه . ومن المعروف أن القوقعة الصغيرة ذات الدم الأحمر المسماة Haematococcus تحيل منطقة شديدة البياض إلى قرمزية بنشاطها التناسلي في ليلة واحدة . والمحارة May flower ، التي تشبه في نسلها الزهور البرية Oyster تضع ملايين البيض ، ثم تتركها بلا اكتراث لمصيرها فينمو قليل منها ، ولكن معظمها يتخذ طعاماً أو يضيع كأنه مجرد نفاية .

وقد اكتشفت الطبيعة ببطء ، كما رأينا ، عناية الأبوة ونمتها بديلاً عن هذا الإسراف الطائش . فمن أدنى الفقريات إلى أرق فصائل الإنسان يتناقص حجم البطن أو الفقس أو الأسرة ، وتزداد عناية الوالدية مع كل مرحلة من النمو في الجنس والنوع والفصل والأمة والطبقة والفرد . وظهر الزواج لا لإباحة الصلة الجنسية بل لتحسين نوع الحياة بربط الزوجين برباط دائم للعناية بالذرية التي يلدونها .

وليس الزواج ظاهرة تعد وفقاً على الإنسان ، فبعض أنواع الطير وحيدة الزوج أكثر منه . وكتب دي كرسبيني De Crespigny عن إنسان الغاب

المسمى أورانغوتان orang-utangs في بورنيو يقول : « إنهم يعيشون في أسر ، ويبنون أعشاشاً مناسبة في الشجر ، ولا يشغل العش بمقدار ما أمكني ملاحظته إلا بالأثني والصغار - أما الذكر فيمضي الليل على فرع الشجرة نفسها أو المجاورة لها . » ويصف وسترمارك الغوريلا بأنها « تعيش في أسرة ، ويقوم الأب ببناء العش وحماية الأسرة . وهذه هي الحال أيضاً في الشمبانزي » . ويقول سافدج Savage « ليس من الغريب أن ترى (الزوجين العجوزين) في أسرة الغوريلا يجلسان تحت شجرة يتسليان بأكل الفاكهة وود الحديث على حين يقفز صغارهما من حولهما ويتأرجحون من فرع شجرة إلى فرع آخر في مرح صاحب » (١) .

ثم يستأصل الانتخاب الطبيعي بالتدريج تلك الأنواع التي لا تعنى إلا قليلاً بذريتها ، وينمى فيمن يبقى تلك الغريزة الخاصة بالعناية الأبوية التي ترفع شيئاً فشيئاً الفرد والجنس . ومن المعروف عن أمهات القردة أنها تموت حزناً لموت صغارها . وهناك نوع من القردة تحمل الأم رضيعها تحتضنه بذراع واحدة بغير انقطاع أشهراً عدة (٢) أما في الإنسان فإن هذا الدافع يكاد يصبح هو الشهوة المتحركة الأقوى حتى من الصلة الجنسية . وما حب المرأة لزوجها إلى جانب حبها أطفالها ؟ ومن أمهات الأجناس المتوحشة من ترضع أبناءها في بعض الأحيان اثني عشر عاماً . وليس من النادر في بعض القبائل مثل نيوهيريدز New Hebrides أن تقتل المرأة نفسها للعناية بابنها الذي مات ودفن في القبر (٣) . حقاً لن نجد في العالم إلا القليل أعجب في تاريخ البشرية من هذا التحول الذي يكاد يكون كاملاً حب المرأة ذاتها إلى حبها طفلها .

ونشأ جنباً إلى جنب هذا الدافع القوي للحماية الأبوية نظام سائد حاكم هو الأسرة . ويرجع الأصل في وجود الأسرة إلى عجز الطفل غير

Westernmark, E., History of Human Marriage, p. 14. (١)

McDougall. W.M, Social Psychology, p. 70. (٢)

Kropotkin, Prince, Mutual Aid, pp. 89,101. (٣)

كروبتكين (١٨٤٢ - ١٩٢١) جغرافي وفيلسوف اجتماعي روسي ، عاش في إنجلترا وروسيا ، وزار أمريكا سنة ١٩٠٠ (الترجم) .

القادر ، وإلى قابليته المتزايدة للنمو والتدريب بعد الولادة . والتطور في الحيوانات بيولوجي قبل كل شيء ، فهو يختص بنمو أعضاء جديدة . أما التطور في الإنسان فهو اجتماعي ، يختص بالانتقال المتزايد لميراث من الصناعة (تكنولوجيا) والثقافة يتجمع وينحدر من جيل إلى جيل . لقد خلقت الطبيعة الأسرة لتربط الذكر إلى خادمة الأنثى التي قيدها الطبيعة لخدمة الطفل . والرجال بالطبيعة عبيد للنساء ، والنساء بالطبيعة عبيد للأطفال والجنس . وفي هذه العبودية الطبيعية أعظم سر لكيانهم ، وأكثره دواماً .

فلنفهم إذن الزواج لا على أنه صلة بين رجل وامرأة صلة تهدف إلى أن تجعل الشهوة شرعية ، بل على أنه صلة بين الآباء والأبناء الغرض منها حفظ الجنس وشد أزره . ولو كان الزواج أمراً شخصياً لا أمراً يختص بالجنس ، ما كان أول ما تعنى به التقاليد والشرائع الإنسانية . ولأمر ما عنيت الدول هذه العناية بتشريع الصلة الجنسية بين الرجل والمرأة وأسرفت هذا الإسراف في تنظيمها ؟ ولماذا كل هذا الجهاز من وثائق الزواج ، وأفراح العرس ، ومحاكم الطلاق ، والنصائح والتحريمات الأخلاقية ، إذا لم يكن ذلك بسبب أن الزواج أعظم أساس لجميع النظم ، وهو الذي يصون مجرى الحياة الإنسانية ويسد نقصه ؟ ومن الواضح ، والله يعلم ، أن الزواج لم يقصد أبداً إلى سعادة الزوجين بل إلى الألفة وتربية الأطفال (١) . وكان متوسط الانتفاع بالحياة الإنسانية في سالف الزمان من القصر بحيث يظهر أن أحداً لم يكن يعنى بالفرد . ولم يبحث الفرد إذا كانت سعادته الخاصة في الزواج أولى من استمرار الجنس ورفعها إلا بإطالة الحياة الحديثة ، وإشراف الإنسانية (البضاعة الوحيدة التي لا تخضع للعرض والطلب) ، واقتصار الأبوة على مظهر أكثر من مجرد القناعة بالزواج . حتى إذا ساد « عصر الفرد » ارتفعت الثورة على الزواج إلى هذا الطوفان الحاضر العسير على المقاومة .

وجاء تطور الزواج عقب اتساع مصالح النوع . وإذا رجعنا إلى فجر

(١) Cf. Shelley: "A system could not well have been devised more studiously

hostile to human happiness than marriage". — notes to Queen Mab.

التاريخ وجدنا أن حرية الفرد في اختيار الزوجة كان مقيداً تقييداً شديداً بالحاجة الاجتماعية . ويبدو أن أول المحارم الجنسية كانت تهدف إلى منع الاتصال الجنسي بين الآباء والأبناء ، ثم بين الإخوة والأخوات . وانتشر التحريم بالتدريج حتى وصل إلى حد الزواج من خارج العشيرة *exogamy* الذي يمنع بناء الرجل بالمرأة من قبيلته نفسها . وكان علماء الاجتماع الأوائل مثل لويس مورجان يميلون إلى إرجاع هذه القيود إلى تصور عقل البدائي مساوي العقم . أما المتأخرون من الباحثين مثل وسترمارك وإليس فيعزون هذا الأمر في شيء من التهمك إلى الاستخفاف الذي ينشأ عن الألفة ، ولكن هذا لا يفسر مغالاة عجز أجدادنا المتوحشين عن جمع كل زوجين معاً ، وإنشاء نظامهم الخاص بالمجتمع . وأكبر الظن أن مصلحة الجنس كانت في أذهانهم حين قيدوا الفرد .

وتطور الزواج مع تغير العلاقات الاقتصادية . ففي مرحلة الصيد كان الرجل ، وهو صياد ذو بأس يجيزه رئيس القبيلة ، يصطحب عصاه وقد يتخذ صاحباً ويتسلل إلى قبيلة أخرى ، ويختطف فتاة خيلة من خيمتها ، ويحملها بعيداً على طريقة الاغتصاب الساباني ^(١) *Sabine* . ثم تحسنت الأخلاق مع نمو الثروة وانتشار السلام ، ولم يعد الرجل يحمل العصا ، بل هدية ثمينة ، أو عرضاً بالخدمة الطويلة المدى ، يتقدم به إلى والد الفتاة التي يرغب فيها . وبذلك حل الزواج بالشراء محل الزواج بالسبي . واليوم بعد نظام الزواج مزيجاً غريباً من السبي والشراء .

كانت الحرب في ذلك الزمن القديم كثيرة الوقوع وكانت المخاطر متعددة . وكان الذكر يصاب بالموت بأسرع مما تصاب به الأنثى ، فحاول الباقون من الرجال أن يحلوا المشكلة باتخاذ عدة زوجات لحماية النساء اللاتي يزيد عددهن عن الرجال زيادة كبيرة . ولما كان النساء يرضعن أطفالهن عدة سنين ، ويمتنعن عن الصلة الجنسية حتى فطام الطفل ، فقد رأى الرجل أن راحته تقتضي اتخاذ عدة زوجات لتلبية مطالبه المستمرة . هنا فضلاً عن أن تعدد الزوجات يفضي

(١) قبائل قديمة كانت تعيش في إيطاليا . (الترجم)

إلى كثرة النسل أكثر من الاقتصار على زوجة واحدة . يضاف إلى ذلك أن وفرة الذرية كانت نعمة لقوم مهندين على الدوام بالحوادث والأمراض والحروب .

فلما قُلت الحروب ، وأصبحت الحياة والموت أكثر أمناً ، تناقصت نسبة النساء العددية المتفوقة ، وظهر نظام الزواج من واحدة ، فكان مزية للأطفال الذين يتلقون عناية موحدة ، وحباً مركزاً ، وطعاماً أكثر وفرة لقلة عدد الطاعمين . وكان ذلك النظام مزية للرجل إذ يسر له تركيز إرثه في أسرة بدلاً من تشتت ثروته ، كما شتت نطفته في عشيرة من الذرية . ورأى نفسه لا يزال حراً ليشبع شهواته الحمراء سراً ، على حين يستطيع أن يصون إخلاص زوجته بجميع ألوان الحماية من العرف والسلطان ، فيؤمن بذلك انتقال أملاكه إلى أبناء أكبر الظن أنهم من صلبه . وفوق هذا كله ، وعلى الرغم من هذا المستوى المزدوج (المتغلغل في نظام الميراث) فلاقتصار على زوجة واحدة كان منفعة للمرأة ، لأنه حل جانباً من مشكلة الغيرة التي لا بد أنها كانت تجعل من تعدد الزوجات مارستاناً . على أقل تقدير منح هذا النظام المرأة ضرباً من المساواة البيولوجية بالرجل ، ويسر لها أن تتحرك من هذا المستوى المتواضع وترفع العالم .

أما الباقي من تاريخ الزواج فكان صراعاً بين المرأة والملك ، بين الثروة والزواج . وكان المفروض أن المرأة مع نمو الثروة يجب أن تسيطر بلا منازعة على اختيار الزوج وحكمه ، وأن خضوع المرأة كنظام لإنجاب الذرية ، وبديل اقتصادي عن العبودية ، كل ذلك يصبح ثابتاً لا يمكن استئصاله من العادات والجنس . ولكن الأمر كان على العكس ، لأن الثروة أدت إلى التعليم ، وهذب التعليم شهوة الرجل المتوحشة ، وبعد قرون من التطور حل الهوى العذري على نطاق واسع محل شهوة الجسد للجسد .

وظل زواج الاستمتاع قائماً ، وفي كثير من الدول كان الآباء لا يزالون يزوجون بناتهم لأحد الأثرياء لأنهم يتوقعون أن يصبح من أصحاب الملايين . ولكن في إنجلترا وأمريكا ، وهنا وهناك في كل أمة ، انهارت الملكية ، وانتصر أنصار زواج الحب ، وشيئاً فشيئاً إذا بالمرأة التي جعلتها شراسة الرجل رقيقة ، تهذب برقتها شراسته . وشيئاً فشيئاً رفعته بخانها وتضحيتها بالحمل من حاله التي

يقرب فيها من الحيوان ، وعلمته أن يرى وينشد فيها بعض الصفات ليست من الحسية والجسمانية كتلك التي كانت تجذبه إلى أحضانها . ثم أقامت الحضارة بالتدريج فوق هذا الأساس الطبيعي بناء واهياً وثميناً من الحب الشعري .

لقد درسنا في مكان آخر النمو الملحوظ الرائع للحب الروحي منذ أناشيد المغنين في العصر الوسيط ، إلى العاطفة الحارفة في قصة كلاريسا هارلو (١) وهلويز الجديدة (٢) ، ثم إلى القصص التي كتبت في القرن التاسع عشر لإشباع النزعة الرومانتيكية السائدة . من يستطيع أن يقول : إلى أي حد طهر هذا الفيض من القصص بعض المظاهر الحسنة للحب الحديث ، مصورة ابتداءً حقيقة اشتياق الروح للروح الذي لعله كان في أول الأمر الوهم الذي يعزى العذارى وقد تقدمت بهن السن والرجال الخياليين ؟ لا ريب أن الحب الرومانتيكي أصبح حقيقياً ، فقد أقبل الشباب عند البلوغ على الأغاني والأناشيد الغرامية مخلصين ، وركع الرجال أمام النساء ، وانحنوا يقبلون أيديهن ، وأحبوهن لشئ أسمي من نعومة الجسد . كانوا يتبارزون للظفر بابتسامه ، وابتدعوا الآداب في غمرة من نشوة الإخلاص . ثم وضعوا بالتدريج كل ثروتهم التي كانوا يفخرون بها تحت أقدام مخلوقات نافهة ليس لها من قوة عليهم إلا بطريق الجمال والرياء . وحين انقلبت الرغبة في كثير من القلوب إخلاصاً لا امتلاكاً ، وقدم الرجل ، خاطباً ود المرأة بولاء شديد ، ثقته بها بكل سبيل حتى الموت ، بلغ الزواج أوج تطوره الطويل ، وغاية رقيه البطيء من الوحشية إلى الحب . أكبر الظن أننا لن نعرفه في جميع كمالاته بعد الآن .

٢ - انحلال الزواج

لما كان اليوم هو عصر الآلة ، فلا بد أن يتغير كل شيء . فقد قلَّ أمن الفرد في الوقت الذي نما فيه الأمن الاجتماعي . وإذا كانت الحياة الجسمانية أعظم

(١) قصة لصمويل رتشارسون كتبها عام ١٧٤٧ ، عبارة عن رسائل كتبها كلاريسا لصديقتها تفصح فيها عن صدوف قلبها عن الزوج الذي يريد أبوها ، وتنتهي القصة بموتها كلاً . (المترجم) .

(٢) قصة كتبها جان جاك روسو تدور حول زوجة ضيق عليها حبيبها السابق الخناق . (المترجم)

أماً مما كانت ، فالحياة الاقتصادية مثقلة بألف مشكلة معقدة مما يجعل الخطر
جائماً كل لحظة . أما الشباب الذي أصبح أكثر إقداماً وأشد غروراً من قبل ،
فهو عاجز مادياً ، وجاهل اقتصادياً إلى حد لم يسبق له مثيل . ويقبل الحب
فلا يجروء الشباب على الزواج وجيوبه صفر من المال . ثم يطرق الحب مرة
أخرى باب القلب أكثر ضعفاً (وقد مرت سنوات) ، ومع ذلك لم تمتلئء الجيوب
بما يكفي للزواج ؛ ثم يقبل الحب مرة أخرى أضعف حيوية وقوة عما كان من قبل
(وقد مرت سنوات) فيجد الجيوب عامرة ، فيحتفل الزواج يموت الحب .

حتى إذا سئمت فتاة المدينة الانتظار اندفعت بملازم يسبق له مثل في تيار
المغامرات الواهية . فهي واقعة تحت تأثير إغراء مخيف من الغزل والتسلية وهدايا
من الحوارب وحفلات من الشبانبا في نظير الاستمتاع بليلهاج الجنسية . وقد
ترجع حرية سلوكها في بعض الأحيان إلى انعكاس حريتها الاقتصادية . فلم
تعد تعتمد على الرجل في معاشها وقد لا يقبل الرجل على الزواج من امرأة برعت
مثله في فنون الحب . فقدرتها على كسب دخل حسن هو الذي يجعل الزوج
المتنظر متردداً ، إذ كيف يمكن أن يكتفى أجره المتواضع للإتفاق عليهما معاً في
مستواهما الحاضر من المعيشة ؟

وأخيراً تجد الرفيق الذي يطلب يدها للزواج ، ويعقد عليها لا في كنيسة ،
لأنهما من أحرار الفكر الذين ألدوا عن الدين ، ولم يعد للقانون الخلق الذي ظل
جائماً على إيمانها المهجور أثر في قلبها . إنهما يتزوجان في قبو المكتب البلدي
(الذي يفوح منه عبر الساسة) ويستمان إلى تعاويد العمدة . إنهما لا يرتبطان
بكلمة الشرف بل بعقد من المصلحة لهما الحرية في أي وقت في التحلل منه .
فلا مراسم مهيبه ، ولا خطبة عظيمة ، ولا موسيقى رائعة ، ولا عمتى ولا نشوة
في الانفعال تحيل ألفاظ وعودهم إلى ذكريات لا تمحى من صفحة الذهن .
ثم يقبل أحدهما صاحبه ضاحكاً ، ويتوجهان إلى البيت في صخب .

إنه ليس بيتاً ، فليس ثمة كوخ ينتظر الترحيب بهما أنشئء وسط الحشائش
النضرة والأشجار الظليلة ، ولا حديقة تنبت لهم الزهور والخضراوات التي يشعرون
بأنها أبهى وأحلى لأنها من زرع أيديهما . بل يجب أن يخفيا أنفسهما خجلاً

كأنهما في زنزانه سخن ، في حجات ضيقة لا يمكن أن تستقيهما فيها طويلاً ، ولا يعيان بتحسينها وتزيينها بما يعبر عن شخصيتهما . ليس هذا المسكن شيئاً روحياً كالبيت الذي كان يتخذ مظهراً ويكسب روحاً قبل ذلك بعشرين عاماً ، بل مجرد شيء مادي فيه من الحفاف والبرودة ما تجده في مارستان . فهو يقوم وسط الضوضاء والحجارة والحديد حيث لا ينفذ إليه ربيع لا ينبت لهما الزرع النضر بل سيلا من المطر . ولا يريان مع ورود الخريف قوس قزح في السماء أو أي ألوان على أوراق الشجر ، بل المتاعب والذكريات الحزينة فقط .

وتصاب المرأة بخيبة أمل ، فهي لا تجد في هذا البيت شيئاً يجعل جدرانها تحتمل في الليل والنهار ، ولا تلبث إلا قليلاً حتى تهجره في كل مناسبة ولا تعود إليه إلا قبل مطلع الفجر . ويخيب أمل الرجل ، فهو لا يستطيع أن يتجول في أنحاء هذا البيت يعزى شعوره بينائه وإصلاحه ما تصاب به أصابعه من دق المطارق . ويكتشف بعد قليل أن هذه الحجرات تشبه تمام الشبه تلك التي كان يعيش فيها وهو أعزب ، وأن علاقاته مع زوجته تشبه شهاً عادياً تلك العلاقات غير البريئة التي كان يعقدها مع المستهترات من النساء . فلا جديد في هذا البيت ، وليس فيه ما ينمو ، ولا يمزق سكون الليل صوت الرضيع ، ولا يملأ مرح الأطفال النهار بهجة ، ولا أذرع بضعة تستقبل الزوج عند عودته من العمل وتخفف عنه وطأته . إذ أين يمكن أن يلعب الطفل ؟ وكيف يمكن للزوجين تخصيص حجرة أخرى للأطفال ، وتوفير العناية بهم وتعليمهم سنين طويلة في المدينة ؟ والفطنة فيما يظنان أفضل جوانب الحب ، فيعترضان على منع النسل ... إلى أن يقع بينهما الطلاق .

ولما كان زواجهما ليس زواجاً بالمعنى الصحيح - لأنه صلة جنسية لا رباط أبوة - فإنه يفسد لفقدانه الأساس الذي يقوم عليه ومقومات الحياة . يموت هذا الزواج لانفصاله عن الحياة وعن النوع . وينكمش الزوجان في نفسيهما وحيدتين كأنهما قطعتان منفصلتان . وتنتهي الغيرية الموجودة في الحب إلى فردية يبعثها ضغط حياة: المساخر . وتعود إلى الرجل رغبته الطبيعية في التنويع ، حين تؤدي الألفة إلى الاستخفاف . فليس عند المرأة جديد تبذله أكثر مما بذلته .

وإذا كانا بغير أطفال فإنهما يلتصقان ألف سبب وسبب للشقاق . وتصبح
لفظة « عزيزى » التى كانت تهز مشاعرهما عند سماعها ، أشيع لفظة فى اللغة ،
يسيرة ولا معنى لها . وتخزن المرأة على أيام الرقة السابقة ، فتهمل لذلك وهى
فى البيت العناية بجسمها وملبسها وحركاتها وحديثها مما كان سبباً فى اجتذاب
الرجل نحوها ، لأنه وجد فيها شيئاً أبهى وأسمى منه . وإذا كان بينهما شىء من عدم
التوافق الجسمى أصبح ذلك حاجزاً منيعاً ، لأنهما ينظران إلى الزواج على أنه مجرد
صلة جنسية . وإذا كانا فقيرين أسف الرجل على الأثقال التى يحملها ، وشغفت
المرأة بالبرنس أوف ويلز . وإذا كانا غنيين تنازعت فيهما شيوعية الحب والزواج
وفردية الحشع والخوف . وتنشب المنازعات على المال عندما تهبط حرارة الحب .
وإذا كانا عصريين عبثا على هواهما على قدم المساواة ، وينشب بينهما صراع
ينتهى بسيطرة أحدهما . وإذا كانت المرأة تتكبر استنكرت عبوديتها المستمرة .
وإذا كانت عاطلة ، يثقل الزمن عليها حتى تجدها عملاً . كانا يظنان أن ليس
فى استطاعتهما إنجاب طفل ، ثم يكتشفان - كما قال بلزاك - « أن الرذيلة أقل نفقة
من الأسرة » . إذا كان لأحدهما أصدقاء غار الآخر منهم ، وإذا كانا بغير
أصدقاء انطويا على نفسيهما فى عزلة لا سبيل إلى الفرار منها ، وتجري فيها الحياة
على نمط واحد لا يحتمل . ثم تختفى فيهما الحرية اللازمة للشخصية أمام أهواء
التملك وحب الاستطلاع . ولا تجد النفس لها ملاذاً تسكن إليه فى عزلة وسلام .
ويصبح الحب الذى كان على الدوام مطاردة وقنصاً ، حرباً ، وليست فترة أحضان
الليل إلا هدنة مؤقتة .

وفى أثناء ذلك تبدد عن عيونهما غشاوة الوهم ، ويكتشف الرجل والمرأة
على حد سواء أن شعلة الحب لم تحرق قبل كل شىء لمتعتهما بل لاستمرار الجنس .
وترى المرأة نفسها قد تحولت من إلهة إلى طاهية - اللهم إلا إذا وقعت على زوج
رقيق يجعل الطاهية إلهة . وتشعر برغبات الرجل فى التنويع ، فتأخذ فى مراقبته
تأكلها نار الغيرة ، لأنها تعلم أنها لا تستطيع أن تثق فيه أكثر من ذلك . فهى
تلاحظ أن عنايته بها أقل وتصدر عن تفكير ، وأنه يتصل بها ، إذا فعل ذلك ،

صلة عادة وهو شارد الذهن . ويفقد الزوج انخيل الذي يرى من خلاله زوجته كما يراها الأجنبي ، أو الذي يرى من خلاله زوجة الأجنبي كما تبدو في الساعة التاسعة صباح اليوم التالي . وفي جميع تفكيره (وفي تفكيرها) يؤدي البعد إلى فتنة النظر ، ويحملان الحديد على حمل الجميل . فإذا أضفت إلى جانب الزوجة التعطل والعقم تجدها قد شرعت هي أيضاً في الاشتياق إلى وجه جديد أو منظر جديد يعيد إلى نفسها مباحج الرغبة . حقاً لا يفكر أحدهما في الزنا ، كل ما في الأمر أنهم يتوقان إلى « الحياة » . وفجأة تنتصر الحواس على الحكمة ، ويتسلل عنهما الإخلاص ، ويدب إليهما الشك على قدمين غادرتين ، وتنتهي ثورة الغضب الأخيرة عند انكشاف الأمر بتبسيط موقف كان من التعقيد بحيث لا تتيسر معه حياة التصنع والسيطرة .

وهكذا ينتهي الأمر بالطلاق . انظر إليهما أولاً في ساحة المحكمة الشرعية . يقتران في حزن اتهم مأس أخرى ، ثم استمع إلى مغالاة كل منهما في بيان قساوة صاحبه بالانفاظ نابية تقذف في وجوه كانت معززة بالأشواق . قد يوفق بينهما ، ولكن إلى حين . إن كلا منهما يبغض الآن صاحبه بغض أولئك الذين يذكرون وعود الغرام . ثم لا يلبثان أن يستعيد كل منهما حريره ، كالصحراء الحرة ، وقد يعودان إلى التجربة بعد الطلاق ، ولكن الظروف لا تزال كما كانت من قبل ، فكيف يمكن أن تتغير النهاية ؟

وسنة بعد أخرى بتأخير الزواج ويتقدم الطلاق ، ولا يجد الإخلاص إلا قلة بسيطة من الناس يجدونه . وبعد زمن قليل لن تجد رجلاً يهبط إلى سفح الحياة مع امرأة تسلق معها قمة الحياة ، وسيكون الزواج نادراً كالعذراء ليلة الزفاف . ومع ذلك فالمطلقات لسن إلا عدداً قليلاً من التعيسات في الزواج . لن نتحري كم يطول بهم الزمن دون انفصال ، ولكننا لا نجروا على السؤال . فكم سئل متزوجون وأنكروا . لا تبحث في قلوب غيرك ، فلن يخبرك أحد عما يمكن أن تطلبه . إنهم يخشون العار ويعدلون عن الطلاق ، ويستبدلون الاستخفاف بالحب ، والخداع بالإخلاص . لعله من الأفضل أن يتفرق كذلك شملهم ، وأن يقف إخفاق الزواج عارياً مزعجاً أمام الأبصار ، يتحدى كل

حاكم يفكر في مستقبل الأجيال ، وكل محب يحترم الحب إلى الحد الذي يرغب فيه ألا يموت سريعاً .

٣ - إعادة بناء الزواج

الوصف سهل ، والعلاج صعب . فإذا يمكن أن نقوله ولم يقل ألف مرة ومرة من قبل ؟ أى دواء ننصح به ولم نجرب ووجد ناقصاً ؟ أى نصيحة نتقدم بها لا تؤذى الجراح التي نريد أن نأسوها ؟

لعلنا نهجر المشكلة ونقول مع قول قدماء المسيحيين : سد جميع أبواب الهرب ، وسينسى المحاييس أنهم في السجن . فإذا كان الغرض من الزواج إنجاب الأطفال وبقاء النوع لا متعة الأفراد والأزواج ، فيجب لمصلحة الأبناء أن يكون الزواج أبدياً ، فلا يفصل العبد ما ربطه الرب . وبعد فالفرق بين امرأة وأخرى ضئيل جداً ، وإذا كنا نجد صعوبة مع هذه الزوجة فنجد صعوبات مماثلة مع غيرها . الحق أن الرجل لم يخلق للسعادة بل ولد للشقاء ، فليتزوج وليعش في سلام .

ولكن أنسمى العهود التي قطعها الشباب الغرير أبدية ؟ أنربط بين روجين معاً طول الحياة مع أن جبهما قد انقلب بغضاً ؟ نحن بين أمرين أحلاهما مر : غواية الشيطان ، والغرق إلى الأذقان . أما الآن وقد أصبح عدد الأطفال أقل ، ولا ينتهى دور الأبوين بتجرد ولادة الذرية أو نضجهم كما ربت الطبيعة المسرفة في عالم الحياة الأدنى ، فلا بد أن ننظر إلى الزوجين بعين الاعتبار . ومن المضحك أن نخضع حياة تبلغ سبعين عاماً لاعتبارات نشأت حين كان النساء يلدن الأطفال بالحملة ، ويذوى جملهن في الخامسة والأربعين . إن رقى الجنس في الكيف يتوقف على تقليل التضحية المطلوبة من أفراد . وليس الجنس أعظم من الفرد إلا لأنه ينتج عدداً أكبر من الأفراد . وفيما عدا ذلك ليس الجنس إلا اسماً وتجريداً ، وبذلك تتصل نظرية الزواج في العصر الوسيط بمذاهب الاسمين nominalists في تلك الأيام وقبلها .

وقد نشأت عن عصرنا الفردى نظرية معارضة لها أكثر طرافة وتطرفاً .

أتدري ما اسمها الخذاب ؟ « الزواج الحر Free Love » . فما دامت العهود تقطع ثم تنكث ، فأى حاجة إلى أخذ العهد على الإطلاق ؟ وما دامت الزيجات لا تلبث أن تعقد حتى تحل فلماذا نشغل آلاف المحاكم بالملايين من عقود الزواج ووثائق الطلاق ؟ وإذا كان الحب أفضل دافع إلى الزواج ، فنوته سبب كاف للطلاق . وكيف يمكن أن يكون الحب حقيقياً إذا لم يكن حراً ؟ دع المحبين يرتبطون بإخلاصهم وشرفهم فقط . حتى إذا قوى الحب فليبحثوا دون عائق عن رفقاء آخرين ، وليجدوا حبهم وشبابهم ..

ويزيد أنصار هذا الحل لمشكلة الزواج كل عام . وقد جاء في تقرير القاضي لندساي أن عقود الزواج نقصت عام ١٩٢٢ عن عام ١٩٢١ بمقدار ٦٥ في المائة ، وعلل هذا النقص بانتشار الزيجات الحرة . وقد يمكن أن يؤدي هذا الارتباط الحر إلى مخرج بديع من الشرائع الخازية عندنا لولا استمرار اعتماد المرأة اقتصادياً على الرجل واعتمادها نفسانياً عليه قبل أن يربطه الزواج بأهوائها . ذلك أن العجز أيام الحيض ، واحتمال الحمل ، يقللان من مقدرة المرأة على الكسب . وإلى أن تتمكن المرأة من تأمين مسكنها وحماية نفسها حماية مستمرة إزاء المخاطر التي تواجهها فإن مزية الزواج « الحر » تبقى كلها في جانب الرجل . وفي الوقت الحاضر - ولو أن هذا الشعور أصبح في الميزان ، ويتجه إلى الضعف يوماً بعد يوم - تنقص المرأة في عين الرجل إذا استسلمت له . والرجل محارب ، أو يجب أن يرى نفسه كذلك ، ويولد له على الأقل أن يجد مظهراً للمقاومة يعظم به انتصاره ، حتى إذا بلغ غاية الظفر فتنش عن ميادين أخرى ينتصر فيها . ويجب الرجل في الوقت الحاضر - وهذا أيضاً عرضة للتغيير - أن يعتقد أن المرأة التي يختارها زوجته الدائمة لم يسبق لها التعلق برجل آخر . إنه على أتم استعداد للموافقة على ارتباط مؤقت مع امرأة مجربة ، ولكن قل أن يرغب فيها زوجة شرعية . إنه يفعل كما لو كان يوافق على حكم فايننجر القاسي ، إن المرأة إما أن تكون أماً أو عاهراً ، وكأنه يرتاب في عودة المرأة التي أحببت جيرانها كنفسها إلى الإباحية أول ما تزول جدة الزواج أو أثقال الحمل . ولا يفكر الرجل أبداً في تطبيق هذا الفحص أو الحكم على نفسه . إنه يفترض في نفسه القدرة على الانتقال من

التنوع إلى الاقتصار على واحدة دون أى شبهة في الانحراف عن الإخلاص الزوجي . الواقع أن ما يحركه ليس العقل بل حب التملك ، وترتد مشاعره إلى عادة الزواج بالشراء تلك العادة القديمة التي تكاد تكون عامة . فهو يشتري شيئاً من السوق ، ولا يود أن يدفع ثمناً غالباً لبضاعة مستعملة . إنه يظن المرأة هي المقصودة بالوصية العاشرة من الوصايا العشر (١) .

وكل ذلك مصيره إلى التغيير . وأكبر الظن أنه حين يكمل استقلال المرأة الاقتصادي ، وتفصل وسائل منع الحمل تمام الفصل بين الصلة الجنسية والأبوة ، سيطبق الرجال على النساء نفس المستوى المتساهل الذي يحكون به على أنفسهم ، وتزول قوانيننا الأخلاقية القديمة تمام الزوال . ولكن المرأة في أثناء فترة الانتقال الطويلة ستقاسى من أنانية الرجل المستهتر وعدم تحمله أعباء المسئولية . فالزواج الحر زواج تقتصر حرية على الزوج . إنه فح تقع في شباكها المرأة المتحررة مع رجل مسرف في التحرر . وقد يأتي اليوم الذي تصبح فيه المرأة سيدة نفسها ، فلا تتركها الأمومة تحت رحمة رجل يميل إلى التعدد بطبعه . وقد يأتي يوم ، في المستقبل البعيد ، نجد فيه طريقة للعناية بالأطفال دون أن نربط بين الرجل والمرأة التي أنجبهم . وعندئذ يصبح الزواج الحر نعمة للجميع ، والحالة المثلى لحسن نال حرية في نهاية الأمر . وإلى ذلك الوقت يحسن بنا أن نخضع للقانون .

ويخلط العامة بين الزواج الحر وزواج المتعة *Companionate marriage* ويتصور المهوسون هذا الزواج بأشكال مختلفة . إنه لا يبدو عظيم البشاعة إذا تبين لنا أن أجراً المدافعين عنه يعرفه بقوله إنه : « زواج شرعي ، يمنع الحمل بوسائل مشروعة ، مع الحق في طلب الطلاق بموافقة الزوجين بشرط عدم وجود أطفال ، ولا تدفع له في العادة نفقة » . وليس في هذا الضرب من الزواج (فيما عدا شرط النفقة القاسي) شيء لا يجري بالفعل بين الأسر المفروض أنها محترمة . والطلاق برضا الطرفين وحيث لا أولاد أفضل من الطلاق بفضيحة أو من « الهجر » . وما يخشاه الناس من هذا المشروع هو بلوغ المرأة مرتبة

(١) يريد هذه الوصية : « لا تزن » (المترجم) .

المساواة الكاملة بالرجل . ثم إن المترفات من نساء الطبقة المتوسطة آخذات بسرعة شديدة في الانتقام لجميع بنات جنسها من الرجل المحمّد . فالزواج سائر في طريق التغير إلى صورة لن تسمح بوجود المرأة المتعطلة من العمل ولا تصلح إلا زينة لكثير من البيوت ومصدراً لمتاعها . وأخذ الرجال يطلبون من زوجاتهم العمل لكسب المال اللازم لمصاريفهن . ومن مزية زواج المتعة أن المرأة تذهب إلى العمل إلى أن يثقل عليها الحمل . وفي هذا يكمن السر الذي يحرر المرأة تحريراً كاملاً ، لأنها ستدفع من الآن فصاعداً جميع نفقاتها . ينبغي أن تسير الثورة الصناعية إلى نتائجها المنطقية والتي لا ترحم ، إذ يجب أن تلتحق الزوجة مع زوجها في المصنع ، وبدلاً من بقائها متعطلة في مخدعها مرعومة زوجها أن يتكسب ضعف ما يكسب لمواجهة العجز الاقتصادي ، ستصبح كفوّاً له في العمل والكسب ، وفي الالتزامات والحقوق . وهكذا يكون التحرير .

ويقع على عاتق الرجل كثير من المسؤولية، لأنه استمع لغواية الشيطان وحطم جميع التقاليد الموروثة ليقتراح علاجاً لداء الزواج الحديث . ولكن في هذه المشروع شيئاً من الصعوبة والمجازفة مما يعده المتسكون بالفتوة ظلماً ، ما دامت مساواة المرأة الاقتصادية والحلقية بالرجل غير كاملة . ذلك أن الرجل - كما قلنا - بينه وبين نفسه فيه شراهة للتعدد . امنح الرجل صورة من الزواج يكون فيها حراً في هجر زوجته عندما يفقد فيها فتنة الطرافة ولذة المقاومة ، وستجده يتحرق شوقاً لمباهج أخرى وقلاع لا تزال حصينة . سوف يودعها إن قريباً أو بعيداً . ولا يفيد القول بأن موافقة الطرفين لازمة للطلاق ، لأن المرأة ستجيب بالموافقة متى طلب منها . وبعد؟ ثم تجد نفسها « حرة ومستقلة » مرة ثانية ، وترجع إلى الصناعة وما فيها من أشواك ومتاعب وهي أخس من الرجل قيمة .

هذه كلها صعوبات صغيرة ، وأكبر الظن أن المشروع معروض للتعديل مع التجارب . وأكثر ما فيه من إنشاء هو التشجيع الذي يقدمه للزواج المبكر ، إذ ها هنا قبل كل شيء نجد لب مشكلتنا الأخلاقية . ولو تيسر لنا أن نجد سبيلاً نعيد به الزواج إلى السن الطبيعية ، لاستطعنا بضربة واحدة تقليل نسبة البغاء إلى

النصف ، وكذلك الأمراض السرية ، والعزوبة العقيمة ، والعفة المفقوتة ، والانحرافات التي تصم جين الحياة العصرية .

تأمل مرة أخرى هذه القلة القليلة من الرجال أو النساء الذين يتزوجون أفضل من يحبونه . ذلك أن عاطفة الشباب المشرقة تغزو القلوب بأسرع مما تطيقه حالتنا الاقتصادية ، ولهذا نغزغ من المخاطرة الكبرى ، وندع الحب يسير إلى الزوال . ومع ذلك كلما كان الحب مبكراً كلما كان أهبى وأعمق ، ولن تجد رجلاً بعد الثلاثين من العمر يقوى على الحب بقوة الشباب وإنكاره ذاته^(١) . والإخلاص الذي يبعثه أول حب في النفس يكون من العمق بحيث يصعب زواله بعد سنة من العشرة والتجربة . فهذه الرقة الحديدية عند الصبي ، وهذه الثقة الواضحة عند الفتاة ، لا بد أن يحملهما في سعادة على مرّ السنين ، وتصبح ذكرياتهما الأريج الذي يعطر حياتهما .

تصور زواجاً هو ثمرة أول حب . انظر إلى العروسين الحديدين ، كما هما في المثال ، كيف يختاران لا مخدعاً في شقة بل بيتاً صغيراً مستقلاً حيث لا يزال سلطان الطبيعة قائماً . ثم ينسقان فيه الأثاث بعد مناقشات بديعة حول ما يجب أن يشتري ، وأين يجب أن يوضع . ثم يزرعان الحديقة بالأزهار التي تنمو مع نموها ، ويملآن البيت بألوان من البهجة والموسيقى والكتب والأصدقاء ، فيصبح أمتع من صخب الشوارع وأنوارها الساطعة . ثم يكملانه في النهاية بصباح الطفل وزينته . وكثيراً ما وصفنا أنفسنا بالبراعة للتغلب على قيود الزواج ، ومع ذلك ففي أعماق قلوبنا سننظر دائماً إلى الوراء في شوق إلى تلك الأيام العاطفية حين كان الحب في عنفوانه^(٢) .

وثمة اعتراضات كثيرة على الزواج المبكر . وأول كل شيء ، من العبث تقديم نصائح تحت على الكمال ، فنحن لا نستطيع التغلب على تبصر الشباب الاقتصادي

(١) هذه هي العبارة التي جعلها أحد المحررين عنواناً لإذاعات في جميع أنحاء المملكة ، وهي « لا يقوى رجل على الحب بعد الثلاثين » . فالدعاية تؤثر فينا وتحطمنا .

(٢) للتوسع في تأييد الزواج المبكر من وجهة نظر بيولوجية ، انظر

Holmes, S.J., Studies in Evolution and Genetics, pp. 177-8.

بالمواعظ الأخلاقية والأملاك الخيالية - ولكن الآباء لا الأبناء هم الذين ينصحون بتأخير الزواج ويعملون اقتصادياً على إرجائه .. ولا مفر بعد ذلك من استهتار الشباب . فلتنفع الآباء المخطئين أنهم بالعمل على تأخير الزواج يدفعون أبناءهم إلى ألوان من العادات السيئة عوضاً عنه ، وإلى كثير من الانحرافات المنافية للخلق . وأن الحكمة ليست في إقامة الحواجز في سبيل الزواج لمن بلغ تمام الرشد ، بل بإعانة الأبناء ، والبنات أيضاً ، بمنح مادية يوازنون بها عجزهم الاقتصادي وتثبت عزائمهم على مواجهة مصاعب العالم . سيكون ذلك دين شرف يدفعه الأبناء للجيل القادم . ولن يخسر أحد ، وسيكسب الجميع . لقد مضى الوقت الذي كان الآباء يبذلون في هذا الأمر بسخاء ..

مثل هذه المعونة قد يستسلم حتى الشباب الخريص لنداء الحب . فإذا تزوج الشاب فسوف يجد شيئاً من الحقيقة في ذلك المثل القديم : « الله ولي التوفيق » . وسوف يصلب بالعزة عوده ، ويقوى ساعده ، وتستمر شجاعته . وترغمه المسؤولية على التعمق ، فيستوى بالزواج رجلاً . فإذا لم يصلح شيء من ذلك ، فلتذهب الربة الصغيرة إلى عملها اليومي كما كانت تفعل من قبل حتى تواجه الحمل . ومن الأفضل أن يكون في يديها عمل من أن تقبع في الدار كقطعة من الزينة سهلة الانكسار . ومن الأفضل إرجاء الحمل من التمثل بتأخير الزواج تأخيراً غير طبيعي . يجب أن نسمح بالتمييز بين الزواج وبين التسل ، حتى يقل ابتعاد الجنس عن الزواج . فإذا استمر الرجل هذه المعونة ، فالعلاج الوحيد لصلاحه هو الأبوة ، لأن وجود الطفل سيبحث فيه الرجولة ، اللهم إلا إذا لم يكن رجلاً على الإطلاق .

والصعوبة الثانية التي يثيرونها هي جهل الشباب . وفي ذلك يقول نيتشه : « عندما يقع الرجل في حب فلا ينبغي أن نسمح له باتخاذ قرار يختص بحياته ، وأن يقرر إلى الأبد نوع زوجته التي ترافقه نتيجة النزوة . يجب أن نعلن على رؤوس الأشهاد أن موثيق الغرام غير صحيحة ، وأن نرفض السماح للمحبين بالزواج^(١) » . حقاً الشباب أعمى فلا يستطيع أن يحسن الحكم ،

(١) Dawn of Day, sect. 151.

ولكن العمر عجوز ولا يستطيع أن يحب . لعله لا يجب أن يسمح لنا في أي وقت باتخاذ قرارات حاسمة أو أن يطلب منا ذلك . وليس من الواضح أن الرجال أحكم في الاختيار وهم في الثلاثين منهم في العشرين في مسائل اتخاذ الزوجات . ولما كان جميع الأزواج وجميع الزوجات متشابهين في الجوهر ، فليس الفرق بينهم كبيراً . وإذا فرضنا أن رجلاً لا يستطيع العيش في وفاق مع زوجته ، فالعلة في أغلب الحالات ترجع إلى عيب في سلوكه أو في فلسفته بحيث تؤدي إلى النتيجة ذاتها . إذا غير زوجته وعقد على زوجة جاره . فالطلاق يشبه رحلة لا خير في الاستمتاع بها إذا لم نغير أنفسنا .

وعلى الرغم من هذا كله فجهل الشباب حقيقة واقعة . وقل لي بربك متى يقف جهلنا عند حد في مثل هذه الأمور ؟ من منا نحن الرجال يفهم النساء ، وكم منا يستطيع سياستهن ؟ ولكي نقلل الخوف من الحكم على المجهول فلنعد إلى تلك العادة القديمة وهي عقد خطوبة رسمية مدة ستة أشهر قبل الزواج . سيكشف المحبان كل منهما عن عقلية صاحبه في أثناء هذه الأشهر الممتعة . ولعلهما يشرعان في النزاع كما يتشاجر الزوج وزوجته ، وعندئذ تكون ثمة فرصة للانفصال قبل أن يجعلهما رباط الزواج واحداً . وقد تضي هذه الأشهر الستة على أنظمة زواجنا قوة أخلاقية وجمالا هي في أشد الحاجة مع الأسف إليه . وقد تقدم لنا فاصلاً موسيقياً وسط عجلة الحياة الاقتصادية .

وآخر صعوبة وأعظمها هي العبت أن نشجع الشباب قبل أن تهدي التجارب حكمته على الدخول في بيت قد يصبح في أي لحظة سجنًا نخنتق فيه مدى الحياة . فإذا أردنا أن ندبر للزواج المبكر ترتيباً معقولاً ، فيجب أن نلتمس للزواج مخرجاً كما فتحنا له الأبواب ، ويجب أن يتمكن الزوجان من الطلاق برضا الطرفين . وقد يبدو من السخرية بعد الاحتجاج بأن الطلاق شيء يؤسف له ، وبأن الزواج يعقد للعناية بالأطفال أكثر من متعة الزوجين ، أن نحث على التوسع في الطلاق على حساب الأسرة والأطفال . ولكن من يدري هل يكون قبول الطرفين سبباً كافياً لكثرة الطلاق ؟ أو هل يكون الارتباط القسري للزوجين لا يثق أحدهما في صاحبه ويكثر التنازع بينهما أفضل للأطفال من توزيعهم أو تبادهم

تحت سقف بيتين منفصلين يسودهما السلام ؟ وإذا رفضنا طلاق زوجة من زوج مجرد اتفقا عليها على طلبه ، فإننا ندفعهما إلى صورة من الانفجار تلامس طلباتنا غير المعقولة . ولا ريب في أن التهل بعض الوقت أسلم ، فقد تؤدي هذه المهلة إلى الحكمة وتنصح بتجربة الافتراق وقتاً معقولاً قبل الموافقة على قرار نهائي . فقد يكتشف المحاربان باستمرار في هذه الفترة أن العزلة أسوأ من التنازع ، وقد يكتشف البعد عن فضائل خفيت مع القرب .

وقد حدث أخيراً في إحدى مدن الغرب أن اتفق أحد أعضاء مجلس الشيوخ وتزوجته على طلب الطلاق ، ورفض طلبهما على أساس أنهما لم ينتهكاً مقداراً كافياً من الأوامر الإلهية والشرائع الإنسانية . واعتبرت المحكمة أن رغبتهما في التحرر غير مقبولة ، « وكبلاً بالحديد » مدى الحياة . مثل هذه الشروط تدفع إلى الفسق . فليس للرجل أن يفعل في ضوء هذه الظروف إلا أن يتحليل على القانون العنوم . لقد سمحت اليابان منذ سنوات عدة بالطلاق المشروط برضا الزوجين مع أن نسبة الطلاق عندهم أقل من بلادنا . وأخذت روسيا بهذا النظام منذ عام ١٩٠٧ . وكان هذا النظام موجوداً في روما ، وأدخله نابليون في حملة القوانين البونابرتية ، ولكن البربون ألغوه لأنهم لا يعلمون شيئاً . ومن المحتمل جداً ألا تزيد نسبة الطلاق إلا قليلاً إن لم تزد على الإطلاق بسبب إصلاح من هذا الضرب الذي يزيد في شرف سلوكنا ووقار محاكمنا .

ولندع غيرنا من الذين يعرفون يخبرونا عن نتائج تجاربنا . أكبر الظن أنها لن تكون شيئاً نرغب فيه أو نريده . فنحن غارقون في تيار من التغيير ، سببنا بلا ريب إلى نهايات محتومة لا حيلة لنا في اختيارها . وأي شيء قد يحدث مع هذا الفيضان الحار من العادات والتقاليد والنظم . فالآن وقد أخذ البيت في مدننا الكبرى في الاختفاء فقد فقد الزواج القاصر على واحدة جاذبيته الهامة . ولا ريب في أن زواج المتعة سيظفر بتأييد أكثر فأكثر حيث لا يكون النسل مقصوداً . وسيزداد الزواج الحر ، مباحاً كان أم غير مباح . ومع أن حريتهما هي إلى جانب الرجل أميل ، فسوف تعتبر المرأة مثل هذا الزواج أقل شراً من عزلة عقيمة تقضيها في أيام لا يغازها أحد . سينهار « المستوى المزدوج »

وستحت المرأة الرجل بعد تقليده في كل شيء على التجربة قبل الزواج . سينمو الطلاق ، وتزدحم المدن بضحايا الزيجات المحطمة . ثم يصاغ نظام الزواج بأسره في صور جديدة أكثر سماحة . وعندما يتم تصنيع المرأة ، ويصبح ضبط الحمل سراً شائعاً في كل طبقة ، يضحى الحمل أمراً عارضاً في حياة المرأة ، وتحل نظم الدولة الخاصة بتربية الأطفال محل رعاية البيت . وهذا كل شيء .

٤ - في إنجاب الأطفال

ومع ذلك فالكلمة الأخيرة يجب أن تكون للزواج المقتصر على امرأة واحدة ، فالرابطة المستمرة مدى الحياة تظل أعظم تصور عن الزواج الإنساني ، ولا تزال هي الهدف الذي يرمى إليه المحب الصحيح الكامل حين يبرم عقده . وثمة ضرب من الحب في الطلاق أشبه بالهروب من ميدان القتال ، ومن عدم الاستقرار والسطحية في الشخص الذي يتنقل من زوجة إلى أخرى . أملا الرجال والنساء ذوو الخلق فيستغلون على هذه الصعوبات كلما نشأت ، لأنهم يعرفون أن ثمة صعوبات شبيهة بها ستواجههم في ميادين أخرى من القتال . وهم يحصدون ما زرعوا بعد انقضاء السنوات الشاقة من التوافق المتبادل ، وبعد أن تحل العاطفة الثابتة التي رسمت مع العناية بالأولاد والمشاركة في صروف الدهر محل الشوق العابر إلى الرغبة الحسية ، فتجمع بين عقليين وجسمين في واحد . ولن يعرفا الحب في كماله إلا حين تمر بهم هذه التجربة النفسية .

ولن يتيسر وجود ذلك الكمال بغير إنجاب الأطفال ، إذ من أجلهم اخترع الزواج ، الذي لم يكن يهدف إلى الجمع بين زوج وزوجة بمقدار ما كان يرمى إلى استمرار النوع بربط الآباء بالأبناء في حبل من الولاء والعناية . ومهما نكن متحررين ، ومهما نكن قد خلصنا أنفسنا من ميول الماضي ، فإن المرأة العقيم بإرادتها لا تزال تشيع في أنفسنا الإحساس بالشدوذ والنفور . إن الحمل الموضوعي كالسعادة الشخصية في سهولة تحقيق الأغراض والوظائف الطبيعية ، ولذلك نسخر من النساء اللاتي يبقين إلى آخر الحياة بغير أطفال ، ولا نفتنح أنفسنا يعرفن صميم الحياة . ولو أن المرأة وجدت وظيفة أخرى خلاف الأمومة

تستغرق فيها طاقتها وتملاً حياتها ، فلا بأس بذلك ، وستعينها الطبيعة . أما إذا هامت على وجهها بلا غرض ولا رضا ، تتحرك من مكان إلى مكان ، وتتنقل من رجل إلى آخر ومن تسلية إلى أخرى ، دون أن تجد اهتماماً في أى مكان ، فذلك لأنها ولت ظهرها الغرض الطبيعي من الحب . فالمرأة كما قال نيتشه: لغز لا يحله إلا الطفل .

ستضحك الفتاة العصرية من هذا الاقتراح الصيوق ، وتعلن للعالم أن الزمن الذى قد تستغل فيه كآلة للحمل قد ولى . وفي الوقت الذى نتجادل فيه حول آرائنا المتطرفة تمر الحياة بجللنا مر الكرام . ولن تجد أحداً يملك حاسة التاريخ أو الإدراك بأن التطورات الاقتصادية لا تعود إلى الوراء يخطر بباله أن يسأل المرأة عن الأسرة الواسعة التى كانت من نصيبها في الريف . وكل شخص يدرك (ماعداً أعضاء المجلس من الفلاحين الذين لا يزالون يحكمون مشرعى الدولة) أن تكاثر الآلات وتناقص نسبة الوفيات قد وضع حداً للحاجة إلى إنتاج الأولاد على نطاق واسع . وإذا كان صالح الجماعة يبدو في حاجة إلى عدد كبير من السكان ، فذلك لأننا نغرق أنفسنا بالتفكير في الكم ، أو نطمع في التوسع الاستعماري والعسكري ، أو نتخيل مملكة مزدهمة كالصين تفيض يسكانها على الغرب . ولكن الكم لم يكن قط سبيلاً إلى الغلبة ، بل العقل والآلة هما الطريق إلى النصر . وعندما يحين الوقت الذى تتكافأ فيه الصين وإيانا في الآلات ، فسوف ينقلون عنا تلك الأساليب الخاصة بالرقابة على زيادة عدد السكان ، وهى أساليب حديثة تعد بديلة من قتل الأطفال والإجهاض . فليس ثمة حاجة اجتماعية ، أو دعوى أخلاقية لوجود أسرة كبيرة . وإذا اقترح أحدنا أن تظل المرأة إلى حد معقول محتفظة بوظيفة الأمومة ، فالأرجح أن ذلك لتحقيق ذاتها وسعادتها أكثر من تحقيق مصلحة الجماعة .

ومن الملاحظ أن الزواج يذبل مع ابتعاد الأطفال ، ويزدهر مع إقبالهم . كان الزواج في الماضي عقداً تجارياً لتحقيق اللذة الشهوانية للجنسين . أما الآن فقد استعاد الزواج معناه الطبيعي ، إذ يرفع النفسين الصغيرتين إلى نفس واحدة تجمع بينهما ، وينبت هذا الارتباط ويزهر كالزراع الذى نسقيه بالماء . وتجد المرأة وسط هذا الصخب والمتاعب والمصاعب والآلام شيئاً غريباً أشبه بالنشوة

الهادئة . فلم تكن قط في تعطلها وبذخها سعيدة السعادة التي تجدها في هذه
 المهام والالتزامات التي تنميها وتكملها ، حتى حين يظهر أنها تضحى بها في سبيل
 النوع . وينظر إليها الرجل فيقع في حبها من جديد ، فهي امرأة أخرى تختلف
 عما كانت من قبل ، لها موارد وقوى جديدة ، ولها صبر وحنان لم يشعر بهما قط
 في عنفوان الحب . ومع أن وجهها قد يكون مصفراً الآن ، وقوامها مشوهاً إلى
 حين في عين الرجل الفاسد الشاذ ، فإنها تبلو في عين زوجها وكأنها قد
 انتزعت من براثن الموت ومعها عطية سخيفة ولكنها ثمينة . إنها عطية لن يستطيع
 مكافأتها عليها . ويصبح الآن العمل الذي كان مشقة مريرة طبيعياً وبيجاً كالنحل
 الذي يجمع الشهد . ونصبح الدار - التي لم تكن إلا جدراناً وأسرة للنوم - بيتاً يمتلئ
 بضحكات الحياة المتجددة الشباب . وبحس الرجل لأول مرة في حياته أنه أصبح كاملاً .
 ذلك أن الرجل عن طريق الأبوة (إلا إذا كان عبقرياً تركز شهوته وكماله
 في الأبوة العقلية) لا يؤدي فقط وظيفته كفرد في جماعة أو كفرد في نوع ، بل
 يحقق « نفسه » - فهو يقبل المسؤوليات التي تنضجه وتوسع أفقه ، ويستمتع
 بإشباع غريزة الحب الأبوية العميقة التي جاءت على غير انتظار ، ويدخر رفقة
 الأطفال سلوان العمر ، ويبعد عن نفسه إلى حد ما شبح الموت ، الذي لا يحصد
 بغير حساب إلا الأجساد البالية والعظام النخرة ، إذ يجب أن يزيلها من الطريق
 لتفسح المجال للشباب . ولكن في الشباب الذي يحميه تجرى دماؤنا نحن ،
 وحياتنا ، وأرواحنا . إننا لا نسلم إلى القبر إلا شطراً من أنفسنا ، أما الشطر الآخر
 الذي تولد من جواهرنا ، وتغنى بأيدينا ، وترنى بعنايتنا ، فإنه قد يعيش متجسداً
 إنانا في تيار الحياة . سيجلب لنا الأطفال متاعب يومية ، وآلاماً مريرة ، وربما
 خيبة الأمل في النهاية ، ولكنهم يوفرون لنا بلا نزاع متعة لا حد لها تفوق حتى
 نشوة الغرام . دع الرجل يكمل نفسه ، لا على أنه جزء ، ولا على أنه فرد يتنافس
 بلا اكتراث ويعيش منعزلاً محدوداً ، فهل يمكن أن يحقق ذاته ويصبح كلاً ؟
 فليكمل نفسه على أنه شركة في نفس أكبر ، وعلى أنه محب يعطي أكثر مما يأخذ ،
 وعلى أنه أب يفرح بخدمة النوع ، ويرضى بأن يتلعه تيار الحياة وخلودها .
 ذلك أنه سوف يجد جوهر جميع الأخلاق في هذا التعاون بين الجزء والكل ، ويجد
 سر جميع الكائنات الحية ، وبصيصاً من السعادة يضيء حياته سنوات كثيرة .

الفصل الحادي عشر

في الأطفال : اعتراف

١ - نظرة شخصية

والآن بعد أن غطينا أنشودة الأبوة ، فلنبحث في صراحة وإخلاص تلك المهمة القديمة والشاقة ، نعى تربية الأطفال ، أي تحويل صغار الحيوانات والوحوش إلى سيدات ورجال مهذبين . وأستاذن القارىء في اتخاذ طابع شخصي في هذا الفصل ، وأن أستعمل ضمير المتكلم المحبوب بحرية ، لأن الأساليب والنتائج التي أقترحها ثمرة تجربة محدودة جداً ، وأود أن أقدمها كما هي عليه
لديها مغامرة أبوين مع طفل واحد . وإني أسلم منذ البداية أنني مهمم اهتماماً عبقراً هؤلاء الأشخاص الثلاثة أكثر مما يسمح به أي خيال شامل . فالطبيعة تلقحنا بحب الذات حتى ترضى بالعيش ، فمن ذا الذي يحتمل أن يرى نفسه في ضوء الأزل ؟

إني شغوف شغفاً سخيلاً بفتاة صغيرة ، ومن العسير أن أتصور أي طفلة أخرى تفوقها صحة أو ذكاء ، أو تورد خدين ، أو غزارة شعر . وعندما أصحبها إلى المدرسة ، وأودعها عند آخر منعطف الطريق ، وأرى انطلاقها الملائكية وهي تجرى راقصة تترك فصلها المدرسي ، أعد متاعب هذه الحياة الدنيا وآلامها من التفاهة مكان . فهذه الطفلة اللعوب تكشف عن كل سر ، وتبدد كل حزن . وعندما أعود إلى مكتبي أجد نشوة أبوية عجيبة تسرى في نفسي ، ويبدو كل شيء في نظري مغتفراً - الألم والحزن والموت - لأن هذه الأشياء موجودة في طبيعة أخرجت قسوتها العادلة والرفيقة من بين الآلام غير المعقولة طفلاً محبوباً .
فمن الواضح إذن مبلغ تحيرى ، وأنى أبعد الناس من القدرة على مناقشة

مشكلات الأبوة في هدوء موضوعي أو ثقة كلية . لذلك لن يكون هذا الكلام بحثاً بل اعترافاً ، ولا كتاباً في التربية بل تسليماً بمسلك يستوجب اللوم . وثقتي بهذه الأمور مزعجة كثفتي بمشكلات الميتافيزيقا المعقدة . وعلى الرغم من هذا كله ، فإنني في أعماق قلبي أعتقد أن آرائى فلسفية وعميقة ، و« قمقم مفتوح » للأجيال المشرقة . وإني لأحلم وأنا أنظر إلى رأس صحيفتي أن بعض الناس قد يرى في هذه الاعترافات شيئاً من الضوء الذي ينير بيوتهم وجبههم الأبوى ..

٢ - في الأمور الجسمية

أظن أننا قد نظرنا منذ البداية إلى أثيل Ethel ، كما جاء في تعاليم الدين على أنها مخلوق مركب من جسم وروح . فقد خلق البدن أولاً ثم خلقت الروح عندما ابتمت « أثيل » . ومنذ ذلك الوقت تحققنا أن هذا الجسد الوردى ، وهذه الأذرع والسيقان الممتلئة ، وهاتين العينين الزرقاوين ، والشفتين الحمراوين والشعر الأصفر ، كل أولئك مهما تكن بديعة في ذاتها ليست إلا آلة وأداة لحياة غير مادية سرعان ما تحب وتكره ، وترغب وتحلم ، وتعجب وتنمو ، إلى أن تصبح ذاتاً أخرى ، ومركزاً يبدو أن العالم كله يدور حوله . سوف تعتمد هذه الحياة بطريقة ما على هذا البدن . وقد تكون شعلتها أبهى فيما نطن إذا كان الجسم الذي يحملها أصح وأقوى . وكنا قد عقدنا العزم على أن نضع بدن « أثيل » ودمها تحت رعايتنا الشديدة إلى أن تبلغ العاشرة ، معتمدين على الطبيعة أن تخرج لنا من الجسم الكامل أول زهور الرقة والذكاء . وكنا نشبه في وجود علة جسمانية تخفى وراء انحراف سلوكها أو بطء مواهبها ، وبدلاً من إجراء تحليل نفسي على أثيل أو تهذيبها بالمواعظ الخلقية ، كنا نقدم لها الهواء الطلق والغذاء الصحي .

وارتكبنا في الأشهر الثلاثة الأولى غلطة فظيعة لأننا سمحنا لطفلتنا أن تكون معملاً نجرب فيها نوعاً جديداً من اللبن المحفف . إنها جريمة لم تستطع عدة سنين من القلق أن تمحوها من أذهاننا . وإنا لنعقد اليوم مع بن فرانكلن أن الجنس البشري ينبغي أن يحذر من الطبيب الشاب والحلاق العجوز . وحالفنا الحظ فعالج غلظتنا ، إذ على الرغم من سوء الغذاء تفتحت أثيل وترعرعت بشكل

عجيب . فلما اكتشفنا خطأ أسلوبنا لم نستطع أن نعزو هذا الحظ الحسن إلا للهواء الذي تمتعت به أثيل في ربيع السنة الأولى ، هواء قرية ساكنة في التلال حيث يكفى أن تنفس ليصبح بدنك . ومنذ ذلك الحين أصبحت القاعدة رقم ١ عندنا أن الهواء يأتي أولاً ، حتى قبل تلك المعجزة المدهشة ، وهي اللبن القادر على كل شيء . . . ففي كل ليلة ، مهما يكن الموسم ، تجلب النوافذ المفتوحة الهواء الذي يحيل خدي أثيل بنفنوتا Ethel Benvenuta (سميها مرحبا Welcome) ورد وهيب .

وكم رشتنا بألفاظ عذاب وذراعين تشبثان بهما حول العنق لنسمح لها بالبقاء بعد الساعة المقررة للنوم . ولكننا في هذه المسألة كنا مصممين في هدوء ، فلم نكن نرضى حتى بمناقشة مثل هذا الاقتراح الخفيف ، فبعد الفكرة كأنها جرم ، ونرسل أثيل إلى مورفيوس (١) Morpheus كل ليلة في الساعة المقررة المبكرة . . . والآن مع أنها فتاة كبيرة في العاشرة من العمر ، فإنها لا تزال تختنق بانتظام في الثامنة والربع ، راجية لنا من أعلى السلم « نوماً عميقاً وأحلاماً سعيدة » ، ولا تكاد الساعة تبلغ الثامنة والنصف حتى تستغرق في النوم . كان القانون ينحرق بين حين وآخر عندما يزورنا مثلاً أحد لاعبي البيانو المشهورين . ولكن في معظم الأحيان كانت تلك القاعدة مقدسة عندنا ، ووقفة عابرة بسيرة في فلسفتنا .

بعد الهواء يأتي الطعام . ورأينا أن أثيل كانت تزدهر بتناول غذاء نباتي ومعه كمية كبيرة من اللبن وخبز القمح . وأخذت تنمو فطالت قامتها وأصبحت قوية رياضية نشيطة ، وخيل إلينا أنها كانت تحصل على كل عنصر تحتاج إليه لكمال النمو . ولكن النباتيين سيسخطون علينا حين يسمعون أننا أضفنا بعد قليل إلى قائمة طعامها (الكتا كيت) مرة أو مرتين في الأسبوع . كنا نسميها «الكتكوت النباتي» . وظل البيت الصغير يعيش على هذا الغذاء العجيب القائم على غير أساس مزدهراً جسمانياً عشر سنوات . وليس التقرير الصحي عن أثيل نقياً . فقد

(١) إين إله النوم ، ورب الأحلام ، في أساطير اليونان . وسمى كذلك من اللفظة اليونانية مورفي Morphe : أى هيئة ، لأن الأحلام تجعل الهباء صوراً محسوسة (الترجم) .

أصبحت بالحصبة الألمانية في طفولتها وشفيت منها بعد أسبوع . وفي الرابعة من العمر انتقلت إليها عدوى السعال الديكي من طفلة أخرى وتغلينا عليه بالمصل الحديث . وفي الثامنة أصيبت باحتقان اللوزتين وأجريت عملية لاستئصالهما .

فهذه هي النقطة السوداء في بطاقتها ، وفيما علا ذلك فهي غريبة عن الأطباء والأدواء ، حتى لقد رغبت أن تعرف : « ما شعور المرء بألم المعدة ؟ » .

ويأتي اللعب بعد ذلك فيأخذ هذه العضلات والحواس والأطراف النامية ويعلمها التوافق والضبط والوحدة . والأب الكامل هو الذي يعتمد على فن التربية ، فيعرف بالضبط أي اللعب يشترى لتشجيع نمو كل عضو وكل قوة . ولا شك أن أول مبدأ نعلمه عليه في هذا الأمر أن تكون الألعاب بحيث تحتاج إلى إدراك مضبوط ، سهلة التناول ، وتحتاج فضلاً عن ذلك إلى حركة في الهواء الطلق . فالقياب ذو العجل ، والدراجات scooters ، والنيك ، والحلقات quoits ، وحبال القفز (النفط) ، والبسبول ، والتنس ، والبيسكيت (إذا كنت تعيش في الريف بعيداً عن أماكن النفط) هي أول معين للطبيعة التي تتصح في حكمة باللعب كما تتدرب جميع القوى لتبلغ الكمال . وأفضل جميع الألعاب العوم والتزحلق skating ، فقد خلق الصيف والشتاء لأجلهما ، إذ تعمل كل عضلة في تناسق ، ويسرع التنفس ويعمق ، ويدور الدم بسرعة ، وينبض القلب فرحاً . وإني لأعترف في خجل أني لا أعرف التزحلق . ولكنني مصمم في هذا الشتاء حين تتعلم أثيل ، أن أجرب أنا أيضاً وأقع . إني لأتخيل الفتيان والفتيات ينزلقون وقد أخذهم بذراع الآخر أو أمسك بخصره ، والعيون ضاحكة والحدود ملتهبة ، وهم يغنون في انسجام مع الحركة تحت سماء الشتاء . سوف نذهب للتزحلق معاً ؟ حتى الكاتب العجوز يستطيع أن يدفع المركبة الحديدية ويتزحلق بها على الثلج . فما أمتع الوقت الذي نقضيه ثلاثتنا حين تنطير ننف الثلج .

٣ - في الأمور الأخلاقية

الجسم يأتي أولاً ، وبهاء جماله وهو ينمو مصدر بهجة مستمرة . حتى إذا أقيم هذا الأساس المتين ، وانتظمت عملية الهضم انتظاماً صحيحاً وأصبحت عادة

آلية ، عندئذ تبرز أمامنا مشكلات الخلق والتربية كثيرة متشابكة . فالطفل جشع في تناول الطعام على المائدة ، ومخرب للألعاب ، أمشاكس في اللعب ، مغتر بهيئته ، كثير الأثرة ، غشاش ، متقلب المزاج ، كتوم ، يكره الماء والصابون . فكيف نعالجه ؟

أول كل شيء تجنب كلمة « لا » . إذا أساء الطفل السلوك فالتمس له العذر ، لأنك إما أسأت تغذيته أو معاملته . والنواهي الضرورية ، ولكن كل أب يجب أن يتقيد بعدد محدود جداً منها ، كالطبيب حين يصف الحمر دواء ، ولعله يفعل كالطبيب الذي يستنفذ الكشف على العدد المقرر عليه سنوياً في شهر يناير ويرتاح بقية العام . لا ريب أننا يجب أن نقول « نعم » كلما كان ذلك ممكناً . وبعض الآباء الذين يفشلون في المال أو الحب ينتقمون لأنفسهم من الحياة بأن يصدروا النواهي ويوجهوا الاعتراضات في طريق الطفل . إن سلطان الأب آخر ملاذ يلجأ إليه ووغد . فالضعاف من الناس يحبون السيطرة ، وحق المرأة في النكد عزاء لها عن الحمل . فلندع الطفل سعيداً ولا نخدع أنفسنا بتضحية كثير من الحاضر في سبيل المستقبل . أما نحن فقد عزمنا أن نحفظ بأثيل باسمه إلى أن تزوج ، والله يعلم ماذا يحدث لها بعد ذلك .

إن إصدار الأمر للطفل يبعث فيه المقاتلة والمقاومة . وهذه القاعدة تكاد تكون يقينية كقوانين نيوتن في الحركة ، وأدنى منها في اللحاق بأينشتين . فنحن حين نصدر أمراً نثير علينا غضبات الكرامة النائمة ، ونحرك جيوش الدفاع . اطلب يجب طلبك ، ومر يرفض أمرك . كن عادلاً مع الطفل ، واكسب محبته وثقته ، نجد أن طلباتك وإيحاءك أوقع من الأوامر . ومن المنجمل أن نقرر كم حصلنا نحن أب أثيل وأمها منها على كثير من الأشياء بالإيحاء . نذهب إلى المدرسة برفقة أثيل ، ونعبر لها عن حسدنا إياها لأيامها السعيدة بالمدرسة . إننا لنعجب كم يعينها أن ترى غيرها يقدر سنوات الطفولة على الاستمتاع بها . ونلح عليها ساعة الغداء بالسؤال عن حظها في الفصل ، فتفرح لاهتمامنا بها ، وتنتقل إليها عدوى اهتمامنا بالتاريخ والجغرافيا والإملاء بل والحساب . الإيحاء يرسخ في نفسها الاعتقاد بأن هذه الأشياء لا يجب أن تكون خاملة ، وأنها قد تكون مثيرة كالمعارك ، أو الرحلات ، أو رسائل الغرام ، أو تقارير الدخل .

وكذلك الحال في البيانو. إنها مشكلة كل بيت-: « اذهبي لتأدية تمرينك ». هذه جملة سخيفة لأنها توحى في الغالب بما يأتي : « البيانو حمل ثقيل ، والتدريب عليه عذاب . اذهبي وتألمي . إنك تستحقين ذلك » . ولكننا جربنا طريقة أخرى مع أثيل . هيأنا لها فقط فرصة تعلم البيانو إذا شاءت ، وتركنا ذلك لاختيارها . غير أننا ظللنا عدة أسابيع ، قبل أن نطلب منها ، نتحدث عن عظمة الموسيقى ، والمزينة الكبيرة للعزف أو التأليف . ثم بحثنا عن معلم لا يبدأ بتعليمها السلام الثقيلة والتمارين المزعجة ، بل بالألحان بسيطة يسهل على الأذن التقاطها مما يجعل سائر أهل البيت يرددونها . ولم تكده نجد المدرس حتى انطلقت الأنغام في أرجاء البيت تلعبها أصابع رقيقة دائبة ، حتى لقد كنا نحن الكبار نذهب إلى عملنا نغني الألحان التي تردها أثيل . كان يسرها أن تلحظ بهجتنا ، وشعرت بنفسها قد أصبحت فنانة . كان البيانو منذ البداية يعنى في نظرها الموسيقى لا الضوضاء والألم .

وحدثت بعد قليل واقعة في تقدمها ، ولم تعد ترغب في أداء تمريناتها ، وكنا نكبح جماح أنفسنا عن شهوة الأمر وعادة القسر . كنت أختلف بدلا من ذلك إلى البيانو وأتمرن على الدرس بنفسى في حدود مقدرتى . ثم دعوت أثيل إلى مصاحبتي وأن نعزف بأربع أيدي ، فجاءت وتمرت معها مدة أسبوع . و إذا لم تحفل بالحجي ، كنت أعزف مقطوعاتها وحدى . وأمدنا المدرس ببعض الأغنيات الزوجية البسيطة تعلمناها معاً . (في هذه اللحظة نادى بنى قائلة : « أيجي تعال نتمرن معاً ») وسرعان ما استعادت لذتها في العزف على البيانو . ولم يمض إلا قليل حتى كانت تعزف منتخبات بسيطة من بيتهوفن ، وموزارت ، وشومان ، وشوبرت ، وهاندل ، وهایدن ، وباخ . كنا نغني هذه الألحان المشهورة في سرور ، وأشعرناها بمقدار شكرنا لها لأنها ملأت قلوبنا بالغناء . وأخذت تشعر أن الموسيقى نعمة كبرى جدية بجميع المتاعب التي تستدعيها . أصبحت تقول وهي تنصرف عن البيانو : « الآن فهمت علة شغفكما إلى ذلك الحد بيتهوفن » .

وأنقل خطوة أخرى في التوضيح من البيانو إلى بحيرة السباحة ، ولو أن هذا الانتقال لا يعد شرفاً كبيراً . أراقبت الأمهات والآباء يعلمون الطفل كيف يجب الماء؟ إنهم يلاطفونه بعض الوقت ، ثم ينهرونه ، ثم يحملونه قسراً ويغسسون

كل جسمه في الماء . وتنجح هذه الطريقة بعض الوقت ، ثم تخيفه فتبعث في نفسه فزعاً من الماء . قد يمنعه من تعلم السباحة على الإطلاق . وهنا نجد أن درهماً من المثال خير من قنطار من القسر . ولم تكن أثيل شغوفاً بالنزول في الماء كأى طفل آخر . فخوفها شيء طبيعي وسليم متأصل في أجيال من مخاطر التاريخ . كنا نحملها معنا إلى حمام السباحة ونتركها تلعب في الرمل ، على حين نقفز نحن في الماء ونعوم ، ونوحى إليها بأن الماء شيء بديع . وثارث الغيرة في نفسها ، وأخذت من تلقاء نفسها تخوض في الماء . واشترينا لها حزام نجاة ، وربطناه بحمها ، وبيننا لها أمها تستطيع بمساعدته السباحة في الماء العميق ولا يكاد شعرها يبتل . وأخذت تراقب الأولاد والبنات وتقلد حركاتهم ، حتى أصبحت قادرة بعد زمن يسير على السباحة في أى اتجاه . وتعلمت في آخر موسمها الأول بدون قسر من أى نوع ، بل وبدون زجر ، حركة العوم على الصدر بضع ياردات . ثم انتزعنا عنها الحزام ، فتعجبت حين رأت أنها تعرف السباحة . وفي الموسم التالي تعلمت دون قسر و بإرشاد صديق ماهر عومة « الكرول crawl » والغطس تحت الماء . والآن تعلم أباهما ، وتجعله ينجل من قوة ضرباتها وتنوعها .

الحق أن المثال إذا كان حسناً فهو من القوة بحيث لا تحتاج في تعليمك إلى شيء آخر . وأفضل بيت ، وأفضل مدرسة ، وكذلك كل شيء آخر ، ما قل الحكم فيها . إن الطفل المهذب بغير عقاب وأمر جدير بالملاحظة . وعندما تحقق أساليب الحرية في التربية فالأغلب أن ذلك يرجع إلى أننا نحن الآباء نخرق القواعد التي نريد من أبنائنا طاعتها . إننا ننصح بالاعتدال ، ونسرف في الطعام والشراب . ونعلم الطفل أن يكون لطيفاً ، ونتشاجر على رعوس الأشهاد . ونذم مساوىء الحلوى وأفلام الإجرام السينمائية ، ولكننا ننغمس في الإقبال عليها إلى حد يخرجنا عن الصواب . إننا نطلب الأدب الرفيع ، ونأمر باللياقة في فظاظة . ننصح بالعفة ، ونتصنع هيئة الآلهة المعصومين . ولكن الأطفال يتعلمون بما يروننا نفعله لا بما نأمرهم به . فإذا كانوا مشاغبين ، فأكبر الظن أنهم يحاكون ما كنا نفعله . أرى أطفالك أخبرك من أنت .

إذا شئت أن يكون ابنك مؤدباً ، فكن مؤدباً . وإذا شئت أن يكون

مرتّباً ، فكن أنت كذلك . ولست بعد ذلك في حاجة إلى شيء آخر . إنك حين تلجأ إلى اللغة العنيفة والألفاظ المثيرة توجهها إلى الطفل ، حتى تحت ضغط الإثارة الشديدة ، إنما ترسخ في نفسه بالمحاكاة ذكرى العبارات النابية . فأداب السلوك لا يمكن أن تعلم إلا مع الصبر بالمثل المستمر . وهتنا شيء صعب يكاد يتطلب منا أن نعيد تربية أنفسنا . وبهذا الطريق يربينا أطفالنا . وكم نزل رجال الأخلاق في العصر الحاضر من هذه المبادئ الرفيعة إلى حضيض التصايح المبتذل ، وقلوا صوابهم وذكاءهم ولجأوا إلى الأوامر والعنف . إنني أسوق هذه النصائح الداعية إلى الكمال لتشجعي حتى أطبق ذات يوم ما أشرت به .

وقد حاولنا توجيه كل غريزة في أثيل نحو غاية مفيدة . فهي محبة للتملك كأي حيوان صغير ، ولم تكن على استعداد للسماح بالمشاركة في ألعابها كالحال في معظم الأطفال . ولكنها تأثرت بطريقتنا في اقتسام الأشياء معها ، ومساعدتها كلما نستطيع . وأدى الشعور بالأمن الذي نشأ عن هذه المعونة الصديقة إلى أن تكون أكثر حكمة وتسامحاً . وظلت بعض الوقت تهفو إلى القروش والملايم ، فعالجنا هذا الأمر بتخصيص « مرتب » شهري لها بشرط أن ترتب حجرتها ، وتنظم فراشها ، وتستيقظ في الوقت المناسب ، وتذهب إلى المدرسة في الميعاد ، وتؤدي دروسها على ما يرام . وظن أصدقائي أنني أعمل على « إفساد » أثيل لهذا المرتب الشهري . وغالباً ما كنت أشك في حكمة هذه الطريقة . ومن الصعب الحكم بعد هذه الفترة القصيرة على رأي أصدقائي بالخطأ أو الصواب ، ولكني أظن أن الدلائل ليست في جانبهم . فقد جعل المال أثيل زاهدة - شيئاً ما - في التملك . فهي تشتري به ألعابها الخاصة ، ولا تنفق بين حين وآخر تقبل عليها تحمل هدية لنا . وفي ذهنها مشروعات هائلة لعيد ميلادي ، وتقول : « فيم تظني أقتصد المال إذا لم يكن لشراء طرفة بديعة لك ؟ » . وفي هذه اللحظة التي أكتب فيها هذا الكلام أحت علينا في شراء عقد من عقود الأطفال . وبعد أن أنجبناها إلى طلبها أخبرني قائلة : « بالطبع سأدفع ثمنه من مالي » . ولكني أخشى هذه المرة إفلاسها .

والحال في حب التملك كالحال في الكبرياء ، فقد يكون مضراً

وسخيفاً ، كما يكون مصدراً للخلق والنمو . ولست أريد من الطفل أن يكون وضيعاً
وخانعاً . وعندما أرى عناد أثيل أعزى نفسى بأنها ستكيل الصاع صاعين لكل
من يحاول استغفالتها حين تكبر . فالخلق يحتاج في تكوينه إلى شيء من المقاتلة
والرغبة في المقاومة أحياناً . أما الكبرياء فهي رأس الشرف ، وعمود الشجاعة ،
ويمكن أن يستغل إلى غير حد في الأغراض الحميدة . إننا نوحى إلى أثيل أنها من
العزة بحيث لا تسمح لأحد يراها غير مرتبة أو قادرة . وأنها أكبر من أن تأخذ
أكبر من نصيبها في أي شيء ، وأنها أكرم من التهاك على الهدايا والمزى والأفضال ،
وأنها أعز من أن تسمح لأحد يتفوق عليها في عملها ، (أرجو ألا تطلع على
اعترافنا بهذه الأسرار) . فالكرامة أفضل بديل من العقاب ، فهي دافع إيجابي
لا مانع سلبي . وهي التي تولد الصلابة والشجاعة ، وتتغلب على الحياء والخبث .
ولقد تساءل نيتشه : « ما الفضيلة ؟ » وأجاب : « أن يكون المرء شجاعاً » . ولكن
كيف يمكن أن يكون المرء شجاعاً بغير كرامة . ؟ !

ولعلنا كذلك يمكن أن نستبدل الدم بالمدح في تكوين خلق الطفل . فاللوم
يقيد النفس ، ويجعل العمل الناقص مكروهاً إلى الأبد . أما المدح فإنه يبسط
كل خلية ، وينشط كل عضو ، ويجعل حتى أصعب المهام مغامرة تفضى إلى
النصر . إن حب الذات هو الرافعة التي نستطيع بها تحريك العالم . وبدلاً من
مهاجمة العمل الذي لم يحسن صاحبه أداءه مصوبين إليه سهام اللوم ، فلنمدح
الأعمال التي أحسن أصحابها أداءها ونوثرها بألوان المديح التي ترسخ حلوة في
صفحة الذاكرة ، وتدفع إلى التقدم في العمل . فإذا جاء تقرير أثيل منبثاً
عن تأخرها في الحساب (وهو خصمها اللدود) أبدينا الأسف ، دون أن نلومها .
ولعلها لن تعرف أبداً أن درجاتها في الحساب أعلى مما كنا نحصل عليه في مثل
سبها . أما حين تدخل البيت وتخرنا عن الدرجات النهائية التي حصلت عليها
فإننا نرقص طرباً وحتى بها ، ونبذل جهدنا في إظهار الفرح من جديد عند كل
سبق . وحين تعمل شيئاً نبتهج له بوجه خاص ، نمنحها دولاراً تضيفه إلى رصيدها
على الرغم من نصيحة أصدقائنا . وأي بأس في أن تكون طريقة المدح والعطف
أقل صلاحية من أسلوب القبح والعقاب ؟ إننا نوثر أن نخسر بالطريقة الأولى

على أن نكسب بالثانية . سنقف في صف أى مشروع يؤدي إلى سعادة أثيل .
فإذا كان لنا الخيار ، فنحن نفضل أن ندلها بالعطف من أن نصرها بالعذاب .
فالعطف ، لا التجهم وجمود القلب ، هو المعين لنا جميعاً في الأزمات .

ولست أدري أيكون ما رسمه القدر لنا من إنجاب طفلة واحدة مشكلة
أم نعمة .. إني لأعترف أننا أنفقنا في تربية أثيل من الوقت أكثر مما كنا نمنحه
إياها لو كانت الذرية أكبر . لقد رأيت بيوتاً فيها طفلان أو أكثر ، فوجدت
فيها من الضوضاء ما يتنافر مع ذوقى . إني أودى عملي بالمنزل فأرى لذلك أثيل
كثيراً . ولو كان لها أخوات أو إخوة لبحثت عن مكتب أو حجرة في سطح ،
بعيدة عن البيت ميلاً على الأقل . وأثيل بحالتها الراهنة لا تزعجنى ، بل هى مصدر
سرور لا يمكن التعبير عنه . إن صوتها في الحجرات الأخرى ، بل في بعض
الأحيان حين تفتح حجرتى ، ينشطنى وينعشنى . إني لأعد نفسى حسن الحظ
حين أعمل لا في فوضى المدينة ، بل في الصحبة الهادئة لمثل هذه الفتاة النامية
السعيدة .

ومع ذلك فهذه النعمة الوحيدة تثير صعوبات ، نحاول حلها باستقبال
أترابها في المدرسة للعب معها ، وتشجيعها على رد هذه الزيارات ، ودعوة ابن عم
صغير يعيش معنا في الأجازات ، وتمضية آخر الأسبوع في بيوت أخرى ، هذا
فضلاً عن أننا أنفسنا نلعب لعب الأطفال فنشاركها في دروسها وألعابها . إنها
تأخذ دروساً في اللغة الفرنسية ، فنحفظ معجمها الأسبوعى معها ، ونتبارى في
ذلك العمل ، ونحفر كل لفظ في صفحة الذاكرة بأقنان مختلفة . أو عندما
يصادفها مسائل صعبة في واجب الحساب فنخلف إلى مائدة حجرة الطعام ،
وتجمع الأسرة كلها وتطرح وتضرب وتقسم في آن واحد مدة ساعة . أهذا
مضيعة لوقت الآباء ؟ ولكن كيف تضيع وقتك « أنت » ؟ أيمكن أن تنفق وقت
فراغنا بأفضل من هذه الأساليب المحددة للشباب ؟

إن سر الأبوة في القدرة على العود إلى الشباب مرة ثانية ، واطراح أى وقار
أولقب ، واللعب في مساواة تامة مع الطفل . ومن المحتمل أن نكسب بهذه المودة
المتواضعة تلك الثقة والمحبة الكاملتين ، وهما حجر الزاوية في التربية . كيف ننجح

في تربية الخلق إذا لم نستطع بالصراحة أن نجتذب الصراحة والشرف من قوى الطفل الأخلاقية الطبيعية؟ (١). نقول لأثيل إن كل فكرة تغير دون وعي وجهها ، وعلى مرّ الزمن تسطر جميع عناصر الخلق على صفحة الوجه فتقرأها أي عين . ولكننا لا نقنع بمثل هذه العبارات العقلية المتهاففة . فنحن نعلم أننا إذا شئنا أن تكون ابنتنا صريحة فلنكن نحن أنفسنا صرحاء حتى إذا كانت الصراحة مؤذية ، وأنها يجب ألا نخيفها بالحدّ من أي عقاب أكثر من أن ندعها ترى أن انحرافها عن الصراحة قد جلب الغم لأهل البيت طول اليوم . إنا واثقون أن المثال والعطف يدفعانها إلى الصراحة معنا . قد يكون الكذب مباحاً في بعض الأحيان مع البالغين (كما يذهب إلى ذلك قليل من علماء الأخلاق) لأن البالغ يستنكر الحقيقة . ولكن ذلك ليس من الحكمة في شيء بالنسبة للأطفال الضالين . للمعرفة - ولو أن فلاسفة الأخلاق يحاربون بوجه خاص سعي الأطفال إلى معرفة الحقائق الجنسية . لقد ابتعدت أثيل عن المثل الأعلى في هذه المسألة وفي غيرها من الأمور ، وأظن أن ذلك يرجع إلى أنني لم أكن صريحاً معها إلى النهاية . سنحاول مرة أخرى .

٤ - في الأمور الجنسية

أقصى امتحان للصراحة هو التربية الجنسية للطفل . لم نقاوم ذلك الفضول القوي الذي يعد أصل العلم ولباب التربية؟ أظن أن السبب القريب في ذلك يرجع إلى أن ميراثنا البيوريتاني في أمريكا ، قد خلف فينا شيئاً من الفزع من الجانب الشهواني في الحب . وأن السبب البعيد يرجع إلى السرية التي كانت تحيط العملية الجنسية دائماً ، حتى في المملكة الحيوانية ، للابتعاد عما ينشأ عن ذلك من خطر الهجوم . وأن السبب الرئيسي يرجع إلى أن ازدياد تأخير الزواج من زمن البلوغ إلى سن متأخرة قد ترك فترة خطيرة يجب الابتعاد فيها عن أي مثير لا لزوم له للغريزة الكامنة والقوية . إنها مسألة صعبة متعددة الجوانب . ولكننا عازمون حتى

(١) لا أستطيع أن أضيف شيئاً إلى الفصل العظيم « الصدق » في كتاب برتراند رسل « التربية والحياة الفاضلة » .

في هذه المسألة أن نحاول بلوغ الحق . سنبدل أقصى وسعنا لاستبعاد هذه المسائل بعيداً عن أذهاننا إلى آخر لحظة ممكنة . وعلى كل حال ستأتي سريعاً مع جو الحياة العصرية الشديد الحرارة . ولكننا نود الإجابة عن هذه الأسئلة قبل أن يجيب عنها أطفال جهلاء أو شهوانيون . ولن نعالجها بأي طريقة أخرى أو بأي نعمة على خلاف المسائل الأخرى . « فالوقار reverence » في هذه المسألة هو الطريق الباطل ، لأنه سبيل إلى الأسرار والأضرار . يجب على المرء أن يتحدث عن الأمور الجنسية كأنه يتحدث عن الهضم أو التنفس ، يهدوء العالم غير المتحيز . والصدق أسلم في نهاية الأمر بشرط ألا يُشَابَ بالخوف

المعرفة والصحة أفضل طبييين نفسانيين ، فحينما كان التينك صحيحاً والعقل سليماً ، فلن تجد « العقدة » سبيلاً إلى النمو . كان ديدرو Diderot يقول إن التشريح أول الأمور التي يعلمها ابنته ، ولو أني لست متعجلاً في تعليم ابنتي ذلك . ولا ينبغي أن ترعجنا الاضطرابات العادية للشباب بالنسبة لهذه الأمور . سندع الطبيعة تأخذ مجراها ، دون عظمات أو أكاذيب . ولكننا سنقدم للطفل جميع الألعاب الرياضية المفيدة التي تفتنه تحت ضوء الشمس . حين أرى الصبي يلعب البسبول في ابتهاج أعلم أن أخلاقه حسنة .

حين تبرز حياة الحب عند الطفل بالصدق تصبح هذه الحياة كأي شيء آخر حولها موضع جمال وبهجة . هاهي ذى أثيل مثلاً تعود من المدرسة ، وتجلس على مسند الكرسي ، « وتطوقني بذراعيها » كما تقول ، وهمس في أذني بنجل : « أبي ، إني أحب » فماذا أفعل ؟ هل أعنفها لهذه القصة الخفيفة ؟ لا أستطيع ، بل بدلاً من ذلك أضحك ، وأطلب منها تفاصيل كاملة . لماذا نطفيء بالأخلاق هذه النفس المضيفة ؟

ولكن ماذا نفعل حين يأتي دور البلوغ ؟ سنملاً الموقف بالمعرفة عند أول علامة له . لن ندخر وسعاً في تجنب الحساسية ، والشعور بالذات ، وحب الانطواء الذي كثيراً ما يغير لون الحياة في هذه اللحظة الدقيقة من مداها . دع هذه السنة الأولى من البلوغ بعيدة عن الاضطرابات والمأساة . ولتكن ربيع الروح ، تبذر فيها بنور الإخلاص والمثل العليا ، وموسم المخاطرة والشعر ، وشهر الصحة

وانمو للجسم والعقل . فالذكاء ينبت الآن بخطى سريعة ، ويتراجع الجسم إلى المحل الثاني ، ويقف الخلق في مكانه بعد أن تكون ، وتتركز مهمة المرئي آخر الأمر في مشكلات العقل .

هـ - في الأمور العقلية

لست أدري متى بدأ « عقل » أثيل . ولكننا لم نلق إلى ذلك بالا حتى أصبحت تقول مع ميلن Milne (١) : « الآن بلغنا السادسة » . إنها لا تريد مني أن أستنتج أنها لم تكن ذات عقل قبل ذلك .. ألم تأخذ دروساً كل حين في تعلم الشاذ في اللغة الإنجليزية ؟ وهنا أيضاً كان علينا أن نختار بين أمرين : الأوامر والأمثلة . وسلمنا بأن أثيل إذا كانت لا بد أن تتعلم الإنجليزية صحيحة فيجب أن نتعلم نحن أن نتكلمها صحيحة ، وإذا أردنا أن نبعد من معجمها الاصطلاحات السوقية ، فلا ينبغي أن تجرى على ألسنتنا . ليس معنى ذلك استبعاد التشبيهات العامة الحلوة ، فقد تبعت الحياة إلى العبارة ، وتفيد اللفظة الواحدة ما يحتاج الدكتور جونسون إلى جملة طويلة للتعبير عنه .. ولكننا آثرنا سلامة اللغة على الابتذال ، ووضعنا في طريق أثيل حينما استطاعت القراءة أحسن الآداب المناسبة لسنها .

وكان لا بد أن نواجه في أثناء ذلك مسألة المدارس الخاصة : أنرسل أثيل إلى المدرسة العامة المجاورة لنا ، أم إلى معهد خاص ذي سمعة حسنة ولكن مكانه غير ملائم ؟ لقد زرنا كلتا المدرستين ، ودهشنا عندما رأينا مدى التقدم الذي بلغته المدارس العامة منذ الأيام التي كنت أقوم بالتدريس فيها لقاء عشرة دولارات في الأسبوع . فالحجرات المدرسية مشرقة ، والفصول أقل عدداً ، ولكل تلميذ (تحتة) خاصة ، والمدرسون متنافسون ومبتهجون ، إلى جميع الأنواع والتسهيلات المدرسية ؛ فلم نصدق أعيننا . كنت أسمع الشيء الكثير عن المدارس ، بل لقد كتبت أنتقدها باعتبار أنها سمون نظامية يدخلها الأطفال آلهة في المهدي ويتخرجون فيها آلهة في اللحد . فهل كنت أنطق بعبارات منمقة فقط ؟

(١) روائي إنجليزي مشهور ولد سنة ١٨٨٢ ، وله شعر ونثر كتبه لابنه الصغير كرسنوفر . وله روايات كثيرة (المترجم) .

وجربنا المدرسة العامة ، وسار كل شيء على ما يرام . لعلها كانت تغلو بعض الشيء في النزعة الوطنية ، ولكننا في الحملة لم يكن لنا اعتراض أن نتعلم أثيل حب بلادها بحيث يسمح لها أن تقدر عظمة البلاد الأخرى كذلك . وسنراقب ذلك . كانت المدارس العامة الأربع التي التحقت بها أثيل نموذجاً في الكفاية والنزعة الإنسانيّة . كان بعضها أفضل من بعضها الآخر ، لا بسبب المدارس ذاتها بل للعلاقات التي تعقدتها فيها . كنا نلاحظ تغير بنتنا الصغيرة في العادات والميول كلما انتقلت من مدرسة إلى أخرى . أما الآن فهي في أفضلها جميعاً مما يبعث في أنفسنا الامتنان والسعادة .

لا ينبغي أن أعظم بناء على هذه التجربة ، وأعترف أنه لو كنا في مكان آخر ما لجأنا إلى المدرسة العامة إذا تيسر لنا ذلك . فالعلاقات بين الناس نصف لعبة الحياة ، ويجب أن يغفر الله لنا اختيارها . وكان إمرسون يقول : « ارسل ابنك إلى الكلية وسوف يعلمه الصبيان » . وقد دفعنا هذا الاعتبار في إحدى الحالات لتجربة مدرسة خاصة من أبداع مدارس نيويورك . وتبيننا في الحال أن أثيل لا تحبها ، فكانت تشكو من الضوضاء واختلال النظام مما كان مدير المدرسة يسميه حرية . ومع أنها تعلمت بعض الأشغال الصغيرة المفيدة ، وكانت تلعب كثيراً في الهواء الطلق تحت إشراف دقيق ، إلا أنها كانت تسألنا بين حين وآخر : « متى يعلمونى شيئاً ؟ » وفي نهاية السنة الدراسية بالمدرسة الخاصة ألقناها بمدرسة عامة (كانت الدراسة بها ممتلئة شهراً) ووجدنا أنه على الرغم من ارتفاع مستوى ذكائها عن عمرها كانت متأخرة في مواد كثيرة لازمة لنقلها إلى فصل أرقى ، فاضطررنا إلى إيقال الصيف بالدروس .

الخطوة التالية لوجود المدرسة هي التعاون معها ، بالألا نسمح بالغياب أو التأخير إلا لأسباب حيوية ، وبأن نراقب تقدم أثيل اليومي وتقاريرها الشهرية ، ومتابعة واجباتها المنزلية ، والعناية بدروس كل يوم فهذا كله جزء من مهمة الأبوة ، لا يعين المدرسة فقط بل يساعد الطفل كذلك ؛ وكل نظام أو ترتيب فضيلة تضاف إلى الخلق . وكنا إذا تمسكنا في الحقول أو الغابات ندير الحديث ما استطعنا حول التاريخ أو الجغرافيا أو الأدب ، وتعطينا قصص مشهورى الرجال المثيرة أكثر من الحكايات الخيالية والحرفات .

هل الجغرافيا ثقيلة ؟ إذن لم كانت السفينة الراسية في الميناء ، أو الحارية بالشراع أو البخار إبحاء لا يقاوم بقصة خيالية ؟ وحيث كان كل طفل يشق إلى رؤية البلاد الأجنبية بطريقة تعليم الجغرافيا هي الرحلة الحقيقية أو الخيالية . يرسو المدرس بتلاميذ الفصل في شنغهاي أو سنغافورة ، فترحب بهم سائر أسرار آسيا . أو يرتقون نهر النيل من الإسكندرية إلى الحبشة مارين بمئات من القبائل الغربية إلى جوهانسبرج ومدينة الكاب ، فتصبح أفريقية حقيقة لا مجرد اسم . لم لا تجهز كل مدرسة بأفلام رحلات ناطقة كذلك التي يعرضها هيلز ونيومان ، فيها مناظر وصور متحركة أمتع ألف مرة من الصور الثابتة ؟ والتاريخ . . . لا ريب أنه بالنسبة للأطفال يجب أن يكون ما سماه كارليل « سيرة العظماء » . ذلك أن تعويد الطفل تمجيد العبقرية يجعله يخلص لها إخلاصاً لا يمحوه العمر حتى إذا ذوى كل حب آخر .

ولكن ندخل تلك المملكة من العقل حيث لا يزال العباقرة المذكورون يعيشون ويعلمون يكتبون أن نقراً ونرى . علينا أن نرى غير متعجلين تلك الصور والتماثيل التي دوّن فيها الفنانون فلسفاتهم في الحياة على صفحة الوجوه وهيئة الأجسام . وأن نتجرع على مهل عظمة البارثينون Parthenon (١) أو رقة شارتر (٢) Charters ورشاقها . وأن نقراً في غير عجلة تلك الكتب التي صفاها الزمن لنا من نفاية كل عصر تحمل الميراث العقلي للإنسانية . ما أمهج أن نستمع لأثيل تروي القصص التي سمعتها في المدرسة ، عن روفائيل ورمبراندت ، وليوناردو وميكائيل انجلو ، ورينولدز وجنزبورو ، وروبنز وفانديك . عندما كنت في سنهم أكن أحلم بوجود هؤلاء الرجال . وأبهي من ذلك أن نجذبها إلى عالم الأدب لتستمع بحياة شكسبير ، وشللي ، وملتون ، وبيرون ، وجوته ، وهوجو ، وهويتان ، وبو .

إنها لم تكذب تم مقرر الأدب المؤلف خاصة لمن هن في مثل سنها . والفصول

(١) البارثينون معبد كبير في أثينا أنشئ في القرن الخامس قبل الميلاد وزينه فيدياس المثال المشهور بالتماثيل . (المترجم) .

(٢) كنيسة مشهورة في فرنسا بنيت على النظام القوطي في القرن الثاني عشر الميلادي واشتهرت بزجاجها الملون ، وأصبحت علماً على الكنائس في العصر الوسيط . (المترجم)

القديمة في هذا الأدب مثل « أليس في بلاد العجائب Alice in Wonderland »^(١) ،
و « الكتاب الفارغ بقلم لير Nonsense Book »^(٢) ، بديعة جداً . ولكن معظم
الكتب المتأخرة المؤلفة للأطفال فاسدة بسبب سوء تقدير ذكاء الطفل ، وليس
في مادتها ما يثير ، ولا تبحث على القراءة أو تعمل على تسميتها . إنها تفاهة عقلية
قد يفقد معها الأذكاء من الأطفال كل ذوق للقراءة إذا كان غذاوتهم هو هذا
اللبن الحائر . وثمة آداب كلاسيكية للبالغين يمكن أن يستمتع بها الطفل في التاسعة
أو العاشرة ، مثل « الفرسان الثلاثة » و « الطليسم » بل « والبؤساء » ، ثم إن
« الطفل يزيد استمتاعه بها حين نخبره أنها لم تكتب للأطفال ولن تجد في سائر
أنحاء العالم أفضل للطفل من « روبنسون كروزو » و « رحلات جالفرو » ، ومع ذلك
لم يكتب أى واحد منهما للأطفال ، ولا يفهمهما البالغون حتى الآن .

ومن الممتع في كل بيت يعز بالكتاب أن يخصص صاحب الدار ساعة
للقراءة بصوت عال ليلة أو أكثر في الأسبوع . ويستطيع الأطفال والبالغون أن
يتناوبوا القراءة ، على أن توجل التصويبات حتى يتم قراءة الفصل كله ، ثم
يصحح الوالد أخطاء الطفل على حدة . إنى لأذكر كيف كانت أثيق وابن عمها
لويس ذوالعينين السوداوين وثلاثة من الكبار يقرأون « إنوك أردن Enoch Arden »^(٣)
هذه الطريقة ، وكيف كان الطفلان يستقبلان كل سطر باهتمام شديد ، وكيف
سادنا الصمت جميعاً في نهاية القصة إلى أن اتجهت أثيل نحو أمها وأخفت وجهها
في ذراعها وبكت . وقد رتبنا الآن الحصول على عدة نسخ من « تاجر البندقية » ،
لنوزع الشخصيات فيما بيننا ، ونقرأ التمثيلية بكل ما فيها من بلاغة ونحن جالسون
أمام نار المدفأة .

(١) قصة غريبة للكاتب لويس كارول كتبها عام ١٨٦٥ ، يصور فيها أليس وقد وقعت
في بئر فوجدت نفسها في مملكة غريبة ، حيث أصبحت هي جنية ووقعت لها مغامرات مع الأرنب
الأبيض والقطعة العزيزة ، ألخ . (المترجم) .

(٢) ادوارد لير Lear (١٨١٢ - ١٨٨٨) كاتب انجليزي ومصور مشهور بأشعاره الفارغة
الغريبة الخيالية . (المترجم) .

(٣) شعر منشور لتيسون ، البطل بحار تحطمت سفينته على جزيرة مهجورة ، ثم عافا
بعد غيبة سنوات ليجد زوجته قد تزوجت غيره ، فلما رآهما سعيدين صم على التخفي وبارح المكان
يمت كير القلب . (المترجم) .

وإني لأعتقد أننا نحصل آخر الأمر على « التربية الحرة » عن طريق القراءة لا عن طريق المدارس العالية والكليات . وقد شرح المستر إفرت دين مارتن (١) Everett Dean Martin شرحاً حسناً معنى هذا الاصطلاح ، وإني أوصي بحرارة بهذا الكتاب لأولئك الذين يرغبون في معرفة حقيقة النضوج . إننا نظن في الوقت الحاضر أن الرجل يكون متعلماً إذا استطاع قراءة الصحف في الصباح والظهر والمساء . ولكن على الرغم من أن جامعاتنا تخرج كل عام كثيراً من المتخصصين ، فثمة جذب واضح في الثقافة الحقيقية في حياتنا . نحن أمة فيها مائة ألف مدرسة ولا يكاد يوجد فيها عشرة متعلمين .

فلا غرابة أن يتساءل «ولز» وغيره عن فائدة التعليم الجامعي . وهذه مغالاة في التشاؤم لإبراز هذه النقطة . ومع ذلك فمن الخير أن ينهض أحد لينقد فكرتنا بأن الإكثار من المدارس والمتخرجين في الجامعات قد يجعل منا شعباً ذكياً . لقد عانت مدارسنا وكلياتنا معاناة قاسية من تصور سينسر التربية على أنها تكيف الفرد بالبيئة التي يعيش فيها . كان ذلك التصور تصوراً ميتاً وتعريفاً ميكانيكياً منزعاً من فلسفة ميكانيكية تنفر منه أي روح خلاقية ، وكانت نتيجة ذلك أن غزت مدارسنا العلوم الميكانيكية والنظرية مع استبعاد إلى حد ما تلك المواد « غير النافعة » كالأدب والتاريخ والفلسفة والفن . وهكذا نخرج صنفاً حسناً من الموظفين والكتبة والفنيين الذين يلتمون بعد انقضاء عملهم اليومي الصحف المصورة ويزدحمون في الملاهي التي يرون فيها دائماً على الشاشة نفس صور الحب ، وعلى المسرح نفس الموضوعات .

هذا التعليم الميكانيكي و « العمل » يخرج أشباه رجال لا رجالاً كاملين . فهو يخضع الحضارة للصناعة ، والبيولوجيا لعلم الطبيعة ، والذوق وأدب السلوك للمال . ولكن يجب أن يكمل التعليم الإنسان فينمي فيه كل قوة خالقة ، ويفتح عقله على جميع مظاهر العالم الممتعة والنافعة . فصاحب الملايين الذي لا يجد في بيتهوفن أو كوروت أو هاردي ، أو في توهج غابات الخريف عند غروب الشمس ، إلا أصواتاً وألواناً لا دلالة لها ، إن هو إلا مادة إنسان فقط ، تحجب

(١) عالم أمريكي في التربية (١٨٨٠ - ١٩٤١) له كتاب « سلوك الجاهير » وغيره (المترجم) .

نوافذ روحه الملوثة نصف هذا العالم . إن التعليم العلمي الخالص يجعل ممن يخرج منه مجرد أداة ، ويترك صاحبه غريباً عن الإحساس بالجمال ، ويهبه قوى بعيدة عن الحكمة . ولو أن سبنسر لم يكتب قط عن التعليم لكان ذلك أفضل للعالم .

ومن الخير أن تأخذ اللغتان اللاتينية والإغريقية في الزوال من جامعاتنا لأنهما كانتا تستنفدان من الجهد مئات المرات أكثر مما تستحقان ، وفي ذلك يقول هايني : « لو كان على الرومان أن يتعلموا اللاتينية أولاً ما بقي لهم من الوقت ما يغزون به العالم » (١) . ولكن مع أن لغتي اليونان والرومان لازمتان لفقهاء اللغة فقط ، فإن أدب هذين الشعبين يكاد يكون كما لا يستغنى التعليم عنه . وقد يتجاهل أحدنا عامداً فرجيل وهوراس ، ولوكريتيوس وشيشرون ، وتاسيتوس ومرقص أوريليوس ، ويكون مع ذلك تاصحجاً . ولكن ليس من بين سائر أدوات التعليم التي أعرفها شيء أبعد وأوثق من دراسة حياة الإغريق في شتى مظاهرها ، في حكوماتها الديمقراطية والمستبدة ، وخطاباتها وتمثيلياتها ، وشعرها وتاريخها ، وبنائها ونحتها ، وعلمها وفلسفتها . دع أي طالب يستوعب حياة عصر بركليس وآدابه ، وعصر النهضة ، وعصر التنوير ، وسيحصل على تعليم أفضل من أي جامعة يمكن أن تقدمه إليه . ليس معنى التعليم أن نحصل على إجازة تثبت خبرتنا في العمل أو التعدين أو النبات أو الصحافة أو الفلسفة . ولكنه يعني أننا نصل إلى فهم أنفسنا والعالم الخارجي والرقابة عليهما بوساطة استيعاب ميراث الإنسانية الخلق والعقلي والذوقي ؛ وأن اختيارنا قد وقع على أفضل معين لنا في الروح والجد جميعاً ؛ وأنها قد تعلمنا أن نجتمع بين الأدب والثقافة ، وبين الحكمة والمعرفة ، وبين التسامح والفهم . ففتى تخرج جامعاتنا مثل هؤلاء الرجال ؟

٥ - نشوة

ما أهي أن أرى أثيل جالسة على مقربة من نار الموقد ذات مساء ، وقد مدت ساقها القويتين إلى جانب الكرسي ، وكشفت عن ذراعها البضتين ، وتلمع شريطها الحمراء فوق قميصها ، وقد تهدل شعرها فوق كتابها ، وأضاء

(١) Memoirs, vol. 1, p. 12.

وجهها بالاهتمام والإحساس ، وهامت روحها بعض الوقت إلى أماكن بعيدة
وأزمة سحيقة ، مسافرة موسعة حدودها ، رافعة نفسها يوماً إثر يوم أكثر ملاءمة
لصحة عظماء الرجال والنساء . ستغرم بهم واحداً بعد واحد وتستمع إليهم ،
من سافروا إلى ديوز ، ومن أنبادقليس إلى نيتشه ، ومن بوذا إلى دستوفسكي ،
ومن لاوتسي إلى أناتول فرانس .. إننا نراها تنمو في صحبتهم عاماً بعد عام ،
فتعلم الحكمة من سقراط ، والإخلاص من ليوناردو ، والتسامح من المسيح .
إننا نحلم بكل ما يمكن أن تكون عليه ..

إننا نلجأ ألا تصبح مسرفة في التعليم حتى تحب الحياة ، وأنها لن تؤثر
الكتب على الأصدقاء ، أو الطبيعة ، أو الأمومة .. لن نعدها كاملة مهما تكن سيرتها
في الحياة ، إذا لم تعمل على رفع طفل آخر إلى مرتبة أعلى من مرتبتها كما نحاول
أن نرفعها فوق أنفسنا .. ولكنها ستكون حرة ولو لتخب أملنا .. الحق أن أحداً
لا يستطيع أن يهدي غيره إلى الصواب .. إنها ستختار طريقها الخاص ،
وتحدد صالحها الخاص .. ويكفي أن الله قد وهبنا إياها ، وأن ضحكها
وصراحتها قد أشاعا ألواناً من البهجة في هذه الحياة المشكوك في أمر أصلها
والغامضة المصير ..

الفصل الثاني عشر

إعادة بناء الخلق

١ - عناصر الخلق

لقد تكلمنا بما فيه الكفاية عن التربية الأخلاقية والعقلية للطفل . أما نحن الكبار - أئمة أى احتمال يمكننا من صياغة أنفسنا فى قالب أفضل مما نحن عليه ؟ من المزايا التى يتمتع بها المفكر فى هذا العصر الجبار المعقد أن يتمكن من ملاحظة مولد علم من العلوم . ويبدو واضحاً من هذا الصخب الذى نراه فى المعامل أن « الفلسفة » ، وهى أم العلوم (الجاحدة) ، تتولد الآن عن طفل آخر ، وأن دراسة « العقل » آخذة فى الانتقال ببطء ومشقة من ظلمات الميتافيزيقا إلى أنوار الملاحظات والتجارب المضبوطة . ولم تم الولادة بعد ، وحتى فى فلسفة فرويد لا يزال العلم الرضيع متعلقاً بأمه تكاد تخنقه النظريات والأساطير .

إن علم النفس يقف اليوم حيث كان علم الطبيعة يقف حين كتب فرانسيس بيكون كتابه « تقدم العلم » منذ ثلاثمائة عام . فقد وضع بيكون فى شجاعة أفرغت حتى رجال النهضة الأبطال خطة للعلوم تبرز المشكلات الحيوية التى كانت تحتاج إلى الحل ، كما تنبأ فى كل صفحة بالانتصارات التى تجلبها المعرفة الجديدة . وأصبحت هذه الانتصارات الطبيعية اليوم حقائق كلية وعميقة أبعد مما كان يتصورها حتى خيال بيكون . وغبرت الطبيعة والكيمياء والرياضة والميكانيكا وجه الأرض فى كل مكان ، وجعلته أكثر خضوعاً لإرادة الإنسان . والإنسان فقط بما فيه من إرادة وخلق هو الذى يبدو أن يد التغيير لم تناوله .

ماذا لو كان علم النفس آخذاً فى التحرك صوب نتائج مماثلة ؟ لو ظهر

فيلسوف آخر مثل بيكون يضع خطة مشكلاته ويتنبأ بانتصاراته ، فمن يصدقه ؟
إننا لا نزال على شاطئ البحر الغريب يغشيه ظلام الخرافات والأساطير ،
ولا ندري مسالكه وأطرافه المترامية ولا الجزر السعيدة التي توجد فيه . ولكن
العلم الجليد سيخاطر بالإبحار مهتدياً بالمحاولة والخطأ trial and error في
وجه رياح التحيز وسحب الجهل . سيقف علم النفس بعد ثلاثمائة عام حيث
يقف علم الطبيعة اليوم ، ولا يزال ناقصاً أشبه بلوحة لرودين (١) Rodin ،
ولكنه مع ذلك سيد تقبض فيه يد العلم في النهاية على « العقل » و « القلب »
و « الروح soul » ، وعلى المادة الأولى لإزادتنا المهوشة التي تصوغها المعرفة
ببطء فتحيلها إلى جنس أرقى في قوته ورقته .

أنفسنا هي محور اهتمامنا ، وبمقدار ما يبحث علم النفس في أنفسنا لا في
تجريدات فهو أشبه بالمأساة التي يمكن أن نكون نحن أبطالها . وبعد ، فمن نحن ؟
قردة ؟ أم آلهة ؟ أم قردة في طريقها إلى أن تصبح آلهة ؟ ما هذه « الطبيعة
البشرية » التي يبدو أنها تحدد تواريخ لا عددها ولا تتكرر مآسيها ؟ ما أسس
الخلق والسلوك وعناصرهما ؟ أهي كلية وراسخة بحيث لا يمكن أن يتغير الخلق
أبداً ؟ أو هل يمكننا - كالبارون منشاوزن Münchausen - أن نرفع أنفسنا
برباط أحدثتنا من تيار ميراثنا وفيضانه ؟ فلننس إلى حين كل شيء آخر ،
ولنبحث في طبيعة الخلق character ، واضعين إياه تحت مشرحة الملاحظة
والفهم . وسنضم هذه الأجزاء بعضها إلى بعض فيما بعد - إذا استطعنا .

حين تنازل علم النفس القديم ليجت في مثل هذا الشيء الأرضي الذي
يسمى سلوك الإنسان ، قسم الخلق أربعة أنواع : الدموي ، والسوداوي ، والصفراوي ،
والبلغمي . هذه القسمة سخيفة وغير طبيعية . إنها تدل فقط على أن الناس إما
فَرِحُونَ أو مكتئبون أو ناريون أو أنجلوسكسون (٢) . قد يكون الأمر كذلك ،
ولكن هذه الألفاظ صفات لا تفسيرات . ونظن أن الذي اخترعها كانت له

(١) فرنسوا رودين (١٨٤٠ - ١٩١٧) مثال فرنسي له لوحات مشهورة : « القبلة »
و « المفكر » و « الرجل الذي يمشي » وله تماثيل لفكتور هيجو ، و برنارد شو ، و بلزاك وغيرهم .
وكان يبرز العاطفة بالحركة في الرخام . (المترجم) .

(٢) يريد المؤلف أنهم باردون (المترجم) .

نظرة فسيولوجية طريفة عن الخلق ، باعتبار أنه يرجع إلى الدم أو المرارة ، أو الصفراء والبلغم - ولو أننا نتردد في هذين الأخيرين . واقترح بين « Bain » أن يقسم الخلق إلى فكرى ووجدانى وإرادى ، تبعاً لتغلب الفكر أو الشعور أو الإرادة . ولكن لما كان الصنف الإرادى قد يكون وجدانياً كذلك (كالحال في الإسكندر أو إليزابيث) أو فكرياً أيضاً (مثل قيصر ونابليون) ، وحتى الفكرى قد يكون وجدانياً (مثل أفلاطون وأبيلارد ونيشه) ، فلن نظفر بنتيجة إذ نخرج من الباب الذى دخلنا منه .

وثمة طريقتان كما رأينا (١) لبحث الإنسان ، الأولى تبدأ من خارج بالبيئة وتعتبر الإنسان آلة للتكيف ، وترد الفكر للأشياء و«العقل» « للمادة» ، وتشيع في مادية سبنسر المقنعة ، وسلوكية واطسن . إنها وجهة نظر يمثلها أسماء لامعة : ديمقريطس ، أبيقور ، لوكريتيوس ، هوبس ، بل وسينوزا الرقيق . وأخرجت لنا في البيولوجيا دارون ونظرية الانتخاب الطبيعى ، باعتبار أنها تحدد التطور عن طريق البيئة . وأخرجت في علم الاجتماع باكل Buckle وسبنسر وماركس وتفسير التاريخ في ضوء المؤثرات الاقتصادية ، والجماهير غير الشخصية ، والأحداث اللاإرادية .

والطريقة الثانية تبدأ من الداخل : فهي تنظر إلى الإنسان كنظام من الحاجات والدوافع والرغبات التى تحته على دراسة بيئته واستغلالها والسيطرة عليها . وهى تؤثر أن ترد الأشياء إلى الفكر ، والمادة إلى العقل . إنها تبدأ من « الكمال الأول Entelechy » الذى قال به أرسطو (وكان يذهب إلى وجود غاية باطنة تحدد كل صورة) ، وتسود في منذهب برجسون الحيوى ، وبراجماتية وليم جيمس . وبالإضافة إلى هؤلاء الثلاثة يتصل بهذه النزعة أفلاطون وديكارت وليبنز وكانط وشوبنهاور . وأخرج لنا هذا الاتجاه في البيولوجيا لامارك ونظرية التطور عن طريق الجهود المتكررة الناشئة عن رغبات لم تشبع . وأدت في علم الاجتماع إلى ظهور جوته ، وكارليل ، ونيشه ، وتفسير التاريخ في ضوء المؤثرات النفسانية ، والعبقرية الخالقة ، والإرادة المتغلبة .

(١) الفصل الثالث .

وتحليل الخلق الذي نوره هنا يصطنع الطريقة الثانية ، على الرغم من علمنا بالمزلق التي تعترض الطريق . وهذا التحليل يعتبر الإنسان معدلا للبيئة أكثر مما يعتبر البيئة معدلة للإنسان . فكل حقيقة في الطريق ، وكل طائفة في السماء ، دليل ورمز على إبداع الحياة . والخلق في ضوء هذه النظرة مجموع ميول ورغبات موروثة . إنه خليط من الغرائز تلونها البيئة والمهنة والتجربة وتعيد ترتيبها . ويمكن أن نصنف الدوافع الأساسية لخلق الإنسان في قائمة أولية تتميز فيها العناصر الأولية من الثانوية .

جدول عناصر الخلق

وجدانيات		عادات		غرائز	
سالبة	موجبة	سالبة	موجبة	سالبة	موجبة
النفور	الجوع	النظافة	الصيد	التجنب	طلب الطعام
	القسوة		الاستهلاك		
	الخشع		الادخار		
			الامتلاك		
الخوف	الغضب	التراجع	الاقتراب	الهرب	القتال
الشك	التعجب	التردد	الاستطلاع		
			القبض باليد		
الضعفة	الكبرياء	الخضوع	السيطرة		
التعب	النشاط	الراحة	اللعب	النوم	الحركة
الابتهاج بالجماعة الخجل		الانطواء	الكلام		حب الاجتماع
			الاستهواء		العزلة
			التقليد		
			الاستحسان		
العفة	الرغبة الجنسية	الحياء	الغزل	الامتناع	التناسل
	الحب الأبوي				الأبوة

هذه الغرائز والعادات والوجدانيات هي العناصر العامة في خلق الإنسان ،
وجميعها موجودة في كل رجل وكل امرأة ، وإنما يرجع اختلافنا في الخلق
والمزاج إلى أن هذه العناصر لا تتكرر في أي شخصين بدرجة واحدة . وتحدد نوعنا
وجنسنا الغرائز التي تكوننا ، وتحدد البيئة الموضوعات التي ستبحث عنها ،
والعادات التي ستتولد منها . فالبيئة الحالية من المخاطر تقلب القتال جمععة .
فإذا ازدادت المخاطر تحول هذا القتال نفسه إلى مكر ؛ فالغريزة واحدة ، ولكن
التعبير عنها مختلف . والأضرار البسيطة توجه الهرب إلى الحذر ، والأضرار البليغة
قد تجعل الهرب جيناً . فجميع التجارب هي على هذا النحو كشفٌ للغرائز أو
كبت لها . ففي كل يوم يقوى ميل بالنجاح ، ويضعف آخر بالكسل أو الفشل .
وفي كل منا عدة أخلاق كامنة (خليط من العادات) تنتخب البيئة بعضها
بالتدريج وتقويه ، كبرادة الحديد التي يجذبها المغناطيس من الحطب . لذلك كان
أول مبادي يعمل على تغيير الخلق هو البحث عن بيئة أخرى تفسح المجال لقوى
جديدة تلعب على الأوتار الحامدة فتخرج من أنفسنا أنعاماً أحلى وأبهى .

ويزيد في توضيح غرضنا من قائمة العناصر التي بسطناها إذا وجهنا إليها
بعض الملاحظات العارضة . فنحن نلاحظ أن كل غريزة هي تعبيرٌ نفساني عن
نظام فسيولوجي . فطلب الطعام ثمرة الخلايا الحاوية القلقة . والقتال والهرب
يظهر أنهما خلقا للأيدي والأرجل . وفي ذلك يقول لنكولن دفاعاً عن الفارين
من صفوف القتال : « إذا كان الله القدير قد وهب الإنسان ساقين قائمتين على
الجبن فكيف يستطيع مغالبة الفرار بهما ؟ » . وغرائز الحركة (الحبو ، المشي ،
الجرى ، التسلق ، القذف ، إلخ) هي القصيدة التي تنشدها جميع أعضاء البدن
في اتساق . والتناسل نتيجة احتقان العناصر ؛ وحب الاجتماع ، الذي يبدأ في
صورة الأسرة ، هو ثمرة التناسل . فكل غريزة ترسخ جذورها في بنيتنا ، وكل
تغيير في الخلق يقطع أوصال الغريزة يضر الجسم كما يسيء إلى النفس .

ويجب أن نلاحظ كذلك أن كل غريزة لها مصاحب انفعالي ، وهو ضرب
من الشعور يبلغ من الأصالة والعمق مبلغ الدافع الذي تقابله . وهكذا يصاحب
الجوع البحث عن الطعام ، والاشمئزاز تجنبه ؛ ويصاحب الغضب القتال ،

والخوف الهرب ، والتعجب الاستطلاع ، والشك التردد ، والكبرياء السيطرة ،
والضعف الخضوع ، والنشاط الحركة ، والتعب السكون ، واللذة الاجتماعية حب
الاجتماع ، وضرب من الحزن مع العزلة ، وتصاحب الرغبة الصلة الجنسية ،
والحجل الضعف الجنسي ، والأمومة والأبوة العناية بالأطفال . فكما ترتبط كل
غريزة فينا باللحم والعظام ، تحترق كذلك في طبائنا إلى حرارة الشعور .

ونلاحظ أخيراً أن كل غريزة لها ما يضادها في الفرد نفسه ، فثمة موجب
وسالب في الغريزة ، كما ذهب أنبأدقليس بالنسبة لجميع الأشياء . فنحن مزودون ،
كما يقال ، بدوافع للبحث عن الطعام وتجنب المضار ، وأخرى للقتال والهرب ،
وثالثة للسيطرة والخضوع ، ورابعة تدفعنا إلى التقدم مستطلعين والتوقف شاكين ،
وخامسة للحركة والتلمس باليدين والجلوس والسكون والنوم ، وسادسة للغزل
والتمتع والتخفر ، والعرض والاحمرار خجلاً ، وسابعة للقيادة والاتباع والابتداع
والتقليد ، وثامنة للانغماس في الجماعة والاعتكاف في عزلة . حملة القول
نحن مهياؤون بالطبيعة (أى بالخلق الطبيعي) لأن نُقبل وأن نتجنب في آن واحد
دافعاً أو مشكلة أو موقفاً .

في هذه القسمة الثنائية للعناصر سر التمييز الأساسي بين السجايا الإنسانية .
فلن يتيسر لنا فهم التاريخ أو التعامل مع جيراننا إذا قسمنا الرجال والنساء إلى
دمويين ومكتئبين ، وإلى أخيار وأشرار . أما التمييز الوحيد الذي تقبله الطبيعة
ويسلم به التاريخ فهو الذي يفصل في السجايا بين الموجبة والسالبة ، والقوية
والضعيفة . إننا نبنى آلافاً من المشروعات المثالية في عبارات من الفضيلة ،
ويحطمها الواقع بلسان القوة . ومن الواضح أن هناك أشخاصاً تسودهم الدوافع
الإيجابية ، حيث يوجد عندهم الميل إلى التقارب والبحث والتغلب والتملك .
وهؤلاء فلنسمهم أصحاب الخلق الإيجابي . وثمة آخرون تسودهم الدوافع السلبية ،
وهم أولئك الذين يتغلب فيهم الميل إلى التردد وإلى التراجع وإلى البحث عن ملاذ
وأمن وإلى الخضوع ، وسنطلق عليهم أصحاب الخلق السلبي . ولست تجد رجلاً
أو امرأة يتصف بإحدى المجموعتين فقط . ويشبه هذا التمييز ما بين الذكر
والأنثى ، ويسمح بكل ضرب من التدرج وكل لون من الامتزاج . ولكن إذا

حاولنا تصور هذه النماذج المتعادية في صورتها الكاملة ، فينبغي أن نعرف القطبين اللذين يتأرجح الخلق الإنساني بينهما ، والمكونات الأخيرة لكل شخصية .

٢ - الخلق السلبي

هذا شخص سلبي ؛ إنه يميل إلى التهوين من شأن نفسه . ومع أنه يعجب إعجاباً شديداً بكل صفة حسنة في وجهه وهيئته وعقله ، فإنه يشعر دائماً شعوراً سخيفاً بضعفه الجسماني ، وينظر بطرف عينه حاسداً العامل الطويل القوى ، أو رجل الأعمال الذي يخطر أمامه منتصب القامة معترساً بهيئته وصحته . إن ما يفتقده الشخص السلبي قبل كل شيء هو الجسم والطاقة والقوة المحركة . إنه يفتقر إلى الدم الكافي للقوة .

انظر إليه وهو يجلس إلى المائدة تجده فاقد الشهية ، متبرماً بالطعام ، سريع التفرز . لا يأكل اللحم دون أن يفكر في المذبح ، ويعتقد صيد السمك توحشاً . ولا يجد لذة في طعامه . إنه (ينتمق) وينتق كالعصفور الذي لم يعرف الدود . وينظف أصابعه بعناية . ويخرج من الحجرة وهو يود ألا يراه أحد ، وكأنه يشعر بأن كل إنسان يراه .

إذا لقي إنساناً راقبه خلصة ، ناظراً إلى جميع أعضائه ما عدا عينيه ، وازناً قوته ونواياه . وإذا شتمه أحد أو هدده خطر ، ارتعش دهشة وخوفاً . إنه لا يحس بالغضب المحرك ، ولكنه يحترق في غيظ مكتوم . وعنفه قناع من يعرف أنه سيخضع . إنه يحجم عن تحمل المسؤولية ويهرب من التجربة إلى الأمن الهادئ والعزلة الساكنة في بيته . إنه مهوى القراءة وبخاصة قصص المخاطر والمغامرات وفلسفات الإرادة والقوة . إنه يعجب براعى البقر والسوبرمان ويعتقد أن العالم إذا كان ذكياً أودعه ثقته في قيادته . وإذا نجح في أمر نسبه إلى نفسه ، وإذا أخفق فالذنب ليس ذنبه ، بل البيئة (أي غيره من الناس) هي المذنبة ، أو الحكومة ، أو نحس الطالع . إنه متشائم بالنسبة للعالم ، متفائل فيما يختص بنفسه . ومع ذلك فقد يكون عظيماً بقوة ذلك الخيال العريض نفسها ، وهو خيال يزدهر في نفسه بسبب ضعفه الجسماني . وإذا لم يصطدم خياله بعمل أو بملاحظة

موضوعية سبغ طليقاً في عوالم روحية من الفلسفة والشعر ، ويستطيع أن يخرج منها ، إذا قيد نفسه ساعة يصبر فيها على العمل بين حين وآخر ، فنوناً رائعة الجمال ، أو أفكاراً مثالية ، أو صوراً وشخصيات جديدة في الأدب والفن . فإذا ارتفع في هذا المجال إلى القمة قد يصبح شاعراً عبقرياً . وإذا بقي في المرتبة الدنيا كان رجلاً فكرياً intellectual - لا مفكراً thinker بل شخصاً يفكر فقط . وكلما نمت الحضارة ، وأصبحت الحياة معقدة كثيرة المتاعب ، وأضحت القدرة الجسمانية أقل حيوية للبقاء ، ازدحمت المدن بهؤلاء المراوغين المحترفين الذين يشبهون دون كيشوت في الخيال وهاملت في العمل .

ولما كان التراجع والتوقف عن العمل جوهر نفسه ، فإنه يتجنب حقائق الحياة ومهامها القاسية ، ويلقى بنفسه في أحضان أحلام اليقظة التي يظفر فيها بكثير من الانتصارات . ثم يتحول خجله إلى اعتكاف بينه وبين نفسه ، وتصبح خلوته مراوغة بارعة تسود أولئك الذين خلفهم الطبيعة ضعافاً . وهو اجتماعي بمعنى أنه يخرج من عزلته إلى صحبة عاطفية في جماعة صغيرة يأتلف وإياهم . فإذا وجد من أحد أذنًا صاغية فهو في تعيم الحنة . وتزدحم المقاهي بهذا الصنف من الناس . وهو اجتماعي أيضاً في تعطشه لاستحسان الجمهور ، فهو يتوافق في حياء مع العرف ، وإذا كان يفتقد الإحساس الأرستقراطي بالنبل فعنده إلى حد ما الضمير الديمقراطي الذي يعكس في أمانة أخلاق الجماعة . جماع القول أنه طيب القلب ، وعطوف ، وشكور ، ومخلص ، ومحترم . ولا يتصف بالقسوة وإن كان على شيء من الغلظة . وهو يميل إلى الشذوذ الجنسي ، ولكنه لا يرتكب إلا الذنوب الصغيرة .

وضعه ناشيء قبل كل شيء . عن أن دوافعه لا ينسقها غرض يتحكم في حياته ويوحدها . فهو في قلق مع أنه ينشد دائماً الاستقرار . ويتنقل سائلاً من مشروع إلى مشروع ومن مكان إلى آخر ، فهو كالسفينة التي لا ترسو على أي ميناء إلى أن تفسد شحنتها . وهو عاجز عن النظام أو العمل ؛ ومع أنه يبدو في بعض الأحيان مشغولاً بحالة عصبية إلا أنه يجد نفسه عاجزاً عن الاستمرار في تحقيق غرض محدود احتجاجاً برتابة العمل ، أو بغضه ، أو صعوبة.

وسائله . إنه شديد العزم إذا عقد النية ، كثير التراخي عند التنفيذ ، وتجتاحه موجات من الهوى تبعث القوة ، ولكنها تنتهى بالإجهاد السريع والتسليم بالاضطراب . إنه يشتهى ألف رغبة ولا إرادة له لتنفيذها .

وأخيراً فهو يؤثر في مسائل الحب أن يكون مطلوباً لا طالباً . وحتى إذا ظهر بمظهر من يقرب من المرأة ، ويضيق عليها الخناق ، ويتغلب عليها ، فهي التي تدبر له ذلك بكياسة السياسي الذي تختبئ أساليبه . حقاً إنه ينجل بعض الشيء من ظفروه ، ويحمر وجهه إذا استعاد ذكره ، ويتساءل : ألم تكن متعته في الخيال أشد وأقل نفقة . ولكنه يستسلم للقدر ويصبح زوجاً أميناً ، مخلصاً لبيته ، مظهراً حبه في كل مناسبة ، مضحياً بنفسه وهو ساخط في سبيل أولاده . ويموت قبل أوانه يلفه سواد من الإحساس بالتفاهة ؛ ويعجب لم خلق ، وإذا لم يكن الأولى ألا يولد .

٣ - صاحب الخلق الإيجابي

هذا الصنف إيجابي ، عنده من الصحة والبأس واللحم والدم ما يجعله ينفذ بنظره إلى صميم العالم ، ويلبس قبعته على هواه . إذا نظر إليك واجهك وجهاً لوجه ، ولكنه لا ينظر إليك لأنه مستغرق في عمله ، سائر إلى غرضه ، فهو يؤثر الاهتمام بالأغراض على الأشخاص .

وجميع دوافع الإقبال على الأمور قوية فيه ، فهو يأكل بلذة وبغير تكلف ، ويدبح الذبائح ليخمد شهوته . وتتطور النزعة الطبيعية لتسوير نباتات إقليمه وحيواناته إلى شهوة عامة للكسب والامتلاك . وشعاره : « التحصيل والتملك » . ولما كان أكثر اعتداداً بنفسه من الرجل السلبي وأعظم منه نجاحاً ، فهو يجعل كل أمة حديثة صورة من نفسه - مسرفة في الكسب والتحصيل . (أو لعل له زوجة مسرفة) .

كان يمكن في قديم الزمان أن يصبح باروناً إقطاعياً أو جندياً بدلاً من أن يكون رجل أعمال ، أو تاجراً ، أو رئيساً للمغرفة التجارية ، أو مهندساً . ولا يزال كثير من نزعة القتال القديمة موجوداً في نفسه ، وهي على الرغم من

تهذيبها واختفائها ، إلا أنها إيجابية كذلك التي كانت تدفعه إلى رمي النبال . هذه
الزعة إلى القتال هي التي تمنحه القوة على تحقيق أغراضه . فليست الرغبة عنده
طموحاً على التحياء ، بل دافعاً لا يمكن تجنبه . وعنده من الشجاعة أكثر من
الفضيلة ، ومن الضمير أقل من الكبرياء . وأطماعه قوية ، فهو يحتقر الحدود
ويبتعد عن الصغار . وإذا لقي رجلاً أقوى أو أثبت منه لا ينجح إلى الانحناء
أمامه في خضوع ، بل يجده ويحاول مناظرته ومنافسته ، ولا ينهزم إلا بعد
كفاح يستنزف كل جهده .

وهو محب للاستطلاع ، يفتنه كل عمل ، ويبحث عقله بنشاط في كل
جديد وغريب . ولكنه لا يميل إلى النظريات ، بل يتجه بفكره رأساً إلى العمل
وإلى تحقيق غرضه . إنه لا يستطيع أن يفهم لم يزعج المرء نفسه بالرياضيات
العالية أو الشعر أو التصوير أو الفلسفة . وإذا كان فيلسوفاً اشتغل بالأعمال
كما يشتغل بالفكر . إنه أشبه بسنيكا منه بأرسطو ، ويبكون منه بهركلي ،
وبفولتير منه بكاتط .

إنه يؤمن بالأفعال أكثر مما يؤمن بالأفكار ، ويعتقد كقصر أن الأمر
لا يتم إذا بقي منه شيء ، لم ينجز . يحب الحياة الصاخبة ولا تغريه بساطة الريف
وما فيه من دعة ، لأنها أنسب للشيخ ولاتليق بالرجل . وهو بنساء متحكم يحب
أن يشعر بأن الناس حجارة تحت يده ، يشيد بهم ما يشاء ، ويجلون لذة خفية في
الانقياد إليه ، وهو بذلك واثق ومتأكد وسعيد . ونشاطه يفيد صحته ، ولا يترك
له وقتاً للتفكير أو التأمل . إنه يستمتع بالحياة على قبحها ، ولا يفكر كثيراً
في الماضي أو المستقبل . إنه يشك في المثاليات ، ولو كان الأمر بيده لبادر
بالقضاء على كل نظرف . إنه يمقت المثاليين - أولئك الذين يخطبون ، أو يكتبون
المقالات ، ويقررون العلاقات الدولية من أبراجهم العالية .

ومع ذلك فهو في بعض أحواله رجل فكر : ليس شاعراً ، ولا مصوراً ،
ولا فيلسوفاً نظرياً ، ولا عالماً يقبر نفسه مع المخابير أو المجلدات القديمة ، بل
مخترعاً ، ومهندساً معمارياً يخلق التصميمات المبتكرة ، ومهندساً ميكانيكياً عنده
من الشجاعة ما يجعله يذرع الأنهار العظيمة بقصائد منظومة من الصلب والحديد ،

ونحاتاً يبعث الحياة في الرخام ، وعالمًا على استعداد لمواجهة العالم كله دفاعاً عن حقائقه الحديدية . وحتى في هذا الصدد فإنه يعيش مائة حياة من العمل مقابل حياة واحدة من الفكر .

وهو عادةً اجتماعي ، يساير جميع من يلقاهم ، اللهم إلا إذا كانت آراؤهم متطرفة في البعد عن المألوف . يحب الاعتكاف ليلاً ، ولكنها عزلة يقضيها مع أسرته لا خلوة فكرية ينفقها وحيداً بينه وبين نفسه . وقلمًا يتوقف ليتأمل نفسه ، و « عقده النفسية » قليلة ، ولا يتكلم في علم النفس أبداً . إذا أثارت زوجته انصرف إلى ناديه ، وحين يضيق بناديه ينغمس في عمله ينسى نفسه فيه . إن روتين حياته النشيطة يحميه من ثورة الأعصاب .

أما ما يمتاز به قبل كل شيء فهو الإرادة . ليس عنده إرادات بل إرادة واحدة ، ولا خليط من المطامح والرغبات التي يلغى بعضها بعضها الآخر متعادية في غير توافق ، بل وحدة في الهدف ، وترتيب للأغراض ونظام شامل للغايات تنسجها فكرة مهيمنة دائمة في طبيعة خلقه . إرادته منظمة ، فهو يرسم دائرة تبين حدود المحتمل ، ويسوق بداخلها الوسائل التي تكفل إرادته القوية بتحقيقها . وإذا أنتج عملاً أخرجه كاملاً لا أجزاء من عمل أو « خواطر » . وهو إذا انطلق استغرق في العمل غير حافل بما يقال عنه . إنه هادئ ، لا يكتر من الكلام ، ولا يعنف في العمل أو الحديث فيحترق . وهو صاحب أهواء عظيمة ، ولكنها تجتمع في هوى واحد يحركه إلى هدف واحد ، لا أهواء متناثرة تنهى إلى الفوضى . إنه يعلم لذة ضبط النفس ، ويستطيع مغالبة الرغبات والدوافع المباشرة ، ثم ينظم نفسه تدريجاً إلى كسل واحد . إنه ثمرة الصحة والذكاء .

وهو في الحب صاحب المبادأة ، ويفتح باباً رأساً وبسرعة تجب فيه جميع النساء . ويتزوج مبكراً لأنه سريع العزم ، ويؤثر فضول القرب على حذر التمتع . والأفضل فيما يظن أن يحتمل عبء الزوجة والأبناء من ثقل العزلة وبنات الهوى . وتعينه واجبات الأبوة المفروضة على أن يصبح قوياً ، ولكنه يعرف كيف يمزج الرقة والحنان بما عنده من بأس . ولا يحبه أولاده فقط بل يحترمونه . ويتعلم في منتصف العمر بعض فنون الفراغ ، وفي الشيخوخة يجدد مع أحفاده شباب

نفسه . وتحضره الوفاة فلا يشك أبداً في أن الحياة كانت نعمة ، ولا يأسف على شيء إلا على أنه سترك اللعبة لصغار اللاعبين .

٤ - بناء خلق جديد

لقد رسمنا صورتين مثاليتين ، وقسمنا الإنسانيّة قسمة تكاد تكون مانوية^(١) Manichaeian إلى صنف ضعيف وآخر قوى . وإذا تركنا هاتين الصورتين على حالهما ، متباعدتين متطرفتين ، بقيتا بغير نقع . أما إذا قاربنا بينهما فقد يسهل علينا تحليل أنفسنا وربما معرفتها . أمكننا إلى حد متواضع أن نخلص أنفسنا من السلبية والضعف ، وأن نصطنع بعض الصلاة الإيجابية التي نعبدنا خفية في أعماق قلوبنا ؟ أمكننا بالفكر أن نضيف يلباً جديدة إلى جسمنا ؟

يجيب الناس عادة عن هذا السؤال بالتشاؤم . يقولون : كلا ، خلق الإنسان مكتوب عليه ، وما كان عليه المرء منته ولادته يجب أن يبقى معه إلى آخر الرواية . ويقولون إن الطبيعة البشرية لا تتغير أبداً ، وإن السجايا مغروسة في الغالب في شروط الجسم ، في الصحة والقوة وتكوين الأعضاء وأدائها وظيفتها . فكيف يمكن لهذه الصفات العميقة الجذور أن تتعدل ؟

وثمة حقائق تلقى شكوكاً خطيرة على هذا الاعتقاد العتيق في ثبات الخلق . ذلك أن تاريخ العصر الذي نعيش فيه يعد مثالا قوياً ومدعماً للتغير الشامل من الأخلاق السلبية إلى الإيجابية . فنذ خمسين عاماً كنا نصف المرأة بأنها مخلوق في العادة سلبى بالنسبة إلى الرجل ، ويمكن أن نسميها بمعظم الصفات التي وضعناها في صورة الصنف الضعيف . فقد كان ضعفها الجسماني أساس شعورها بالنقص ، يتبين ذلك من أسفها الكامن الذي يكاد يستقر في قلوب جميع النساء على أنهن لم يخلقن رجالات . ومن هذه « العقدة » كان ينطلق غيظ ملتهب ، كأنه صادر عن نار كامنة ، يتفجر بين حين وآخر في حرارة كلامهن . وكانت طبيعتهم الرقة في العمل . وإذا كانت ألسنتهم في بعض الأحيان عنيفة ، فإنما

(١) نسبة إلى ماني الحكيم الذي ذهب إلى وجود أصليين في العالم هما النور والظلمة أو الخير والشر . (المترجم) .

ذلك كان تعويضاً « وانتقاماً » من ذلك الخضوع الجسماني الذي كن يلقينه كأنه إلهة الانتقام في كل ركن من طريق الحياة . كن « الجنس الضعيف » .
على ذلك الأساس الجسماني قام حياء المرأة وخضوعها . ولم تكن تتحرق كالرجل شوقاً إلى التملك . حقاً كان يبدو أن مهمتها من جيل إلى جيل ليست إلا مغامرة الأمومة فقط ودائماً . كانت تنحني لسيدها ، وتتلقى ضرباته بحب ، وتسلم له اسمها وماها كما تسلم له جسدها ، وتلتصق بسعادتها في تحقيق إرادته . كانت الحياة شاقة وكثيرة في نظرها ، ولكنها كانت تعترض عنها ، ما استطاعت ، بالانغماس في القصص والشعر الرومانتيكي مما كان يرفعها بعض الوقت إلى عوالم أسمى .

ثم أمسكت بها الصناعة في عجالاتها ، فدخل التنويع على حياتها كالسيل الحارف ، وظهر عندها المسئولية الشخصية والاستقلال الاقتصادي ، فهي تتناول ماها الخاص وتصوغ بنفسها أخلاقها . كانت ترتاب من قبل في تفوق الرجل ، وكانت تراه دائماً في الأمور الأولية . سليم الطوية ، أليفاً ، سهل الانقياد ولكنها كشفت الآن ، كما اكتشف هو نفسه بعد زمن طويل ، ذلك العابد الحجول للملاكين والرياضيين ، أن السباق في العالم الحديث ليس للأسرع ولا المعركة للأقوى . وأن الانتخاب الآن أكثر من أي وقت مضى بالدهاء والذكاء ، وأقل بالقوة الجسدية ومجرد العضلات . وسرها أن تجد أن الضعف الجسماني ليس عقبة كؤوداً في سبيل النجاح والسيادة ، وأن أعظم العباقرة كانوا في بعض الأحيان أضال الأجسام ، وأنه حتى المرأة المحتنقة بالمشدات ، والمقيدة بالقمصان ، والمثقلة بالتقاليد والمنغصات ، قد ترتفع إلى مصاف الزعامة والقوة وتصبح سيدة نفسها .

من أجل ذلك كلما تقدم « التغيير الأكبر » ، تغلبت المرأة على سلبيتها واصطنعت صفات إيجابية ، وأصبحت شخصية قادرة على الابتكار ، وعلى تولى أعمال الإدارة ، وعلى التفكير الواقعي ، وتشربت حب التملك وأصبحت من الباحثات عن الذهب . وأهملت هدوء البيت الهادئ ونزلت إلى الأسواق الصاخبة ، واتخذت من المطرّيات والمساحيق بديلاً بالماء ، وأرخت المشد ،

وقصرت الفستان ، وكشفت عن نحرها للشمس . أصبحت عبادتها أقل ، ولعبها أكثر . واستنشقت إلى أعماق صدرها الهواء المنعش لحرمتها الحديدية ، وأصبحت أقوى نفساً وأشجع روحاً ، حتى تكاد في جيل واحد تتفتح وتزدهر عن إيجابية لم يسبق لها مثيل .

وذعر الرجل وصدوم ، وارتفعت شكواه الأخلاقية من « المرأة الحديدية » .. ولكن التغيير جلع على عينه ، واستمر بغير إذنه ، فرأى نفسه وقد واجهته المرأة في الصناعة ، والتجارة ، والمهن ، والتعليم ، ورأى في جميع تلك الميادين وجه المرأة ، مع أن تلك الميادين كانت من قديم الأزل وقفاً عليه بحق الملك المقدس .. وامتنعص لاستقلالها في العمل والإرادة ، وتطلع إلى تلك الأيام الخوالي أيام العذارى العفيفات وإلى نعمة البيت القديم (كما تبدو لمن يتصورها بالذاكرة) الذي يمتليء بالأطفال وكعك التفاح .. لقد كافح هذا الغزو برجولة وتدمر ..

ولكنه خسر المعركة .. ففي أمريكا على الأقل كادت المرأة تم انتقالها المدوخ من الخضوع السليبي إلى السيطرة الإيجابية . وأخذت الصفات القديمة كوداعة العذارى وطاعة النساء تختفي ، فالرجل من بين الجنسين هو الذي يغضى الآن حياءً ، ويلمح بطرف عينه في رهبة ممزوجة بالحجل قدم الفتاة العصرية وساقها وركبتها وغير ذلك من المفاتن . واختفت من وثائق الزواج هذه الألفاظ : « تحب ، وتعز ، وتطيع » ، وسوف تعود قريباً لتكون أسئلة توجه للرجل .. ولكنها ستكون زائدة عن الحاجة ..

فلنحكم من خلال هذا التغيير السريع على إمكان تبديل الخلق . ومن الواضح أن تلك الصفات التي سميناها إيجابية وسلبية ليست متأصلة في الجسد لا تنفك عنه .. حقاً أساسها موجود في قوة الجسم وضعفه ، ولكنها يمكن أن تعدل إلى ما لا نهاية له بتهيئة الفرصة وسلطان البيئة . فالمرأة نفسها قد تطورت في آلاف الأحوال من الإحجام إلى الإقدام ، ومن الخنوع إلى السيادة . فمن الواضح أن الخلق قابل للتعديل — إذا شئنا .

وهنا تلقانا صعوبات دقيقة . فبعضنا لا يرغب في تبديل الخلق ، إذ يرى أن أحوالنا موافقة لأنفسنا تمام الموافقة ، وأن أخطاءنا ذاتها محبوبة جداً ، وليس

من المناسب إجراء أى تعديل فى أساس الخلق . يضاف إلى ذلك ظهور مشكلة أخلاقية هى أن إيجابية الخلق لا تتفق مع الأخلاق ، وأن الأمة التى يتألف أفرادها من مثل هؤلاء الأقوياء فقط مما رسمنا صورتهم قد تصبح مارستاناً يزخر بالمنافسة القاسية والحرب البشعة . ونحن نعرف بأن مهمتنا ليست تعليم الفضيلة ، وسوف يكون فى أدويتنا بعض الأمور المنافية للأخلاق . وإذا كنا نبدو فى هذه اللحظة حريصين على تغليب القوة على الفضيلة ، فذلك لأن قوة الخلق هى ذاتها فضيلة حسنة . ولعلنا نعتمد على قسوة الظروف فى أن تملنا بعدد كاف من الرؤوس المنحنية والإرادات المحطمة .

وإذا شئنا أن نجعل أنفسنا أقوى مما نحن عليه فيجب أن نفهم أولاً ما الإرادة : فهى ليست شيئاً غامضاً يقف بين عناصر الخلق كما يقف قائد الأوركسترا يشير تارة إلى هنا وتارة إلى ذلك ، بل مجرد مجموع سائر الدوافع والميول وجوهر وظائفها . وليس لهذه القوة الدافعة التى تكوّن الخلق قائداً تطيعه خارج ذاتها ، فمن بينها ينشأ دافع قوى يحكم بقية الدوافع ويوحدها . وهذه هى « قوة الإرادة » . أن ترتفع رغبة عليا فوق غيرها بحيث تنجذب نحوها وتتهيا بها إلى التحرك فى اتجاه واحد نحو هدف واحد . وإذا لم يتيسر لنا أن نجد غرضاً منسقاً ، وغاية حاكمة نضحى فى سبيلها بكل رغبة أخرى من رغبات القلب ، فالوحدة بعيدة عنا ، ويجب أن نصبح فى النهاية حجراً فى بناء رجل آخر .

من أجل ذلك لا خير فى قراءة الكتب التى تصف أمثل الطرق لتكوين الخلق . فهذا مثلاً كتاب الأستاذ ليلاند Leland (لندن ١٩١٢) بعنوان « أعندك إرادة قوية ؟ أو كيف تنمى . . . أى ملكة عقلية بطريقة الإيحاء الذاتى السهلة ؟ » . وثمة مئات من هذه الروائع التى يمكن أن يشتريها البسطاء فى أى مدينة . ولكن الطريق أصعب من ذلك وأطول .

إنها طريق الحياة . فالإرادة ، التى هى الرغبات الموحدة ، هى (كما بين شوبنهاور) الصورة المميزة للحياة النامية . ولا تزيد قوتها وبنيتها إلا حين تلتهمس الحياة لها أعمالاً جديدة وانتصارات جديدة . فإذا شئنا أن نكون أقوياء فينبغى أن نختار أولاً هدفنا ونرسم بعد ذلك طريقنا إليه ، ثم نتمسك بذلك الهدف

مهما يحدث . وينبغي أن نحذر في هذا الصدد ألا نضطلع من أول الأمر إلا بما يمكن أن نعتد عليه في أنفسنا نخصي بنا إلى النهاية . ذلك أن كل فشل سيضعفنا ، وكل نجاح يجعلنا أقوى . والعمل هو الذى يخلق العمل ، ونكسب مع كل نصر بسيط قوة وثقة تدفعاننا إلى نصر أعظم . فالعمل يخلق الإرادة .

وعندئذ قد يكون المرء شديد الحذر فيولى ظهره جلائل الأعمال ، ويظل صغيراً على الدوام . ولكن تأكد أن الانتصارات المتواضعة لن ترضيك ، فتستيقظ في الصباح بعد فوزك الذى احتفلت به طول اليوم ، فتبحث عن مهمة تالية أعظم . واجه الخطر واحتمل المسؤولية ، واعلم أنهما قد يهزمانك ، وقد يحطمانك ، ولكنك لن تموت إلا موة واحدة ليست شيئاً مذكوراً في تاريخ الفلسفة . وإذا لم يؤد الخطر والمسؤولية إلى موتك فسوف يشدان عزمك ، ويرفعانك فتكون أدنى إلى العظمة وأقرب من هدفك . فلتمض ولا تقف .

وتقدم لنا حالة من التحليل النفساني في هذا الصدد دليلاً على مرونة الخلق والمصير الإنساني . ففي نظرية أدلر المشرقة يقوم أساس العبقرية والأمراض العصبية على حد سواء في بعض العيوب العضوية - كضعف أو تشويه لعضو في الجسم - التي يؤدي وجودها المستمر إلى حث النفس على الكفاح للتغلب على النقص . أو كما قال فرانسيس بيكون : « كل من يصاب في شخصه بشيء ثابت يبعث على الاحتقار ، فعنده كذلك في نفسه حافز دائم إلى النجاة وتخليص نفسه من الزرابة » . وهكذا استطاع بيرون برجله الخشبية أن يتقن الرقص ، وأن يفسق إلى الحد الذى جعله ذنباً اجتماعياً . وأصبح ديمستين التهتاه خطيباً مفوهاً . وحين أصيب بتهوفن بالصمم شق طريقه إلى موسيقى ليس لها مثل . كذلك المرأة التي كانت تحترق باحتجاج الرجولة على الضعف والخضوع الجسماني ، أخذت تقتحم طريقها بإقدام متخطية جميع التقاليد والحواجز . وفي ذلك يقول أدلر : « هذا الشعور الذى يحس به المرء عن نقصه يهيء له الدافع الباطنى على التقدم » . إن أولئك الذين كانوا خلف الصفوف هم الذين يشقون طريقهم إلى الأمام ويتولون قيادة الجنس . وقد خرج من طبقة العمال أعظم المخترعين . فالأجسام العلية كانت بين حين وآخر موثلاً للنفوس العظيمة ، ومحركة لها .

٥ - علاجات

ولكن ماذا ذكرناه كلام عام يبلغ من الغموض مبلغ أى نصيحة تنشد الكمال ،
فلنقترب من البحث قريباً أشد . ماذا يعمل أحدنا بالذات . ليظفر بقوة العقل
والخلق ؟

الصحة أولاً ، يقبل عليك كل شئ ، آخر ، أو أعلى الأقل لن
نحسب لغياها حساباً كبيراً . أو كما قال نيتشه : « أول ما يطلبه الرجل المهذب
أن يكون حيواناً كاملاً . ويجب لذلك أن نتخير أجدادنا .. ولما كانت هذا الأمر
عسيراً ، فيمكن على الأقل أن نختار الغذاء المناسب والعادات الصحيحة » . وكان
مولسكوت يقول : « الإنسان هو ما يأكله » . وليس ثمة قوائم سحر عام لهذه
المسألة ، فكل إنسان يجب أن يكتشف سمومه الخاصة به ، وعليه أن يتجنبها .
ضع كل ما يزعجك في قائمة سوداء . ولا تدعه يقرب من مائتتك مرة ثانية ،
إلى أن تصل بعملية من الحذف إلى معرفة الغذاء الذى يمتطك سلام الهضم .
وإذا لم تستطع فضلاتك أن تخرج بدون معونة العقاقير ، فقلل تقسك أى مادة
شريرة . تضعفك إلى هذا الحد المخجل ، أهو الدقيق الأبيض البديع ، أم الحلوى
والفطائر النسائية ، أم الوجبات التى تنقصها الخضراوات والفاكهة ؟ احتفظ
بأمعائك وفمك مغلقاً ، هذه هى أنشودة الحكمة .

إذا كان لا بد أن نعيد بناء أنفسنا فينبغى أن نبدأ بالمعدة ، ثم نسمح لكل
عضو آخر من أعضاء الجسم بالازدهار . فالطبيعة لم تخلقنا لتكون رجال فكر
ولا كتبة ولا صحفيين ولا فلاسفة ، بل خلقتنا لتتحرك ، وترفع الأثقال ،
ونجرب ، ونتسلى . لقد صاغتنا حياة نستعمل فيها أذرعنا وأرجلنا . وأمثلة مسلك
لذلك هو الذى يجمع بين النشاط الجسمى والعقلى معاً أو متبادلين . لا بد أن
ذلك الحاكم كان على شئ من الحكمة حين كان يحتطب الخشب كل يوم .
ولكن هذا ترف لا يقوى على عمله إلا القلة القليلة منا . فالحياة من التعقيد
والتنافس بحيث يظهر أننا يجب أن نهب جميع وقتنا وكل طاقتنا لموضوع واحد
وغرض واحد كما نبلغ ذروة النجاح . ولكن فلنجد على الأقل الحشائش فى
حديقتنا ، ولنهدب أسوارها ، ولنقلم أشجارها ، ولنضح بأى شكل لتكون لنا

حديقة وسور وأشجار ، وقد يكون لنا من الوقت في المستقبل ما يسمح لنا بالعمل في البستان . وبعد فالصحة أفضل من الشهرة ، لأن العبقريّة بائسة في حياتها ، ولا تشهر إلا بعد موتها .

وقد نحتاج في طلب الصحة والقوة إلى بيئة جديدة . ومما يعزينا على الدوام أننا إذا كنا لا نستطيع تغيير ما ورثناه فيمكننا تعديل موقفنا . كانت الفلسفة الحتمية السائدة في علوم العصر الفكتوري تصور الإنسان في تعانيمها الجديدة مخلوقاً مركباً من البيئة والوراثة . وليس هذا بالضبط صحيحاً ، ما دام الإنسان مركباً من البيئة والوراثة . ومن هذه القوة الغريبة الدافعة إلى التقدم والإبداع التي نسميها الحياة . ومن الصحيح كذلك ، ونستطيع أن نضيف ذلك إلى علاجنا ، أننا لن نغير أنفسنا تغييراً جوهرياً إلا إذا غيرنا المؤثرات التي تؤثر في أبداننا من ساعة إلى أخرى ، وتصوغنا آخر الأمر على صورتها . أنعيش بين قوم قذرين أو أميين لا يهتمون إلا بالأموال المادية والمأكولات ؟ - فلنبرح هذه الأرض ، مهما يكلفنا ذلك ، وننشد صحة أفضل . أيوجد في أي مكان سحيق نفس أصفى منا ، وعقل أعلم من عقلنا ، وخلق أمتن من خلقنا ؟ فلنفتش عنه ونشد إليه . الرحال بعض الوقت ، حتى نتمكن من تلقاء أنفسنا من منافسته في هيئته ومماثلته في عمله . ثم لا نزال نتطلع إلى رجال أعظم . فاتباع العظماء خير من قيادة الأغرار . وقد كان قيصر مخطئاً ، إذ الأشرف أن يكون المرء تابعاً في روما من أن يكون سيداً بين البرابرة .

وإذا لم يكن - فيما نظن - ثمة شخص أعظم منك في الدائرة الضيقة التي ترعّمك الحياة على العيش فيها ، فالتمس صحة العباقرّة في الماضي . تستطيع أخذ نصيحتهم بقرش واحد ، والاستماع في ألفة إلى كلامهم ، والاندماج في الجو الصافي الذي يحيطهم . ومن الخطأ أن يظن المرء ألا أثر للكتب ، فأثرها بطيء كالماء المتدفق الذي يخفر الوادي ، وهي تنبتنا كل عام بجديد . ولا يتمكن أحد من إنفاق ساعة كل يوم في صحة الحكماء والأبطال دون أن يرتفع خطوة أو خطوتين بهذه الصحة . فلا عذر لمن يجد نفسه صغيراً حين يستطيع أن يجلس إلى مائدة واحدة مع نابليون ، أو يمشى مع هويتمان . أو يتعشى آخر الليل مع فردريك وفولتير .

لقد تكلمنا بما فيه الكفاية عن الأمور الخارجة عنا . أما في داخلنا
فالمشكلة أصعب ، إذ ما أعجبنا من برية ، ومن حديقة رغبات بغير زرع !
كيف نعرف ما الزرع الذي يجب أن نسقيه هنا ، والذي نتركه لموت هناك ؟

وأول قاعدة عظمى لتكوين الخلق هي الوحدة ، أو بنص عبارة جوته :
« أن تكون كلاً أو تتصل بكل » . والثانية هي : أقدم ، ولا تتراجع . فهذا
هو خط النمو الذي يسمح الرجل الحكيم بشيء من الانحراف عنه ، ولكن لا إلى
الحد الذي يجعل الاستثناء يطغى على القاعدة . ففي المجموعة الأولى من الغرائز
مثلاً يمكن أن نفسح مجالاً للنظافة مع أنها متأصلة في الدافع السلبي وهو التقزز .
وفي ذلك يقول نيتشه : « يجب أن يبتعث الإحساس بالنظافة عند الطفل حتى
يصبح عاطفة ، وسوف يوقع نفسه فيما بعد في أحوال جديدة . على الدوام إلى
فضائل جديدة » . والنظافة تأتي في المحل الثاني بعد التدين . وكيف تكون الحال
إذا لم تكن الآلهة موجودة ؟ ومع ذلك فلا نود أن ننقلب زهاداً من ذوى المظهر
البارد الدائم ، ولا أبولون ذا الشعر المستعار ، ولا ضحايا كفتاة الزينة . سنشعر
دائماً بحسد حتى لأحد الحكام المتأخرين الذي لم يسمح لتدينه أن يتدخل في شهيته .
ويمكن أن نقف الموقف نفسه من غريزة القتال وطليعتها الكبرياء . فهاتان
فضيلتان لا رذيلتان . ومع أننا سنقلقهما فإنما ذلك لدفعهما إلى البناء ، لا إلى
المشاكسة ولا إلى الغرور : فالغرور توهم انتصارات تجيء ، والكبرياء تذكر
انتصارات تمت ، والمشاكسة مقاتلة الضعيف . وليس من الضروري أن يكون
معنى المقاتلة الصياح والضرب ، فقد تعني الثبات في هدوء وأدب . على الهدف .
ولا يحتاج المرء في طموحه إلى أن يكون قاسياً وجشعاً ، فالرجل القوي يعطى إذا
كسب ، ويجد لذة في البناء أكثر من التملك . إنه يبني ليسكن غيره ، ويكسب
المال لينفقه الآخرون . إن الخلق لا ينشأ من الاستهلاك الظاهر ، بل من البناء
والخلق .

وينشأ كذلك من العمل . عليك أن تتجنب المهن التي تجعلك تفكر وتفكر
وتفكر دون أن تدع لك فرصة للعمل . ولأن يكون المرء نجاراً يقطع الخشب
تحت أشعة الشمس ، ويراقب الأشياء تنمو مع كل ضربة فأس ، خير من أن

يظل يجمع حساب الدائن والمدين يوماً بعد يوم ، أو يتفكر في شقته المنعزلة في أدلة جديدة عن حقيقة العالم الخارجي . الأفضل أن تعزف مقطوعة موسيقية من أن تسمع مئات المقطوعات . فلنلعب ولنضحك ، وإذا كانت الحياة تبدو بين حين وآخر (كالبحر في يوم هائج) هزلاً مرأً ، فلنذكر المزاح ، ولنغتفر المرارة .

تزوج ، فهذا أفضل من الاحتراق ، كما جاء في الكتاب المقدس ، إذ ييسر الزواج للمرأة أن يفكر في شيء آخر . قد تكون الشقيقة عند شخص شاذ مثل نيتشه أفضل من الزوجة ، ولكن الرجل السوي سيجد الأخت غير ملائمة . فإذا حلت هذه المشكلة الأولية ، استطعنا أن نتحرك في العالم دون أن تلهينا هفهة الفساتين عند كل منعطف . فنحن نعلم أن جوهر النساء واحد مهما تختلف ملابسهن ، وأن ثمة دائماً تحت الظواهر المتعددة حقيقة واحدة . وبذلك نصبح قانعين في اعتدال ونتعلم حتى إن نحب زوجاتنا بعد حين . قد يكون صحيحاً أن المتزوج يترك أي باب للحصول على المال ، ولكن المتزوج وحده هو الذي يستطيع أن ينمي في نفسه هذه المرونة .

اتخذ أصدقاء ، وإذا لم تستطع اتخاذهم ، فانظر في نفسك واعمل على تعديلها حتى تتمكن من المصادقة . والعزلة دواء سريع الشفاء ، ولكنها ليست غذاء . والحلق كما تصور جيته لا ينمو إلا في تيار العالم . وإذا انعطفنا على أنفسنا جرفنا التيار ، حتى (كما يقال) إذا كان علم النفس صناعتنا . فالنظر على الدوام في داخل أنفسنا مطية إلى الكارثة التي قد تصيب لاعب التنس إذا وقف بحسب عن وعى المسافة والسرعة والزاوية والضربة ، أو لاعب البيانو الذي يفكر في أصابعه . والصديق خير معين ، لأنه يستمع إلينا حين نقضى إليه بذات أنفسنا ، بل لأنه يضحك منا . فنحن نتعلم بواسطة الأصدقاء قليلاً من الموضوعية ، وشيئاً من التواضع ، وبعضاً من الأدب . نتعلم قواعد الحياة فنحسن لعبها . إذا شئت أن تكون محبوباً فكن متواضعاً . وإذا طلبت إعجاب الناس بك فكن معجباً بنفسك . وإذا نشدت الحب والإعجاب فاجمع بين التواضع الظاهر والزهو الباطن . ولكن الزهو نفسه يمكن أن نجعله حياءً ، بأن نخفي فلا يرى ولا يسمع . لا تكن مسرفاً في الشطارة لأن النكات تلذع إذا جرحت ، ويجب

أن يكون شعارنا: لا يحيا شيء ما لم يكن حسناً De vivis nil nisi bonum .
لا تكشف أبداً عورة أحد ، فلن يغفرها لك إلى الأبد . لا شيء في العالم هو
أفضل الأشياء جميعاً ، فافعل الخير ما استطعت ، وتكلم بالمعروف دائماً .
ولا تهالك على قول الصدق . يجب أن تقبل العرف الذي يقرضه المجتمع عليك ،
كما يمنحك بعض الحرية في اصطناع قوانينه . إن المجتمع يبيح لك أن تفعل
ما تشاء بشرط أن تفعله بلطف ، وبغير أن تتحدث عنه . وفي أثناء ذلك
فلتقدم إلى الأمام بهدوء دون إثارة عداوات لا لزوم لها . أقبل دائماً ، ورحب
بالتجربة ، وجرب الحياة حتى تهيك أقصى ما تستطيع جملة ، قبل أن تبرح
المحراب تاركاً أطفالك يجرسون اللهب .

ولكن أين موضع الذكاء من هذا كله ؟ هل الخلق ضلّالة دافع فقط ،
ولا فائدة في العقل والخيال ؟ كنا نود لو كان الأمر كذلك ، فكم يكون شأن
الخلق بسيطاً . فأقوى الأهواء هي التي تخلق أقوى الرجال .

ليس الأمر بالطبع كذلك ، فالخيال والعقل في النفس التامة كالضوء
الذي يصدر عن النار . وقد نضيج في الخيالات أنفسنا ، ولكننا قد نظفر بعظيم
الانتصارات بالتبصر . وفي ذلك يقول إمرسون : « كان نابليون قبل بدء المعركة
يفكر قليلاً عما يفعله في حالة الظفر ، ولكنه كان يفكر كثيراً عما يفعله إذا لم
يحالفه الحظ » . أو بعبارة نابليون : « عندما أصمم خطة المعركة فلا أحد أكثر
منى جنباً ، فأنا أجسم لنفسي جميع المخاطر والأضرار الممكنة تبعاً للظروف » .
فالخيال قد يحطنا كما حطم نابليون سنة ١٨١٢ ، وقد ينقذنا من آلاف الكوارث
إذا استعرضنا شتى المسالك قبل الانغماس في العمل .

ووظيفة العقل الحسنة إعادتنا على العمل . وإذا انقلبت وظيفته صناعة
في ذاتها أخرجت لنا مناطقاً أو قومياً مثل هاملت ، إذ تظل الحرب مشبوبة بيديها
تبلى العضلات والخلق . أما إذا أصبحت وظيفة العقل تغليب رغبة على رغبة ،
ونقد دافع بدافع آخر ، وكبح جماح شهوة بشهوة أخرى ، فهذه هي أفضل
حالات المرء ، حيث تتحرك العناصر المترجحة في نفسه هنا وهناك إلى أن تذوب
في وحدة ، وتخرج في نظرة شاملة واستجابة كاملة .

فدوافعنا هي الريح التي تسير شرع سفينتنا ، ولكنّ كلاً منها إذا لم يكبح
سحبنا وراءه كالعبيد . ألم تر إلى الرجل الذي تملكه فقط شهوة الجشع ، أو
البيمية الجنسية ، أو القتال ، أو الثروة ، أو اللعب ؟ إن الحرية الكاملة إذا
أطلقت لكل دافع أفضت إلى حل الخلق كما فعلت بأبناء قورش ، الذين
قامت على تربيتهم نساء سايرن فيهم كل رغبة حتى أضحوا ضعافاً منحلين .
ومن ثمّ كانت غلبة المعرفة على الرغبة ، وهي جوهر العقل بالذات ، الأصل في
أدب النفس وقوتها ، وفي تلك السلطة التي تكبح جماحنا ، وتعد المرجع الأخير
للخلق والإرادة . فإما أن يؤدبنا العالم ، وإما أن نوذب أنفسنا ، ولنا أن نختار
بين الأمرين . جملة القول الخلق هو ما سماه « ميل » من زمن طويل : « إرادة
كاملة الصياغة » .

ولنا كان التركيب أصعب دائماً من التحليل ، فإن علم النفس لم يضم بعد
أطراف الطبيعة البشرية التي فصل أجزاءها . ولا يزال الأسهل أن تصف الإنسان
من أن تدله على ما يجب أن يكون عليه ، وكيف يمكن أن يعدل نفسه . لقد
لمسنا جانباً واحداً من موضوع عظيم سيجتذب في عصرنا كثيراً من المفكرين
للبحث فيه . لقد حصلنا العلم بأنفسنا ، والآن نريد أن نبحث عن الفن الذي
يخلقنا خلقاً جديداً كما سيطرنا على القارات والمحيطات . ولكن المعرفة قوة ،
ومصير كل علم أن يكون في آخر الأمر فناً يوثق الثمر الذي يوسع ملك الإنسان .
وسيعيش أبنائنا ليروا الناس تصنع العقول والقلوب كما تبنى السفن والطائرات
ودوافع الإنسان ، التي ظلت هادئة تكاد لا تتغير على حين تبدل جميع وجه
الأرض من حولها ، ستشكل من جديد كما تلاثم الحياة الرفيعة والسريعة التي
تصنعها الاختراعات التي لا يستقر لها قرار . لقد ازدادت الآن قدرة الإنسان
العقلية وتعددت حتى ليلبو أن أصحاب العقول الراقية في العصر الحاضر ينتمون
إلى نوع مختلف عن نوع الفلاح البطيء الاستجابة . وحين يأتي اليوم الذي
تساير فيه أذهاننا آلاتنا ، وحكمتنا معرفتنا ، وأغراضنا قوانا ، عندئذ نسلك
سلوك البشر .

البحرؤ النخامس

—

علم الجمال

الفصل الثالث عشر

ما الجمال ؟

١ - حاسة الجمال عند الفلاسفة

من أقوال أناتول فرانس : « أعتقد أننا لن نعرف بالضبط أبداً لم كان الشيء جميلاً ؟ » (١) . هذا الحكم الصادر عن فنان عظيم وباحث كبير قد ينصحنا بأن نولى ظهورنا إلى المشكلة التي تبحثها . فإذا كنا سنمضي في البحث فعلى أساس أن الفلسفة تحتمل كثيراً من « المطلقات Absolutes » ، ولا يقين فيها . ومن الغريب حقاً أن الفلسفة وعلم النفس لم يفسحا لهذه المسألة مجالاً كبيراً . فكل قلب يلبي نداء الجميل ، ولكن قل أن تجد عقلا يسأل لم كان الجميل جميلاً . ويرى المتوحش الجمال في الشفاء الغليظة والوشم الأزرق . وكان الإغريق يلتصقون في الشباب أو في هدوء التماثيل وتناسها . وكان الرومان يرونه في النظام والروعة والبأس . وفي عصر النهضة كانت الألوان سر الجمال ، ويراه الناس في العصر الحاضر في الموسيقى والرقص : ففي كل مكان وفي كل عصر ، تأثر الناس بلون من ألوانه وأنفقوا أعمارهم في طلبه . الفلاسفة وحدهم هم الذين تحرقوا شوقاً لفهم طبيعته ، والكشف عن سر قوته .

الحق أن هذه المسألة تتعلق بعلم النفس ، ولكن علماء تركوا بحثها للفلسفة ، كما يفعل كل علم حين يحيل على الفلسفة المشكلات التي لا يستطيع حلها . (ولذلك اتصلت مشكلات هامة بالفلسفة ، فعذرنا عن التعطل قليل) . ثم إن نزعة العلم الحديث الطبيعية ، وغرامه بالمعامل والتجارب ، واتجاهه نحو البحث

(١) On Life and Letters, vol. II, p. 176.

عن قوانين رياضية وكمية لجميع الظواهر ، كل ذلك جعله عاجزاً عن بحث مثل هذه الحقائق الزئبقية elusive^(١) كالحمال (إن لم تكن دائماً غير ملموسة) . ولن توضع مشكلة الحمال في موضعها الملائم حتى يزداد تسليم علم النفس بالتفسير البيولوجي . وفي أثناء ذلك ترى الفلسفة أن لها مزية الحوض في هذه المسألة حيث يرهب العلم البحث فيها . وحتى عظام الميتافيزيقا الصلبة فإنها ترتعش وتفرع بعض الشيء ، حين يحل الحمال إلى حين محل الحق ويلتمس في الحكمة محراباً .

ومع ذلك فلم يسرع الفلاسفة إلى البحث في هذا الموضوع المغري ، فبقى غامضاً إلى حد كبير . كان فيه شيء من الوثنية نفر منه رجال الدين ، وشيء من اللاعقلية جعل شكك المفكرين يقفون بلا حراك . ولما ظهر بومبارتن Baumgarten ، أول مفكر اعترف بطبيعة الحمال ميداناً مستقلاً للبحث ، وأول من أطلق عليه الاسم الفطبع « استيتيكا esthetics » ، اعتذر عن إدخال مثل هذا الموضوع المزرى بين قصور الفلسفة . ولا ريب أنه كان يخشى أنه على الرغم من العنوان المنفر الذي وضعه لهذا العلم فالمشكلة قد تصرف أذهان قرائه إلى التماثيل والحسان . وكان وجهه يحمر خجلاً لهذا الاحتمال .

وحتى حيث كان الحمال يخلق كثيراً ، ويمجد تمجيداً عظيماً - في اليونان القديمة - عجز الفلاسفة عن الكشف عن سر فتنته . وبدأ فيثاغورس لعبة الحمال بأن رد الموسيقى للعلاقات الرياضية ، وكان يصف حركة الكواكب بالانسجام الدقيق . ولما كان فلاسفة الإغريق السابقون على سقراط كالعلماء قبل دارون خاضعين لسلطان الطبيعة والرياضة ، فقد اتسوا تعريف الحمال في عبارات كمية ومكانية : فالموسيقى انتظام في الأصوات ، والحمال الجسم (بلاستيك) plastic انتظام في النسب .

أما أفلاطون الذي لم يكن شيئاً مذكوراً لولا اشتغاله بالأخلاق (كان حريصاً على وقف انحلال بني وطنه) فقد ذهب إلى الطرف الآخر ، ومزج الحمال بالخير في وحدة رائعة . فالفن يجب أن يكون جزءاً من علم الأخلاق

(١) المقصود بالاصطلاح أن الشيء يراوغنا ويهرب منا ، وهذه هي صفة الزئبق لاتستطيع

أن تضع يدك عليه (المترجم) .

وفيما عدا الفوائد التعليمية للموسيقى (وحتى في ذلك الزمان كانوا فيها يظهر يصطنعون الشعر لتذكر التواريخ وسير الملوك) فجانب الفن ضئيل إلى أقصى حد في مدينة أفلاطون الفاضلة . ونحن نجد عند أرسطو الإجابة النموذجية عن سؤالنا ، فالجمال هو التماثل ، والتناسب ، والترتيب العضوي للأجزاء في كل مترابط . إنه تصور يسرنا أنه يتفق مع « تعاون الجزء مع الكل » ، هذه الفكرة التي تتردد صداها خلال هذه الفصول . ويكاد يكون الإغراء بتنظيم هذه المسألة وبيان قواعدها لا يقاوم . ولكن لم كان التماثل والتناسب ، والترتيب والوحدة ، مصادر لانبهاج النفس ؟ هذا هو السؤال الذي يفتننا أكثر من قواعدها .

لقد أضاف ونكلمان (١) Winckelmann ، ولسنج (٢) Lessing شيئاً يسيراً إلى هذه الأجوبة ، وأسلما قيادهما لسلطان الإغريق . وظل الجمال مسألة هيئة وصورة ، يختص بالرخام المنحوت والمنقوش ، وبالمعابد التي تشيد صامته في التلال . كان الجمال صفة تكاد تكون محلبة تقتصر على البارثينون وما فيه من حلية . أما أن يكون التمثال محاكاة لكائن حي بديع تسرى في جسمه الحرارة ، وأن يلتمس سر الجمال في الأصل أوئلى من التماسه في الصورة ، فلم نجد عند هذين المفكرين إلا قليلاً من الترحيب بحمود عقليهما وأكاديميته ، فكانا أكثر كلاسيكية من الإغريق أنفسهم .

وظهرت عند كانط وشوبنهاور نعمة جديدة : فالجمال صفة للشئ الذي يبعث في أنفسنا اللذة بصرف النظر عن نفعه ، ويحرك فينا ضرباً غير إرادي من التأمل ، ويشيع لوناً من السعادة الخالصة . وفي هذا الإحساس الموضوعي البريء عن الهوى يوجد ، كما يذهب شوبنهاور ، سر تقدير الجمال والعبقرية الفنية . ويتحرر العقل بعض الوقت من الرغبة ، ويحقق تلك الصور الخالدة ، أو المثل الأفلاطونية ، التي تكون المظاهر الخارجية للإرادة الكلية . حتى إذا كنا مع هيغل عدنا مرة أخرى إلى الإغريق : فالجمال وحدة في تنوع ، وانتصار

(١) يوحنا ونكلمان (١٧١٧ - ١٧٦٨) باحث ألماني درس فن الإغريق ، وأثر في جيته . ونظريته في الفن الإغريقي تقوم على الهدوء والعظمة . (المترجم) .

(٢) لسنج (١٧٢٩ - ١٧٨١) روائي وناقد ألماني كتب عدة دراما (المترجم) .

الصورة على المادة ، والمظهر المحسوس لمثال ميتافيزيقي . فلا غرابة أن تكون أثقل الكتب في العالم ظلاً ، هي تلك التي كتبها الناس عن الجمال .

٢ - حاسة الجمال عند الحيوان

ماذا تفعل إذا كان ما سبق كله طريقاً للبحث فاشلاً ؟ من يدري لعل الجمال وظيفة للحياة لا مادة ولا صورة ؟ ومن يدري لعل علم الحياة يفيدنا ها هنا حيث لم يستطع علم الطبيعة أو الرياضة ؟

فلنذهب إلى الحيوان ولنحاول أن نتبع حاسة الجمال إلى منبعها . إننا نخطئ حين نفترض أن الإنسان وحده هو الموهوب بالشعور الجمالي . فثمة حيوانات كثيرة أحمل من هذا الذي يمشى على قدمين وتخلو من الريش ، ويحكم الأرض حكماً عابراً . كل ما نعرفه أنها قد تستيقظ الجمال أوضح منا ، وقد تنظر إلينا كما تفعل أحياناً بازدراء هادئ . متمهل . إننا نظن أننا وحدنا نشعر بالجمال لأننا نربطه في النوع الإنساني بالبصر والصورة المرئية . أما عند الحيوان ، إذا حق لنا أن نتكلم بالنيابة عنهم ، تنشأ هزة الجمال في تواضع من الفم . وفي ذلك يقول كلب مسيو برجرية (١) الصغير « ثم الكلب لذيذ » . ولا ريب أن الناس في نظر ريكيت (٢) Riquet كانت لهم روائح كريهة مختلفة .

ومع ذلك فقد يكون لحاسة السمع كذلك قيمة جمالية عند الوحوش . فبعض أجدادنا من فوات الأربع مشهورة بالتأثر بالموسيقى . وفي ذلك يقول إليس Ellis : « لقد دلت التجارب التي أجريت على عدد متنوع من الحيوانات في حدائق الحيوان عند سماع توقيع آلات موسيقية أن جميعها باستثناء بعض سباع البحر كانت تؤذيها النغمة الناشئة وهيج نمر كان يرتاح إلى صوت الكمان عندما سمع المزمار المسمى piccolo . ومعظم أنواع الحيوان تؤثر سماع الكمان والناي flute » (٣) . ولاحظ إليس أن كلبه نبج وعوى

(١) Monsieur Bergeret هو الشخصية الرئيسية في أربع قصص كتبها أنا تولى

فرانس ، يصور فيها أحوال فرنسا وأخلاقها . (المترجم) .

(٢) يريد المؤلف اسم الكلب سالف الذكر . (المترجم) .

(٣) Studies in the Psychology of Sex, vol. IV, p. 122.

عندما سمع ترانيم موسيقية لشوبان ، ولكنه ذهب لينام غير حافل عندما لعبت مقطوعة موسيقية بهيجة . ويضيف دين سوينف Dean Swift بلباقة : « ألم نحزنا عليان Aelian كيف أن الأفراس اللبية كانت تهتاج إلى الحياض بالموسيقى ؟ » وهذا يجب أن يكون نذيراً للنساء العفيفات بعدم الذهاب إلى الأوبرا :» (١) .

ولست عين الحيوان عديمة الحس بالجمال . فبعض الطيور فيما يروى دارون تزين أعشاشها بأوراق الشجر والقواقع الملونة البديعة ، وبالبحجارة والريش وشرائط التسيج مما يخلفه الناس في بيوتهم (٢) . والطيء المسمى « بوير » (٣) bower-bird يبنى عشاً خاصاً لأنثاه يغطيه بفروع الشجر ، ويفرشه بالحشائش . ثم يحمل حصى أبيض اللون من أقرب جدول ويرتبها بهيئة فنية على جانبيه . ويتزين جدران العش بالريش الملون ، والتوت الأحمر ، وأى شئ « بديع يجده » . وأخيراً يجلس طريق الدخول والخروج بالمحار والبحجارة اللامعة . فهذا هو القصر الذى يبنه طائر البوير لأنثاه . وفى ذلك يقول بولش : « يكفى أن تلتى نظرة واحدة على عش الزوجية هذا لتقتنع بأن ثمة لذة فنية مباشرة « بالحميل » توجد فى ذهن هذا الطائر الصغير » (٤) .

وقد رويت بعض الطيور تحقق فى صورتها فى المرآة . ويمكن اصطيد عدد كبير من القنابر بمرآة صغيرة . تعكس أشعة الشمس ، فتتجه الطيور نحو هذا الشعاع تسوقها رغبة عمياء على الرغم من توهجها القاتل . والعقن والغراب وغيرهما من الطير تسرق الأشياء اللامعة كالفضة والحلى وتخفيها . فمن يدرى أى دافع يسوقها : أهو الزهو ، أم الاستطلاع ، أم الجشع ، أم الذوق الفنى ؟ (٥) . ولكن هذه الظواهر الجمالية التى تحس فيها الحيوانات بالأشياء غير الحية نادرة ،

(١) المرجع السابق ، ص ١٣١ .

(٢) Darwin, The Descent of Man pp. 112. 469.

(٣) طائر يعيش فى استراليا ويشهر بعشه الذى يزينه بالريش الجميل والقواقع (المترجم).

(٤) Bolsche, W., Love-Life in Nature, vol. II, p. 285. Gourmont R. de, The

Natural Phil. of Love pp. 192.

(٥) Descent of Man, p. 469.

وتقديرها للجمال الذي تعبر عنه ضئيل وثانوي بالإضافة إلى قلق الذكر المحسوس الذي يظهره بعرض نفسه على الأنثى زمان السفاد . ويقول دارون : « ينحصر تذوق الحميل عند معظم الحيوانات ، بمقدار ما نستطيع أن نحكم ، في جاذبية الجنس الآخر » (١) .

ولسنا نجد شيئاً أعظم غناء في بحثنا من هذه العبارة التي دونها عالم من أزهر العلماء وأشدهم تواضعاً . فإذا كان دارون على صواب ، فمن الواضح أن حاسة الجمال (كما تثبت في الغالب وتنكر دائماً) تتفرع عن الجاذبية الجنسية وتفيض عنها . فالحميل هو ما كان أولياً مرغوباً رغبة جنسية . وإذا كانت الأمور الأخرى تبدو لنا حميلة فهي مشتقة عنها ، وعن طريق الصلة المطلقة بهذا ينبوع الأصلي للحاسة الجمالية . وحين يضع شوبنهاور في كتابه « ميتافيزيقا الحميل » مشكلة الجمال في عباراته التي يمتاز بها قائلاً : « كيف تكون المتعة بالشيء . الحميل واللذة من رؤيته ممكنة دون أن ترجع المتعة نفسها إلى إرادتنا ؟ » فالجواب هو : ليس ذلك ممكناً ، فالموضوع الحميل يتوافق سراً مع إرادتنا . والإرادة الأساسية والمطلقة عند الفرد في فلسفة شوبنهاور هي إرادة الاتصال الجنسي . فلنبحث هذا الأمر .

٣ - الجمال الأولى : الأشخاص

يكون الشيء حميلاً قبل كل شيء لأنه مرغوب ، أو بعبارة سبينوزا : إننا لا نرغب في الشيء لأنه حسن ، بل نسميه حسناً لأننا نرغب فيه . وهكذا فنحن لا نرغب في شيء رغبة أصلية لأنه جميل ، ولكننا نعتبره جميلاً لأننا نرغب فيه . وكل شيء يحقق في طبائنا حاجة أساسية يحمل في طياته بعض الإمكانيات الجمالية . فطبق الطعام يجب أن يكون جميلاً في نظر الجائع كما تبدو المرأة في الثلاثين في عين طالب الجامعة ، المليء المعدة بالطعام . ولكن دع طالب الجامعة sophomore يجوع وسوف تخمد حاسته بالجمال حتى لأجل الغادات . إنه سيعتبرها مجرد شيء صالح للأكل . (ولا يزال شيء من هذه الشهوة الأولية . باقياً في جميع حيننا) وفي نظر المؤلف الذي كافح سنين عدة ليشق طريقه

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

إلى المطبعة تبدو أول صفحة نشرها شيئاً بارع الجمال لن يستمها أى شعب ذكى للبنى ، ولكن هذه الصفحة نفسها قد تكون ، فى نظر فلاح أو صانع له مطامع أصح من تأليف الكتب ، مجرد ورقة مهمة تصلح لأن يمسح بها موسى الحلاقة . فالحميل بناءً على ذلك فى أدنى درجاته هو المظهر المحسوس لما يشبع الرغبة القوية . الحق أن الحميل لا يختلف عن النافع إلا فى شدة حاجتنا .

والحميل والقيح - كما يقول نيتشه - أمران حيويان ، فكل ما ثبت ضرره قطعاً يبدو قبيحاً . فنحن لا نأكل السكر لأنه حلو ، ولكننا نعهده حلواً لأننا تعودنا أن نرى فيه مصدراً أساسياً للطاقة . وكل شىء نافع يصبح بعد وقت قصير ، لدينا مقبولاً . مثال ذلك أن سكان شرق آسيا يحبون السمك الفاسد لأنه الطعام الأزرق الوحيد الذى يتمكنون من الحصول عليه (١) . ويقول سدرلاند Sutherland : « لم تصبح السماء زرقاء لمتع أعيننا ، ولكن عينونا هى التى أصبحت ملائمة لأن تجد متعة فى زرقاء السماء . فجميع الهيئات وكافة الألوان تحقق لذة طبيعية متناسبة مع كثرة وقوعها فى تجارب الجنس » . إننا نرى الحشيش الأخضر والسماء الزرقاء جميلان ، ولكن قد كان يمكن بالعادة أن نجد متعة فى سماء خضراء وحشائش زرقاء .

ومن الواضح أن الجمال المتميز عن المنفعة مرتبطٌ بضرب قوى من الإشباع يعكس قوة الرغبة . فالجمال أحمل منه أن يكون أنفع فى نظر البائس . وكل شىء يكتسب جمالا إذا حرك الكائن وبعث فيه القوة . ومن ثم نشأ جمال الضوء والنظم واللمس الرقيق . أما القبح فيعمل على خفض حيويتنا ، واضطراب هضمنا وأعصابنا . وقد يؤدى إلى الصداع أو إثارة النفس (٢) ، أو يحرك الشعراء إلى الحث على الثورة . والجمال - كما يقول سنتاينا - هو اللذة المتحققة فى موضوع (٣) . أو بعبارة ستانداى ، دون أن يعلم أنه يتابع هوبس (٤) : « الجمال وعد باللذة » .

(١) Sutherland, A., Origin and Growth of the Moral Instincts, vol II, pp.

85-91 ; Fuller, Sir B., Man as He Is, p. 68.

(٢) Ellis, H. The Dance of Life, p. 328.

(٣) The Sense of Beauty, p. 52.

(٤) Cf. Encyclopaedia Britannica, eleventh edition, vol IX, p. 827.

وكما أن الفن لا يظهر في أمة إلا بعد تجمع الثروة الفائضة عن الحاجة الاقتصادية وظهور طبقة أهل الفراغ ، كذلك الحال في الفرد ، عندما لا يقلق الجوع باله أو لا يكون شديداً ، تزداد عنده الحساسية الجنسية وتفيض إلى إحساس بالجمال . وترتفع قابليتنا للجمال وتنخفض مع القوة الجنسية وضعفها . والحب يخلق الجمال على الأقل بمقدار ما يخلق الجمال الحب . وكان دون كيشوت يرى فتاته دلكنيا Dulcinea أحلى الغادات (١) . ويقول دي جورمون (٢) De Gourmont : « سل ضفدعاً ما الجمال يجبك أنه أنثاه ، ضفدعة ذات عينيْن مستديرتين تبرزان من رأسها الصغير ، وذات فم واسع عريض ، وبطن أصفر ، وظهر بني » .

فمن الواضح أن الجمال يرتبط بالصلة الجنسية التي تعتمد في الإنسان على تلك الأعضاء التي تكون الصفات الجنسية الثانوية ، والتي تظهر عند البلوغ بوساطة الهرمونات التي تتخلل الأنسجة الخلوية ، وهي : الأنداء ، والشعر ، والأرداف ، والسيقان ، والأذرع المستديرة ، والصوت الناعم . ولكي تجمل نساء الأجناس المنحطة أنفسها في أعين أزواجهن يعملن على تضخيم الهيئات التناسلية ، على حين يصطنع أهل القبائل الأرقى سياسة مقابلة ولكنها مماثلة : وهي إخفاء الأعضاء التناسلية ، لأن الإخفاء يجذب بنجاح كالمغلااة . والملابس (كالعفة) تزيد في قيمة الجمال لأنها ضرب من المقاومة ، والمقاومة تزيد في حدة الرغبة . يقول سانتايانا : « لا يمكن للآلهة أن تتعري لأن صفاتها هي عين ذاتها » (٣) . لعل هذه كانت طريقته التي أوحى بها بعناية من أن الزي كان في الأيام المزيفة والخيالية ضرورياً للجمال .

(١) دلكنيا هي معشوقة دون كيشوت ، ويصفها بأن شعرها من الذهب ، وعينيها شمسان متوهجتان ، وخديها وردتان ، وأسنانها من اللؤلؤ ، وهكذا . (المترجم) .

(٢) دي جورمون (١٨٥٨ - ١٩١٥) ناقد فرنسي وروائي وشاعر تمتاز آثاره بالتهكم والنزعة الحية (المترجم) .

(٣) Reason in Society, p. 241.

وملاحة المرأة في نظر الجنس البشرى أعلى صور الجمال ، ومتبع جميع الصور الأخرى ومعيارها . يقول خيال يوفنيس Paphnuce في تاييس : « أنا جمال المرأة فأين تظن أنك تهرب مني أيها الأحمق المحنون ؟ ستجد مثالي في بهاء الأزهار ورشاقة النخيل ، وفي تحويم الحمام ، ووثب الغزلان ، وفي خريف الحداويل ، وفي ضوء القمر الشاحب . وإذا أغضت عينيك فتجدني في داخل نفسك » .

وكان يمكن أن يسود جمال الرجل إحساننا بالجمال لو سادت المعايير والنزعات الإغريقية . فالصداقة في اليونان كانت تتحكم في الحب ، وكان مثال الجمال في إسبرطة وأثينا هو الشباب الممتلئ بالزجولة ، الذي يجمع بين الجمال والشجاعة . ولذلك أضحى الفن الإغريقي تمجيداً للرجل الكامل ، ويعكس الميادين الرياضية ، على حين يعكس إحساننا بالجمال مخدع المرأة وسلطانها في قلوبنا وحياتنا . وإذا كان جمال الرجل لا يزال يحركنا في بعض الأحيان فالعلة في ذلك العنصر من عناصر الحب الذي قد يرتفع إلى حد الشغف والإخلاص في الصداقة ، كما كانت الحال عند الإغريق .

وتصبح المرأة منبع الجمال ومعياره لأن حب الرجل إياها أقوى ولو أنه أقصر من حبها إياه ، وتخلق شدة رغبته ملاحظتها الفائقة . وتسلم المرأة بحكم الرجل عليها أنها أجمل منه ، إذ ما دامت تهوى أن تكون معشوقة أكثر من حبها التملك ، فهي تتعلم أن تقدر في نفسها تلك المفاتيح التي تقوى الرغبة . وفيما عدا ذلك ، لا تنشد المرأة الجمال في الرجل ، وليست في حاجة إلى تخيله فيمن تهواه . إنها تلتبس فيه القوة ، والقدرة على حمايتها هي وأطفالها ، وأن يضع تحت أقدامها ما استطاع من كنوز العالم .

ومن الدلائل الواضحة على تولد الجمال من الرغبة ، أننا حين نظفر بالشيء المطلوب تفرق فينا حاسة الجمال . وقليل من الناس عندهم من الحكمة ما يجعلهم يشاقون إلى ما يملكون ، وأقل من هذه القلة هم الذين يرون الجمال فيما لم يعد يبعث الرغبة . وبهذا السبب تتعلق معظم الحكايات . ومع ذلك دع الموت يختطف زوجاتنا منا ، أو دع أحد لصووص القلوب يوجه سهام نظراته

إلين ، وسوف يشتعل لهيب الرغبة من جديد ، ويضيء جذوة الجمال التي انطفأت . وما أعجب أن يصبح نفس الوجه الذي أصبح بالنسبة إلينا مجرد نثر مثال الشعر والإبداع في عين من لم يحمد التكرار فيه النظر . فلنطلب من الله أن يهبنا القوى على أن نرى زوجاتنا كما يراها الغريب .

٤ — الجمال الثانوي : الطبيعة

الحب إذن هو أب الجمال لا ابنه ، وهو المصدر الوحيد لذلك الجمال الأولى الخاص بالأشخاص لا بالأشياء . ولكن ما الحيلة في هذا العدد العديد من الأشياء التي تبدو لنا جميلة ، ومع ذلك فليس لها صلة ظاهرة بالحب ؟ كيف نفسر جمال العالم الخارجي ذلك الجمال غير المحدود ؟

كما أن كثيراً من ألفاظ معاجمنا لها دلالات ثانية ومنقولة ، ولها دلالات أولية وأصلية ، كذلك لكل غريزة مطلوبات وإشباعات أولية وثانوية ، فغريزة طلب الطعام تصبح غريزة عامة للتملك تشتاق إلى كل ذي قيمة . وغريزة القتال في سبيل الطعام أو الزوجات تشجع فتضحى غريزة عامة للقتال من أجل لذة القتال . كذلك انفعال الجمال (وهو جزء من « انفعال الحنان » tender-emotion المصاحب للغريزة الجنسية) قد يفيض من الشخص المطلوب على الأشياء المتصلة به ، على اتجاهاته وهيئاته ، على أحوال سلوكه وأساليب حديثه ، أو على أي شيء آخر فيه أو يماثله . وعلى هذا النحو يشارك العالم كله في بهاء محاسن المرأة .

تأمل الأشياء التي تبدو جميلة الملمس : الأشياء المستديرة ، الناعمة ، المنحنية ؛ لم تسرنا ؟ أذلك لأنها مستديرة أو ناعمة أو منحنية ؟ ومع ذلك قد يكون المربع جميلاً في نظر بعض الناس ، فهو عند أرسطو رمز للعدالة . أو أننا نفضل المستدير والمنحني والناعم لأن ذكرياتنا تربطها بالاستدارات الناعمة للجنس اللطيف المطلوب ؟

تأمل جمال المشمومات : لم نسر من نظافة الأبدان ، وأريج الأزهار ، وعبيق العطور ؟ أذلك لأن الانتخاب الجنسي كان يتم في الأصل بوساطة الشم ؟ تحتفظ الأزهار بأعضاء التوليد في النبات ، وكانت عطورنا المحبوبة حتى ظهور

التركيبات الكيميائية تستخرج من العناصر التناسلية لأنواع كثيرة من الحيوانات.
وفن العطور المثيرة من جملة ما تعرفه كل امرأة .

وتأمل جمال الأصوات .. لقد نشأت في الأصل فكرتنا عما في الصوت من جمال من أغاني المرأة المطلوبة أو حديثها : « فالصوت الرقيق أبداع شيء في المرأة » :
وقد تمتعنا ويسحرنا أكثر حتى من المفاتن التي نراها بالعين . أما الصوت الأجش فقد يفسد تصف جمال أي الأشكال . ويقول منتجاً Mantegazza : « بعض أصوات النساء لا تمكن مقاومتها عند سماعها » . ومن جهة أخرى تحب المرأة ما يسميه إيليس : « الصوت الملتحي للرجل a bearded male voice » ، لأنها تؤثر على وجه العموم القوة على الجمال ، وتحب في الرجل ذلك الصوت الرنان الذي تطور في أكبر الظن بوساطة الانتخاب الجنسي للقوة الجنسية كدليل على الحماية والوفرة .

وقد يمكن أن يكون الصوت نفسه قد نشأ كخليفة جنسية : تستطيع الأذن أن تتخيل سماع رنات الموج في أشعار هوميروس ، وهدير خيال شكسبير في نغمة الضفادع ورنانة العصافير . ومن الصوت نشأ الغناء الذي يكاد لا ينفصل عن الحب (ولو أن الدين والحرب قد اختلسا بعضه) ، ومن الغناء نشأ الرقص ، وهو جزء من شعائر الحب (١) . ومن الغناء والرقص نشأت الموسيقى .

وقد ذاعت الموسيقى وابتعدت في كل جانب من هذا الأصل الجنسي ، ولكنها لا تزال مرتبطة بأمرها ، فلا تجد فتاة تهوى بغير الموسيقى . والفتاة التي تعشق الموسيقى قل أن تلعب البيانو بعد سنوات عدة من زواجها ، إذ لم يطلب المرء فتنة حيوان قد وقع في الأسر واستوئس ؟ أما الرجل الذي كان يزأر ويموء أمام خطيبته فإنه يفقد ميوله الموسيقية حين يثقل عليه الزواج بفروضه الفظيعة ، ولا يسلم إلا تحت إلحاح الاحتجاجات بالضرورة الاجتماعية لاحتلال ستارفسكى وشونبرج ، وريتشارد سترابوس .

(١) الحب في اللغة الإنجليزية love ، يفيد العاطفة الروحية والاتصال الجنسي معاً . وليس في العربية ما يفيد المعنيين جميعاً ، فالنكاح أو الوطء يفيد الصلة الجنسية فقط ، والسفاد خاص بالحيوانات ، لذلك فليكن مفهوماً أن استعمالنا لفظ الحب نريد به الصلة الجنسية كذلك . (المترجم) .

ولكن الحب وحده لا يكفي في تفسير هذه الميادين المشتقة من الجمال السمعي . إذ تتدخل لذة الوزن rhythm كعنصر مستقل .. فالشهيق والزفير ، وانقباض القلب وانبساطه ، بل وتمائل البدن من جانبيه ، كل ذلك يهيئنا لارتفاع الأصوات وانخفاضها الموزون . وعندئذ لا نشعر باذة جنسية فقط ، بل النفس كلها تنتشى بالسرور . إننا نخلق الوزن من دقائق الساعة بل من وقع الأقدام عند المشي . إننا نحب التمرجح ، والرقص ، والشعر ، والمتقابلات ، والمتطرفات .

وتهدىء الموسيقى أنفسنا بما فيها من وزن ، وترفعنا على وقعها إلى عوالم أقل في حيوانيتها مما يوجد على الأرض . قد تخفف الموسيقى الآلام ، وتحسن الهضم ، وتبعث على الحب ، وتعين على تهدئة الخنون النائرة . وهي التي يسرت للجزويت في باراجواي أن يحمّلوا ثائرة عبيدهم من الهنود ، وزادت في قدرتهم على العمل . وقد تعين الجندى على الذهاب إلى برائن الموت في رضى موزون . وأدى هايدن Haydn لآل هبسبرج خدمة أعظم من أى قائد ، ولا يلزم أحد أن الشيء الكثير من بسالة الجيش الروسى إنما يرجع لأغانيم الوطنية القوية . ويظن ثورو Thoreau أنه لا يوجد شيء أعظم ثورة من الموسيقى ، وتعجب كيف يمكن أن تستغنى نظمنا عنها . وإنما كان ذلك لأن ثورو كان ثورياً . فالموسيقى قد تخمدنا إلى حد السلبية كما قد ترفعنا وتحركنا إلى العمل . أو كما قال تولستوى لحوركي : « حيثما تريد أن تتخذ عبيداً فلتصطنع من الموسيقى بقدر ما تستطيع ، لأنها تبلى الفهم » . لقد اتفق التقى الروسى القديم مع أفلاطون الذى ذهب في مدينته الفاضلة إلى أن أحداً بعد السادسة عشرة لا يجب أن يسمع الموسيقى .

وأخيراً تأمل الجمال البصرى . عندما ظهرت القامة المنتصبة ، فقد الشم قوته وزعامته ، وأخذ البصر يسيطر على حاسة الجمال . إن جمال المرثيات ، كجمال المسموع ، يبعد كثيراً عن جمال المرأة المحبوبة . وهنا نواجه مرة أخرى لغز مشكلة الجمال : أتكون الخطوط المنحنية ، والنسب المتماثلة ، والوحدة العضوية علة الجمال الشخصى أم نتيجة له ؟ أمى أولية أم مشتقة ؟ أئحب المرأة لأن جسمها يتضمن التماثل ، والوحدة ، وكل استدارة فائتة ، أم أن هذه الصور تسحرنا ، في أى ميدان توجد فيه ، لأنها تذكرنا أو كانت تذكرنا بجمال المرأة ؟

نحن نصفها فنقول : « لها رقبة كالأوزة » وبذلك نتخذ من الأوزة معياراً للرشاقة . ولكن لعل الإنسان كان يشعر في الأصل بأن « الأوزة لها رقبة في جمال رقبة المرأة » . فالمليح ما كان في أول الأمر محبوباً .

ويبدو أن الفن يرجع إلى قصد الحيوان أو الإنسان إلى محاكاة الألوان التي تنميها الطبيعة في الطير والحيوان في موسم الزواج ، والتي تخطر بها في عين الجنس الراغب في الانتخاب . وقد رأينا كيف يزين الطائر عشه بالأشياء البراقة ، ويزين الرجل بدنه بألوان زاهية تثير الرغبة . فلما ظهرت الملابس انتقلت الألوان من الأبدان إلى الثياب ، للغرض نفسه وهو اجتذاب العين . واحتفظ الناس باللون الأحمر على أنه أشد الألوان إثارة للدماء . والأمر كذلك في الغناء والرقص والموسيقى والشعر وكثير من صور النحت فإنها تبت من شجرة الحب . والبناء وحده يبدو مستقلاً ، وإنما ذلك لأن سرّ قوته في الجلال sublime لا في الجمال .

ويتصل الجلال بالجمال صلة الذكر بالأنثى . فاللذة التي نشعر بها من الشيء ، الحليل لا تنشأ من الملاحظة المطلوبة في المرأة ، بل من القوة التي نعجب بها في الرجل . وأكبر الظن أن المرأة أشد انفعالا بالحليل من الرجل ، وأن الرجل أعظم تأثراً بالجمال ، فهو أحرص على استعماله ، وأعظم شوقاً إلى الرغبة فيه ، وأثبت على خلقه . والحليل كما بين بيرك Burke ما كان مصدراً للقوة والخطر على الشخص الآمن . ولم يعلق هاننيال وقيصر (على الأقل للخلف) على جلال جبال الألب ، فهي في نظرها مفاوز مخوفة لا مناظر بديعة . ثم انظر في مقابل استخفافهما الرجالي إلى حساسية روسو الأنثوية ، وكيف كشف للنفس عن عظمة الألب حديثاً . ولكن روسو كان آمناً ، ولم يكن عليه أن يقود الجيوش في تلك المرتفعات الموحشة . وعلل الإغريق (كما ذهب إلى ذلك سرجي Sergi) قصرها في تصوير المناظر الطبيعية ، لأن الطبيعة كانت لا تزال على فطرتها خطراً على حياتهم ، فلا تبيح لهم الوقوف بإزائها وتأمل عظمتها .

وعند الإعجاب بالمناظر الحلوية ، يقف الجمال بعيداً عن منبعه في الحب . ذلك أن معظم السرور الذي يملأ النفس من المناظر الطبيعية راجع إلى جلال الرجولة ، وينشأ كثير من ذلك الجلال من الجمال الهادئ الشبيه بالوضع الدافئ .

لكل صدر بديع . هذه صورة لكوروت^(١) Corot : فيها حقول متموجة ، وظلال شجر البلوط ، وجداول ينساب ماؤها تحت الغصون المهذلة ؛ فأين يختبئ جمال المرأة في هذه المتعة الطبيعية ؟ فتش عن المرأة - كما يقال في المثل الفرنسي Cherchez la femme .

ولا يجب أن تتعجل في وضع قوانين تحيط بالعالم ، فالطبيعة تستنكر التعميمات التي تتجاهل تنوعها اللانهائي ، وهي على استعداد أن تلتقي في وجه مبادئنا الكلية آلافاً من الاستثناءات . فلنقنع بالقول بأن الشعور الذي كان أصله جنسياً قد يفيض على أشياء لا صلة لها بالحب على الإطلاق . فالقوة الجنسية النامية باستمرار قد تصرف ما يفيض عنها في الإعجاب بالمناظر الطبيعية ، كما تروى جذور الدين والصدقة والمثل الاجتماعية والفن .

ومع ذلك فحتى في هذا المجال توجد روابط وثيقة . فالطفل في الغالب الأغلب لا يحس بجمال الأرض والسماء ، ولا يهتز لحماها إلا بالمحاكاة والتعليم فقط . ولكن دع الحب يفيض بحرارة وعاطفته على النفس ، تجد فجأة أن كل شيء طبيعي يبدو جميلاً : فيضع المحب همه في الأشجار والمياه الحارية ، ويجد سكينه ممتعة تشرق على فائض عاطفته وسعادته . والأزهار أبدع سائر الأشياء التي وهبتها لنا الطبيعة . ومع ذلك فتلك الزهور أيضاً هي رمز التوالد ومعناه ، وهي آية للناس على الرقة والإخلاص . وعندما يثقلنا كثر السنين ، وتحمند نار الحب ، يحمند الإعجاب بالطبيعة . فالشيخ الفاني كالطفل الرضيع لا يتأثر بفتنة الغابات وعبرها ، أو بعظمة النجوم وبريقها ، أو بأمواج البحر المتدافعة . ففي كل عظمة في الأرض والسماء أثر لإله الحب إيروس Eros .

٥ - الجمال الثالث : الفن

هذا الفيض من الحب الذي يمتد من الأشخاص إلى الأشياء ، ويجمل الأرض ذاتها التي نمشي عليها ، يبلغ أخيراً ثورة الفن المبدعة . فحتى عرف الإنسان

(١) Corot (١٧٩٦ - ١٨٧٥) مصور فرنسي مشهور بمناظره الطبيعية ،

وتبرز عنده النزعة الرومانتيكية ، وضوء الشمس والضباب . (المترجم) .

الجمال انتقشت صورته في صفحة ذاكرته ، وينسج مما رآه من البدائع جمالا
مثالياً يربط ما في أجزائها من كمال في منظر واحد .

وينشأ الفن بيولوجياً من غناء الحيوانات المتسافدة ورقصها ، ومن سعيها
إلى أن تزيد بالصناعة ازدهار ألوان الزهور وتنوع صورها مما تميز به الطبيعة
موسم الحب . وقد ولد الفن عندما بنى طائر البوير أول عش لأنثاه المتبهجة
التياهة . ونشأ الفن تاريخياً بالنقش الزخرفي ، أو الثياب ، أو إحداث ندوب في
الجسم عند القبائل المتوحشة . ويذهب جروس Groos إلى أن أهالي أستراليا
الوطنيين يحملون على الدوام في جرابهم زاداً من الطلاء الأبيض والأحمر والأصفر .
ويقنع الرجل منهم في الأيام العادية بقليل من الوشم باللون على خديه . أما وقت
الحرب فإنه يلطخ بدنه برسوم عجيبة تهدف إلى تخويف العدو . وفي الأعياد
وحفلات الحب يزين جميع بدنه بالنقوش ليجتذب عيون الفتيات . واللون الأحمر
أعز الألوان في هاتين اللعبتين ، وهما الحرب والحب . والأحمر عند بعض القبائل
له من القيمة ما يجعل أهلها يقومون برحلات كبيرة تستمر عدة أسابيع لتجديد
مؤناتهم منه . ويكثر الرجال من طلاء أنفسهم أكثر من النساء . وفي بعض
الأماكن يمنع العوانس منعاً باتاً من تلوين رقابهن .

ولكن الطلاء سريع الزوال ، ولذلك بحث المتوحشون ، كالإغريق (الذين
كانوا يزدرون النقش لسرعة فساده) عن فن أكثر دواماً . وبلغا البدائي إلى
الوشم ، فيشك جسمه في آلاف المواضع بإبرة ترسب اللون تحت الجلد . وكثيراً
ما يلجأ إلى التنديب scarification ، إذ يقطع الجلد واللحم ، ويتسع
الندب بالتراب الذي يملأ به الجرح بعض الوقت . وعلى طول جزائر تورييس
ستراتس Torres Straits يحمل الرجال على أكتافهم مثل هذه الندوب
التي تشبه الأشرطة العسكرية . ويسمى البوتوكودو Botocudo كذلك من
« البتوك » ، أو الثقب الذي يجعلونه في الشفة السفلى أو في الأذنين منذ الشباب
الباكر ، ولا يزالون يوسعونه حتى لقد يبلغ في سبعة أرباع بوصات . عندما تقرأ
الفتاة المتحضرة هذه الأمور البربرية تهز قرطها في فزع .

ويظهر أن أول استعمال للثياب كان من أجل الفن لا المنفعة . ويروى

أن دارون أخذته الشفقة على شخص من أهالي فوجيا ، كان يرتعش برداً ، فأعطاه ثوباً أحمر اللون يدثر به بدنه ، وأخذ المواطن الثوب فرحا ومزقه شرائط وزعها على أقوانه قرينوا بها أيديهم وأرجلهم . ويتضح من هذه التضحية اللذيذة بالمنفعة في سبيل الجمال أن الفرق ليس كبيراً عند الفتاة العصرية التي تلبس الفراء صيفاً ، وتكشف عن نحرها دون خوف لرياح الشتاء .

وبعد أن زين الرجل البدائي بدنه بما فيه الكفاية انتقل إلى تزيين الأشياء ، فنقش الأسلحة ليحمي على العدو أو ليخيفه ، كما فعل أخيل بدرعه . وكان يزين الآلات المصنوعة من الصوان أو الحجر ، ولا تزال موجودة حتى الآن من عهد ما قبل التاريخ . وكان الإنسان في العصر الحجري يزخرف جدران كهفه برسومات عجيبة تمثل الحيوانات التي كان يأمل في اصطیادها ، أو تلك التي كان يعبدها كطواطم في قبيلته .

ومع أن الدين ليس متبع الجمال ، فقد كان نصيبه في نمو الفن أقل من نصيب الحب . وبمقدار ما تعرف نشأ النحت من النصب الغليظة التي كانت توضع علامة على القبر . ثم هذبتها الصناعة فأخذوا يحفرون طرف النصب على هيئة الرأس . ثم أخذوا ينحتون في عصور متأخرة النصب كله على هيئة إنسان (هرمس في فن الإغريق البدائي) ثم ازدادت العناية والصبر ، وسعى النحات إلى تهذيب تماثله ، وإلى أن يبرز فيها ملامح الإله أو الحد الذي يريد تخليده . ولم يعرف النحت الحب إلا في صورته الراقية ، ولذلك كان فيدياس أسبق دائماً من بروكستيلس Praxiteles ، وجيوتو Giotto قبل كوريجيو Correggio .

ونشأ فن البناء من المقابر التي كان الموتى يدفنون فيها . وأقدم بناء أثرى في العالم ، وهو الأهرامات ، عبارة عن مقابر . وبدأت الكنائس كأضرحة للأموات ، وأما كن لعبادتهم ، ثم أخذوا ينقلون المقبرة بالتدريج إلى المكان المجاور ومع ذلك لا تزال قبور عظماء الأسلاف داخل كنيسة وستمنستر أبي . ومن هذه البدايات نشأت الهياكل الشامخة التي أقامها الإغريق لبلاس أثينا وغيرها من الآلهة . ومن بدايات مماثلة نشأت تلك الآثار التي تعد أبداع ما شيده الإنسان ، وهي الكنائس القوطية التي تضم مذابحها كتلك المقابر القديمة رفات القديسين .

ويبدو أن الدراما نشأت من الشعائر الدينية واحتفالات الأعياد، وقد ظلت الدراما في أئنا إلى زمان أوربيدس الشاك شيئاً مقدساً . ونشأت الدراما الحديثة، وهي أبعد الفنون المعاصرة عن الدين ، من القداس ، ومن المواكب الدينية التي كانت تصور في العصر الوسيط حياة المسيح وصلبه . ووجد النحت رونقاً جديداً في زخرفة الكنائس ، وبلغ فن النقش ذروته بوحى المسيحية .

وقد أظهر الفن صلته الخفية بالحب حتى وهو يخدم الدين . فثمة عنصر وثني من روائع البدن يوجد في أقدم صور عصر النهضة . وأصبحت صور العذراء شبيهة بفينوس ، والقديس يوحنا بأدونيس الرقيق ، وأضحت صور القديس سباستيان دراسات صريحة في العري . فلما انتقلت النهضة من روما إلى البندقية انتصر العنصر الوثني ، وسلم الفن المقدس للحب الديني .

وكما أنه حتى الفن الديني يرتوي من ينبوع الحب ليعيش ، كذلك الأمر في كل عنصر آخر يتدخل في خلق الجمال . فللوزن مدخل ، ولكنه يرتبط في الحال بالحب ليولد الغناء والرقص والشعر . وللمحاكاة مدخل ، فتعين على نشأة النحت والتصوير ؛ ولكنه الحب ، البنيوي أو الجنسي ، الذي سرعان ما يحدد الموضوع الذي تصنعه المحاكاة . ولك أن تجمع بين الوزن والمحاكاة والدافع إلى الحب فتحصل على تسعة أعشار الأدب . وحتى أغنية دانتي الإلهية ولو أنها تهدف إلى أن تكون تمثيلاً للحياة الإنسانية ، فإنها تصبح في النهاية أغنية حب .

هذا التيار الباطني من طاقة الحب هو الذي يغذي عاطفة الفنان المبدعة ، وتتخذ العلاقة بين الحب والفن عند بعض الفنانين صورة نمو سريع للجنس والفن في آن واحد ، وينشأ من هذا الاتحاد الطراز الرومانتيكي للعبقرية . فسافو والإسكندر ولوكريتيوس ؛ وبيرون وشللي وكيثس وسونبرج ؛ وهوجو وروسو وفيرلين ؛ وبتراك ، وبرونو ، وجيورجيون ؛ وشلر وهيني وبو ؛ وشومان وشوبرت وشوبان وسترنبرج وأرتزباشف ، وتشيكوفسكي : هؤلاء هم النموذج الذي يتغلب فيه الخيال على العقل ، ويحرق الجنس والفن النابغان بإسراف من الأصل نفسه الفنان ويتركه ميت الجسم أو الروح قبل أن ينفذ شبابه . ولما كانت الرغبة فيهم عذاباً فقد امتازوا بالحساسية ، والانفعال ، والتألم

الدائم ، والخيال الذى لا يعرف الحدود . ويفتخرون كل متطرف وعجيب وغريب . هؤلاء هم الذين يبدعون الشعر والتصوير والموسيقى والفلسفة والحب ، ويعزهم كل محب .

ولكن الفيضان الجنى يكبت عند غيرهم من الفنانين ويكاد يتحول تماماً إلى الإبداع ، فيفقد الحب سلطانه ، وتقلم أظفار الانفعال ، ويتدهر العقل ويتحكم في كل شيء . ونشأ من هذا التسامى قدامى العباقر : سقراط وسوفوكليس وأرسطو ، أرشميدس وقيصر وجاليليو ، جيوتو وليوناردو وتيتيان ، بيكون وملتون ، نيوتن وهوبس ، باخ وكانط ، وجوته ، وهيغل ، تورجيف ، وفلوبير ، ورينان ، وأناطول فرانس . هؤلاء قوم هادئون كبحوا جماح الشهوة ورفعوا قوصى أنفسهم إلى نجوم متألقة . إنهم يعملون في بطن بخرم وصبر أكثر مما يعملون « بالإلهام » والعاطفة . ويتحدثون ويتصرفون بحساب وضيظ . إنهم ينمون ببطء ، ويكون إبداعهم بعد الثلاثين أفضل منه قبل ذلك ، ويحققون الشهرة آخر العمر ، ويعمرون طويلاً . إنهم لا يتفوقون على الطراز الرومانتيكى في تلك الذخيرة من الطاقة الممتازة التى تعد الحاكم العام والأصل في كل عبقرية . ولكنهم لا يشغلون إلا الشيء القليل من تلك الذخيرة في الأمور الجتنسية ويدخرون معظمها للفن . كان ميخائيل أنجلو وبيتهوفن ونابليون من العظماء الممتازين ، لأن النموذجين من العبقرية اندمجا فيهم إلى وحدة تكاد تكون أسى من الإنسان .

ولقد قال نيتشه : « عبقرية المرء تستنزف دمه » ، لأنها تحرقه في شعلتها . ولكن هكذا يفعل الحب . فإذا اجتمعا على حرق الإنسان في وقت واحد تكلم في حماسة وإشراق ، ولكن صوته سرعان ما يخفت . كل عبقرية ، ككل جمال وكل فن ، تستمد قوتها في النهاية من ذلك المستودع نفسه للطاقة المبدعة التى تجدد الجنس البشرى باستمرار ، وتحقق للحياة الحلود .

٦ - الجمال الموضوعى

والآن لا يزال أمامنا سؤال من بين ما خلفناه من أسئلة يلح علينا طالباً الجواب . أياكون الجمال شيئاً موضوعياً أم شخصياً فقط ، وهوى ذاتياً ؟

يعتقد إليس الذي تفرض أحكامه الاحترام لأنها مؤسسة على أكثر معارف عصرنا عموماً ، أن الجمال مستقل عن شخص الملاحظ ، وهو يقيم حكمه على ما يبدو له من إجماع جوهرى فى إثارة الجميل بين معظم أجناس العالم ، ولو أننا لا نستطيع إصدار مثل هذا الحكم بناء على موسيقى الصينيين وتشويه أجسام الزولو . فالجمال كالأخلاق يميل إلى التنوع مع اختلاف البيئة الجغرافية . ويروى دارون أن الوطنيين فى تاهيتى يعجبون بالأنف المفرطحة ، وكانوا يضغطون على أنوف أطفالهم وجباههم لتجميلهم ، كما يقولون^(١) . ويثقب شعب المايا الأنوف والآذان لتزيينها بالأقراط ، ويقلعون أسنانهم ويرصعونها ، ويبطون رءوس أطفالهم حتى تصبح كقمع السكر ، ويجعلون العين حولاء لأنهم كانوا يظنون أن هذا هو الجمال^(٢) . ولقد دهش منجو بارك حين سمع سود أفريقية يسخرون من بشرته البيضاء . ولما رأى الأولاد السود فى ساحل شرق أفريقية ريتشارد برتون صاحوا : « انظروا الرجل الأبيض ، ألا يبدو كالقرد الأبيض ؟ » ونحن نظن كذلك أن الزولو يشبه الغوريلا السوداء . أكبر الظن كما قال فولتير أننا جميعاً على صواب .

أو تأمل ما نسميه ثقل أرداف *steatopygy* بعض الحسناوات فى أفريقية . وفى ذلك يقول دارون : « من المعروف أنه عند كثير من نساء الهوتنتوت يبرز الجزء الخلقى من الجسم بشكل عجيب . . . ؛ ويؤكد السير أندرو سميث أن هذه الخاصية تعجب الرجال إعجاباً شديداً . فقد رأى ذات مرة امرأة تعد مثالا للجمال ، وكانت أردافها متضخمة إلى حد أنها إذا جلست على الأرض لم تستطع أن تنهض ، وكان عليها أن تدفع نفسها إلى الأمام حتى تأتى عند منحدر . وتوجد هذه الصفة الغريبة نفسها عند بعض النساء فى كثير من قبائل الزوج . ويروى برتون أن رجال الصومال ينتقون زوجاتهم بأن يضعوهن فى صف واحد ، ثم يختارون من كانت أردافها أكثر بروزاً . وليس أبغض عند الزنجى من الهيئة المضادة لها »^(٣) . ولا مشاحة فى الأذواق .

(١) Descent of Man, p. 665.

(٢) Thorndike, L., Short History of Civilisation, p. 395.

(٣) Descent of Man, p. 660.

وحتى عند الأوربيين يختلف مثال الجمال من شعب إلى آخر ومن عصر إلى عصر . فقد كانت اليدانة بدعة في بعض الأوقات. تأمل السيدات اللاتي صورها روبنز ، والصيالي الممثلات في صور ميراندت . حتى العذراء في رسوم رفايل مزدهرات الجسم . ولكن حسناوات رينولدز وجنزابورو ورومى أكثر من ذلك رشاقة . أما نساء هويسلر فمشوقات القدر وبغير أرداف . وفي خلال الجيل الذي نعيش فيه تغير ذوق المرأة في حجمها من الامتلاء الدوري (١) إلى doric إلى الرشاقة الكورنثية . فهينات الجسم تتخذ كأزياء الشباب شيئاً من التنوع والقداسة .

فن الواضح إذن أن ثمة في تقدير الجمال عنصراً كبيراً شخصياً وجنسياً وذاتياً . ويبقى بعد ذلك عنصر موضوعي واحد ، ذلك هو الإيثار العام للرجال السويين للنساء اللاتي تبشر هيئتهن بأمومة قوية . والأصل أن كمال الوظيفة الطبيعية هو الذي يبعث اللذة لصاحب الذوق السليم ، ويكون ذلك في المرأة أولاً ثم في كل شيء . فكل عمل يؤدى على أحسن وجه ، وكل حياة يحسن المرء معيشتها ، وكل أسرة حسنة التربية ، وكل آلة تحسن أداء العمل المهياة له ، كل ذلك يرغمننا أن نقول : « هذا شيء جميل » . ولو كنا أصحاء ، بمعنى الكلمة . لاعتبرنا المرأة الصحيحة التي ترضع طفلها الصحيح أعلى صورة من صور الجمال في هذا العالم . وهنا نجد أن فن العصر الوسيط والنهضة وما يمتازان به من صور العذراء والطفل كان أرق وأصح في ذوقه من فنوننا . فنحن وقد انحرفنا بالفن إلى الانحلال أصبحنا نشاق إلى النحاف من النساء اللاتي يشهن الزنابير لايلدن بمقدار ما يلسعن . لو أن غرائزنا لم تفسدها أدوات الزينة ، ولم تنحرف بالمال ، لبقيت حاسة الجمال فينا سليمة بيولوجيا ، ولكان الحب أفضل السبل لتحسين النسل . ولعاد الجمال كما أرادت له الطبيعة أن يكون فأصبح زهرة الصحة وبشيرها ، والضامن للأطفال الكاملين ؛ وعمل مرة أخرى لخير الإنسانية . لا لإضعافها . وهنا يلتقي الخير بالجمال ، فنصل إلى النتيجة التي انتهى إليها أفلاطون من أن : « مبدأ الخير يرتد إلى قانون الجمال » (٢) .

(١) نسبة إلى العصر اللورى في الحضارة اليونانية القديمة . (المترجم) .

(٢) Philebus, § 64 ; in Bosanquet, History of Aesthetics, p. 33.

لقد تردد أفلاطون في هذه المسألة ولم يعرف بالضبط لمن يركع ، الحكمة
أثينا القوية ، أم لملاحه أفروديت المشرقة . لعله كان على حق في ترده ، فالجمال
كما رأينا من العسير أن نجعله دعامة الدولة الكاملة وأساسها . ولكن ما فائدة
الحكمة إذا لم تجعلنا نحب الجميل ونخلق جمالا جديداً أبهى مما تقدمه الطبيعة ؟
الحكمة وسيلة ، والجمال ، في الجسم والنفس ، غاية . والفن بغير علم فقر ،
ولكن علم العلم بغير فن بربرية . بل إن الفلسفة الإلهية وسيلة إلا إذا وسعنا آفاقها
لتشمل سائر مهام الحياة المتناسقة وآلاتها وقيمها . إن الفلسفة إذا لم تحركها
ملاحه الجمال فهي غير جديرة بالإنسان .

لقد زال كل شيء عن مصر ما عدا العظمة الهائلة التي رفعتها من الرمال .
وفى كل شيء عند الإغريق وبقيت حكمتها وفنونها . إن الجمال الحي أعظم
أنواع الجمال ، ولكنه يذبل مع تقدم العمر ويفسده الزمان . والفنان وحده هو
لذو ، يستطيع أن يضع يده على الصورة العابرة ويطبعتها في قالب يغالب الفناء .
أو كما قال جوتييه^(١) :

كل شيء إلى فناء
سوى الفن فإلى بقاء
ويبقى تمثال الرخام
وتمضي الدول إلى هباء

الدينار يكشفه العامل
من الأرض في شقاء
عليه وجه السلطان
روحه مستقرة في السماء

تموت الآلهة ويبقى
رصين الشعر إذا يشاء

(١) جوتييه. Gautier (١٨١١ - ١٨٧٢) شاعر فرنسي وقصصي مشهور بحسن نظمه ،
كان من أعظم أنصار مذهب الفن للفن (المترجم) .

مِيقَاتُ الْفَلَسْفَةِ

الكتاب الثاني

تأليف
ول ديورانت

ترجمة
الدكتور أحمد فتاوى الأبهوانى

ملشزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عمارة التبريد سابقاً)

١٩٥٦

مباح الفلاسفة

الكتاب الثاني



محتويات الكتاب الثاني

صفحة

الجزء السادس

فلسفة التاريخ

اعتراف ١

الفصل الرابع عشر : معنى التاريخ

- ١ - مدخل في بومانوك ... ٥
- ٢ - التفسير الديني للتاريخ ... ١١
- ٣ - التفسير الجغرافي للتاريخ ١٦
- ٤ - التفسير الجنسي للتاريخ ٢٥
- ٥ - التفسير الاقتصادي للتاريخ ... ٣٥
- ٦ - التفسير النفسي للتاريخ ٤٣
- ٧ - التاريخ المركب ٥٢

الفصل الخامس عشر : هل التقدم وهم ؟

- ١ - التقدم في شبابه ٥٩
- ٢ - التقدم في أوجهه ٦٣
- ٣ - الدعوى ضد التقدم ٦٦
- ٤ - اعتبارات صغيرة ٧١
- ٥ - عرض عام للتاريخ ٧٤

الفصل السادس عشر : مصر الحضارة

- ١ - الاضطرابات العصبية بعد الحرب ٨٧
- ٢ - فناء الأمم ٩٠

سنة	
٩٣	٣ - الاقتصاد والحضارة...
٩٧	٤ - علم الحياة والحضارة
١٠١	٥ - علم الاجتماع والحضارة
١٠٤	٦ - استمرار الحضارة
١٠٦	٧ - المستقبل في أمريكا

الجزء السابع

الفلسفة السياسية

الفصل السابع عشر : في امتداح الحرية

١١٥	١ - الشراب والحرية
١١٨	٢ - دين الحرية
١٢٢	٣ - القوضوية
١٢٥	٤ - صعوبات الحرية
١٢٨	٥ - الدولة الجيفرسونية

الفصل الثامن عشر : هل أخفقت الديمقراطية ؟

١٣٣	١ - أصول الديمقراطية ...
١٣٧	٢ - فساد الديمقراطية
١٤٢	٣ - أساليب الديمقراطية ...
١٤٩	٤ - حول أنفسنا

الفصل التاسع عشر : الأرستقراطية

١٥٥	١ - الأرستقراطية المنقذة
١٥٦	٢ - أشكال الحكومة
١٥٩	٣ - فن الحكم
١٦٠	٤ - المحافظة

١٦٤	٥ - الحكومة والثقافة
١٦٧	٦ - الديمقراطية والفوضى
١٦٨	٧ - أخطاء الأرسقراطية
١٧٢	٨ - حول أنفسنا مرة أخرى

الفصل العشرون : كيف صنعنا المدينة الفاضلة

١٧٧	١ - في مزايا المدن الفاضلة
١٨٠	٢ - العملة يستيقظ ...
١٨٢	٣ - المجلس الكبير
١٨٦	٤ - الحكم بالتربية
١٨٩	٥ - اشتراكية أصحاب الملايين ...
١٩٠	٦ - تمويل المدينة الفاضلة
١٩٢	٧ - ولكن في الواقع

الجزء الثامن

الدين : محاورة

١٩٧	الفصل الحادى والعشرون : تكوين الدين
١٩٧	١ - الأنبيسة
٢٠٣	٢ - السحر
٢٠٩	٣ - الطوطم واخره
٢١١	٤ - عبادة الأسلاف
٢١٣	٥ - الوثنية

الفصل الثانى والعشرون : من كونفوشيوس إلى المسيح

٢٢٣	١ - كونفوشيوس
٢٢٧	٢ - التصوف

صفحة

٢٣٠	٣ - اليهودية
٢٣٦	٤ - المسيحية
٢٤٤	٥ - الكاثوليكية والبروتستانتية ...

الفصل الثالث والعشرون : الله وخلود النفس

٢٥٣	١ - خلود النفس
٢٦٢	٢ - الإله الميت ...
٢٧٢	٣ - وظيفة الدين ...
٢٨١	٤ - الإله الحديد

الجزء التاسع

خاتمة

الفصل الرابع والعشرون : حول الحياة والموت

٢٩١	١ - الطفولة
٢٩٣	٢ - الشباب
٢٩٧	٣ - وسط العمر
٣٠٣	٤ - الموت ...
٣٠٩	المراجع
٣١٧	ثبت بالمصطلحات ...

اعتراف

هذا الكتاب . على الرغم من عنوانه الجديد المرح . طبعة منقحة من كتاب « صروح الفلسفة Mansions of Philosophy » الذي طبع عام ١٩٣٩ . ونفذت طبعته منذ عشر سنوات . وتهافت الطلب عليه إلى الحد الذي يغتفر معه إصدار طبعة جديدة . وفي الكتاب صفحات تدل على أن تأليفها كان منذ ربع قرن مضى . وسوف يتسم القارئ عند كثير من الأفكار التي تحويها . ومع ذلك فقد رأيت من الأسلم أن أكتب عن الماضي لا عن المستقبل . وهناك بعض صفحات تفيض بالعاطفة ، ولكنها لا تزال تعبر عن ذات نفسي أصدق تعبير : وصفحات أخرى ساخرة أو متشائمة بغير حق ، وبخاصة في الفصل الثامن عشر . وإذا كشفت أنني غير معصوم من الخطأ ، فقد ينبغي اليوم أن أكون أشد رفقاً بالزملاء والحكومات . وإني لأعتقد أن في الكتاب - على الرغم من هذه الأخطاء - صفات تعين على النجاة . لهذا السبب أقيته مرة أخرى في بحر المداد حتى يلتبس من هنا ومن هناك عجيبة الأرواح الموثلفة في دولة العقل .

ول روبرت

نيويورك في ١٥ نوفمبر ١٩٥٢

ابن زوَالِيسَاوِسْ

فلسفة التاريخ

الفصل الرابع عشر

معنى التاريخ : ندوة

شخصيات المحاضرة

فردريش نيتشه	اناتول فرانس
جورج ولهم فردريش هيغل	فرانسوا ماري أروي دي قولتير
لستروارد	جاك بنين بوسويه
كارل ماركس	هنري توماس باكل
جوزيف آرثر كونت دي جوبينو	توماس كارليل
ماديسون جرانت	فردريش راتزل
فيليب	وليم جيمس
اريل	جابريل تارد
راوي الحوار	شارل لويس دي سكوندا بارون دي متكيو

المنظر : حقيقة في ملكة العقل

١ - مدخل في بومانوك^(١)

بيننا كنا نمشي في أحد وديان بومانوك أخذنا نتحدث بحماسة عن اعتقاد كروتشي بأن التاريخ لا ينبغي أن يدونه إلا الفلاسفة ، وأن الفلسفة لا يجب أن يكتبها إلا المؤرخون . وانتشت حواسنا بخضرة الأرض ، وظل الأشجار الكثيفة الظليل ، وصفاء ماء البحيرة ، وضوء الشفق الذهبي عند الغروب ، وكانت أفكارنا تسبح مع الكتب التي كنا نقرأها ذلك الصيف بعد الأصيل .

(١) بومانوك Paumanok هو الاسم الهندي بخزيرة لونغ أيلاند ، وهي التي استخدمها الشاعر الأمريكي والت هويتان في قصيدته « أوراق الخشائش » (المترجم) .

قالت آرييل : ما أعظم سرورى بما تفعله الآن من دراسة التاريخ .
لقد أخذت أسام منطقك ونظرية معرفتك وميتافيزيقاك . التى انزعت منى
ما كنت أعرفه من قبل من حقائق بدلا من أن أتعلم منها حقائق جديدة .

فأجاب فيليب : ليس من الخير أن يسرف المرء فى تحصيل كثير من
الْحَقَائِقِ .

فقلت : لعل تلك الدراسات المملة جدية بشىء من الاعتبار ، ولو لم
تمنحنا أكثر من عادة التفكير الفلسفى : أعنى عادة البحث فى المسائل الكلية
الكبرى . وتطبيق النظرة الشاملة على أمورنا الصغيرة .

فقالت آرييل بابتسامة سمحة : أراك مغرماً بهذه العبارة : « النظرة
الشاملة » أليس كذلك ؟

فقلت : نعم أنا من أخلص الناس للنظرة الشاملة وأشدهم للتكامل حماسية ،
لأنى أريد رؤية الأشياء كلاً .

فقال فيليب بحماسة : حنا . ولكن هذا بالضبط ما لا يحفل المؤرخون
بعمله ، إذ فى إذهابهم بعض العقائد الدينية يرغبون فى إثباتها ، أو برنامج حزب
سياسى يودون إعلاء شأنه ، أو وهم وطنى يريدون فرضه . فهم لا يجسرون
على رؤية وطنهم ، أو حزبهم ، أو عقيدتهم ، فى ضوء النظرة الشاملة . إن
ثمانين فى المائة من جميع التاريخ المدون أشبه بالكتابات الهيروغليفيه ، فهو
موجود لتمجيد جلائل أعمال الملوك والكهنة .

وتساءلت آرييل قائلة : وحتى مؤرخنا المحبوب جيون يتحدث كثيراً
عن الملوك . ألا تظن ذلك ؟

فقلت : أجل : ومع ذلك فإنه يرسم لوحات عظيمة كلوحات ميخائيل
أنجلو ، ويؤلف موسيقى كألحان باخ . لذلك لن أبيع لنفسى سماع كلمة تسمى
إليه . هلا ذكرت وودرو ولس الذى عرّف التاريخ بأنه « سياسة الماضى » -
هذه سقطة أقدمها إليك . كما لو كان فى السياسة شىء تحفل الإنسانية بذكره .

قالت آرييل : لقد كانت الحكومة الصينية أكثر أمانة ، إذ ظلت مدى ستة وعشرين قرناً وإلى سنوات قليلة مضت تستأجر المؤرخين ليسجلوا لها فضائل وانتصارات الإمبراطورية ، ويزيفوا ذائلها وهزائمها .

فقال فيليب : هذا التاريخ المثالي يقدم لإذكاء الحماسة الوطنية بين تلاميذ المدارس ، ومع ذلك لم تكن الأمور في الصين القديمة أسوأ منها في أوروبا الحديثة . حقاً قدم لنا العصر الوسيط والنهضة والتنوير تواريخ عن العالم ، ولكن القرن التاسع عشر اكتشف الوطنية ، وأفسد جميع المؤرخين تقريباً . فقد كان تريتسكى ، وفون سيل ، وميشليه ، ومارتن ، وماكولى ، وجرين ، وبنكروفت ، وفسكه ، وطنيين أولاً ومؤرخين بعد ذلك ، وطنهم هو وطن الله ، وسائر العالم فيما عداه مملوء بالأوغاد والمتبريرين . وليس ثمة فرق كبير بين مثل هؤلاء الكتاب وبين محترفي السياسة الذين كانوا يصفون شعب جوتته بالهون ، وأهل شوبان بالبولاك ، وشعب اسينوزا باليهود المخادعين ، وأهل ليوناردو بالإيطاليين الأوباش . أصدق وصف لهؤلاء المؤرخين أنهم صحفيون يعملون لحساب السياسة لتجنيد ضباط للجيش والبحرية .

عندئذ تساءلت آرييل قائلة : من ذلك الذى اقترح أن يكمن إلغاء التاريخ لا المعاهدات أو التجارة أفضل طريق للسلام العالمى ؟ (١)

وتجاسرت فقلت : ولكن القرن العشرين ليس بأفضل من التاسع عشر . فلست أستسيغ هذا الأسلوب العصرى الذى يثبت أن جميع عظماء الرجال صغار ، وأن أهم صفاتهم الإسراف فى الحلف والكذب والشراب والحب . ولن أغفر لويلز أنه أنزل نابليو رقيصر إلى مستواه . فأنا متعلق بدينى الأخير ، وهو عبادة العطاء .

فقال فيليب : لست متفقاً وإياك ، فهؤلاء الكتاب للسير الذين يظهروننا على الجانب المعكوس من العبقرية ، أو يلتمسون فى قصيدة « الغراب » أو

(١) The "Drifter" in the Nation, New York, Sept. 13, 1922.

« مغامرات هكلبرى فن » (١) جميع عقده فرويد النفسية . متحيزون كأي كاتب
سيرة يطل بأسلوبه وجه الشخصية . وعلينا أن نجتمع بين هذين النوعين لننظر
بشيء من الحقيقة . وأقبح منهم أولئك مؤرخون من أساتذة الجامعات الذين
يفنون أعمالهم في إظهار عظمة الصغائر . ويكتبون رسائل تشبه في حداثتها
وعدم جدوها رسائل الدكتوراه في الفلسفة . انظر إليهم وهم يتجولون في
المكتبات حيث يقرون أنفسهم متخصصين في الدقائق . ويقفون أنفسهم في
صبر المل على جمع الحقائق من أجل الحقائق . يذفون أنفسهم في الوثائق
والإحصاءات . ويبرهنون نجد ودأب على صدق الصغائر صدقاً لاشك فيه .
إنهم يرون الأشجار ولا يحلمون أبداً بروية الغابات . ولا يخطر ببالهم أن الماضي
ميت . إلا بمقدار ما يعيش ويؤثر في أخلاق وغايات الناس اليوم . وأنه لا قيمة
للتاريخ إلا بمقدار ما ينير الحاضر . ويعين على توجيه المستقبل . إنهم المدرسون
في التاريخ . أصدق إخوة لأولئك الإيستولوجيين الذين تكرههم أشد
الكراهية . إنهم أشبه بعلماء الحياة الذين يقتلون الحشرة ويحفظونها في الكحول
ويشرحونها على مهل ويقطعون جهازها الخضمي . ثم يحسبون أنهم يدرسون
علم الحياة . أو هم كالسور الذي يخبىء في حجره . يعتكفون في معامل علم
النفس التجريبي ليبيّنوا بأقصى ما يمكن جمعه من المقاييس والرسوم البيانية
ومعاملات التغير ما عرفه كل إنسان عن السلوك البشري منذ آلاف السنين .

وابتسمت آرييل خماسته وصاحت : فليستقطوا جميعاً .

واقترحت قائلاً إنهم في حاجة إلى نسمة من ريح الفلسفة تحيي في أنفسهم

الإحساس بالجموع

قالت آرييل أجل . إنى أود أن أرى التاريخ كما تسميه متكاملًا .

وأود أن أعرف هل توجد فيه قوانين أو على الأقل دروس . وهل التقدم شيء
حقيقي أو ليس إلا وهمماً للبيدنا من أوهام عصرنا . وهل يستطيع الماضي هدايتنا

(١) قصيدة الغراب أفضل قصائد الشاعر الأمريكي إدجر آلان بو . ومغامرات هكلبرى فن

قصة تارك توين (المترجم)

كلما ألقينا بأنفسنا في أحضان المستقبل . لن أنسى عبارة قالها نابليون في أواخر حياته : « إني لأرجو أن يتعلم ابني التاريخ لأنه الفلسفة الوحيدة » . إني متأكدة أننا سنعرف من التاريخ إذا كتب كما ينبغي حقيقة الطبيعة البشرية معرفة أفضل من أى كتاب فى علم النفس والفلسفة فى العالم . إني أود معرفة الرجال كما عرفهم عظماء الحكام ، دون إسراف أو تقصير .

فقلت : هذه عبارة بديعة يا آرييل .

قال فيليب : حسناً . لم لا تفعل كما يقول كروتشى فنجمع بين الفلسفة والتاريخ ؟ فى عصرنا نوع من ضيق العقل وضآلته يجعلنا ندرى ما تعودنا تسميته « فلسفة التاريخ » . وكما أن الخطط الواسعة بعيدة المدى تختفى من صناعة الحكم التى تقتصر على السياسة فقط ، كذلك تختفى تلك القبضة الفلسفية القديمة التى نجدها عند جيون وفولتير من التاريخ المدون . الحق لقد أصبحت النظرة التركيبية بدعة قديمة .

فاعترضت قائلاً : قد يكون هذا نتيجة حيلة بصيرة ، فالتاريخ الفلسفى يعانى من الأمراض التى تنتاب كل تأمل : إذ يعم بسرعة سريعة . ويحجم الفكرة ويغالى فى تصويرها ، ويصوغ فى قانون أو فى عبارة الماضى كله .

ولم نمتنع تجاهل فيليب الذى قال : لولا الفلسفة لكان التاريخ مجرد نبش عن الوقائع ، يقيس الأمور بالبرجل والفرجار ، ويدس أنفه فى الماضى للماضى . ولولا التاريخ لأصبحت الفلسفة إبستمولوجيا ، أو قصراً يبنى فى الهواء . لا يصلح للناس من أهل الابتكار . ثم أشار بيده نحو الشفق فى السماء وقال : التاريخ هو الأرض التى يجب أن تقف الفلسفة عليها وهى تنسج سائر ألوان المعرفة فى نسيج واحد نثير ويحسن طريق الحياة الإنسانية .

فقلت آرييل : مرحى (برافو) فيليب .

ولم تكذ تهى كلامها حتى طلع النجم . وقطع الهلال السماء كالسيف الأحذب اللامع . وكنا قد تسلقنا تلاً صغيراً ، ووقفنا لحظة فى ذهول ، فلم نر قط القمر فى مثل هذا البياض . أو السماء فى مثل هذه الزرقة . ثم خيل إلينا

ننا نسمع أصواتاً هادئة تحت أقدامنا . ومددنا أبصارنا من خلال الغسق فرأينا حديقة غناء واسعة الأطراف . حسنة الزينة ، نخط وسطها جدول من الماء له خرير موسيقى متصل . وكان يجلس على الحشيش أو على مقاعد خشبية حول بركة من الرخام جماعة غريبة متباينة الزي من العطاء . كانوا يلبسون أزياء تمثل عصوراً مختلفة انقضت . ولكن بعض الوجوه كانت مألوفة لنا كما لو كنا نعرفهم منذ بدأت عقولنا تدرك .

وهمست آرييل : لا ريب أن هذا هو حيننا فولتير .

فقال فيليب — وهو عظيم التأثير : بحق حياتي . إنه فرد فرني^(١) Ferney المقدس .

فقلت : وهذا هو حميد حفيده أناتول فرانس . إنه أقصر مما كنت أظن قائم . ثم أى وجه إن نصف حكمة الدهور وسائر شفقتها تبدو في عينيه . وأخذنا نقلب النظر في الواحد بعد الآخر ، فعرفنا كثيراً منهم . نحت أسقفاً مهيباً يلبس شرائط متدلّية تناسب رتبته ، يجلس جلسة المتفكر ، وقد عقد يديه في حجره . إنه بوسويه الواعظ الحرىء في بلاط لويس الرابع عشر . ومعلم لويس الذى لقب يوماً ما بالملك المحبوب . وكان يجلس بالقرب من فولتير نبيل فرنسى ، فى زى عصر الإقطاع فيما أظن . وخيل إلى أنه مونتيني . وثمة رجل فى الأربعين مستغرق فى التفكير كان يبدو كالصور التى رأيتها عن باكل مؤرخ الحضارة .

وهمس فيليب يقول : يا إلهي هذا معلمى القديم ليستر وارد .

وذكرنى رجل ألماني قبيح الحلقة جاد الهية بهيجل . وبالقرب منه كان يجلس نيتشه بشاربه البارز وعينيه الوادعتين يلوك بين شفثيه حكماً قصيرة . وجلس فى ركن متواضع توماس كارليل حزيناً وحيداً لا يمكن أن يخطئه النظر .

(١) يسمى فولتير فيلسوف فرنى لأنه قضى العشرين السنة الأخيرة من حياته فى قرية بالقرب من جنوا تعرف بهذا الاسم ، وكتب من هناك نقداً اللاذعة ضد الحكومة الفرنسية والكنيسة والنبلاء والقساوسة وسائر الطبقات (المترجم)

إنه رجل ضخم الجثة، غزير شعر الحاجبين ذوعينين كعيني جندي وقع في الأسر . وكان يقف إلى جانب البركة رجل طويل لطيف السميت عرفت فيه ولیم جيمس ، فيه حيوية الأمريكي ومرح الفرنسي . وكان يقف أمامه وجهاً لوجه حتى تكاد لحيتهما تتلامسان وهما في مناقشة حامية كارل ماركس : ولكنه قصير أسمر جاد . وكان مع هذه الحلقة أربعة لا أعرفهم : ألماني طويل القامة من أهل العلم ، ومحام أمريكي ، وقاض فرنسي ، ونيل فرنسي .

وكان أناتول فرانس يتكلم بصوت كصوت الراهب ، ومرح يشبه مرشح مسيو بوجريه^(١) Bergeret . فتقدمنا يلنا الظلام الذي أخذ ينتشر سريعاً ، والتمسنا على مسمع منهم مقاعد فوق الحشيش ، وأنصتنا في صمت حتى لا يفوتنا من هذه المتعة الروحية شيء .

٣ - التفسير الديني للتاريخ

أناتول فرانس : إن أعظم كتبك يا عزيزي أرويه Arouet^(٢) هو ذلك الذي يحمل عنوان : « رسالة في أخلاق الشعوب وروحها ووقائع التاريخ الرئيسية منذ شارلمان حتى لويس الثالث عشر »^(٣) . لقد كان ذلك العنوان جديراً بهذه الدررة الثمينة الضخمة ، فقد أحدث انقلاباً عظيماً في كتابة التاريخ .

فولتير : لم أكن الأول ، فقد مهد الأسقف بوسويه الطريق بكتابة مؤلفه المسمى التاريخ العام^(٤) Histoire Universelle ، ولم يكن التاريخ قبل ذلك إلا مجرد حوليات chronicles . ولعل الأسقف يشرفنا فيتحيل أننا في بلاط لويس الرابع عشر ويلي علينا عظة صغيرة في موضوع التاريخ .

بوسويه : إنكم أيها السادة مجمع من الشكاك ، وإني لأخشى أن تضحكوا

(١) مسيو بوجريه هو الشخصية الرئيسية في قصص أناتول فرانس الأربعة (المترجم)

(٢) هو الاسم الأصلي لفولتير ، وفولتير هو تبديل حروف أرويه مع إضافة حرفين هما : ف ، ل ، V, L ، فشاع عنه واشتهر به (المترجم)

(٣) Essai sur les moeurs et l'esprit des nations et des principaux faits de

l'histoire depuis Charlemagne jusqu'à Louis XIII — 1756

(٤) التاريخ العام ، سنة ١٦٨١ .

من رجل عجوز يعتقد في الإله الأب. وفي التاريخ أنه مظهر للعناية الإلهية
لقد رغبت في تعليم ولي العهد Dauphin (١) معنى التاريخ ، فألفت له
كتاباً يصلح أن يكون لجميع الأمم والعصور بمثابة خريطة العالم بالنسبة للقارات
والبحار والدول . ذلك أتى رغبت في بيان كل جزء في صلته بالمجموع .

أناطول فرانس : لقد كان ذلك غرضاً بديعاً لو حقق لأصبح التاريخ فلسفة

كاملة .

بوسويه : كان التاريخ في نظري دراما الإرادة الإخية المقدسة . وكل
حادثة فيه هي درس من السماء تعلمه للإنسان . وقد حذرت لويس الخامس
عشر من الثورات . وأنها من تدبير الإله لتعلم الأمراء الخضوع .

أناطول فرانس : إنك تذكرني يا عزيزي الأستاذ . وأرجو أن تغفر لي
هذا القول . بيراندين الطيب تابع القديس بطرس حيث قال عن البطيخة :
« إنها مقسمة من الخارج إلى أقسام لأن الطبيعة قصدت إلى ذلك كي تكون
طعاماً للأسرة » . إني أؤكد لك أن تلميذك الملكي انقلب ندلاً لا يصلح لشيء .
فاتخذ محظيات كثيرة : وأذل الفقراء . ومع ذلك عاش حتى بلغ الشيخوخة .
أما خليفته لويس السادس عشر فكان رجلاً على تواضع واعتدال وفضيلة .
وبذل وسعه خدمة وطنه والوقوف في وجه الظلم والبؤس . ولكنه أعدم بالمتصلة
سنة ١٧٩٢ .

بوسويه : إن أعمال الرب فوق مداركنا . ومع ذلك علينا أن نشق بالله .

أناطول فرانس : ومع ذلك فإن ما أعجبنى في كتابك هو تفسير
الستينين لكثير من الغوامض . مثل خلق حواء . ونحن الشديدة التي نزلت
بشعب الله المختار . إني آسف حين أرى مقدار ما تبدد من العالم من معرفة
ويقين . ومقدار الأمور التي أصبحت غامضة وكانت من قبل واضحة . الحق
أننا لن نعرف قط مقدار ما كنا نعرف مرة أخرى .

(١) الدوفين لقب ولي العهد ووريث العرش في أسرة بوربون - ويعرف أكبر أبناء لويس

الرابع عشر . وولي العهد باسم الدوفين الأكبر Grand Dauphin . وهو دوق دي بورجوني (الترجم)

باكل : لقد تأثرت بمعرفة الأسقف بالتاريخ ، إذ اكتشفت عنده
التاريخ الصحيحة لمقتل هابيل ، والطوفان ، وبعثة إبراهيم (١) ، ولم أستطع أن
أجد في جميع مكتبي أى شىء مؤكّد عن هذه الأمور .

بوسويه : هذا شىء بسيط جداً يا بنى . إنى مؤمن بما جاء في الكتب
المقدسة من وحى ، إذ لا معرفة بلا إيمان .

كارليل : هذا محتمل يا سيدى ، محتمل جداً .

أناتول فرانس : ومع ذلك يا صاحب الفضيلة فنحن ندين لك بالشىء
الكثير . فقد أرجعت التاريخ لإرادة الله . ولكنك علمت تلميذك الذى لم يكن
يستحق تعليمك أن الإرادة الإلهية تنفذ في الغالب بوساطة أسباب ثانوية وطبيعية ،
واقترحت أنه يجب على المؤرخ بحث تلك الأسباب الثانوية التى حددت تتابع
الخصارات وتقلب الدول . إن وضع مسألة التاريخ الفلسفى بهذا الوضوح يعد
فضلاً كبيراً . وإن هى إلا خطوة واحدة لتلحق بخصمك اللامع فولتير .

فولتير : ولكنك تضيف إلى مرة أخرى شرفاً عظيماً ، لأننا ننسى فضائل
جيوفانو باتستا فيكو . إنى آسف لأنى لم أستطع زيارة إيطاليا فى شبابه وأتحدث
إلى هذا الإيطالى العالم : ولعل باكل يخبرنا شيئاً عنه .

باكل : إنه يقف فى منتصف الطريق . فى الزمن وفى النظريات ،
بينك وبين الأسقف . فقد كان يعترف بوجود عناية إلهية قادرة وخيرة .
ولكنه بعد أن قدم ذلك الاعتراف أمام المجمع المقدس شرع يبنى ما سماه « العلم
الجديد Scienza Nuova » (٢) على أساس أرضى خالص ، وتساءل لم لا يكون
ثمة علم للتاريخ كما يوجد فى الأمور الأخرى ورأى أنه قد يكون للمجتمعات
لفاسدة التى يظهر أنها لا تخضع لقانون . قوانين صادقة صدق قوانين نيوتن
على أكثر الحركات انحرافاً .

أناتول فرانس : واأسفاه على نيوتن المسكين . لا بد أن أخبره عن أينشتين .
ونكن تفضل فأكمل يا سيدى .

(١) Buckle, H.T., Introduction to the History of Civilisation, vol. i, p. 570.

(٢) Principles of a New Science, 1725

باكل : لقد بدأ لفيكو أن بعض الأحداث المنتظمة توجد بارزة في التاريخ . وذهب إلى أن جميع الثقافات تمر بمراحل ثلاث .

هيجل : مراحل ثلاث ؟ لقد كان من المهارة أن يسبقني على هذا النحو .

باكل : المرحلة الأولى هي الأهجية savagery . وتمتاز بوجود الشعور . ولا فكر فيها . والمرحلة الثانية البربرية barbarism وفيها خلقت المعرفة المتخيلة أمثال هوميروس ودانتي . وصنعت عصر الأبطال . والمرحلة الثالثة هي الحضارة وفيها تبتدع المعرفة الفكرية العلم والقانون والدولة . وكان فيكو يعتقد أن الإمبراطورية الرومانية شيدت أشمخ الحضارات . وكما أن البرابرة تغلبوا عليها بتسليط القوة الغشوم والجموع الغفيرة ضد رفاهية منحلة وسكان يتناقص عددهم ، كذلك مصير كل ثقافة في المستقبل أن ترتفع إلى مرتبة الفلسفة والشعر . ثم يخطمها أقوام بدائيون لم يفسدهم الإحساس والفكر . ورأى في السياسة تتابعا شبيهاً بذلك : فالبربرية تولد زعماء يصبحون طبقة أرستقراطية ، ثم يفضى استبداد الأرستقراطية وتطرفها إلى الثورة والديمقراطية . وتجلب فوضى الديمقراطية العديمة القيادة البربرية مرة أخرى . إن شعار التاريخ "da capo" أي « التاريخ يعيد نفسه » .

أناطول فرانس : جميع الفلاسفة تعلوهم مسحة من الكآبة . ولقد قلت دائماً إن التفكير بلية عظمى ، وكان القدماء يعدون القوة على اختراق حجب المستقبل أفكك هبة يمكن أن تمنح للإنسان (١) . وأنت نفسك يامسيو أرويه لم تكن مبهجاً في النتائج التي استخلصتها في آخر تاريخك العظيم .

قونتير : لقد كنت أبحث في مرحلة وحشية . فتغلغلت في المسرح الهائل للثورات التي شهدتها العالم منذ أيام شرممان . ترى إلى أي شيء كانت ترمي ؟ إنها كانت تتجه إلى الدمار وإلى فقدان ملايين الأرواح . فقد كانت كل حادثة كبيرة كارثة عظيمة . لعل هذا التفسير يرجع إلى خطأ المصادر التي اعتمدت عليها . إذ لم يكتب المؤرخون شيئاً عن أيام السلم والاستقرار ، ولم يرووا إلا أنواع

(١) M. Bergeret in Paris, p. 174.

الدمار والكوارث وبذلك لم يبد التاريخ لى إلا صورة للجريمة والبؤس . وكانت القوى المحركة للتاريخ هي الحرافات الباطلة ، والعادات البعيدة عن العقل ، والغزوات المفاجئة للقوة. الغشوم . وقلما كنت أجد أثراً للعقل البشرى في تسيير الحوادث ، بل على العكس كانت تبدو أصغر الأسباب وأتفهها هي صاحبة أعظم النتائج وأشدّها أسي ، والعناية الإلهية الوحيدة التي وجدتها هي « الحظ » (١).

باكل : لم يكن تلميذك تيرجو Turgot متشائماً هذا التشاؤم . فأنت تذكر أنه استعرض في المحاضرات المشهورة التي ألقاها في السوربون عام ١٧٥٠ تاريخاً للحضارة ، وأعلن إيمانه بتقدم العقل البشرى .

قولتير : يسعدني يا سيدي أن أسمعك تثنى عليه ، فقد كنت أحب ذلك الرجل ، وانفطر قلبي حين طرده الملك من وزارة المالية ، وخجل إلى منذ ذلك الوقت أننا فقدنا كل شيء . أما فكرة التقدم فقد كانت شائعة جداً في عصرى ، وأثارت بوجه خاص صديقى الشاب الماركيز دى كوندورسيه في الوقت الذي كانت الحضارة الفرنسية سائرة إلى الحراب . ولكن تيرجو كان على صواب ، فالتاريخ لا يمكن أن يطاق إلا حين يكون تسجيلاً للحضارة . والفلاسفة وحدهم هم الذين يجب أن يكتبوا التاريخ ، لأنهم يعرفون كيف يميزون بين التافه والحليل في المادة التي يشتغلون بها ، ويتجنبون التفاصيل التي لا تسفر عن شيء ، ومثلها من التاريخ مثل مهمات الجيش حمل ثقيل . إنهم سينظرون إلى الأمور نظرة واسعة . وليس تقدم التنوير العقلى والانتعاش المادى والسمو الأخلاقى مظاهر في تاريخ الأمة فقط ، بل هي التي تكوّن ذلك التاريخ ، أما سائر الأمور الأخرى فليس لها قيمة تاريخية حقيقية . اللهم إلا من جهة أنها تلقى ضوءاً على هذا التقدم الاقتصادى والعقلى والخلقى . من أجل ذلك كان غرضى من كتابة «رسالة في الأخلاق» Essai sur les Moeurs الكشف عن تاريخ العقل البشرى . كنت أرغب في معرفة الخطوات التي اجتازها الإنسان من البربرية إلى المدنية (٢) .

(١) Works of Voltaire, St. Hubert Guild, ed., vol. XVI, p. 133.

(٢) Pellissier, G., Voltaire Philosophe, p. 213 ; Morley, J., Voltaire, pp.

215, 223 ; Buckle, op. cit., vol. i, p. 580.

أنا تولى فرانس : نقد وصفت بالضبط . أميا المعلم . التاريخ المثاني . إني لمعجب بأخيل الذي أمكن أن ينتج كتابك «رسالة في الأخلاق» . و «روح الشرائع» لمنتسكيو ، والمجلدات البليغة لحيون . فأنتم جميعاً قد حررتم التاريخ من اللاهوت . وألقيتم به في أيدي الفلسفة والعلم . ونحن أتأمل كيف أن جنسنا المكون من فرقة متفلسفين قد ارتقى أربع مرات صوب لحكمة والمدنية - حين أعود بالذكر إلى عصر سقراط . وعصر هوراس . وعصر رابليه ، وعصرك أنت يا سيدي الذي يجب أن يسمى دائماً باسمك - أتغزى بعض الشيء عن الحروب والإخرايم وألوان البؤس والمظالم الموجودة في التاريخ .

الحق أن ما يسوغ وجود الجنس البشري هو ما فيه من عطاء .

٣ - التفسير الجغرافي للتاريخ

باكل : إني مسرور يا سيدي أنك ذكرت منتسكيو . لأننا إلى هذا الوقت لم نتحدث إلا عن منهج كتابة التاريخ . ولم ننظر في الأسباب التي يجب أن نعزو إليها عظمة الدول وتدهورها . فبعد أن انتقلنا بمرکز التاريخ من السماء إلى الأرض . ومن الملوك إلى الإنسانية . ومن الحرب إلى الحضارة . بقي أن نسأل عن العوامل التي تحدد التاريخ . أهى ، كما بدا من ملاحظتك الأخيرة : عبقرية عطاء الرجال ؟ - أو قوة المعرفة المتجمعة ؟ - أو اختراعات العلماء ورجال الصناعة ؟ - أو دماء الأجناس الراقية ؟ - أو ظروف الإنتاج والتوزيع الاقتصاديين ؟ - أو خصائص الجو . والأرض . والظروف الجغرافية ؟ إن منتسكيو هو الخليق بأن يكون أول الباحثين عن الأسباب النوعية لعظمة الدول وأمبيارها .

منتسكيو : ما أكرمك حين ذكرتني . وإني لأخشى يا مستر باكل أن يذكرني أهل وطنك أكثر مما يذكرني أهل بلدي . وحتى قولتير الذي كان يمكن أن يكون عظيم الكرم لم يعن كثيراً بكتبي .

قولتير : من العسير على ياسيدي حتى اليوم أن أغفر لك إشراق «الخطابات الفارسية» «Lettres Persanes» . وسعة اطلاع «روح الشرائع» «L'Esprit des Lois» .

منتسكيو : إني لأعرف أن العطاء يتصرفون دائماً بعضهم إزاء بعض كالصغار . وقد وصف المعاصرون لي أول وثاني مؤلفاتي - « الخطابات الفارسية » و « نظرات في أسباب عظمة الرومان وتأخرهم » بأنهما : « عظمة منتسكيو وتأخره » . كانوا يحبون السخرية أكثر من الفلسفة . وقد دعوت فونتيل وهلفتيوس وغيرهما من الأصدقاء المثقفين إلى لا بريد La Brède حيث كنت أعيش لنستمع إلى بعض فصول « روح الشرائع » ذلك الكتاب الذي عكفت على تأليفه في عشرين عاماً . وكانوا مجتمعين على نصيحتي ألا أطبع الكتاب .. حملة القول لقد كنت ذائع الصيت في إنجلترا .

باكل : إني أعد « روح الشرائع » أعظم إنتاج أدبي فرنسي في القرن الثامن عشر . فأنت أول من بين ألا حساب للشخصيات في التاريخ ، وأن الأحداث المنعزلة - حتى المعارك العظيمة مثل فيليبي وأكتيوم - ليست هي أسباب نهضة الدول وسقوطها . لقد علمتنا أن عطاء الأفراد ، والأحداث العظمى ليست إلا رموزاً ونتائج لعمليات شاسعة وبقية ، وأن بعض هذه العمليات يبلغ من البعد عن التأثير الشخصي مبلغ شكل الأرض أو حرارة الجو . منتسكيو : في القرن الرابع قبل المسيح كتب أبقراط كتاباً اسمه : « الأهمية والمياه والأماكن » تكلم فيه بإيجاز عن أثر البيئة الجغرافية في تكوين السكان الطبيعي ، وتكوين الدول القانوني . وقد أرجع أرسطو نجاح الإغريق ، بل وامتيازهم العقلي ، إلى مناخهم « المتوسط » - ولو أنني لا أظن أننا يجب أن نستعمل هذا الاصطلاح في وصف جو أثينا .

أناطول فرانس : هناك شخص آخر يا سيدتي ممن سبقوك في هذا الميدان ، وهو بودان Bodin . الذي كتب في القرن السادس عشر عن العلاقات بين الجغرافيا وبين الشجاعة ، والذكاء ، والحصل ، والأخلاق . وحتى العذارى يختلفن باختلاف خطوط العرض .

منتسكيو : لا ريب أنه من الخطأ افتراض أنني أود إرجاع التاريخ للجغرافيا ، فقد ثبت أن ثمة أسباباً متعددة تحدد الحوادث بتعدد الدول . ففي بعضها تؤثر القوانين . وفي بعضها الآخر الدين . وفي بعضها الثالث التقاليد

والأخلاق ، وفي غيرها أيضاً الطبيعة والمناخ ، وهذان يتحكما فقط في الهمج ، على حين حكمت التقاليد الصينيين ، والقوانين اليابانيين ، والأخلاق أهل إسبرطة . أما مبادئ الحكم وبساطة العوائد القديمة فقد صاغت لعدة أجيال أخلاق الرومان (١) .

باكل : ولكن ما أثار اهتمامي في كتابك يا سيدي أكثر من أي شيء آخر هو مناقشتك العلاقة بين المناخ والتاريخ .

منتسكيو : أعترف أن الموضوع أثار اهتمامي كذلك ، وأعتقد أن الفوارق في الخلق والمزاج التي تؤثر أثراً عظيماً في مصير الشعوب يرجع شطر كبير منها إلى أثر المناخ ، ففي المناطق الباردة مثلاً يميل الناس إلى النشاط على حين أنهم يميلون في المناطق الاستوائية إلى الكسل . وهذا شيء بديهي ، ومع ذلك فانظر كم أثر من نتائج . ويعتقد الهندوس أن السكون والعدم هما أساس جميع الأشياء ، والغاية المثلى التي تنتهي إليها ، ولذلك يعدون عدم الحركة أكمل جميع الأحوال وغاية آمالهم . وعندهم أن الكسل هو الخير الأسمى ، ويكون في نظرهم جوهر الجنة بالذات ، أما الحرارة على العكس فهي العنصر الأساسي في تصورهم للنار . وأصبح الكسل في كل مكان نتيجة لهذا النظر القديم دليلاً على منزلة عالية ، حتى إن أولئك الذين لا يعملون يعتبرون أنفسهم سادة الذين يعملون . ويترك كثير من الناس في بقاع كثيرة أظافرهم تطول وتنمو حتى يظهر لكل امرئ أنهم لا يعملون (٢) .

أناتول فرانس : لقد كانت الكعوب العالية في فرنسا تحقق الغرض نفسه عندنا ، إلى أن أدى التمسك بالزهو على مر الزمن إلى شيوعها .

منتسكيو : ولماذا يبدو أن الشعوب الجنوبية مقدور عليها شعباً بعد شعب أن تغزوها القبائل الشمالية ، إلا أن يكون ذلك بسبب أن الشمال يبعث القوة والجنوب يثير الأعصاب ؟ فالعبيد يجيئون من الجنوب ، والسادة من الشمال . وقد خضعت آسيا لبرابرة الشمال إحدى عشرة مرة .

(١) Spirit of Laws, vol. i, p. 294.

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٢٥ : ٢٩٦ .

قولتير : لعلك تعرف يا سيدى أن لفظة « عبد » Slave مشتقة من لفظة « سلاف » Slav ، وهذا يرجع إلى الزمن الذى كانت الكنيسة المقدسة تنهى عن استعباد المسيحيين . ولم يكن السلاف قد تحولوا إلى المسيحية بعد ، وكان من الممكن أسرهم وبيعهم بضمير مستريح ، ومن هذا الباب جاء أن تلك اللفظة التى كانت تدل على المحد أصبحت تفيد العبودية . وقد تمكن أن يستثنى هؤلاء العبيد الشماليون من قاعدتك ، ولكنه ليس استثناء أساسياً .

منتسكيو : شكراً لك على تصحيح خطئى : ولكنى أفهم يا مستر باكل أنك أنت نفسك قد درست صلة المناخ بالتاريخ دراسة متفيدة .

باكل : لم أكن أستطيع التوسع فى الدرس يا سيدى ، لأنى حينما ولدت كنت بين الحياة والموت ، وظللت طول عهد الطفولة واهناً لا أستطيع مشاركة غيرى من الأطفال فى اللعب ، ولم أعرف خلال الأربعين عاماً التى عشتها يوماً يخلو من المرض والألم ، وأصبت بضعف البصر حتى إن والدتى التى لم تكن تحفل بمواهب العصر ، علمتنى شغل الإبرة بدلا من القراءة ، ولم أعرف الأبجدية حتى سن الثامنة .

كارليل : صه ، صه : أيها الرجل ، فكلنا يعرف أنك كنت فى الأربعين أعلم قزم فى إنجلترا . وأخبرنى همكسلى أنك لا تستطيع حمل رأسك مرفوعاً : من كثرة ما كانت تحمله ، فكنت تعرف اللغات الفرنسية والألمانية والدانماركية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية ، والهولندية ، والوالية ، والفلمنكية ، والسويدية ، والأيسلاندية ، والفريزية ، والمايورية ، والروسية ، والعبرية ، واللاتينية والإغريقية ، وكنت تكتب الإنجليزية . وسمعت دارون يقول فى أحد محالسه عن تطور القردة إن أسلوبك أروع ما قرأ على الإطلاق . لست أدرى . ولكن هوامشك أعجبتنى .

باكل : كنت أحلم بكتابة تاريخ كامل للمحضارة فى إنجلترا ، إلا أنى بعد عشرين عاماً من العمل فيه لم أكتب إلا المقدمة التى استوعبت أربعة مجلدات . ثم ماتت أمى ولم أستطع أن أكتب شيئاً بعد ذلك . ولعلنى لو كنت رجلاً قوياً لاستطعت أن أتم شيئاً .

منتسكيو : ألا تخبرنا عن نتائجك ؟

باكل : لا بد أنك تعرف يا سيدى أن الاقتصادى البلجيكى كويتليه Quetelet بين انتظاماً إحصائياً مدهشاً فى هذه الأعمال الإرادية فى الظاهر مثل الزواج ، وفى أمور عرضية تعد من التوافه مثل وضع رسائل بدون عنوان فى صناديق البريد . وقد استخلصت من هذه الإحصاءات وغيرها مما يماثلها أن السلوك البشرى ولو أنه يبدو حراً حين ننظر إليه بالتفصيل ، إلا أنه يتضح حين ننظر إليه فى الجملة محدوداً بقوى تخرج عن إرادة الفرد . ففى الخضم العظيم للأمور الإنسانية ليس للخصائص الفردية حساب ، وليس للمؤرخ أن يشتغل بها . وليس التقدم ثمرة عطاء الأفراد ، بل نتيجة تجمع المعرفة وانتقالها . وقد لاحظت أنه لا يوجد تقدم فى الأخلاق ، ولا تحسن من عصر إلى آخر فى دوافع الإنسان ومشاعره ، بل العلم الطبيعى وحده هو الذى ينمو ، وهو الذى يغير رويداً رويداً من وجه الأرض (١) .

منتسكيو : هذه نتيجة معقولة جداً ، وقد سمعت ذات مرة فونتنيل العجوز يقول شيئاً شديداً الشبه بهذا (٢) .

باكل : إني مهتم مثلك يا سيدى بأثر الجغرافيا فى التاريخ . فقد أثر المناخ والطعام والأرض والمظهر العام للطبيعة فى حياة كل جنس من الأجناس . وغلبت عظمة المناظر الطبيعية فى الهند على عقل الهندوس وشجاعاتهم ، وجنحت بهم نحو الخرافة والعبادة . أما مناظر أوربا الأكثر بساطة فلم تبعث فى الناس الخوف ، ويسرت نمو ميلهم إلى السيطرة على الطبيعة بدلا من عبادتها (٣) .

أناطول فرانس : من الواضح أنك لم تعبر قط المحيط الأطلسى يا مستر باكل . ويوجد بين المتبربرين الذين يسكنون الآن شمال أمريكا تقدم لم يسبق من قبل فى العلم الطبيعى والتطبيعى يسير جنبا إلى جنب مع جنوح شديد للتقوى . كان يجب أن تهتم بالأمريكان يا مستر باكل .

(١) Buckle, vol. i, p. 593

(٢) Nordau, M., Interpretation of History, p. 286.

(٣) Buckle, vol. I, pp. 29, 47.

باكل : لم أجد عندي فسحة من الوقت ، كما لم تشجعت كثيراً تقارير
المستر ديكنز . ومع ذلك فقد درست تاريخ أمريكا بعناية ، واكتشفت في
في نصف الكرة الأرضية الغربي مزيجاً خاصاً من الظروف الجغرافية ، ففي شمال
المكسيك يتنازل الشاطئ الغربي بحرارة خالية من الرطوبة ، والشاطئ الشرقي
برطوبة خالو من الحرارة . ولذلك انحصرت الخضارة الأمريكية قبل كولومبس
بوجه خاص في المكسيك ووسط أمريكا ، إذ في هذا الشريط الضيق من الأرض
فقط وجدت في النصف الغربي من الكرة الأرضية تلك الوحدة بين الرطوبة
والحرارة الضرورية للنبات والحيوان والإنسان . وفيما بعد أخذت هجرة الأوربيين
وإدخال المحترعات والإكثار منها تقلل من اعتماد الإنسان على الظروف الطبيعية (١)

منتسكيو : أتقصر التأويل الجغرافي إذن على المراحل الأولى في تاريخ الشعوب؟

باكل : كلما ازدادت سيطرة الإنسان على البيئة فقدت الظروف الموضوعية
والطبيعية قوتها أكثر فأكثر على تحديد الحوادث (٢) .

وليم جيس : يسرني أن أسمعك تقول ذلك أيها الرجل الشيخ ، فقد
تضايقت بعض الشيء خشية أن تردنا جميعاً لخطوط الطول والعرض . ولكن
سيئد لك أن تعلم أن التفسير الجغرافي للتاريخ قد طبق حتى على الدول المتقدمة
بوساطة أهر فريدريك راتزل الذي كان ينصت في تواضع هذه المناقشة .

باكل : إني شغف لسماح أحدث المباحث تقدماً .

راتزل : إن الفيلسوف الأمريكي العظيم يغالي في أهميتي . لأن بحثي لم يكن
إلا جزءاً صغيراً من الدراسة الجغرافية في زمانى . واتقد كان ريتز ، وكول ،
وبيشل . وريكوس Réclus أساتذة هذا الميدان . بل في وطنك أنت
يا مستر جيس قام لأستاذ هنتنجتون بأروع المباحث .

باكل : أخيراً يا مستر راتزل عما وجدته .

راتزل : يمكن أن نعدل بعض الشيء النتائج التي انتهيت إليها وكذلك

(١) المرجع السابق ص ٧٠ . ٢٥

(٢) المرجع السابق ص ٣٣

ما انتهى إليه منتسكيو بصدد المناخ ، إذ لا ترجع صعوبة الحياة في المناطق الإستوائية إلى الحرارة بمقدار ما ترجع إلى المخاطر ، كالزلازل والأوبئة والزوابع والوحوش والحشرات . أما في البلاد نصف الاستوائية فالحرارة نافعة ، إذ تؤدي إلى المعيشة خارج الدور ، وإلى الحياة الاجتماعية ، وإلى رغبة جنسية قوية وما يتبع ذلك من ميل إلى الفن والثقافة . أما في الشمال الأكثر برودة فإن الدأب على الصناعة والانغماس في العمل للطبقة الغالبة . - إذا حتى لي هذا التعبير - ولذة النشاط والعمل والكسب ، كل ذلك يفضي إلى نمو العلم أكثر من الفن ، وإلى الثراء لا الفراغ . هنا إلى أن الحياة داخل الدور تقود إلى ضرب من التحفظ البعيد عن الروح الاجتماعية ، كما يثمر التنافس النشط نوعاً من الفردية الشديدة .

ماركس : سأبين لكم فيما بعد أن سائر هذه النتائج التي تغزونها للمناخ هي ثمرة التغيرات الاقتصادية .

باكل : فلتمض يا أستاذ في حديثك ، حتى لو كنت لا تحب إنجلترا كثيراً .

راتزل : قد يحدد المناخ القوام أو السحنة ، ويقرر كثير من الباحثين أن الأمريكان أخذون في اكتساب بشرة نحاسية اللون أشبه بالهنود الذين حلوا محلهم . وقد بين الأستاذ بوس Boas أن مناخ أمريكا يتجه - بصرف النظر عن اختلاط الزواج - إلى تقصير قامة نسل المهاجرين الطوال ، وإطالة قامة المنحدرين من المهاجرين القصار . على حين أن (بغير اختلاط الزواج أيضاً) تباين هيئة المهاجرين ينتهي إلى التوحد كلما قلت الهجرة . أما البروفسور هنتنجدون متابعاً مباحث الأمير كروبتكن

أناطول فرانس : هذا القديس الفوضوي ، لقد عرفته حق المعرفة .

راتزل : لقد بين البروفسور هنتنجدون أن كمية المطر قد تقرر مصير الأمة . فأحواض البحيرات الخافتة تكشف عن أسرار الهجرات الشاسعة ، وتنتقل المواسم دورياً في آسيا من المطر إلى الجفاف ، وتنتعش الحضارات وتموت .

وليم جيمس : لا ريب أنها مهمة لطيفة إذا أمكن تتبع الهجرات الكبرى

والغزوات والامبراطوريات التي عرفها التاريخ ، وإرجاعها آخر الأمر إلى ظهور دورات خاصة في بقاء الشمس .

راتزل : كل شيء ممكن . انظر إلى تأثير الأنهار ؛ فالنيل والكنج ، واخوانجهو واليانج تسي ، والدجلة والفرات ، والتير والبو والدانوب والإلب ، والسين والتامير ، والهدسون وسانت لورانس ، والأوهيو والمسيسيبي ، لقد قامت على شواطئها الحصبة مهد جميع الحضارات تقريباً . ثم الدانوب - آه أيها السادة لو استطاع أن يتكلم الدانوب الأزرق ، فكم من قصة يرويها عن آلاف الشعوب المتباينة التي تبعت مع مياهه من آسيا الحدية الميتة إلى حقول أوروبا التي كانت عندئذ قليلة السكان . ولو كانت أنهار روسيا تجري نحو الشمال لا الجنوب أفطن أن روسيا كانت تتطلع هذا التطلع إلى القسطنطينية ، تحارب من أجلها حرباً إثر حرب ؛ ثم لأن أنهار روسيا تصب في البحر الأسود وبحر قزوين ، خلق الدينير منها أمة بيزنطية ، وجعل نهر الفولجا منها أمة أسيوية . وظلت روسيا كذلك حتى أنشأ بطرس مدينة سانت بطرسبرج ، وفتح النيفا Neva للملاحة فأتجهت روسيا غرباً وأخذت تصبح جزءاً من أوروبا (١) .

باكل : هذا شيء بديع للغاية أيها الأستاذ ، فلتنص في حديثك .

راتزل : انظر إلى الدور الذي لعبته الشواطئ في التاريخ ، فقد ربط البحر الأبيض المتوسط عدداً من الحضارات إلى مياهه إلى أن قاد المحيط الأطلسي أوروبا إلى أمريكا وغير جميع طرق التجارة .

هيجل : لقد لاحظت في كتابي « فلسفة التاريخ » ، الذي لم يذكره أحد حتى الآن . أن تاريخ القدماء لا يمكن أن يفهم بغير البحر الأبيض ، إذ يكون ذلك أشبه بروما أو أثينا في القديم بدون الساحة (فورم Forum) التي كانت تتجمع فيها سائر حياة المدينة (٢) .

راتزل : إنني أذكر هذه الفقرة جيداً . يا هر دكتور . فالشاطئ الممتاز

(١) Semple, E.C., Influence of Geographic Environment, p. 348.

(٢) Hegel, G.F.W., Philosophy of History, p. 87.

وبجانبه آلاف الجزر هياً لليونان طريقاً مائياً لفارس وللشرق . وجعلها محور التجارة في البحر الأبيض . كما أن انخفاض نسبة الساحل إلى مساحة الأرض أحر تقدم الثروة في آسيا لما كان له من أثر في إعاقة التبادل . وفي أفريقيا الآن ظرف شبيه بذلك . بل إن الولايات المتحدة لاتساع رقعة أرضها بين المحيطين قد كان يمكن أن تبقى دولة متأخرة لولا أن المكك الحديدية قربت جميع المناطق الداخلية من البحر .

اناتون فرانس : في أثناء الحرب الكبرى ، يا دكتور ، حاربت روسيا من أجل ميناء على البلطيق ، وألمانيا للحصول على مصب الرين ، وفرنسا لتضع يدها على الرين كله ، والنمسا لتستولي على تريستا وفيومي ، وإنجلترا لتأخذ جميع العالم ، وأمريكا في سبيل الديمقراطية . ومع ذلك فأنا أميل إلى الظن أنك تغالى في قيمة الدور الذى تلعبه الجغرافيا . إن ما فعلته يا سيدى الفاضل هو أنك جعلت بعض مظاهر الماضى التى تسمح بأن تندرج تحت الجغرافيا . ولكن ثمة مظاهر أخرى كثيرة لا تقل عنها أهمية ، وإني لأخشى ألا تخضع حياة ومصائر الشعوب لقانونك . ذلك أن الدول العظمى تكاد تكون قد ظهرت في كل مكان على وجه الأرض ، وكان لها مع اختلاف مناخها ارتفاعات وانخفاضات متشابهة من الازدهار والانحلال .

راتزل : لا تسينوا فهمى أيها السادة . فليس قصدى تفسير كل شيء في التاريخ بالجغرافيا . بل كل ما في الأمر أنني أفسر بعض ظواهره فقط .

وليم جيسس : إنك شديد التواضع يا دكتور . فقد كان أحد كبار الأساتذة الأمريكان يقول « هناك حركة في التاريخ تبدأ قوية ثم تضعف فيما يتعلق بالأثر النسبي للبيئة الطبيعية » (١) .

باكل : يجب أن أقول إن هذا صحيح ، فالجغرافيا تقدم ظروفاً محددة . ولكنها قلما تهب قوى حاسمة . إنها دائرة مسحورة تعمل القوى الأخرى داخلها على رفع الأمة إلى مصاف الزعامة أو خفضها إلى الفناء . مثال ذلك أن تغير

(١) Sumner, W.G., Folkways, p. 53.

تيار الخليج قد يجلب الخراب لإنجلترا . ولكن ليس تيار الخليج هو الذي جعل إنجلترا عظيمة . فالعوامل المحددة في جميع الحضارات الراقية هي عوامل اقتصادية أو عقلية .

قولتير : هذه نتيجة معقولة جداً . فقد كنت أقول دائماً إن الإنجليز قوم معقولون . وهذه هي النقطة الوحيدة التي أتفق فيها مع منتسكيو .
نيتشه : اعلما مخطئان أنما الأثنان .

٤ - التفسير الجنسي للتاريخ

أفاتول فرانس : لعله كان يجدر بك يا مستر باكل أن تقول إن العوامل المحددة هي إما اقتصادية أو عقلية أو جنسية racial . ففي زمانى كان عدد كبير من الباحثين يرجعون ارتفاع الأمم وسقوطها إلى الجنس . وبهذا الطريق أمكن للأساتذة أن يصبحوا علماء ووطنيين في آن واحد . أما الكونت جوينو فهو استثناء من هذه القاعدة : إذ لم يكن أستاذاً ولا كان وطنياً .

جوينو : عندما كنت يا سيدى في العاشرة فقط من عمرك ، نشرت كتاباً بعنوان « تفاوت أجناس البشر » شرحت فيه اعتقادى بأن كل شيء في طريق الاختراع الإنساني كالعلم والفن والحضارة - أى كل ما كان عظيماً وشريفاً وناجحاً على وجه الأرض - يشير إلى أصل واحد ، ويتفرع عن جنس واحد : هو الجنس التيوتوني . وأكبر الظن أن هذا الفرع العظيم من الأسرة الإنسانية يرجع إلى أصل يختلف تمام الاختلاف عن الجنس الأصفر والأسود . فقد نشأ عنه نسل خاص من الناس حكمت فروعه المختلفة كل منطقة متحضرة في العالم (١) . إنه الجنس الذي يفسر التاريخ . أو كما يقول صديق الشاب الهرنيتشه : تحتاج الزعامة إلى الدم لا العقل .

نيتشه : إني معجب بك كثيراً . أيتها الكونت جوينو . ولكن لا شأن لي بخدعة الجنس . لأنني وجدت دماء نقية في كل جنس . ولعلها أفضل في عروق صاحب الجدول بالبندقية منها في الأستاذ برلين (٢) .

(١) Todd, A.J., Theories of Social Progress, p. 275.

(٢) Salter, W., Nietzsche the Thinker, p. 469.

أناطول فرانس : لم يضق الإنجليز والألمان يا عزيزي الكونت بنظريتك .
فهذا البرفسور فريمان Freeman أسرع إلى اعتناقها ، واصطنعها البرفسور
توتشكي Treitschke جديلاً ، وسلم الدكتور برناردى بأن الألمان أعظم
شعب متحضر عرفه التاريخ . أما المستر تشمبرلين الذى هجر إنجلترا ليصبح
ألمانياً ، فقد ألف كتاباً ضخماً سماه « أسس القرن التاسع عشر » أثبت فيه أن :
« التاريخ الصحيح يبدأ من اللحظة التى قبض فيها الألمان بيد قوية على ميراث
القدماء » . وإني لأزعم أن الذين خلقوا ذلك الميراث لم يصنعوا التاريخ . وكان
مستر تشمبرلين يعتقد أن العبقريّة إذا ظهرت فى إنسان فهذا دليل على الدم
التوتونى ، وقد لفت نظره وجه دائى لما فيه من ملامح جرمانية . وظن أنه
سمع لهجة ألمانية لا شك فيها فى رسالة القديس بولس إلى أهل غلاطية . ومع
أنه لم يكن متأكداً تمام التأكد من أن المسيح ألماني إلا أنه كان على ثقة أن كل
من يزعم أن المسيح كان يهودياً فهو إما جاهل أو مخادع (١) . وطبق ريتشارد
فاجنر هذه النظرية على الموسيقى . وبعد أن قاسى من الفقر خمسين عاماً اكتشف
هذا البربرى العظيم أنه باصطناع التفسير التوتونى للتاريخ والرجوع إلى تقوى
طفولته قد يمكن إقناع الطبقة الأرستقراطية فى وطنه بدفع قوائم ديونه فى بايرويت
Bayreuth (٢)

نيتشه : كنت أحبه كثيراً ؛ ولكنك سى حتى فقد كان مهرجا .
أناطول فرانس : هذا شأن كل عبقرى ، ولولا شىء من الدجل لمات
العبقرى جوعاً ، وهو دجل لازم بوجه خاص فى البلاد الديمقراطية .

وليم جيمس : كان روح العصر « Zeitgeist » فى جانب نظرية
الجنس فى أيامنا وكان جالتون يرد العبقريّة للميراث ، وأخذ علم الأجنّة يشن
حملة يطالب بأطفال أرستقراطيين ، وأحيا ما كس مولر فقه اللغة بنظريته عن
الجنس الآرى الذى جاء من الهند وحكم أوربا ، و« أثبت » فايسمان (أنهم

(١) In Todd, p. 276.

(٢) بايرويت مدينة فى سكسونيا عاش فيها فاجنر فى أواخر حياته ، وأنشأ فيها مسرحه

للأوبرا (المترجم)

يثبتون كثيراً من الأمور في العلم - لمدة يوم واحد) أن الجرثومة الحية Germ-plasm محتفية بإحكام في بعض أعضاء الإنسان الداخلية ، وأنها محصنة ضد كل تأثير من البيئة . كان علماء الحياة يراهنون على الوراثة ، أما المؤرخون فيراهنون على الجنس .

أنا تولى فرانس : لعلكم لا تعلمون أيها السادة أن ماديسون جرانت الذي لم يكذب يصل إلينا من نيويورك حجة في هذا الموضوع . وقد رأيت وأنا كبير السن نسخة من كتابه « زوال الجنس العظيم » The Passing of the Great Race وظننت أنه يعنى الفرنسيين ، فلما تبين لي أنه يقصد الألمان والإنجليز انتهيت إلى أنه ليس من الضروري أن أمضى في القراءة لأعلم أنه مخطيء .

قولتير : أخبرنا عن آرائك يا مستر جرانت . ولا تنزعج إذا كان أنا تولى فرانس لا يوافقك عليها ، فهناك دائماً احتمال بسيط أننا نحن الفرنسيين مخطئون ، وأن بقية العالم على صواب .

جرانت : تختلف نظريتي عن نظرية تشمبرلين ، أو عن نظرية جويينو . فأنا أرفض الجنس « التيوتوني » باعتبار أنه خليط من أجناس مختلفة لم تمتزج بعد لتكون وحدة . ولذلك أقصر حجتي على ما أسميه الجنس الشمالي Nordic ، الذي يظهر بوضوح في أيا مانا هذه في أولئك الألمان المنحدرين من أصل بلطقي ، وفي أولئك الإنجليز والأمريكان المنحدرين من نسل الأنجلوساكسون . غير أن هذه سلالات متنوعة حديثة ، أما الجنس فقديم قدم التاريخ . فالشاليون يظهر أولاً أنهم السكاي Sacae الذين أدخلوا اللغة السنسكريتية إلى الهند ، وكانوا غزاة من البيض انحدروا من الشمال ، واخترعوا نظام الطبقات لتحريم الزواج من غيرهم حتى لا يهبطوا بمستوى نوعهم . ولفظة « طبقة Caste » تعنى اللون ، ووظيفتها حيوية لا اقتصادية . وغايتها حماية الدم لا احتكار الثروة .

ثم نجد بعد ذلك من الجنس الشمالي السيميريين Cimmerians⁽¹⁾ الذين تدفقوا من القوقاز إلى فارس ، والآخيين ، والفرجيين ، والدوريين الذين غزوا

(1) السيميري قبيلة تزعم الحرافات أنها كانت تعيش في ظلام دائم (المترجم)

آسيا الصغرى واليونان ؛ والأومبريين والأوسكان الذين اجتاحتها إيطاليا . وحيثما ذهبوا فهم رجال الحرب . والمغامرين ، ورواد البحار ، وقرصان الشمال Vikings (١) . والحكام . والمديرين ، والمنظمين ، وهم مختلفون اختلافاً عظيماً عن الأجناس الأوربية الأخرى – الجنس الألبى الهادىء المسلم ، وجنس البحر الأبيض الوجدانى ، ذى المزاج الحاد ، القلق ، والكسول (٢) . وهذا التباين أوضح فى إيطاليا ، فالإيطاليون الجنوبيون ، وهم من جنس البحر الأبيض ، منحدرون فى الغالب من أنواع العبيد من كل جنس ، وعلى الأخص من البلاد الجنوبية والشرقية حيث استوردتهم الرومان أيام الإمبراطورية للعمل فى مزارعهم الواسعة . أما الإيطاليون الشماليون فهم من جنس أرقى لأنهم فى الأغلب من نسل الغزاة الألمان من زمان قيصر إلى شرلمان ، وهؤلاء القوم هم الذين أحدثوا النهضة فى فلورنسا ، ثم حملوها معهم إلى روما . لقد كان دانتى ، ورفائيل ، وتيتيان ، وميخائيل أنجلو ، وليوناردو دافنشى ، من الجنس الشمالى (٣) . أما فى اليونان فقد تزوج الآخيون الشماليون بالسكان الذين انتصروا عليهم ، فأنجبوا الأثينيين اللامعين البارعين أصحاب عصر بركليس .

أنا تولى فرانس : لقد كان الآخيون فى غاية الإهمال حين تزوجوا على ذلك النحو ، ألا تظن ذلك ؟

قولتير : لا تحفل به ، وامنض فى حديثك فنظرياتك خلافة .

جرائت : وكان تزوج الدوريين أقل ، وأصبحوا الإسبرطين ، وهم جنس شمالى محارب حكم طبقة العبيد helots من البحر الأبيض . وكان أهل الطبقة الراقية فى الإغريق ذوى شعر أشقر ، أما الطبقات الدنيا فشعورهم سوداء . ويكاد جميع آلهة أولمبوس بصورون شقراً ، ومن العسير أن نتخيل فناً إغريقياً يرسم فينوس داكنة الشعر . وفى جميع صور الكنيسة اليوم يظهر جميع الملائكة شقراً ، بينما سكان المناطق الأدنى بصورون بلون شديد الداكنة . وتجد

(١) الشيكنج قرصان من الشمال كان ينبغ غرب أوروبا فى العصر الوسيط (المترجم)

(٢) Grant, M., the Passing of the Great Race, pp. 155, 158.

(٣) المرجع السابق ص ٦٥ ، ١٩١ .

في كثير من الأقمشة المزركشة القديمة صورة سيد « إيرل » أشقر الشعر متضياً
صهوة جواد ، وإلى جانبه فلاح داكن الشعر يمسك باللحاج . ولا يتردد أى فتان
حين بصور الصلب في أن يجعل اللصين داكنين بالتباين مع شقرة المسيح .
وفي هذا الأمر شيء أكثر من مجرد الاصطلاح . لأن مثل هذا التقليد الذي
يكاد يكون صحيحاً مما نجده عن المسيح يدل على صفاته الخصمية والحلقية الشمالية .
ومن المحتمل أن تكون إغريقية .

أناطول فرانس : من سوء الحظ أن يكون المرء عظيماً . فانت تعيش
على الكفاف طول حياتك ، ويصورونك بعد موتك في كل صورة ما عدا
صورتك الحقيقية ، ومع ذلك فلتمض في حديثك ، ولتدع المسيح للشماليين
ما دام اليهود لا يريدونه .

جرانت : لقد انهزمت اليونان أمام مقدونيا حين امتزج الجنس الإغريقي
بالكثير من الزواج المختلط ، أما المقدونيون فكانوا شماليين خالصاً ، وانتصروا
على فارس كذلك عندما ضعف الفرس بسبب اختلاط دمائهم بأجناس أسيوية
غير شمالية . ولن نشهد الشماليين منتصرين مرة أخرى إلا في عصر الغزوات
الكبيرة ، فقد شقوا طريقهم إلى البلطيق . وسكنوا اسكنديناوه وانتشروا من
هناك في شتى الجهات . وخرجوا في مئات من الغزوات باسم القوط ، والاستروقوط
وفيزيقوط ، والكيموى ، والكيمبرى ، والغال ، والتوتون ، والسويبي ،
والفندال ، والسكسون ، والآنجلز . والحوطس ، والفريزيان ، والدنماركيين .
واللومبارديين ، والفرنجة ، والنورمانيين ، والفارانجيين . ولا تكاد توجد دولة
في أوربا لم يعث فيها هؤلاء البواسل فساداً . ولا يزالون يحكمونها حتى اليوم .
وكانت روما أول مدينة قهرت ، وكان الدوقات العظام في عصر النهضة من
الجنس الشمالى . وغزيت بلاد الغال أكثر من مرة . وكان الفرنجة من التوتون
الشماليين . وهم الذين أعطوا فرنسا اسمها الألماني . وكان شلمان امبراطوراً
ألمانياً . واتخذ عاصمة مدينة آخن . واصطنع اللغة الألمانية لغة رسمية في بلاطه .
وظلت أوربا حتى حرب الثلاثين خاضعة لألمانيا . وإذا نظرنا إلى الفروسية .
والفتوة . والإقطاع . والتمييز بين الطبقات . والاعتزاز بالجنس . والتمسك بالشرف

الشخصي وشرف الأسرة ، والمبارزة ، وجدنا أنها عادات وخلال شمالية . هذا الجنس المتفوق نفسه هو الذي انتصر على فرنسا وصقلية وإنجلترا . وهو الذي غزا باسم الـ ورنجيين Varangians روسيا وأخضع وحكم أهلها حتى سنة ١٩١٧ . وهذا الجنس نفسه هو الذي استعمر أمريكا وأستراليا ونيوزيلندا . وهو بعينه الذي فتح أبواب الهند والصين للتجارة الأوربية ، ووضع مراكز الحراسة في كل ميناء أسوي كبير . وهذا الصنف من الرجال هو الذي يتسلق الجبال ، ويتخذ من الألب ملاعب ، ويذهب في رحلات لا جدوى منها إلى القطبين (١) .

إني لآسف أن يكون هذا الجنس السيد آخذاً في الزوال ، فقد فقد مركزه في فرنسا عام ١٧٨٩ ، أو كما قال كاميل ديمولان لسامعيه في المقاهي إن الثورة كانت انبعاث السلالة الفرنسية الأصلية (الفرنسيين الألبين ، كما يقال) ضد الحكام التيوتون الذين تغلبوا عليهم بقيادة كلوفس وشرلمان ، وظلوا ممتنظين بالنظام الإقطاعي ما يزيد على ألف عام . وقد استنزفت حروب الشماليين الانتحارية الصليبية ، وحرب الثلاثين ، وحروب نابليون ، والحرب العظمى ، الجنس الشمالي في كل مكان . ويبدو أن الجنس الشمالي في إنجلترا وألمانيا مقضى عليه بالفناء لضعف نسبة المواليد . أما في روسيا فقد سقطوا أمام المتبربرين بقيادة مغولي ويهودي . وهم يفقدون بسرعة في أمريكا القوة والنفوذ بسبب الهجرة من جنوب أوربا ، وارتفاع نسبة المواليد بين منافسيهم ، والنفوذ الديمقراطي العددي ، وسلطة الجماهير (٢) .

أنا أتول فرانس : هذا كلام جيد يا سيدي ، كلام جيد .

جرانت : ونتيجة ذلك تدهور الثقافة ، وهبوط مستوى القيم والذوق في إنجلترا وأمريكا على السواء . فالأغاني والموسيقى والرقصات والتمثيلات والساسة وكل ما يسود الآن يأتي من حثالة القوم . وكنت أظن منذ بضع سنين أن الرقابة الدقيقة على الهجرة ، والقضاء التام على التزاوج بين الجنس الشمالي وغيره من

(١) المرجع السابق ص ١٤٦ ، ١٦٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧٣ .

الأجناس قد ينقذ الجنس العظيم في أمريكا ، ولكن الأوان قد فات ، فالفوارق في نسبة المواليد سوف تكمل المهمة التي قامت بها الهجرة والتزاوج ، ولن تأتي سنة ٢٠٠٠ حتى تكون قوة الشماليين قد انهارت في كل مكان ، وتختفي معهم حضارة أوروبا وأمريكا في بربرية جديدة تنبع من أسفل .

أنا تولى فرنسا : هذه صورة للمستقبل بشعة . ولكن الفرنسيين من الجنس الألبى ، والإيطاليين ، والنمساويين ، والروس ، سيتخلفون ، وفي هذا عزاء لأنفسنا . ومن الواضح أنه ليس في نية الروس أن يتركوا الديمقراطية تهلكهم . الحق ما أعظم شر أولئك الإنجليز الشماليين حين اخترعوا سلطان الأعداد ! ولكن قل لي يا سيدى : أتعقد حقاً أن هؤلاء الشماليين يمثل تلك البراعة ؟ فقد كانوا من عظام المحاربين ، والقرصان ، وقطاع الطرق ، وجماع الضرائب ، ولكن أتعد هذه حضارة ؟

جرانت : لقد نظموا دول أوروبا الحديثة وجعلوا حضارتنا ممكنة .

نيتشه : إذا كانوا قد نظموا دول أوروبا الحديثة فالدعوى ضدهم شديدة جداً . فمن الأفضل ألا تكون هذه الدول قد نشأت أصلاً ، وعندئذ كان من الممكن أن يحكم البابوات أوروبا الموحدة ، وأن تزدهر الكنيسة وهي آمنة ، كما حدث في عصر النهضة في إيطاليا ، نحو الفن والحرية ، وأن تكون الطبقات المتعلمة حرة كما هي حالها في باريس وقيينا اليوم ، أو في روما تحت ظل ليو العاشر ، بينما يتلقى الشعب عزاء الأسرار المقدسة ؟

جرانت : إنك لوثنى يا سيدى .

نيتشه : بكل تأكيد . كيف أكون غير ذلك وقد تعلمت اللغة الإغريقية ؟

أنا تولى فرنسا : لقد عقد منذ أيام فريق من أصحابنا اجتماعاً صوتوا فيه كما يفعل الأمريكيون لاختيار أعظمتنا في هذا العالم الذى طالت فيه حياتنا زمناً وأعتقد أنى أستطيع تذكر المرشحين . كان هناك شكسبير بالطبع ، فلن يجروء أحد أن يغفله ، ولو أنى واثق أن مسر شو سيشرح لكم ذات يوم أمر ذلك

الشقاشق الكبير (١) . وكان هناك بيتهوفن المخنون ، وميخائيل أنجلو صاحب تمثال موسى . تم المسيح ، وهو شاب محبوب حقاً إذا عرفته . وكان أفلاطون يمثل الفلاسفة ، وليوناردو الفنانين . ولم أسمح لهم بإغفال قولتير ، وأصر نيتشه على ترشيح نابليون ، وألح علينا براندس في قبول قيصر . وأردت أن يكون العاشر رابليه . ولكن المنتخبين بما تتميز به الجمعيات من غباء اختاروا داروين بدلاً منه . ما رأيك في هذه القائمة يا مستر جرانت ؟

جرانت : لا بأس بها .

أناطول فرانس : لم يكن ينبغي أن تجيب قبل أن تنظر إلى أي حد تسيء هذه القائمة إلى قومك الشماليين . ففيها ثلاثة أسماء من عشرة . والباقي من اليهود والإغريق واللاتين . وهذا يجعلني أستنتج أن الشماليين في الفنون والآداب والفلسفة والدين وفي أمور العقل والقلب لم يبرزوا برونزهم في صناعة قتل أحدهم الآخر ، والسطو على جيرانهم . وجبى الضرائب .

جرانت : إنك تجعلني شديد القلق يا سيدي ، وسأعيد الكرة عندما يصل

بروسون Brousson

أناطول فرانس : سوف أشتري له تذكرة عودة .

جرانت : ومع ذلك ، فقد تكون على صواب بعض الشيء . فجنس البحر المتوسط مع أنه أضعف في قوته البدنية من كلا الجنسين الشمالي والألبى فهو في أكبر الظن أرقى منهما في الأمور العقلية ، وامتيازها في ميدان الفن ليس موضع شك . وقد جاءت الثقافة فيما يختص بأوروبا الحديثة من الجنوب لامن الشمال ، ويتصل عالم البحر الأبيض القديم بهذا الجنس الذي خلق حضارة قدماء المصريين الطويلة الأمد ، وإمبراطورية كريت المينوية المشرقة ، وإمبراطورية إتروريا الغامضة (سلف روما ومعلمتها) ، والمدن والمستعمرات اليونانية المنتشرة على سواحل البحر الأبيض والأسود ، وقوة فينيقيا البحرية والتجارية ومستعمراتها

(١) في الأصل Bombasto Furioso ، نسبة إلى شخصية هي بطل رواية وليم بارنس

رودس ، وكان البطل قائداً لجيش ملك الحبشة ، وكان القائد مغروراً شقاشقا ، وقتل الملك . . . الخ (المترجم)

ذات البأس قوطاجنة . وإلى هذا الجنس أيضاً يرجع الفضل الأكبر في حضارة أوروبا القديمة (١) .

أناطول فرانس : إن ما تسلم به عظيم جداً ، ولن ألح عليك في امتياز الأثينيين في كل شيء ما عدا الحرب ، وهم الذين كانوا ثمرة التزاوج بين الجنس الشمالي و جنس البحر الأبيض ، على الإسبرطيين الذين كانوا كما تقول شماليين خلص . ولكني سأسألك فقط أن تتأمل اسكندناوة التي أنتجت إيسن العظيم وجائزة نوبل (نعم ، ما أعظم فضلها على) (٢) . وازن بين ما ساهم به هؤلاء الشماليون « الخلص » في الحضارة ، وبين فن وأدب وعلم وفلسفة أولئك الإيطاليين في عصر النهضة الذين – إذا كان لي أن أصدقك – كانوا ثمرة التزاوج . ألا تقول بناء على ذلك أن تزاوج الشماليين بغير الشماليين ينتج أعظم الثمرات ؟

جرائت : في بعض الأحيان .

نيتشه : ولكن ما الجنس ؟

جرائت : الجنس شيء لا يمكن تعريفه كأي شيء آخر بين نفسه . إنه على وجه التقريب جماعة من الناس من أصل متشابه ، ولجلدهم – أو لغالبية أفراد هذه الجماعة – لون خاص ، وكذلك لون الشعر ، وشكل الرأس ، وهيئة البدن .

أناطول فرانس : عندما كنت في إنجلترا أخبرني المستر هيلير بلوك (٣) عن رجل اكتشف أنه من نسل الشماليين ولكن هيئة رأسه وقوامه ولونه وشعره من الجنس الألبى . وأكد لي أن امرأة معينة كان لها خمسة بنين ، اثنان منهم من جنس البحر الأبيض ، وواحد ألبى ، وواحد شمالي ، وخامس خليط من الأجناس الثلاثة . وقد توجد الأجناس الثلاثة في إنجلترا ، ولكن مستر بلوك أشار أنه ربما كانت السيدة قد سافرت (٤) .

(١) المرجع السابق : ص ١٤٧ - ١٤٨ : ١٩٨ .

(٢) نال أناطول فرانس جائزة نوبل عام ١٩٢١ (المترجم) .

(٣) Hilaire Belloc ، كاتب إنجليزي ، ولد في فرنسا ، له كتب عن الرحلات والتاريخ

والسير وأخرافات والمقالات (المترجم) .

(٤) Langdon-Davies, J., The New Age of Faith, p. 244.

جرائنت : سأسلم أنه لا يوجد جنس نقي ، وأن في كل فرد دماء أصول كثيرة . ولكن مما لا ريب فيه أن الأرستقراطية الإنجليزية أتت نشأة من الأمريكيان الذين جاءوا من « الدم المختلط » الموجود اليوم في الولايات المتحدة .

باكل : إني أفهم أن الإنجليز تمرة اختلاط الكلت Celts ، والرومان ، والإنجليز Angles ، والسكسون ، والحوت Jutes ، والدنماركيين Danes ، والنورمندين Normans ...

جرائنت : ولكن معظم هؤلاء كانوا فروعاً للجنس الشمالي ، وهم في النهاية من جنس واحد .

رائزل : أسمحون لي أيها السادة باقتحام المناقشة ؟ لقد درست الموضوع بعناية. وانتهيت إلى أن الأجناس الثلاثة الأوربية فروع لجماعة واحدة أصلية جاءت من الشرق ، وكانت في بدايتها تشبه الجنس الألبى ، ولكنها حين انتشرت شمالاً وجنوباً تشكلت إلى جنسين مختلفين : « شمالي » و« جنس » البحر الأبيض . نتيجة ظروف جغرافية واقتصادية (١) . وتنشأ فوارق الجنس من فوارق البيئة ، ولذلك من العسير أن يقال إن عامل الجنس هو العامل الحاسم في التاريخ . وسرعان ما تكتسب الشعوب الشمالية مميزات الشعوب الجنوبية حين يعيشون عدة أجيال في المناطق الحارة . ويميل سكان الجبال في جميع أنحاء العالم إلى الطول بصرف النظر عن جنسهم . وقد لاحظت أن أولئك الألمان الذين طالت معيشتهم في جنوب البرازيل قد فقدوا قوتهم « الشمالية » ، وهم يشبهون الإنجليز في جنوب أفريقيا فيجلسون تحت شجرة ويستأجرون رجلاً ملوناً ليشغل لهم (٢) . إن المميزات الجنسية هي على مر الزمن تمرة البيئة الجغرافية (٣) .

(١) انظر Ripley, W.Z., The Races of Europe.

(٢) Inge, Dean R.W., Outspoken Essays, Second Series, p. 225.

(٣) زعم الدكتور دافنبورت Davenport في بحث قرأه في ٢١ نوفمبر ١٩٢٨ باجتماع الأكاديمية الوطنية للعلوم ، أنه أثبت وجود فوارق أصلية بين البيض والسود ، ولكن تقريره لم يقدم التأكيدات الكافية على أن النتائج لم تكن متأثرة بفوارق في التدريب العقل وفي الفرص .

٥ - التفسير الاقتصادي للتاريخ

ماركس : لا تتسرع هكلنا يا هر راتزل . لماذا « البيئة الجغرافية » فقط ؟
لم لا تحدد القامة بالغذاء كما تحدد بالمناخ أو الجنس ؟ إني مندهش أن تمتد هذه
المناقشة إلى هذا الحد دون ذكر للتفسير الاقتصادي للتاريخ .

فولتير : (مخاطباً أناتول فرانس) من هذا الشخص ذو الحجة الكالحة
كأنها حجة إله ؟

أناتول فرانس : (محبباً فولتير) إنه سقراط المتاريس (١) . كلارك ماركس .
لقد كتب كتاباً شنيعاً يثبت فيه أن القوى يتغل الضعيف .

فولتير : هذا كشف جديد جداً . ألا نخبرنا كيف يمنع ذلك ؟

أناتول فرانس : على الضعفاء أن يهضوا في قوة ويخلعوا الأقوياء .

فولتير (مخاطباً ماركس) : ما هي نظريتك يا سيدى ؟

ماركس : لن تجد أبسط منها . فالعامل الأساسى فى التاريخ هو فى كل
زمان العامل الاقتصادى : طريقة الإنتاج والتوزيع . تقسيم الثروة واستهلاكها .
علاقة صاحب العمل بالعمال . حرب الطبقات بين الأغنياء والفقراء . فهذه
الأمور تحدد على مر الزمن كل مظهر آخر للحياة . سواء أكان مظهراً دينياً
أم خلقياً أم فلسفياً أم علمياً أم أدبياً أم فنياً . إن مجموع علاقات الإنتاج تكون
البناء الاقتصادى للمجتمع . وهذا البناء هو الأساس الحقيقى الذى يقوم عليه
البيان القانونى والسياسى . وتقابله الصور المحدودة للوعى الاجتماعى (٢) .

فولتير : هذا كلام شديد التجريد صدع رأسى . ولعل سيدى يقدم لنا
بعض التوضيحات .

ماركس : حسناً جداً : سأستعرض سائر تاريخ الإنسانية من خلال نظورتى .

أناتول فرانس : أعتقد أنك ستذكر قصتى عن الملك والمؤرخين .

(١) هذه استعارة فرنسية كناية عن الشعب الذى كان يقيم المتاريس فى الشوارع ضد الطغاة
من الحكام (المترجم) .

(٢) Marx, K., Critique of Political Economy, preface.

ماركس : أول كل شيء . أنا لا أقسم التاريخ إلى قديم ومتوسط وحديث ، فهذا تقسيم من العصر الوسيط . بل أقسم تاريخ الإنسان إلى مرحلة الصيد والرعي ، ومرحلة الزراعة والصناعة اليدوية ، ومرحلة الصناعة والآلات . إن الأحداث العظيمة ليست سياسية بل اقتصادية . ليست هي موقعة ماراتون . أو مقتل قيصر . أو الثورة الفرنسية ، بل الثورة الزراعية – أى الانتقال من الصيد إلى الفلاحة – والثورة الصناعية . أى الانتقال من الصناعة المنزلية إلى نظام الصناعة فى المصنع .

قولتير : معنى ذلك أن صور الفقر والثراء تتغير من زمن إلى آخر .

ماركس : ليس هذا فقط ، فالظروف الاقتصادية تحدد قيام الإمبراطوريات وسقوطها ، أما الظروف السياسية والأخلاقية والاجتماعية فليس لها إلا مدخل بسيط . لأن انحلال الأخلاق ، والرفاهية ، والتهديب – هذه كلها ليست أسباباً بل نتائج . وفى أساس كل شيء توجد طبيعة الأرض : أهى صالحة للزراعة أم للصيد والرعى فقط ؟ أمتوى على معادن مفيدة ؟ لقد أصبحت مصر قوية بسبب ما فيها من حديد ، وبريطانيا قديماً بسبب ما فيها من صنيح ، وبريطانيا حديثاً لما فيها من حديد وفحم . ولقد أخذت أثينا فى الضعف حين نضبت مناجم الفضة فيها ، على حين قوى ذهب مقدونيا فيليب والإسكندر . وقد حاربت روما قرطاجنة للاستيلاء على مناجم الفضة فى أسبانيا ، وانهارت عندما فقدت أرضها خصوبتها .

أناطول فرانس : أنا لا أعرف شيئاً عن التاريخ إلا المبرقشات عديمة الحدوى فى الأدب والفلسفة . ولكنى أستطيع أن أؤيدك يا سيدى معتمداً على الحروب التى وقعت فى زمانى . فقد نشبت كلها من أجل الموارد الطبيعية . أو أسواق التجارة فى أرض أجنبية .

ماركس : شكراً لك . إنك تتحدث عن المنافسة التجارية . فهذه أيضاً تلعب دوراً عظيماً فى التاريخ . لماذا حارب الإغريق حرب طروادة ؟ أذلك لحمال امرأة مستهتره ؟ كلا ؛ لو فرضنا أن هيلين ووجدت حقاً فإنما هى أسطورة تحجب الاعتبارات الاقتصادية ، فقد كان الإغريق يتحرقون شوقاً لطرد منافسيهم

من الفينيقيين وحلفائهم من المدينة التي كانت تشرف على الطريق المائي إلى آسيا . وحتى أبحمنون عرف كيف ينتحل عبارات تسوخ مسلكه .

وليم جيمس : إذن لم يؤد وجه هيلين إلى إرتال ألف سفينة ؟

ماركس : لا فيما أعلم . . وأنت تعرف بالطبع أن الأسطول البحري الذي شيده ثيمستوكليس ضد إيجورسيس كان أساس قوة أثينا التجارية في القرن الخامس قبل المسيح ، وأن أموال حلف ديلوس جعلت أثينا من الثراء بحيث زينت الأكروبوليس بالمعابد ، فكان الذهب المسروق هو الذي صنع ذلك الفن الكامل . إن أغلب عصور الفن العظيمة جاءت عقب تكليس الثروة الوطنية . ولكن أثينا أخطأت في التعويل على الغذاء المستورد ، وكل ما فعلته إسبرطة هو ضرب الحصار عليها ، فجاعت أثينا ، واستسلمت ، ولم تقم لها بعد ذلك قائمة .

ثم انظر بهذه المناسبة كيف أدى استعباد العمال في اليونان إلى الوقوف في وجه الاختراعات الصناعية والتقدم ، وكيف أفضى استعباد المرأة إلى الحد من نمو الحب الطبيعي ، مما أدى إلى الشذوذ الجنسي الذي أثر على فن النحت الإغريقي . إن طريقة إنتاج الأشياء المادية تصوغ المظهر العام لأساليب الحياة الاجتماعية والسياسية والروحية . ليس وعى الناس هو الذي يصوغ حياتهم ، بل على العكس حياتهم الاجتماعية هي التي تشكل وعيهم . ولقد يظن الفرد أنه هو الذي ابتدع أفكاره ، وأنظمته الفلسفية ، وآراءه الخلقية ، ومعتقداته الدينية ، وأهواءه الخزبية ، وأذواقه الفنية ، بالتفكير المنطقي البريء عن التحزب ، دون أن يخطر بباله أبداً إلى أي مدى عميق تصوغ الظروف الاقتصادية القائمة وراء حياته كل فكرة من أفكاره .

منتسكيو : وكيف تطبق نظريتك على روما ؟

ماركس : لقد كانت روما في أساسها جماعة تقوم على تسخير العبيد ، وكان السادة في غاية الاستهتار والفساد . ولكن ماذا كانت نتيجة هذا كله ؟ اضطروا الفلاحون بالتدريج إلى الإفلاس ، واشترى الأغنياء الأرض وجلبوا العبيد لزراعتها فكانوا يفلحونها بفتور وإهمال ، فخربت الأرض ، واضطرت

روما أن تستورد طعامها من الخارج . ومزقت ثورات العبيد أوصال البلاد ،
وفي الوقت نفسه أخذت التجارة بين أوروبا وآسيا يقل مرورها عن طريق روما
وأخذت حركة التجارة تزداد عن طريق البوسفور ، فمت القسطنطينية ،
وتأخرت روما .

بوسويه : لا تستطيع أن تنكر أن الدين في أثناء العصر الوسيط هو الذي
كان يسير حياة الناس ، لا الشؤون الاقتصادية .

ماركس : ليست هذه إلا نظرة سطحية . فقد نشأت قوة الكنيسة من
فقر الشعوب المحطمة أو المستعبدة المتطلعة إلى الراحة والأمل في الآخرة . واشتد
سلعد الكنيسة على أنقاض الجهل والحرافات التي تسير مع الفقر جنباً إلى جنب ،
وعلى التراجع من الحياة المدنية إلى المعيشة الريفية . وثبتت قواعد الكنيسة مع
الهبات والوصايا ، والأملاك التي تشبه « منحة قسطنطين » ، والعشور والضرائب
والإعانات البابوية ، وهذا كله أفضى إلى أن تكون ثلثا أرض أوروبا المزروعة
من أملاك الكنيسة ، فكان ذلك هو الأساس الاقتصادي لقوتها . وهذه هي
الحال في مظاهر العصر الوسيط الأخرى ، التي كان لها أسبابها الاقتصادية .
وكانت الحروب الصليبية محاولة لاسترداد طريق تجاري من « الكفار » ؛ وكانت
« النهضة » ثمرة تدفق الذهب الذي نحر شمال إيطاليا نتيجة تجدد التجارة بين
أوروبا والشرق عن طريق موانئ شمال إيطاليا ؛ وظهر « الإصلاح الديني »
Reformation حين عزم أمراء ألمانيا على الاحتفاظ لأنفسهم بالمال الذي كان
يذهب من جيوب الشعب للفاثيكان .

بوسويه : إنك على خطأ شديد يا سيدي .

ماركس : لم تظهر الثورة الفرنسية لفساد البوربون ، ولا لأنك يا قولثير
كتبت سخرياتك البارعة ، ولكنها قامت لأن طبقة اقتصادية جديدة هي الطبقة
البورجوازية (المتوسطة) كانت آخذة في النهوض خلال ثلثمائة سنة إلى مستوى
الطبقة الأرستقراطية من أصحاب الأرض ؛ وأخيراً لأن هذه الطبقة اكتسبت
ثروة أكبر وقوة اقتصادية أعظم من ثروة وقوة أولئك السخفاء الأغنياء الذين
كانوا يتسكعون في بلاط لويس السادس عشر . فالسلطان السياسي يُعقَّب

القوة الاقتصادية إن قريباً أو بعيداً ، وليست الثورات الناجحة إلا مجرد توقيع سياسي لانتصارات اقتصادية سابقة . ويعتمد شكل الحكومة على توزيع الأرض ، كما قال هارنجتون (١) منذ سنوات كثيرة ، فإذا امتلك شخص واحد معظم الأرض قامت الملكية ، وإذا امتلكها قلة من الناس ظهرت الأرستقراطية ، وإذا امتلكها الشعب فهذه هي الديمقراطية .

جرائت : في هذا الكلام صواب كثير ، ولعل التفاوت في النسبة بين ملاك الأرض في الريف وبين سكان المدن الذين لا يملكون شيئاً سبب من أسباب انهيار الديمقراطية في أمريكا .

ماركس : لم كشفت أمريكا ؟ أذلك من أجل المسيحية ؟ كلا ، بل من أجل الذهب . ولماذا استخلصها الإنجليز من أيدي الأسبان والهولانديين والفرنسيين ؟ لأن الإنجليز كان عندهم المال الذي يبنون به الأساطيل المتفوقة . ولماذا ثارت المستعمرات على إنجلترا ؟ لأنها لم ترغب في دفع ضرائب غير معقولة ، ولأنها أرادت أن تضع حداً لاستبداد الأرستقراط الإنجليز الذين كانوا يفرضون سلطانهم عليهم بحق منح الأراضي ، ولأنها أرادت أن تتجر بغير قيود سواء في النيز أو العبيد ، ولأنها رغبت في دفع ديونها بعلة مخفضة .

وليم جيمس : ما هذا ؟

ماركس : بكل تأكيد يا سيدي ، فأنت على علم بالمباحث التي كشف بها مواطنك الأستاذ بيرد Beard (٢) عن الأسباب الاقتصادية في الدستور الأمريكي وفي الديمقراطية الجيفرسونية ؟ أولم تقراً ما قاله دانييل وبستر Webster

(١) جيمس هارنجتون Harrington كان معاصراً لكرومويل ، وصاحب مذهب سياسي يعتمد على الاقتصاد ، وكتب مدينة فاضلة (طوبياً) مشهورة اسمها أوسيانا Oceana و صدر الكتاب في لندن عام ١٦٥٦ (المترجم)

(٢) هو شارلس اوستن بيرد (١٨٧٤ - ١٩٤٨) مؤرخ أمريكي مشهور بأرائه الحرة وتفسيره للتاريخ الأمريكي على أساس اقتصادي ، وله كتاب بعنوان « التفسير الاقتصادي للدستور » صدر عام ١٩١٣ ، وآخر بعنوان « الأصول الاقتصادية للديمقراطية الجيفرسونية » صدر عام ١٩١٥ - ويشير في هذا الكتاب إلى جيفرسون ثالث رئيس جمهورية الولايات المتحدة (١٨٠١ - ١٨٠٩) وهو مؤسس الحزب الديمقراطي الذي فاز بالرياسة (المترجم) .

خطيب أمتكم العظيم : « كان أجدادنا في نيوانجلند على قدم المساواة فيما يختص بالملكية . وكان موقفهم يقتضى تجزئة الأراضى وتقسيمها ، ويمكن القول دون أن نعدو الصواب إن هذا العمل الضرورى ثبت شكل حكومتهم وهيئتها . إن القوانين الأساسية الخاصة بالملكية حددت صفة نظمهم السياسية فأشد الحكومات حرية لن يطول الرضا عنها إذا كانت وجهة القوانين تميل نحو خلق تجميع سريع للملكية فى يد عدد قليل من الناس ، وإلى جعل جمهرة السكان عاجزين ومعدمين . وفى مثل هذه الحالة لابد إما أن تثور القوة الشعبية على حقوق الملكية ، وإما أن يحدد نفوذ الملكية نشاط القوة الشعبية ويضبطها . فالاقتراع العام مثلاً لا يمكن أن يعيش طويلاً فى جماعة تتفاوت الملكية فيها تفاوتاً عظيماً » (١) .

قولتير : هذا كلام بارع منكما أنما الاثنان .

أنا تقول فرانس : وليس فيه إلا عيب واحد من وجهة نظر ماركس ، ذلك هو الزعم غير الدقيق الذى قاله الخطيب المذكور من أن القوانين يمكن أن تخلق تغييرات فى توزيع الملكية ، فلو كان الأمر كذلك لما استقامت نظريتك يا سيدى . فأنت تعتقد أن النظم السياسية تحدد الظروف الاقتصادية ، وأن الثورات لا يمكن أن تنجح إلا إذا أيدتها جماعة فى يدها من قبل ميزان القوة الاقتصادية . أفلا تنقض الثورة الروسية رأيك ؟

ماركس : كلا قطعاً . بل سينقض رأي الثورة . فالذى يحدث أن الشكل السياسى إما أن ينحى رويداً رويداً أو ينهار أمام الواقع الاقتصادى : فالثورة الشعبية proletarian فى دولة من الفلاحين لابد أن تجلب ، إن حاضراً أو مستقبلاً ، حكومة لعلها تحتفظ بصورة شعبية ولكنها فى أساسها آلة فى يد أولئك الذين يسيطرون على الأرض .

أنا تقول فرانس : إني لأخشى أن يكون هؤلاء الباشفيك الشجعان قد انحرفوا عن الماركسية .

(١) Beard, C., The Economic Basis of Politics, p. 38.

ماركس : لقد كنت أقول دائماً إنى لست ماركسياً .

فولتر : ألا يبدو لك يا مسيو ماركس أن الدكتاتورية العسكرية يمكن في بعض الأحيان أن تحسن الاحتفاظ بكيانها بأساليب شيطانية ولو أنها لا تمثل قوة اقتصادية كبيرة . - كما كان الحال في أيام الحرس البريتورى (١) .

ماركس : هذا لا يكون إلا لفترة قصيرة يا سيدى .

أناطول فرانس : لست أدرى أتعرف يا سيدى ما نسميه ، نحن المحدثين ، تحديد النسل ، وأعتقد أنك لا تمارس ذلك . الحق أن تحديد النسل يفيد الكنيسة الكاثوليكية فائدة عظيمة ، لأن تلك الكنيسة بحكمتها القديمة تمنع تحديد النسل بين المؤمنين ، وتنتظر في صبر أن يعيد انخفاض نسبة المواليد بين البروتستانت والفلاسفة شيئاً فشيئاً ألمانيا أولاً ، ثم أمريكا ثانياً ، شعوباً كاثوليكية مرة أخرى . فإذا نجحت سياسة الكنيسة (وقد انتصرت بصيرتها الصامته في كثير من المواقع) وإذا فسد الإصلاح الدينى ، بل وربما التنوير بسبب تحديد النسل ، أفلا تعد هذا من الحوادث العظيمة الأهمية ؟ ومع ذلك فمن العسير أن يدخل هذا تحت باب التفسير الاقتصادى للتاريخ . ولعلنا في حاجة إلى تفسير جوى للتاريخ ؟

ماركس : أنت محطىء يا سيدى .. ما هى أسباب تحديد النسل ؟ إنها أسباب اقتصادية : مستوى مرتفع من المعيشة ، وازدحام المدن بالسكان ، وقوانين للأرض كتلك التى تسود بلادك ، وهى قوانين ترغم الآباء على تقسيم أملاكهم بالتساوى بين أبنائهم .

جرانت : ولكنك سوف تسلم بكل تأكيد أن العوامل الجنسية كثيراً ما ترجح العوامل الاقتصادية .

ماركس : أبدأ .

جرانت : وكيف يمكن بغير ذلك أن تفسر غزو أهل شمال أوروبا لآسيا ؟

ماركس : بسبب سبقهم في الثورة الصناعية . ثم راقب أهلك الشماليين كيف يخرجون من آسيا عندما تصبح الصين دولة صناعية .

(١) الحرس البريتورى هو الذى أنشأه الامبراطور أغسطس الرومانى . وأصبح لذلك الحرس نفوذ كبير حتى جعل الأباطرة العوبة في يده (المترجم) .

جرائنت : كثيراً ما رأيت جماهير الشعب ، كإضراب العمال الأمريكيين ، أو الشعب الأمريكي كله في انتخابات الرئاسة ، ينقسم على أساس جنسى لا على أساس اقتصادى .

ماركس : يتحرك الأفراد والجماعات في الغالب بدوافع غير اقتصادية.... جنسية racial . دينية ، وطنية ، تناسلية sexual (١) ؛ ولكن هذه الأفراد والجماعات تسيرها أشخاص على وعى تام بالقيمة الاقتصادية . هل الساسة الذين يوفدون الجند للمعارك بالخطب الحماسية والموسيقى العسكرية بريئون البراءة كلها من الدافع الاقتصادى ؟ يقال إن كولومبس بحث عن الهند ليقتدم إلى البابا مسيحين جنداً ؛ وهذا محتمل جداً ، ولو أنه بعيد الاحتمال أن تدور مثل تلك الأفكار في ذهن ذلك الرجل ؛ ولكن هل تظن أن فرديناند وإيزابلا ساعداه لمثل هذه الأسباب ؟ قد يتصرف الأفراد طبقاً لدوافع غير الدوافع الاقتصادية ، وقد يضحون بأنفسهم في سبيل أبنائهم أو أهل بلدهم أو آلهتهم ، ولكن هذه الأعمال العابرة من البطولة أو الحنون ليس لها أهمية في تحديد قيام الدول وسقوطها . إنى لا أطبق الحتمية الاقتصادية على الأفراد .

وليم جيمس : إنى مسرور أن أسمع ذلك . فقد درجت على الظن بأن القوى الأخلاقية كالنفور من استعباد الرقيق بقيادة ولبرفورس وجاريسون لها شىء من الصلة بالتاريخ ؛ ولست أشك في أنك ستصحح فكرتى في هذه المسألة .

ماركس : ليس ثمة قوى أخلاقية في التاريخ ، فالعوامل الاقتصادية تكمن وراء كل حادثة عظيمة . إن جاريسون (٢) لم يرفع علم الثورة ضد الاسترقاق بالمواظب الخلقية . وحين حرر لنكولن العبيد كان ذلك إجراء حريياً القصد منه إضعاف الجنوب ، ولقد صرح بأنه لا يرى بأساً أن يتركهم عبيداً لو أدى ذلك

(١) در حنا في اللغة العربية حديثاً على ترجمة لفظة Sex بقولنا « جنس » . وأصبحنا ننسب إليها فنقول الدوافع الجنسية ، والكبت الجنسي . والشذوذ الجنسي ، وهكذا . وهذه اللفظة ترجمة أيضاً لفظة race . فلما وردتنا في عبارة واحة اضطررنا للتمييز بينهما (المترجم) .

(٢) وليم لويد جاريسون Garrison (١٨٠٥ - ١٨٧٩) زعيم أمريكي قادملة تحرير

العبيد (المترجم) .

إلى السلم . فقد أراد الجنوب الانفصال عن الشمال لما أصابه من أضرار من جراء الضريبة ، وفقدانه كل أمل في السيطرة على الكونجرس ، وأراد الشمال الاحتفاظ بالجنوب سوقاً للمصنوعات ومورداً للطعام والمواد الخام . كانت « المثل » في كلا الجانبين عبارة عن أوراق التين (١) . فالمثل الأعلى في كل حال حاجة مادية تسترها عبارات لفظية في هيئة غاية أخلاقية .

أناقول فرانس : أتقول ذلك أيضاً عن المثل الاشتراكية ؟

ماركس : أجل .

أناقول فرانس : وأسفاه .

٦ - التفسير النفساني للتاريخ

هيجل : أظن يا سيدي أن آراءك انتهاك للحرمات . وأنا حين أنظر في سائر هذه النظريات بجملة أجد فيها كل عامل سوى عامل العقل البشري . إن من يسمعك يظن ألا قيمة للعقل والشجاعة في هذا العالم ، وأنه ما دامت نفس الظروف الجغرافية والاقتصادية والجنسية تؤثر في الأفراد ، وفي الدول أحياناً ، فكذلك لا فرق بين أن يكون الفرد عبقرياً أو مغفلاً ، أو أن يكون المواطنون أذكاء أو جهلاء . لقد أغفلت نظريتك البطل .

ماركس : لا يوجد أبطال . فالفكر آلة الرغبة ، والرغبات في الجماعات والأمم هي على الدوام رغبات اقتصادية . أو كما قال بسمارك : ليس ثمة أخلاق بين الأمم . والعظيم من الرجال كذلك ليس إلا آلة وبوقاً وعاملاً للحركات الشعبية أو للقوى غير الشخصية . وإذا لم يكن أمره كذلك فهو مشهور لا أثر له بمر به التاريخ دون أن يلاحظه . والأفكار بالنسبة إلى التاريخ كالفكر بالنسبة للعمل الفردي ، وفي كلتا الحالتين ليست الفكرة هي السبب الحقيقي للنتيجة ، بل رغبة من الرغبات ليس الفرد في حاجة لأن يشعر على الإطلاق بها . الحق أن سائر ثقافة

(١) استعارة في اللغة الإنجليزية تطلق على من لا يكاد يستر ضميره ، لأنهم يتخفون من

ورقة التين سراً للأعضاء التناسلية في القمايل العارية (المترجم)

عصر من العصور تتصل بحياته الاقتصادية بمثل الصلة التي توجد بين الفكر والبدن ، فهي تأويل وتعبير لعمليات وقوى تعتمد عليها .

هيجل : إني في دهشة أن يتكلم ألماني على هذا النحو . ومن الظاهر أن ألمانيا منذ تلك الأيام العظيمة أيام كانط ، ولبسنج ، وهردر ، وجوته ، وشلر ، وبيتهوفن ، وأنا ، قد وضعت همها في الصناعة ، فهي تنتج الآن كيمايين وميكانيكين ولا تخرج فلاسفة وفنانين . وبذلك تفسر سائر العالم وجميع التاريخ في هيئة آلات . إني أود أن أسمع جوته يخبرك عما يراه فيما يختص بنظريتك . أو أسمع هردر Herder الذي هز مشاعرنا جميعاً سنة ١٧٨٧ بكتابه « أفكار عن فلسفة لتاريخ البشر » ، وهو الذي كان يرى سائر التاريخ تثقيفاً للحنس البشري .

أناتول فرانس : حدثنا عن رأيك الخاص في التاريخ أيها الأستاذ . لقد كان اسمك عندما كنت صبياً ملء السمع في بلدي ، وكان كوزان Cousin يقسم بك . إن شئت الحق لم يستطع أحد منا أن يتبين شيئاً مما كنت ترمي إليه . والآن ونحن هنا في هذا الفردوس Elysian Fields ^(١) قد اجتمعنا وجهاً لوجه فالفرصة سانحة أخيراً كي نفهم هيجل .

هيجل : لقد لجأت يا سيدي إلى الإبهام حتى لا يفهمني الحق ، فلم يكن من اليسير أن أكشف للجيل الذي أعيش فيه أن العقل لا يوجد في هذا الكون إلا بمقدار ما نضعه فيه ، وأن الله ليس العلة الأولى بمقدار ما هو العلة الأخيرة . كان عليّ أن أتكلم بأسلوب يسمح بتأويل الأمور تأويلاً حسناً حين أرى الخلال مقبلاً في الطريق .

فولتير : إني أفهمك يا سيدي ، إذ بعد موت فودريك ^(٢) أصبح التفكير في ألمانيا غير مشروع .

هيجل : ولكن الحق يقال كانت فلسفتي بسيطة جداً . فالله هو المطلق Absolute

(١) الإليزيوم Elysium في الميثولوجيا اليونانية هو مكان السعداء من الناس ، ومنه أراض الإليزيوم ؛ أي فردوس شعراء اليونانيين (المترجم) .

(٢) يشير إلى فودريك الثاني الذي حكم ألمانيا من ١٧٤٠ إلى ١٧٨٦ ، ورفع شأن أمته ، واستدعى فولتير إلى بلاطه (المترجم) .

والمطلق هو المجموع الكلي لجميع الأشياء في تطورها . الله هو العقل Reason ،
والعقل هو ذلك النسيج وذلك البناء للقانون الطبيعي الذي تتحرك الحياة
أو الروح Spirit في داخله وتنمو . الله هو الروح ، والروح هي الحياة Life
والتاريخ هو نمو الروح Development of Spirit ، أى إن التاريخ نمو الحياة .
ففي البدء تكون الحياة قوة غامضة لاتعى نفسها ، وعملية التاريخ انتقال «الروح»
أو « الحياة » إلى الوعي الذاتي والحرية . والحرية جوهر الحياة كالحاذية التي هي
جوهر الماء . والتاريخ هو نمو الحرية . وغايته أن تكون « الروح » (١) حرة
حرية كاملة واعية .

قولتر : هذه يا مسيو هيغل هي حقاً لغة الثورة .

هيغل : بكل تأكيد ، فقد كنت أعنى ذلك . لقد رأيت التاريخ يمر في
مراحل ثلاث : الأولى المرحلة الشرقية التي لم يكن فيها إلا فرد واحد حر ؛ والثانية المرحلة
اليونانية الرومانية التي كان فيها قلة من الأحرار ؛ والثالثة المرحلة الحديثة التي أصبحت
فيها الروح واعية بحريتها التي تنظمها في الدولة . وبذلك تجعل جميع الناس أحراراً .

ماركس : إننا نحن أبناء ألمانيا الفتية لم نستطع أن نغفر لك إعلاءك من
شأن بروسيا - وهي أشد دول أوروبا رجعية ، ولكنتنا أبصرنا المعنى الخفي في
ميتافيزيقاك ، وقدردنا جلدك . إن أذننى لا تزالان ترنان بصدى ذكرى « القضية ،
ونقيضها ، والقضية التركيبية . » thesis, antithesis, synthesis وكان كراوس
Krause يخبرنا أن : « العالم القديم هو القضية ، والعالم الحديث نقيضها ، وبولينزيا
القضية التركيبية » . أما نحن الطلبة فكانت تجرى على ألسنتنا صيغة أحسن : « الظماً
هو القضية ، والنبيذ نقيضها ، والقضية التركيبية على الأرض تحت المائدة » (٢) .

(١) الروح في فلسفة هيغل ، والتي نجدتها في الترجمة الإنجليزية Spirit هي باللغة
الألمانية Geist ، ولا يقصد بها المعروف عندنا من معنى الروح أو النفس ، بل هي صورة
متطورة من الوعي الذي يكن في المجتمع ويكون علة تطوره وحياته . وهذا الوعي الذي يعبر عنه
بالروح ثمرة التآلف بين وعى الفرد ووعى المجتمع (المترجم) .

(٢) Hegel, Philosophy of History, pp. 18-21.

(يشير المؤلف في هذه القضية التركيبية أن الشخص يكون لعبت برأسه الخمر حتى وقع على
الأرض - المترجم) .

هيجل : اضحك إذا شئت أنت الناشئ تحت جناحي الأيسر. ولكن
انظر كيف أن سائر التاريخ ، كسائر الميتافيزيقا ، تسطع تحت أضواء جدلي ؟
إن كل عصر يطوى في نفسه بعض المتناقضات الدقيقة تشبه بالضبط ما يوجد
في الرأسمالية عندكم ؛ ويساعد النمو على جعل هذا التناقض واضحاً وحاداً ، حتى
ينتهي الأمر بالانقسام ، والحرب ، والثورة ، والانفجار ؛ ثم تلتئم العناصر
المتقابلة كتلك الصبغيات التي يبتها لنا باتيسون Bateson ذلك اليوم في مكونات
جديدة ، وهكذا يبدأ عصر جديد . ويعينك على التنبؤ بالمستقبل هذا القانون :
« لن تحصل من مرحلة واحدة على نقيضها بل على المركب منها ومن نقيضها » . وعلى
هذا النحو فإن الرأسمالية في صراعها مع الاشتراكية لا تفضي إلى الاشتراكية بل إلى
رأسمالية الدولة State capitalism : ذلك أن الثوار ينقلبون رأسمالين ، ويسمون
أنفسهم الدولة ، ومع أن كثيراً من الناس يقاسون ، إلا أن الأمور تتقدم لتبلغ مرحلة أرقى .
ماركس : فإذا كان الأمر كذلك فلم لم ترحب بشباب الثوار في زمانك
باعتبارهم رسل المستقبل ؟ لم زعمت أن الحرية كانت موجودة في بروسيا أكثر
مما كانت في اليونان قديماً ؟ لقد كنت تظن أن بروسيا تمثل أرقى حضارة عرفت
في التاريخ . وحيث كانت بروسيا ملكية . وكنت لسانها الناطق ، فقد خلطت
التاريخ لتبين أن الطغيان يوجد في المرحلة الدنيا حيث لا يوجد إلا فرد واحد حر ،
وأن الأرستقراطية أو الديمقراطية توجد في المرحلة الثانية حيث يكون ثمة أقلية
حرة . وفي المرحلة العليا حيث يكون جميع الناس أحراراً توجد الملكية . يا إلهي !
ملكية ؟ لقد صنفت الشعوب وسميتها كما يفعل الصبي الذي يرتب طوابع البريد .
نقد صفت القانون الذي يجعل عملية التطور تدفع الحضارة إلى الغرب أكثر
فأكثر . ويجعل الحضارة كلما كانت غربية كانت أرقى . ونتيجة ذلك أنك
رفعت أشور على الصين ، وكان ينبغي أن تضع أمريكا فوق ألمانيا . وكذلك
آثرت أن تكون وطنياً .

هيجل : إذا كنت في روما فافعل كما يفعل الرومان .

ماركس : كلا يا سيدي ؛ سواء أكنت في روما أم في غيرها . فلا يوجد

إلا حق واحد .

أنا تولى فرانس : إنك تتحدث يا سيدى كأنك تملك هذا الحق الذى لعله لا يوجد أصلاً ، فلا تكن شديد الثقة إلى هذا الحد .

كارليل : أرجو أن تفسحوا صدركم لسماع كلمة من رجل شيخ
إنكم ما زلتُمْ تغفلون العبقريّة من التاريخ ، فلم نتقدم بعد حواركم كله عما كنا عليه من قبل . وعندى أن التاريخ العام ، تاريخ ما قام به الإنسان في هذا العالم ، إنما هو في أساسه تاريخ عطاء الرجال الذين أثروا فيه ، فقد كان هؤلاء العطاء قادة الناس ، وكانوا القدوة والنماذج ، وبمعنى أوسع المبدعين لسائر ما سعت جموع الشعب إلى عمله أو بلوغه . وكل ما نراه ماثلاً محققاً في هذا العالم هو ولا ريب الثمرة المادية الخارجية ، والتجسد والتحقيق العمليين للأفكار التى استقرت في رؤوس العطاء المسلمين إلى هذا العالم . فروح تاريخ العالم كله إنما هو بحق تاريخ هؤلاء الأبطال . فإذا تيسر لنا حسن البصر بهم فقد نستطيع أن ننفذ إلى لب تاريخ العالم (١) .

وليم جيمس : بخ ، بخ . هذا كلام نادر في جودته يا كارليل . ولقد حان الوقت الذى يجب علينا أن نبلغ فيه منبع « الأفكار » التى تحرك العالم .

هيجل : اهدءوا أيها السادة ، فالأفكار هى التى سميتها « روح العصر Zeitgeist » ، وجميع ألوان التفكير والشعور السائدة في زمان ما تكون « روح العصر » ، وكل شيء في التاريخ ثمرة لذلك (وقد سمعت أن أهر لامبرخت Lamprecht يعيد الكلام نفسه اليوم ، ولكنه يغطى سرقة بعبارة جديدة . هي « النفس الاجتماعية Social psyche ») . لا يؤثر عطاء الرجال إلا حين يكونون آلات غير واعية لروح العصر . وإذا لم يكن الفذ من العطاء مؤتلفاً مع روح العصر ضاع ، ولعل الأولى به ألا يظهر إلى الوجود . إن العبقري الذى يلقى الشهرة والنجاح قد لا يكون أعظم من أسلافه الذين وضعوا هم أيضاً لبناتهم في البناء ، غير أن حسن حظ ذلك العبقري أنه جاء آخرهم . فلم يكذب بضع حجره في البناء حتى استقام العقد . وليس مثلاً هؤلاء الأفراد وعي بـ « الفكرة Idea » العامة التى يبسطونها ، ولكنهم ينفذون ببصيرتهم إلى احتياجات زمانهم ،

(١) Carlyle, T., Heroes and Hero-Worship, p. 1.

فيعرفون ما تهباً نضجه للنمو^(١). فليس عطاء الرجال مبدعين ، بل شأنهم في ذلك شأن القابلة التي تساعد الزمن على توليد ما هو موجود في الرحم من قبل .

كارليل : لا أعرف شيئاً عن قابلاتك يا هر هيجل ، ولكني أعرف أن التاريخ لولا كروموويل لتغير وجهه : ولاختلف كذلك بدون فردريك . ولم تكن البشرية لتغفر للثورة الفرنسية لولا ظهور نابليون . إن الكفر بالأبطال هو أقصى ما يمكن من الإلحاد .

نيتشه (كأنه يخاطب نفسه) : إن عبارة الأبطال بقية تخلفت عن عبادة الآلهة . ومع ذلك . . . ومع ذلك لم يعد أحد يعرف التبجيل ، فقد ماتت جميع الآلهة ، ونود الآن أن يحيا السوبرمان .

قولتير : أهو محنون ؟

أنا تول فرانس : إنه ملهم يا أستاذ .

وليم جيمس : ولكني مهتم بهذه النظرية عن عطاء الرجال في التاريخ . ما هي الأسباب التي تجعل المجتمعات تتغير من جيل إلى جيل والتي تجعل إنجلترا تحت حكم الملكة حنة Anne مثلا مختلفة هذا الاختلاف الشديد عن إنجلترا تحت حكم إليزابث ؟ يقول الهر ماركس إنه لا صلة للتغيرات بالأشخاص . وأنها مستقلة عن سلطة الأفراد . ولست أعتقد في ذلك ، إذ أن الاختلاف يرجع إلى تجمع أثر الأفراد ، وأمثلتهم ، وقدرتهم على الابتكار ، وقراراتهم . كلا يا مسر ماركس . لا تؤثر الجماهير كثيراً في التاريخ ، ولكنهم يتبعون قيادة الأفاضل من الرجال . ففي جيل واحد قلب بسمارك ألمانيا الفلسفية إلى ألمانيا العسكرية والاستعمارية . وتلقى نابليون فرنسا جانحة إلى السلم بسبب الإنهاك والاشمئزاز ، فملاها بحمي السعي إلى المحد . وقد انساقت وراء مثاله واستسلمت لعبقريته . وكاد تيودور روزفلت يفعل مثل ذلك بالولايات المتحدة . إنني أتفق مع إمرسون في قوله : « أوافق على قول منشيوس Mencius^(٢) الصيني : الحكيم

(١) المرجع السابق ص ٣٠ .

(٢) ويسمى منج تسي ، عاش في القرن الرابع ق . م وشرح الكتب المقدسة وألف كتاباً عن العالم (المترجم) .

هو معلم مائة عصر . فعندما يسمع المغفل سيرة لئو 100 يصبح ذكياً ، ويصبح المتردد حازماً . « وأعتقد أن صديقى مستر تارد يتفق معى ، لأن فكرتى الخاصة عن التاريخ لا تكمل إلا إذا أضفت إليها مذهبه فى التقليد (١) .

تارد : نعم أيها الزميل العزيز ، إني متفق معك بكل تأكيد ؛ هناك فى العالم عمالقة وأقزام ، والعمالقة فقط هم الذين يغيرون وجه الأشياء . وإذا فرضت وجود جميع الظروف الجغرافية والجنسية والاقتصادية التى تريدها ، فلا بد من وجود شخص يتقدم الصفوف فى كل حادثة وفى كل تغيير . إن القزم من الرجال لن يبدأ بالابتكار ، فهو خائف وأكبر الظن أنه لا يحلم أبداً بوجود حاجة لأى شىء اللهم إلا أنواع السلوك المتوارثة ، وتكفيه فى ذلك العادات والتقاليد . أما العملاق من الرجال فإنه يشعر بالحاجة ، إنه « يفكر » ، فيتغير كل شىء . قد يخفق هذا العظيم ، ولكنه إذا نجح ، فإن قلة من الناس فى النادر أيضاً تحاكيه . فإذا نجحوا تدفقت فى المجتمع موجة من التقليد كالتيار الحاريف . حدث أن تاجراً يابانياً واحداً حاكى طرق الغربيين وأفكارهم ، وقلده عشرة ، والآن يسير على منواله مائة ألف ، وبذلك تغيرت اليابان كلها . وأنا لماذا نشأت كاثوليكيًا ؟ بالتقليد . ولماذا نشأت فرنسيًا ؟ أعنى لست رجلاً يختلف عنك يا هر هيجل فى الدم أو الجنس بل فى العادات واللغة ، وفى أساليب الشعور والفكر... بسبب التقليد . إن طريق التقليد هو على الحملة الشىء الوحيد الهام فى التاريخ . وتقوم وراء العوامل الاقتصادية والجغرافية العملية الأساسية الحيوية وهى عملية الانتخاب الطبيعى للتغيرات الملائمة . فالعبرى هو المتغير variant ، وفكرته هى التغير variation . و « روح العصر » والظروف الطبيعية هى البيئة التى تسمح للتغير أن ينجح . والتاريخ هو الحرب بين التفاهة mediocrity والعبرية .

كارليل : إني أشكرك يا سيدى ، فقد أحنت أى والله القول .

لستروارد : لو سمحتم لى أيها السادة فثمة أمر واحد ينبغى أن يضاف : وهو أن التاريخ هو تاريخ الاختراعات العظيمة . إذ تقوم وراء التغيرات الاقتصادية تغيرات

(١) Barnes, H. E., The New History and the Social Sciences, p. 87 ;

Emerson, Representative Men, p. 17.

ميكانيكية ، ويقوم وراء هذه التغيرات تقدم العلم الطبيعي ، ويقوم وراء هذا العلم التفكير المنعزل للفرد من الرجال . قد لا يكون عطاء الرجال علة الأحداث التي تصور عادة في التاريخ ، كالحروب ، والانتخابات ، والهجرات ، وغير ذلك ، ولكنهم علة الاختراعات والاستكشافات التي تصوغ العالم صياغة جديدة ، وتغير كل جيل عن الجيل السابق . إن نمو المعرفة هو جوهر التاريخ .

باكل : إنك على حق ، إذ يجب أن يفسر التاريخ السياسي في كل أمة بتاريخ تقلبها الفكري .

وارد : كنت تود يا مسيو فولتير أن تعرف أي خطوات اتخذها الإنسان لينتقل من البربرية إلى المدنية . فاعلم أن ذلك بالاختراعات . وليس أهم الرجال في تاريخ أمريكا هم الساسة ولا رؤساء الجمهوريات ، بل المخترعون - فالتون (1) Fulton ، هويتشي (2) Whitney ، مورس (3) Morse ، ماكورميك (4) McCormick ، إخوان رايت (5) Wright Brothers ، إديسون (6) Edison وستستمر آثار ما عمل هؤلاء الرجال قروناً طويلة بعد أن تنسى أسماء رؤساء الجمهوريات . إنها الآلة البخارية التي صنعت القرن التاسع عشر ، وإمها الكهروبا والكيميا والطائرة التي ستصنع القرن العشرين (7) .

ماركس : إنني أسلم بقيام الاختراعات الحديدية وراء التغيرات الاقتصادية .

-
- (1) فالتون (1765-1810) مخترع أمريكي ومهندس .
(2) هويتشي (1765-1825) مخترع أمريكي لمجال القطن ، وسجل اختراعه عام 1794 (المترجم) .
(3) مورس (1791-1872) مخترع أمريكي لشفرة الإشارات التلغرافية ، وتعرف باسمه حتى اليوم (المترجم) .
(4) ماكورميك (1809-1884) مخترع آلة الحصاد .
(5) الأخوان ولبور رايت (1867-1912) وأورفيل رايت (1871-1948) من رواد الطيران الأمريكي ، وقد طارا لأول مرة بعد إجراء عدة تجارب على عمل محرك للطائرة في عام 1903 ، ثم استعمل بعد ذلك جيش الولايات المتحدة طائرتيها عام 1909 ، وفي ذلك العام أسس شركة رايت للطيران (المترجم) .
(6) إديسون (1847-1931) من أشهر المخترعين لأكثر من ألف اختراع حديث كالصوتوغراف والسينما فانه اهتمى إلى عمل أول عرض للمصور المتحركة عام 1913 (المترجم) .
(7) بارنس ، المرجع السابق ، ص 18

ولكن أنواع التقدم الفنى ، بل والبحث العلمى ، مدينة للحاجات والمطالب الاقتصادية . إن حاجة صناعية فنية تكون حافزاً على العلم أكثر من عشر جامعات ، وكل اختراع هو الخطوة الأخيرة فى طريق بحث طويل ، لأن الاختراع يتم بخطوات صغيرة قد تكون غير محسوسة فى بعض الأحيان ، وهو راجع على مر الزمن إلى الضروريات والحاجات الاقتصادية (١) .

أناطول فرانس : ترجع الاختراعات إلى حاجات حياتنا يا سيدى ، وليست الاحتياجات الاقتصادية إلا جزءاً منها ، فبعض الاختراعات ، وكثير من التاريخ ، يرجع إلى الحاجة إلى الحب وليس له أساس اقتصادى . حقاً إن الحب حين يلمس الاقتصاديات يشرع فى الموت . ولماذا طبقاً لنظريتك كتب الناس الموسيقى ؟

ماركس : إنها فضل ، وعرض ، ونتاج فائض كقطران الفحم أو الصابون .
نيتشه : لو جرت الحياة بغير موسيقى لكان هذا خطأ .

أناطول فرانس : فلنقل باب هذه المناقشة . نعم ، يا مسيو منتسكيو ، ويا مستر باكل ، ومستر راتزل ، نحن نعيش على ظهر الأرض ، وسنظل على الدوام مقيدين بها ، ولو أننا سوف نتخطى حدودها ، بل ونطير حتى فوق الهيمالايا بين حين وآخر . ولعل بعض الأجناس يا مستر جرانت مع حسن حظها فى الوقوع على بيئة طيبة تتفوق فى الجسم والدم بل وفى القدرة العقلية على غيرها من الأجناس . ولكن دع هذه الأجناس الفاضلة تتبادل المعيشة فى البيئة مع الأجناس الأدنى منها بضعة آلاف من السنين . ثم انظر ماذا يحدث بعد ذلك .
أما عن مسيو ماركس فلا أتوقع أن أقنعه بأنكم جميعاً على صواب ، كما أنه هو أيضاً على صواب لأنى أعرف أن ذلك لا يقنعه . ولكنك أنت يا أستاذ هيجل فإنك سترضى بقبول نظرية « الرجل العظيم » إذا قبل مسيو جيمس وتارة وكارليل نظريتك فى « روح العصر » باعتبار أنها البيئة العقلية التى تنتقى .
القول أنى أرى أننا سنحسن الاتفاق إذا ارتبنا فى أنفسنا بعض الشيء .

(١) انظر بارنس . المرجع السابق . فردريك إنجلز ص ٣٩٣ ، فى الهامش .

أما أنا فسأستمر فقط في العناية بعظاء الرجال ، سواء أكانوا أسباب التاريخ أم لم يكونوا ، وإني لأؤثر وجود عشرة من أبطال الفكر الفرنسيين على سائر فرنسا بدونهم . ثم اذكروا حين تكتبون التاريخ أن الأحداث الحليلة تتحدث على السنة عطاء الرجال مهما تكن أسباب تلك الأحداث . لا تناولوا جميع العباقره من صفحات كتبكم ، وإني لأؤكد لكم أن خرائطكم ورسومكم البيانية لن تمكنني من الشعور بالماضي كما أراه خلال عيون العباقره ، كأن جميع الحيوظ التي نسجت الماضي تتجمع في عطاء الرجال وتلتحم في وحدة هدايتنا . كيف يمكن أن نفهم ألمانيا ونغفر لها بدون جيته ، أو إنجلترا بغير شكبير ، أو فرنسا بغير فولتير ؟
فولتير : تعال ، فالوقت متأخر ، وحتى الخالدين يجب أن يناموا .

٧ - التاريخ المركب

قال فيليب ، وقد سعدنا التل إلى الطريق الذي يفضي بنا إلى البيت :
« إن الرجل الشيخ على صواب ، فجميع هذه النظريات في التاريخ خرقاء حين تؤخذ منفصلة ، وليس لها معنى إلا حين تجتمع . لقد سئمت التحليل وأصبحت متلهفاً على التركيب . »

فاقترحت قائلاً : « أحكم ما قبل الليلة إشارة فولتير - ومن الواضح أنها مسروقة من كروتشي - إن التاريخ لا يجب أن يكتبه إلا الفلاسفة ، لأنهم سينظرون إلى الأشياء نظرة واسعة . »

فاحتجت آرييل : « ولكن كما تنسيان أن التاريخ شيء كبير ، ولن تجد أحداً يمكن أن يطول عمره حتى يراه في نظرة كلية - حتى لو عاش على غداء نباتي . »

فقلت : « هذا حق ، فنحن في حاجة إلى إحصائيين يمدون الفلاسفة بالمعلومات - في التاريخ كما هو الحال في العلم . ولكن في كلتا الحالتين ينتهي الأمر إلى عبث مخرب . إذا لم تجمع الوحدة بين أطراف هذين الجزأين الخاصين معاً . يجب أن تكون الفلسفة بالنسبة إلى التاريخ ما يجب أن تكون عليه بالنسبة إلى العلم - أي الربط الكلي . »

ثم مشينا صامتين بعض الوقت تملأنا نشوة الآلهة والنجوم . وخرج فيليب عن صمته قائلاً :

« هذه المناقشة توحى بطريقة جديدة كل الحدة لكتابة التاريخ . ففي العادة حين يكتب شخص عن « تاريخ الإغريق » مثلاً ، فإنه يعنى تاريخ الحياة السياسية للإغريق - أو على أكثر تقدير الاقتصادية والسياسية ، ثم يأتي شخص آخر ويكتب تاريخ الصناعة والتجارة عند الإغريق ، كذلك العرض الاقتصادي الذي قام به زيمرن Zimmern . ويقدم لنا مؤلف آخر تاريخ الديانة الإغريقية ، وثالث الفلسفة اليونانية ، ورابع الأدب اليوناني ، وخامس حياة الإغريق الاجتماعية ، وسادس الفن اليوناني . ومن المنتظر منا ، نحن الطلاب ، أن نجتمع أطراف هذه الأجزاء معاً ، وأن نكون صورة لسائر حياة الإغريق المعقدة . فنحن المفروض أننا نعمل ما يعد مهمة أكبر مما يستطيع أعلم المؤرخين الاضطلاع بها . إن حياة الشعب تمزق إلى عدة أجزاء يعزل كل جزء منها عزلاً صناعياً عن الأجزاء الأخرى ، ثم ندرسها في قطاعات طويلة بحيث لا ننظر إلا في علاقات التابع والزمان ، ضاربين صفحاً عن سائر العلاقات الخاصة بالأثر المتبادل ، بالصراع المشرق ، بالتعاون . فما أغرب هذه الطريقة في وصف الماضي ! »

قالت آرييل : « هذا تاريخ ممزق » .

فقلت شاكية : « لقد فقد الفلاسفة الشجاعة في الوقت الحاضر ، فهم يؤثرون المهام الصغيرة - إنهم يناقشون مثلاً أكان أفلاطون يقصد هذا الرأي أم ذلك ؛ وهل الشمس في السماء أو في رءوسنا ؛ وهل البرتقالة ذات لون أصفر في الظلام ؛ إلى آخر ذلك . إنني أعتقد أنهم يخشون الكون منذ أن توقفت الكنيسة عن إخبارهم عما يجب عليهم التفكير فيه » .

فقال فيليب : « حسناً ، عندي فكرة جديدة . فالتاريخ كما هو مدون عبارة عن قطاعات طويلة ، إذ يستعرض أحدنا موضوعاً واحداً كالسياسة أو الفلسفة أو العلم ويتبع تحوله ونموه وغير ذلك خلال فترة طويلة من الزمن . سنسمى هذا التاريخ بالتاريخ الممزق ، كتسمية آرييل له . والآن ، ولماذا لا يكون عندنا إلى جانب هذا (ومع التسليم بالحاجة إلى هذه الدراسات الخاصة)

ضرب من القطاع العرضي للتاريخ ، يتناول فيه الباحث عصرًا واحداً مثل عصر
بركليس ، أو عصر قولتير ، ويحدد نفسه بقرون واحد ، وإذا وجب بجيل واحد ،
حتى يجعل مهمته ممكنة ، ثم يشرع في كتابة تاريخ سائر وجوه حياة الأمة في
تلك الفترة - الوجوه الاقتصادية ، والسياسية ، والحربية ، والعلمية ، والفلسفية ،
والدينية ، والحلقة ، والأدبية ، والدراماتيكية ، والفنية ؟ إن ما يزعمنا هو أننا
خاضعون إلى حد كبير لتأثير فكرة التطور ، فنظن أن كل شيء يجري كأنه
في خط من التابع والعلية . إننا نظن مثلاً أن فلسفة أفلاطون نتيجة لفلسفة
سقراط ، وأن فلسفة أفلاطون علة لفلسفة أرسطو ، وأن فلسفة اسبينوزا نتيجة
لفلسفة ديكارت . ولكن ثمة علية عرضية أيضاً ، فليست الحوادث ثمرة الظروف
السابقة في ميدانها الخاص فقط ، بل نتيجة الظروف المحيطة بها في ميادين أخرى .
ولعل فلسفة أفلاطون لم تتأثر بسقراط بمقدار ما تأثرت بالتطور العام السياسي
والثقافي في عصره - كالخطب التي سمعها في الساحة ، أو التمثيلات التي رآها في
الملك ، أو التماثيل التي شهدتها في المعابد والميادين . ولعل أرسطو قد اصطبغ
تفكيره بصحبة أصدقائه في مقلونيا أكثر من أثر معلمه في الأكاديمية .

فقالت آريل : « حسن جداً يا فيليب ، لقد أحسنت الكلام . »

- « لا تسخرى مني ، يا آريل ، فأنا جاد ، وأود أن أرى التاريخ
مكتوباً ككل ، أريد أن أرى سائر نشاط الرجال والنساء في عصر واحد وقد
نسج في وحدة ، وأن يبرز نشاطهم في العلاقات بينهم ، واعتماد بعضهم على
بعض ، وتأثيرهم المتبادل . أريد أن يعرض الماضي كما كان - كلا مجتمعاً .
خذ مثلاً عصر نابليون ، وانظر إلى أي حد اعتمدت الظروف السياسية على
الظروف الاقتصادية ، وكيف تقرر مصير حروب نابليون بالذهب الإنجليزي ،
وكيف اختفى روتشلد وراء ولنجتون . تأمل كيف عكس الأدب مظاهر العصر
السياسية والدينية ، كما هي الحال في شيللي ، وبيرون ، وشاتوبرياند . وكيف
حاكت الفنون في الثورة الفرنسية روما ، فندرع تالما Talma (١) خشبة المسرح

(١) فرنسوا جوزيف تالما (١٧٦٣ - ١٨٢٦) مثل فرنسي مشهور أسس تيأثرو الثورة
برعاية ديمولان ودانتون ، وكان نابليون من المعجيين به (المترجم) .

على طريقة روسكيوس Roscius (١) . وكيف اتخذت الموسيقى نغمة بطولية وإبداع ، وكيف يعكس يتهوفن ، وفي بعض الأحيان عن وعي ، أهواء « الثورة » وعظمة نابليون . كان العصر كله واحداً لا في فرنسا وحدها بل في سائر أوربا إلى الغرب من روسيا . إنى أريد تاريخاً لذلك العصر يظهرني على الماضي موحداً في جميع مظاهره كما كان عليه عندما كان حياً .

فقلت آرييل : « إنك تطلب شيئاً كثيراً ، فهذا مستحيل » .

فاقترحت قائلاً : « قد يكون من الممكن دراسة جميع الموضوعات في عصر واحد كما هو ممكن دراسة جميع العصر في موضوع واحد . يجب أن يكون من المؤلف كتابة تاريخ عصر فولتير كما كتبنا عن « الاضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية » ، أو « محاولة في فهم الأخلاق » أو كتاب جروت Grote « تاريخ الإغريق » . لقد فعل سيموندس Symonds من بعض الوجوه يا فيليب ، ما تطلبه ، حين كتب مجلداته السبعة عن عصر النهضة » .

« أجل ، لقد كان ذلك رائعاً ، ولكني أريد أن يدون كل عصر على هذا النحو . تأمل كم تكون فكرتنا عن التاريخ والحياة الإنسانية أفضل إذا ظفرنا بمثل هذه التأليف . بل أفضل من ذلك ، . . . تأمل كم نكون علماء أكمل إذا درسنا التاريخ بهذه الطريقة المركبة المحيطة . رحم الله أمثال جوته ، وليوناردو ، وأرسطو ، أرباب النظرية الكلية » .

وتساءلت آرييل : « لماذا لا تكتب أنت يا فيليب مثل هذا التاريخ ؟ إن المثال هو كل شيء . فإذا أمكن هذا العمل ، فاعمله » .

« إنى أحب أن أكتب تاريخ القرن التاسع عشر بهذه الطريقة . قاصراً إياه في حدود طاقتي على أوربا . ومع ذلك لن يتسع عمر شخص واحد لتحقيق هذا المشروع ، ولنعل ثلاثتنا معاً نستطيعونه . أترغب في التعاون معنا ؟ ما أعظم مأساة ذلك القرن ؟

(١) من مثل روما المشهورين ، وكان ذا صوت حسن ، وإلقاء بارع ، وحركة لطيفة (الترجم) .

الفصل الأول : عصر نابليون : الثورة ، حكومة الإدارة ، الانقلاب السياسي ، شاتوبرياند ، مدام دي ستال ، دافيد ، إنجرس ، جوته ، فشته ، هيغل ، بيتهوفن ، وردسورث ، كولردج ، سكوت ، شلى ، كيتس ، بيرون ، البابا بيوس السابع ، دي مبستر ، فالتون ، أوسترلتز ، نلسون ، ترافلجار ، همبولدت ، لافوازييه ، لابلاس ، لامارك ، الإسكندر الأول ، بوشكين ، ولنجتون ، ووترلو ، سانت هيلانة . تم تنزل الستار .

الفصل الثاني : العصر الرومانتيكى : فشته ، شلنج ، نوفاليس ، شلينج ، دوروثيا مندلسون ، جان بول ، هوجو وهرنانى ، جوتيه ، بلزاك وستندال ، دي موسيه وجورج ساند ، كيفيه وسانت هيلير ، هرشل ولييل ، شوبنهور وكومت ، نيومان وحركة اكسفورد ، ستيفنسون والآلة البخارية ، كارليل وما كولى ، تونر ودلاكروا ، فيبر ومندلسون ، شوبرت وشومان ، هينى وشوبان ، روبرت أوبن وأصحاب الموائيق ، الاشتراكيون المثاليون ومحطمو الآلات ، روتشلد ولويس فيليب ، لويس بلان ولويس نابليون ، ١٨٤٨ والثورة في كل مكان . وهنا يبلغ هذا الفصل الذروة .

الفصل الثالث : العصر الواقعى : نابليون الثالث ، جلادستون ، دزرائيلى ، بسمارك ، كافور ، طرق السكك الحديدية والمائية ، ديكنزوثا كرى ، تينسون وبراوننج ، جورج إليوت وآل برونتى ، وفوق ذلك كله دارون وسبنسر ، هكسلى وتندال والحرب مع الأساقفة ، رينان ، فلوير ، زولا ، دي موباسان ، سان ييف وتين ، كورو وميليه ، لينباخ وكونستابل ، لست وفاجنر ، جوجول وهرزن ، باكونين ولاسال ، ماركس وإنجلز ، الدولية (الأترناسيونال) ، مازينى ، جاريبالدى ، تحرير إيطاليا ، الحرب الفرنسية الألمانية ، سيدان والهزيمة ، الجمهورية الثالثة . ومجلس الشعب Commune وقوع ١٠٠٠٠٠٠ عامل صرعى بالرصاص في شوارع باريس .

الفصل الرابع : العصر الإمبريالى : الاختراعات - الكهرباء ، التليفون ، التلغراف ، الأسلاك ، اللاسلكى ، الصلب ، أشعة إكس ، باستير ، لستر ، مندل ، الصناعات الكبيرة ، النقابات ، الاتحادات ، الغزو الأوروبى لآسيا ،

الاستعمار ، المنافسة البحرية ، الحياوش المسلحة ، جامبنا ، سيزان ، فان جوخ ،
أناطول فرانس ديبوسى . ماترلنك ، روسيتى ، هولمان هنت ، برن جونس ،
سوينبرن ، أرنولد ، وايلد ، هاردى ، شو ، دستوفسكى ، تورجينف ،
تولستوى ، جوركى ، كروبتكين ، مسورجسكى ، تشايكوفسكى ، رسكى ،
كورساكوف ، جريج ، بحسورنسون . إيسن ، فردى ، براهمس ،
نيتشه ، براندس ، لوازى Loisy والمحددون ، ليو الثامن عشر وساره برنارد ،
هوبمان ودانزىو ، جراى والقيصر ، بوانكاريه وإسفولسكى ، الأرشديوك ،
سيراغينو ، ١٩١٤ ، الجنون والاحترق . آه ، لو اجتمع هذا كله فى حكاية
واحدة ، وصورة واحدة - هذه الفوضى الكبرى المعقدة العجيبة لحياة أوربا
فى القرن التاسع عشر . » .

آريل : « فلن فعل ذلك ، وسأقوم بالكتابة عن السيدات . متى نبدأ ؟ » .
فقال فيليب : « غداً » .

ثم أضاف آريل : « ولكنّ ثمة أمراً واحداً يجعلنى غير راضية عن رؤيتنا
للخالدين الليلة . فإنهم لم يخبرونا أبوجد تقدم فى التاريخ ، وهل يمكننا التنبؤ
بالمستقبل » .

فقال فيليب : « حسناً ، لعلنا نلتقى بهم مرة أخرى » .

الفصل الخامس عشر

هل التقدم وهم؟

١ - التقدم في شبابه

لم يخلف لنا الإغريق الذين يبدو أنهم مع سحر الزمن البعيد قد تقدموا أسرع من أي شعب آخر في التاريخ أي مناقشة عن التقدم في سائر ألوان كتاباتهم المتعددة . وثمة فقرة بديعة في رواية أسخيلوس Aeschylus (١) المسماة : (برومثيوس ، ٤٥١ - ٥١٥) نجبرنا فيها برومثيوس عن كشفه النار وكيف أدى ذلك إلى حضارة البشر ، ويقدم لنا في خسن بيتاً من الشعر خلاصة مراحل التقدم الثقافي . قد تعدها بعض الولايات الأمريكية مسرفة في عصريتها . وثمة إشارة عابرة إلى التقدم عند أوربيدس (المتوسلات Supplices : ٢٠١ - ٢١٨) . غير أننا لا نجد أي ذكر لهذه الفكرة عند زينوفون صاحب سقراط . ولا عند أفلاطون . أما نزعة أرسطو المحافظة الباردة فإنها تخرج ضمناً هذه الفكرة عن نطاق فلسفته . ذلك أن الإغريق كانوا يتصورون التاريخ في أغلب الأمر كالحلقة المفرغة . يتكرر ويعيد نفسه . وليس ما انتهى إليه أرسطو من أن جميع الفنون والعلوم قد اخترعت وفقدت « عدداً لا يحصى من المرات » إلا توقيفاً على قبثارة الرأي القديم عن الموضوع منذ طاليس حتى مرقص أوريليوس . ونصح الرواقيون الناس ألا يتوقعوا من المستقبل شيئاً . بل لقد انغمس الأبيقوريون في ملذاتهم في كآبة . ويبدو أنهم أحسوا . مثل برادلي . بأن : « هذا العالم أفضل العوالم الممكنة . وكل شيء فيه هو شر ضروري » (٢)

(١) أسخيلوس (٥٢٥ - ٤٥٦) مؤسس الدراما الإغريقية . ألف روايات كثيرة . سبق منها إلا سبع عشرة (المترجم) .

(٢) Appearance and Reality, p. XIV.

وأعلن هيجياس Hegesias القورينائي أن الحياة لا قيمة لها ، ونصح بالانتحار ؛ ومع ذلك فلا ريب أنه عاش عمر شويهور (١) .

وأصبح من المتوقع أن يسود مذهب التشاؤم مدينة مثل أثينا فقدت حريتها ، ولكن هذا اليأس ذاته يتردد في الرسائل اللاتينية في كل مرحلة من مراحل التاريخ الروماني . فيتحدث لوكريتيوس عن قوم يتقدمون خطوة خطوة . *pedetentim progredientes* ومع ذلك فإنه يجب عن سؤالنا الذي وضعناه على رأس هذا الفصل إجابة شديدة الاختصار قائلا : « جميع الأشياء هي دائماً *eadem omnia semper* » . أي يمكن إذا عاد الشاعر والفيلسوف العظيم إلى الحياة مرة أخرى أن يستعمل اللفظة نفسها في وصف حضارتنا المعاصرة ؟ لا ريب أنه يتأثر بالتضاعف الهائل لميكانيكياتنا وآلاتنا المسخرة لتحقيق كل رغبة . ولكنه في أكبر الظن سيسأل بأسلوبه القاتم ، أيكون الرجال والنساء الذين يستخدمون هذه الآلات البديعة أرق حالاً عقلياً وجسدياً وخلقياً من أولئك الأسلاف التعساء الذين كان عليهم أن يمشوا على أقدامهم . ولعله يسه أن يعلم بأن زوجة شابة قد قتلت زوجها بحديدة النافذة ، وسوف ينتهي إلى التسليم بأن الإنسانية قد اجتازت قروناً كثيرة لتكشف عن فائدة هذه الحوادث البديعة في هذا الصدد . ومع ذلك فسوف يقترح بلا نزاع أن هذا الأمر خلاف على الوسائل لا الأغراض - وأن مهمة قتل الأزواج صناعة قديمة جداً . فكلما تغيرت الصور فالأمر واحد . وما الأمر لو كان تقدمنا كله تحميماً في الأساليب لا في الأغراض ؟

أما الرأي عند غير لوكريتيوس من الرومان فهو أسوأ ؛ فهم لا يشكون في المستقبل وحسب ، بل يمتدحون الماضي . كان هوراس يمتدح أعمال القدماء ، ونعي تاسيتوس وجوفينال على فساد عصرهما ؛ وعدل فرجيل عن الأخيلة اللطيفة التي كان يمتاز بها الأدب اللاتيني إلى أسلوبه الغنائي يصور به المنظر القاتم للتكرار الأزلي ، وهو دورة دائمة وتكرار لا هدف له للأحداث المتشابهة . وفي ذلك يقول :

(١) عاش شويهور من سنة ١٧٨٨ إلى ١٨٦٠ أي ٧٢ عاماً (المترجم) .

سيعود تيفيس Tiphys آخر (نبي قديم) وآرجو (١) Argo أخرى يحملان الأبطال المحبوبين . وستقع حروب أخرى ، وسيذهب أخيل العظيم مرة ثانية إلى طروادة (٢) . وستظل ساعة الزمان تدور وتصب الماضي الثابت في حاضر جديد فارغ ووهي . فلا جديد تحت الشمس ، وكل شيء باطل وقبض ريح . وهذا مرقص أوريليبوس ، بعد أن كاد يتم أسى الحياة الإنسانية ، أى اجتماع السياسى والفيلسوف في شخص واحد ، يكتب قائلاً :

« تهيم النفس العاقلة حول العالم كله وخلال الفضاء المحيط ، وتخلق إلى اللانهاية ، وتتأمل أنواع فساد الكون وميلاده من جديد ، فترى أن ازدهارتنا لن يكون جديداً ، وأن أجدادنا لم يروا شيئاً أعظم مما قد رأينا . ويمكن أن نقول إن الرجل في الأربعين من العمر إذا كان على قدر متوسط من الذكاء ، فقد رأى كل ما مضى وكل ما سيكون . فما أشد ما يجرى العالم على نسق واحد » (٣)

فما أسباب عداوة الإغريق أو نفورهم من فكرة التقدم ؟ أذلك يرجع ، كما يظن الأستاذ بيري ، لقصر تجربتهم التاريخية ، وهذا القصر نفسه هو السرعة التي بلغت فيها حضارتهم الأوج ثم ذبلت مرة ثانية ؟ أم أن ذلك يرجع إلى فقرهم النسبي في المدونات المكتوبة عن الماضي ، وما يترتب على ذلك من غياب النظرة الكلية التي كان يمكن أن تجعلهم يتحققون من مقدار تقدمهم ؟ فقد كان لهم أيضاً عصر وسيط ، وقد ارتقوا خلال ألف عام من البربرية إلى الفلسفة ؛ ولكن الكتابة لم تتدرج من تقييد (بوالص) الشحن إلى تسجيل ألوان الأدب إلا عند نهاية ذلك التدرج . فقد كانت رقائق الجلود Parchement (٤) من الغلاء

(١) تحكى الأساطير اليونانية أن بلياس بن بوزيدون اغتصب عرش إيسون من أعمال تساليا ، فأخفى أصدقاء إيسون ابنه جيسون في الغابات حتى شب وأصبح قوياً بطلاً ، ثم طالب بملك أبيه . وأقنعه بلياس بأن يأتي عملاً من أعمال البطونة ، حتى يستحق العرش . فابتنى لذلك السفينة أرجو ، ومعناها السريعة ، وسحب معه من الأبطال هرقل وهيلاس وأورفيوس وغيرهم (المترجم) .

(٢) Fourth Eclogue, quoted by Bury, J.B., The Idea of Progress, p. 12.

Bury, p. 13. (٣)

(٤) البرشهان نسبة إلى مدينة برحام Pergame اليونانية حيث أنشئ فيها أول مصنع لنديغ جلود الأغنام الخاصة بالكتابة (المترجم) .

حيث يصعب التفريط فيها بكتابة التاريخ المخرد . أو أن ذلك يرجع ، نغني هذا الإغفال للتقدم ، إلى النمو المقيد للصناعة الإغريقية ، وإخفاق الإغريق في التقدم المحسوس عن فنون الكريبتين الصناعية ، أو في الإنتاج الكمي لوسائل الراحة المادية ، وهي أساس الاعتقاد الحديث في التقدم ؟

وإذا نظرنا إلى العصر الوسيط وجدنا أن الفقر المائل في ألوان الترف هو الذي وقف فكرة التقدم ، على حين أن الأمل في الآخرة أصبح محور الحياة . ويبدو أن الاعتقاد في عالم آخر يتغير مباشرة مع الفقر في هذا العالم ، وهو اعتقاد يحصل في الفرد غالباً ، وفي الجماعة دائماً . فعندما تنمو الثروة تبتعد الآخرة عن مركز الاهتمام ، وتصبح فكرة ضئيلة لا معنى لها . ومع ذلك فقد سيطرت فكرة الآخرة ألف عام على عقول البشر .

ثم جاءت الثروة لغرب أوروبا تحمل معها « النهضة » و « الثورة الصناعية » ، وكلما تضاعفت استبدلت بالأمل في الآخرة فتنة التقدم . وقد جعل ذلك الحادث العظيم الفريد في التاريخ الحديث - نغني الكشف الكوبرنيقي لعلم أهمية الأرض من الناحية الفلكية - كثيراً من النفوس الرقيقة غير سعيدة . ولكن هذا الحادث الذي رد السماء الآخرة إلى مجرد سماء وفضاء أرغم روح الإنسان المرنة على تكوين إيمان في جنة أرضية . يعوض بها لنفسه عما فقدته . وكتب كامبانيا ، ومور ، وبيكون مدناً فاضلة ، وأعلنوا اقتراب السعادة الكلية . وأخذت أوروبا المحدثه الثراء تستورد ألوان الترف ، وتصدر الزهاد والقديسين . وصنعت التجارة المدن ، وشيدت المدن الجامعات ، وخرجت الجامعات العلم ، وأنتج العلم الصناعة ، وأفضت الصناعة إلى التقدم . وكتب جار جانتوا إلى بانناجرويل ^(١) يقول : « جميع العالم مملوء بالعلماء ، والمدرسين المتعلمين ، والمكتبات الواسعة » . ويقول بيير دي لاراميه ^(٢) Pierre de la Ramée : « في قرن واحد - أي من ١٤٥٠ إلى ١٥٥٠ - شهدنا تقدماً في الناس والمؤلفات أعظم مما شهدته أجدادنا خلال

(١) جار جانتوا Gargantua و بانناجرويل Pantagruel ، قصة كتبها رابليه عام ١٥٣٢ ،

تصور فيها أن جار جانتوا يكتب إلى ابنه بانناجرويل عن العلوم التي يجب عليه أن يتعلمها (الترجم) .

(٢) ١٥٧٢ - ١٥١٥ .

القرون الأربعة عشر السابقة جميعاً . ولهذا الكلام وقع تهكمى معاصر ؛ إذ أى قرن لم يضع فوق هامته إكليلاً عظيماً من هذا النوع ؟ ولكن مثل هذه الثقة بالنفس كانت النعمة الأساسية فى عصر النهضة : فنحن نسمعها فى سطر من كتب فرانسيس بيكون تعرف على وتر الأوربيين الحساس ضد الروح الأسيوى . ومن الواضح أن فكرة التقدم تمثل بالنسبة إلى الحضارة الصناعية والديبوية ما كانت تمثله فكرة الأمل فى الآخرة بالنسبة للعالم المسيحى فى العصر الوسيط . إن أعز معتقدات المفكر الحديث ، وهى على رأس سائر الفلسفة الاجتماعية عندنا ، هى الاعتقاد فى التقدم والديمقراطية . ولو اضطررنا إلى هجر كلتا هاتين الفكرتين لتعربنا فكراً وتخلفنا فى سخرية وراء أى جيل فى التاريخ .

٢ - التقدم فى أوجه

لقيت فكرة التقدم أول تعبير محدود فى ذلك التفاؤل القوى الذى ساد فى القرن الثامن عشر . وشذرو رسو عن الركب ، وفضل متوحشى أمريكا الذين لم تقع عينه عليهم ، على الباريسيين القساة الذين أرهقوا أعصابه . وظن أن التفكير ضرب من الانحلال ، وبشر بعصر ذهبى سالف يردد صدى جنسة الفردوس وخطيئة الإنسان . حتى إذا أقبلنا على فولثير المندفع الجرىء استنشقتنا أول نسمة من الهواء المنعش لعصر التنوير Enlightenment . ولم يتوهم « سيد العقل العظيم » أى أوهام باطلة عن الهنود ، إذ كان يعلم أن الإنسان أفضل فى ظل الحضارة منه فى حياة التوحش . وكان معترفاً بفضل الاستثناس البطيء والناقص للوحش البشرى ، وآثر باريس على جنة الفردوس .

أما تلميذاه تيرجو وكوندورسيه فهما اللذان جعلوا فكرة التقدم الروح المحرك للعصور الحديثة . وفى عام ١٧٩٣ كان يخبىء نبيلى فرنسى اسمه كوندورسيه (أو إن شئت الحق ، مارى جان انتوان نيقولاس كارينات ، ماركيز دى كوندورسيه) من المقصلة (الجيلوتين) فى فندق (بنسيون) صغير فى ضواحي باريس . ذلك أن روبسيير الزيه المتعصب الدائم لمذهب روسو دعاه إلى التسليم كى يتخلص منه ، لأنه كان قد صوت ضد الحكم على الملك ، مثل توم بين Tom Paine . وهناك فى حجرة منعزلة ، بعيداً عن أى صديق ،

وبغير أى كتاب يستعين به . وفى مركز كان يمكن أن يدفع المرء إلى نظم أنشودة
فى التشاؤم واليأس ، كتب كوندورسيه أعظم كتاب يمتاز بالتفاؤل دبحته يد إنسان ،
وهو الكتاب المشهور فى التأليف الخاصة بالتقدم واسمه : تخطيط لصورة عن تقدم
العقل البشرى *Esquisse d'un tableau des progrès de l'esprit humain*
فلما فرغ كوندورسيه من كتابة هذه الرسالة العالوية العظيمة عن المستقبل المحيد
لل بشرية ، هرب من باريس إلى فندق بعيد فى الريف ، وهناك ألقى بجسده
المتعب فوق السرير ، وهو يظن نفسه آمناً ، واستغرق فى النوم . واستيقظ ليجد
نفسه محوطاً برجال « الحنדרمة » الذين قبضوا عليه باسم القانون . وفى صباح
اليوم التالى وجدوه ميتاً على أرض الزنزانة فى سجن القرية ، ذلك أنه كان يحمل
معه دائماً قنينة من السم ليتفادى المقصلة .

ويكفى أن تقرأ كتابه كى تتحقق أى جيل بعيد عن الوهم ، زاخر
بالشك ، نعيش فيه . فهنا رجل فقد - كما هو واضح - كل شىء ، وضحي
بالمزلة والمنصب والمال فى سبيل « الثورة » ، ثم أصبح فى تلك اللحظة مطارداً حتى
الموت من أجلاف أسكرتهم القوة ، وقد كتب عليه أن يتحمل بمرارة رؤية
الثورة وهى أمل العالم تنهى إلى الفوضى والإرهاب . ومع هذا كله فإن كتابه
يمثل نهاية ما يبلغه أمل إنسان فى الإنسانية ، فلم يؤمن الناس هذا الإيمان
بالإنسانية من قبل ، ولعلمهم لن يؤمنوا بها مثل هذا الإيمان من بعد . انظر مثلاً
إلى البلاغة التى يكتب بها كوندورسيه عن موضوع الطباعة . إنه على يقين أنها
السبيل إلى خلاص البشر وتحرير الإنسان . ولكن لم يخطر بباله ظهور الصحافة
المثيرة . وهو فى ذلك يقول : « لقد ربطت الطبيعة برباط لا فكاك فيه بين نمو
المعرفة . وتقدم الحرية والفضيلة ، واحترام حقوق الإنسان الطبيعية » (١) ويقول
فى موضع آخر إن الازدهار : « سيفتح الطريق أمام الناس للإنسانية والإحسان
والعدل » . ثم يعلن بعد ذلك مذهباً من أشهر مذاهب عصر التنوير وأعظمه دلالة
عليه فيقول : « لا توجد حدود ثابتة لتقدم الملكات الإنسانية . لأن قبول
الإنسان للكمال لا حد له على الإطلاق ، ولذلك فإن تقدم هذا الكمال وهو أعلى

A Sketch of a Tableau of the Progress of the Human Spirit, English (١)
Translation, p. 15.

من أى قوة تعوقه ليس له حد آخر خلاف الزمن الذى تزول فيه الكرة الأرضية
التي أسكنتنا الطبيعة على ظهرها» (١).

تم يرسم في الختام صورة مغرية عن المستقبل . وهو يقصد بها التعبير
عن العصر الذى نعيش فيه . فكلما انتشرت المعرفة تناقصت العبودية سواء بين
الطبقات أم بين الأمم . « ثم يأتى زمان لا تشرق الشمس فيه إلا على الأمم الحرة
وحدها ، تلك التي لا تعرف بسيد آخر خلاف عقلها ، وإن يوجد فيها طغاة
أو عبيد . ولا كهنة وتوابعهم الأغبياء المنافقون ، اللهم إلا في صفحة التاريخ
وعلى خشبة المسرح» (٢) . سيضعف العلم مدى سعة الحياة الإنسانية مشى وثلاث .
فتحرر المرأة من سلطان الرجل ، والعامل من سيطرة صاحب العمل ، والرعية
من حكم الملك . ومن يندرى لعل البشرية تنسى الحرب . ثم يحتم كلامه متحمساً :
« ما أبدع ما نسقت هذه النظرة إلى الجنس البشرى تنسيقاً يعزى الفيلسوف
الذى يندب الأخطاء وأعمال الظلم الفاضحة والجرائم التي لا تزال الأرض تتدنس
بها . إن تأمله لهذه الصورة مكافأة له عن جميع الجهود التي يبذلها في العون على
تقدم العقل وإرساء قواعد الحرية . ويحتم له أن يعد هذه الجهود جزءاً من سلسلة
القدر الأزلية التي تجرى فيها البشرية . وهو يرى في هذا الإقناع البهاء الصحيح
للفضيلة ، ولذة تحقيق مهمة باقية لن تفسدها ظروف الزمان . . . هذا الشعور
هو الملائذ الذي يطوى نفسه عليه ، ولا تستطيع ذكرى من يضطهدونه أن تتابعه
إليه . إنه يجمع نفسه في الخيال بمن استعاد حقوقه ، وتخلص من الاستبداد ،
وسار بخطى سريعة في طريق السعادة . إنه ينسى خطوبه ذاتها . . . فلا يعيش
بعده في الضيق والسعاية والحقد ، بل يصبح مرتبطاً بهذه الكائنات الأحكم والأسعد
حظاً ، تلك التي ساهم بشغف شديد في خلق ظروفها المرموقة » .

ألا ما أسخى هذا التفاؤل ، وما أشجع هذه المثالية ، وما أعمق هذه العاطفة
نحو البشرية . ترى أيهما أحق منا بالازدراء : حماسة كوندورسيه الساذجة ، أم
الإحجام الفكرى في عصرنا الذى أصبح بعد تحقيق كثير من أحلامه لم يعد
يجرؤ على الاضطلاع بما تبقى منها ؟

(١) المرجع السابق ص ٩ . (٢) المرجع السابق ص ٢١٦ .

وتقوم خلف هذه الفلسفة الزاهية الثورة التجارية والثورة الصناعية .
 حيث نجد عجائب جديدة تسمى الآلات القادرة على إنتاج الضروريات وبعض
 أدوات الترف في الحياة بسرعة لم يسبق لها مثال ، وبكميات لم تكن تخشى بالبال .
 ولن يطول انتظار الناس إلا ريثما تصنع جميع الحاجيات المطلوبة حتى يتبدد
 الفقر . وظن بنثام ومل^(١) الأكبر ، حول عام ١٨٣٠ ، أنه في استطاعة إنجلترا
 في ذلك الوقت القيام بالتعليم العام لجميع السكان ، فلا يكاد القرن يشرف على
 النهاية حتى يحل التعليم العام جميع المشكلات الاجتماعية . وتصور كومت جميع
 التاريخ كتطور في ثلاث مراحل تبدأ من المرحلة الدينية إلى الميتافيزيقية وتنتهي
 بالعلم . وبعث كتاب باكل « تاريخ الحضارة » (١٨٥٧) الأمل في أن يقضى
 انتشار المعرفة على جميع الشرور . وتكلم دارون بعد ذلك بعامنين قائلاً : لقد
 اصطبغ العقل الحديث بصبغة النظر في أمور الدنيا اصطبغاً شديداً ، ولم تحتل
 فكرة « طوبيا » مقبلة مكان جحيم دانتي فقط ، بل حلم روسو في العودة إلى
 الماضي الذهبي . ووجد سبنسر بين التقدم والتطور ، وعدهما شيئاً
 لا مناص منه . وفي أثناء ذلك تدفقت الاختراعات الصادرة عن ذوى العقول
 اليقظة ، ففت الثروات بشكل واضح ، وخيل إلى الناس أنه لا يوجد صعب
 أو مستحيل أمام العلم الذي تحرر في النهاية من القيود الدينية . لقد تأمل الناس
 في النجوم وعرفوا أسرارها ، وقبلوا في شجاعة تحدى الطيور الأزلى في طيرانها .
 فماذا عجز الإنسان عن فعله ؟ وماذا لم نتوقه منه في تلك الأيام الحالية من الشك
 قبل الحرب ؟

٣ - الدعوى ضد التقدم

ومع ذلك فقد ارتفعت أصوات تتساءل عن حقيقة التقدم أو قيمته .
 حتى في نغمات تلك الثروة الهائلة ، والقوة النامية ، والسرعة المتزايدة ، مما تميزت به
 حضارة الغرب . ولقد قال مكيافلي وهو في أوج ازدهار عصر النهضة : « كان
 عالم الإنسان في جميع العصور واحداً ، يختلف حقيقة من أرض إلى أخرى ،

(١) جيس مل Mill ولد ١٧٧٢ وتوفي ١٨٣٦ ، وابنه جون ستوارت مل ولد ١٨٠٦
 وتوفي ١٨٧٣ ، والابن أشهر ، وله مؤلفات في المنطق وفي مذهب المنفعة (المترجم) .

ولكنه يقدم على الدوام المظهر نفسه عن بعض المجتمعات المتدرجة نحو الازدهار وبعض المجتمعات الأخرى المنحدرة إلى الانحلال» (١). وصور فونتيل Fontenelle في كتابه: «مآورات عن الموتى» (١٦٨٣) سقراط ومونتيني يتناقشان في مسألة التقدم، وذلك في الحميم فيما يظهر وهو مصير جميع الفلاسفة. وكان سقراط في شغف إلى سماع ما حققته البشرية من تقدم منذ أن تجرع السم القاتل. ولكنه حزن حين علم أن الناس لا يزالون في الأغلب متوحشين. وأكد له مونتيني أن العالم قد فسد. فلم يعد هناك هذا الطراز القوي من الناس مثل بركليس، وأرستيدس (٢) وسقراط نفسه. فهز الفيلسوف الشيخ كتفيه وقال: «كنا في زماننا نبجل أجدادنا أكثر مما يستحقون، واليوم يقدرنا الخلف أكثر مما نستحق. الحق ليس شمة فارق بين أجدادنا وبين أنفسنا وبين خلفنا». وعندئذ لخص فونتيل الموضوع تلخيصاً قوياً في هذه الكلمات: «القلب هو هو على الدوام، والعقل يسعى إلى الكمال، العواطف والفضائل والردائل لا تتغير، والمعرفة تبدأ في ازدياد» (٣).

ولقد قال إيكermann (٤): «يبدو أن نمو الإنسانية أمر يرجع إلى آلاف السنين» فأجابه جيته: «من يدري؟ لعله يرجع إلى ملايين. ولكن دع الإنسانية ما شاءت أن تلوم، فسيكون هناك على الدوام عقبات في طريقها، وكذلك جميع أنواع الكوارث، حتى تنمى قواها. سيصبح الناس أعظم مهارة وأوفر ذكاء، ولكنهم لن يكونوا أفضل، أو أسعد، أو أعظم أثراً في العمل، على الأقل لفترة محدودة. إنني لألمح زماناً مقبلاً لا يعنى الله فيه بالجنس البشري، ويرى من اللازم أن يعيد الخلق ثانياً (٥)». وقال شوبنهاور: «يجب أن يكون شعار التاريخ: ليس «هذا أو ذاك» eadem, sed aliter —

(١) انظر Bruy المرجع السابق، ص ٣١.

(٢) ارستيدس Aristedes سياسي أثيني، وقائد حربى عاش من ٥٣٠ إلى ٤٦٨ ق.م،

وكان يسمى العادل (الترجم).

(٣) Nordau, Interpretation of History, p. 286 ; Bury, p. 99

(٤) يوحنا بطرس إيكermann (١٧٩٢ - ١٨٥٤) كان صديقاً لجيته ومساعداً له، وهو

الذى أعانه في نشر مؤلفاته النشرة الأخيرة. وله كتاب بعنوان «محدثات مع جيته» في ثلاثة أجزاء يعد سجلاً لأحداث جيته اليومية مع إيكermann.

(٥) Bury, p. 259.

وهي القضية ذاتها مع بعض الخلاف . وقال نيتشه : إن الإنسانية لا تتقدم ، وأكثر من ذلك أنها لا توجد : أو هي عبارة عن معمل فسيولوجي شاسع تجري فيه الطبيعة التي لا تحفل بشيء تجارياً ، فتنتج بعض الأشياء في كل عصر ، ولكن معظم الأشياء تفشل . هذه هي النتيجة التي تنبئ إليها الرومانتيكية الألمانية .

وكان دزرائيلي من أوائل الذين أحسوا بالفرق بين التقدم الطبيعي والأخلاقي ، بين ازدياد القوة وبين تحسين الأغراض . وفي ذلك ينقل عنه دين إنج : « يتحدث الأوربي عن التقدم لأنه استطاع بمعونة بعض الاكتشافات القليلة أن يقيم مجتمعاً يحب خطأ أن الراحة هي الحضارة » (١) . ويقول دزرائيلي : « ليست أوربا المستنيرة سعيدة ، فحياتها هي تسميتها تقدماً . . . تقدماً إلى أي شيء ؟ » (٢) . وتساءل رسكن (٣) ، وهو من أغنياء القوم ، عن التوحيد بين التقدم والثروة فقال : أهؤلاء الأغنياء من أصحاب محلات الأحذية والسفن نماذج للإنسانية أفضل من نماذج جونسون أو شكبير أو شوسر ؟ لقد اعترف كارليل وتولستوي بالتقدم الهائل في وسائل الإنسان لتحقيق أغراضه . ولكن أي نفع لهذه القوى التي لم يسبق لها مثيل ما دامت قاصرة على مضاعفة قدرة الناس على تحقيق أغراض تبلغ من التناقض والغباء والضرر الذي يبلغ حد الانتحار ما لم تبلغه قط من قبل .

لقد ذهب السير آرثر بلفور حول عام ١٨٩٠ ، وبطريقته الفكهة والهادمة ، إلى أن سلوك الإنسان ونظم المجتمع لا تقوم على الفكر الذي يتقدم ، بل على الشعور والغريزة الثابتين ثباتاً يكاد ألا يصيبهما أي تغيير منذ آلاف السنين ، ولن تتغيرا بعد آلاف السنين . وفي هذا كما كان يعتقد سرفشلنا في تحويل معرفتنا النامية إلى سعادة أعظم أو سلام أدوم . بل إن ازدياد المعرفة

(١) Dean Inge, p. 179.

(٢) تنكريت Tancred ، الكتاب الثالث ، الفصل السابع - (تنكريت قصة كتبها دزرائيلي عام ١٨٤٧ ، حيث يتصور فيها تنكريت يهجر المجتمع في لندن ويرحل إلى الشرق ، وفي البلاد المقدسة تحدث له تجربة صوتية تؤدي إلى إحياء الغرب - المترجم) .

(٣) جون رسكن (١٨١٩ - ١٩٠٠) مصور وأديب إنجليزي كان أبوه من أغنياء تجار البحر في لندن (المترجم) .

قد يكون علة من علل التشاؤم السائد في زماننا . وقد جاء في سفر الجامعة من كلامه : « الذي يزيد علماً يزيد حزناً (١) » . ويؤيده خليفته الحديث أناتول فرانس (إذا أخذنا بما يقوله السكرتيرون) : « الإنسان أشقى مخلوق على ظهر الأرض . ولقد قيل إن الإنسان سيد المخلوقات ، كلا يا صديقي ، الإنسان هو سيد العذاب » (٢)

وقد أدى النقد الاشتراكي للصناعة الحديثة إلى فساد إيماننا بالتقدم بعض الفساد . ذلك أن السعي إلى حل الناس على تبيين مظالم الزمن الحاضر قد اضطبع بصيغة تمجيد قناعة الماضي وما امتاز به من هدوء . فهذا رسكن ، وكارليل ، وموريس ، وكروبتكين قد رسموا للعصر الوسيط من الصور ما يجعل المرء يشفق إلى أن يصبح عبداً مرتبطاً بالأرض وتابلاً لسيد يضاف إلى ملكه وزوجه . وفي أثناء ذلك كان نقد الأحرار للسياسة الحديثة يكشف عن الفساد والعجز في كل ناحية من نواحي الحياة تقريباً فهدفنا إلى الشك في قدسية الديمقراطية التي ظلت قوياً من الزمان أقدم معبود لنا . ذلك أن تقدم الطباعة وسرعة انتشارها أدى فيما يبدو إلى الحط من قدر الممتازين من المفكرين أكثر من رفع المغمورين وانقضت التفاهة mediocrity في السياسة والدين والأدب بل وفي العلم . وأصبحت الأثر وبولوجيا عند أهل الشمال وإرادة الاعتقاد في الفلسفة تنافسان علم التناسلات في الزرائب . وعلم النفس النمساوي ؛ وحلت الصحافة محل الأدب ، واتخذ « فن » الصور المتحركة الدراما ، ودفع التصوير الشمسي التصوير الزيتي من الواقعية إلى التكعيبية ، إلى المستقبلية Futurism (٣) ، إلى النقطة (٤) Pointillisme ، إلى غير ذلك من الانحرافات الخنوية . وأخذ النحت عند رودين يتوقف عن الحفر ليتبع النقش ، وفي القرن العشرين أخذت الموسيقى تنافس آنية الصينيين الدقيقة ومراوحهم .

(١) سفر الجامعة ابن داود - انظر ١ - ١٨ (المترجم) .

(٢) Brousson, p. 61.

(٣) المستقبلية futurism حركة في الفن ظهرت بايطاليا بعد الحرب الأولى ، وهي نزعة

متطورة عن التكعيبية Cubism ، تعتمد على بعدين فقط في الرسم (المترجم) .

(٤) النقطة مذهب ابتدعه الرسام جورج سيوارت الفرنسي في القرن التاسع عشر ، وكان

يرسم على القماش (الكانفاس) (المترجم) .

ويروجع تزعزع إيمان هذا القرن في التقدم إلى انحدار الفن ونشوب الحرب ؛ ذلك أن انتشار الصناعة وانحلال الأرستقراطية تعاونا على إفساد الأسلوب الفني Artistic form . فعندما تفوقت الآلة على الصانع اليدوي ذهبت المهارة معه . وعندما اضطرت الآلات إلى البحث عن أسواق واسعة لما تنتجه من سلع . ولاءمت بين منتجاتها وبين حاجات الأغلبية من الناس وأذواقهم . حلت النماذج الموحدة والكمية والشعبية محل النماذج البديعة والجمال . ولو أن الأرستقراطية بقيت منبعاً للأحكام الجمالية التي يتخذها سواد الناس . فقد يمكن أن نفهم اتخاذ الصناعة والفن طريقاً للعيش في سلام . ولكن كان على الديمقراطية أن تدفع ثمن القيادة الشعبية في الفن والسياسة على السواء . فأصبح ذوق الملايين من أوساط الناس مرشد الصانع ، ومؤلف التمثيليات ، وكاتب السيناريو ، والقصصى ، وأخيراً المصور والنحات ومهندس البناء . وأضحى الثمن والحجم معيار القيمة ، وحلت محل الجمال والصناعة الدقيقة بدع جديدة عجيبة كغاية للفن . وبعد أن فقد الفنانون الباعث إلى ذوق أرستقراطي تكوّن على مرّ الأجيال من ثقافة ممتازة ، لم يحفلوا بالتماس كمال التصور والتنفيذ . بل أخذوا يهدفون إلى تحقيق تأثير مذهش يمكن أن يقال عنه بلا ريب إنه أصيل . وأصبح التصوير مرّضياً ، وتوقف البناء عن نموه . البديع إزاء الاضطرار إلى تشييد الأبنية لبضع سنين لا لعدة قرون ، وهبطت الموسيقى إلى مستوى الأماكن المحتشدة بالناس وإلى المصانع تحاول إيجاد ألحان تلاءم هذه المجتمعات العصبية الموافقة من الحزازين المثقفين ، والخدمات المتحررات . وانحط النحت على الرغم من التخفف من الثياب ، والحصول على آلاف الدروس في التشريح من المسارح . ولولا شيوع السيارات ووسائل التجميل لكان القرن العشرون فيما يبدو بشيراً بانطفاء شعلة الفن انطفاء تاماً .

ثم جاء « الجنون الأكبر » Great Madness . واكتشف الناس كم كان رداء الحضارة رقيقاً . وإلى أي حد كان أمنهم قلقاً . وحريرتهم مزعزعة الأركان . لقد قلّ عدد الحروب ، ولكنها ازدادت انتشاراً . أما العلم الذي كان عليه أن يكون سبيل التقدم ، فقد أصبح ملك الموت الذي بلغ من سرعة إصابته مقاتل الناس ما يجعل معارك العصر الوسيط أشبه بمباريات المدارس الرياضية . وألقى

الطيارون والبواسل القنابل على النساء والأطفال ، وشرح علماء الكيمياء فضائل الغازات السامة . وتبددت جميع الصداقات الدولية التي قامت خلال قرن نقل المترجمون فيه الآداب ، وتعاون العلماء ، وتوثقت الصلات التجارية، وتداخلت العلاقات المالية . ثم انزلت أوروبا إلى مئات من القوميات المتعادية . فلما وضعت الحرب أوزارها اتضح أن الغالب والمغلوب قد فقدوا الأشياء التي تحاربوا من أجلها ، وأن الإمبريالية imperialism الجشع انتقل من بوتسدام إلى باريس ، وأن الدكتاتوريات الضعيفة أخذت تحل محل الحكم المنظم والدستوري ، وأن الديمقراطية أخذت في الانتشار والموت . وتبدد الأمل ، لأن الحيل الذي عاش خلال الحرب لم يعد يعتقد في أي شيء . وطغت موجة من الاستخفاف والاستهزاء على جميع الناس ما عدا قلة قليلة من ذوي التجارب العميقة . واليوم أصبحت فكرة التقدم تبدو من أتفه الأفكار التي سخرت من شقاء الإنسان ، أو رفعت إلى مثالية باطلة وسخافة عظيمة .

٤ - اعتبارات صغيرة

قال فولتير : « إذا شئت أن تحاورني فلتحدد ألفاظك . ماذا تعني بـ «التقدم»؟
اعلم أن التعريفات الشخصية لن تصلح ، فليس لنا أن نفهم التقدم في اصطلاح أمة واحدة ، أو دين واحد ، أو قانون أخلاقي واحد . فلو قلنا مثلاً إن التقدم هو تزايد الشفقة Kindness فقد يزعج هذا أتباع فلسفة نيتشة الصغار . وليس لنا كذلك أن نعرف التقدم باصطلاحات السعادة ، لأن البلهاء أسعد من العاقرة ، وأولئك الذين نحترمهم أكثر من غيرهم ينشدون العظمة لا السعادة . أفيمكن أن نجد تعريفاً موضوعياً لهذا الاصطلاح ؟ - تعريفاً يصلح لأي فرد ، وأي جماعة ، بل وأي نوع ؟ فلنعرف التقدم مؤقتاً بأنه رقابة الحياة . رقابة متزايدة على البيئة . ونعني بالبيئة جميع الظروف التي تكون شروط تناسق الرغبات وتحقيقها . فالتقدم هو السيطرة على الفوضى بالعقل والغاية ، وعلى المادة بالصورة والإرادة .

وليس من الضروري كي يكون الواقع واقعاً أن يكون متصلاً ، فقد توجد « هضبات » في الواقع ، وعصور مظلمة ، وتراجع مخيب للآمال . ولكن إذا كانت المرحلة الأخيرة هي أسمى المراحل ، فلنا أن نقول إن الإنسان يتقدم .

هذا وينبغي أن نتجنب التفكير المبسر عند تقدير العصور والدول . فلا ينبغي الموازنة بين دول في عهد شبابه وأخرى في زهرة نضوجها الثقافي . ولا ينبغي كذلك أن نوازن بين أردل الدول أو أفضلها في عصر . وبين الممتازة أو المتأخرة في العصور السوالف . فإذا رأينا أن طراز العبقرية السائد في الدول الناشئة كأمریکا وأستراليا يتجه إلى التنفيذ والارتياح والعلم أكثر من رسم الصور أو قرض الشعر ، ونحت التماثيل أو صوغ الألفاظ . أدركنا من ذلك أن كل زمان ومكان يصبو إلى مزاج خاص من العبقرية ويحتاج إليه أكثر من غيره . من الأزمنة والبقاع . وأن نوع الثقافة المطلوب لا يتم إلا حين يعبد القدماء له الطريق ويرفعون من سبيله العقبات . وإذا رأينا أن الحضارات تنشأ وتزول ، وأن الفناء مكتوب على جميع أعمال الإنسان ، فسوف نقر بأن الموت شيء لا فرار منه ، ونتعزى بأننا في أثناء حياتنا وحياة شعوبنا نرتفع قليلاً قليلاً إلى أعلى ، ونصبح أفضل بعض الشيء مما كنا عليه . وإذا رأينا أن الفلاسفة اليوم أدنى إلى الأقران منهم إلى العالقة أيام أفلاطون عريض الأكتاف ، وسقراط قوى البنية . وأن النحاتين أضال من دوناتيلو أو أنجلو . وأن المصورين أقل في مستواهم من فلاسكويز . وأن الشعراء والمؤلفين لا يذكرون إلى جانب شللي وباخ ، فليس لنا أن نياس ، لأن هذه النجوم لم تسطع كلها في ليلة واحدة . صفوة القول تنحصر المشكلة التي نبحثها في هذا الأمر وهو : هل ارتفع متوسط قدرة الإنسان بين الناس جميعاً بحيث يبلغ اليوم ذروته أو لم يرتفع ؟

الحق أننا إذا نظرنا نظرة شاملة ووازننا بين حياتنا الحديثة على الرغم مما فيها من نقص وفوضى . وبين جهل البدائيين وما عندهم من خرافات وقسوة وتوحش وأمراض . ارتاحت أنفسنا بعض الشيء . وإذا كانت الطبقات الدنيا من الجنس البشري اليوم قد لا تختلف إلا قليلاً عن مثل أولئك الأقباط ، فيوجد فوق هذه الطبقة الدنيا آلاف وملايين بلغوا من السمو العقلي والخلق مبلغاً لا يمكن في أكبر الظن أن يتصوره عقل البدائي . قد نلوذ بالخيال أحياناً تحت ضغط الحياة المعقدة في المدينة فنتم ببساطة أيام التوحش الحادثة . غير أننا حين نستيقظ من هذه اللحظات الرومانتيكية نعرف أن هذا الحرب رد فعل على أعمالنا الحاضرة ،

وأن هذا الشغف بالبربرية ككثير من آرائنا الناشئة إنما هو تعبير متعجل نشأ عن سوء الملاءمة لحياة الشباب ، وهو بعض الآلام المتخلفة في الوقت الحاضر عن نضوج الفرد . وبين البحث في مثل هذه القبائل المتوحشة التي تعيش الآن ارتفاع نسبة الوفيات بين أطفالهم ، ونقص متوسط أعمارهم ، وبطء سرعتهم ، وقصر قامتهم ، وضعف إرادتهم ، وانتشار الأوبئة بينهم (١) . إن المتوحش المسالم ضائق القلب ، وهو كالطبيعة لا تنهج به إلا الحشرات والقاذورات .

ومع ذلك فقد يرد علينا المتوحش الحجة ويسأل كيف نستمتع بما عندنا من سياسة وحروب ، وهل نظن أنفسنا أسعد من القبائل التي يتردد صدى أسمائها العجبية في كتب الأنثروبولوجيا . سيسلم المؤمن بالتقدم أننا قطعنا أشواطاً كثيرة في فن الحرب ، وأن ساستنا ، فيما عدا بعض الاستثناءات المزعجة ، لا بد أنهم يجعلون الساحة الرومانية Roman Form في أيام ميلون وكلوديوس - ولو أن مسر كولدج Mr. Coolidge امتاز على نيرون امتيازاً محسوساً . أما السعادة فلا أحد يمكن أن يعرف عنها شيئاً ، فهي سراب خادع يحطمه البحث ولا يخضع للقياس . ومن المفروض أن السعادة تعتمد على الصحة أولاً ، وعلى الحب ثانياً ، وعلى الثروة ثالثاً . أما الثروة فقد قطعنا في التقدم بها شوطاً عظيماً يثقل على ضمير المفكرين . وأما الحب فنحاول التعويض عن فقدان أغواره بألوان من الابتكارات والتنويع لم يسبق لها مثل . ثم إن آلاف وصفات الغذاء والعقاقير التي نتناولها تهيب لنا الاعتقاد أن المرض يركبنا بالإضافة إلى بساطة الناس في الأزمنة البسيطة . ولكن هذا وهم ، فنحن نظن أنه حيث يوجد أطباء كثيرون فلا بد أن الأمراض قد ازدادت عن ذي قبل . الحقيقة أن أوجاعنا لم تزد عما مضى ، ولكن كثر في أيدينا المال الذي يسمح بعلاج الأمراض وتخفيف وقعها والتغلب عليها . وهي تلك الأمراض التي كان البدائيون يموتون بها دون أن يعرفوا أسماءها الطبية .

وهناك معيار واحد للصحة ، ومن ثمَّ للسعادة . بعض الشيء ، يصلح أن يكون موضوعياً ويعتمد عليه : إنه إحصاء الوفيات الذي تجريه شركات التأمين

(١) انظر Todd, p. 135

وهي التي تعلم أن عدم الدقة في الحساب يكبدها خسائر أكثر لو عولت على الفلسفة . وبعض هذه الإحصاءات تمتد إلى ثلاثة قرون ، ففي جنيف مثلاً يتضح أن متوسط العمر كان عشرين سنة عام ١٦٠٠ ، وأربعين عام ١٩٠٠ . وفي الولايات المتحدة كان متوسط العمر للبيض عام ١٩٢٠ ثلاثاً وخمسين ، وفي عام ١٩٢٦ ستاً وخمسين (١) . فإن صح هذا كان أمراً يصعب تصديقه . ومع ذلك فهناك تقارير مماثلة عن ألمانيا . هذا مكتب الإحصاءات في برلين ينبيء بأن متوسط العمر في ألمانيا كان عشرين في ١٥٢٠ ، وثلاثين في ١٧٥٠ ، وأربعين في ١٨٧٠ ، وخمسين في ١٩١٠ . وستين في ١٩٢٠ (٢) . فلو سلمنا بهذه الأرقام فلنا أن نستنتج ، مع استئذان المتشائمين ، بأن الحياة إذا كانت نعمة على الإطلاق فإننا نقطع فيها أشواطاً عظيمة من حيث الكم ونسعى إلى الاحتفاظ بها . وقد ناقش اللحدون (الحانوتية) أخيراً في اجتماع سنوي المخاطر التي تهدد مهنتهم من زيادة تأخير الناس موعد لقاءهم بالموت (٣) . وإذا كان البؤس قد أصاب اللحدين ، فالتقدم واقع لا ريب فيه .

٥ - عرض عام للتاريخ

بعد أن أدلينا بهذه الآراء وما نراه من تعديلات فلنحاول أن نبصر مشكلة التقدم في نظرة شاملة . وليس من اللازم أن نرفض نظرة المتشائم ، بل من واجبنا أن نضم حقائقه إذا استطعنا إلى حقائقنا . وإذا نظرنا إلى التاريخ نظرة شاملة رأينا أنه يشبه خطأ بيانياً يسجل ارتفاع الدول وسقوطها - شعوب وثقافات تختفي وكأنها في فيلم هائل . ومع ذلك تبرز في تلك الحركة غير المنتظمة للممالك ، وتلك الفوضى في البشر ، بعض الحركات الكبرى تمثل ذروة تاريخ البشرية وجوهرة ، وهي بعض أنواع من التقدم لا نفقدها متى بلغناها . لقد تدرج الإنسان خطوة خطوة من متوحش إلى عالم . وهذه هي مراحل النمو :

(١) Fisher, I., National Vitality, p. 624.

(٢) New York Times, Sept. 7, 1928.

(٣) انظر Sigfried, America comes of Age, p. 176 . وانظر تفصيلات عن تقدم

الصحة المقالة القيمة التي كتبها .

C.—E. A. Winslow in Prof. Beard's splendid symposium, Whither Mankind? New York, 1928.

الأولى : الكرم - تأمل الكلام لا على أنه عمل ظهر بغته ، ولا على أنه هبة من الآلهة ، بل على أنه نمو بطيء للتعبير المنطوق خلال قرون من الجهد ابتداء من نداء الحيوان للتساقط إلى أغاني الشعراء . ولولا الألفاظ ، أو الأسماء العظيمة التي تجعل الصور الخاصة قادرة على تمثيل النوع ، لتوقف التحميم في بدايته ، ولبقى العقل حيث نجده في الوحوش . لولا الألفاظ لاستحالت نشأة الفلسفة والشعر ، والتاريخ والنثر ، وما بلغ الفكر ما بلغته براعة أينشتين أو أناتول فرانس .
لولا الألفاظ ما أصبح الرجل رجلاً أو المرأة امرأة .

الثانية : النار - لأن النار جعلت الإنسان لا يعتمد على المناخ ، وهيات له محيطاً أوسع على الأرض ، وجعلت الآلات التي يتعملها صلبة وممتينة ، ووهبته من الأطعمة آفاقاً من الأشياء لم تكن تؤكل من قبل . ولا يقل عما ذكرناه أهمية أن النار جعلت الإنسان سيد الليل ، وأضفت على ساعات المساء والقمر حياة وبهاء . تصور حال الظلام قبل أن يبدده الإنسان . . . حتى الآن لا تزال مخاوف تلك الهوة البدائية تعيش في تقاليدنا ، ولعلها تسرى في دماغنا . فعند كل غسق كانت تبرز مأساة ، فيزحف الإنسان إلى كهفه عند غروب الشمس وهو يرتعد خوفاً ، أما الآن فنحن لا نرحف إلى كهوفنا إلا عند مطلع الشمس . ومع أنه من حماقة أن نتجاهل الشمس ، إلا أنه من الخير أن نتحرر من مخاوفنا القديمة . فهذا الليل قد رشقته يد الإنسان بملايين من الأنجم الصناعية فأضاءت النفس البشرية وأضفت على الحياة الحديثة المرح والحفة . الحق لن نستطيع توفية الضوء حقه من الشكر .

الثالثة : الاهتمام على الحيوانات - إن ذاكرتنا عظيمة النسيان وخيالنا شديد العجز ، مما لا يسمح لنا بتحقيق النعمة الحاصلة لنا من الأمن من الوحوش المفترسة الضخمة القريبة الشبه من الإنسان . أما الحيوانات الآن فإنها ألعوبة في أيدينا ، وهي طعامنا الذي لا مهرب لها منه . وقد أتى على الإنسان حين من الدهر كان يصاد كما يصيد ، وكانت كل خطوة يبتعد فيها عن الكهف أو الكوخ مغامرة ، وكان سلطانه على الأرض لا يزال محفوظاً بالملكاه . فهذه الحرب التي أحالت الكوكب إنسانياً هي ولا نزاع أكثر الأمور أهمية في تاريخ الإنسانية ،

وليست سائر الحروب الأخرى إلى جانبها إلا مشاجرات عائلية لا تفضى إلى شيء . وقد استمر ذلك الكفاح بين قوة البدن وسلطان العقل خلال سنين طويلة لا تعبها الذاكرة . حتى إذا انتصر الإنسان أخيراً في تلك الحرب . انتقلت ثمرة انتصاره . نعى أمنه على الأرض . عبر آلاف من الأجيال . مع هدايا أخرى كثيرة يقدمها لنا الماضي لتكون جزءاً من ميراثنا عند الميلاد . فما قيمة جميع انتكاساتنا المؤقتة ضد مثل هذا الصراع وهذا الظفر ؟

الرابعة : الزراعة - لم تكن الحضارة ميسورة في مرحلة الصيد . لأنها كانت تستدعى سكاناً دائمين وأسلوباً مستقراً في الحياة . وقد نشأت الحضارة مع نشأة البيت والمدرسة . ولم يظهر بيت ولم تقم مدرسة إلا حين حلت محاصيل الحقل محل حيوانات الغابة أو القطيع طعاماً للإنسان . فقد كان الصياد يقتنص ما يصيده بثقة عظيمة . على حين كانت المرأة التي يتركها في الدار تستغل أرضاً أعظم ثمرة . وقد هددت اشتغال الزوجة الصابرة على الفلاحة باستقلالها عن الزوج . فأثر من أجل سيادته آخر الأمر أن يرغم نفسه على أعمال الزراعة . ولا ريب أن هذا الانتقال العظيم الذي يعد أعظم انتقال في تاريخ البشرية قد استغرق قرناً طويلاً . حتى إذا تم في نهاية الأمر بدأت الحضارة . وقد قال مريدث^(١) Meredith إن المرأة هي آخر مخلوق يحضره الرجل . وفي هذا القول من الخطأ ما يوجد عادة في الأمثال السائرة . لأن الحضارة نشأت عن طريق أمرين أساسيين : البيت الذي طور تلك الاستعدادات الاجتماعية التي تكون الملائم النفساني للمجتمع . والزراعة التي أخذت بيد الإنسان من جولاته التي كان يهيم فيها صائداً وراعياً وقتلاً وجعلته يستقر في مكان واحد فترة تبلغ من الطول ما يسمح له ببناء البيوت . والمدارس . والكنائس . والكليات . والحامعات . والحضارة . ولكن المرأة هي التي وهبت الرجل الزراعة والبيت . فاستأنست الرجل كما استأنست الماشية والخنازير . فالرجل هو آخر حيوانات المرأة التي استأنستها . ولعله آخر الكائنات التي ستحضرها المرأة . وبعد فالمهمة لم تكذب تبدأ . وتكفي نظرة واحدة إلى قائمة الطعام لتكشف لنا أننا لانزال في مرحلة الصيد .

(١) جورج مريدث (١٨٢٨ - ١٩٠٩) روائي إنجليزي وشاعر . اشتهر بتعالجته للمشكلات الاجتماعية في رواياته (المترجم) .

الخامسة : التنظيم الاجتماعي - ها هنا رجلاك يتنازعان : أحدهما يطرح الآخر أرضاً ، ويقتله . ثم يقول : إن الحي لابد أنه كان في جانب الحق . وإن الميت كان في جانب الباطل . . . وهذا ضرب من البرهان لا يزال مقبولاً في المنازعات الدولية . وها هنا رجلاك آخران يتنازعان ، فيقول أحدهما لصاحبه : « فلترك القتاتل . . . فقد نصرع معاً . ولكن دعنا نحمل خلافنا إلى كبير القوم . » و« لتقبل حكمة » . لقد كان هذا التفكير لحظة حاسمة في تاريخ الإنسانية . فلو أن الجواب كان « لا » ، لاستمرت البربرية ، أما إذا كان الجواب « نعم » ، فقد شقت الحضارة لها طريقاً آخر في ضمير الإنسان ، هو إحلال النظام محل الفوضى ، والقضاء العادل مكان الوحشية ، والقانون بدلا من العنف والإكراه . وهذه أيضاً منحة لا نشعر بها لأننا ولدنا في حماية دائرتها الساحرية ، دون أن نعرف أبداً قيمتها حتى نهم في أقطار الأرض المنغلة أو التي تسودها الفوضى . والله يعلم أن مؤتمراتنا وبرلماناتنا هي اختراعات مريبة ، وهي خلاصة التوسط في البلاد ، ولكننا نحاول على الرغم منها أن ننعم في الحياة والميلك بأمن سنقلره حتى قدره . حين تنشب حرب أهلية أو ثورة فتردنا إلى الظروف البدائية . وازن بين السفر المأمون اليوم وبين الطرق التي كان يقطعها اللصوص في العصر الوسيط بأوروبا . فلم يسبق في أي وقت من التاريخ أن ساد مثل هذا النظام وهذه الحرية مما تجده اليوم . بانجلترا . . . وقد يوجدان ذات يوم بأمریکا ، عندما يتيسر إيجاد طريقة لاقتراح مكاتب للبلدية تشغل بالكفاءة والمحترمين . ومع ذلك فلا يجب أن نزرع كثيراً من الفساد السياسي أو سوء الإدارة في الديمقراطية . فالسياسة ليست الحياة ، بل تطعما لها ، إذ يقوم وراء تمثيلاتها السوقية ذلك النظام التقليدي للمجتمع في الأسرة ، والمدرسة . وفي هذه الآلاف من التأثيرات المنحرفة التي تحيل ما عندنا من فوضى وطنية إلى شيء من التعاون والخير . ونحن نشارك بغير وعي منا في تراث مجيد من النظام الاجتماعي شيدته لنا مئات من الأجيال أنفقت في التجارب وتجنب الأخطاء . وجمع المعرفة ، ونقل الثروة .

السادسة : الوضوء - وهنا ننفذ إلى قلب مشكلتنا - هل الناس أفضل في أخلاقهم مما كانوا ؟ إذا اعتبرنا العقل عنصراً من عناصر الأخلاق فقد تقدمنا .

ذلك أن مستوى الذكاء أعلى ، وقد ازداد عدد ما يمكن أن نسميه بالعقول الراجحة زيادة كبيرة . أما فيما يختص بالخلق فأكبر الظن أننا تأخرنا ، إذ نمت براعة التفكير على حساب هدوء النفس . ونحن المفكرين نحس في حضرة آباءنا إحساساً مضطرباً أننا على الرغم من امتيازنا عليهم في كمية الأفكار التي نرجم بها رؤوسنا ، وعلى الرغم من تحررنا من الأوهام اللذيذة التي لا تزال تجلب لهم العون والراحة فنحن أقل منهم في الشجاعة الثابتة ، وفي الإخلاص للعمل والأهداف ، وفي بساطة قوة الشخصية .

أما إذا كانت الأخلاق تنطوي على الفضائل التي مجدها شريعة المسيح ، فقد تقدمنا تقدماً محدوداً على الرغم من معيشة الناس عندنا في المناجم والأحياء القدرة ، وما عندنا من فساد ديمقراطي ، وانغماس أهل المدن في الدعارة .

ولكننا أصبحنا أرق نوعاً مما كنا : فنحن أقدر على الرحمة ، وعلى الكرم للأغراب عنا أو غير الموالين لنا حتى لو لم نكن نعرفهم . ففي عام واحد (سنة ١٩٢٨) بلغ ما ساهمت به دولتنا في الإحسان الخاص والبذل في خير الإنسانية أكثر من ألفي مليون دولار وهو نصف جميع المال المتداول في أمريكا . إننا لانزال نشق القتلة إذا حدث أننا قبضنا عليهم وحاكناهم ، غير أن هذا القصاص التقليدي الذي يأخذ الحياة بالحياة لا يزال يقلق بالنا بعض الشيء ، وقد هبطت الجرائم التي نقضي فيها بالإعدام هبوطاً عظيماً . كان الناس في « مري إنجلترا » منذ مائتي عام يشفقون بحكم القانون إذا سرق أحدهم شيئاً ، ولا تزال الأحكام قاسية على من لا يسرق الشيء الكثير . ومنذ مائة وأربعين عاماً كان المعدّنون في اسكتلندا عبيداً بالوراثة ، وكان المحرمون في فرنسا يعذبون قانوناً وعلانية حتى الموت ، وكان المدينون يسجنون في إنجلترا مدى الحياة . وكان ناس مجرمون يغزون شواطئ أفريقية للحصول على العبيد (١) . وكانت سجوننا منذ

(١) انظر Haldane, J. B., Possible Worlds, p. 302.

وانظر Spengler, Decline of the West, pp., 110-111

حيث يقول : « بلغ عدد المحكوم عليهم بالإعدام للزندقة في أثينا وحدها وفي أثناء سنوات الحرب البلوبونيزية عدة مئات » . وعلى القارئ الذي لا يزال يشك في تقدمنا الأخلاقي أن يقرأ ما كتبه =

خمين عاماً كهوفاً ملأى بالقاذورات والمخاوف ، ومعاهد يتخرج فيها صفار
المجرمين ليصبحوا من كبار المجرمين . أما الآن فجونا عبارة عن أماكن يرتاح
فيها القتلة الذين أدركهم التعب . ونحن لا نزال نستغل الطبقات الدنيا العاملة ،
ولكننا نريح ضباطنا بأعمال البر . ويسعى علم تحسين النسل أن يوازن بالانتخاب
الصناعي بين الرحمة والإحسان وبين القسوة والإفناء للضعيف والعاجز مما كان في
الزمن السابق أساس الانتخاب الطبيعي .

وقد نحيل إلينا أن العنف أصبح أكثر انتشاراً في العالم عما كان من قبل ،
ولكن الواقع أن الصحف هي التي أصبحت أكثر انتشاراً، فهناك مؤسسات
كبيرة وقوية تدرع الأرض بحثاً عن الجرائم والفضائح التي تسرى عن القراء
ما يلقونه من عناء الكتابة بالاختزال والاقتصار على زوجة واحدة . وهكذا تتجمع
كل المساويء، والسياسات من القارات الخمس في صفحة واحدة لتفتح لنا
الشهية عندما نتناول الإفطار . وننتهي من ذلك إلى أن نصف أهل الأرض يقتل
النصف الآخر ، وأن نسبة عظيمة من هذا النصف الباقي مقدمة على الانتحار .
ولكننا نزل إلى الشوارع ، وندخل البيوت ، ونحضر الاجتماعات ونركب آفاقاً
من وسائل النقل فندعش حين لا نجد قتلة ولا متحررين ، بل نجد أديباً صريحاً
ديمقراطياً ، ومروراً قلبية أكثر واقعية مما كان يصدر عن الناس من عبارات
الشهامة ، وحين كان الرجال يستعبدون نساءهم ويستوثقون من عفتهم بأقفال
من حديد عندما كانوا يحاربون من أجل المسيح في البلاد المقدسة .

وتمثل طريقتنا في الزواج على ما فيها من فوضى وميوعة تهديباً بديعاً أفضل
من الزواج بالأسر أو الشراء ، وما كانوا يسمونه « بحق السيد » . فالوحشية أقل
بين الرجال والنساء والآباء والأبناء والمعلمين والتلاميذ مما سجله أي جيل في الماضي .
ويعد تحرير المرأة وصمودها أمام الرجل دليلاً على رقة لم يسبق لها مثيل في الذكور
الذين كانوا فيما مضى سفاكين للدماء . وازدهر الحب الذي كان مجهولاً عند

« لي Lea » عن محاكم التفتيش الأسبانية ، أو « تين Taine » عن الاضطهاد في حكم الملكة
ماري (History of English Literature, pp., 255-6.) . قد نجعل الذكاء في بعض المجتمعات
غير مشروع ، ولكننا لا نحكم عليه بالإعدام .

البدائين . . أو لم يكن إلا إشباعاً لرغبة الجسد . وأصبح حديقة تمتلئ بالغباء
والعاطفة ، وارتفع فيها غرام الرجل بالمرأة وكأنه بخور يخرق في قصائد الشعر ،
على الرغم من امتداد جذور الحب في ثنايا الحاجات الطبيعية . أما الشباب الذي
ترجع أخطاؤه الآباء المكذوبين أعظم إزعاج ، فإنه يكفر عن ذائله الصغيرة
بهذا الشغف الفكري وهذه الشجاعة الخلقية . وهي أمور لن تقدر حتى قدرها
حتى تثمر التربية ثمارها وتنقن جو حياتنا العامة .

السابعة : الآلات - إننا نعني الآن في وجه الرومانتيكيين . وخصوم
الآلات من المفكرين ، وطلاب الرجوع إلى الحالة البدائية (القدارة . والثعابين ،
وبيوت العناكب . والبق) أغنية الآلات والماكينات والمحركات ، التي استعبدت
الإنسان ثم أخذت في تحريره . لا يجب أن نخجل من ازدهارنا ، فمن الخير أن
تصبح وسائل الراحة والإمكانيات التي كانت من قبل وقفاً على البارونات وأمثالهم
مزية لجميع الناس ، فقد كان من اللازم نشر الفراغ - حتى إذا أسىء استعماله
في أول الأمر - قبل أن تتحقق الثقافة الواسعة . فهذه الاختراعات المتزايدة هي
الأعضاء الحديدية التي نسيطر بها على البيئة المحيطة بنا . ولسنا في حاجة إلى تنمية
هذه الأعضاء على أبداننا كما ينبغي أن تفعل الحيوانات ، بل نصنعها ونستخدمها
ثم نضعها جانباً حين الحاجة إلى استخدامها مرة أخرى (١) . إننا نضع أذرعنا
هائلة تبنى في شهر الأهرامات التي كانت تستنفد مليون رجل . ونصنع لأنفسنا
عيوناً عظيمة تكشف عن النجوم الخفية في السماء ، وأخرى صغيرة تنفذ إلى
دقائق خلايا الحياة . إننا نتكلم إذا شئنا بأصوات هادئة تعبر القارات والبحار .
إننا نتحرك على الأرض ونطير في الهواء بحرية الآلهة الخالدين . ولو سلمنا بأن
مجرد السرعة أمر لا قيمة له ، فإنها رمز للشجاعة البشرية والإرادة الثابتة . وهذا
هو أعظم معنى للطائرات في نظرنا . فقد تحررنا في النهاية بعد أن طال قيودنا
بالأرض مثل برومئوس (٢) . حتى أصبحنا الآن نواجه عيون الصقر في كبد السماء .

(١) برجسون .

(٢) في الأساطير اليونانية أنه برومئوس سرق النار من السماء ووهبها للإنسان . فعاقبه
زيوس بأن كبته بالسلاسل في جبال القوقاز حيث كان الصقر يأكل كبده طول النهار ، وتعود
الكبد إلى النمو ليلاً . وأخيراً خلصه هرقل . وذبح الصقر (المترجم) .

لا لن تفهرونا هذه الآلات . أما هزيمتنا الحاضرة أمام الماكينات من حولنا فهي أمر مؤقت ، ووقفه في تقدمنا البصير نحو عالم لا عبودية فيه . وقد ارتفعت عن كواهلنا تلك الأعمال الدنيئة التي حقّرت من شأن السيد والعامل على السواء ، ووضعت في عضلات الحديد والصلب التي لا تكمل . ولن يمضي زمن طويل حتى يصب كل مسقط مائى وكل رياح طاقتها التي تجلب الخير في المصانع والبيوت ، ويخلص الإنسان إلى أعمال العقل . إن ما يحور العبيد هو الاختراعات لا الثورات (١) .

الثامنة : العلم — لقد كان باكل على حق إلى حد كبير في قوله : إننا لا نتقدم إلا في المعرفة ، وتعتمد هذه المواهب الأخرى على التنوير البطيء للعقل . وهنا في مجال البحث النبيل الصامت ، وفي معارك المعامل قصة تصلح أن توازن خلداع السياسة وعبث الحرب البربرية . هنا نجد الإنسان في أحسن أحواله . يرتفع سموًا خلال الظلام والاضطهاد نحو النور . انظر إليه واقفًا على هذا الكوكب الصغير يقيس ، ويزن ، ويحلل الأبراج التي لا يراها ، ويتنبأ بدوران الأرض والشمس والقمر ، ويشاهد مولد الأكوان وفنائها . أو هنا نجد علماء رياضياً يبدون غير عملي يتبع قوانين جديدة معقدة أعظم التعقيد ، فينير الطريق لسلسلة لا نهاية لها من الاختراعات التي تزيد في قوة جنسه . وهنا نجد قنطرة ترن مائة ألف طن من الحديد معلقة بأربعة حبال من الصلب وتمتد بشجاعة من شاطئ إلى الآخر تحمل عددًا لا يحصى من المارة . لعمري إن هذا لشعر يبلغ في روعته أسمي ما كتبه شكسبير . أو تأمل هذا البناء الذي يشبه المدينة والذي يضرب عاليًا في السماء ، تحميه شجاعة حسابنا من أى صدع ، ويتألق كحجر الماس في الليل . وهنا في علم الطبيعة نجد أبعاداً جديدة ، وعناصر جديدة ، وذرات جديدة . وقوى جديدة . وهنا في الصخور نجد الحياة قد سطرت سيرتها . وفي المعامل تعد البيولوجيا العالم العضوي للتغيير كما بدلت الفيزيقا المادة . ففي كل مكان تلقى هؤلاء الرجال المتواضعين يبحثون بغير مكافأة ، ومن العسير أن تفهم من أين

(١) لقد توقفت الصناعة في أمريكا عن الاعتماد على السواعد بما بلغه تنظيم العمل من كمال وباستخدام الآلات إلى درجة لا تتصورها في أوروبا . انظر

Siegfried, America Comes of Age, p. 149.

ينبع إخلاصهم ويتغذى ، ومع أنهم سيموتون قبل أن يثمر الشجر الذي يزرعونه للإنسانية فإنهم سائرون في طريقهم .

الحق أن هذا النصر الإنساني على المادة لا يضارعه حتى الآن أي نصر آخر من جانب الإنسان على نفسه . وهنا نجد أن حجة التقدم لا تزال مضطربة ؛ ذلك أن علم النفس لم يكد يبدأ في فهم السلوك الإنساني والرغبة الإنسانية . وسيطرته عليهما أقل . وهذا العلم مختلط بالتصوف والميتافيزيقا ، بالتحليل النفسي والسلوكية (١) Behaviorism ، بالأساطير الخاصة بالغدد ، إلى أمراض أخرى خاصة بالبلوغ . هذا والمشاهدات الدقيقة والحالات المعدلة لا يقوم بها إلا علماء نفسانيون لا يسمع بهم أحد . وفي بلادنا تحيل النزعة الديمقراطية إلى المبالغة كل علم إلى « بدعة عجيبة » . ولكن علم النفس سيعيش على الرغم من هذه الأمراض والأعاصير ، وسينضج كغيره من العلوم بما يتحمله من مسئوليات . ولو ظهر بيكون (٢) آخر يستعرض ميدانه ، ويوضح مناهجه وأهدافه الصحيحة ، ويبين « الثرات والقوى » التي نحصل عليها - فأينما مجرؤ ، وهو يعلم مفاجات التاريخ ومثابرة البشر ، على وضع حدود للأعمال التي يمكن أن تنشأ عن معرفتنا المطردة للعقل ؛ فقد بدأ الإنسان في هذه الأيام يولي عن البيئة التي صنعها ، وأخذ يصنع نفسه صنعاً جديداً .

التاسعة : التريية - إننا ننقل الآن نقلاً أحكم إلى الجيل المقبل التجارب التي تجمعت عن الماضي . فهذا الإنفاق العظيم في المال والجهد لإعداد المدارس وتزويد جميع الناس بالتعليم أمر يكاد يكون ابتكاراً معاصراً ، ولعله أبرز ملامح هذا العصر . فقد كانت الجامعات في الزمن الماضي ترفاً والقصد منها تعليم الذكور من الطبقة الفارغة Leisured class . وأصبحت الجامعات اليوم من الكثرة

(١) ليست السلوكية ذائعة لأنها منبج في علم النفس بل لأنها فلسفة ميكانيكية ، عبارة عن سلسلة من الفروض الجريئة والخذابة عن الشعور والفكر . ومع ذلك فالسلوكية في نظر نفسها علم موضوعي دقيق . ويعلم مؤسسها الألمى - الفيلسوف على الرغم منه - أن الفلسفة قد ماتت . وفي هذا الكلام شيء من التناقض ، ويظهر أنه يؤيد ما يذهب إليه الدكتور واطن من أن السلوكية تخلو من الشعور .

(٢) يشير المؤلف إلى فرانيس بيكون الذي فتح باب العلم الحديث (المترجم) .

بحيث يتيسر لكل من ينقطع للدرس الحصول على إجازة الدكتوراه . حقاً لم نتفوق على عباقرة الماضي الممتازين ، ولكننا رفعنا مستوى المعرفة الإنسانية ومتوسط تلك المعرفة إلى درجة لم يسبق لها مثيل في أى عصر من عصور التاريخ . لا تنظر الآن إلى أفلاطون ولا إلى أرسطو ، بل إلى المجلس الأثيني المتعصب المغفل القاسى ، إلى الشعب المتعصب وشعائره الأورفية ، وإلى النساء المنعزلات المتعبدات اللاتي لم يكننَّ يستطعن الحصول على التعليم إلا إذا أصبحن محظيات .

ولو قيل إن العالم في الوقت الحاضر لم يتغير بعد تغيراً تاماً مع انتشار هذه المدارس ، ومع تكاثر هذه الجامعات التي تعلم الجنسين معاً ، فلن يكون قائله إلا طفل غريب . الحق أن تجربة التعليم الكبرى في النظرة الشاملة للتاريخ تأخذ في البدء ، ولم تستنفد بعد الوقت الكافي لثبوت نجاحها ، ولا يمكن في جيل واحد أن تمحو جهل وأوهام عشرة آلاف سنة . حقاً قد ينتصر الجهل المنتشر وتعصب الجمهور للعقائد على التعليم في النهاية . وليست هذه الخطوة من خطوات التطور مما يمكن وصفها بالثبات في أعمال البشرية . ومع ذلك فهناك نتائج طيبة تبدو للعيان . فلأمر ما كان التسامح وحرية الفكر أيسر ازدهاراً في الولايات الشمالية عنهما في الجنوبية إذا لم يكن ذلك بسبب قلة المال في أيدي أهل الجنوب لبناء ما يكفي من المدارس (١) ؟ ومن يدري لعل إثارتنا الوظائف البسيطة والرياسات المحدودة يرجع إلى أننا جيل نشأ من طبقات أثقلها عبء الحاجة الاقتصادية والاستغلال السياسي إلى حد لا يسمح بفسحة من الوقت لتعهد العقل بالرعاية ؟ ترى أي ثمار ناضجة نجنيها من التعليم حين يستمر كل منا في المدرسة حتى العشرين فتسنع له الفرصة لتحصيل كنوز الجنس الفكرية ؟ أو تأمل مرة أخرى غريزة الحب الأبوي ، هذا الدافع العميق الموجود عند كل أب سوى ليرفع أبناءه فوق نفسه ، تجد فيه الدفعة البيولوجية للتقدم الإنساني ، والقوة التي يجب أن نطمئن

(١) تزداد نسبة الأمية في الولايات والأقاليم التي تفرض أو تقترح قوانين مضادة للتطور منها في غيرها . مثال ذلك أنها تبلغ ٢٦ر٦ ٪ في ماكون بولاية تينيسى موطن مؤلف قانون سكوبس (Scopes) ، ولكنها تبلغ في تينيسى كلها Tennessee ٩ ٪ . إجمالاً (Scientific American, Sep., 1927) (سكوبس مدرس كان يعلم تعاليم داروين في تينيسى ، فحوكم سنة ١٩٢٥ ، وكان للمحاكمة صدى كبير في ذلك الحين - المترجم) .

إليها أكثر من أى تشريع أو أى نصيحة أخلاقية ، لأنها مفطورة في صميم جيلة الإنسان . لقد امتدت فترة البلوغ ، بحيث تبدأ الآن أكثر عجزاً ، ولكننا ننمو أكثر كمالاً صوب ذلك الإنسان الأعلى الذى يكافح للتخلص من أنفسنا المظلمة . صفوة القول نحن مادة الحضارة الخام .

إننا نبغض التربية لأنها لم تقدم إلينا في شبابنا كما ينبغي أن تكون عليه . انظر إلى التربية لا على أنها تكديس كرية للحقائق والتواريخ . بل على أنها صلة نبيلة بالعطاء . ولا على أنها إعداد الفرد « لكسب المعاش » ، بل على أنها تنمية ما فيه من قدرة كامنة لفهم العالم الذى يعيش فيه ، والتحكم فيه ، وتقديره . وفوق هذا كله انظر إلى التربية في أكمل حدها : إنها الفن الذى ينقل أكمل نقل ما استطاع إلى ذلك سيلاً إلى أعظم عدد ممكن من الناس ذلك التراث الصناعى والفكرى والخلقى والفنى ، الذى يصوغ الجنس عن طريقه الفرد النامى ويسويه إنساناً . ولو سألت لماذا نتصرف كالبشر لو جدت أن العلة في ذلك هي التربية . فبحر لا نكاد نولد بشراً ، إذ نخرج إلى العالم حيوانات ممسوخة وقذرة ، ثم « نصبح » بشراً ، فتلقى الإنسانية علينا خلال مئات من المسارب التى يصب فيها الماضى إلى الحاضر ذلك التراث العقلى والثقافى الذى يرفع حفظه وجمعه ونقله الإنسانية اليوم بكل ما فيها من نقائص وجهل إلى مستوى أعلى مما بلغه أى جيل من قبل .

العاشرة والأخيرة : **الكتابة والطباعة** - ومرة أخرى نجد خيالنا قاصراً عن حملنا على أجنحة حتى يرفعنا إلى الحد الذى نلتقط فيه نظرة شاملة ، فليس في استطاعتنا تصور أو تذكر عصور الجهل الطويلة وعصور العجز والخوف التى سبقت ظهور الكتابة . ففي تلك القرون الخوالى لم يكن في استطاعة الناس نقل حكمتهم التى حصلوها بالمشقة إلا بالألفاظ المنطوقة الصادرة من الآباء إلى الأبناء . فإذا غفل جيل أو ضل ، فقد وجب أن يرتقى الناس سلم المعرفة من جديد . أما الكتابة فقد خلعت على ثمرات العقول نوعاً جديداً من الدوام ، إذ حفظت آلافاً من السنين ، وعبر آلاف من السنوات في الفقر والحرافة . الحكمة التى اهتمت إليها الفلسفة ، والجمال البادى في الدراما والشعر . لقد ربطت الكتابة

بين الأجيال بالتراث المشترك ، وخلقت تلك المملكة المسماة دولة العقل حيث تجد العبرية بفضل الكتابة أداة تستمد منها الحياة .

واليوم كما وحدث الكتابة الأجيال ، فقد أمكن للطباعة على الرغم من كثرة مبادئها أن توحد بين الحضارات . فلم يعد من الضروري أن تختفي الحضارة قبل فناء كوكبنا الذي نعيش على ظهره . ستغير الحضارة من موطنها . إذ لا نزاع في أن الأرض في كل أمة ستأبى في النهاية أن تهب ثمارها لحرث عابث أو ملك مهمل . ولا بد أن مناطق جديدة ستفتن بما فيها من أرض بكر الجهود المتطلعة للمعرفة في كل جنس . ولكن الحضارة ليست شيئاً مادياً مرتبطة ارتباطاً لافكاك فيه كعبيد الأرض قديماً ببتعة معينة من الأرض . بل هي تراكم للمعرفة الفنية technical وخلق للثقافة . ولو أمكن نقل هذه المعرفة وهذه الثقافة إلى الأساس الاقتصادي الحديد فلن تموت الحضارة ، بل تتخذ لنفسها وطناً آخر . ولا شيء يستحق الخلود سوى الجمال والحكمة ، وليس من الضروري في نظر الحكيم أن تخلد بلده إلى الأبد . فسترضى نفسه إذا انتقلت آثارها لتصبح جزءاً من مقتنيات الإنسانية .

لسنا في حاجة إذن أن نقلق من أجل المستقبل . إن ما يشغل بالنا هو كثرة الحرب ، فننزع فريسة في هذه الحالة العقلية لأمثال شبنجلر حين أعلن سقوط العالم الغربي . الحق أن هذا الترتيب المتعالم لمولد الحضارات وموتها في دورات منظمة ، ترتيب دقيق أكثر مما ينبغي ، وأكبر الظن أن المستقبل سيبحث عبثاً شديداً بهذا اليأس المنتظر من الحساب الرياضي . فقد وقعت حروب في قديم الزمان . وهي حروب أسوأ من « حربنا (١) الكبرى » . وقد عاش الإنسان وعاشت الحضارة بعدها . ولم يكدهم يمضي خمسة عشر عاماً على موقعة واترلوح حتى أنتجت فرنسا المهزومة . كما سرى ، من العباقرة ما ملأ كل بيت في باريس . ولم يسبق لراثنا من الحضارة والثقافة أن كان مستتباً بهذا القدر . ولا كان يمثل هذه الثروة . ونستطيع أن نسهم بنصيب قليل في تنمية هذا التراث ونقله على ثقة منا أن الزمان سيبلي ما فيه من نفاية . ويبقى ما يثبت أنه حق وقيم ليضيء أجيالاً كثيرة .

(١) نلاحظ أن المؤلف كتب هذا الكتاب بعد الحرب العظمى التي نشبت من ١٩١٤ إلى ١٩١٨

وهو يتناول في طبعه الثانية آثار الحرب الأخيرة الذرية (المترجم) .

الفصل السادس عشر

مصير الحضارة

١ - الاضطرابات العصبية بعد الحرب

كتب شوبنهاور سنة ١٨١٨ كتابه « العالم كإرادة وفكرة » ، فكان أقوى هجوم وأشمله وجه إلى إيمان الإنسان بالتقدم والحضارة . وفي عام ١٨٢١ مات كيتس Keats بالسل واليأس بعد أن كتب شعراً رائعاً يفوح بعبر أوراق الخريف المتساقطة ، وقد بثه مأساة الأوهام المفقودة . وغرق شللي سنة ١٨٢٢ دون أن يبذل في أكبر الظن أى جهد لإنقاذ نفسه ، وقد « عاش أمداً طويلاً » كما قال قيصر ، ولم يحفل بأن يعمر حتى يشهد الهزيمة العامة للحرية في أوروبا . ومات بيرون عام ١٨٢٤ بالصرع راضياً بالاختفاء من عالم وصفه بذلك التهمم اللاذع في « دون جوان » . ونشر دي موسيه سنة ١٨٣٥ « اعترافات طفل في هذا القرن » ووصف فيه عالماً منهاراً وشعباً بغير أمل . وفي عام ١٨٣٧ مات بوشكين في روسيا وليوباردى في إيطاليا بعد أن نظما التشاؤم شعراً منشوراً لم يرتفع إليه أى قلم من قبل . لقد امتزج اليأس بدماء ذلك الحيل .

ولم يكد ينتصف القرن التاسع عشر حتى استرجعت حيوية أوروبا مكانتها ، وعادت حركة الحياة والآداب تسير إلى الأمام . وأخذت الاختراعات ترسي قواعد الانتصارات الصناعية في ذلك القرن . وشرعت الآلات تحرر الإنسان ليستمتع بالفراغ ، وبدأت السكك الحديدية والبواخر توحد بين الأمم والثقافات مع تبادل السلع والأفكار من كل مكان . وقد شهد العقد نفسه ، الذي رأى النصر الثورى للدراما الحديثة « هرنانى » من قلم هوجو . مولد إبسن في ١٨٢٨ ، وبراعة بلزاك وستندال في القصة ، وروعة هيمنى وهوجو في الشعر الغنائى . وسموسانت بييف وتين في النقد ، كما نشر تينسون وبراوننج الأجزاء الأولى من آثارهما ،

ونزل ديكز و تاكرى إلى ميدان المنافسة ، وبدأ تورجينف ودستوفسكى وتولستوى يظهران في روسيا . وفي ذلك الحين كان ديلاكرواه يحارب في أول معركة ضد اللون البنى في التصوير ، وكان تيرنر (١) يُغرق حتى انجلترا بأشعة الشمس . وكان داروين يجمع المادة لأروع أثر في العلم الحديث ، وسبسر يعد فلسفة جديدة ، وكان رينان يكتب « مستقبل العلم » شعلة تنير السبيل لعالم أكثر إشراقاً . صفوة القول كان البعث سارياً في كل مكان .

وعلى هذا الأساس من الموت والحياة ، من التدمير والتجديد ، يجب أن نفهم تساؤم ما بعد الحرب في عصرنا ، وأن نغفوه ، فالنظرة الشاملة هي كل شيء . ليس معنى ذلك أن الحرب العظمى هي العلة الوحيدة أو الأناسية لنظرتنا الفلسفية القائمة . كل ما في الأمر أنها أبرزت الأفكار والمشاعر التي كانت آخذة في التجمع منذ نهاية القرن . فقد تصور كسندرا شبنجلر (٢) أروع كتبه وهو « انخطاط الغرب » وأبرزه سنة ١٩١٤ ، قبل نشوب نار العداوات . ولكن ألمانيا لم تعرف حتى ذاقته الخزيمة قدر الكتاب باعتبار أنه أعظم مساهمة في ميدان الفلسفة منذ نيته (لو سئل أحد الفرنسيين لقال منذ برجسون) . ولم يكن للمستمر مينكن (٣) Menken أي هوى لعصره أو أي أمل في المستقبل ، حتى إذا أسفرت الحرب عن وحشتها - وأسوأ من ذلك في أكبر الظن مهزلة السلام - قبله آلاف من شباب أمريكا على أنه الناطق بلسانهم عما يشعرون به من ألم نحو العالم Weltschmerz وعن احتقارهم للحضارة الآخذة في الزوال . ولم يكن يمكن لأوروبا أن تستمع ، إلا بعد أن أفاقت من هموم العالم عقب الحرب ، لترجمة كسرلنج الروحية لبوننا وكونفوشيوس ، أو تنصت في مثل هذه الثورة الفاترة . خزمه الهادىء بأن : « الحضارة القديمة في مخاض الزوال » (٤) . ولا يتفق دين إنج مع هيلير بلوك إلا في اعتقاد واحد هو أن الحضارة محكوم عليها بالزوال (٥) .

(١) ترنر (١٧٧٥ - ١٨٥١) مصور إنجليزي اشتهر بالتلوين المائى وألوانه الزاهية (المترجم)

(٢) اسمه أوزفالد شبنجلر ، ولقبه المؤلف باسم كسنرا إشارة للمتنبئة الأغرريقية (المترجم)

(٣) هنرى لويس منكن صحفى أمريكى وكاتب وناقد ولد عام ١٨٨٠ ، وأتبع في أثناء الحرب

الغظى بأنه يماليء الألمان حين يرسل الصحف من الميدان (المترجم) .

(٤) Keyserling, Count H., The World in the Making, P. 118 ; Europe, (٤)

pp. 371, 378.

(٥) Outspoken Essays, pp. 265, 269.

وثمة عوامل كثيرة كانت تعد الغرب لهذا المزاج غير المألوف من الامتياز . وكان هنري أدمز يشر بتشاؤم عميق يستند إلى عدم تحول الطاقة و« انخطاؤها degradation ». وأحسن ما ديسون جرانت البرهنة على أن السلالة « النوردية (الشمالية) Nordic » قد استنزفتها الحروب ، وأضعفها التزاوج . وتفوق عليها جنس البحر الأبيض المتوسط ، وأنزلتها من عرش الزعامة الطويلة الثورة في آسيا، والديمقراطية في موطنه . ثم صبغ لوثرروب ستودارد^(١) Lothrop Stoddard هذه الآراء بصبغة شعبية في كثير من المهارة وقليل من الحذر . وضم الأستاذ مكديوجل صوته إلى أصوات الرثاء الجارية . وفي أثناء ذلك أعلن الأستاذ فلندز پيرى عالم الآثار المصرية المشهور . دون أن يستشير هؤلاء القضاة العظام ، أن امتزاج السلالات هو التمهيد الذي لا بد منه نحو حضارة جديدة . ولكنه رأى كذلك في الامتزاج الجارى بين الشعوب انحلال الحضارة الأوربية . وذهب إلى أن الثقافة قد بلغت أوجها حول سنة ١٨٠٠ . وأنها أخذت في الموت مع الثورة الفرنسية . ولا بد من انقضاء أربعة أو خمسة قرون قبل أن تنتج هذه البوتقة الإنسانية سلالة ثابتة وتعود بذلك دورة جديدة من الحضارة^(٢) .

ويلتفت شبنجلر كذلك متأسفاً إلى الوراء نحو الأيام التي سبقت الدكتور جيلوتن^(٣) Guillotin ، دون أن يشعر كما شعر روسو بأسواط وندوب النظام الإقطاعي على ظهره . وفي ذلك يقول : « لتقدير كيان الغرب تعد سنة ١٨٠٠ حداً فاصلاً يميز من جهة بين الحياة التي تشعر بنفسها شعوراً كاملاً مؤكداً . وهي حياة كان نموها من الداخل في تطور لا انقطاع فيه منذ طفولة الغوط حتى جوته ونابليون . ومن جهة أخرى بين حياة مدننا الكبرى وهي حياة خريف صناعية لا أساس لها تتخذ أشكالاً أبدعها العقل . . . أصبحت مهمتنا اليوم مهمة الحفظ والتهديب والتشذيب والاختيار ، بدلا من الخلق الديناميكي العظيم . والعناية بالتفصيلات مما كان يميز رياضة العصر الإسكندري في العصر

(١) كاتب أمريكي ولد ١٨٨٣ اختص بالسياسة الأوربية (المترجم) .

(٢) The Revolutions of Civilisation, p. 128.

(٣) الدكتور جيلوتن (١٧٣٨ - ١٨١٤) هو الذي أشار باستعمال المقصلة (الخيلوتين)

سنة ١٧٨٩ في الثورة الفرنسية (المترجم) .

الهلينسى المتأخر . وإذا لم يستطع أحدنا أن يدرك أن هذه النتائج لازمة وغير قابلة للتخير فعليه أن يغفل من حسابه كل رغبة في فهم التاريخ (١) .

فنحن مقضى علينا ، أو بحد عبارة هذا الألماني العنيد ، نحن مقضى علينا بحكم الضرورة الميتافيزيقية ، ذلك أن شبنجلر ليس فيلسوفاً برجماتياً ، فهو لذلك لا يعرف أن الحياة قد يكون فيها من الأسباب ما لا يستطيع المنطق أن يفهمها .

٢ - فناء الأمم

ومع ذلك فقضية شبنجلر قوية إلى حد كبير ، فهي لا تعتمد في أساسها على الميتافيزيقا التي يمكن دائماً نقضها بهزة من الكتفين ، بل تقوم على التاريخ الذي لا يمكن دحضه حين لا يكون كاذباً . التاريخ الذي نجد الفناء مسطراً على صفحته . التاريخ الذي يبدو أن قانونه الأسمى هو تلك القاعدة التي يحفظها صبية المدارس من أن لكل شيء ، إذا ما تم نقصان . هذه المناحة على الرجال والدول ، وهذه الخنازة التي تسير في موكب من الأجناس والحكومات ، هي الصورة التي تكشف لنا في تفصيل قاس من بحوث المفكرين في القرن التاسع عشر . فلم يسبق للناس من قبل أن نقبوا مثابرين هذا التقيب الكامل في الماضي كما فعلوا في المائة السنة الأخيرة . . . نابشون حضارات ميتة ، كاشفين عن أجساد عباقرة منسيين متخيلين أنهم يخاطبون ملايين من الجماجم المحترمة كما كان يقول هملت : «وا أسفاه يا يورريك (٢) المسكين» . لقد خلف لنا هذا القرن الذي امتاز بالتقدم والمؤرخين طعماً من الحقيقة البعيدة عن الوهم ، ورائحة من الانحلال ، كبريات لقرن الطائرات والمذيع والغازات السامة .

أى منظر من مناظر القضاء والقدر يكشفه التاريخ . هنا نجد مصر العزيزة تبنى على الرمال إمبراطورية أعظم دواماً من أى عالم آخر متأخر ، وتقيم هياكل أفخم من معابد أوربا ، وتحكم جميع شعوب البحر الأبيض ، وتضرب ظهور الملايين من العبيد بالسياط ، وتحنط أجساد كهنتها وأمرائها في « منازل الخلود» .

(١) Decline of the West, pp. 38, 90, 353.

(٢) Yorick هو مضحك ملك دنمرك في رواية هملت ، وكان شخصاً واسع الخيال ،

وكان هملت يخاطب جمته . (المترجم) .

أيتها العبارة المسكينة ! فلم يبق شيء من سائر ذلك الخلود سوى شعور بيضاء نابتة على عظام خاوية . بل إن الأهرامات لتحمل معنى الموت . وأنت تجد الرمال تهب من الصحراء فتغرق تلك « الملاعب » playhouses القائمة على الحرافات والمشيدة من الحجارة . وعلى الحكومة أن تنفق كثيراً من المال كل عام لإزالة تلك الرمال . حتى إذا عاد السائح من رحلته بعد أن يسمح الحبات الثقيلة التي نفذت إلى مسام وجهه ، تعجب ماذا يحدث لو أن الحكومة توقفت عن بذل المال في تلك الأنحاء قرناً أو قرنين من الزمان ، وتصور الرمال تغطي تلك الآثار طبقة فوق طبقة إلى أن يختفي أعلى حجر في أعلى هرم ، ولا تبقى بعد ذلك أى علامة من علامات العظمة والاستعباد مما كان يدل على مصر . ولعل هذا السائح يستعيد قصيدة شللي الرائعة الجليلة المسماة « أزمندياس Ozymandias » :

أخبرني يا عائداً من دولة الزمان الغابر
 ماذا رأيت ؟ حجران كبيران في القفر الهاجر
 بالقرب منهما تمثال يغوص في الرمال ويرقد
 يعلوه عبوس وتجهم والأمر وفم جامد
 بوركت أيها المثال أحنيت درك الشاعر
 أبرزتها مطبوعة في البيت المتحجر
 بقلب شغوف ويد الفنان الساخر
 عبارة في قاعدة التمثال نور تسطع
 « أنا أزمندياس ملك الملوك الأرفع
 انظر إلى آثاري أيها الجبار واخشع »
 ولم يبق جنب بقية الحطام العاري المعبر
 إلا الرمال وحيلة مبسوطة على مد البصر

أو اذهب إلى اليونان ، واصعد التل الذي يفضي إلى البارثينون . ثم استعد في صفحة خيالك كيف أشرف إكتينوس ومنسيكليس مدة تسعة أعوام على بناء ذلك الهيكل المتواضع الرائع ، البالغ أقصى حدود التناسب والفن . وقد صيغ كل خط فيه في انحناءة تكاد تشاكل حرارة الحسد البشري وانثناءه . واذكر

فيدياس وتلاميده وكيف ظلوا تسعة أعوام يحفرون في الرخام العصى صوراً تتشكل في الأفاريز . . . صور قوم يبلغ من روعتها أن الناظر إليها لا يملك إلا التسمي قليلاً في العقل والحلق . صور أرباب فيها من العظمة والصفاء بحيث لا يعتقد من ينظر إليها أن قدماء الآلهة كانوا يسرون سيرة العدوان والاعتصاب . وقد ظل ذلك الهيكل عدة قرون يتوج الأكروبوليس ، تزهو ألوانه في ضوء الشمس . وكم من أجيال ارتفعت بالنظر إليه ، شاعرة أن الناس هنا كانوا كآلهة ، ولو بعض الوقت .

ثم نشبت الحرب عام ١٦٨٧ ، واستولى الأتراك على أثينا ، فلتحنوا من البارثينون مخزناً لبارودهم ، وأرسل أهل البندقية السفن الحربية إلى الميناء في بريه ، فخربت المدافع البارثينون . وحين تبلغ قمة ذلك التل الذي يشبه الحرم المقدس كى تقدم فريضة الصغيرة ، على ذلك المذبح الغابر من الجمال والعقل ، فلن تشهد البارثينون في تمامه ، إذ لم يبق منه إلا أجزاء من الأعمدة العظيمة في انتظار زلزال يعيدها إلى استوائها . غير أن معظم البارثينون يقع تحت أقدامك ، في ملايين من الشطوف من الحجر الأبيض اللامع المقطوع من جبل بنتاليكوس . حتى إذا انصرفت عن المكان عجت : أهذا هو درس التاريخ — أن يبني الإنسان آلافاً من السنين بشقاء يده وعرق جبينه كى يحطم الزمان المحنون الباطش كل ما بينه ؟ ذلك أن الزمان طويل الأمد ، والقرن سريع الزوال ، وأروع الأشياء هي أسرعها إلى الفناء .

وذهب البارثينون ، واختفت اليونان ، وظهرت روما فتربت على عرش الأرض كالمداد العظيم ولم يدر بخلد أحد أنها تهوى . ومع ذلك فقد حطمها أمور غير حسية مثل نسبة المواليد وإجهاد التربة ، ولم يبق منها إلا ذكرى الحكام المستبدين لنحاكيهم . وذهبت كريت ، وأرض الميعاد ، وقرطاجنة ، وأشور ، وبابل ، وفارس — وأصبحت تلك الدول أشبه بالآلهة الذين فقدوا عبادهم ، أو بالمعابد التي يزورها السواح دون أن تسمع قط أى صلاة . لقد حل الموت بها جميعاً .

ثم ظهرت أوربا — إيطاليا ، وأسبانيا ، وفرنسا ، وإنجلترا ، وألمانيا —

فخلقت حضارة بلغت من القوة حداً لم يعرفه التاريخ من قبل ، وشيدت كنائس تنافس البارثينون ، وأبدعت علوماً أعظم من علوم اليونان ، وعزفت موسيقى لم تحلم بها العهود الغابرة ، وحصلت معرفة وقوة ونقلتهما من جيل إلى جيل بما لم يسبق له مثيل . وإذا شبنجلر يظهر فيعلن لأوروبا المفتونة بالحرب : « إنك ميتة . إنى لألح فيك كل وصمة من وصمات الانحلال . فأنظمتك . وديمقراطيتك . وفسادك ، ومدنك الهائلة ، وعلمك ، وفنك ، واشتراكيك ، وإلحادك ، وفلسفتك ، بل ورياضياتك ، هي بالضبط تلك التي ميزت عصور الأفول في الدول الغابرة . ولن يمضي قرن آخر حتى تلتئمس الحضارة لها مركزاً بعيداً عنك . هذا هو عصرك الإسكندري » .

ثم تظهر أمريكا ، وتبني حضارة على أساس أوسع مما رآه العالم من قبل . وتهدف إلى بلوغ مراق أعظم مما بلغه العالم قبل ذلك . ولكن إذا كان لنا في التاريخ أى ثقة ، وكان للماضى أى ضوء يلقى على الحاضر فهذه الحضارة أيضاً ، تلك التي نرفع عمدها بهذا الكد المحموم والعناية الملهوفة ، سوف تفتى ، وبعد آلاف من السنين ستجد الوحوش تتجول مرة أخرى في الأرض التي نعمل فيها اليوم . هذه هي الصورة التي يراها المؤرخ في المستقبل كما رآها في الماضي . فهو ينتهي إلى هذه النتيجة : وهي أن هناك حقيقة واحدة مؤكدة في التاريخ ، هذه الحقيقة هي الانحلال . كما أن ثمة أمراً واحداً مؤكداً في الحياة ، وهو الموت .

٣ - الاقتصاد والحضارة

إنها صورة كئيبة . فهل بنا نر إذا كانت صادقة .

ولكن ما الحضارة ؟ إنها مزيج مركب من الأمن والثقافة ، من النظام والحرية : أمن سياسى قائم على الأخلاق والقانون ، وأمن اقتصادى يستند إلى استمرار الإنتاج والتبادل . وثقافة تنبت من تسهيل المعرفة والعادات والفنون ونقلها من جيل إلى جيل . والحضارة شئ ، معقد مزعزع يعتمد على عشرات العوامل التي قد يحدد أى عامل منها العظمة أو التدهور . وسنبذل جهدنا في تحليل هذه الشبكة المعقدة ، فندرس العوامل واحداً بعد الآخر .

والعوامل الاقتصادية أساسية ، فالأرض تأتي قبل الإنسان ؛ ومع أن الإنسان يعدل بيئته بمقدار ما تغيره البيئة ، فيجب أن توجد البيئة أولاً. والعوامل المناخية تقييد واضح يحدد إمكان الانتفاع بالأرض ، فتناقص سقوط المطر بشكل غير محسوس على مرّ الأجيال قد يقضى على حضارة ما ، كما حدث في آشور وبابل ، أو في الثقافة البدائية التي اكتشفها أندروز في منغوليا . فالأرض الخصبة تنشأ عن مناخ معتدل . ومع ذلك فليست خصوبة الأرض شيئاً لا غنى عنه ، لأن اليونان والرومان شيدتا في الأغلب على صحور ومستنقعات ورمال . ثم جاء فرسان روما فانتصروا على اليونان . وكان إجهاد الأرض هو الذي هزم الرومان . وكان استغلال التجار للفلاحين ، وما تبع ذلك من حلول المستأجرين محل ملاك الأرض ، وما نجم عن ذلك من إهمال الزراعة ، ما مزق كيان روما ، كما هو آخذ في إصابة أمريكا . وعلى العكس من ذلك فإن أرض الصين التي تظهر غير مجهدة - ولعل ذلك يرجع إلى طريقة تسميدها الممتازة ولكنها غير العلمية - تفسر استمرار عودة الحضارة والثقافة إلى تلك الأرض القديمة والتي لا تزال بكراً . وليس من الضروري أن تسير الحضارة في طريق الغرب ، بل في اتجاه الحقل البكر . ولما كان الإنسان يبدأ مسيره من المناطق الحارة ، فإن طريق الدول العظمى يتجه في الأغلب شمالاً وجنوباً . ولعلها اليوم تسخر من كل القوانين وتعود مرة أخرى إلى الشرق . ولكننا نرى في كل مكان أن زراعة الأرض تسبق تهذيب النفس وتكون شرطاً له .

وتنتج الأرض المعادن كما تنتج الطعام . وقد يكون الذهب والفضة والحديد والفحم في بعض الأحوال أعظم لمصير الأمة خطراً من القمح والغلّال . وإنجلترا أعظم شاهد على ذلك . وقد ضعفت اليونان عند انصبوب مناجم الفضة في لوريوم ، وضعفت روما بنفاد مناجم فضتها في أسبانيا . وستشرق إنجلترا في الفناء عندما ينقل الفحم إلى نيوكاسل . ولعل الصين تزعم حضارة العالم حين تستغل ثروة مناجمها المدفونة في باطن أرضها . وقد لاحظ بروكس أدامز انتقال الزعامة الاقتصادية من إنجلترا إلى ألمانيا بعد الاستيلاء على الألزاس واللورين (بما فيهما من فحم وحديد) عام ١٨٧١ ، ونهضة الصناعة الأمريكية وتفوقها عقب اكتشاف

مناجم الفحم في بنسلفانيا سنة ١٨٩٧ . وفي ذلك الحين انقضت أوروبا على الصين لاقتسام فحمها ، واستولت أمريكا على الفلبين لتقوية سياسة « الباب المفتوح » . فالفحم ملك ، والبتروول هو وارثه الظاهر ، وقوة الكهرباء هي المرشح للعروش (١) .

ويبلغ الوضع التجارى والقوة التجارية من الأهمية مبلغ أى عامل من هذه العوامل الاقتصادية في الحضارة ، إذ ينبغي أن تحترق الدولة بعض الطرق التجارية الهامة ، ويجب أن تقدم مراكز تتجمع فيها الأعصاب التجارية العالمية إذا شاءت أن تتمتع بالتسهيلات لذلك التبادل الخاص بوسائل الراحة والثقافة مما يحرك هممة الشعب ويدفعه إلى الإنتاج . وقد نهضت اليونان بسبب الاستيلاء على طرودة والسيطرة على بحر إيجه . وارتفع شأن روما بهزيمة قرطاجنة والتحكم في البحر الأبيض . وظهر في أسبانيا سرفانتس وفلاسكويز (٢) لأنها تقع في الطريق إلى العالم الحديد . وظهرت النهضة في إيطاليا لأنها كانت محط التجارة بين أوروبا والشرق . ونمت روسيا تدريجاً لأن الطرق البرية حلت محل الطرق البحرية بعد العصر الوسيط ، ولم تستطع أن تظفر بالسياسة أو الحرب بالسيادة على البحار الداخلية التي نصب فيها أثارها . وأخذت روما تموت حين اتخذ قسطنطين القسطنطينية عاصمته ، وأصبحت بيزنطة القدمة المركز المتوسط بين الطرق الكبرى الوافدة من روسيا وألمانيا والنمسا إلى الشرق الأوسط . وشرعت إيطاليا بأفل نجمها عندما اكتشفت كولومبس أمريكا . وكان تغير الطرق التجارية هو الذى نقل قبل أى اعتبار آخر زعامة الحضارة من البحر الأبيض إلى دول الأطلنطى الشمالية . وقد تحول النقل من البحر إلى الجو ومراكز الثقافة الكبرى إلى داخل البر ، وذلك على طول الخطوط الجوية الموصلة بين المحطات التجارية . ومن يدرى لعل الطريق من « برلين إلى بغداد » (٣) لا يصبح حلماً من الأحلام ،

(١) كتب المؤلف هذا المؤلف قبل تقدم المباحث الذرية والتفكير في استخدام طاقبا في الأغراض السلمية اليوم (المترجم) .

(٢) سرفانتس Cervantes (١٥٩٧ - ١٦١٦) قصص أسباني اشهر بقصة دون كيشوت التي نشر الجزء الأول منها عام ١٦٠٥ والثاني ١٦١٥ - أما فيلاسكويز Velasquez (١٥٩٩ - ١٦٦٠) فهو مصور أسباني مشهور كان في بلاط الملك فيليب الرابع (المترجم) .

(٣) نلاحظ مرة أخرى أن المؤلف كتب الطبعة الأولى منذ زمن طويل ، إذ لم يعد الطيران اليوم بين برلين وبغداد مشكلة ، وبذلك تحقق ما تخيله المؤلف منذ ربع قرن فقط (المترجم) .

وتزدهر أراضي روسيا القاحلة تحت سماء يملؤها الأزيز عندما تصبح الصين أعظم منافس وعميل للغرب .

وآخر العوامل الاقتصادية هي الصناعة التي لا يسمح لنا تاريخها القصير ببيان اتجاه أثرها بياناً يعتمد عليه . فالصناعة تجلب الثروة ، وتجمع عدداً عظيماً من السكان الذين يدفعون الضرائب في حيز ضيق ، وتمول العدوان الاستعماري imperialistic ، وتتهيء للسيادة السياسية . ولكن هل تفتح الصناعة الطريق للحضارة ؟ فالصناعة تعظم الكم ، وتهمل کیف ، والمهارة الفنية ، والاختلافات الفردية . لقد كانت كل صناعة ذات يوم فناً ، واليوم أصبح كل فن صناعة . كان الناس يستخدمون قديماً في «الصناعات manufactures»⁽¹⁾ صناعاتاً يدويين handicraftsmen ، وصناعاً فنيين artisans . أما الآن فهم مجرد «أيدي hands» . فهل تجعل الآلات الإنسان ميكانيكياً ، وتبعد عن النفس صقلها من الرقة الروحية والنمو الروحي ؟ فهذه إنجلترا الصناعية لا تماثل بأي حال أدب عصر إليزابيث أو العلم الخالص أيام دارون ، أو الرسم في العصر الزاهي الذي بزغ على يد رينولدز وأفل مع موت توتر . وظهر عصر ألمانيا العظيم مع ظهور فردريك ، وكانط ، وجوته ، وبيتهوفن ، وانتهى ببسارك وفون ملتكه ، بالدم والحديد والفحم . أما فرنسا فقد كانت الصناعة فيها أقل من إنجلترا وألمانيا ، وحضارتها أعظم . ومع أن عوائد الفرنسيين قد انحطت عن أيام فولتير الرقيقة الزاهية فإن العبقريّة الفرنسية قد تفتحت في كل عقد منذ فولتير . والآن حيث إن فرنسا قد حصلت على فحم وحديد الألزاس واللورين فقد تهجر هي أيضاً الفن في سبيل الصناعة .

كلا . الحق إنها التجارة ، لا الصناعة ، التي حركت عصب الحياة والفكر وأنتجت العصور السامية من الثقافة الأوربية . ومع ذلك فالصناعة ناشئة ، ولا ينبغي الماضى (مع الاعتذار لشبنجلر) عن مستقبلها . ومن بدرى لعسل الثروة التي تنمى بسرعة عظيمة تهينا أخيراً فراغاً للتفكير ، ووقتاً نتعلم فيه مرة أخرى فن الحياة ؟

(1) يلاحظ أن اسم المصنع في اللغة الإنجليزية عبارة عن الصناعة اليدوية "Manu" (المترجم)

٤ - علم الحياة والحضارة

إذا وُجدت البيئة فلا بد أن يضاف إليها لتحقيق أغراض الحضارة سكان حتم الطبيعة بتلك المبادأة والقوة مما تحتاج إليه الحياة في التغلب على البداوة وتذليل « الوسط milieu » للأغراض النامية. ولقد رأينا في نظرية الأستاذ بيترى أن الحضارة الحديدية تستمد أصلها من الامتزاج البطيء لشعوب كثيرة اجتمعت على غزو بيئة واحدة. ولهذا الامتزاج نفس التأثير المحدد للشباب، كما هي الحال في تزاوج البروتوزوا، حيث يقوى كائنان حيان بعد فسادهما وعجزهما عن الاستمرار في الحياة، ويعود إليهما الحصب بتبادل مادة النواة. وفي ذلك يقول بيترى: « تبدأ فترة أعظم مقدرة بعد ثمانية قرون من الامتزاج تقريباً، وتستمر أربعة قرون أو خمسة » (١). وهكذا نجد أن امتزاج الغال والفرنجة وغيرهما من القبائل أيام كلوفيس وشرلمان قد سبق بثمانية قرون أول ازدهار بديع للحضارة الفرنسية على يد رابليه ومونتيني. وكذلك كانت الحال في اختلاط الانجلز Angles، والسكسون، والجوتز Jutes وغيرهم مما كان سبباً في تكوين الشعب الإنجليزي، وقد حدث ذلك الاختلاط قبل ظهور شكبير وبيكون بثمانمائة عام.

وهناك دول أخرى قد لا يظهر فيها التأييد الموفق لقبول هذه النظرية، ولكننا قد نفترض أن الامتزاج الجنسي يؤدي من حيث الحضارة إلى أثر سيء مؤقتاً، وإلى أثر حسن في النهاية. ومن المحتمل أن يقضى تزاوج العروق على الصفات الحبيثة فترة من الزمان، ولكنه يقوى الصفات الموروثة والأساسية للحسم والعقل. هذه العملية الخاصة بإعادة النشاط تجرى أسرع في البيئات الحديدية، لأن الهجرة تميل إلى اختيار أفراد باطنهم القوة وظاهرهم الضعف، أفراد مملكون ثقافة وحيوية كثيرة؛ ونحن نرى أن الحكمة من ذلك في أمريكا واضحة: « يفوضى دماننا » هي السبيل المهد لشعب جديد، واستقرار جديد للروح، وحضارة جديدة.

(١) المرجع السابق، ص ١٢٨.

ولكن ماذا نحن قائلون عن النظرية المضادة التي يذهب إليها جوبينو ونيتشه وتشمبرلين وجرانت ، من أن الزواج بين شعوب متميزة يفضي إلى إفساد الأخلاق وانحلال الحضارة ؟ نقول في الجواب بكل بساطة إن هؤلاء المفكرين اللامعين قد وضعوا الذنب قبل الرأس ، لأن الفساد هو الذى أدى إلى الزواج . فقد ظهر انحلال روما قبل غزو البرابرة بزمان طويل ، وتمتد جذور ذلك الانحلال في الترف المحدث أولاً ، وإنهاك قوى السلالة الرومانية القديمة ثانياً . فكان الزواج مع الألمان ثمرة استنزاف الجنس لا علة له .

أما الجانب القائم في نظرية بيترى فهو أن الجنس كالفرد له حدود تنهى إليها حيويته الفسيولوجية ، ويجب أن يمر بالضرورة بمراحل الطفولة والبلوغ والفساد . ويذهب الأستاذ بيترى بهذه الصورة التي يفرع لها قلب كل باحث إلى أن هذه الدورة من حياة الجنس وموته لها عصور ذات أطوال متساوية في جميع الأحوال عملياً . ولكن الحياة تنفذ خلال جميع التعميمات العظمى . فالأجناس التي تفلح الأرض من الواضح أنها قد تستنفد عصوراً أطول من تلك التي تقطع العصور بسرعة لاهثة في حضارات المدن الصناعية .

ولعل هذا هو سر الإنهاك الذي أصاب السلالة الوطنية في روما ، إذ فقدت صحتها حين اقتلعت جذورها من الأرض ، وأقامت من الخاصة التي كانت تمتاز بالرجولة مدينة من الأثرياء الفاسدين ، والعامّة العاطلين . والمدن ضرورية للمدينة ، تبين حتى في كلمة « المدنية Civilisation ^(١) » ، ولكنها تحمل في طياتها الكثير من بذور انحلال الجنس . فالحرف المستقرة ، والبيوت الضيقة ، والشوارع المزدهمة ، والملابس الأنيقة ، والأطعمة الدسمة ، وتيسير أسباب العدوى والانحلال ، كل ذلك يتعاون على إضعاف الصحة حتى حين تقلل وسائل الصحة العامة والطب الوقائي نسبة الوفيات بين الأطفال وتطيل الحياة . وقد حصدت الأوبئة نصف سكان الإمبراطورية الرومانية تحت حكم الأنطونين ^(٢) Antonines ، فتركت روما

(١) Civis باللغة اللاتينية تعنى مدينة (المترجم) .

(٢) الأنطونين اسم يطلق على سبع أباطرة حكموا روما من سنة ٩٦ إلى ١٩٢ ، وهم نيرفا ،

تراجان ، ادريان ، أنطونين ، مرقص أوريليوس ، فيروس ، كومودوس (المترجم) .

عاجزة أمام جحافل الألمان . وأفى « الموت الأسود » (١) كثيراً من سكان إنجلترا حتى قضى على الإقطاع . ومن يدري لعل البكتريا التي تهاجمنا في صبر شديد قد تنتصر علينا، ذلك أن أعظم أعداء الإنسان لا يمكن أن يرى إلا بالميكروسكوب . وهناك عامل آخر أهم من هذه العوامل أثراً في حياة المدن على مصير الجنس وهو التحكم الإزادى في النسل . ذلك أن الأسر تصبح أقل عدداً كلما عظم اتساع المدن التي تختار مواطنيها أقل فأقل بطريق التوالد ، وأكثر فأكثر بطريق الهجرة من الريف والدول الأجنبية، فتتعرض السلالات القديمة ، ويحل محلها أقوام أكثر شباباً . وهكذا توالد الرومان من أجناس غير أصيلة، فانقرضوا ، ولم ينتصر عليهم جنود الحرمان بمقدار ما غزتهم الأمهات الحرمانيات . ومما يبعث على الفكاهة أن نجد قيصرًا العظيم يكافح لوضع حد لهذا النضوب في أصل الجنس بمكافأة الرومان الذين ينجبون كثيراً من الأولاد ، ومكافحة العقم بالزهو ، وذلك بتحريم المراقبة العقيم لبس المجوهرات .. وفرض أوغسطس عقوبات جديدة على العزاب ، ورفع معونة الأمومة إلى ألف درهم لكل طفل . وذهب قسطنطين إلى حد تقديم معونة حكومية لجميع الأطفال الذين يعجز آباؤهم عن تربيتهم (٢) . وكانت نتائج ذلك مماثلة لحملة تيودور روزفلت على « انتحار الجنس » . . . أى لاشىء . ذلك أن نسبة المواليد ستستمر في الهبوط حيثما تجد الأسر قليلة الأبناء، مزينة اقتصادياً على الأسر كثيرة العدد . الحق أن هذه الأمور لا تخضع للفلسفة (٣) .

أبوؤدى هذا الهبوط في نسبة المواليد إلى تدهور حضارتنا؟ لقد سمع كل منا المتنبئين بمستقبل النسل يشيرون بأيد وأصوات مرتعشة من الخوف إلى الطبقات المتعلمة في أمريكا التي يقل عدد أبنائها نسبياً ، كما يعرف كل متعلم النكته التي تقال عن المتخرجين في جامعة هارفارد الذين ثبت بالإحصائيات أن لكل منهم ثلاثة أرباع بنت ، والمتخرجين في جامعة فاسار وللواحد منهم جزء من ولد .

(١) الموت الأسود هو الطاعون (المترجم) .

(٢) Simkhovitch, V. : Toward the Understanding of Jesus, pp. 126-9 ;

Montesquieu, The Spirit of Laws, vol. ii, p. 13.

(٣) لعل عقم المدينة من النعم اليوم حيث يقلل مضاعفة الآلات الحاجة إلى الأيدي العاملة ،

فيطرح ملايين العمال بغير عمل كل عام .

ولست الشكوى من أن الطب والرحمة « قد قضيا على الانتخاب الطبيعي » غريبة عن علماء البيولوجيا (١). والنتيجة الذائعة هي أن السلالة تتوالد من أسفل، وأن النصف غير الصالح هو الذى يكاد ينتج الجيل التالى، وأن التعليم ضائع بسبب عقم الذكاء .

وهاهنا بعض الحق ولو أنه ليس بيولوجيا . فمن الواضح أن مهمة المربي تتضاعف لأن معظم أطفال الغد يتعلمون على أيدي أغرار الوقت الحاضر . فالتعصب والاعتقاد فى الحرافات ، وضيق التفكير والرجعية ، لا تزال مستمرة ومتخذة حياة جديدة عن طريق عقول الجهال الخصبية . وليس هذا من وجهة نظر البيولوجى بالمصيبة المفزعة كما تبدو للمربي . لأن المكتسبات الفكرية لا تنتقل بوساطة الصغيرات . وحتى أبناء « الدكاترة » يجب أن يعلموا ، وأن يمروا بمحنة الاعتقادات والمذاهب ، ولا يستطيع أحد أن يعرف مقدار القوى والعبقرية الكامنة فى المتبرمين والعجزة من أطفال الفقراء . ومن الناحية البيولوجية ، الحيوية الطبيعية أثنى من الميراث الفكرى . ومن الناحية الاجتماعية ، قوة الخلق أثنى من العلم أو المال . ومن النادر أن يكون الفلاسفة أفضل الناس الذين يخرج الجنس من أصلابهم . وكان نيتشه يظن أن أفضل دماء ألمانيا هي تلك التى تجرى فى عروق الفلاحين . وكذلك الحال فيما يختص بنا (٢) : ولعله من الخير أن تكون المادة الإنسانية المقدمة للمربين صادرة عن بيوت تسود فيها قوة قد تستمر مدى الحياة وتنافس الجهل الذى يمكن تبديده بالتعليم . إن أى متحيز لن يرى الحل فى زيادة نسبة المواليد بين الأغنياء ، بل فى تقييدها عند الفقراء . ينبغى أن نجعل وسائل منع الحمل مشروعة . وعلينا أن نتحايل لمنع ذوى العاهات من النسل ، ويجب أن ننشر وعياً خاصاً بالنسل لنقضى على قصر النظر الموجود فى الزواج . وفى أثناء ذلك يمكن أن نلائم بين أنفسنا وبين عقم الطبقة المفكرة ، بأن نثق فى البيئة والتعليم أكثر من ثقتنا بالنسب الموروث كى ننقل الحضارة ونبسطةا . ليست الوراثة إلا عاملاً ضئيلاً فى النمو بالجنس . فالتطور ليس اليوم بيولوجياً بل اجتماعياً . عليك أن تقدم لنا سلالات صحيحة الأبدان وستحقق المدارس - إذا كانت أفضل - بقية المهمة .

(١) McCollum, E.V., The Newer Knowledge of Nutrition, p. 149.

(٢) يقصد المؤلف أمريكا (المترجم) .

٥ - علم الاجتماع والحضارة

فالتقدم إذن لا يعتمد على أساليب الانتخاب بمقدار ما يعتمد على متانة نظامنا، لأن التقدم يقوم على التربية ونظام الحكم أكثر مما يستند إلى قضاء القوى على الضعيف. وأعظم شكنا في المستقبل لا ينصب على أنساب أسرة إدوارد أو الجوكز (١) بل على الحالة الحاضرة للأظمة الاجتماعية التي نظمت وغذت قرونًا طويلة نمو الإنسانية. مثال ذلك الكنيسة، والأسرة، والمدرسة، والدولة: كيف يسير التقدم معها باعتبار أنها حاملة الحضارة.

ولقد فقدت الكنيسة، كما نعرف جميعاً، شطراً عظيماً من ذلك التأثير الذي جعلها قديماً سيدة أوروبا، والذي احتفظ بها حتى بعد انقساماتها المتكررة عاملاً هاماً في التربية والأخلاق. ينافس أقوى الدول. واليوم لم يعد عندنا أمثال هلدبراند، أو كلفن، أو ويسلي، أو حتى بريجام يونج (٢). ولست تجده شخصاً يزعم لنفسه الحديث عن ضمير الشعب. يستطيع سياسة السلطان كما يسوسها رؤساء الحكومات والملوك. ومنذ أن حقق لوثر الإصلاح الديني بمعونة أمراء الألمان، استولت الدولة شيئاً فشيئاً على أملاك الكنيسة وسلطانها، وتأثرت قيادة الكهنوت الروحية تأثراً ملحوظاً.

هذا الذوبان للعقائد، وهذا الانهيار السريع للجزءات الدينية الخاصة بالأخلاق، يعد في نظر بحاث التاريخ ظواهر في غاية الأهمية لفهم الحاضر والبصر بالمستقبل. ولم يتدهور الاعتقاد الديني منذ أن لعب قيصر دور « الكاهن الأعظم Pontifex Maximus » كما تدهور اليوم. ولم يسبق لقانون أخلاقي في أي شعب أن تعرض للشدائد والتغيرات كذلك التي تصيب اليوم الشريعة المسيحية القديمة. أتستطيع الدولة أن تحتفظ بالنظام الاجتماعي بدون التعاون مع الكنيسة؟ أتستطيع الأخلاق أن تعيش إذا قامت فقط على التربية وانفصلت عن العقائد السماوية؟ هل المدرسة الحديثة بديل كاف عن الكنيسة والبيت؟ هل تنشر علماً بغير حكمة،

(١) دراسة عن جماعة من الأخوات عشن في نيويورك في القرن الثامن عشر، وسرن في طريق الإجرام، و صدر الكتاب عام ١٨٧٧ (المترجم) .

(٢) جماعة من المصلحين الدينيين ظهوروا في أوقات مختلفة (المترجم) .

ومعرفة بدون فطنة ، ومهارة بغير ضمير ؟ هل الأولى أن تعلم المدرسة توافقاً
سليماً وآلياً مع البيئة بدلا من تربية حاسة الجمال والعناية بالخلق ؟

أما الدين فسوف نتحدث عنه فيما بعد . وأما الأسرة فقد رأينا من قبل
مظاهر انحلالها . ولقد كانت الأسرة الأساس الأول في كل حضارة عرفها التاريخ ؛
كانت الوحدة الاقتصادية والإنتاجية في المجتمع التي تضم أطراف الأرض . وكانت
الوحدة السياسية في المجتمع بما كان للأب من سلطة تعتمد عليها الدولة كصورة
مصغرة . وكانت الوحدة الثقافية ، فيها تنتقل الآداب والفنون ، ويربى النشء ،
ويعلم الشباب . وكانت الوحدة الأخلاقية التي تهيء عن طريق التعاون والتأديب
تلك الميول الاجتماعية التي تعد الأساس النفساني والملاط للمجتمع المتحضر .
كانت الأسرة من جهات كثيرة أعظم أهمية من الدولة : فقد تنهار الحكومات
ومع ذلك يقوم النظام إذا بقيت الأسرة متماسكة . ومن أجل ذلك خيل إلى علماء
الاجتماع أن الأسرة إذا انحلت اختفت الحضارة نفسها .

ولكن الدولة اليوم تنمو أقوى وأقوى ، على حين تمتحن الأسرة بتحول
خطر من مساكن إلى منازل ، ومن طفل يتعلق بأبيه إلى مجرد ربيب . حقاً لا يزال
الرجال يتصلون بالنساء ، وينسلون من وقت إلى آخر ، ولكن الصلة الجنسية
ليست هي الزواج دائماً ، وليس الزواج هو الأبوة دائماً ، وليست الأبوة هي
التربية غالباً . ذلك أن حرية الاتصال والانفصال تجعل عمر الزواج قصيراً ،
وقضت الاختراعات على نصف الأبوة ، وأخذت المدرسة الطفل من أحضان
أمه ، وسلبت الدولة سلطة الآباء . وأصبح المعلم والشرطي يبدلان وسعهما في
إعادة نظام البيت القديم . وفوق هذا كله ، حلت الصناعة محل الزراعة ، واتخذت
الحرفة الفردية مكان العمل الجمعي في الحقول . ويقوم اليوم صوت الفرد الانتخابي
مكان الجماعة في القرية ، والاجتماع في المدينة ، والوحدة الزراعية ، وغير ذلك
من صور النظم السياسية القائمة على تمثيل الأسر بوساطة رؤسائها . ولم يبق من
نظام الأسرة القديم إلا منزل للنوم ، وعاطفة لا يعول عليها تصل بين الرجل
والمرأة ، وبنين وبنات يجتمعون بماوى شبابهم . لقد تركزت مسؤولية النظام
الاجتماعي كلها في الدولة ، وأصبحت المسؤولية واقعة عليها .

ولكن الدولة أهي من القوة ومن التمكن الاقتصادي والخلقى بحيث يمكن أن تتحمل وحدها جميع مسئولية حفظ وتنمية ونقل ذلك التراث الجنسى من المعرفة والفضيلة والفن مما يكون لحمة الحضارة وسداها ؟ أم أن الدولة بما لها فى الوقت الحاضر من جهاز سياسى تقع آلياً فى أيدي أناس من الطبقة الثانية والثالثة، المعرفة عندهم لعنة، والفن سرغامض ؟ لم كانت أكبر المدن فى أمريكا محكومة بأصغر رجالها ؟ ولماذا كان الطريق إلى الوظائف منحصرأ فى «الهيئات organisations» الحالية. من فن السياسة والوطنية والضمير ؟ ولماذا انتشرت الرشوة والتزوير الانتخابى. وابتزاز أموال الجماهير إلى الحد الذى أصبحت فيه أى دعاية صحفية عاجزة عن إثارة الامتعاض وتحريك الهمم إلى العمل ؟ لماذا كانت وظيفة الحكومة الرئيسية اليوم هى قمع الجرائم أو الحماية منها ، والإعداد للحرب فى الفترة الواقعة بين معاهدات السلم ؟ أهذا هو النظام institution الذى يجب على الكنيسة والأسرة التسليم له برعاية الحضارة ؟

ومرة أخرى نقول : إن فى الثروة العظيمة من الخطورة بمقدار ما فيها من المعونة للجماعة . لأن قدرات الناس ما دامت متفاوتة ، فإن الثروات تصبح متفاوتة أكثر فأكثر ، عندما تضاعف الاختراعات والنظام الآلى قوة ذوى العقول الموجهة والمدبرة . ثم تتسع الفجوة بين الطبقات ، ويجهد الجسم السياسى كالحال فى انقسام الخلية . وكلما تزايدت الثروة هددت الرفح حيوية الجنس الجسمية والخلقية . فيقل التماس الناس تحقيق أغراضهم بعمل أيديهم ، ويزيد التماسهم لها فى إشباع لذات الجسد ، وتحل متعة التسلية محل بهجة الابتكار . ثم تنحط الرجولة ويزيد الإقبال على المسائل الجنسية ، وتكثر الأمراض العصبية ، وتظهر طائفة المحللين النفسانيين ، وينحل الخلق ، حتى إذا أصيبت الأمة بأزمة أصبحت فى ميزان القدر . أو كما صور الأمر منذ بضعة أعوام كاتب ناشئ فى كثير من الدقة وفى مزاج من الشاؤم الرزين ، فقال :

« التاريخ عملية للعود إلى البربرية . فالشعب الذى تقويه ظروف الحياة الطبيعية ، وتسوقه مطالب العيش المتزايدة ، يترك موطنه الأصيل ، ويتحرك نحو شعب أقل قوة ، ويعزوه ، ويزيحه من مكانه أو يمتصه . ثم سرعان ما تولد

عادات العزيمية والنشاط التي كانت تنمو في بيئة أقل قسوة فائضاً اقتصادياً . ثم يولد هذا الفائض طبقة فارغة *leisured class* ، تحتقر النشاط الحسدى وتنغمس في فنون الترف . ثم يولد الفراغ التأمل والنظر ، ويحلل التأمل العقائد وينخرعظام التقاليد ، وينمى حساسية البصر ، ويحطم عزيمية العمل . ويكتشف الفكر المغامر في متاهة من التحليل الفرد خلف المجتمع . وينحرف الفكر عن وظيفته الطبيعية وينعطف على نفسه فيكتشف النفس . ويضعف الإحساس بالفائدة المشتركة ومصصلحة الدولة . فلا يوجد الآن مواطنون بل مجرد أفراد .

وإذا بشعب آخر بعيد يعيش مكافحاً بيئة قاسية ، يرى هنا غابات اقتلعت وطرقاً معبدة ، ومحاصيل وفيرة ، وترف الفراغ ، فيحلم ، ويطمح ، ويجازف ، ويتحد ، ويغزو . وهكذا دواليك « (١) .

٦ - استمرار الحضارة

هذه هي عوامل المشكلة ، وهذه هي الشكوك المتعلقة بمصيرنا . فماذا نحن قائلون الآن حين نواجه مسألة التاريخ الكبرى ؟

فلنضيق أطراف البحث : نحن لا نسأل هل يجب أن تبنى الأرض - والمفروض أنها ستبنى . ولا نسأل أتدوم الأمة أو الجنس أو النوع إلى الأبد - والمفروض أنها لن تدوم . ولكننا نسأل أيمكن للحضارة أن تحفظ إلى الأبد ، أم أنها مقضى عليها بتكرار الفناء ؟ . ليست الحضارة شيئاً مادياً يرتبط ولا بد ببقعة معينة من الأرض ، ولكنها مزيج غير محسوس من الأعمال الفنية والمبدعات الثقافية ، التي إذا أمكن نقلها إلى الموطن الحديد للقوة المادية ، حفظت الحضارة إلى حد كبير ، وعاشت حياة حقيقية فعالة منتشرة زمنياً طويلاً بعد فناء الدولة والجيش والسياسة ورجال الأمن الذين سهروا على رفعها .

وفي ضوء هذا المعنى المحدود ليس من الصحيح أن الحضارات تموت ، بل الأمم والشعوب هي التي تموت . فالحضارة اليونانية لم تمت ، كل ما في الأمر أن الأرض التي كانت تغذى في الماضي هوميروس والإسكندر لم تعد خصبة بالعباقر . فالحضارة اليونانية ليست هناك اليوم ، ولكنها تعيش في بلد آخر ، في ذلك العالم الروحي الذي هو ذكرى ذلك الجنس : فلا يزال هوميروس ينشد سخط

(١) Philosophy and the Social Problem, p-7.

أخيل، والإسكندر يزحف إلى نهر الكنج؛ ويوقع هزيبودالشاعر عظامه الريفية، ويتوج بندارياً كالليل من أشعاره جين الرياضيين؛ ويشرع سولون ويتعلم، ويصوغ كليستينس الديمقراطية؛ ويستمع بركليس لأنكساجوراس، ويجلس مع سقراط عند أقدام أسباسيا؛ ويقذف أنخيلوس بتحدي بروميثيوس الأبدى للسماء، ويستدر أوربيدس دموع المنتصرين وأهل طروادة الذين ذبحهم المنتصرون؛ ويمشي أفلاطون بهدوء بين تلاميذه في أكاديميته الخالدة حيث يستمع إليه اليوم مئات الألوف من الطلاب كل ساعة بشخصه الذي استحال ألفاظاً؛ ويحمل ديوجينيس مصباحه بصبر، ويصنف أرسطو الكون؛ ويخاطب زينون عبر القرون أوريليوس، ويمشي أبيقور إلى جانب لوكريتيوس؛ وتقرض سافو اللبوسية الشعر مع أناكريون، ويراقب أقليدس الإسكندري أرشميدس وهو يرسم الأشكال الهندسية في حصار سرقوسة. ليس هذا موتاً، بل حياة: الجنس وروحه ذاتهما.

إن الذاكرة لتخطي مثل هذا الموت، وذاكرة البشرية اليوم أوكد وأكمل من أى وقت مضى. لقد نقلت الكتابة ذاكرة الجنس نقلاً ضعيفاً، وتنقلها الطباعة نقلاً أحسن؛ وتستغل المدارس الذاكرة وتخزنها لجميع الناس. وفي كل يوم تبتكر وسائل عجيبة جديدة لمساعدتها، مستخرجة صوتاً من القبور يغني للأجيال، لاقطه مناظر أو كلمات منذ اللحظة التي حصلت أو صدرت فيها، وتحملها بعيداً، عبر القارة، كي تنعش ذكرى كثير من الناس بما نطقوا به من أقوال هامة.

أجل نموت الأمم. فالمناطق القديمة تصبح جذبة أو عقيمة، فيلتقط الإنسان آلاته وفنونه وينتقل حاملاً معه ذكرياته. وإذا كان التعليم يعمق ذكرياته ويوسعها، فإن الحضارة تهاجر معه، وكل ما في الأمر أنها تغير موطنها، ولا يحتاج الإنسان في الأرض الجديدة أن يبدأ بداية جديدة كل الحدة، ولا أن ينمو بغير معونة صديقه، فوسائل المواصلات والانتقال تربطه بالأرض التي ولدته كأنها المشيمة التي تغذيه. وبذلك تقوم معونة الأبوة العظيمة التي تقدمها «الدولة الأم» للمستعمرات مقام المعونة الأبوية للشباب في طفولة الإنسان: تحميه وتعلمه، تنقل إليه أسرار الأخلاق والحكمة والفن. الحضارات هي أجيال روح الجنس.

وحتى حين نكتب ونقرأ ، فالطباعة والتجارة والأسلاك وأمواج الأثير وأرباب الهواء الخفية توحد بين الشعوب والثقافات ، وتجعل العالم كله شيئاً واحداً ، وتحفظ للجميع ما يستطيع كل أمرئ أن يقدمه .

لم تعد الحضارة في حاجة إلى الموت ، ولعلها ستعيش حتى بعد فناء الإنسان ، فتنقل وترتفع إلى جنس أرقى .

٧ - المستقبل في أمريكا

إذا شئنا أن نناقش الموضوع مناقشة أكثر وأخص فعلينا أن نفصل بين أوروبا وآسيا وأمريكا ، وننظر إلى مطمح كل منها على حدة ، فنجد فوارق حتى في داخل أوروبا ؛ فاللحظ يلتفت بوجوه متفاوتة إلى إنجلترا والقارة ، إلى روسيا والغرب ، إلى تركيا في شبابه الثاني وإيطاليا في زهوها الحديد والمثير. وأكبر الظن أن مجارى المياه المتدفقة في جبال الأبنين المعدة لتوليد القوى الكهربائية ستزود إيطاليا بالثروة التي تنفق منها على « نهضة » أقل من عصر النهضة . والأرجح أن روسيا ستفلسخ في تحويل عدد كاف من الفلاحين إلى معدنين ، وفنيين ، وعمال السكك الحديدية ، وصناع ، لاستخراج المعادن الغنية من باطن أرضها ، وإقامة نظام ثابت من الصناعة ، لتتبوأ مكانها بين « الدول العظمى » في العالم (١) . ولا بد أن تمكن صحة الفرد والمجتمع في ألمانيا على الرغم من التعويضات المفروضة عليها من استعادة الزعامة التجارية التي كانت قد بلغت عند نشوب الحرب (٢) . وإذا لم يستطع ساسة إنجلترا البارعون أن يخدموا القوانين الاقتصادية ، فستفقد أكثر فأكثر تجارتها الخارجية ، وتواجه أكثر فأكثر البطالة والفقر ، وتنفق حيويتها في الانقسامات والفتن ، وتجهد نفسها وقد وقف منها « الشرق » المتجدد الشباب موقف التسامح والتجاهل .

كلا : من المستحيل أن ننظر إلى الحظوظ جملة ، فالمستقبل له أكثر من وجه للدول الكثيرة . وإذا وجب أن نذكر مصير القارات ، فمن اليسر القول

(١) نلاحظ مرة أخرى أن المؤلف كتب هذا الكلام منذ ربع قرن ، فكأنه كان يتنبأ بمصير روسيا الذي بلغته الآن من التصنيع والقوة (المترجم) .

(٢) المقصود حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ (المترجم) .

بأن الإنجليز والفرنسيين في طريق الحضارة ، أن الألمان والروس في سبيل الكسب .
وأن أوروبا تخسر ، وآسيا تكسب . وأن أمريكا في شباب عمرها . حقاً التغيير بطيء ،
ومع ذلك فلن يسدل الستار على هذا القرن حتى تؤسس الصين نفسها دولة صناعية
تضاهي أى دولة في أوروبا ، وحتى تنتقل أمريكا من النزعة التجارية إلى التعلق
بالثقافة ، ومن حب الغنى إلى عشق الفن ، ومن السياسة إلى صناعة الحكم .

وليست النزعة التجارية ، كما ظن شبنجلر ، نذير الانحلال ، اللهم إلا
بالنسبة للأرستقراطية الزراعية التي قد تحل الطبقة التجارية محلها . إنها فترة انتقال
من التقاليد المستقرة في العصر الزراعي إلى الثقافة الفعالة في مدن مثل أثينا في
عصر بركليس ، أو روما زمان أغسطس ، أو فلورنسا أيام المديتشي ، وهي
مدن تسود فيها التجارة والصناعة ، وقد تحورت منذ عهد طويل من سلطان
أرستقراطية الأرض . فالريادة ، والتجارة ، والثقافة : هذه هي مراحل الحضارة
السائرة نحو النضوج . وإذا نظرنا إلى هذه الثلاث مجتمعاً فكل منها مختفر ؛ لأن
كلاهما ضروري . فأول كل شيء يجب أن تقتلع الغابات ، وتبذر البذور ،
وتستخرج المعادن والوقود ، وتبنى البيوت ، وتعبد الطرق ، وتلار ملايين من
العجلات . ثم يجب أن يفيض فائض ، وفراغ ، قبل أن يتمهل الناس لقرض
الشعر ، أو نحت التماثيل ، أو تأليف الموسيقى ، أو التفكير في الفلسفة . فلنحش
أولاً *Primum est vivere* ، كما يقول المثل اللاتيني . ومن الخير أن نخجل
من ازدهار لم يتعلق بعد بالفن ، فهذا الخجل هو الباعث القوي الذي لعله قد
ينقلنا من التعلق بالثروات إلى الحضارة . ولكننا لا يجب أن نفخ في هذا الشعور
بالنقص الثقافي حتى يصبح مرضاً موهناً . ومن الخير أحياناً ألا نتأمل كنائس أوروبا
ومنتدياتها فقط ، بل مذايحها ، وفرقها الدينية والجنسية ، وأسلحتها وجيوشها .
وآلا نرى في أمريكا تلك الثروة التي يحسدها عليها جميع الأوربيين والتي يطمح
كل المفكرين في اقتسامها ، بل سخاء أغنيائنا الذي لم يسبق له مثيل على التعليم ،
وشغف شعبنا شغفاً لا يبارى بالمعرفة والآداب ، وتطلعه إلى كل باب يفضى إلى
التراث الثقافي لجنسنا .

ولم يزور شبنجلر أمريكا قط ، فهو يكتب مستنداً إلى جدار قارة محمولة

ولعلها جرحت جروحاً مميتة بالحرب ؛ وهو لا يستطيع أن يرى في أمريكا أن علامات الشباب وأخطاءهم تزيد على علامات الانحلال . ويعرف كل مثقف من النظر إلى التواريخ الماثلة أننا لا نزال في شباب أمتنا : فلم يكدمضي ثلثمائة عام على وفود الآباء الحجاج ، ومائة وخمسون عاماً منذ أن تأسست حكومتنا . ومن المضحك أن يتوقع أحدنا الفن أو الذوق من بلد غير ناضج . كما أنك لا تتوقع أحكاماً صحيحة ميتافيزيقية أو سياسية من الشباب . ويجب أن يصاب النوباً مرضه وأن يفاخر بخطاياها .

ولم يسبق لحضارة أن وجدت مثل هذه القاعدة الاقتصادية معدة لها : فيها مناخ محرك للهم يوجد فيه كل الاختلافات المفيدة . وفيها أرض خصبة لا تزال قادرة على إنتاج أضعاف محصولها الحاضر حين تزرع وتروى علمياً . وفيها أرض تكاد تكون غنية بكل معدن ، وتفيض بزيت الوقود . وفيها سكك حديدية تنافس مثلها في العالم ، ولا تزال تتحسن كل يوم ، وفيها طرق مائية لم تستغل بسبب منافسة السكك الحديدية ، ولا تحتاج إلا ليد حرة تجعل منها طرقاً ليس لها مثل . فيها مصانع كاملة العدة شامخة في الجو بشكل أنيق . وفيها مخترعون أكثر تنظيماً وأفضل إدارة من أي مكان في الخارج . وفيها جويون وطيارون يكتبون الملاحم والأغاني وهم في الجو . وفيها أصحاب المال الذين يقدمون ذهبهم راجين الصناعات في استغلاله . وأخيراً فيها حكومة اقترنت بالعلم وارتفع فيها فن الحكم . فماذا نحن فاعلون بهذه الثروة الطيبة كلها ؟

لعلها تفضي بنا إلى الحراب . ولنصارح أنفسنا مرة أخرى لخير أنفسنا : الثروة وحدها لا تجعل الأمة عظيمة . فقد يمكن أن تحطم الأسرة بدلا من بناء البيوت . ويمكن أن تفسد الحكومة بدلا من حماية الفنون . يمكن أن تسعى وراء القوة بدلا من الحكمة ، والفضاظة بدلا من الأدب ، والترف بدلا من الذوق . يمكن أن تقدم لنا روما الفاسدة كما تقدم لنا اليونان المبدعة . فأى هذين سيكون مصير أمريكا ؟

ما مصير « بيوتنا المتعددة اللغات » ؟ كان ماديسون جرانت على حق في زعمه أن : « الحكومات الأوربية انتهزت الفرصة لتلقي على كاهل أمريكا المهمة .

الغنية المضيفة نفايات سخونها وملاجئها » . وهذه إحدى المزايم الضخمة التي تكون السر في الأسلوب القوي . ونحن نتخلص من مثل هذه الأقوال بالموافقة على نصف ما فيها من حق . لقد كان بعض المهاجرين إلينا من الطبقة الأرستقراطية وكان البعض الآخر مجرمين . ولم تكن الفئتان متميزتين تماماً ، ومن المحتمل أنهما الآن قد انقلبتا . ثم إن البيئة والظروف تتلاعب كثيراً بالوراثة : فلا يمكن القول إذا كان اللصوص أو البارونات الذين وفدوا إلينا هم الذين خلفوا أبداع السلالات أو أسهموا أكثر من غيرهم في تقدمنا .

لقد أخذ الأنجلوسكسون يفقدون سلطانهم القوي في هذه البلاد ، فذهب نفوذهم القديم في سياسة المدن وأخلاقها وفق الأساليب الأدبية . ولم يعن الأنجلوسكسون بتكثير النسل كغيرهم من منافسيهم ، إذ كانوا يرون أن صفاتهم جدية بالاحتفاظ بقوتهم وهيبتهم . ولكن الزمن هزمهم وخلف لهم الغاية المفقودة . لقد ولى زمان السلالة المتسقة التي أنتجت عصر نيويانجلند في تاريخنا الثقافي . واستمر عشرات من السنين قبل أن يمثّل المهاجرون المتأخرون أسلوب إمرسون ومادته ، أو لطافة البيت في نيويانجلند واحترامه . يجب أن تمر فترة غليظة من البدع واللهجات البربرية حتى تتبوأ السلالات المتقدمة شأنها ومكانتها . وفي النهاية سيرز جنس جديد ، ولغة جديدة في أكبر الظن ، وأدب جديد بكل تأكيد . إن أنواع البحر الأبيض العاطفية والفنية التي تترج الآن بالمتطهرين ذوي العزم والتوكل ستخلف لنا في المستقبل عناصر الخلق والشعور التي نحتاج إليها . وستصب مئات أخرى من الشعوب بحيويتها في المجري ، فيكون عندنا جنس غني بخلاله التي وهبته أوروبا إياها ليحكم ، جنس فيه هذا التركيب في الوحدة مما يجب أن تتصف به الأمة ، إذا كان لها أن توث حضارة العالم وتعمل على استمرارها .

لقد عادت إلينا البربرية عن طريق الهجرة والديمقراطية ، كما عادت البربرية إلى أوروبا بالحرب والثورة . غير أنه في حالتنا بدأت تظهر بوضوح حركة صاعدة نحو جنس جديد وثقافة جديدة . ولا يقع مصيرنا كما يذهب الماركسيون في البيئة الاقتصادية والظروف وحدهما ، بل في أيدي قادتنا في الصناعة والحكم والفكر . وعليهم أن يختاروا .

وقد يمكن للتشريع الحكيم أن يهبنا تلك الحرية الخاصة بالفكر والقول - شجاعة الرأي الأثينية *parrhesia* . أو حرية مناقشة كل شيء - وهي ضماننا الوحيد ضد العودة إلى نفوذ روما البربرى . وقد يمكن للقيادة الحكيمة أن تصلح مساوئ نظام المصانع بتقليل عدد الساعات ، وإحلال قوة الكهرباء النظيفة محل الفحم والقذارة ، ودفع الصناعة إلى الريف . وتحسين الأبنية بجمال الهندسة وحسن المنظر من الخارج ، وبالأضواء والتعاون اللذين بعثا فيها البهجة من الداخل . وقد يمكن لتخطيط المدن الحكيم - بالإضافة إلى معونة المواصلات الجوية - أن ينثر الملايين من سكان مدننا في الضواحي حيث الحقول والمياه الحارية . فتستعيد البيوت نفوذها الأخلاقي ، وتنقذ صحة الأبدان والعقول المهككة بما في المدينة من ضوضاء وسرعة . وقد يمكن للإحسان الحكيم أن يفتح لنا طرقاً جديدة تسهل نقل وتنمية قيم الجنس الثقافية . زود مدارسنا وجامعاتنا بكل حاجياتها . ارفع رواتب المدرسين ابتداء من مدرس القرية إلى أعلى أستاذ في كراسي الجامعات . حسن تجارب التربية بغير عائق أو خوف . امنح آلاف الجوائز ومئات الآلاف من الهبات الدراسية لتشجيع المنافسة والدراسة والابتكار . أعن العلم بسخاء في مجال البحث ، وراقبه مراقبة دقيقة في ميادين الصناعة والحرب . دع المؤسسات والشركات تترك الفنانين أحراراً في تصميم معابد التجارة وهياكل التعليم ، وهي التي سوف يمتاز بها فن البناء في عصرنا . دع عظماء المصلحين يرفعون الشعب بالتعاليم المعقولة ، والموسيقى الراقية التي تذاع كل مساء على أمواج الأثير .

* * *

في الوقت الذي كنت أكتب فيه هذه السطور كانت موجات من الموسيقى الرائعة تتصاعد من غرفة الطابق الأول . فلنفتح الباب وندع هذه الأنغام تدخل . إنها المقطوعة الثانية من السمفونية السابعة . لا يمكن للسماء أن توقع أعذب من هذه الأنغام . ما هذه المعجزة التي تنقل الكلام الدفين من قلب رجل عظيم مات منذ أمد طويل . عبر حواجز الزمان والمكان ، إلى ملايين الأنفس المترقبة لمسة العبقرية حتى تشفيها وتسمو بها ؟ إنها موسيقى رائعة ، اجتمعت فيها آلاف من السنين ، وما فيها من شوق وحنان .

ثم تصمت الموسيقى . ويدق جرس التليفون : إنه صديق يرغب في الحديث
عن هذه القطعة الحميلة الغامضة التي عبرت السماوات لتملأ بيته البعيد ، هذه
الموسيقى الغربية التي نظمها رجل قدماء ونسمعها في جوف الليل باعثة التصفيق
إلى أيد لا حصر لها . ولا تزال الحجرة تهتز بأصوات التصفيق . إننا لنرى المسرح
Stadium - حيث عشرون ألف شخص في المقاعد ، في سواد وبياض
أشبه بزهرة هائلة متفرعة . وفتيات يجلسن بحذر وغبطة على الأفاريز العالية .
وشبان مشرقون نظيفون نشطون على استعداد أن يستوعبوا من الحضارة ما يمكن
أن نقدمها لهم . وموسيقيون أمهكهم التوتير ولكنهم مع ذلك في غبطة للصلة
ببتهوفن . وفي السماء تلمع النجوم التي أشرقت على مسرح ديونيسوس ، وفي
الشوارع تسمع تلك المشية الخاصة بليوناردو .
فلنتوجه بقلوبنا إلى الله شاكرين حامدين .

الحزب السابع

الفلسفة السياسية

الفصل السابع عشر

في امتداح الحرية

١٠ - الشراب والحرية

إنها لأعجوبة لم تلحظ كما ينبغي . وهي أن تمشي انتصار نزعة المحافظة في سياسة العالم واقتصادياته إلى جانب انتصار نزعة الحرية في الدين والأخلاق ، والعلم والفلسفة ، والأدب والفن . لقد انتخبنا حكامنا رجالاً يمثلون باحترام أرباب الصناعة المستقرين . وأغفلنا إلى حين كل تفكير في تجربة العلاقات بين السيد والمسود . لقد خلعنا ضرباً من الشعبية الغامضة على الموظفين الذين يعد الحجل فضيلتهم الوحيدة . على حين بلغ احتقارنا الثوار والمصلحين حداً جعلنا نقف عن اضطهادهم . وعواصم العالم وحكوماتها في أيدي الحذر ، ولا يصيبها التغيير إلا في ظلمة الليل في الخفاء (١) .

ومع ذلك فمن العجيب أنه في نفس الوقت الذي نبتعد فيه عن الحديد في الميدان الرسمي ، توجد في مدننا من الفوضى في التجديد الخلق والأدب ، ومن الاطراح الشديد للإيمان والنظام القديمين . ما يجعل رعوس الشيوخ تهتز فزعاً ، وأصابهم تشير إلى فساد الإمبراطورية الرومانية . ويظن العلم أنه كسب المعركة مع القديم البالي . ويسير في نشوة ظفوره مرحاً نحو دحماتيقية ميكانيكية تحسن إلى كل شيء ما عدا الحياة . أما الشباب فإنه سائر في الطريق لأنه مغمور بالثروة والفرص . ولأنه يثابر على الكتابة التي تملأ أنهار الصحف . وقد خرق الأدب كل قاعدة وكل سابقة ، وأصبح أعظم النقاد احتراماً يقرظ أفحش التجارب . ولم يعد أحد يجسر على الإعجاب بالأدب الكلاسيكي . وأصبحت البدعة الحاربية

(١) كتبت هذه الصفحات عام ١٩٢١ .

أن تكون ثورياً في الشعر والتصوير كما تصوت في جانب التفاهة mediocrity والرجعية . واكتشف المسرح فجأة جمال شكل المرأة الإلهي . وانقطعت ملاهي الليل (الكباريات) بدوق رفيع « للعرى الفنى » وأصبح . الكحول الذى كان ذات يوم . ذا سمعة سيئة موضوع كل حديث ، ولازمة كل بيت أنيق . وهذه نظرة عجيبة تجمع بين الدولة ذات السلطان الكامل والفرد المتحرر .

كيف نفسر هذا الشذوذ المضحك ؟ هو من بعض الوجوه نتيجة ما عندنا من ثروة : فالغنى نفسه الذى يجعلنا محافظين بحن في السياسة هو الذى يجعلنا أحراراً في الأخلاق . بشجاعة . فعندما تمتلئ الجيوب بالمال يصبح من العسير على المرء أن يكون زاهداً ، كما من العسير أن يكون ثائراً . لم يمت مذهب التطهير Puritanism بفعل بروميد الزئبق ، بل قتلته الذهب والفضة .

ومن بعض الوجوه الأخرى ينشأ الموقف من تناقض قلوبنا : فالنفس ذاتها تتعطش لرخصة الحرية وأمن النظام ، والعقل نفسه يحوم متردداً من القوة إلى الخوف بين الزهو في حريته والثقة في رجال الأمن . هناك لحظات نكون فيها فوضويين ، وأخرى مثالا للنظام . وفي أمريكا - أرض الأحرار وموطن الحرية - يسودنا بعض الخوف من الحرية . كان أجدادنا أحراراً في السياسة ، وثابتى العزم في الأخلاق . كانوا يحترمون الوصايا العشر ويتحذرون الدولة . ولكننا الآن نؤله الدولة ، ونحرق الوصايا العشر . إننا من أنصار اللذة (إبيقوريون) في الأخلاق ، ولا نخرج إلا نادراً على القانون . إننا عبيد في السياسة ، وأحرار فقط في تجرع الكوئوس .

ومما يلفت النظر أن الأمريكى إذا تحدث عن فساد الحرية أشار إلى معدته أكثر مما يشير إلى عقله . وقد اتفق اتحاد العمل الأمريكى على التهديد بالثورة منذ بضع سنين ، لا بسبب حرية الاتجار بل للمطالبة بتقييد المحلات التجارية . وتقتصر اليوم نزعة الحرية للأمريكى في المدن الكبرى على جعل الشراب أول حاجات الرجال ، ورحابة العقل أول مطالب السيدات . ماذا يهم أن يحكم على مهاجر بولندى بالشنق أمام محكمة في مساشوسيت لأنه أعلن شكه في عقيدة قديمة ؟ أو أن يمنع الجند اجتماعاً سلمياً في بنسلفانيا ؟ أو أن شيوخ رجال الدين

ملطفين مفازع الشيخوخة بلاهوت الطفولة يقدمون في كل مكان عرائض يطلبون فيها الحكم على البيولوجيا بمخالفته الدين ، وإبعاد داروين بالتشريع ؟ ما أهمية فقدان حرية التفكير إذا كانت حرية الشراب قائمة ؟ فلنشرب أولاً ، ولنتفلسف ثانياً *Primum est bibere, deinde philosophare* ، كما يقول المثل اللاتيني .

ليس القانون هو الذي ينزع منا حريتنا ، بل عدم استعمالنا عقولنا إثارةً للسلامة . فالتعليم الموحد ، والقوة المطردة للإيجاء في الجماهير المتزايدة العدد ، يسلباننا الشخصية والحلق واستقلال الفكر . وكلما نمت الجماهير اختفت الأفراد . ثم إن سهولة المواصلات تيسر المحاكاة والتمثل ، وسرعان ما نصبح جميعاً متشابهين . ومن الواضح أننا نجد لذة في أن نصبح مماثلين ما أمكن ، في ملبسنا ، وعاداتنا ، وأخلاقنا ، وفي تزيين داخل بيوتنا ، وفنادقنا ، وعقولنا . ومن يدري . . . لعل حتى حريتنا الأخلاقية هي ضرب من المحاكاة . والويسكي كالصلة الجنسية منتشر ، إذ بدونها لا يحس المرء أنه رجل .

ومع ذلك فبعض الثورة أفضل من لا شيء . وأكبر الظن أن جرعتنا الصغيرة من الحرية ستمضي إلى النهاية وتجروء على اشتمال الفكر . ومن الخير أن يقاوم الناس بالقانون طبع النفوس على الأخلاق ؛ فإن تمنع المشروبات المنشطة والمواسية لأن بعض الناس يسيئون استعمالها ، يبين ضعف الحكومة التي لا تعرف كيف تسوس الحمقى إلا إذا جعلت الناس جميعاً حمقى . والحضارة بغير خمر متحيلة . والحضارة بغير قيود متحيلة ، ولا قيود حيث لا توجد حرية . ولقد قال منتسكيو : « إن الأمور التي يحرمها الشرف تزيد مراعاة تحريمها حين لا يتدخل القانون في التحريم » (١) . ولو أننا أنفقنا نصف ما أنفقناه في « حملة » الحفاف على الدعاية إلى الاعتدال ، لأصبحنا الآن شعباً معتدلاً .

ولنستمع الآن بعض الوقت لأولئك الذين كانوا يعتقدون في كل حرية . فقد بنعشنا وبقوى نفوسنا أن ننسى لحظة قوانيننا المتعددة ، وأن نتمشى بعض الخطوات مع عباد الحرية .

(١) Spirit of Laws, Book iv, ch 2.

٢ - دين الحرية

يقول توماس بين :

« ليس الشطر الأكبر من ذلك النظام السائد بين البشرية ثمرة الحكومة ، بل ينشأ من أصول المجتمع والتكوين الطبيعي للناس . وقد تقدم النظام في وجوده على الحكومة ، وسيوجد حتى لو ألغى شكل الحكومة . ذلك أن اعتماد الناس بعضهم على بعض ، وتبادل المنافع بينهم ، وتوقف جميع أجزاء الجماعة المتحضرة بعضها على بعض ، تخلق تلك السلسلة العظيمة من الاتصال الذي يمسك أطرافها.. صفوة القول يكاد المجتمع أن يحقق لنفسه كل شيء ، يعزى للحكومة » (١).

من ذلك الذي يكتب بشجاعة وبساطة غير معهودتين ؟ إنه توم بين الشجاع ، بطل ثورتين ، ومجدد قارتين . إنه فولتير الأمريكي ، والصوت الإنجليزي لذلك القرن الحريء الذي ظفر لنفسه باسم « التنوير » . إذ في ذلك العصر « عصر العقل » ، عندما أدى انتقال القوة الاقتصادية من الأرستقراطية المتعطلة إلى الطبقة المتوسطة العاملة إلى زعزعة كل عرف ، وكسر شوكة التقاليد ، وتخفيف قبضة الخرافات القديمة على البشرية ، ووجد الفرد نفسه حراً بشكل لم يعهد له . مثل ، كما لو أن قبضة الماضي على الحاضر قد خفت إلى حين . وكانت أسرة البربون الهرمة تملك دون أن تحكم . ولما كانت الكنيسة موجودة في مجتمع غلب عليه الشك وانحرف فيه حتى الأساقفة عن الطريق ، فقد كانت قوية في القرى فقط ، ولا قوة لها في العواصم . وانحل كل قانون ، وانتقدت كل قاعدة ، وانتهك كل معيار للفن أو ميزان للسلوك دون خوف أو ندم . إنه العصر الذي أعلن فيه روسو أن الدولة شر ، وأعلن جيفرسون أن أفضل حكومة ما قل حكمها . كان العصر عصر الفرد .

ومن المفروض أن الإنسان منذ بدء تاريخ البشرية قد تبرم بالقيود الاجتماعية ، وأن الإرادة على فطرتها الهمجية كانت ترى في كل قانون عدوا . وفي ذلك يقول روسو :

(١) Thomas Paine, The Rights of Man, p. 152.

« القوانين نافعة دائماً لمن يملك ، مضرّة لمن لا يملك . . . لقد منحت القوانين الضعيف أثقلاً جديدة ، والقوى قوى جديدة ، وحطمت إلى غير رجعة الحرية الطبيعية ، وثبتت قانون الملكية والتفاوت ، وقلبت الاغتصاب البارح حقاً لا ينقض ، وأنقضت مستقبل الجنس كله تحت زير العمل والعبودية والبؤس . . . لقد خلق الناس أحراراً ، ولكنهم اليوم مكبلون في الأغلال في كل مكان » (١) .

ومن الحدير بالملاحظة اشتراك آراء البورجوازية الناشئة إلى حد كبير في قرن الثورة في ذلك الجوع والظماً للحرية التي تولدت في أكثر الفلسفات السياسية سداجة وفتنة عن فوضى . فهذا آدم سميث مع أنه محترم كأى إنجليزي ، ذهب إلى أن ثروة الأمم تعتمد على حرية الفرد . وكان ميرابو « الأب » والفيزيقراط – الطبيعيون – Physiocrats يرغبون في ترك الطبيعة وحدها تدبر أمر التجارة والصناعة . وتضاءلت الدولة عند هربرت سبنر الذي ورث تقاليد الحرية من بنتام وستيوارت مل حتى كاد دورها يتلاشى ، ولم يحتفظ بها إلا « كحارس ليلي » لممتلكاته .

وقد غدى أصحاب النظريات السياسية بمنطق أعمى هذه الصيحة الصادرة عن الطبقة الوسطى للتححرر من جباية مكوس الإقطاع ، وتوارث الحكم ، وعنجهية الأرستقراطية . فإن صح أن الحرية كانت خيراً في التجارة والصناعة ، فيجب أن تكون كذلك في السياسة والأخلاق . وكان جودوين (٢) Godwin واثقاً من أن الطبيعة البشرية بما فيها من فضيلة كامنة يمكن أن تحتفظ بما يكفي من نظام بغير قانون . دع جميع القوانين تلغى ، نجد أن البشرية تتقدم في الفكر والحلق بما لم تتقدم به من قبل . ونظم شللي هذه الأفكار بعد عدول جودوين عن الاعتقاد فيها ، ومارس الحرية الجديدة مع ابنة جودوين دون اعتبارٍ لحق الفيلسوف في تغيير أخطائه مع الزمن . وجعل فشته الوطني إرادة الفرد قاعدة الكون وذروته ،

(١) Discourse on the Origin of Inequality (1755), p. 95 ; Social Contract, p. 1.

(٢) ولیم جودوين (١٧٥٦ - ١٨٣٦) كاتب إنجليزي من أحرار الفكر طالب باطراح النظم القائمة في الحكم والدين والأسرة . تأثر بروسو وأثر في وردسورث وكولردج وشللي وبيرون . وتزوج شللي ابنته ماري بعد علاقة غرامية ، فكانت زوجته الثانية (المترجم) .

ورأى في كل حقيقة خلقاً للعقل المنحصر في ذاته والمنعزل عن الأشياء الخارجية الذوات الأخرى . وعزى شترنر Stirner نفسه ، وقد حكم عليه أن يعلم في إحدى مدارس البنات ، بأن تصور إنساناً أعلى - سوبرمان - قد تحرر من استبداد الدولة ، فقال : « ليس للدولة أي غرض سوى تقييد الفرد ، وترويضه ، وإخضاعه لشيء عام . وهي لا تدوم إلا ما دام الفرد لا يعمل كل شيء على هواه فعليك أن تستقيم وستركك الدولة وشأنك » (١) . وتقدم نيتشه ، زاعماً أنه لم يقرأ شترنر ، فتطور بنظرية « الذات وما لها The Ego and His Own » حين قال على لسان زرادشت :

« لا يزال يوجد في بعض الأمكنة شعوب أما فيما يختص بنا فتوجد دول وتسمى الدولة وحثاً من أجراً جميع الوحوش ، وإنها لتكذب بجرأة وهذه هي الأكذوبة التي تنساب من فمها : « أنا الدولة ، فأنا الشعب » . ما أعجبها أكذوبة . فالعابرة المبدعون هم الذين خلقوا الشعوب ، وسلطوا عليهم عقيدة واحدة ، وحباً واحداً . وبهذا خدموا الحياة . إن المفسدين هم الذين ينصبون الشرك للكثرة من الناس ويسمونهم الدولة ولكن الدولة كاذبة في كل لسان فيما تقره من الخير والشر . فكل ما تقوله تكذب فيه ، وكل ما تملكه قد سرقته حيثما تزول الدولة يبدأ وجود الفرد الذي لا غنى عنه حيثما تزول الدولة - انظر هناك ، إني أدعو إخوتي . ألا تراه ، بشائر وأنوار الإنسان الأعلى ؟ » (٢) .

هذا التطلع للحرية المطلقة يدل على نزعة عامة تستوقف النظر ، وعلى إلحاح غريب . كان من بين تلامذة سقراط الكابيون الذين آثروا حياة الطبيعة على حكم القانون ، وأحبوا مثل أرسطيوس : « ألا يكونوا عبيداً أو أسياداً لأي إنسان » . وكان من بين الرواقين الذين تخلصوا من الثروة والقيود جماعة أملوا في جنة أرضية يشترك الناس في جميع خيراتها ويتحررون من كل القيود . وكان من بين المسيحيين الأوائل من أنكر استعمال القوة لأي غرض ، وعاشت جماعات دينية صغيرة في سلام وأخوة إلى أن زادت الثروة . وعاد منكر وتعميد الطفولة (٣) في عصر الإصلاح

The Ego and His Own. (١)

Thus spake Zarathustra, I, XI, pp. 61-5. (٢)

Anabaptists (المرجم) (٣)

الدينى يبشرون بإنجيل الحرية، وأرادوا أن يحققوا الجنة على هذه الأرض فألغوا الزواج. وفي الثورة الفرنسية أعلن مارا وباييف شروق الحرية وغروب الدولة. وفي سنة ١٨٤٠ الثورة كتب برودون^(١) Proudhon: « إن حكم الإنسان للإنسان في أى صورة هو العبودية. والكمال الأعلى للمجتمع في التوحيد بين النظام والفوضى... وفي أى مجتمع يكون سلطان الإنسان على غيره متناسباً تناسباً عكسياً مع النمو الفكرى الذى وصل إليه ذلك المجتمع »^(٢). وعرف تولستوى في روسيا الثائرة الحكومة بأنها: « اتحاد الملاك لحماية أملاكهم من أولئك الذين يحتاجون إليها » (أو يرغبون فيها: حسب تصحيح الملاك للعبارة). وتنبأ باكونين، بعد أن تخلى عن ثروته ومركزه الأرستقراطى ليلحق بالعدميين Nihilists، بأن التعليم سينشر بسرعة بحيث تصبح الدولة في سنة ١٩٠٠ لا ضرورة لها، ولا يخضع الناس إلا لقوانين الطبيعة. أما كروبتكين، الأمير، السيد المهذب، الفوضوى، فقد جاهد ليبين كيف أن الرجال والنساء في « طويلا » الحرية لا يحتاجون إلا إلى ساعة واحدة من العمل في اليوم، ونجح في إثبات أن التعاون التلقائى بين الإنسان وأخيه كان الأساس في كل تنظيم اجتماعى سليم، وأن هذا التعاون أعظم قوة وسلامة من القهر غير الطبيعى للدولة. وعبر وليم موريس في إنجلترا عن احترامه للحكومة بأن وصف مكاناً سعيداً يُستعمل فيه مجلسا البرلمان مخزناً للسجاد في المدينة الفاضلة. وفي أمريكا حيث مبدأ حرية التجارة، كان يبشر إمرسون باعتماد الرواد على أنفسهم، فقال: « لا أقدم أى قانون سوى طبيعتى الخاصة » وقال: « الحق الوحيد ما كان مطابقاً لدستورى الخاص ». وتصور هويتمان وظيفة الحكومة إعداداً للوقت الذى يحكم فيه الناس أنفسهم. وأعلن ثورو مرحباً وهو يصنع أقلامه البديعة: « إنى أقبل من كل قلبى ذلك الشعار: أفضل حكومة ما قلّ حكمها... وإذا مضينا بهذا الشعار إلى نهايته كان معناه، وهذا ما أعتقده: أفضل حكومة ما لا حكم لها على الإطلاق. وعندما يعدّ الناس لهذه الحكومة ستكون هى أفضل نوع يحصلون عليه ».

(١) برودون (١٨٠٩ - ١٨٦٥) فيلسوف فرنسى فوضوى. ومن أشهر كتبه « ما المليك؟ »

صدر سنة ١٨٤٠، وبدأ بهذا الجواب « الملك سرقة » (المترجم).

(٢) Eltzbacher, Eltsbacher P., Anarchism, p. 73.

٣ - الفوضوية

ماذا نحن قائلون عن هذا الدين الحرىء للحرية؟ إلى أى حد يكون النظام الاجتماعى طبيعياً، وإلى أى مدى يمكن أن يحتفظ بنفسه بغير سلطة القانون؟ إلى أى حد الحرية ممكنة للإنسان؟

وفى الأمور الإنسانية (وليأذن لنا سنتيانا باسائة استعمال إحدى عباراته) كل شىء صناعى له أصل طبيعى، وكل شىء طبيعى له نمو صناعى . فالتعبير طبيعى، واللغة صناعية . والدين طبيعى، والكنيسة صناعية . والمجتمع طبيعى، والدولة صناعية . وطاعة القانون، كاللغة واللاهوت، تنشأ عن طريق النقل الاجتماعى والكسب الفردى أكثر مما تنشأ عن طريق الدوافع المفطورة فى البشر . ومن ثم جاء الصراع الدائم داخل الذات بين رغبات القلب، والخوف من رجال الأمن . ومن هنا جاءت اللذة التى يحسها الثائرون الظافرون فى خرق المحرمات الصناعية والثقيلة، مع وجود شىء من التأييد الاجتماعى والحصانة التسيية . نحن فوضويون بالطبيعة، ومواطنون بالإلحاء .

ومع أننا بيننا وبين أنفسنا همج بلا قوانين، إلا أننا مهيتون بالطبيعة لضرب معقول تلقائى من النظام والانتظام . فالمجتمع أقدم من الإنسان، وأقدم من الفقرىات . فلولوحيدة الخلايا مستعمراتها، وفيها تقسيم للعمل بين خلايا التوليد وخلايا التغذى . ويرتفع النمل والنحل بهذا التخصص فى الوظيفة إلى الحد الذى يتميز فيه الكائن فسيولوجياً لمهمته الاجتماعية . وحتى الجوارح التى تعد أنيابها وجلودها ومخالبها بدائل فردية عن قوة وأمن النظام الاجتماعى، فمن بينها تلك الكلاب الرقيقة العيون التى يمكن أن تكون أكثر ميلاً إلى الاجتماع من التاجر، وأعظم وفاء من المحرر الربيعى . يقول داروين : « يقرب قردة هنادرياس الأحجار لاكتشاف الحشرات، وعندما تصيب حشرة كبيرة يلتف حولها أكبر عدد ممكن ويديرونها معاً ويشتركون فى الغنيمة . . . وعندما تحس الثيران البرية بالخطر فإنها تسوق الأبقار والعجول وسط القطيع، على حين تدافع هى فى الخارج» (١)

(١) The Descent of Man, p. 114.

وإذا تعرضت الخيل للخطر قاربت بين رءوسها وجعلت أرجلها الخلفية إلى الوراء مكونة « نطاقاً صحياً » ، وكذلك يضع أهل الغال نساءهم في الوسط حين يناجزون العدو (لا ريب أن نابليون كان في ذهنه هذه الحماية ذاتها للعجزة عندما أصدر أمره في معركة الأهرام : « الحمير والأساتذة في الوسط » .) وأكبر الظن أن أصل المجتمع الحيواني نشأ من مثل هذه الاتحادات للدفاع ، وعن طريقها تأسس ميراث من الدافع الاجتماعي للإنسانية .

أضف إلى هذه العشرة التلقائية التعاون المشكل للأسرة ، وهنا يلقي النظام الطبيعي الخالص بعض الاستحسان . يقول داروين : « يبدو أن الغريزة الاجتماعية قد نمت من وجود الصغار فترة طويلة مع آبائهم » (١) وبهذا المعنى تكون الأخوة في الإنسان قديمة قدم التاريخ . وهي تبعث الحياة إلى آلاف من الجماعات السرية وأشكال الزمالة ، التي يصعب أن يعيش فيها الواحد وحشاً . وقد ماتت نفسه دون أن يفرغ مرات يحس بتضامنه الجسماني مع الإنسانية . وإلى جانب هذه الأخوة الطبيعية تنتشر محبة أبوة تساعدنا على تبادل المعونة . والإيثار الذي جعله عصر التنوير فضيلة بمنظار مكبر (٢) ، طبيعي كالصلة الحنسية ، وعام كالأبوة . وقد تعجب كانط من وجود كثير من الرحمة في العالم وقليل من العدالة ، ولعل ذلك يرجع إلى أن الرحمة تعاطف تلقائي على حين ترتبط العدالة بالحكم والاستدلال . ومن أجل ذلك كانت النساء أقل بعض الشيء عدلاً ، وأكثر أحياناً رحمة .

وأخيراً فإن المجتمع ذاته معتمداً على هذه الدعامات الغريزية والاقتصادية ينمي في الفرد بعض العادات الاجتماعية التي تصبح من القوة كأي طبيعة ثانية ، ويكون حاجزاً من النظام يعتمد عليه أكثر مما يعتمد على القانون . وكلما طالت حياتنا أصبحنا أكثر ميلاً إلى الاجتماع ، وأعظم قبولاً لرأي جيراننا ، وأشد جنوحاً إلى التقليد والاحترام ، وأقوى صلة بالعرف والتقاليد ، وأقرب موافقة لتلك الحواجز المانعة للرجبة والتي تجعل الحضارة تعتمد على العادة أكثر مما تعتمد على القوة .

(١) The Descent of Man, p. 119.

(٢) حسب عبارة تين .

وتسعى كل سلطة نفسية منظمة إلى تكميل هذا الترويض للفرد وصبغه بالصبغة الاجتماعية . وتقدم الكنيسة إليه عند مولده عدداً كبيراً من النصائح يظل أثرها اللطيف باقياً حتى بعد انقضاء أساسها الديني . حتى إذا ضعفت السلطة الأبوية والكهنوتية ، حلت أكثر فأكثر محلها سلطة المدرسة ، التي تزعم أنها تعد الفرد للانتصارات الاقتصادية والفنية . ولكنها تصوغه في هدوء وبراعة كما نصح أرسطو « كي يلائم شكل الحكومة التي يعيش في ظلها » . وهي تصب في كيانه العادات والأخلاق الخاصة بجماعته . وتغطي باعتدال حقيقة التاريخ العارية بمجيد ماضي الأمة ، فيصبح المواطن الوطني مستعداً لحفز جيرانه لأي تضحية في سبيل رفع قوة بلده . فإذا أخفقت المدرسة في هذه المهمة الاجتماعية ، أو أفلت الفرد منها بتركه المدرسة عند سن البلوغ ، أتمت الصحافة العمل ؛ فقد تعاون الاختراع الآلي مع التجمع في المدن على تقريب كل عقل من هذا الشيء المبتذل المسمى « الصحف » وتلك المذاهب الدقيقة المختبئة وراء السطور .

فإذا نظرنا إلى هذه القوى المشكلة جملة ، بدا الدافع إلى السلوك الحسن مما لا يمكن مقاومته ، حتى لقد يتساءل المرء بحق عن ضرورة القوانين المنظمة للأخلاق . والمجتمع إلى حد كبير هو الذي يوجد لا الفرد . وكما قال جملوفيتش : « إن الجزء الذي يفكر من الإنسان ليس هو الإنسان ، بل الطائفة الاجتماعية التي يعد جزءاً منها » . وحتى ضميره ليس إلا صوت سيده . ولقد قال نابليون ذلك النفساني البارح : « الإنسان ثمرة البيئة الأخلاقية والبيئة الطبيعية على حد سواء » . وبالوراثة البيولوجية ترتبط بماضينا الحيواني ، وبالوراثة الاجتماعية – عن طريق امتصاصنا بالمحاكاة والتعليم لتقاليد مجتمعنا وأخلاقه – ترتبط بماضينا الإنساني . وقوى الاستقرار المتأصلة في دوافعنا وعاداتنا تترك في أنفسنا شطراً ضئيلاً هو الذي يحتاج إلى الأخلاق غير الطبيعية من الدولة .

ولما كانت هذه التأثيرات المكونة تعمل عملها في أرق سنوات عمرنا التي نكون فيها أكثر خضوعاً للإيحاء ، فقد يصعب علينا التغلب عليها إلا على حساب صراع قد يقضى على صحة عقولنا . فعندما نبتعد عن أخلاق بلادنا وعصرنا نصاب بحتين قاتل شديد إليها . وعندما نستقر في الحياة فالأغلب أننا نعيش في دياجير

الماضى . والقانون من الناس هم عادة أولئك الذين يصطنعون بلاسؤال عادات وتقاليد وأخلاق ولغة وأسلوب جماعتهم فيصبحون ذرات غير متميزة في الجمهور الاجتماعى ، ويستغرقون فى راحة مريحة من استسلام النفس الذى يبارى خضوع الحب . وكلما عظم المجتمع قوى الضغط على الفرد ليتخلى عن فرديته حتى فى تلك البدع الحديدية التى تبهج النفس القانعة ، إذ يشعر أنها ليست بدعاً على الحقيقة ، بل تغييرات محترمة تقوم على أساس قديم . والنتيجة الأخيرة هى أن عدداً كبيراً من السكان يكاد يصبح جسماً غير متحرك ، وتتغلب نزعة المجتمع الطبيعية إلى المحافظة على وطنية الدولة . ويصبح الفرد وقد صيغ فى صورة المجموع سهل القيادة حسن السلوك بحيث تظهر أوامر القانون وعقوباته إسرافاً لا مسوغ له . ثم قد نقوى فى بعض اللحظات بأن ننحاز ونوقع بأسمائنا فى تحد إلى جانب مذهب أولئك الفوضيين المخوفين الذين نفهم أو نبعدهم أو نحكم عليهم أو نسجنهم أو نشنقهم .

٤ - صعوبات الحرية

فلنظمن أنفسنا : فى هذه الفلسفة الخاصة بالحرية عيوب ، لأنها أولاً لا تقدر عنف القوى حق قدره ، إذ أن نفس السلطة عديمة الرأفة هى التى تجعل الدولة تحكم بقوة أظهر وأكثر مباشرة وأعظم ألماً وفوضى إذا لم تكن هناك دولة على الإطلاق . والحضارة هى فى شطر منها إقامة النظام والعرف مما يضع حداً لاستغلال القوى للضعيف . إن تزعزع القانون الدولى يكشف عن التهديد بالعنف بين الأقوياء ، ولا تملك بالفضيلة إلا الدول الصغرى . انظر إلى مقاله سقراط لأرستيبوس : « إذا كنت تظن من الأصوب حين تعيش بين الناس ألا تحكم أو تحكم ، فإنى أظن أنك سترى سريعاً كيف يتعلم الأقوياء معاملة الضعفاء معاملة العبيد » (١) . وكل اختراع يزيد القوى والماهر قوة يقبض بها على الخيب والمسوس والضعيف . وكل نمو فى تعقيد الحياة يوسع الهوة ويجعل المقاومة أصعب . وهذا شىء نقرره بمرارة ، ولكن المجتمع لا يقوم على المثل العليا بل على طبيعة الإنسان . أما مثله العليا فهى أشبه بمحاولة لإخفاء طبيعته عن نفسه وعن العالم .

(١) Xenophon, Memorabilia, Book ii, ch, 1, § 12.

هذا إلى أن الميول الاجتماعية التي يقوم عليها النظام الطبيعي أبعد عن التأصل في قرارة أنفسنا من تلك الدوافع الفردية الخاصة بالحصول والجمع ، وبالعدوان والسيادة ، مما تقوم حياتنا الاقتصادية على أساسها . بل إن صيحة الحرية تصدر عن قلب يظماً سراً إلى القوة ، وبسبب هذا الظماً الموجود في الإنسان المتوحش تحدد الحرية وتقيده . والضعيف إلى حد ما هو الذي يقص تحت ضغط آراء الأغلبية أطراف حرية الفرد خشية أن توسع القوة غير المقيدة الهوة بين نفسها وبين ذلك الخائر ، حتى لينفجر الكيان الاجتماعي بالثورة . وأول شرط للحرية هو تحديدها ، فالحياة ميزان من القوى المتداخلة كالأرض المعلقة في الفضاء . والناس متفاوتون في المقدرة والشجاعة إلى درجة أن انعدام القيود يؤدي إلى أن تتوالد اختلافاتهم الطبيعية ، وتتكاثر بطريق آلاف من الاختلافات الصناعية إلى ندوب للبشرية ثابتة لا أمل في الشفاء منها . لقد أحب الفرنسيون نابليون ، لأنه على الرغم من طغيانه الشديد كان يفتح باب العمل لكل صاحب موهبة مهما يكن مولده ، ووهب الناس بكثرة لم يسبق لها مثيل تلك المساواة التي يحبها الحجولون من الناس أكثر مما يحبون الحرية .

نخلص من ذلك إلى أن عصور الحرية هي عصور انتقال ، هي فواصل جريئة بين عهود العرف والنظام . وهي تدوم عندما تتنافس مذاهب في النظام نحو السيادة ، حتى إذا ظفر مذهب منها اختفت الحرية . ولست تجد أخطر على الحرية من ثورة ناجحة ، لأن أعظم مأساة تصيب المثل الأعلى هو تحقيقه .

ما العلة في أنه حينما ظهر في التاريخ النظام التلقائي الذي لا يقوم إلا على العيشرة الطبيعية بين الناس ، كما هي الحال في المجتمعات البدائية ، أو في كاليفورنيا حتى سنة ١٨٤٩ ، أو في ألانكا حتى سنة ١٨٩٠ ، لم يلبث أن ينتقل إلى النظام الصناعي والإلزامي للدولة ؟ إنه سؤال كبير لن يكفي جواب واحد لتوفيته . ولاريب أن بعض السبب يرجع إلى انتقال وحدة الإنتاج والمجتمع من الأسرة إلى الفرد . ومن الواضح أن الأسرة تفقد وظائفها حتى فيما يختص بالعناية بالأطفال . ويتحول الاحترام البنوي والولاء الأخوي إلى وطنية تصبح هي العبادة الوحيدة للروح الحديثة . فإذا تجردت الأسرة من وظائفها أصبحت كالطبل الأجوف

ولا يبقى فيها إلا أفراد يعيدون عنها ، مستقلون بعظمة في عبودية مشتركة . ذلك أن العبودية تشبه الحرية شياً كبيراً عندما لا يرى السيد أبداً .

وفي أثناء ذلك يؤدي تجمع الناس في المدن إلى انحلال أخلاق الحرية باعتبار أنها مصدر للنظام التلقائي . ويصبح كل دافع أناني حراً في حماية حشود الجماهير . أما حيث لا يزال النظام الطبيعي قوياً كما هي الحال في الجماعات الريفية البسيطة ، فلا بد من وجود بعض القانون ؛ وأما حيث يكون النظام الطبيعي ضعيفاً كالحال في مدنا المنبسطة فإن التشريع ينمو ، وتحل الدولة محل المجتمع التلقائي كما تحل الشركات التجارية محل التاجر الصغير ، أو كما تحل شبكة السكك الحديدية محل عربة البريد التي كانت تتجول في تلك الأيام الشاعرية الأولى . ذلك أن تعقيد الحياة المستمر في النمو قد قيّدنا إلى كلٍّ موحد توحيداً عظيماً ، وانتزع منا ذلك الاستقلال للأجزاء مما كان ميسوراً من قبل حين كانت كل أسرة مملكة تكفي ذاتها بذاتها اقتصادياً . ثم تفسد الحرية السياسية والصناعية للسبب نفسه الذي يزيد فيه الانحلال الخلقى : لأن الأسرة والكنيسة قد توقفتا عن أداء وظيفتهما أداء كاملاً باعتبارهما مصدرين للنظام الاجتماعي ، ويفرض الإلزام التشريعي نفسه على الفجوات النامية في الزواج الطبيعية . وهكذا نجد أن الحرية قد هجرت الصناعة والدولة ، ولم يبق لها وجود إلا في الحياة الخنسية .

ولو أن أدوات الإنتاج ظلت على بساطتها كما كانت أيام البداوة - جاروفاً وقطعة من الأرض - لما تضخمت الدولة ، فأصبحت غولا يخيف اليوم حياتنا الحقيرة ، إذ عندئذ كان يمكن لكل إنسان أن يمتلك آلاته ويتحكم في ظروف حياته الأرضية ، وكانت حرّيته تكون قد احتفظت بمقوماتها الاقتصادية الضرورية . ولم تكن الحرية السياسية قد أصبحت كالمساواة السياسية خدعة حقيرة . غير أن الاختراعات جعلت الآلات أكثر تعقيداً وأعلى ثمناً ، فميزت بين الناس وقدرتهم . حسب قدرتهم على استعمال أو إدارة أو امتلاك الآلات الأدق والأكبر . وانتهى الأمر بشكل طبيعي جداً إلى تركيز ملاك الآلات في بضعة نفر ، واختفى الاكتفاء الذاتي ، وأصبحت الحرية لفظة من عبارات الساسة ، وبقيت من مخلفات الماضي تمجد كل عام كسائر أمواتنا الأعزاء .

ففي كل جانب يجرفنا تيار من النمو تتبدد فيه الحريات القديمة والطبيعية . هذا إلى أن علاقاتنا الصناعية تبلغ من الأهمية لصحة الجماعة حداً لا يمكن أن تترك وحدها للرقابة الفردية . وهناك بعض الوظائف مثل النقل والمواصلات والشئون المالية تبلغ من السلطان حداً يجعلها بدون تقييد تشريعي تبتلع كل صناعة كأنها وحش مفترس عظيم . لذلك يحسن من كل وجه أن تخضع هذه العمليات لتنظيم الدولة ، مهما تكن عاجزة وحزبية وفسادة كما هي حال أي دولة في زماننا . ولعل جميع المسارب الرئيسية في الحياة الاقتصادية يجب أن توجد وراء مثل هذه الرقابة الوطنية ، وأن ينزع كل شريان حيوي بين المنتج والمستهلك من السيطرة الفاتكة لأفراد محصنين غير مسئولين . أما الإنتاج نفسه فيجب أن يظل حراً (١) .

وعندما تستقبل جميع طرق التوزيع كل مستهلك على حد سواء ، يصبح الإنتاج والاستهلاك من الحرية بما يسمح به الطمع الإنساني . فإذا شفيت الصناعة من التصلب الاقتصادي — بأن تحرر من الوسطاء العديدين الذين يضيقون شرايين التبادل ويصعبونها ، ويهددون أمننا في أحسن أوقات ثروتنا — ازدهرت وقرعرت كالنبات الحر أو البذرة المفتحة . وعندئذ يتحرر ملك الفرد المتكر المدبر أكثر مما يتقيد ، وتجد الجماعات التعاونية بعض الحماية من سيطرة السادة المعادين لملاك آلة التوزيع . وقد تصبح الحرية في النهاية بعد أن تقلم أظافرهما وتهدب أعناق وأغني مما كانت من قبل .

د — الدولة الجيفرسونية

وهنا كله مما ذكرناه من قبل امتياز ينطوي على الحقد ، لأن المثل الأعلى الجيفرسوني للحكومة التي تحكم أقل ما يمكن لا يزال يسهوي القلب بسحره البسيط ، وكل قانون يضاف يدنس سلطة الروح . فالنظام سبيل إلى الحرية وليس غاية في ذاته . والحرية لا تقدر بثمن لأنها الوسط الحيوي للنمو . أو كما قال جوته الشيخ :

(١) يذهب نيتشه المعادي للاشتركية إلى أبعد من ذلك فيقول : « يجب أن نأخذ جميع فروع النقل والتجارة التي تعين على تكديس الثروات الكبيرة — وبخاصة النقد في السوق — من أيدي الأشخاص والشركات الشخصية ، وأن ننظر إلى أولئك الذين يمتلكون كثيراً ، كما ننظر إلى المعدمين ، باعتبار أنهم نماذج تحمل الخطر للجماعة . » (Human All Too Human, vol ii, p. 340)

« في نهاية الأمر الشخصية وحدها هي التي يجب لها حساب » . ولقد خلقت الدولة من أجل الإنسان ، لا الإنسان من أجل الدولة . وقد اخترعت الوراثة لحفظ الفروق ، ونشأت كل عادة على أنقاض عادة سابقة . والتطور يتغذى على التميز والتغير . ويحتاج النمو الاجتماعي إلى التجديد والتجربة كما يحتاج إلى النظام والقانون . ويسير التاريخ بطريق العبقريّة والاختراع كما يسير عن طريق القوى غير الشخصية والحماهير الحالية من التفكير .

ولو سمحنا بتحديد حياتنا الاقتصادية، فينبغي أن نحى حرية العقل في مقابل ذلك مائة مرة . فالحرية العقلية يجب على أقل تقدير أن تكون عزيزة علينا كحرية البدن بالنسبة للحيوان ، الذي يؤسر ويحبس في قفص ، ولكنه لا يرضى أبداً بالأسر ، ويتحفر على الدوام مرتقباً طريقاً للحرية . وأكبر الظن - لأننا نحمل روثة مثل هؤلاء الأسارى المساكين ، وننظر دون ندم في عيون غارت ورقت من شوقها إلى الحرية - أننا لسنا جديرين بالحرية التي كانت عند آيائنا في لقاءهم الحيوان على قدم المساواة . وكانوا يقتلونهم في صراع عادل بدلا من أسره في قفص للتفرج عليه في أصائل يوم الأحد . ومع ذلك فنحن أنفسنا أسارى دون أن نشكو . فكيف يمكن أن نفهم شوق هذه الحيوانات المقيدة ؟

يقول مثل صيني فحواه: أن الأمة إذا بدأت تكثر فيها القوانين ، انزلت إلى طريق الشيخوخة ؟ . وكان قداماء التورين يقدمون كل صاحب اقتراح بقوانين جديدة فاشلة إلى جبل المشتقة ، جزاء وفاقاً لعدوانه على الحرية . ويقال إن المشرعين في أمريكا يصدرون ما يقرب من ستة عشر ألف قانون كل سنة^(١) ، وهذا إن صح كان دليلاً على أننا أمة من اللصوص لا نحتاج إلى القوانين بل إلى التربية . وتعد جلسات الكونجرس في الولايات المتحدة منبعاً للتوجس القومي عند الأغنياء والفقراء على السواء . ولعل التقدير المتزن الذي ظفر به الرئيس السابق^(٢) كان راجعاً إلى أنه « ملك عاطل (roi fainéant) » يمكن الاعتماد عليه كملوك الإنجليز في عمل لا شيء ، اللهم إلا تسلّم مرتبه . وحتى ما أصدره من « حق الاعتراض » كان

(١) Pringle, H.F., Alfred E. Smith, p. 132.

(٢) هو كالفن كوليدج Calvin Coolidge انتخب رئيساً ١٩٢٣ - ١٩٢٩ .

يقابل بالامتنان . ولكن ماذا كان يحدث لو أن القوانين التي وقفها كانت حسنة ؟ ..
القانون حتى لو كان حسناً قانون ، ولن يذرف أحد الدمع على دفنه .

فإن بدا ما سبق ذكره دليلاً على أن أخلاقنا الحاربية المجردة من القانون لا تبلغ من الشر كما يذهب بعضنا حين يخففون العبء الواقع على الضمائر برفع الناس إلى مرتبة الفضيلة ، فالفرض صحيح ؛ ذلك أن معظم لأخلاقنا تتخذ صورة الأمانة ، فنحن الشيوخ كنا في شبابنا المحصن المعدم متهاونين ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً . وكنا إذا ارتكبنا إثماً ارتكبناه في غير ضجة ، وذهبنا إلى المحافل نحمل على وجوهنا قناع الصالحين . أما الجيل الناشئ فلم يبلغ مثل هذه البراعة في الكتمان ، ويجب المفاخرة بذنوب أعظم من تلك التي يرتكبها . وخطاياها سطحية يحو أثرها مرّ الزمن . وستؤدي التجربة إلى نضج الناس بما يكفي أن يردهم إلى محبة الاعتدال والحياء مرة أخرى . وكيف نرد الشباب عن مجالس الشراب إلا بالامتناع عن تحريمها ؟ ماذا يهم أن يكون العري منتشراً فترى الأجسام العارية في يسر أكثر وخفية أقل من أيامنا المثقلة والمطوقة بالملابس ، حتى حلت المثريات المبالغ فيها محل الأخيلة الجنسية المريضة ؟ ستهذب العادة في رقة الشرب إياماته الحساسة ، ويجب أن تعود الملابس مرة أخرى حتى تولد تخيلات الشوق .

وليس للشيوخ حين يواجهون هذه النهضة الرائعة للشباب إلا أن يفكروا في القوانين ، فتسمع صوت الوجلين الحاسدين يطالبون أعضاء المجلس الطاهر في أمريكا بإنقاذ الأخلاق . الآن بعض الفاسدين من تجار النساء كسبوا مالا حراماً بعرض أبداع ما خلق الله على خشبة المسرح ، يطلب المتبرمون أن تعطى لرجال الأمن سلطة مراجعة جميع أفلام السينما وروايات المسرح قبل عرضها على الجمهور ؟ مع أن المفروض أن في سلطة البوليس من القوة ما يوقف التبذل بما هو موجود من تشريعات قائمة ، فلا حاجة بعد ذلك إلى فرض تحريمات بلا تمييز ، وفي الرأي العام إذا لم يضعف بالقوانين المتعجلة كفاية في الحد من الغلو ، وقد يكون أعظم تأثيراً (كما هي الحال في الشراب) من أي قانون . ولو أننا لبسنا أزياء البيوريتان (المتزمتين) لعادت أمريكا أمة في طور الريفة

والطفولة ، في الوقت الذي أخذت تبده في أدها وتمثيلياتها وفيها الخاص . إننا لنؤثر حرية شارل الثاني على تزمت كرمويل .

ومن حسن حظنا أن تكون الحياة في هذه الأمور في جانب الشباب ، وأن يكون الشباب في جانب الحياة . قد يُقدّم خلفاؤنا على الانتحار ، ويؤثرون لعب الكرة على التفكير في نظرية المعرفة ، ويغفلون عن شكر الله قبل الشرب ، ومع ذلك فلا ينبغي أن تصرف هذه الانحرافات عيوننا عن رؤية الصحة البهيجة والنفس الصافية للشباب المعاصر . دع الفتية في سعادتهم ، إذ لن يطول بهم الأمد حتى يطفوا في السن ، فيدفعهم ما أصاب الحسد من إبهاك إلى الفضيحة . ولو كانت الأخلاق قد أصيبت بالخلال مؤقتة ، فسوف يهذب الفتيان أنفسهم مع نمو المعرفة والحكمة ، وعلينا في النهاية - كما ذهب سقراط إلى ذلك - أن نَعَلِمَ أكثر مما نَحْرَمُ . وإذا أردنا أن نحسِّن أخلاق غيرنا من الناس فعلياً أن نحسن أخلاقنا أولاً ، لأن صوت المثل يدوي فلا تسمع معه أصوات المواقظ . وأفضل ما يمكن أن نفعله لصالح الجماعة ألا نقيدها بالقوانين ، بل أن نقوى أنفسنا بالتسامح والكرامة . والسيد المهذب لن يخضع لأخلاق أخرى خلاف ما تلميه عليه نفسه .

ولابد أن يأتي زمان يدرك الناس فيه أن أعلى وظائف الحكومة ليست التشريع ... بل التهذيب ، وليست سن القوانين ... بل بناء المدارس . فيرشد أعظم الحكام ويوحى كما يفعل أبرع المعلمين عن طريق التثقيف أكثر من النواهي والأوامر التي تدعو إلى العدوان (١) . سيكون شعار الحاكم : ملايين الجنيهات للتعليم ، ولا ملين واحد للإجبار . وستعود الدولة التي بدأت غزواً وسلباً من الرعاة النهابين للفلاحين المسالمين فتصبح كما كانت لفترة بسيطة تحت حكم الأنطونين قيادة عظماء الرجال لأمة عظيمة . وليس لنا أن نبأس من شعبنا إلى الحد الذي يجعلنا نعتقد أن مصير الحكومة سيقع في أيدي الساسة إلى الأبد . ويوماً بعد يوم تنشأ ذخيرة من المعرفة ،

(١) كانت تجربة مستر هوفر كوزير للتجارة مثالية ، إذ استطاعت الهيئة التي يرأسها أن تضع النظام والاقتصاد موضع الفوضى والتلف . ولم يكن ذلك بالتشريع والجبر ، ولا حتى بالتنظيم ، بل بجمع المعلومات وتداول الرأي والاتفاق على العمل . وهذا لعمري هو فن الحكم .

وجيلاً بعد جيل ينمو تراث الثقافة ، وينتقل إلى عدد أعظم من البشر ، وعندئذ
لن يصبر الناس على المهرجين الذين قاسينا منهم بصبر شديد وأمد طويل .
وسيختار أبناء أبنائنا ، وقد ارتفعوا بعنايتنا ، حكاهم اختياراً أحكم مما فعلنا . لن
يطلبوا مشرعين ، بل معلمين خلاقين . لن يخضعوا للتجنيد والتنظيم بل للمعرفة .
لن يحققوا السلام والنظام بالعنف والقهر ، بل بتقدم الذكاء ونشره وتنظيمه .

الفصل الثامن عشر

هل أخفقت الديمقراطية؟

١ - أصول الديمقراطية

لقد نشأت الديمقراطية - التي قال منتسكيو إن مبدأها هو الفضيلة - من المال والبارود . ذلك أن المدافع والبنادق دكت القلاع الإقطاعية ، وجعلت القروان المتجرفين البارزين على خيولهم فريسة سهلة للمشاة ، وسوت بين السفلة والأشراف في ميدان القتال ، وأعدت لأول مرة منذ فيثاغورس بعض المنزلة للعدد . وقد سهل اختراع سك العملة ونظام الائتمان سبل التجارة وجمع الثروات ، فشيدت عند ملتقى الطرق التجارية مدن عاملة ، وعند الثغور التجارية مدن حرة بلغت من القوة ما يجعلها تحلح نير الضرائب الإقطاعية . وتولدت في مقابل أرستقراطية الأرض العاطلة طبقة متوسطة ميسورة نشطة ، أصبحت « سلطة ثالثة » طالبت بمركز سياسي يتناسب مع قوتها الاقتصادية المتزايدة .

وكان فولتير وروسو أجهر أبواق هذا التغيير ، فأذاعا في الشعب ذينكما الشعارين الثمينين : « الحرية والمساواة » ، فسارت الطبقة المتوسطة على نغمت هذا النشيد إلى ذروة السلطة السياسية . كانت الحرية تدل في الأصل على التحرر من الاستبداد الإقطاعي وضرائبه . وكانت المساواة في الأصل تدل على السماح باشتراك الطبقة المتوسطة مع الأرستقراطية ورجال الدين في سلطان الحكومة وغنائمها . ويخيل إلينا أن الإنحاء كان في الأصل يدل على تمكن رجال المال والتجار والحزازين والحجازين من دخول « صالونات » الأرستقراطية ورجال الدين . ولم يكن من المفروض أن ينحرف الفهم بهذه الألفاظ الفخمة بحيث تشمل جميع البالغين من الرجال ، وأقل من ذلك جميع النساء ، فقد كان ينبغى على الزوجات

بالعمال، ممن لم تكن لهم صفة أخرى غير الزوجية أو العمل، أن يفهموا أنهم ما كانوا مقصودين بهذه الإشارة. وقد رغب روسو، وهو أبو النظرية الديمقراطية في إبعاد جميع النساء وجميع المعدمين من السلطة السياسية، ولم يدرجهم تحت لفظة « الشعب people » (١). وفي الدستور الذي وضعه مجلس الثوار الفرنسي لم يدرج ثلاثة أخماس البالغين من الذكور في قوائم الانتخاب. وفي قوانين ولايات مختلفة من جمهورية الولايات المتحدة كان ينص على نصاب مالي بالنسبة إلى حق الانتخاب حتى أيام الرئيس أندرو جاكسون (٢). فالديمقراطية إذن بمقتضى أصلها، ولا تزال في طورها الحار، تدل على حكم الطبقة المتوسطة، أي الحكومة التالية في الأفضلية (٣) second best.

وقد ساهمت عوامل متعاونة مع هذا السبب الاقتصادي الأساسي، ذلك أن الإصلاح الديني البروتستانتي قد مهد الطريق لتلك الفردية الثائرة التي تختفي وراء الأخوة الديمقراطية للإنسان. هذا إلى أن العلماء والفلاسفة من كوبرنيك إلى دارون أهوا بمطارقهم يدقون رءوس الخرافات عن طريق الطباعة، فأدى ذلك إلى انهيار الاعتقاد السلبي والمنافق في الآخرة. وحلت محله ثقة ساذجة في فردوس أرضي يشارك فيه جميع الناس أذكيا وأغبياء على السواء في السعادة والسلطان. وقد علمت الثورة الصناعية الناس أن يحكم بعضهم على بعضهم الآخر في أساس القدرة الإنتاجية - التي قد تبدو في أي طبقة - أكثر من النسب. ودفع الملوك ثمن التمسك بالحكم أن وقفوا من رجال الأعمال الأغنياء موقفاً أكثر تأدباً، كما منحوا الطبقات الدنيا المشاركة في الانتخاب إلى البرلمان قوة ومنزلة متزايدتين. ثم إن تنافس الجماعات صاحبة الامتياز دفع كل قلة منها إلى المطالبة بتوسيع حق الانتخاب أملاً في تأمين الاستمرار في سلطانها عن هذا الطريق. حتى إذا خرج

(١) Beard, Economic Basis of Politics, p. 78.

(٢) أندرو جاكسون (١٧٦٧ - ١٨٤٥) سابع رئيس للولايات المتحدة (١٨٢٩ - ١٨٣٧)

(الترجم).

(٣) يشير المؤلف إلى نوعي الحكومة اللذين ذهب إليهما أفلاطون، فأفضل حكومة هي المدينة الفاضلة، التي بسطها في كتاب الجمهورية، وهي حكومة الفرد الفيلسوف. ثم عدل عنها في كتاب النواميس إلى أفضل حكومة ثانية، وهي حكومة الطبقة الوسطى، وعلى هذا الأساس اعتمد أرسطو (الترجم - وانظر كتاب تطور الفكر السياسي تأليف ساباين وترجمة حسن العروسي).

السادة من الحكم ، دخل الشعب في الحكم . وحين انتهى سلطان الرجال ابتداء سلطان النساء ، فنحن اليوم جميعاً قد غاصت أقدامنا في الوحل فأصبحنا في مأزق جلير نحيال البارون مونشاوزن^(١) Munchausen ، فمن يخرجنا من هذا المأزق وجميعنا قد وقع فيه ؟

وعلى حين كانت هذه الأسباب العامة تتفاعل في أوروبا ، مفضية في إنجلترا وفرنسا وألمانيا إلى ثورات ١٦٨٨ ، ١٧٨٩ ، ١٩١٨ ، وفي روسيا في المرحلة الأولى إلى ثورة ١٩١٧ ، إذا بهذه العوامل تعضدها عوامل خاصة فتؤدي إلى نمو الديمقراطية الأمريكية . أما ثورتنا التي وقعت عام ١٧٧٦ ، والتي بعد عهدنا بها فلم نعد تعجب بها ، فلم تكن فقط ثورة مستعمرات على إنجلترا ، بل أكبر الظن أنها كانت في أساسها ثورة طبقة متوسطة على الأرستقراطية الوافدة . لقد كانت جزءاً وبضعة من تلك السلسلة الطويلة من الزلازل السياسية التي قوضت أركان العالم الغربي وغيرت وجهه ، وكسرت شوكة ملاك الأرض الأشراف وحطت بمنزلتهم ، وشيدت حكومات شعبية في كل مكان .

وكما أن انتصار رجال المال على الأشراف Barons في أوروبا سهل ثورات الفلاحين ، وطمع الأجراء في الأرض المتحررة من حقوق الإقطاع وعشوره ، كذلك عندنا في الولايات المتحدة سهلت وفرة الأرض الحرة ظهور الطبقة الوسطى وأسرت برفع شأنها . لقد وفدت الديمقراطية إلى أمريكا وفوداً طبيعياً ، لأن أمريكا بدأت بالمساواة والحرية . والديمقراطية الحقنة ، كالشيوعية ، تميل إلى الظهور عند البدايات البسيطة للحضارة ، أكثر من مراحلها الأخيرة ، التي تمتاز بالتعقيد والترف والتميز . ولقد عجب دى توكفيل^(٢) من المساواة الاقتصادية التي شاهدها عندنا سنة ١٨٣٠ . فالأرض يمكن الحصول عليها بطلب

(١) البارون مونشاوزن شخصية كتب رحلات خرافية ، وبطل عدة قصص صغيرة ، ساح في البلاد ووقعت له وقائع غريبة (المترجم) .

(٢) هو الكونت شارل هنري موريس دى توكفيل De Tocqueville (١٨٠٥-١٨٥٩) مؤرخ فرنسي مشهور بدراسته للطبيعة ، والديمقراطية ، وكان يهدف إلى ازدياد حكم الشعب مع الحد في الوقت نفسه من ميوله الفاسدة . أشهر كتبه هو الديمقراطية في أمريكا ١٨٣٥ - ١٨٣٩ La Démocratie en Amérique (المترجم) .

من الكونجرس - وهو امتياز مقصور الآن على الاتحادات . كانت الديمقراطية حقيقة فعلية ، لأن المساواة السياسية كانت تعتمد على مساواة متقاربة في الأملاك ، وعلى ملكية واسعة للأرض . فالناس الذين كانوا يقفون على أرضهم الخاصة ويتحكمون (في الحدود الطبيعية) في الظروف التي يعيشون فيها ، كانت لهم شخصية وخلق ، ويمكن تسميتهم ديمقراطيين ، لا على المعنى الضيق وهو مجرد الاقتراع كل أربع سنوات . مثل هؤلاء القوم هم الذين رفعوا جيفرسون إلى مرتبة الرياسة - جيفرسون الذي كان متمسكاً بالرأى مثل توماس بين^(١) Thomas Paine ، ومحافظاً إلى الحد الذي يمكن أن يكون عليه أي رجل ، والذي أيد قيام ثورة كل تسعة عشر عاماً . مثل هؤلاء الرجال هم الذين هياؤوا لإمرسون Emerson^(٢) أساس الفردية التي تعتمد على نفسها ، ولهويمان Whitman^(٣) تمجيد الرجل العادي . مثل هؤلاء الرجال هم الذين خلعوا على اليانكي^(٤) Yankee ما اشتهر به في أوروبا من كياسة (شطارة) ، وفردية ، واستقلال في الرأى - ذلك ما كان منذ زمن ، ولكن هذه أسطورة تبلغ اليوم من الغرابة في نظر الباحث في السياسة المعاصرة . مبلغ استحالة انتخاب شخص مثل جيفرسون .

ثم تزاومت عوامل ثانوية على المسرح . ولا نزاع في أن حرية المنافسة أثناء الأيام الأولى من جمهوريتنا قدمت أساساً آخر للاستقلال والشخصية . ولعل نسبة مهرة العمال كانت أكبر مما هي الآن ، حيث تندفق جموع الفلاحين من القارة الأوربية فيكونون الطبقة العاملة العاجزة في مدنا . لم يكن الناس في تلك الأيام الأولى مجرد « أيد » ، ذلك أن الفخر بالمهارة في صناعة معينة عضد للخلق ،

(١) كان جيفرسون ثالث رؤساء جمهورية الولايات المتحدة (١٨٠١ - ١٨٠٩) وهو الذي كتب صيغة وثيقة الاستقلال ، وأسس الحزب الديمقراطي الجمهوري . أما توماس بين (١٧٣٧ - ١٨٠٩) فهو كاتب إنجليزي سياسي كان من أنصار ثورة المستعمرات الأمريكية وكذلك الثورة الفرنسية ، وحث دائماً على الثورة والاستقلال بدلا من الإصلاح (المترجم) .

(٢) إمرسون (١٨٠٣ - ١٨٨٢) كاتب وشاعر أمريكي مجد الطبيعة والأخلاق والفردية المتطرفة . ويعدونه مؤسس الفلسفة الأمريكية (المترجم) .

(٣) هويمان (١٨١٩ - ١٨٩٢) شاعر أمريكي امتاز بالفردية في شعره وتمجيده الديمقراطية (المترجم) .

(٤) اسم يطلق على سكان الولايات المتحدة الشمالية . وكانت في الأصل تدل على الشطارة أو المهارة فيقال : « حصان يانكي » أي حصان أصيل (المترجم) .

ودعامة تقف في وجه ذلك التجريد بالحملة للفردية ، والذي يتم عن طريق التعليم الموحد والصحافة . وأيضاً فإن العزلة الريفية لأوائل المواطنين كانت تغرز إلى حد ما حريتهم وتغلى ديمقراطيتهم ، كما أعطتنا عزلتنا الدولية الحرية والأمن في حدود محارنا التي تحمينا . فهذه الظروف مع عشرات غيرها تعاونت كي تجعل الديمقراطية الأمريكية حقيقة .

٣ - فساد الديمقراطية

وقد انقضت جميع تلك الظروف ، وانتهى أمر العزلة الدولية مع انتشار التجارة والمواصلات ، واختراع الأسلحة المدمرة التي تسهل الغزو . وانقضت العزلة الشخصية بسبب الاعتماد المتزايد بين المنتج والموزع والمستهلك ، وأصبحت المهارة اليدوية اليوم شذوذاً ، لأن الآلات مصنوعة لتسير الآلات ، كما أن الإدارة العلمية تهبط بالمهارة إلى غباء الروتين غير الإنساني . ولم تعد هناك أراض حرة ، وازدادت الملكية . وفسدت المنافسة الحرة ، التي قد توجد بعض الوقت في ميادين جديدة مثل صناعة السيارات ، ولكنها تتجه في كل مكان نحو الاحتكار . أما التاجر الذي كان ذات يوم مستقلاً فقد وقع بين براثن الموزع الكبير : إنه يفتنى ليدخل في سلسلة الصيدليات ، وسلسلة محلات السجائر ، وسلسلة البقالين ، وسلسلة محلات الحلوى ، وسلسلة المطاعم ، وسلسلة المسارح كل شيء أصبح حلقة في السلسلة . حتى المحرور الذي يملك صحيفته الخاصة ويصوغ أكاذيبه على هواه أصبح اليوم عضواً أثرياً ، لأن آفاقاً من الصحف في عرض البلاد تروى الأكذوبة نفسها وبالطريقة ذاتها أحسن فأحسن كل يوم . وأصبحنا نجد أن نسبة تزداد قلة باستمرار من رجال الأعمال (وبينهم عدد يزداد باستمرار قلة من أصحاب البنوك والمديرين) هي التي تهيمن على حياة وأعمال نسبة من الناس تزداد على الدوام كثرة . إن طبقة أرسقراطية جديدة في سبيلها إلى التكوين من الطبقة الوسطى التي كانت فيما مضى نادرة . فلم تعد الحرية والإخاء والمساواة بعد شعار الحبيب لرجال المال . وقد أصبحت الحرية الاقتصادية ، حتى في الطبقات المتوسطة ، أندر وأضيق مما كانت عليه عاماً بعد عام . وجدير

بعالم أخذت تختفي منه حرية التنافس ، وتكافؤ الفرص ، والأخوة الاجتماعية ، أن تكون المساواة السياسية فيه وهماً ، وأن تصبح الديمقراطية حلمًا .

وقد نشأ هذا كله لا (كما كنا نظن في حرارة الشباب) من شذوذ الناس في حياتهم ؛ بل من المصير المحتوم غير الشخصي للنمو الاقتصادي . ولا يمكن أن يتحرر الناس إلا حين يتكافأون في القدرة والقوة تكافؤاً متقارباً ، ومع ذلك فإن مساواتهم تتحطم بما يظفرون به من حرية . هذا إلى أن التفاوت الموروث الذي لا يمكن تجنبه في البأس والقدرة يولد تفاوتاً اجتماعياً وصناعياً ، وتساعد الاختراعات والكشوفات على أن تجعل البأس أعظم بأساً ، والوهن أشد وهناً . والمساواة علاقة غير مستقرة مثل كفتي الميزان الذي تريد أن تضبطه ، فهي تنقص بمقدار ما ينمو التنظيم والتعقيد ، لأن طبيعة التطور الاجتماعي ذاتها تستدعي تفاوتاً متزايداً من جهة أنها تخصص الوظائف ، وتميز بين القدرات ، وتجعل الناس متفاوتين في المنزلة بالإضافة إلى المجتمع . وفي ذلك يقول تارد Tarde : « ليست المساواة إلا مرحلة انتقال بين نظامين ، كما أن الحرية ليست إلا طريقاً بين نظامين » . تأمل كيف تفوقت آلاف من الصور الاقتصادية والسياسية على المساواة الأصلية في المستعمرات الأمريكية وقلبها رأساً على عقب ، إلى درجة أن الهوة اليوم بين أكثر الناس وأقلهم حظاً في أمريكا أعظم اتساعاً من أي يوم مضى منذ عهد روما في ثروتها . وأي نفع للمساواة في الانتخاب حين تكون القوة موزعة هذا التوزيع غير المتكافئ ، وحين ينبغي أن تخضع القرارات السياسية لملايين الدولارات أكثر مما تخضع لملايين الناس ؟

إن أعمق أساس لما يسود حياتنا السياسية من نفاق وفساد هو هذا الاختفاء للمساواة والحرية الاقتصادية . وهنا أيضاً نجد أسباباً أخرى تعاونت على هذا النفاق والفساد ، وتجاهل هذه الأسباب يجعل فهمنا للمشكلة مزعزعة ناقصة . ولنشرع في ذكرها في إيجاز لا يخل بالوضوح .

فهناك أولاً النمو المطرد في حجم الوحدة السياسية - أعني التوسع الإقليمي للولايات الأمريكية - فكلما اتسعت أطراف الولاية State ، كلما كان احتفاظها

بالشخصية والديمقراطية أشد عسراً . أو كما قال ه . ج . ولز : « تموت الديمقراطية إذا ابتعدت خمسة أميال عن مضخة القرية » . فقد كان يعنى بذلك الديمقراطية في دولة المدينة الإغريقية حيث كان في استطاعة الناس أن يجتمعوا ، « وأن يصوت لنا بشخصه » حسب تعبير توم بين Tom Paine . ثم إن حكم عدد كبير من السكان أسهل من حكم العدد الصغير ، لأن قصورهم عن الحركة أعظم ، واتفقهم على الأمم أو اتحادهم في العمل أصعب . وقد اتفق بركليس وكليون في الرأي ، رغمًا من اختلافهما في كل شيء آخر ، على أن الديمقراطية غير ملائمة للإمبراطوريات ..

وهناك - ثانياً - التعقيد المتزايد في الحكومة ، وهو ثمرة طبيعية للتوسع في الوحدة السياسية ، والتشبيك المطرد في العلاقات الاقتصادية للدولة . كانت الحكومة في الزمن القديم تشمل الملك وندماءه ومحظياته ، أما اليوم فإنها إدارة شاسعة ومكدسة تسعى للتوفيق بين آلاف الجماعات المتنازعة . وهي تحتاج من الذين يعملون بها ولو كانت أصغر الأعمال أن يشتغلوا كل الوقت . ومن المستحيل حكم الدول الحديثة بتلك الطريقة من الإدارة الشعبية في مجالس القضاء ، أو بتلك القرارات السريعة التي كان تصدرها المجالس الشاسعة العدد الجاهلة ، التي منحت أثينا حرياتها وأسرعت بها إلى القبر . ومن الطبيعي جداً أن تنمو «الأجهزة machines» في كل حزب ، وكل اتحاد ، وكل منظمة ، وكل برلمان . والديمقراطية هي القلب الذي تنمو فيه حكومة القلة ، لأن الناخبين مشغولون بأمر معاشهم اليومي ، فكيف يسايرون آلاف المشكلات التي تنشأ وتتغير في أحزابهم أو اتحاداتهم أو كنائسهم ؟ لن يستطيع الناخب أن يجيب بفطنة عن الأسئلة التي تعرض عليه ، لأنه لا يعرف . والديمقراطية هي حكومة أولئك الذين لا يعرفون .

من أجل ذلك كانت الحرب أول كوارثها . وقد تبدأ دي توكفيل بأن على أمريكا أن تتخلى عن الديمقراطية في اللحظة التي تشبكت فيها بسياسة أوروبا وحروبها . ومن أقوال ما كولي : « كم من جيش انتصر تحت إمرة قائد سيء ، ولكن لا يوجد أي جيش انتصر ووراءه مجتمع منقسم على نفسه في جدل بينهما » . وتتجه اتحادات العمال إلى الأوليغارشية للسبب نفسه : فهي منظمات حربية تستهدف

الهجوم والدفاع . « إن الديمقراطية ترف ولا يمكن الاحتفاظ بها إلا في عالم آمن سلمى إلى حد ما » (١) . ويعرف الرجعيون هذه الحقيقة ، وقد يعتمدون عليها في إحداث حرب عارضة كبديل عن تحديد النسل ، أو كنظام يوحد إرادة الأمة . وليست الديمقراطية دواء يشفي من الحرب ، بل الحرب هي علاج الديمقراطية . ولعل العلاج يصبح مستديماً حين يجرى ساستنا العملية الجراحية الدولية القادمة .

وآخر الأسباب العاملة على إخفاق الديمقراطية هو شيوع الجهل . وفي ذلك يقول إمرسون : « إن بلاهة الناس داعية على الدوام إلى أن تسفر القوة عن وجهها » (٢) . وقد أيدت اختبارات الذكاء رأى أولئك الذين راقبوا الانتخابات خلال العشرين السنة الماضية . فقد ذهبت نظرية الديمقراطية إلى أن الإنسان كان حيواناً ناطقاً . ولا ريب أن بعضكم قد رأى هذه العبارة تجرى في كتاب من كتب المنطق . غير أن الإنسان حيوان انفعالي ، وعامل أحياناً ، ويمكن أن يندفع بطريق مشاعره إلى حد الرضا التام . وقد يكون من الصواب ، كما ذهب لنكولن في اعتقاده ، « أنك لن تستطيع استغلال كل الناس كل الوقت » ؛ ولكنك تستطيع أن تستغل عدداً كافياً منهم لتحكم دولة كبيرة . ولقد حسب بعضهم عدد المغفلين على ظهر هذه الأرض فقدرهم بنسبة مائتين في كل دقيقة ، وهذا نذير سوء للديمقراطية . ومن الواضح أن الديمقراطية ليست وحدها هي المحفقة ، بل نحن ، فقد عذب عن بالنا حين جعلنا من أنفسنا حكماً أن نجعل من أنفسنا قوماً أذكاء . ظننا أن القوة في وفرة العدد ، فلم نجد فيها إلا أمراً عادياً ، إذ كلما كان عدد الناخبين أكبر ، كان الأشخاص أو الصفات التي تتوافر فيهم عادية أكثر . فنحن لانتطلب من نوابنا المنتخبين عظمة أو بعد نظر ، بل إنما نطلب لساناً ثلاثياً ، وبعض السياسة التي تبعد شبح الجوع . وقد جاء في أقوال بيكون : « كان قدماء السياسة يصفون الديمقراطيات بأن الشعب فيها كالبحر والخطباء أشبه بالريح » (٣) . حقاً نحن لا نحفل كثيراً بمن يحكمنا ، بل لا نكاد نحس أننا محكومون ، كحالنا

(١) Weyl, W., The End of the War, p. 83.

(٢) Representative Men, p. 21.

(٣) Advancement of Learning, p. 227.

قديمًا حين كنا نظن أننا لا ندفع أى ضرائب لأننا ندفعها عن طريق المالك أو التعريفية الجمركية .

وكان فولتير يؤثر الملكية على الديمقراطية على أساس أننا فى الملكية لانحتاج إلا أن نعلم رجلاً واحداً ، أما فى الديمقراطية فينبغى أن نعلم الملايين الذين يختطفهم الموت قبل أن تتمكن من تعليم عشرة فى المائة منهم . إننا لا نكاد نتحقق إلى أى حد تعبت نسبة المواليد بنظرياتنا وحججنا . فالأقلية تحصل التعليم وأسرهم محدودة العدد ، وليس للأغلبية وقت تنفقه فى التعليم والأسرة فيها واسعة العدد ، ويكاد كل جيل ينشأ فى بيوت يبلغ دخلها من الضالة حداً لا يسمح بالاتفاق على ترف المعرفة . وهذا هو السر فى أن مذهب الحرية السياسية كان على الدوام عديم الجدوى ، لأن الدعاية إلى العقل لا يمكن أن تلحق انتشار الجهلاء . وهذه هى العلة فى ضعف البروتستانتية ، لأن الدين كالأئمة لا تتقده الحروب التى ينتصر فيها ، بل الأطفال الذين تحسن تربيتهم .

وهذا أيضاً هو السر فيما يسود الديمقراطيات من إثارة المحافظة على التقاليد . وكان أناتول فزانس يعنى على الجماهير الخوف من التجديد neophobia . وكان بسمارك يلجأ إلى الانتخاب العام لتأييد السياسة الملكية . وفى ذلك يقول العجوز الساخر : « إني أعد الانتخاب المباشر والتصويت العام . أعظم ضامنين للاتجاه المحافظ أكثر من أى قانون انتخابى صناعى » .^(١) وقد ظفرت المرأة بحق الانتخاب فى يسر ، لأن زعماء الأحزاب كانوا يعتقدون أن هذا يدعو إلى المحافظة . وأقر الأحرار بعض الإصلاحات منها استفتاء الشعب ، فطرح المحافظون هذه الإصلاحات على الشعب يستفتونه ، ورفضت الإصلاحات بما فيها الاستفتاء .^(٢) وقد أدى توسيع الانتخاب فى إنجلترا سنة ١٩١٨ إلى تولى أشد الحكومات رجعية خلال نصف قرن . وقد رفع قانون الانتخاب الإجبارى فى استراليا نسبة الناخبين من ستين فى المائة سنة ١٩١٢ إلى تسعين سنة ١٩٢٥ وأثمر نصراً للمحافظين ساحقاً .

(١) Headlam, J. W. Bismarck, p. 255.

(٢) Maine, 'Sir H., Popular Government, p. 40.

لقد تنبأ السير هنري مين فقال : « من أغرب الأفكار العامية القول بأن انتخاباً واسعاً شاملاً يمكن أن يدفع عجلة التقدم والأفكار الجديدة ، والمكتشفات الجديدة ، والاختراعات الجديدة ، وفنون الحياة الجديدة . الحق أن فرض مثل هذا الانتخاب سينتج ضرباً سيئاً من المحافظة » (١) . فعلينا إذن أن نسلم للإنجليز المتعصبين لفكرة أن الديمقراطية تبدو معادية للعبقرية ونافرة من الفن ، لأنها تغلو في تقديرها للأمور التي تقبلها أفهام أوساط الناس ، فهي تبني قصوراً من الصور المتحركة وتنظن أنها البارثينون (٢) Parthenon . ولو كان المجلس الأثيني قد اتبع منهجاً ما ظهر إلى الوجود أي بارثينون على الإطلاق (٣) . قد يكون الاستبداد الفكري للأغلبية مزعجاً كاستبداد الملوك السياسي ، ففي بعض الولايات الأمريكية نجد أن القليل من المعرفة شيء خطر . وهذا الشك الديمقراطي في الفردية هو ثمرة نظرية المساواة ، إذ ما دام جميع الناس سواسية فإن عدد الأصوات يجب أن يثبت قواعد أي حقيقة ، ويحيط أي عرف بسياج من القداسة . وليست الديمقراطية ثمرة عصر الآلة فحسب ، أو ثمرة تحكم عن طريق « الآلات » فقط ، بل تحمل في طياتها احتمال استعمال أفرع الآلات على الإطلاق ، وتلك هي مطرقة هائلة من الإرغام الجاهل الذي يححو التفاوت ، ويسحق العقل الذي يشد ، ويشبط عزيمته الامتياز الخارج على التقاليد . ولست تجد التربية في أي مكان من العالم ينفق عليها وتجهز بمثل هذا الإسراف الذي يوجد في الولايات المتحدة ، ومع ذلك فلن تجدها قليلة التوقير والاستفادة منها في أي مكان كالحال في الولايات المتحدة ، فقد وهبنا أنفسنا على نطاق واسع لهذه المهمة فأنشأنا نظاماً لم يسبق له مثيل من المدارس ، والمدارس العليا ، والكليات والجامعات ، والآن وقد تم بناؤها جميعاً وامتلأت جميع أماكنها ، إذا بنا نخرج بالتعليم عن أن يكون ميزة للوظائف العامة .

٣ - أساليب الديمقراطية

تنشأ في الأمة التي تحكمها أقلية حكماً فعلياً ولا بد لها من بعض المظاهر للرضا الشعبي ، طبقة خاصة ليست وظيفتها الحكم بل الحصول على موافقة

(١) In Sellars, R., The Next Step in Democracy, p. 216.

(٢) البارثينون معبد للآلهة أثينا بنى بين سنتي ٤٤٧ و ٤٣٢ ق . م (المترجم) .

(٣) Plutarch, Life of Pericles.

الشعب لأي سياسة قد تقررها تلك القلة التي لا يمكن الاستغناء عنها ، والتي تختفي في قلب كل دولة ديمقراطية . ونحن نسمي هذه الطبقة من الناس بالسياسة ، ولن نتحدث عن أشخاصهم .

ينقسم السياسة إلى أحزاب يندرج الشعب تحتها في مصكرات متعادية . ومما يسهل مثل هذه التنظيمات الروح الطبيعية في الإنسان للتحزب . والأحزاب أثر من آثار الولاء القبلي للحرب . فالمتوحشون في استراليا يرحلون من طرف قارتهم الشاسعة إلى الطرف الآخر كي يتخذوا في ميدان القتال جانب أولئك الذين يلبسون الطوطم نفسه الذي يلبسونه^(١) . ولا يزال الطوطم هو الذي يعيننا على تنظيم أنفسنا ، ويبدو أن الأحزاب التي تتخذ الفيل أو الحمار شعارها المقدس تفلح أكثر من تلك التي تختار بسناجة الشعلة شعارها .

وقد أصبح التنظيم الحزبي اليوم عظيم النفقات ، ويحتاج إلى ملائكة - أي مثاليين واقعيين يدفعون ثمن ما تتكلفه (صالات) الاجتماعات ، وقاعات الأندية ، والرحلات والحملات الانتخابية ، ويقنعون كمكافأة لهم باختيار المرشحين ، والحصول على بعض العقود والمناصب ، والحماية من قيود بعض القوانين السخيفة المزعجة ، كما يلجئون دوراً هادئاً في مهام التشريع الشاقة . ولقد صدق من قال : « إن الذين يعينون يحكمون »^(٢) . ولا يمكن للشعب أن يعين أحداً حتى في المناصب الكبرى ، لأنه غير منظم وتنقصه المعلومات . ولكن قد يكون الشعب موضع الثقة في توزيع مرشحيه بمساواة تقريبية . ولكن قلة صغيرة بشرط أن تكون منظمة. تنظيمًا حسنًا تستطيع عادة إذا أعطت جميع أصواتها في جانب واحد أن تقر اتفاقاً ، أو تتولى منصباً رئيسياً ، أو تنجح في انتخاب . ذلك أن «الجهاز machine» ينتصر لأنه قلة موحدة تعمل ضد كثرة منقسمة . ولعل هذا هو الذي عناه كارليل حين قال : « الديمقراطية بطبيعتها شيء يبلغ نفسه بنفسه ، ويؤدي في نهاية الحساب إلى نتيجة هي صفر صحيح »^(٣) . وقال الديمقراطي المتحمس جان جاك

(١) Maine, Popular Government, p. 31.

(٢) Crozier, J.B., Sociology Applied to Practical Politics, p. 48.

(٣) Chartism, p. 74.

روسو : « الديمقراطية الصحيحة لم توجد قط ، ولن توجد أبداً ، إذ مما يعارض طبيعة الأشياء أن تحكم الأغلبية الأقلية » . وجميع ألوان السياسة عبارة عن تنافس بين الأقليات المنظمة . أما الناخبون فرياضيون نظاف يهللون للمنتصرين ويسخرون من المهزومين . ولكنهم لا يساهمون في النتيجة .

فالانتخاب في ظل مثل هذه الظروف من النواقل التي لا لزوم لها ، وهو يجرى في الأغلب لتخفيف وطأة الرقابة الاجتماعية ، وذلك بتسيخ هذه الفكرة في عقول الشعب ، وهي أن القوانين قد صدرت منهم . ومن أقوال منتسكيو أن الضرائب في الحكومات الديمقراطية قد تكون أفدح من غيرها دون إثارة روح المقاومة ، لأن كل مواطن يراها ضريبة يدفعها لنفسه (١) . فالدولة هي الشعب (٢) ، ورئيس الدولة هو رئيس خدمه . أثر زهو أي رجل تحصل منه على ما تريد . كان الرومان يحكمون الشعب بأن يوفروا له « الخبز وألعاب السيرك Panem et circenses » وليس على حكامنا إلا أن يقدموا لنا ألعاباً مرة كل أربع سنوات – وسنوفر الخبز لأنفسنا ، وندفع ثمن دخول السيرك .

وتكاد أن تكون المزية الوحيدة للانتخابات من هذه المقدمات السابقة هي فرصة التعليم المتاحة للشعب نتيجة إثارة وعيه ، ومع ذلك ففي معظم الأحوال يمحو الإحساس بخطر الأحداث الحارية هذه الفرصة . وما قيمة السياسي إذا لم يستطع أن يتخربع بعض مخارج مسلية وغير هامة يصرف بها عين الشعب عن المشكلات الواقعة بالفعل . مثال ذلك أنه في انتخابات كندا سنة ١٩١٧ أخفيت بدهاء حيلة التجنيد الإجباري بدلا من التطوع بالدعاية القائلة إن اتخذال اقتراح التجنيد الإجباري يعني سيطرة العنصر الفرنسي من الشعب على كندا ، فهضر السكان الإنجليز جماعات وصوتوا للسيطرة الإنجليزية والتجنيد الإجباري . وإذا أحسن العرض السياسي راجت أي أنواع السياسات العتيقة ، وتصبح الانتخابات مباراة في التزييف والصخب ، وكلما خفت صوت الحجج السليمة ضاعت الحقيقة في تيار الشعب . أضف إلى ذلك إعادة تقسيم الدوائر الانتخابية كي

(١) The Spirit of Laws, Introduction, p. XXI.

(٢) يشير المؤلف متهاكماً إلى عبارة لويس الرابع عشر : الدولة هي أنا L'état c'est moi

فيقول هنا إن الدولة هي الشعب L'état c'est lui (المترجم) .

تحتفظ جماعات المحافظين في الريف بالسلطان ؛ وحرمان عدد كبير من السكان من التصويت بسبب تجاوبهم البلاد وكثرة تحركهم ؛ ونسبة من الغش والعنف عند صناديق الانتخاب - تخرج من هذا كله بالديمقراطية . تحت مثل هذه الظروف « يصبح الصوت الانتخابي في قيمته ككرة في قطار حين يكون خط السكة الحديدية معطلا باستمرار » (١) . فلا غرابة بعد ذلك أن تهبط نسبة الأصوات الفعلية عن الأصوات المقيدة من ٨٠٪ سنة ١٨٨٥ إلى ٥٠٪ سنة ١٩٢٤ . ولا عجب أن يرفض العقلاء الوقوف في طابور ساعة لتقييد أسمائهم في الجداول ، ثم ساعة أخرى للتصويت ، أي لاختيار أ أو ب ، مع أن كلا منهما ينتسب لشخص مجهول (٢) .

ومع ذلك فلنفرض أننا قد صوتنا ، وتمت الانتخابات ، وارتفعت أسعار السندات . ، وذهب الشيوخ المنتخبون والنواب إلى واشنطنجتون (بعد بضعة أشهر) لتأليف الكونجرس عندنا أو البرلمان ، وهو ندوة أحاديثنا أو ندوة الرثرة الوطنية ، فلن تجد أغرب من المفاجآت التي يلقاها هؤلاء الرجال والنساء المنتخبون ، ليس فقط لأن الرجال حين يجتمعون في المجالس تطول في الحال آذانهم (٣) . فقد اختير الشيوخ والنواب لما لهم من مقدرة سياسية بمعناها الأمريكي ، أي القدرة على تعيين أنفسهم ، والإعلان عنها ، والتهليل لها ، وانتخاب أنفسهم ، فهم يملكون هنا الضرب من القدرة بشكل متقدم جداً ومتخصص . وهم عادة إمعان سهل خضوعهم للنظام ، ذوو ضمير مطاط ، وخالون من الأصالة أو العبقرية الخطرة . فلن تجد شيئاً أقرب إلى حرمانهم المنصب (أو الاقتراب من المنصب) من العبقرية من أي حزب كانت - وفوق كل شيء العبقرية في فن السياسة . فقد أصبح واضحاً في هذا الزمان أن فرصة الرجل في بلوغ المناصب العالية هي أشهاره بالتفاهة .

وفجأة يجد ممثلونا أنفسهم غارقين في مشكلات بعيدة كل البعد عن نوع

(١) Chesterton. G. K., Short History of England, p. 266.

(٢) لقد ازدادت نسبة الأصوات الفعلية للأصوات المقيدة بشكل محسوس حين عيئت الفرصة سنة ١٩٢٨ للناخبين أن يصوتوا على نائب معلوم الصفة .

(٣) Voltaire in Morley, J., Diderot and the Encyclopedists, vol. ii, p. 232.

المشكلات التي كانوا يحلونها وهم في الطريق إلى السلطان . كانت تلك مشكلات سياسية : الولاء الصابر لقادة الناحية والمركز والإقليم ؛ التأثيرات الحارية من وراء ستار ، وألوان التفاهم السرية ؛ الأحاديث ، والتعهدات ، والإبتكارات ، وتوجيه الإعلان ؛ والمساهمة بالأموال سراً ، والتي تنفق في التحايل على القانون ؛ الأفضال التي يختص بها الأقوياء ، والوعود التي تبذل لغيرهم . أما هذه المشكلات التي يواجه أعباءها في واشنطن ويضطرب في عمارها عندما تفرض آلاف مشروعات القوانين ، فهي مشكلات اقتصادية : تتعلق بأصحاب الأملاك ، والمواد الخام ، ومناجم الفحم ، وآبار الزيت ، والقوى المائية ، والإنتاج ، والمنافسة ، والنقل ، والملاحة ، والطيران ، والتحكيم ، والتوزيع ، والأسواق ، والمالية ، وهذه كلها تتطلب تفاصيل مستورة لا يفهمها إلا الإخصائي ، ولا يقوى على تحمل آلامها رجل اختصاصه شد الحبل - وعندئذ يلجأ ممثلونا إلى صحفهم ، ويصوتون كما يقال لهم .

وكما أصبحت الحكومة أعظم تعقيداً ، أصبح الموظفون المنتخبون أقل أهمية ، والجراء المختارون أكثر قيمة ، وتعلو السلطة التنفيذية على السلطة التشريعية ، لأن التنفيذية مزودة ومدعمة باللجان الفنية - مكاتب الاحباطي Federal Reserve Boards ، ولجان التجارة ، ومكاتب العمل ، ولجان التجارة الداخلية ، ولجان الدين ففي أثناء حكم الرئيس هاردينج فوجئ أعضاء الكونجرس بأن وجدوا أنفسهم وقد وضعوا في طابور خلف أعضاء إحدى اللجان المذكورة سابقاً . واحتج المجلس بعشرات من « بما أن » « إذن » ، ولكن المستر هاردينج أجابهم بتلك الدمائية التي كانت كافية أن تجعل منه رئيساً . ولكن القشة بين اتجاه الريح ، وهو أن « الحكومة النيابية » قد انهارت ، ولم تستطع الديمقراطية أن تجد طريقاً لانتخاب ذوي القرائح في المناصب ، لأنهم كانوا قد شغلوا السلطة حين كانت الديمقراطية تلتقي الخطب أو تقرأ الصحف .

أكان هذا هو السبب في إلحاحنا على خصومنا باصطناع الديمقراطية ؟ يتحدث نيتشه عن « الاستعداد لتأييد شكل الحكم الديمقراطي في الدول المجاورة - أو الفوضى المنظمة le désordre organisé كما يقول ميريميه (1) »

(1) ميريميه (١٨٠٣ - ١٨٧٠) قصي فرنسي اشتهر بقصصه التاريخية . وقد تعلم ميريميه علم الآثار القديمة ، وشغل منصب مفتش الآثار التاريخية في فرنسا (المترجم) .

وذلك لسبب واحد وهو أن هذا الشكل من الحكم يجعل الدولة الأخرى أضعف ، وأكثر ميلاً للهو ، وأقل صلاحية للحرب « (١) . ولعل تربيع الديمقراطية على عرش التفاهة والعجز والغش والفساد له بعض الصلة بالانتقال الأفلاطوني من الحكم النبائي إلى « الاستبداد » أو الدكتاتورية في إيطاليا وأسبانيا واليونان وروسيا وبولندا والبرتغال ، والخوف من تطورات مماثلة في فرنسا . أما فيما يختص بنا ، فانظر ماذا حدث : هزمت قوى الإصلاح السياسي معظم الوقت ، وحيث ظفرت بنصر ضال كان ذلك عن طريق اصطناع الأساليب التي يتبعها « الجهاز machine » - ولذلك كان لانتصار « الإصلاح » في بعض الولايات بعض صفات انقلاب العالم نحو المسيحية ، ولم يكن واضحاً تمام الوضوح أى الحزبين هو الذى تحول نحو صاحبه . وذكرت الصحف في ذلك الحين : « أن السياسة اليوم تتحكم فيها « الأجهزة » تحكماً تاماً كما كان الحال في حدود سنة ١٨٨٠ ... فالساسة المحترفون هم حكامنا أكثر فأكثر . وبعد خمسين عاماً من الصراع هزموا في النهاية عدوهم وهو المصلح » (٢) . لقد انتصرت التفاهة ، وفقر الذكاء في كل مكان من مجالس الديمقراطية كما يفر أمام سيل جارف ، وتربيع المغفلون في السرج وامتطوا صهوة البشر .

نعم هذه نظرة من جانب واحد ، ملخصة للاتهام ، أكثر منها تحليلاً كاملاً . أما الجانب الآخر من فضائل الديمقراطية فقد كثر امتداحه بحيث لا يحتاج منا إلى تكراره في هذه الصفحات . حقاً إن استبداد الأغلبية بالأقلية أفضل (عددأ) من استبداد الأقلية بالأغلبية ، وإن الحرمان الديمقراطي من حق الانتخاب لرجل المتعلم ليس أسوأ من خضوع أصحاب المواهب الجديدة لأرستقراطية ذوى الحس القديم ؛ وإن الديمقراطية قد رفعت روح الرجل العادى وملاأته زهواً بمقدار ما حطمت عبقرية الفرد الشاذ وأجدبته ؛ وإن الناخب صاحب القوة المطلقة عنده الآن شعور بشخصية متحررة تعمل إلى حد ما على تكوين الشجاعة وبناء الخلق ؛ وإنه لا يوجد بيننا الآن عبيد للأرض (عن شعور) . وإن كل رجل

(١) Human All Too Human, vol. i § 453.

(٢) The New Republic, Dec. 1925.

يعرف أنه قد يكون رئيس الدولة في المستقبل . لعله كما قال برايس (١) Bryce بعد دراسة صابرة : إن هناك بعض صور الحكومات أسوأ من الديمقراطية .

غير أننا كلما ازداد فحوصنا للديمقراطية ازداد انزعاجنا من عجزها ونفاقها ، إذ ما دامت السلطة السياسية غير حقيقية إلا إذا كانت تمثل السيادة العسكرية أو الاقتصادية ، فإن الانتخاب العام يظهر باهظ التكاليف . قد تدعى الدكتاتورية سيادة واحدة ، فهي من هذا الوجه أكثر أمانة . ومن أقوال نابليون : « ليست السلطة المطلقة في حاجة إلى الكذب ، لأنها تعمل ولا تقول شيئاً » (٢) . والديمقراطية بغير تعليم تعني النفاق إلى غير حد ، وتعني انحطاط فن الحكم إلى السياسة ، وتعني الاحتفاظ بالباهظ التكاليف إلى جانب الطبقة الحاكمة الحقيقية بطبقة طفيلية كبيرة من السياسة وظيفتهم خدمة الحكام وخداع المحكومين .

وآخر مرحلة في هذه المسألة هو حكم رجال العصابات ، ذلك أن المحرمين يزددهرون في سعادة في مدننا الكبرى لأنهم يضمنون حماية وتعاون القانون الكاملين . فإن كانوا ينتمون إلى « المنظمة Organisation » ، أو كان لهم فيها أصدقاء ، ضمنوا أنهم إذا ارتكبوا جريمة فلن يقبض عليهم ، وإذا قبض عليهم فلن يدانوا ، فإذا حكم عليهم فلن يرسلوا إلى السجن ، وإذا سجنوا فسيغيب عنهم ، فإذا لم يعف عنهم فسيسمح لهم بالهرب . وإذا قتلوا وهم يباشرون مهمتهم احتفل بدفنهم احتفالاً عظيماً يليق بعضو ينتسب إلى الطبقة الحاكمة ، ونصبت لوحات تذكارية لتجديدهم . وهذه هي نهاية الديمقراطية البلدية municipal democracy .

وإذا أغضينا بعد ذلك عن هذا الشر النابع من أحلامنا المتمناة ، كنا جماعة من الجبناء . وإذا لم يكن في استطاعتنا أن نجد طريقة لإصلاح الديمقراطية تنظيفها من شرورها وتخلصها من جهالاتها ، فلنقدم دستورنا لأمة ناشئة ، ونستورد ملكاً .

(١) جيمس برايس (١٨٣٨ - ١٩٢٢) مؤلف إنجليزي وسياسي ، كان سفيراً في الولايات المتحدة من ١٩٠٧ إلى ١٩١٣ ، وله كتاب عن الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وعن ممتلكات أمريكا (المترجم) .

(٢) Bertaut, J., Napoleon in His Own Words, p. 64.

٤ - حول أنفسنا

ماذا نحن فاعلون ؟

يجب أن يفهم حتى المصلح الثائر أن ما يمكن عمله قليل جداً ، ولا يمكن عمل شيء بسرعة . إن أعظم خطة نتمناها سيكون فيها من الإسراف الشديد الذي يغترف من ثروتنا الوطنية والحاصة للإنفاق منها على التعليم والاختراع والبحث العلمي كى ، تحسن عقولنا ، وتنقص عددنا ، وتجعل الشغل اليدوى أغلى من القوة الميكانيكية ، وتحل الطبقة العاملة (البروليتاريا) ، وتحمر البشرية لمواجهة أعباء « المجتمع الأعظم » . وليس ثمة مع الأمد الطويل أى حل سوى التعليم ، فإلى أن يصبح الناس أذكاء فلن تتخلص المدن من الشرور . ولكن إذا كان العالم لم يفعل هذا كله من أجل أفلاطون^(١) فالأشبه أنه لن يفعل هذا لأجلنا . وقد رأينا أى حيل شيطانية تلعبها نسبة المواليد بالتعليم . وأليق شيء بعد ذلك أن ندعو أفضل الناس فى البلاد علماء وأعظمهم قدرة . بعد انتخابهم فى كل مهنة بوساطة أعضاء تلك المهنة ، فيلقى بعضهم بعضاً للنظر فى تجديد دستورنا ، والتوصية بإصلاحات جديدة للكونجرس والولايات ، وتأييد هذه التوصيات بهيبة المهن التى يشتغلون بها ، وبأموال أصحاب الملايين مما يكون كل مصلح على استعداد لبذله .

— أما أفضل خطة ثالثة فإنها تجرى كالاتى :

إن آفة الديمقراطية الحديثة فى الساسة والتعيين فى المناصب nomination . فلنلغ الساسة والتعيين .

لا ريب أن كل إنسان كان فى الأصل طبيب نفسه ، وأن كل أسرة كانت تصف لنفسها الأدوية ، إلى أن تجمعت المعارف الطبية ونمت مجموعة الأدوية ، فأصبح من المستحيل على الشخص المتوسط مجازاة « الفارما كوبيا » (الأقرباذين— دستور الأدوية) ، ونشأت طبقة خاصة من الناس خصصت جميع أوقاتها الحديثة لدراسة علم العقاقير materia medica ، وأصبحوا أطباء محترفين . ولحماية الجمهور من الذين يمارسون العلاج بغير تدريب ، ومن أولئك المثابرين على هواية إجراء

(١) يشير المؤلف إلى رأى أفلاطون فى الجمهورية من أن المدينة الفاضلة تصلح بنظام من التعليم على رأسه الفلسفة (المترجم) .

التجارب ، منح الذين أتموا دراسة الطب درجة علمية يطمئن لها الجمهور ولقباً مميّزاً . وقد بلغنا الآن الحد الذي يعد فيه خارجاً على القانون كل من وصف تذكرة دواء دون الحصول على مثل ذلك التدريب ، وتلك الدرجة العلمية من معهد معترف به . ولم نعد نسمح لأشخاص لم يتهيأوا للعلاج أن يباشروا أمراضنا الشخصية أو أن نخاطر بأرواحنا ، فنحن نطلب من المعالج سنوات طويلة من عمره ينقطع فيها للدرس كي يصف لنا تذاكر الدواء ، أو يخلع لنا سنة .

أما أولئك الذين يعالجون آفاتنا غير الجسمانية ، ويخاطرون بمئات الملايين من الأرواح في السلم والحرب ، وتوجد رهن إشارتهم جميع أملاكنا ومواهبنا ، فليس مطلوباً منهم أى إعداد خاص ، إذ يكفي أن يكون أحدهم صديقاً للرئيس ، موالياً للحزب organisation ، وسياً أو لطيفاً ، يحسن الترحيب ، يجيد النزاع ، ويطيع الأوامر في هدوء ، ويسخر في ذلك الوعود حسب الظروف . وليس من المهم بعد ذلك أن يكونوا من الجزارين أو الحلاقين ، من محامي أو محزري الأرياف ، من باعة الخمور أو الخنازير . فلما داموا قد ولدوا في كوخ من أكواخ أمريكا فمن المسلم به أن لهم حقاً إلهياً في أن يكون أى منهم رئيس الجمهورية .

ولتخيل صورة أهبج . لنفرض أن جامعاتنا العظيمة التي تشتمل على بنور أمريكا المنقذة قد أضافت إلى كلياتها مدرسة « للإدارة السياسية » ، وأنها لن تكون مدرسة نظرية بمقدار ماهي مدرسة عملية خاصة بالتفصيلات المحسوسة ، ولا مدرسة لمناقشة التاريخ السياسي ، أو « فلسفة الدولة » ، أو الملكية في مقابل الأرياف ، أو الديمقراطية والديمقراطية والاشتراكية والقبوضوية ، بل مدرسة تنزل بطلابها إلى الميدان الفعلي للإدارة المدنية . ستكون مدرسة تنظر في مشكلات المدينة لا كما قد ينظر إليها ساسة الشوارع أو الإمعات المسيرون ، بل كما ينبغي أن يفكر فيها العالم ، أو المنفذ الذي رفعته اللربة والمقدرة إلى الحد الذي يرى فيه الإدارة فناً . فلو أن مثل هذا المهج كان من الكمال والأمانة كمنهج مدرسة جيدة في الطب ، فلن يحتدب من الناس إلا الجاهل ذوى العقول العلمية ، وسيفرع منه بشكل عجيب القوم الذين يرتفعون اليوم إلى السلطان عن طريق بيع أنفسهم وتتميق أساليبهم . ولن تجد إلا قلة من المرشحين لمثل هذا التعليم منذ البداية ما داموا

لا يجدون ضمناً لشغل الأماكن السياسية بعد إتمام استعدادهم . ولكن انتشار خطة مدير المدينة لابد أن تفتح أبواباً ، وتنمو المدارس كما نمت مدارس الطب من قبل ، ولا مناص من دعوة مديري المدينة الناجحين لرياسة هيئة التدريس .

هذا كله في حدود الإمكان ، بل اليوم تقدم جامعاتنا الكبرى برامج تصلح أن تكون أساساً لهذه المدارس الإدارية . غير أن الخطوة التالية في الإصلاح الذي نقرضه للديمقراطية يتطلب خيالاً أوسع . ولنفرض أنه في الوقت الذي تعد فيه هذه « المدارس » رجالاً للحكم ، كانت هيئات أخرى قد أعدت الشعب بالدعاية المقروءة والمسموعة لهذه الفكرة الجديدة التي تتطلب حاجة حكامه للتعليم ، والتي تقدم مرتبات تتناسب مع المقدرة المطلوبة في الحكومة الحديثة . ومن الواضح أن رأياً عاماً قد يتكون بحيث يشعر أي حزب سياسي أنه ليس من الحكمة تعيين أي رجل لم يعد هذا الإعداد الخاص للمناصب المدنية . ولا يعد أن يأتي وقت يستغنى فيه عن التعيين أصلاً كما هي الحال في « الدستور Constitution » ، ويقدم الموظفون الإداريون بعد إعدادهم أنفسهم مباشرة مرشحين للانتخاب . ويجب أن يقتصر اختيار الشعب على هؤلاء وأن يكون له مطلق الحرية في اختيارهم . لا ريب أن مجال الاختيار سيكون أوسع مما هو الآن وسيكون على أي حال سليماً . سيكون ذلك امتحاناً لغفلة الديمقراطية ، وإذا صح مايقوله هرقليطس (١) عن الجماهير ، فهذا هو الضرب الوحيد من الديمقراطية الذي يمكن أن يعيش في هذا العالم الواقعي .

أمكن أن يؤدي مثل هذا الإصلاح إلى هدم جوهر الديمقراطية ؟ كلا ، بل إنه لضروري للديمقراطية أن يشارك كل بالغ بالسوية في انتخاب كبار الموظفين ، وليس من الجوهري أن يكون جميع البالغين سواء في الترشيح للوظائف . ذلك أن قيود المولد والسن والموطن موجودة من قبل ، فإذا أضفنا إليها الحاجة إلى

(١) هرقليطس فيلسوف يوناني من مدينة إفيسوس ، عاش في القرن السادس قبل الميلاد ، وكان أرسطو تلميذ التفكير والنشأة ، وصف الجمهور بأشد الصفات احتقاراً ، فهم لا يفهمون الأمور التي تقع عيونهم عليها ، وينساقون وراء غيرهم من المشهورين كالأغنام ، وغير ذلك من أقاويله (المترجم)

الإعداد فلن يكون ذلك إلا مجرد إضافة إلى تعقيد الحكومة المتزايد . وقد توسع الخطة الديمقراطية من ناحية زيادة عدد المرشحين أكثر من تضيقها من ناحية تحديد صفاتهم . والأولى أن نظامنا الحاضر هو البعيد عن الديمقراطية : إذ يحدد فرصة الناخب بين اثنين من المرشحين ، ولا تحقق الأساس الأعظم للديمقراطية بالنسبة للجميع إلا تحقيقاً ضئيلاً ، نعى المساواة في التعليم ، والمساواة في الفرص الاقتصادية . ولو اطمأن كل طالب بلغ مستوى معيناً من الامتياز أن المنح المدنية ومنح الدولة ستعيه من المدرسة إلى الكلية ومن الكلية إلى الجامعة حين يثبت أن مالية أسرته غير كافية ، فإن الطريق إلى أعلى المناصب ، وأحسن أطيب الحياة سيكون مفتوحاً للجميع بشروط متساوية ، بل إن القيود التي نقترحها هنا ستكون محترمة في ديمقراطيتها . إن لب الديمقراطية هو تكافؤ الفرص ، غير أننا نرضينا بالقشر ، ورمينا في استسلام باللباب . فلنفتح جميع الأبواب للعبقرية حيناً ولدت ، ولسنا في حاجة بعد ذلك أن نقلق بشأن أشكال الحكومات .

ولا نزاع في أن عالماً الصغير له خلله الذي لا يجب موازنته بالمدن الفاضلة بل بالأحوال الواقعة . ونحن حين نستبدل الجامعات بالصالونات والفنادق واسطة للتعين ، لا يغيب عن بالنا أنه حتى الجامعات يمكن أن يتطرق إليها الفساد ، والمتخرجون فيها يمكن أن تفسد ذمتهم وتشتري ضمائرهم . ومع ذلك فالمسألة مسألة اختلاف في الدرجة ، إذ من المفروض أن الرجل الذي يحصل على درجة علمية ، أو الرجل الذي يبلغ به الشغف والشجاعة حد اختيار مهنة تتطلب إعداداً طويلاً وشاقاً ، يكون عنده من الفخر بللمهنة ما يجعله يغار على شرفه ويخلص لعمله . ولا نزاع في أن مستوى الأخلاق أرفع بعض الشيء بين العلماء منه بين الساسة ، وعلى الرغم من وجود بعض اللصوص والمهرجين بين صفوف الأطباء ، فهنة الطب من المهن القليلة التي يسمح فيها « للأخلاق » أن تتدخل للكسب .

أما بالنسبة للجامعات فليس الأمر مسألة تعليم المذهب الراديكالي أو التقليدي ، لأن علم الإدارة ليست له إلا صلة ضئيلة بهذه التقسيمات الخلية وخدمة الحدود . ولا ريب أن القوة ستحكم في ظل هذه الإدارة الجديدة بطريقة فعالة كما هي الحال الآن ، إلا أنها ستحكم حكماً أفضل بغير مضار وخشونة الغباء والسفه

والحجث . واسنا نعلم هنا حلا « للمشكلة الاجتماعية » ، أو خطة يتمكن بها الضعيف من حكم القوى . وأكبر الظن أن القلة الماهرة ستستمر في استغلال الأكثرية الأقل مهارة . ولسنا نملك سراً تتمكن به الديمقراطية من تجنب هذا النظام الأخلاقي للطبيعة . وليس غرضنا في هذا المجال أن نجعل « الأتجار تتدفق خمراً والرياح تهمس بالموسيقى » ، بل أن نجعل أى حكومة من الاستطاعة والأمانة بمقدار ما تطيقه السيرة البشرية . فهذه هى مشكلة السياسة ، وهى المشكلة الوحيدة التى تعيننا ها هنا .

ونحن نميل فى هذه الأيام إلى اعتبار الفساد والجهل مزيتين طبيعيتين للمنتخبين ، ونسخر من أى اقتراح يدعو إلى تغيير هذا التقليد الوطنى . ولكن الحكومة لم تكن على الدوام عاجزة ومرثية ، فلا يزال الإنجليز يتمتعون ببعض السمعة الخاصة بتدريب ساستهم وشرف قضاتهم ، وجعل عمد الألمان المحترفون مدنهم أفضل الأماكن حكماً فى العالم ؛ فلا شىء مستحيل ، ولكن التفكير هو الذى يزعم ذلك .

إن الفكرة التى اقترحناها فكرة مغرقة فى القدم ، فهى حلم سقراط وأفلاطون ، ويبيكون وكارليل ، وفولتير ورينان ، ولعلها ليست شيئاً أكثر من حلم ، ولعلها قد تكون حقيقة حين نكون جميعاً أحلاماً . ولا ريب أنها لن تكون لمدة طويلة أكثر من حلم ، إذ لا بد من عشرات من السنين تنفق فى التعليم كى ننتج التغييرات اللازمة فى عقل الجمهور . ولكن إلى أن نبذل مجهوداً صادقاً لرفع الكفايات إلى المناصب وكسر شوكة عدااء الديمقراطية للمعرفة – وإلى أن نتمكن من تجنيد تلك المواهب والقوى العقلية من أجل الصالح العام ، وهى التى تضيع اليوم فى تيار الأعمال والمكاسب الخاصة – وإلى أن نتمكن من أن نضع فى أروقة مجالس نوابنا ومجلس شيوخنا رجالاً أعدوا أنفسهم للإدارة العامة إعداداً يبلغ من التمام على أقل تقدير مبلغ الذين يعدون أنفسهم لمهام أقل أهمية – فلا ريب أن تصبح الديمقراطية عندئذ فاشلة ، ولعله من الأفضل للعالم ألا تكون أمريكا قد فتنت آمال الناس وخدعتهم .

الفصل التاسع عشر

الأرستقراطية

١ - الأرستقراطية المنقذة

الأرستقراطية موضوع أجمع الناس على أن كلماته الأخيرة. قيلت عام ١٧٧٦ وعام ١٧٨٩. فعندما فقد جورج الثالث صوابه، ولويس السادس عشر رأسه، خسرت الأرستقراطية قضيبتها، ولن تستطيع جميع شعور إنجلترا المستعارة، وشعاراتها، وأرديتها، أن تحمل الناس على احترامها مرة أخرى. لقد اندفع العالم في طريق الديمقراطية.

من أجل ذلك كان من الغريب أن نقترح في هذا الأوان إعادة النظر في الأرستقراطية، ولاشك أن مثل هذا الاقتراح سيجرفه تيار العصر. ومع ذلك فنحن لا نتكلم عن هذه الموضوعات متوقعين تأثيرها في الحوادث. ويكفي إذا كنا في «مملكة العقل» أن يتاح لأحدنا أن يتبادل الأسرار مع أصدقاء غير منظورين. وعندئذ تعرف أمريكا مرة أخرى عن الديمقراطية أكثر مما يمكن لسائر العالم أن يعرفه. ومن يدري لعلنا في هذا العالم الوطني من المملكة الشعبية يمكن دون مخاطرة كبيرة بحياتنا أن نبدي بعض الآراء التي تفتح الطريق وتنير المكان للفكر الموضوعي.

ويمكن أن تلخص الفروض فيما يأتي: لقد انهارت (١) الديمقراطية في أمريكا على الأقل. ذلك أنها أخفقت بوضوح في أن تمنحنا حكومة بوساطة الشعب، أو حكومة بوساطة الأفضل. وإذا كان أي قارئ رقيق لهذا الكتاب يعتقد أن الشعب يحكم بالفعل في أمريكا - أنه يحدد مثلا الحرب والسلام، أو

(١) كتب هذا الفصل عام ١٩٢٨، وقد أصيبت الديمقراطية في الربع الثاني من القرن بتجديد لقواها يبعث على التشجيع، ولا يتحقق منا هذا التهمك اللاذع الموجود في النص.

السياسة الاقتصادية ، أو معدل التعريفة ، أو التعيين في المناصب - فالأفضل له على الأقل أن يغفل قراءة هذه الصفحات . وكذلك إذا اعتقد بعض القراء أن الديمقراطية قد هيأت لنا حكومة بوساطة أحكم الناس أو أقدرهم ، فيحسن بهم أيضاً أن يروا بهذه الصفحات مرة الكرام .

غير أن القول بإخفاق الديمقراطية لا يعني أن نوليها ظهورنا باعتبار أنها شيء لا قيمة له ولا يمكن إصلاحه . فمن الواضح أن فيها كثيراً من الفضائل ، وكثيراً من القوى الكامنة التي تفتح عن الخير . ومما لا ريب فيه أن سلطان الأعداد أحدث ضرراً أقل من صور الحكومة التي حلت محلها . وبعد ، فالأفضل أن يحكمنا الأغوار من أن يقتلنا الملوك . وأكبر الظن أن الانخفاق العظيم كان شيئاً لا يمكن تجنبه ، وأنه لا يرجع إلى الجوهر بمقدار ما يرجع إلى الصورة . ولعل الديمقراطية إذا كانت قد احتفظت ببعض ملامح النظام الأرسطراطي القديم أن تكون قد نجحت في خلق نظام سياسي أعلى بكثير من ذلك الذي نعيش فيه ونتحرك ونحتمل الحمقى بسرور شديد .

فالأمر في حدود الإمكان الذي يود المرء أن يشق الطريق إليه . ما تلك الأرسطراطية التي أعدت السياسة ، وغدت الفن ، وأبرزت الرجال الذين قدروا الشرف أكثر من تقديرهم الحياة ؟ أكان فيها أي صفات يمكن أن تعني الحكمة ببعثها ؟ أم يمكن أن تزوج فضائلها فضائل الديمقراطية بطريقة تؤدي إلى عقم ردائل الزوجين وإنجاب أفضل الثمرات ؟ أم يمكن أن نوفق بين اختيار كبار الموظفين بالانتخاب العام وبين اجتذاب أرقى الناس وأنظفهم للوظائف ؟

٣ - أشكال الحكومة

ينبغي أن نسلم بأن الأرسطراطية كانت محبوبة من الفلاسفة حتى في أيام هزيمتها . فسقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو ، وشيشرون ، ومنتسكيو ، وفولتير ، ودي توكفيل ، وتين ، ورينان ، وأناتول فرانس ، وجوته ، ونيتشه ، وبيرك ، وما كولي ، وكارليل ، وإمرسون ، وسنتايانا : عرفوا الديمقراطية في أثينا أو في روما ، في باريس أو في واشنطن ، ومع ذلك رفعوا أصواتهم بإجماع عجيب (سبينوزا وحده هو الذي خالفهم) إلى السماء وطلبوا من الله حكومة الأفضل . فما هذا الشيء الذي أعجب به هؤلاء القوم في الأرسطراطية .

قال بونابارت - وهو أشد الفلاسفة تمسكاً بالواقع : « لاتزال الأرستقراطية موجودة على الدوام . فإذا سعت إلى التخلص منها بتحطيم النبلاء ، فلن تلبث على الفور أن تتمكن لنفسها بين أسر الطبقة الثالثة الغنية والقوية (أى الطبقة الوسطى) . حطمتها هنا تجد أنها تعيش وتلتهمس ملاذاً في قادة العمال والشعب» (١) .

وجاء في أقوال فتسجيمس ستيفن Fitzjames Stephen : « لك أن تشرع كما تهوى ، وأن تقر الاقتراح العام إذا رأته صالحاً كقانون لا يمكن العبث به ، ومع ذلك فأنت لا تزال بعيداً كما كنت عن المساواة . لقد غيرت القوة السياسية شكلها لا طبيعتها ، وإذا قطعت هذه القوة قطعاً صغيرة فالنتيجة أن الذى يستطيع أن يطوى أكبر عدد منها في قبضة واحدة هو الذى يحكم الباقي . وسيحكم أقوى رجل دائماً في صورة من الصور . فإذا كانت الحكومة عسكرية فإن الصفات التى تجعل الرجل جندياً عظيماً ستجعله حاكماً . وإذا كانت الحكومة ملكية فإن الصفات التى يقدرها الملوك في المستشارين والقواد والوزراء هى التى تجلب القوة . أما في الديمقراطية الخالصة فإن الحكام هم المدبرون وأصدقاؤهم » (٢) . هنا تحليل موجز يمرّ بالتفصيلات مروراً عابراً ، ولكن في هذه الخلاصة الكافية ككلمة تمهيدية في الموضوع .

ويمكن القول بوجه عام إن صور الحكم اثنان فقط : حكم شخص واحد ، وحكم القلة . أما حكم الكثرة ففترة عابرة ، وهو إلى ذلك وهم للبيد مريح يحرك همه الفرد ، ويسهل سير عجلة الحكومة . والأقلية تستطيع التنظيم ولا تستطيعه الأكثرية ، وهنا مربوط الفرس ، فالحكومة إما أن تكون حكومة قلة أو حكومة فرد ، ولا شىء غير ذلك .

ويمكن من الناحية النظرية أن نقول الشىء الكثير في الدفاع عن الملكية ، إذ لو تهباً عبقرى عظيم القدرة على التنفيذ مثل نابليون ، لنجح كل شىء (ماعداء الحرية) تحت أمره المركزى والموحد . غير أن الملكية الموجودة في الواقع أصححت نادرة في التاريخ الحديث . كانت أمراً واقعاً في إيفان الرهيب ، وبطرس وفرديريك ،

(١) Berraut, op. cit., p. 46.

(٢) In Willoughby, W.W., Social Justice, p. 57.

ولويس الرابع عشر ، وبونابارت ، ولكن كم من ملوك وملكات في فخفة الملك لم يكونوا إلا مجرد رداء لأقليات مسترة سعيدة بإخفاء أيديها خلف أمه الملك وهيبته . فأى شأن كان للقياصرة في عهدهم الأخير سوى أنهم كانوا أدوات في أبدي أسرة تشينوفنيك Tchinovnicks ، أو أى منزلة لإمبراطور ألمانيا الأخير سوى التكلم باسم النبلاء Junkers ورفع علمهم ؟ أيوجد في العالم أكثر سخوية (بعد الانتخابات الأمريكية) من الحرس الحامد القفا الذى يذرع الأرض بشكل مخيف أمام القصر الذى يسجن فيه الإنجليز « ملكهم » ؟ فكيف كنا نحتمل إنجلترا إذا لم يكن فيها أمثال جلبرت وسليمان؟ Gilbert and Sullivan^(١)

ولا قيمة للدعوى المألوفة التى تزعم أن هذه الملكيات الأثرية تؤدى وظيفة واقعية. حين تمسك أطراف الإمبراطورية المترامية بوساطة رأس مشترك رمزى . . حقاً يحب الشعب ملوكه ، غير أن ما يربط بين المستعمرات والنولة الحاكمة هو حاجتها إلى الحماية والتجارة. لا الشعور بالوحدة والبساطة . والعرف وحده ، وهو الشعور بالمتعة الشديدة: للاحتفاظ بالأساليب المألوفة ، هو الذى يبقى ملوك أوروبا فوق عروشهم . وفى ذلك يقول فرانسيس تومسون^(٢) : « ليست الملكيات فى جميع ممالك أوروبا ، ما عدا اثنتين ، سوى مجرد بقية ، إنها أضرار لانفع لها فى رداء الحكم ، لا تخدم أى غرض اللهم إلا أن تهاوى باستمرار »^(٣) .

يمكن إذن أن نعد الأمر مبدأ عاماً يتضح حتى مما فيه من استثناءات ، وهو أن خلف كل حكومة أقلية تسيرها ، وأن أول قاعدة فى التحليل السياسى يجب أن تكون: « فتش عن الأقوياء Cherchez les forts » . قد تكون الأقلية حربية أو تجارية أو أرستقراطية ، وبمعنى آخر أن الأقلية الحاكمة قد تكون جنداً يرفعون إلى العرش طائفة من القواد ، أو تكون جماعة من أغنياء رجال الأعمال يحكمون

(١) السير وليم جلبرت (١٨٣٦ - ١٩٠٠) شاعر إنجليزى نظم أراجيز فكهة ، واشترك مع سليمان (١٨٤٣ - ١٩٠٠) فى كتابة الاوبرات الخفيفة المشهورة مثل محاكمة بالمحلفين ، والميكادو ، وغير ذلك (المترجم) .

(٢) فرانسيس تومسون Thomson (١٨٥٩ - ١٩٠٧) شاعر إنجليزى كاثوليكى اشهر بقصائده الدينية ، وتأثر فى أخيلته بشيلى وكتيس (المترجم) .

(٣) Shelley, p. 39.

بوساطة رؤساء الجمهورية والملوك ، أو تكون أفراداً من الأسر القديمة قويت في الأصل بامتلاك الأرض ، وبلغت مع العرف مرتبة القيادة والمنزلة . ومن هنا نشأت حجة الأرستقراطي القوية أن الأرستقراطية هي البديل الوحيد عن الحكم بالثروة. الغاشمة أو القوة الوحشية . وقد فتح انهيار الأرستقراطية الرومانية الطريق أمام الملوك العسكريين من البرابرة ، وانهيار الأرستقراطية الفرنسية والإنجليزية إلى تربع الاسترليني والدولار والفرنك على العرش . والديمقراطية تسبق قدوم حكم الأقلية العسكرية ، ولكن لم يوجد بعد أي نظام انتخابي يمكن أن يبعد بين الأغنياء، والاستيلاء، على السلطة . والوقاية الوحيدة من "حكم الأغنياء" plutocracy هو قصر الحكومة على الأسر التي تجرى في دماغها تقاليد الحكم وصفاته. فالحكم بالنسب هو البديل الوحيد عن الحكم بدفاتر الشيكات ، والأرستقراطية وحدها هي التي يمكن أن تمنح أقلية من محدثي الثروة nouveaux riches من إخضاع حياة الأمة الأخلاقية والثقافية لمثل ومستويات تجارة الجملة والأسواق والمصانع (١) .

٣ - فن الحكم Statesmanship

هذا كله موضع شك ، إن لم يكن مبعث اشمئزاز ، إذ ليس أدعى من إضعاف قضية الأرستقراطية من تصويرها من أول الأمر على أنها صورة وراثية للحكم . ومع ذلك فلنستمع للأرستقراطي بعض الوقت بغير مقاطعة أو سؤال ، مبعدين بيننا وبين أنفسنا رأيه المتحيز ، ومتعلمين منه حتى حين نختلف وإياه .

إنه يقبل وراثته اللياقة للمنصب كضرورة للحكومة الصالحة. فلا يرتفع شخص إلى معرفة الفن الكامل للحكم إلا إذا تنسم عبر ذلك الفن خلال أجيال من المسئولية والمنزلة . إنه يحتاج كما يقول نيتشه «لا إلى الذكاء فقط ، بل إلى الدم» . وهذا في نهاية الأمر ما كان نابليون يفتقر إليه، على الرغم من تعليقه على دنجين D'Enghien (٢) :

(١) انظر شيرتون حيث يقول : « لا توجد صورة للحكم أقبح من تلك التي يظن فيها أن أغنى الناس هم أفضلهم » De Rep. I, 34, in Bluntschli, J. K. Theory of the State, p. 453
(٢) الدوق دنجين (١٧٧٢ - ١٨٠٤) حارب في جيش المهاجرين واتهم بالمؤامرة عند القنصل الأول ، فقبض عليه ، وحوكم أمام محكمة عسكرية في فنسان و حكم عليه بالإعدام فوراً . (المترجم) .

« وليس دمي أيضاً من الماء القدر ». فهو نجل أحد قواد الأقاليم ، ولم يكن
ليستطيع مهما حاول أن يبلغ وزن الأرسقراطى بالمولد ومنزلته .

ولنمض مع نيتشه أكثر من ذلك فنجده يقول إن « الرياسة leadership
تحتاج إلى أسر أرسقراطية كبيرة لها تقاليد استقرت زمناً طويلاً فى الإدارة
والحكم ، إلى الأنساب العتيقة التى تضمن لأجيال عدة بقاء الإدارة الضرورية
والغرائز اللازمة » (١) . وهذا هو السر فى احتجاج الأرسقراطى على قول
القائلين « بالمولد العارض accident of birth » ؛ فالمولد ليس اتفاقاً وخبطاً
بل نسباً متسلسلاً ، وخلاصة قرون من النمو ، وبشيرة المقدرة والذكاء . ألسنت
ترى أننا اليوم نهتم اهتماماً كبيراً بسلالات الحيوانات ، فنفحص بعناية لا أصولها
المباشرة فقط ، بل أسلافها البعيدة وغير المباشرة كذلك . فالأرسقراطى يهتم مثل
هذا الاهتمام بأنساب الإنسان ، ويصر على تعظيم أثر الوراثة ، كما يؤكد
الديمقراطى أثر الفرصة ، أو الاشتراكى أثر البيئة . وهذا هو سر عزوفه عن
الزواج من امرأة أقل منه مرتبة ، وعلة نفوره من الطبقات الأخرى وكأنها أنواع
مختلفة . إنه يدرك ببصيرة الغريزة أو بالعرف الجمعى أن تهجين الأنواع يضعف
الصفات ويزعزها فترة من الزمن ، مع أن هذا التهجين قد يكون مرغوباً فيه لنمو
جيل فى جنس جديد معقد (٢) .

ولكننا نقول مرة أخرى إن وراثة الصلاحية للمناصب الكبرى أمر ضرورى
لإنتاج الحكام الكفاة . وهناك بعض الناس يجب اختيارهم منذ مولدهم كى
نمنح لهم الوقت الكافى لنمو كامل وصحيح فى العقل والخلق . والعمر قصير جداً
لا يتسع لتحصيل الثقافة والثروة معاً ، فينبغى أن نتخلى عن إحداهما منذ البداية ،
ولا يمكن أن نستغنى عن أيهما . من أجل ذلك كان من مصلحة الإنسان أن
يتحرر قلة من الناس من ضروريات الكفاح الاقتصادى التى تفت فى العضد ؛
وفى ذلك قال توكفيل : « إن إمكان العيش بغير عمل - قل هذا الإمكان أم كثر -
هو الحد الضرورى للتقدم العقلى » (٣) لذلك كانت الأرسقراطيات كما قال تين

(١) Will to Power, § 957.

(٢) Cf. Ludovici, A.M. A Defence of Aristocracy, pp. 340-50.

(٣) Tocqueville, A. de, Democracy in America, vol. 1, p. 209.

أثمن مدارس للتربية ، إذ عن طريقها تجند الأمة رجالها الحكيم وتُعلِّمهم .
إن ما لا يفهمه الديمقراطي هو أن إعداد رجل الحكم يحتاج إلى وقت
أكثر مما يحتاج إليه إعداد ماسح الأحذية . وكان قادة إنجلترا، إلى أن اصطبغت
حديثاً بالديمقراطية، يُدربون على المناصب العامة منذ طفولتهم، في البيت أولاً ،
ثم في إيتون Eton أو هارو Harrow ، ثم في أكسفورد أو كمبرج ، وبعد ذلك
يُعيّنون في مناصب صغيرة شاقة . الحق أن أبداع مظهر للحضارة الإنجليزية كان
يلى شغفها بالحرية هو انقطاع جامعاتها ذلك الانقطاع لا لفنون المال والصناعة،
ولا للعمل والتجارة ، بل لمهمة إعداد حكام الإمبراطورية . كانوا حكاماً قساة ،
وليس من الواضح لدينالم كانت قسوتهم ضرورية لحكمهم، ولكن هؤلاء الرجال
هم الذين رفعوا إنجلترا الصغيرة إلى قمة العالم ، التي سببت بها حكامها من أهل
الصناعة عنها في الوقت الحاضر .

ومن العبث في الديمقراطية أن يعد الناس أنفسهم لصناعة الحكم . إذ ليس
لهم أقل ضمان في استطاعتهم اجتياز امتحان الاجتماعات الانتخابية Convention ،
ومجالس انتخاب أعضاء البرلمان ، وأماكن الاقتراع . والأولى أن تدرّبهم
سبجعل منهم رجالاً مهذبين ومفكرين يجدون في شراسة الانتخابات وألاعيبها
مصدراً لآلام تمنع من الإقدام عليها . وقد تنبأ سانت بييف Sainte-Beuve (١)
أن الديمقراطية قد تحمل أصحاب المقدرّة على العزلة . وتكهن رينان بأن سلطان
الأعداد وتوجيهها قد يرفع المحتملين والدجالين فوق العرش ، فتنتقل الدولة إلى
تفاهة مستهترّة . وهذا دى توكفيل في زيارته الثانية لأمریکا يكتب في قنوط :
« قلما يوضع أقدّر الناس في الولايات المتحدة اليوم في المناصب الرئيسية . وينبغي
أن نعترف أن هذه هي النتيجة التي تبلغها الديمقراطية عندما تجتاز جميع حدودها
الأولى . ومن الواضح أن نوع حكام أمريكا قد انحط انحطاطاً شديداً خلال
الخمسين السنة الأخيرة » (٢) . ونحمد الله على أن دى توكفيل قدّمات ولايستطيع
أن يرانا الآن .

(١) سانت بييف (١٨٠٤ - ١٨٦٩) ناقد فرنسي مشهور يقوم مذهبه في النقد على تمييز

عقريّة كل كاتب ، وتحديد معالم الذوق الأدبي (المترجم) .

(٢) Op. cit., vol. i, p. 209.

يرى الأرسقراطى أن النظام بداية الحكمة ، وأن التغيير دائرة من الحمافة . والحرية ثمينة ، ولكنها بغير نظام أى شىء تكون ؟ ومع أن الأرسقراطيات تحد من الحرية السياسية ، فليس هذا أسوأ من خنق الديمقراطية للفردية والفكر بالضغط الخنوقى الصادر من الأكثرية الحاملة . فالأمة إذا ساد فيها النظام أمكنها أن تستمر فى سياسة مأسكة ونمو متصل . ويتحرر فن الحكم بالأرسقراطية من مصادفات الانتخاب ، فينقطع الحكام إلى مهام تحتاج فى تنفيذها إلى أجيال . فالهيئة الأرسقراطية الحاكمة ، كمجلس الشيوخ الرومانى ، أو البرلمان الإنجليزى فى عهد الملكة إليزابيث ، لها ضرب من الدوام الجمعى يكاد أن يكون خلوناً ، ولا تتمزق أهدافها ، وقلمما تضطرب بموت الأفراد أو بفوضى الحملات الانتخابية وما يصحبها من نفاق . يقول دى توكفيل : « تكاد تكون جميع الأمم التى أثرت أثراً قوياً فى مصير العالم بتصور مشروعات واسعة مع متابعة تنفيذها ، كانت محكومة بهيئات أرسقراطية » (١) .

حقاً إن مثل هذه الحكومة تكون حاجزاً عنيداً ضد التجارب أو التغيير ، ولكنك لن تجد أسلم منها . وحتى الأحرار إذا كان لهم أى علم بالماضى فإنهم يعرفون أن تسعة على الأقل من بين عشرة أفكار جديدة تنقلب شراً وبيلا . وأعظم سخريات التاريخ مرارة أن معظم الأفكار التى فى الناس من أجلها قد ثبت أنها مضحكة . ولازيب أن مقاومة التغيير شىء بغيض كالفرامل فى السيارة ، ولكنها أمر لا يستغنى عنه .

وهنا ننخدع بالموازنة مع العلم والأدب اللذين تقوم حياتهما على التجربة ، فنظفر إلى النتيجة زاعمين أن أفضل حكومة ما أفسحت المجال الكامل للتغيير . ولكن المجتمع ليس معملاً ، ولا يخضع الناس للتشريع أحياء ، اللهم إلا فى حالة الحرب . وحتى فى العلم يقتصر الاستعداد للتجربة على عوالم من البحث يمكن أن تستخدم فيها حيوانات لا حيلة لها ، أو كائنات غير حية كمادة لإجراء

(١) المرجع السابق ص ٢٤٧ .

التجارب وحذف الأخطاء ، حتى إذا أردنا تطبيق نتائج العلم على أمور الحياة والموت الإنسانيين يملكنا الحذر « كالجماهيريين » (١) . ومع ذلك فإن وجد ميدان تقاوم فيه التغيير ، فليس هو ميدان السياسة ، بل الغذاء والدواء . وليس اللعب بالأفكار كالتجربة بالأرواح .

ومع ذلك فحين يتعلق الأمر بمصير مائة مليون من الأنفس ، فقد يحسن استخدام ضوابط « فرامل » للعجلات الأربع ، حتى حين تصعد قوف الجبل . يجب أن تتحرك الجماهير الضخمة رويداً رويداً ، إذ من الأيسر أن تبت فيها الفوضى من أن تعيد إليها السلامة والنظام . والأمر في السياسة كالحال في الطب كثيراً ما يؤدي إصلاح داء واحد إلى ظهور داء آخر حتى يحدث عنه . بل إن تركيب المجتمع أعقد من تركيب أبداننا وعقولنا التي يشملها المجتمع في جموعه الصغيرة ، وفي علاقاته الكثيرة التداخل . وهذه العلاقات المتبادلة تصل إلى ملاءمة صالحة إذا تركت وشأنها ، أما حين تسعى النخبة الممتازة بالحكمة أو الأوساط المنتخبة في أمة من الأمم ، أن تخضع هذه العمليات الحيوية لنظام القانون المصنوع ، فنتيجة ذلك شبيهة بمن يحاول المشي وهو يحلل هندسة رجله وحركاتها .

وقد يختلف الأمر إذا كان المجتمع تركيباً منطقياً كالرياضة أو الهندسة أو أي شيء آخر لا يتعلق بالحياة . ولكن المجتمع كأنفسنا ذاتها نمو وليس صيغة قانونية أو قياساً منطقياً . فالمجتمع كما صورته تين : « لم ينظمه فيلسوف مشرع طبقاً لمبدأ سليم ، ولكنه ثمرة الأجيال جيلاً بعد آخر حسب الحاجات المتنوعة والمتغيرة . إنه ثمرة التاريخ لا المنطق . وبهز المفكر الحديث كتفيه حين يصعد بصره في السماء ويرى كيف كانت الأبنية القديمة . وقد وضعت أساساتها اتفاقاً ، واضطربت هندستها ، وبنان خللها في مواضع كثيرة » (٢) . وكل طالب يعرف جواب بيرك على روسو : ليس المجتمع عقداً بين المتعاصرين ، بل تكويناً لاشعورياً ينشأ بالتدرج ؛ وإن كان ثمة عقد موجود فهو بين الماضي والحاضر والمستقبل (٣) . فإن تقطع الصلة بالماضي قطعاً باتاً هو أن تدنو من الانفصال

(١) يشير المؤلف إلى الحزب الجمهوري في الولايات المتحدة (المترجم) .

(٢) Taine, H., The French Revolution, vol. II, p. 7.

(٣) Reflections on the French Revolution, p. 91.

الذي يجلب الجنون ، وإلى الذهول الاجتماعي الذي ينشأ من هزة مفاجئة عند الضرب أو البتر . إن سلامة الفرد في اتصال ذاكرته ، وسلامة الجماعة في اتصال تقاليدها ، وفي الحالين يؤدي انقطاع السلسلة إلى رد فعل عصبي ، وإلى اضطراب خطر على الحياة . وهذا ما وجدته بطرس الأكبر حين حاول أن يجعل روسيا دولة غربية في جيل واحد ، وما حدث للنين حين حاول أن يجعلها اشتراكية . فالماضي لن يموت .

هـ - الحكومة والثقافة.

تأمل الأخلاق والثقافة . لقد زرعت الديمقراطية في النفس الحديثة خوفاً من الجماهير يسمى الضمير . ولكن هل نمت ذلك الفخر بالأرقى ، تلك الرغبة لاستحسان القلة المبدعة لا الطعام ، مما خلق الإحساس بالمحد عند الأرستقراط ؟ أم يمكن أن يكون الأرستقراطي بيوريتانيا (متزمتاً) أو متعصباً ذمياً ، أو يميل على غيره من الناس ما يجب عليهم أن يقبلوه ؟ أم يمكن أن ينتج الأرستقراطي موسيقى « الحجاز » أو يفتح « الكباريات » ؟ أم يمكن أن يكون الأرستقراطي منافقاً أو ينحني للفوز عن طريق ممالأة الجمهور ؟ أليس في نعمة الجماعات الديمقراطية وعاداتها بعض السوقية مما لا يمكن أن يعيش بتوجيه الأرستقراطي أو باحتذاء مثاله ؟

يقول الأستاذ روس : « إن مثل العمل بين الأمريكان لا يضبطها تأثير مالك الأرض الأرستقراطي . وفي معظم « العالم القديم » كانت تحتقر الطبقة الاجتماعية العليا وجهة نظر التاجر ، وتفتخر بأنها تقدر الأشياء من وجهة نظر المستهلك . . . ولما كان ميل الأرستقراطية للعيش لا لاكتساب المال قد أخذ يتسرب إلى المجتمع العام ، فقد أصبح المذهب التجاري commercialism في أوروبا أكثر التصاقاً بطبقة رجال الأعمال » (١) . وأكبر الظن أن أمريكا لن تطول وقفها وحدها في هذا الميدان ، فأوروبا أيضاً تعيش في غصة الديمقراطية وتجنح إلى اصطناع عاداتها من أسفل ، على أن رؤساء أغنياء رجال الأعمال في أمريكا يميلون إلى تنمية ذلك الشرف الهاديء ، وذلك الواجب النبيل وهو أبداع زهور الأرستقراطية .

(١) Ross, E.A., Changing America, p. 88.

وحتى الديمقراطية له في قلبه إعجاب حاسد لما يسمى في شيء من الغموض باسم أرستقراطية الروح : وهي عرامة الإقدام في يسر ، وثقة في الحكم والذوق ، وسرعة الخاطر وبداهة الحديث مع التحفظ والاعتدال ، وكرامة لا تذلل وكرم لا يخطيء .. وفوق هذا كله ، ودائماً ، رقة السيد المهذب (الاحتملان) فلا غرابة أن تجد « كل إنجليزي يحب لورداً » ، وكما قال أناتول فرانس : « لاشيء يقدره الديمقراطي أكثر من شرف المولد » (١) . إن أوثق طريق إلى النجاح الاجتماعي في الديمقراطية هو أن تسلك كالأرستقراطي ، وأوثق طريق إلى النجاح كخطيب في أمريكا أن تتكلم كالإنجليزي (٢) .

هذا شيء يمكن أن يغتفر وطبعي ، لأننا مهما نقل نعرف أن صنع سيد مهذب يحتاج إلى أجيال .. وقلم يستطيع أحد أن يبدأ فقيراً وقد قضى عليه أن يجتاز القدارة العالقة بالحرب الاقتصادية ، ويظفر مع ذلك بتلك النظافة الخاصة بالعقل أو الرشاقة المتصلة بالجسم ، تلك الثقة والطمأنينة ، ذلك الفخر المتواضع والهدوء الكلاسيكي ، مما يميز الرجل الذي تأدب منذ البداية بالوصية والمثل والحوار الممتلئ ، بأطياب الحياة وألطفها (٣) . يجب على العالم أن يختار هذا الاختيار الشاق بين الوراثة والتزاحم بالمناكب ، بين الذوق الرفيع الذي ينحدر من أعلى إلى أسفل بالمحاكاة ، وبين السوقية التي ترتفع من أسفل إلى أعلى تحت ضغط المنافسة ..

ويتضح الفرق بين الروحين في الأدب الذي يزدهر في ظل ضروب الحياة والحكم المنافسة .. وإذا ضربنا صفحاً عن الاستثناءات التي تزعزع كل تعميم يختص بالكائنات الحية ، فإن الأدب الذي يكتب للأرستقراطية يميل إلى الكلاسيكية ، والذي يكتب للديمقراطية ينجح نحو الرومانتيكية . وقد منحنا أثر العلم والاشتراكية بعض الوقت عصراً من الواقعية Realism حاكي فيه الأدب موضوعية العلوم الطبيعية ، واختار ثائراً لتصويره شروخ الحياة ومظالمها . غير أن

(١) Penguin Isle, p. 210.

(٢) هذه العبارة الأخيرة مع الاعتذار إلى المستر جون كوبر بويز الخطيب الممتاز والقصصي العميق .

(٣) يتحدث كسر لنج عن تلك « البصيرة الموجهة الموجودة في دماء كل أرستقراطي حقيقي »

Europe, p. 194. وهو كتاب رائع

المنافسة الجوهرية في الأدب تقع بين العقل الكلاسيكي والخيال الرومانتيكي ، كما أن المنافسة في السياسة تقع بين الثروة الموروثة والمكتسبة . فالعصر الديمقراطي يحاول أن يفك أسر حياته الصناعية والتجارية العادية بأوهام الآداب الرفيعة الرومانتيكية فهو يحب أن ينتشل نفسه من الدكاكين والمخازن بالقراءة الخفيفة والحب العاطفي . ولكن الأرسطراطي ينجل من التبذل في هواه ، أو التخشن في حديثه ، لأن خياله يخضع دائماً لرقابة عقله . فكبح الهوى جوهر نفسه في الأدب وفي الحياة . إنه يؤثر التحفظ على المبالغة ، وكما يقول فلوبيير في سلامبو : « إنه يتكلم في هدوء ليكون أملك للسمع » وإذا أنتج كتباً فمن أمثال « مقالات » مونتيني أو « روح الشرائع » ، ولا يكتب أبداً « إميل » أو « البؤساء » . لا يرب أن خلق أدب أو عالم يحتاج إلى جميع ألوان الكتب وكل أصناف الرجال .

ولقد كانت الأرسطراطيات بوجه عام مشجعة للفنون والعلوم ، وألقت ظلال حمايتها بإسراف شديد وبغير تمييز على الفرد الممتاز . وقد ذهب تارد إلى أن الأرسطراطيات أول من تقبل الأفكار الجديدة ، فقال إن المبتدعات ولو أنها يمكن أن تنشأ في أي مكان إلا أنها تجد حمايتها المبكرة بين القلة المثقفة حيث تنتشر عنهم بالعدوى والإيحاء إلى المراتب الدنيا . ويقول سنتليانا : « لقد انحصرت الحضارة حتى الآن في انتشار العادات التي تظهر في الأوساط الممتازة وامتزاجها بينهم » (١) . وقال رينان : « كل حضارة فهي من عمل الأرسطراطيات » (٢) . وكان يخشى أن يفسد العلم في ظل الديمقراطية عندما يحدث أن يشك الجمهور في معناه (٣) . ويقول سومر : « الطبقات هي التي تنتج التنوع ، والحماهير هي التي تحمل الأخلاق الموروثة إلى المستقبل » (٤) ويقول لبيون : « يدل التاريخ على أن جميع التقدم الحاصل حتى الآن يرجع إلى هذه القلة الممتازة . إن الذين يدعون العباقرة يغذون سير الحضارة ، والمتعصبين وأصحاب الأوهام يخلقون التاريخ » (٥) . وهذا صحيح .

(١) Reason in Society, p. 125.

(٢) In Maine, op. cit., p. 42.

(٣) History of the People of Israel, vol. iv, p. 179.

(٤) Folkways, p. 47.

(٥) In Todd, p. 382.

٦ - الديمقراطية والقوضى

وأخيراً فإن الشعب نفسه يؤثر الأرسقراطية ، فهو محافظ في السياسة كما هو محافظ في الآراء ، ويجب الحكومة التي تتحرك ببطء نحو أهداف جلية . وهو لا يثور إلا حين يثقل عليه الضغط ، ومع ذلك يبدو أن السلطة غير المنتخبة تسهويه إلى أقصى حد . كان الإيطاليون يهزون فخراً عند سماع اسم دكتاتورهم ، وبخاصة إذا كانوا لا يعيشون تحت سلطانه ؛ ولم يترهم أنه ارتقى سلم الزعامة محطماً كل صور الديمقراطية وكل عزيز عندها . وإنك لتجد الصحف التي يقرؤها عامة الناس في إنجلترا مثقلة بأنباء الأرسقراطية ؛ ويضع كل مخزن من مخازن البيع الشطار الملكي على أبوابه ، أو يفخر بأنه يتعهد بتوريد البضاعة لصاحب الحلالة الملك . ونستثنى من ذلك كله حالة واحدة بديعة ، فقد كان أكثر الأشخاص شعبية في صحف أمريكا عام ١٩٢٧ أميراً إنجليزياً ، وأشيح النساء ذكراً ملكة بلقانية .

لعل الشعب اليوم أسعد قليلاً عما كان من قبل . فقد ضاعفت الاختراعات ووسائل راحتهم وقوتهم ، وضحتهم الثروة آفاقاً جديدة من الرحلة والمتعة . ولكن إلى جانب هذا التنوع والمرح في الحياة نشأ ضغط عصبي في النفس ، فكل شخص يبدو أنه يشعر بالحياة منافسة لا ترحم ، وحرية بين الإرادات لا ترأف ، واندفاعاً لا نهاية له في طلب الرياش والعربات والمنزلة . وقال أناتول فرانس : « إن الصورة الجديدة للمجتمع حين تشجع كل ضروب الأمل تبعث جميع الطاقات إلى العمل . لقد أصبح الكفاح في سبيل الحياة أكثر تهوراً من أي وقت مضى ، وأضحى النصر أشمل والهزيمة أمر (١) » .

لقد طار السلام والهدوء من قلوبنا مع ذهاب الهيئة المنظمة للمجتمع الأرسقراطي . وقبل الثورة الفرنسية (إذا استعزنا تشبيهتين) كان المجتمع بناء كبيراً ذا طوايق منفصلة . ليس بينها درج ، وكان الفلاحون يزرعون الأرض وقلما يفكرون في الصعود ، والأرسقراطيون يزدهرون على طريقة واتوفراجونارد (٢)

(١) On Life and Letters, 3rd series, p. 9.

(٢) Watteau (١٦٨٤-١٧٢١) مصور فرنسي اشتهر بتصويره المناظر الأرسقراطية الريفية -

Fragonard (١٧٣٢ - ١٨٠٦) مصور فرنسي وحفار ، زين هوائاً لمدام دي باري (المترجم) .

لا يزعجهم صخب مكانهم . ومن أقوال تاليران : « إن من لم يعيش قبل عام ١٧٨٩ لم يعرف حلو الحياة إلى التمام » (١) . أما اليوم فإن كل رجل وكل امرأة يحترق بالحصى ، تلك الحمى التي تجلب لنا الثروة وتجلب لنا الشرور . إن الحرية تعنى بالنسبة لنا أن كل واحد منا يصلح أن يكون رئيساً للجمهورية ؛ أما نتیجتها فأعظم كفاح ملح لا يستقر عرفه التاريخ . والسلم تقوم بين المتفاوتين ، أما دعوى المساواة فإنها محلبة لحرب عنيفة لا تنقطع . من أجل ذلك كانت الديمقراطية مطية لنزاع دائم فى السياسة والاقتصاد وفى أحوالنا النفسية حتى لتجد الجهد والضيق مكتوبين على كل وجه ، وينغصان كل بيت . وحين يعترف المجتمع بتفاوت الناس الطبيعي فى العقل والإرادة ، ويلغى نفاق النظم المتساوية ، فقد يمكن أن يعرف الناس السلام مرة أخرى . عندئذ سينتقل المجتمع من المنافسة إلى المحاملة ، ومن الكم إلى الكيف ، ومن الخيال إلى الذكاء ، ومن الثروة إلى الفن .

٧ - أخطاء الأرسطراطية

هذه هى الحجة التى تقال فى جانب الأرسطراطية ، عبرنا عنها بغير تزويق يهدف إلى إبطال حجة الديمقراطية . ولندع أولاً جانباً تلك الأمور التى تركنا دون اقتناع ، ثم فلنحاول إدماج الباقي فى فلسفتنا .

لقد رسم أرسطراطي الطبع موجزاً شديد التحيز ، وأغفل كثيراً من النقط غامضة . ولنفرض أن الأرسطراطي ينتج حكماً أرفع ، ورجالاً أنفذ بصرأ وأرحب خططاً ، فأى ضمان لنا نعتد عليه فى الطبيعة البشرية أو من التاريخ يجعلنا نثق فى إخلاص هذا الرئيس الماهر للصالح العام ؟ فالأرسطراطيات قل أن تصنع من الشعب هذا الكل العصى من الخدمة المتبادلة كذلك الذى يربط بين المخ والبدن (إذا استعملنا موازنة أرسطراطية قديمة) ، فهى تنفق كثيراً من وقتها فى إنزال الأسر الحاكمة المنافسة عن العرش ، أو فى الاحتفاظ لأنفسها بالسلطان ، مما لا يسمح بذلك الانقطاع اليقظ من الأجزاء للكل ، ذلك الانقطاع الذى تمتاز به قيادة المخ .

(١) Spengler, Decline of the West, vol i, p. 207.

ولنذكر في هذا الصدد إدمان الأرستقراطيات الحروب التي كانت كالصيد بالنسبة إليهم ضرباً من الرياضة ، العدو فيه هو الفريسة ، والشعب المحارب ليس إلا مجرد كلاب للصيد . حقاً كانوا يضحون بأنفسهم في هذه الحروب بمحض حريتهم ، فلم يشك أحد في إقدامهم . وفي بعض الأحيان كانوا أقل توحشاً وأضعف رغبة في القتال من الطبقة المتوسطة التي شعرت بالقوة ودفعت إلى نشوب الحرب العظمى . لقد تحدث لويد جورج عن شتى القيصر في عامود نور ، أما لانسدون فقد نصح بالاعتدال . وأصر الديمقراطيون الفرنسيون على تقديم فتياهم المراهقين ضحايا ، على حين كان الإمبراطور شارل يطلب في ذلة سلاماً مبكراً . ولكن علينا أن نذكر أيضاً حروب الوردتين (١) المتوحشة ، وحملة السلب التي أرسلها لويس الرابع عشر ، وجشع فزديك بدون رحمة ، وتقسيم بولندا كما يقسمها اللصوص ، والاتحادات القاسية التي حاربت عشرين عاماً لإعادة البوربون إلى عرش فرنسا .

والقوة باعثة على الفساد بمقدار انعدام مسئوليتها ومنزلتها . والأغلب أن تكون الأرستقراطيات قاسية ، كما كان أهل إسبرطة بالنسبة لعبيدهم ، أو المواطنون الرومان بإزاء مدينتهم ، أو الملاك الإنجليز نحو الفلاحين في إيرلندا . أي مجد يوجد في الثقافة الأرستقراطية يمكن أن ينزل إلى وحيثة الرومان مع أتباع سبارتاكوس (٢) Spartacus ، أو إلى قسوة كليف وهمتجس في الهند ؟ قد لا يكون هذا المبدأ صحيحاً حتى الآن ، ومع ذلك فهو مبدأ لا يزال صالحاً ويستحق أن يؤخذ به ، نغني : « لن يكون الرجل صالحاً لحكم رجل آخر بغير رضاه » . وهنا نجد أن المثل الأعلى الديمقراطي ، ولو أنه ليس إلا مثلاً فقط ، يفتح آفاقاً أوسع ، إذ يشجع كل رجل على أن يكون مسئولاً عن نفسه ، فيصعب عوده ، وتتسع نظرتة . إن دولة تسير بأفرادها من الفوضى إلى طريق النظام خير من أمة تقوم على العبيد ولا ملاذ لهم إلا الثورة .

(١) هي الحرب الأهلية المشهورة بين بيت يورك وشارته الوردية البيضاء ، وبيت لانكستر وشارته الوردية الحمراء ، واستمرت ثلاثين عاماً في إنجلترا وذب فيها كثير من النبلاء والجنود (المترجم) .
(٢) سبارتاكوس (توفي ٧١ ق. م) عبد روماني ومصارع ، قاد حركة لتحرير العبيد من سنة ٧٣ إلى ٧١ ، وهزم عدة جيوش ، ولكنه هزم وقتل (المترجم) .

نعم لقد كانت الثقافة ترف القلة ، وستظل كذلك مدى الزمان الذي يعيننا الآن . ومع ذلك فلن نجد أحداً ذا معرفة يربط بين الفنون والعلوم وبين الأرستقراطية . وإذا كان التقدم راجعاً إلى القلة ، فقلما يرجع إلى القلة الوراثية . إن نمو العلم الحديث مرتبط بلا ريب بنمو النقل والصناعة ، وهما أمران لن يود الأرستقراطي أن يغمس يديه فيهما . وقد اشتغل في بعض الأحيان رجال من ذوى المنزلة بالعلم مثل الكونت رمفورد (١) . ولكننا إذا حذفنا من القائمة أولئك الذين حصلوا على اللقب بعد أداء مهامهم ، رأينا أن العلم يكاد أن ينحصر في الطبقة المتوسطة .

والأمر كذلك في الفن ، فالأرستقراطيات لا تبعد فناً ولو أنها تعوله . وليست العصور العظيمة في تاريخ الفن هي تلك التي امتازت بأرستقراطية مستقرة ، كعصر أحمنون ، أو الإقطاع في مصر أو في أوروبا . إنها عصور تمتاز بظهور طبقة وسطى جديدة ، ولم تقم عظمها في بيوت النبلاء ، بل في المدن الحرة والمدن التجارية . وتكاد تكون الدراما الإغريقية ثمرة رعاية رجال الأعمال في اليونان : فكلنا يعرف أن تمثليات أسخيلوس وسوفوكليس وأوربيدس العظيمة ذات الفصول الثلاثة كان يعدها ويخرجها على المسرح جماعة من الموسرين الذين سلكوا ذلك السبيل لتمجيد دولتهم وتركيز ثرواتهم . ولم يكن الذين أعانوا لوكريتيوس وهوراس وفرجيل من الأمراء المهذبين بل من رجال المال . ولم يشيد الكنائس الغوطية البارونات أصحاب الأرض ، بل طوائف التجار وثروات المدن المعيزة باستقلالها . وقد أعان أرستقراطيو الإنجليز شكبير حتى أصبح قادراً على الارتفاع إلى الثروة (كان أشبه برجال الأعمال ، هذا الناثر ابن الخزار) . ولكن بنك أسرة مديتشي هو الذي كان يدفع نفقات «فواتير» النهضة . وقد رفض الأرستقراط إعانة جونسون أو برنس أو شاترتون ، ولفظوا بيرون وشللي . أما ثروة التجارة والصناعة الناميتين فقد غدت أدب القرن التاسع عشر القوى

(١) الكونت رمفورد Rumford (١٧٥٣ - ١٨١٤) مغامر ولد في أمريكا ، ونصبه ملك بافاريا كونتاً على الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وأصبح سفير بافاريا في إنجلترا . وعاش معظم وقته في باريس (المترجم) .

في إنجلترا وفرنسا . وفي ألمانيا فقط ، مع فريدريك الأكبر وكارل أوغسطس
دوق ويمار ولودفيج ملك بافاريا ، يمكن أن يتقدم الأرسقراطي بقضية تشبه أن
تكون معقولة .

الحق أن الأرسقراطي ينظر إلى الفنانين كأهم عمال يدويون كما كانت
الأرسقراطية المصرية تنظر إليهم ، فهو يؤثر فن الحياة على حياة الفن ، ولا يمكن
أن يفكر في الخط من نفسه إلى مستوى العمل المحرق الذي هو ثمن العبقريّة .
وهو لا ينتج في الأغلب أدباً ، لأنه يعلم أن كل كتابة تستهدف النشر عبارة عن
محبة للعرض . ولن تجد أرسقراطياً كان يرضى أن يغرق في بحر من المداد مثل
رابليه ، أو يكشف عن أوراقه السياسية مثل مكيافللي ، أو يكافح بحرارة كروسو ،
أو يؤلف من المآسي والتشبهات ما كتبه شكسبير ، أو حتى كان يكتب مقالات
وقصصاً أرسقراطية كأناتول فرانس . ذلك أن سحر أناتول (وهو ابن بائع
كتب) في بعده الرفيق عن الأوهام . ولكن الأرسقراطي لا يجتاز مثل هنا
الباب من الحقائق ، لأنه نشأ على النظر إلى العالم الآخر وهو نصف جاد ما دام
يملك من قبل هذا العالم .

وكانت نتيجة ذلك في الديمقراطيات الحديثة نزعة عابثة غاوية نحو اللذة ،
وعريضة مستهرة . تمتع فيها الناس بمنزاي المركز إلى التمام ، وتجاهلوا مسؤولياته أو
مروا بها مر الكرام . وقد نشأ الانحلال من ضيق النظرة إلى الوراثة والتقييد
المتعجرف لروابط الزواج بدوائر مختارة من أولاد الذوات ، فيصبح طراز التسلسل
رفيقاً جسمانياً رخواً أخلاقياً ، وينحدر خلال جيل من العبقريّة إلى التفاهة .
بعض الأجيال فقط هي التي توسطت بين بطرس الأكبر ونقولا الأول ، وبين
وليم أورانج وجورج الثالث ، بين « الدولة هي أنا . l'état c'est moi » وبين
« بعدى الطوفان » (après moi le déluge)^(١) . وقد انحلت أسرة ستيوارت ، والبوربون ،
وهبسبرج ، وهو هنزلورن ، ورومانوف . ولسنا في حاجة إلى أمثلة أخرى لنؤكد
هذه النتيجة في فلسفتنا .

(١) يشير المؤلف إلى لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر في عبارتهما المشهورتين .
(المترجم) .

الخلاصة أن الوراثة فيها أسرة وهلم كما تجد فيها أسرة فردريك، وأن ما تأخذه منا على مر الزمن « عملة صغيرة » أكثر مما تعطينا إياه ذهباً . وللعبقريّة طريقة شيطانية بها تظهر في أي طبقة ، ولو أن فرصة ظهورها أعظم حيث تجد ما يكفي لطعامها ، والغالب أنها تستنفد الرجل الذي يكون في خدمتها بحيث تترك بذرته عاجزة عن إنتاج مثله . وقد دامت الأرستقراطيات الوراثة زمناً طويلاً بفضل صبر الناس وجبنهم . ومع ذلك فكيف تقاس مدة بقاء الهبسبورج إلى سلسلة البابوية اللانهائية ؟ كان البابوات أعظم حكام أوروبا ، وكانت الكنيسة أعظم هيئة حاكمة . ولكن ليس ثمة مكان للوراثة في الكنيسة ، ويستطيع أي رجل أن يشق طريقه من المحراث إلى الفاتيكان . ولقد كانت أقوى الحكومات في التاريخ مزيجاً من الديمقراطية والأرستقراطية ، وأكبر الظن أن هذا هو نوع الحكومة الذي يجمل بنا أن نحصل عليه .

٨ - حول أنفسنا مرة أخرى

الواضح لنا في هذه المشكلة المضطربة الخاصة بالحكم الإنساني ، إن كان ثمة شيء واضح ، هو أن مبدأ الوراثة السياسي مبدأ يؤدي إلى الانحلال . فهو يحمي العجز وينقله عبر الأجيال ، ويسد كل طريق إلى الإدارة بالبله من ذوى النسب ، ويقف نضح الموهبة إذا كان صاحبها بغير لقب ، ويعتدى على أول ضرورة تلزم الدولة القوية الدائمة - أما كل موهبة تولد معه من أي طبقة كانت فسوف ينميا حتى تبلغ النضوج ، ويرحب بها في خدمته . وهذه هي الحقيقة الهامة المستترة وراء صور الديمقراطية وألفاظها الرنانة : أنه إذا لم يستطع الناس أن يكونوا سواسية ، فالفرصة يمكن أن تجعلهم كذلك ، وأن حقوق الإنسان ليست حقوقاً للمنصب والسلطان ، بل حق النزول إلى أي ميدان يمكن أن يختبر فيه ويغذى صلاحيته للمنصب والسلطان . فهذا هو جوهر الموضوع .

والأرستقراطية هي حكم الأفضل ، وليس من الضروري أن يكون الحكم بالوراثة . فإذا كنا نرغب في الأرستقراطية ، ونفسد ونضيق لضياعتها ، فليس معنى ذلك أننا نهفو لحكم الكونتات والدوقات ، بل معنى ذلك أننا نريد أن يحكمنا أقدر الناس . فنحن أينا سرنا نلق رجالاً ونساءً تدرّبوا على العمل وأعدوا له ،

ولكنهم يجدون الباب في السياسة موصداً لا يمكن اجتيازه . لذلك ينبغي أن تفتح الديمقراطية الطريق .

والحلول صعبة ، لأن فسادنا قد تمخض عن فلسفة من التهمك حتى أصبحت أول استجابة لنا على أى اقتراح هى ابتسامة جديّة . وقد بلغ بنا الأمر بنوع من التكيف مع جو البيئة أن أصبحنا نعتقد أن العالم كان على الدوام على هذا النحو ، وسيكون أبداً كذلك . ويبدو أننا قد تلاءمنا تمام الملاءمة . مع أننا الآن فى غاية الذكاء . بهذا الحكم الذى يحكنا فيه الذئاب والأوز . وأكبر الظن أن قولتير كان على حق حين ذهب إلى أن الرجل الحكيم عليه أن يستسلم فيترك العالم بالحالة التى وجدته عليها . غير أن سحر المدينة الفاضلة يسرى فى دماغنا ولن يتركنا فى راحة حتى نقف عن النمو . وفى الأرسقراطية بعض الخير الذى يجب علينا أن نبحث عنه وننسجه فى وحدة مع الحق الذى يكمن وراء ديمقراطيتنا المزيفة .

تصور انتخاباً لمحافظة إحدى المدن فى أمريكا عام ١٩٥٩ . إنه لا يزال انتخاباً ديمقراطياً ، يصوت فيه كل رجل وكل امرأة . وينتخب أولئك الذين عليهم أن يحكموا . حقاً إنه انتخاب ديمقراطى إلى أقصى حد أكثر من أى انتخاب عرفناه من قبل . ذلك أن اختيارنا اليوم محدود بشخصين أو ثلاثة ، تختارهم اختياراً خاصاً جماعات صغيرة ليس لنا عليها رقابة ، وسلطتنا التى نؤمى بها مقيدة بتحديد نوع الملابس التى سوف يلبسها أسيادنا فى الجيش . أما هنا فى هذا الانتخاب الذى نتخيه فالاختيار يتراوح بين مائة من المرشحين ، وتمرح سلطتنا فى حرية هذا المدى .

كيف يمكن أن يظفر هؤلاء المائة من المرشحين بالتعيين فى المنصب ؟ أوجدوا مائة « رئيس » Bosses ، ومائة « جهاز » machines ؟ بأى جبل جاذب ، وخدمة صادقة للحزب ، ومبادرة ثابتة الغرم على التصويت خضوعاً للأوامر ، وصلوا إلى هذا الباب من السلطان ؟ لم يصلوا بأى طريق من هذه الطرق ، ولا غيرها مع ذلك ، لأنهم لم يعينوا أصلاً ، بل أعلنوا فقط ترشيحهم وأهدأفهم ، ولا شىء أكثر من ذلك .

أيمكن أن يكون انتخاب بغير تعيينات؟ أمكن استبعاد الاتفاقات المدبرة، وانتقاء المرشحين، وجمع الرؤساء، واجتماعات بلاكستون Blackstone Hotels^(١) ولكن أي شخص حراً لترشيح نفسه لمنصب العمدة؟ أو المحافظ، أو الرئيس؟ كلا، بل ولا أي شخص آخر أو أي عدد من الأشخاص أحراراً في تقديمه، إذ جدارته فقط هي التي تتركه، وإعداده فقط هو الذي يعينه. على أي حال مهما يكن الاختيار الشعبي واسع الدائرة هنا، فلن يؤدي إلى اختيار شخص غير ذي كفاية.

ذلك أن كل مرشح من هؤلاء المرشحين قد وقف حياته على تكوين نفسه التكوين الصالح للوظيفة التي ينشدها. فقد نجح في الكلية بامتياز، ثم بعد ذلك خلال أربع سنوات من التدريب الشاق والعمل في مدرسة «الإدارة السياسية». كان الحكم عنده فناً وعلماً يكتب ويتعلم كما هي الحال في الطب أو الهندسة أو القانون، ولم يكن مجرد منصب يظفر به. وها هو ذا الآن قد برز في النهاية منوراً بالمعرفة ومزكى بالعمل، وقد سقط عنه كل خبث واحتيال في الطريق. وأصبح الآن حراً، وكذلك كثيرون غيره، لينزل انتخابات العمودية في أي بلدة صغيرة في الدولة. فاذا خدم مثل هذه البلدة دورتين فله أن يرشح نفسه لعمودية مدينة أكبر، حتى إذا خدمها دورتين فله أن يتقدم للانتخاب في رئاسة المحافظات الكبيرة. وإذا خدم في إحداها دورتين فقد يتقدم ليكون محافظاً، وإذا خدم الولاية ذاتها محافظاً دورتين فقد يطمع أن يكون رئيساً للجمهورية. فالإعداد هو الذي يعينه، وجامعاتنا وهي أبداع إنتاج للحياة الأمريكية تصبح مربى حكمانا ومركزهم. وتبقى البيروقراطية كما ستنبى دائماً. وتبقى الأوليجارشية كما ستنبى دائماً، ولكنها بيروقراطية مدربة ومسئولة. وأوليجارشية دستورية رفيعة ومقيدة. وتبقى الديمقراطية - في الانتخابات - وترتبط الأرستقراطية بها - عن طريق تقييد الوظائف بالأفضل. ولكنها ديمقراطية تخلو من عدم الكفاية أو الفساد، وأرستقراطية بغير وراثة أو مزية.

أهذا حلم غير عملي ومثالي؟ وأي حلم لم يكن كذلك؟ تأمل كاتباً صغيراً

(١) يقصد الاجتماعات التي تعقدها لجان الأحزاب الداخلية للاتفاق على مرشحينها. (الترجم)

في عصر إلزابيث يتنبأ بواشنطن أو ميرابو ؛ أو في أيام واشنطن من يقول بتحرير المرأة ؛ أو أيام جرانت من ينادى بتحريم الخمر . كل شيء مستحيل حتى ينفذ . إذا كانت أكسفورد وكبرج تربيان رجال الحكم ، أفتحرم جامعاتنا ثلاثاً وتساويهما ؟ لقد ظلت الصين مدى قرون تقصر الوظائف على الرجال الذين يختار تعليمهم وإعدادهم كل خطوة في ترقيتهم . فلما دخلت الأفكار الديمقراطية إلى الصين عام ١٩١١ ، ألغى هذا النظام بالطبع ، ولو أنه كان يمنح تقريباً فرصاً متكافئة للجميع . وظهرت في ألمانيا منذ قرن مدد لم يسبق لترتيبها ونظامها . وجمالها البديع مثل ، لأن حكماها قد انتخبوا لما لهم من تدريب خاص بشئون المدن (١) .

ومع ذلك فلا يجب أن ندع اليأس يتطرق إلى نفوسنا ، فهناك بالفعل « مدارس للحكم » في جامعاتنا الكبرى ، أو مناهج تصلح أن تكون نواة لمثل هذه المدارس . وقد بدأت العداوة للخبراء تختفي ، ويبلغت الحرارة بمدن مثل سنساقتي Cincinnati أن يحكمها رجال دربوها تدريباً خاصاً . ويعرف كل مثقف في أمريكا الآن أن انتخاباتنا تمثيلية شائنة ، وأن أرباب هذه اللجة السخيفة منزعجون لانسحاب نصف الناخبين من إعطاء أصواتهم ، وإصرارهم على هذا الانسحاب . لقد آن الأوان أن ندعو الناس ليروا رأيهم في ذلك ، وليعلنوا بصراحة أننا لن نضيع وقتنا في أمر التصويت حتى يصبح انتخاب رجال الحكم حكماً . إن الجبن الذي نتصف به هو الذي يترك الرأي العام جاهلاً ، وهو الذي يسمح ببقاء نصف الأمة صامتة على اعتقادها المكتوم بأن الديمقراطية قد أخفقت . فلنعلن رأينا .

هذا كل ما يستطيع كاتب أن يفعله . ولكن تأمل أي أعمال جلييلة يمكن أن يقوم بها رجال ذوو نفوذ وحيلة . تأمل مائة صحيفة دورية مزودة بالمقالات ، ومائة خطيب يعلمون الشعب أن الوقت قد حان كي تتحرر التربية . وتأمل رأي المثقفين يعلنونه بصراحة وينزلون به من طبقة إلى أخرى بين الشعب . وتأمل

(١) « لا ينبغي أن يعيننا نزاعنا مع ألمانيا عن هذه الحقيقة . وهي أن ألمانيا قبل الحرب كانت أفضل الدول المحكومة في أوربا » Dean Inge, Outspoken Essays, Second Series, p. 94

العيون قد تفتحت والأهواء قد نامت . وأخيراً تنتشر الرغبة في محاولة تحديد المناصب والعزم على قصرها – أو التعيين إذا وجب أن يكون هناك تعيين – على رجال أعدوا ودربوا بشرف . تأمل كل مدينة تحاكي في غيرة غيرها حتى تصبح جميعاً نظيفة وآمنة . وقد طرد من مناصبها وشوارعها على السواء اللصوص والأشرار .

ولسنا نرجو نحن الكهول أكثر من ذلك ، فقد تحجرت قلوبنا وجفت متن الحقائق حتى أصبحنا نبتسم عند كل حماسة ، ونضحك من كل مثل أعلى . ولكن جيلاً آخر ينمو في كلياتنا ، وهو جيل مع أنه أقل رومانتيكية مما كنا عليه . إلا أنه أشجع وأعلم . وحين نظفر بمليون من هذا الشباب سيكونون من القوة بحيث ينزلون إلى الميدان ويمحون العار الذي يفتق حياتنا العامة .

فليمح العار .

الفصل العِشْرُونَ

كيف صنعنا المدينة الفاضلة Utopia

١ - في مزايا المدن الفاضلة

من أقوال أوسكار وايلد : « إن خريطة للعالم لا تشمل مدينة فاضلة لن تستحق حتى مجرد النظر إليها ، لأنها تغفل الدولة الوحيدة التي ترسو عليها الإنسانية دائماً . وعندما ترسو الإنسانية هناك ثم تتطلع فترى بلاداً أفضل فإنها تنبحر إليها . ذلك أن التقدم هو تحقيق المدن الفاضلة » (١) .

أهذا صحيح ؟ أتحققت المدن الفاضلة بانتظام ؟ إن الفكر الناشئ له اليوم رأى مضاد ، ولم يعد من البدع المألوفة الاعتقاد في تحسين البشرية أكثر من ذلك . يقول المتشكك : « التاريخ بعيد نفسه ، وما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع ، وبخاصة الحضارات . وليس تقدمنا إلا موجاً مضطرباً على سطح بحر أعماقه ثابتة ولا تتغير . والمدن الفاضلة قصائد روحانية لطاف تخدر بها نفوسنا الحساسة ذواتها لتحتمل أفاعيل الحياة والموت التي تحرقنا . ولكن الرجل القوي يتلقى جروحه بغير دواء مسكن ، أو إذا احتاج إلى التسيان يمر نفسه في الحاضر وما يدور فيه من ترتيب « روتين » دون أن يحفل بمصير الإنسانية في الغد . وقد وقع ما هو كائن ، وسيكون . والأزياء وحدها هي التي تتغير » .

الحق أننا حيوانات غير شاكرة ، واليوم حيث أغدق مصباح علاء الدين باختراعاته ألوان الترف علينا نجلس كفتاة خيالية بين هذه الأطراف ، ونتطلع إلى كنز مختلف وبعيد ، ولا حد لإعجابنا به لأنه شديد البعد . لقد طاف بأحلام الفلاسفة في الماضي إنشاء المدارس العامة ، فلما حصلنا عليها أصبحنا نشاق إلى الجامعات العامة . كان الناس قديماً عراة ، وهم اليوم كاسون ، ولكنهم

(١) The Soul of Man under Socialism.

يتألمون لأن غيرهم يلبس ملابس أغلى منهم . ومرّ على الناس حين من الدهر كانوا جوعاً ، واليوم يموت مئات الألوف كل عام في جميع البلاد المتحضرة بسبب أمراض التخمة . ومع ذلك فلست تجد لساناً حامداً يرتفع بالدعاء لهذا الفيض العميم وهذا الطريف والتليد مما يشرفنا أن نموت به . وحتى في أيام ولیم شكبير كان الظلام يخيم على المدن الكبرى ليلاً ، وكان كل شارع مخوفاً . واليوم (ولو أن كل شارع لا يزال غير مأمون) ذهب عن الليل فزعه ، وتشيع الأنوار بهجتها في كل مكان . ومع ذلك يوجه الناس البصر من وراء أكتافهم غير راضين ويندبون الأيام الخوالي . وفي الزمن الماضي كان الأطفال في السادسة من العمر والأمهات ربات الأسر الكبيرة ينفقون أربع عشرة ساعة في مصانع قدرة ، وينامون ليلاً على الأرض بجانب الآلات ، أما الآن فالأطفال يذهبون إلى المدرسة حتى يصبحوا على أهبة حكم العالم ، ويبقى الملايين من النساء في بطالة رقيقة تبدو لحدائهن خطيئة خيالية . ولكن مهلاً . . . كم تزيد سعادتهم إذا استطاعوا القيام بشيء واحد آخر . . . رحلة إلى أوروبا ، أو كوخاً على شاطئ البحر . لقد ظفر العمال بالتنظيم والشجاعة بأجور أعلى ، واحترام أشد ، وأمن أعظم ضد تقلبات الحياة . ولكنهم للأسف لم يحققوا الدكتاتورية . لقد تطلع القواد ذات يوم إلى الزمان الذي يرون فيه الحرب العامة ، فلما شهدوها أصبحوا يقفون الآن أمام النجوم البعيدة في شوق إلى إرسال السلاح إلى المشتري (جوبيتر)^(١) . ويزدهر الكتاب اليوم بما لم يسبق له مثيل في التاريخ . ويسرت الاختراعات ووسائل النقل والإعلان البيع بما لم يعرفه حتى بيرون أو ماكولي . وإذا بكاتب مثل أناتول فرانس يصبح مليونيراً من قلمه الممتاز - ولكن أي حزن يرين على قلوب هؤلاء العاقرة الناجحين .

يقول أناتول فرانس : « لو استطعت أن اقرأ ما سطر في نفسي لفرغت ، فلست تجد في جميع أنحاء الدنيا مخلوقاً أتعس مني . » ألا ما أروعك يارب الكلام الحميل . - أنت الذي أحطت نفسك بكنوز الفن من شتى العصور والبلاد ، يا من ملكت قلوب الساسة والثائرين في نطاق من الإعجاب والحب ، ومن

(١) جوبيتر هو رب الأرباب وكبير آلهة الرومان وحامي روما (المترجم) .

مجد حتى في حياته بأنه قرين رابليه ومونتيني وفولتير وغيرهم من ملوك فرنسا ،
أنت الذي ملكت المال والفراغ ومع ذلك لم تستغل نفسك واحداً : فإذا كنت
« أنت » لم تعرف السعادة قط ، فأين توجد ، وكيف نحصل عليها نحن الصغار ؟
ولأمر ما انتهت بنا الثروة إلى التشاؤم ، وتركنا غزو الطبيعة مثل
« سلامبو » (١) بوّساء في نصرنا ؟

لقد تحققت المدن الفاضلة ، ولكن في العالم الخارجي فقط . تصور حالنا
إذا لم يكن العالم الخارجي موجوداً ، كما ينهب بعض الفلاسفة . لقد تغير العالم
الباطني – أي أنفسنا – ولكن بأي بطء جيولوجي . لقد كان أيسر علينا أن
نغير وجه الأرض ، وأن نربط القارات خفية برأً وبحراً وجواً ، وأن نحول الفحم
والحديد إلى ملايين الطرف ، من أن نخلع من أنفسنا غرائز الحشع والمقاتلة والقسوة
السارية في مستقبلنا بأجيال من الكفاح والفقر الدافع إلى التوحش . فنحن ما كتب
علينا أن نكون عليه ، وسنبقى كذلك حتى إذا ذهبت الضرورة الملزمة لنا .

نحن على حق إذن في أن نكون غير راضين ، ولو أنه من الخطأ أن نجد
فضل ذلك النصف من المدينة الفاضلة الذي منحنا العلم إياه ، ومن الخطأ ألا نفهم
أن هذا النصف هو الوعد بالنصف الباقي وأساسه . إننا نعرف في صميم قلوبنا أننا
حيوانات تعيش في الجنة غير جديرين بالجمال الذي تقع أعيننا عليه لأننا على
استعداد لتشويهه بالصناعات البشعة ، فحيثما حصلنا معاشنا أصبحت الحياة
مستحيلة . وكما تبدد الجمال كذلك نسيء استعمال المعرفة ، لقد ضاعفنا قوانا
مائة مرة ، وأضفنا إلى أجسامنا كثيراً من الأذرع ، غير أن خططنا تكاد تكون
من الهوان وضيق الأفق كما كنا نعيش في الجهالة والقدارة . إننا أقزام روحية في
هياكل ضخمة هائلة . لقد حلت المدينة الفاضلة في كل مكان ما عدا نفس
الإنسان .

من أجل ذلك فإن هذه المدينة الفاضلة المتواضعة التي ننسج خيوطها الآن

(١) سلامبو Salambo قصة تاريخية كتبها فلوير عام ١٨٦٢ . وتطور وقائعها
في مدينة قرطاجة التي كافتت ضد جند من المرتزقة . ووقع قائد الجند في حب سلامبو وهي عادة حياء
من قرطاجة وابنة قائد مشهور . وذهبت سلامبو ليلا إلى خيمة ماتو قائلة المرتزقة لتحصل على القناع
المقدس الذي سرق من المدينة . وتنتهي القصة بمقتل ماتو ، وموت سلامبو (المترجم) .

بالأحلام اللطاف لن ننظر في إعادة بناء الطبيعة ، ولا في « بسط مملكة الإنسان »
(لأن فردوس سيكون قد تحقق) ، بل في صياغة أنفسنا صياغة جديدة ، وبناء
عقولنا وإراداتنا حتى تصلح لسكنى عالم أفضل . صاف صفاء معرفتنا وقوى كقوتنا .
ولما كانت « الطبيعة البشرية » والجهل الإنساني هما السبب في خراب كل مدينة
فاضلة . فنسعى أولاً إلى تطهير قلوبنا وعقولنا ، ومن الأرجح أن كل شيء
آخر سيقبل علينا .

فلنجلس هنا تحت ظلال هذه الشجرة ، ولنستلم لأوهامنا بينما ترح
الأطفال فوق المروج الخضراء .

٢ - العمدة يستيقظ

أيقظ العمدة مبكراً شروق الشمس التي ألقّت أشعها على أذنه ، فاستعاد
الوعي رويداً رويداً ، وحال لون « البيت الأبيض » ، وأقنعه النهار الطالع بظهور
النور . وحاول النوم مرة أخرى ولكنه لم يستطع . ثم أخذ يفكر لأنه لم يجد
أفضل شغلاً للوقت من التفكير .

قال لنفسه : « يا إلهي . أنا العمدة . كيف بلغت هذا المنصب ؟ » أي حظ
هذا . وأتى مصادفة . لو أنني لم أعرف تومي بريك . . . لقد كان حياً منه أن
منحني التعيين . ولكن لماذا لم أعرف منذ عشر سنين مضت أنني سأحكم مدينة
كبرى ؟ لعلّي كنت قد أعددت نفسي . ما أشق هذا العمل . إنه أسوأ من إدارة
خط سكة حديدية ، أو تربية أسرة . هذا إلى أنني لا درية لي على الإطلاق .
قلما قرأت كتاباً في حياتي ، وها أنا ذا الآن رئيس للمليون من الرجال والنساء . إن
ما أفعله يرفع أو يهدم آلافاً ، وسيؤثر في أطفال لم يولد أجدادهم بعد . ومشكلاتهم
لقد بدأت أضيق بها : ترحيل ، رشوة ، تطعيم ، رشوة ، تمويل ، رشوة ،
تطعيم ، رشوة ، تسويق ، رشوة ، رشوة تطعيم ، تطوير رشوة ، تطعيم ،
رشوة ، بناء ، رشوة ، تطعيم ، رشوة ، تنظيف شوارع ، رشوة ، تطعيم ،
رشوة ، صحة ، رشوة ، تطعيم ، رشوة تعليم ، رشوة . . . أوه . . . إن المهمة
كبيرة جداً بالنسبة إلي . إنها مهمة تحتاج إلى مائة رجل . لن أستطيع القيام بها
وحدى . »

وارتفعت الشمس في السماء وسطعت في بشر على أنفه . وتثاءب العمدة ،
ثم جلس في الفراش ، وهز رجليه . وفجأة أشرق وجهه .

« إني أعرف ما سوف أعمله . سأخرج الساسة عن صوابهم . إنه شيء
لم يعمل قط من قبل . سأدعو أكبر العلماء من جامعاتهم ، وأكبر الممولين من
مصارفهم ، وأكبر المرابين من مدارسهم ، وزعيمات المرأة من منتدياتهن ، وأكبر
المخترعين من معاملهم ، وأكبر المقاولين من أندية الرياضيين ، وأكبر زعماء العمال
من رحلاتهم - سأدعوهم إلى قاعة الاجتماعات في المدينة ، وأطلب منهم مساعدتي .

« يا ربى . لقد سئمت الساسة . إنهم لا يودون عمل أى شيء ، بل يرغبون
في الحصول على كل شيء . لا يريدون الأعمال بل يطلبون المرتبات . وهناك
عشرة من هؤلاء الساسة لكل عمل أطرحه ، ولا يكاد يعرف أحدهم شيئاً عن
العمل الذى يظن أنه يرغب فى عمله . لقد ضقت بهم فرعاً . »

وتحرر العمدة من جميع ملابسه ، ووقف بشجاعة أمام الشمس ونخاطب
أرواح الهواء :

« وبعد ، فى المدينة رجال عظام . فهناك فوق التل بعض العلماء معروفون
فيما يقال فى جميع أنحاء العالم . ويوجد هنا مدير و بعض المصانع الكبرى العالمية .
وفى المدينة رجل واحد هو رجل حكم (١) . فلماذا لا نستفيد بعقله؟ لن أستطيع
إغراءهم بالسعى إلى المناصب ، وبخاصة أفضلهم ، ولن أستطيع حتى إقناعهم
بالتعيين فى المناصب ، لأن المرتبات ضئيلة جداً . ولكن إذا قلت لهم : «أيها السادة .
إني أحتاج إلى معونتكم ، أفلا تقبلون وتجمعون أنفسكم فى مجلس ينصحنى؟» -
أظن أنهم يرغبون فى منح المدينة بعض وقتهم . وعندى سلطة تعيينهم كمجلس
للإصلاح المدنى »

وعندئذ ركع العمدة ودعا الله قائلاً :

« يا إلهى . امنحنى القوة . »

(١) يميز المؤلف بين السياسى politician ، وبين رجل الحكم statesman ، فالأول
لا يعرف صناعة الحكم ولا الإدارة وكل بضاعته الخطابة والظفر بالمناصب والسلطان والمال وتسخير
الجمهير لأغراضه ، والثانى عالم متخصص فى فن الحكم (المترجم) .

٣ - المجلس الكبير

وسرت أنباء المجلس الكبير الذي ألفه العمدة في أنحاء المدينة كالكرة تدرع الملعب . وارتعش الموظفون في مناصبهم ، وعجبوا كم يطول بهم الوقت الآن في وظائفهم . ولكن كل شخص آخر كان مسروراً . حتى الجهاز السياسي أعلن عن حماسه ، ولكنه تحدث مع « صاحب الشرف » (١) حديثاً خاصاً عرفوه: فيه أنهم لا يحفلون بهذه الخطة لإصلاح الشعب ، ما دام « الحزب » organisation لم يمس ، ولم يصب بشيء ، ولا تزال رقابته موجودة .

واجتمع المجلس في قاعة هادئة للاجتماعات وضعتها الجامعة تحت تصرفه . ومثلت الصحافة تمثيلاً واسعاً ، أما الجمهور فطلب إليه بأدب أن ينصرف ، إذ حيث يوجد الجمهور تكثر الخطابة . وبلغ عدد أعضاء المجلس خمسين ، وكانوا جماعة من كل لون وجنس وفن ، ولكن كل رجل وامرأة منهم كان متميزاً بعمل خاص . كان فيهم الأستاذ جورمان البيولوجي الكبير ، وستوبوردج جورمان المالي المستبد . وكان من بينهم فليكس شراوس رجل البر والإجسك ، وآرثر توكنز محافظ إحدى المدن الغربية . ثم هنري هوبرت . المهندس ، وإدوارد هيوز المحامي وكلاهما مشهور بتبريزه كموظف في مجلس الوزراء . وكان من بينهم ثيوسن الاقتصادي ، وتاوسون العالم النفساني ، وولبرت المهندس المعماري . ومنهم أيضاً الدكتور موى الطبيب ، والصاغ جورج وهو مهندس آخر . ثم ماتيو جرين زعيم العمال ، وإجبرت جراي صاحب مصنع . وكان فيهم زعيم السود الكبير بودوسي ، والحفار المشهور لمبرج . وجلت السيدة: الموسرة: ملدام ليرد كروكسي إلى جانب فاني كوان المرأة البسيطة التي نظمت التعليم الراقى لشغل الإبرة . وكنت ترى جنباً إلى جنب الشاب جون ستونمان وارث الملايين ومورس هليز الزعيم الاشتراكي . واندماج راني ستيفن ومارشال لويس بسرور مع مونسينيور أفيلا ودكتور إمرسون . أما الأسقف بويلنج المحافظ على تقاليد الكنيسة فقد صافح لأول مرة في حياته كبير الموحدين (٢) Unitarian جيمس هنري هاوس .

(١) المقصود العمدة (المترجم) .

(٢) الموحدون فرقة مسيحية انشقت سنة ١٧٧٣ على الكنييسة الإنجليزية وكانت تنكر التثليث

وتذهب إلى أن الله واحد أحد في ذاته وصفاته (المترجم) .

ولم يكن بينهم تجار ، أو متعهدون realtors ، أو سياسة ، أو أدباء ، أو فلاسفة .
ثم إن العمدة خاطبهم متجملاً بالحياء قائلاً : « أيها السيدات والسادة ،
لقد دعيتم إلى هذا المجلس لأن مدينتنا أصبحت من الاتساع بحيث لا يستطيع
أن يحكمها بحكمة رجل واحد . فقد نمت إلى حد كبير لا يتيسر معه أن يديرها
عدد من الرجال مختارون لمهارتهم السياسية أكثر من معرفتهم الاقتصادية أو قدرتهم
الإدارية . ولقد حان الوقت الذي يجب فيه أن تسخر جماعاتنا الكبرى ما يوجد
عندها من ذكاء وخلق .

« إننا في حاجة إلى إرشادكم ، فادرسوا مشكلاتنا بعناية ، وافحصوا
توصياتكم جيداً ، ولتكن هذه التوصيات في حدود الطاقة البشرية وفي نطاق
قدرة المدينة المالية . أما من جهتي فأني أعد بتأييد كل توصية بكل ما لدى
من نفوذ مادامت هذه التوصية لا تعارضها أقلية كبيرة سواء من المجلس أو الجمهور .
ولكني لا أعتقد أنكم ستواجهون أي عداء كبير ، فهذه المشكلات الخاصة
بالإصلاح المدني ليست أموراً سياسية ، وليست فيما أفترض أموراً تختص بالتشريع
الطبيعي . إننا نقف معاً في فوضى ، ويجب أن نتحرك معاً نحو السلامة . والآن
المدينة مدينتكم ، وعليكم إصلاحها . »

وساهمت الصحافة عند هذه النقطة الحرجة مساهمة فعالة في أعمال
المجلس الكبير . كان من اليسير ومن الطريف السخرية بالمشروع - أن يصوروا
العلماء الحجولين والمهملين صوراً كاريكاتورية ، وأن يتنبأوا بأنه لا خير يرجى
من مثل هذا المجلس المتنافر ، وأن يمثلوا الأعضاء كقديسين يريدون أن يثقلوا
بفضائلهم الأخلاقية على شعب يوثر حياة مستهترة ويتصنع فيها الندم . ولكن
العمدة كان قد عين كل صاحب جريدة كبرى أو كل محرر معروف في المدينة
في عضوية المجلس ، فكانت ضربة عبقرى أظهرت قيمة التدريب السياسي .
وتشجعت الصحافة بهذا الاعتراف فهضت لانتهاز الفرصة ، ورأت أنها يمكن
أن تصبح ، هنا كما تصورها الناس دهرًا طويلاً ، أعظم وسط تعليمي في العالم .
وأرسلت الصحافة أحسن محرريها لكتابة القرارات ، وقدمت كل تأييد ممكن
للمشروع العظيم .

وفي أثناء ذلك كان الساسة يهتمون ، وأعاد المقاولون النظر في مواصفاتهم
ومكاسبهم ، ورسم الشيوعيون صوراً غير لائقة لموريس هيلير، بل إن الجمهور لم
يكن واثقاً تمام الثقة بالاهتمام بهذا المجلس المؤلف من الفطاحل ، وببليت أول توصيات
أقرت بعد أسبوع من المداوولات أفكار الجمهور ، ذلك أن الفرع البيولوجي
من المجلس أصدر قراراً في جانب تحديد النسل : الأصحاء عقلياً وجسمانياً هم
الصالحون وخدمهم للإنجاب . وانتشرت رويداً رويداً موجة من الاحتجاج في
أحاء المدينة . من هم أولئك الرجال والنساء ، هؤلاء « الخبراء » والرأسماليون
والاشتراكيون والمفكرون حتى يحق لهم أن يخبروا الشعب صاحب السلطان أن الأبوة
مزية أكثر منها حقاً مكسوباً بالوراثة ؟ ولو أن الصحافة لم تنشر التوصية الأولى
كاملة ، لكان من الممكن أن يحدث ضرر عظيم . وكان الاقتراح يجري ببساطة كالآتي :
« أول قرارات المجلس أن الإصلاح يجب أن يبدأ بالاحتفاظ بصفات
الجنس الجسدية والعمل على تحسينها . فلا يمكن أن نتقدم كما نرجو إلا إذا
استخدمنا كل وسيلة ممكنة لتشجيع الأصحاء على النسل ، ووصرف قوى العاهات
عن إدامة عائلتهم الوراثة .

« ومع ذلك فلا حاجة إلى تشريع مانع حتى في هذا الأمر الأساسي ،
بل نود فقط أن نقترح سبيلاً يسلكها جميع العقلاء من الرجال والنساء . ونحن
نؤثر أن نعتمد على محض إرادتهم الحرة على محاولة إرغامهم بالقانون . وسنقصر
الإكراه على أنفسنا فقط .

« وبناء على ذلك نحن أعضاء هذا المجلس الإصلاحى نتعهد لأنفسنا ،
ويقطع أبناؤنا (برضاهم) الذين في سن الزواج على أنفسهم عهداً بالامتناع عن
التسل إلا بعد موافقة الأطباء المعينين لهذا الغرض بواسطة الاتحاد الأمريكى الطبى .
ونحن ندعو الجماعات والأفراد إلى إعلان قبولهم هذه القاعدة . ونحن واثقون من
أن أذكى هيئات المجتمع ستكون أول من يتعاون على تنفيذ هذا الاقتراح ،
ونتطلع إلى هيبة مثلهم للتأثير في الجميع .

« ونحن نوصى المصابين بعاهات وراثية بحرية الزواج ، وسوف يشجعون
على الحصول على طريقة لمنع الحمل من الأطباء المرخصين .

« ونوصي أكثر من ذلك بأن من يقبل هذه القاعدة ويراعها سيكون كافياً بمنحه تأميناً كبيراً ضد الحوادث والمرض والبطالة والشيخوخة والموت . وبمنح معونة أمومة مالية لجميع النساء اللاتي يلدن طبقاً لهذه القاعدة . ونحن نشق في تشجيع المحسن أكثر من منع المسيء .

« وأخيراً ، وفوق كل شيء ، ندعو الصحافة وجميع مدارسنا وجامعاتنا إلى نشر المعلومات عن هذا الموضوع : بأن يبينوا لكل قارئ أن تقدم الجنس يتوقف على الصفات المتحسنة في كل جيل في الصحة والعقل . وأن ينشدوا من وطنية الجمهور مزاولة هذا الكف النفسى المعتدل كأول خطوة في إصلاح مدينتنا .

وبلى ذلك في ترتيب موثر توقيعات جميع أعضاء المجلس ما عدا واحداً .

وبعث هذا الإعلان الأول سخرية النقاد المتشككين ، فابتسم بعضهم من الأمل الساذج لقوم ظنوا أن في استطاعتهم إصلاح المدينة بنشر المعرفة . وذكر أحد النقاد تعليق فزديك الأكبر على وزير التربية الذى كان قد اقترح إصلاح البشرية عن طريق المدارس العامة : « آه يا عزيزى زولتر ، إنك لا تعرف هذا الجنس الملعون كما أعرفه » . ولكن كثيرين من النقاد ابتهجوا بهذا التصور الحديد للحكم كترية ، وهذا العزوف عن التجديد والإكراه ، وهذه الخطة المتفائلة بدفع التقدم الإنسانى لا بالكشف عن المساوىء بل بتشجيع جميع البدايات السليمة .

ثم جاءت تعهدات بالقبول ، وعقد أطباء المدينة اجتماعاً خاصاً كرسوا فيه أنفسهم بالإجماع . ثم تبعهم أعضاء الاتحاد الأمريكى لأساتذة الجامعة في المدينة ، وبعدهم بقليل اتحاد المعلمين . وانضم بعد ذلك نقابة الصحافة وأصحاب الصناعات الكيماوية ، واتحاد الموسيقين . . . وأعلنت جماعات كبرى انضمامها . وأخيراً اقترح اختياري بتعهد تناسلى من جميع الطلبة الحاصلين على دبلومات من المدارس والكليات . وإذ لى هذا الاقتراح تأييداً عاماً ، فقد أصبح التعهد الاختياري المؤيد مع ذلك بقوة رأى العام جزءاً من كل وثيقة بالانتساب إلى المدينة . وهكذا كسبت المعركة الأولى .

٤ - الحكم بالترية

بعد أسبوع قدم قسم التربية في المجلس التوصية الثانية إلى العمدة ، ونشرت في الصحف . وكانت كما يلي :

« نوصى بأن ينظر إلى حفظ الصحة العامة ، وأكمل تربية ممكنة للأطفال والمراهقين على أنها أول مهام الحكومة . ونقترح إنشاء مستشفيات بلدية يعالج فيها كل مرض علاجاً كاملاً بالأجر .. ونوصى بأن تلتى العناية بالجسم في مدارسنا من الملاحظة والتشجيع ما تلقاه تنمية العقل .. ونعتقد أن صحة الأمم أهم من ثروتها ، وأن سر السعادة في الصحة .. إننا نتطلع إلى تنمية كل رياضة صحيحة ، وإلى إلزام التعليم الخاص بجميع فنون النظافة .. ونوصى بعدم تشجيع المشاهدة السلبية للألعاب ، وأن تقدم جميع التسهيلات لمشاركة الجميع مشاركة فعالة في الألعاب . » ونوصى بأن يكون فخر المدينة في إنفاقها بسخاء على التربية . ونحث على الزيادة التدريجية في معدل أجور جميع المعلمين حتى ترتفع مهنة المعلم إلى أرفع المراتب وتجذب أفضل الناس .. ونوصى برصد منح مدرسية يستعين بها الطلبة المعدمون حتى يتابعوا التعليم العالي ، وحتى تستفيد المدينة من جميع المواهب الكامنة في مواطنيها . وننصح برصد مبالغ أخرى للبحث العلمي وتهدف إلى تنمية الاختراعات التي سوف تجعل القوة الميكانيكية أرخص من قوة العضلات في الإنسان ، فتضع بذلك حداً للرق الإتسائي .

« ونوصى بأن تحذف من مدارسنا كل المراجع المثنية على الحرب ، وأن يشجع في الناس ميلهم الطبيعي إلى السلام ، وأن يعتمد عليهم في تأييد جميع الوسائل اللازمة للدفاع .

« ونوصى بتشجيع المدارس الخاصة ، والتجارب في التربية . وننصح بالحرية الكاملة في القول والصحافة والاجتماع والعبادة باعتبارها أموراً ضرورية للخلق الوطني القوى . ويجب أن يوازن امتداد الدور الذي تلعبه المدينة في حياتنا بأقصى ما يمكن من حرية العقل .

« ونوصى بأن تكون المدرسة هي البيت الفكري للمجتمع ، فتفتح أبوابها أثناء الليل وأطراف النهار ، وتقدم جميع التسهيلات للنمو الجسماني والعقلي .

« ونعتقد بأن مدارسنا يجب أن تضطلع بمسئولية التكوين الخلقى ، حتى توازن فساد القوى والنظم الأخلاقية الأخرى . وأن أى تربية لن تكون كاملة حتى يندرب الطالب على البصر بالقيم والنتائج الاجتماعية لرغبة الفرد ، وحتى تنمى فيه الاستعداد لتحديد سلوكه فى حدود صالح الجماعة بأسرها .

« ونحث أصحاب الصحف ومحرريها على الرقى بالصحافة باعتبار أنها وسط كبير للتربية العامة . وندعو المحسنين إذا لزم الأمر عن طريق نشر تزييه وبارز فى الصحافة إلى تمويل تعليم كامل فى العلم والتاريخ والأدب والفن .

« وأخيراً نوصى بأن يكون تعليم الشباب فى كل فرع بالأجر لكل راغب . وبأن طلبة المدارس والكليات يجب أن ينظروا إلى كل بداية على أنها مجرد معلم يرشد إلى تنمية النفس ، وبأن التربية يجب أن ينظر إليها لا على أنها مجرد مهمة وإعداد فقط ، بل أنها صلة ممتعة وزكية بتراث الإنسانية الثقافى .

ووقع التوصيات جميع أعضاء المجلس ما عدا اثنين .

وسر كل إنسان بهذه التوصيات ما عدا دافعى الضرائب . فقد ابتهج الأطباء بعناية المجلس بالصحة ، وتنفس الجمهور فرحاً عند علمه بأن المستشفيات لن تكون بعد ذلك معاملة لتشريح الفقراء أحياء . وكان المعلمون راغبين فى زيادة الأجور ، وأخذت أسرة كل معلم تنفق الزيادة المنتظرة فى الدخل . ورحب عباقره الشباب الكثيرون ممن كانوا يعدون الفقر العقبة الوحيدة فى الاعتراف بهم بالاقتراح الخاص بالمنح المدرسية . وقدرت الصحافة منزلة الدور الملقى على عاتقها . وسبح خيال الفتيان والفتيات فى بحيرات المدينة الفاضلة المتوقعة . ولكن تيودور بلاك رئيس اتحاد الملاك أرسل احتجاجاً أيده كل صاحب ملك . وإليك نصه :

« من الواضح أن مجلس الإصلاح الذى أنشأه العمدة بعد أن ضل سبيله فى أول تقرير له محاولاً إصلاح الجنس البشرى بأسره لا المدينة فقط ، قد وقع الآن فريسة المثالين السذج ، وأكبر الظن ضحية أبلغ الخطباء من بين أعضاء المجلس . وكنا نرجو أن يقصر المجلس اقتراحاته على حدود العقل والإمكان العملى ، ولكننا نرى الآن أنه بعد هذا التبجح كله لن نحصل إلا على مدينة خيالية (طوبيا) أخرى .

أما هذا المشروع الذى يجعل من جميع الطبقة العاملة حاصلين على الدكتوراه
فجدير بتفكير تلميذ فى المدرسة ، فكل صاحب عقل ناضج يدرك أن عدد
المناصب التى يمكن أن يستفاد فيها من التعليم العالى فى عالمنا الاقتصادى محدود
جداً . ونحن نرى الآن أن كلياتنا تخرج من الطلبة أكثر مما تستوعبه مجموع المهن .
فإغراق البلاد هذا الإغراق بذوى الدبومات فى الفنون إنما يعنى أن عدداً كبيراً
من هؤلاء المتخرجين حين لا يجدون مخرجاً لما تعلموه من لغة لاتينية وإغريقية ،
لن يتلاءموا مع مراكزهم فى الصناعة ، وسوف يعممون سخطهم الشخصى فى
تهيج ثورى . ولن ينصح أى مفكر بزيادة هذا الفيضان ، وكل موب محرب
ينظر الآن فى الطرق والوسائل المؤدية إلى تخفيضه .

إن توصيات المجلس تجرى فى تيار سياستنا الشائعة بتدليل الصغار . فكل
منا يشعر أنه مطالب بالثناء على خطايا الشباب الحديث - وأن يستخف بما فيه
من صلف ، وتحور ، وتطرف ، وانحلال خلقى . وكل أب يضيق على حياته
الخاصة كى يترك لأبنائه وبناته ثروة يضيعونها فى عيشة منحلة . إن هذه الكليات
التي نرسل إليها صغارنا تمثل هذه التضحية هي مجرد أنلية رياضية ومدارس
للإلحاد . فأن نقدم لشبابنا الملحد لا التعليم العالى الحر فقط ، بل حملات السباحة
والمكتبات هو أن نتقل من باب المستحيل إلى باب المضحك .

أبوجد أحد يوضح لنا من ينفق على هذا كله ؟ إن ميزانية البلدية الكبيرة
التي تنفق على المدارس والكليات تفرض الآن ضريبة هائلة على العقارات ، فما مصير
الضريبة إذا نفذت هذه التوصيات الحشعة ؟ فليحسب كل مواطن يرهق أرضاً
تكاليف هذه الأعاجيب ، ثم لينظر ماذا يبقى له حين تكون الحكومة الوطنية
قد سلخت دخله ، والمدينة قد فرضت عليه أن يدفع نفقة أكلاس من البلاشفة .
إننا نطلب من العمدة أن يضع حداً لهذه المهزلة ، وأن يعيد هذه التوصيات
إلى المجلس طالباً من أعضائه أن يجمعوا بأنفسهم الاعتمادات المطلوبة لمشروعاتهم .

المخلص

تيودور بلاك

٥ اشتراكية أصحاب الملايين

فتحت هذه الرسالة باب الانقسام في الرأي بالمدينة انقساماً أصبح أشد وأعظم يوماً إثر يوم . وعندما أعلن المجلس دون أن يرد على أي نقد تقريره الثالث ارتفعت أصوات التعليقات المعارضة . وانتشرت إشاعة تقول بأن التقرير كاذب أن يشطر المجلس شطرين . ولو حظ بالفعل أن سبعة أعضاء من الخمسين رفضوا توقيعه . وإليك بيان هذا التقرير :

« نحن نوصي بأن تحكم المدينة رقابتها على كل غذاء يدخل حدودها ، وأنها بالتعاون مع الصحافة ستنشر كل أسبوع قائمة بالأسعار ، وأنها ستتخذ الخطوات التي تمنع مضاعفة البيع بالتجزئة لضروريات المعيشة . »

« ونوصي بأن تستولي المدينة على جميع المرافق العامة وتديرها ، وأن تنشئ بنفسها محطات الكهرباء المائية hydro-electric plants ، أو تتعاون في استخدام الآلات المنشأة من الدولة . وأنها ستبيع التيار بتكاليفه لكل من يرغب في استخدامه حتى تتحرر المدينة من الدخان ، وحتى تصبح جميع الصناعات صحية ونظيفة . »

« ونوصي بأن تمتلك المدينة جميع خطوط النقل وتقوم بإدارتها ، وأن تكون زيادة التعريفات أو خفضها لتغطية تكاليف الإدارة الفعلية ، وأن تجرى هذه التسهيلات لتجنب الازدحام الحاضر البغيض ، ولسكنى السكان براحة في الريف . » ونوصي بتشجيع الشركات corporations التي تخضع أساليبها للإشراف ، والتي تحدد المدينة أسهمها وتضمها ، لتبنى عمارات ، وإذا أمكن مساكن مستقلة ، بإيجار معتدل ، حتى يمكن أن تتجدد مباحج البيت والأبوة ، وأن تستعيد الأسرة بعض منزلتها الأولى كمدرسة للأخلاق ومنبع للنظام الاجتماعي .

« ونتقدم بالشكر لأولئك المحسنين الذين يسروا وجود متاحفنا وفرقنا الموسيقية العظيمة orchestras ، ونأمل أن تمتد هذه المنح الخيرية إلى جميع أقسام المجتمع وطبقاته . ونحث على تنمية ما يجري العمل به الآن من ترقية فهم الفنون والاستمتاع بها وأن تغذي الذوق في جميع النفوس ذلك الذوق الذي يكشف عن العبقورية وذلك الإحساس بالجمال وهو أحسن ضمان لعظمة مدينتنا . »

وقوبلت التوصية الثالثة بالفتور ، أو محي أثرها بللمح الضعيف ، أو هوجت بازدياء . ولما كانت اقترحاتها تستهدف نفع المجتمع بأسره أكثر من أى قلة منظمة أو بارزة ، فلم يعبر إلا القليل عن استحسانه . أما العناية التى أثارها التقرير غير العادى الأول فبيلو أنها لن تعود ، فلم يكن اليسير بعث حماسة الجمهور بأمور كالنقل والغاز . لأنه كما أن حريق منزل يجتذب لمشاهدته جمهوراً أكثر من بنائه ، كذلك لم يكد المجلس يشرع فى تفصيلات الإصلاح حتى خفت صوت الاهتمام الشعبى . وإذا كان هناك إجماع عام على المساوىء التى تقاسى منها المدينة ، وكانت هناك مئات من الخطط لحلها ، فلم يكن أى اقتراح يتوقع أن يسر منه أكثر من نفر ضئيل من أولئك الذين يرغبون فى التغيير .

أما كبار تجار أغذية الحملة الذين كانوا يبيعون لتجار القطاعى فى المدينة ذلك الطعام الذى كانوا يخزنونه كوسيلة بارعة لرفع الأسعار ، فقد ضغطوا على قادة الحزبين ليتبرأ من المجلس ويحط من شأنه . أما شركات الغاز والكهرباء الكبرى ، التى كان ما تجعل منه أقل من ذلك ، فقد كانت شكواها أقل ، وأعلنت أنها لا تمانع فى شراء البلدية للتيار بشرط أن يسمح لها بتحديد الثمن . واقتبست بعض خطوط النقل كما زعمت توصية المجلس « لزيادة التعريفة » ، واشتد عداؤهم آلاف الناس عند قراءتهم هذا الاقتراح للمجلس . أما المساهمون (بعضهم كان قد ربح من قزاز إشكومنز و بمقتضاه: حددت أسهم السكك الحديدية وضمنتها الحكومة الوطنية) فقد احتجوا على ضمان أو تحديد البلدية لأسهم المبتاع . وابتسم العزاب من الاقترحات القاضية بأن يكون إنجاب الأولاد بدعة مرة أخرى . وخلال هذه المناقشات كلها دار بحث واحد هام : كيف يمكن أن تمول هذه المدن الخيالية ؟

٦ - تمويل المدينة الفاضلة

بعد شهر من تاريخ اجتماع المجلس الكبير قدم تقريره الرابع والأخير ثم انفض ، واستغرب أهل المدينة لتوقيعه كالتقرير الأول من جميع أعضاء المجلس ما عدا واحداً ، وهذا نصه :

« نوصى بامتداد وتحديد الديمقراطية بحيث تعنى الفرصة المتكافئة للجميع

في أن يجعلوا أنفسهم صالحين للمناصب الكبرى ، وقصر المناصب على اللائقين .
ونحث على إنشاء مدارس للإدارة السياسية في جامعاتنا ، وأن يكون القبول فيها
حراً لكل من ينجح في اختبارات الالتحاق سواء أكانوا من خريجي الكليات
أم لم يكونوا . وأن يكون التعليم فيها كاملاً وعملياً كالمطلوب اليوم ممن يريد أن
يمارس مهنة الطب . ونقترح على أحزابنا السياسية أن تعين أكثر فأكثر للمرشحين
في وظائفها الصغيرة: المتخرجين في مثل هذه المدارس الإدارية . وأن يقصروا
قصرأ تماماً جميع التعيينات في الوظائف الكبرى على الرجال والنساء الذين بعد
تخرجهم في هذه المدارس يكونون قد خدموا دورتين في بعض المناصب الأقل
مرتبة . كما نلتزم إعلانة « مكتب الأبحاث البلدية » حتى يمتد نشاطه فيشمل
دراسة الطرق الحديثة للحكم البلدي في أي مكان ، والمراقبة المتصلة لقرارات
كل موظف في خدمة المدينة .

« ولتحويل توصيات هذا التقرير وما سبقه نقترح ما يأتي : أولاً ضريبة
على الأرض غير المستغلة ، وأنواع الترف ، وجميع الهبات الخاصة والوصايا التي
تزيد عن قيمة معينة ، وعلى جميع الملاهي التي لا تساهم في النمو الحسي والعقلي
للمجتمع . وثانياً إصدار سندات بلدية ذات أجل طويل ، حتى تتحمل الأجيال
التي ستفيد من هذه التحسينات نصيبها من التكاليف .

« وحيث كنا نعلم أن هذه المصادر لن تكون كافية ، فإننا نقترح أن يشترك
القادرون على الدفع في « رصيد الإصلاح » Reconstruction Fund على أن
تديره هيئة من غير السياسيين ينتخبهم أصحاب الهبات وهذا المجلس . ونحن نرجو
من الصحافة أن تعين في رفع هذا الرصيد إلى رقم يتناسب مع ثروتنا . كما نتوجه
إلى ما نعرفه في قومنا من بعد النظر ومحبة للوطن كي تحرك هممة القادرين والأغنياء
من الرجال . سيتحقق الإصلاح بدونهم ولكن ببطء ، ويمكن أن يتم بهم في
جيل واحد ، فنجعل مدينتنا تنافس عظمة أثينا وفلورنسا وروما .

« وللتعبير عن اهتمامنا الخاص بهذا الموضوع نحن ، أعضاء هذا المجلس ،
نتعهد بدفع خمس دخلنا السنوي مدى خمس السنوات التالية لهذا الرصيد .

٧ - ولكن في الواقع

من كان يستطيع مقاومة هذه الفقرة الأخيرة ؟ بضربة واحدة استعاد المجلس ما فقد من اهتمام الجمهور وتأييده . ولما كانت الأراضي الصالحة وغير المستغلة في المدينة قليلة ، فقد سخر حتى تيودور بلاك وايتسم . ولكن ، « خمس دخلنا الكلي ! » كان ذلك منحة ضخمة ، لأن المجلس كان يضم طائفة من أغني الناس في البلاد ، وحتى أعضاؤه الاثراكيون كانوا أغنياء . فلا ريب أن تكون المدينة الفاضلة قد بدأت .

وأصبح الذين دافعوا عن المجلس منذ البداية في ظل هذه الظروف المشجعة أكثر شجاعة في ثنائهم ، فأبرزوا ما في الاقتراحات من اعتدال ، كما وضحوا هذه الحقيقة وهي أنه ما عدا بعض الاستثناءات القليلة قد أيد هذه التوصيات المحافظون والمتقدمون من كل صنف وأمة وعرف . ونشرت الصحافة التقارير الأربعة معاً حتى يتمكن القراء من البصر بالمجتمع المشرق السليم كاملاً ، ذلك المجتمع الذي كان خلدته في ضمير أصحابه . وأصبح من الواضح أن ما كانوا يحاولونه ليس مدينة فاضلة آلية ، ولا جنة فيها الظل الممدود نعمة للماشين أو الطائرات للزاهدين في المشي ، بل كانت في أساسها أكثر من ذلك ، الرقي بالنسيج الجسمي والعقلي والخلقي للسكان . إن جنساً ينشأ من هذه الأساليب جدير أن يخلق لنفسه مدينة فاضلة ، وأن يصبح قادراً على استخدام الآلات دون أن تستبده .

ومرة أخرى بتأييد الصحافة نما « رصيد الإصلاح » نمواً سريعاً . فتعهد كثير من الأفراد والأسر بخمس دخلهم لمدة عام بشرط إنفاقه على « التوصيات » . وحول أحد أعضاء المجلس بهدوء مبلغ خمسين مليوناً من الدولارات كان قد رصدها للتعليم العام إلى هذا المشروع . وأرسلت نساء حلين ، ووهب رجال وهم على فراش الموت أموالهم ، واستقطعت المنظمات مبالغ كبيرة من أسهم أعضائها الصغيرة . وبلغ الرصيد مائة مليون بعد شهرين من انفضاض المجلس .

وتطلعت جميع العيون إلى « مكتب العمدة » Board of Aldermen . ففي اليوم الذي كان على العمدة أن يقدم فيه التوصيات احتلت جميع المقاعد في الصالة والمقاصير ، وطفحت وجوه جميع النظارة بشراً وكأنهم كانوا يشعرون بأنهم

يشاهدون أول حادث دراماتيكي في الانتقال من « عصر الذهب » إلى « العصر الذهبي ». وقرأ العمدة جميع التقارير مبيناً أن كل اقتراح يجب أن يعرض كإجراء منفصل ، وطلب بلباقة الموافقة عليها جميعاً . كان أمله أن تستقر هذه الإدارة في ضمير مستقبل المدينة إذا أقرت هذه التوصيات ، وبدأ العمل في تنفيذها قبل انتهاء دورته .

فلما فرغ نهض عمدة قديم ، وتكلم معارضاً التوصيات فقال :

« يا صاحب الشرف ، إني أحكم على هذه التدابير بأنها تسلم دنيء للاشتراكية . ماذا دهي كبار رؤساء الصناعة الذين اتخذوا مكانهم في هذا المجلس حتى سلموا في كل نقطة للخطط الصيانية الصادرة عن أحلام الشيوعيين ؟ إني لأرى وراء هذه القرارات يد موسكو الحمراء ، والتأثير الخفي « للدولية الثالثة » . ومع أن بعضها حسن إلا أنني سأصوت ضدها جميعاً لأنني أحب بلادي ، ولن أرضى أبداً أن تخضع لنفوذ دولة أجنبية » .

وضحكت الصالة ، ولكن العمدة أنصتوا في وقار . ونهض أحدهم وسخر بأدب من الفكرة القائلة بأن المشروعات شيوعية . ولكن المتكلم الثالث نقل المناقشة إلى جو الخطابة . كان أبيض الشعر ، أحمر الوجه ككلب الصيد ، تقلب في مناصب مختلفة حتى بلغ المجلس البلدي . قال يزار كالرعد بحماسة :

« أيها السادة ، ليست هذه المشروعات تسلياً لروسيا فقط ، بل تسلياً لأصحاب المصالح الكبرى الذين سعوا طويلاً إلى التحكم فينا . فما هذا الشيء الذي يسمى « المجلس الكبير » إلا أن يكون نادياً للأغنياء ؟ أليست منحهم لجزء صغير من دخلهم طعماً يصيدون به المدينة كلها في أيديهم ؟ وما رعيدهم الكبير إلا أن يكون استغلالاً لمبلغ ضخم سينفق بوساطتهم لا بوساطتنا ، ليصوغوا المدينة على هواهم ؟ وما حديثهم عن شراء خطوط النقل إلا أن يكون حجة مزيفة لرفع التعريفة أو لشراء هذه الخطوط بالسعر الذي تفرضه هذه الخطوط ؟

« ثم لاحظوا أيها السادة هجومهم غير الوطني على الحرب . أقدم إلينا قط اقتراح يمثل هذه السفاهة يذهب إلى أننا لن نقول كلمة طيبة لشبابنا المقدام وقوادنا العظام الذين ظفروا باستقلالنا ، وحفظوا اتحادنا ، وجعلوا العالم بالديمقراطية آمناً ؟

« وفي جميع هذه التوصيات لا توجد كلمة واحدة عن الدين . فكروا في ذلك
أيها السادة ، لا توجد كلمة واحدة عن الدين . على العكس اقترح ملحد بأن
الدين أخذ في فقدان تأثيره الأخلاقي . وهذه الفتيات في المدارس سيستبدلن
بالدين علم الأخلاق . أوه . علم الأخلاق ethics . هلا عرفتموه ؟ — علم
الأخلاق ؟ ما علم الأخلاق هذا ؟ إنني أعرف ماهو ، إنه مشروع لتحطيم الدين .
إن نصف أعضاء ذلك المجلس ملحدون ؛ أو نفعيون وهو نفس الشيء ؛ أو
يهود وهذا أسوأ . لقد عرفت منذ البداية أن كثيراً من أعضاء المجلس يهود . أكرر
لكم القول ، كثيراً جداً من اليهود .

« وأنت يا صاحب الشرف ، كيف استغفلوك ؟ أنت الذي نشأت في
الشوارع كالباقين منا ، ثم ارتفعت إلى منزلة العمدة الحليفة لمدينة كبرى . إنهم
يقولون في وجهك إن جميع العمد الآن يجب أن يتعلموا في تلك الجامعات الكبرى .
هه .. هؤلاء المعلمون في المدارس هم الذين سيخبروننا كيف ندير المدينة، إيه ؟
إنهم يريدون تحطيم الديمقراطية التي حارب آباؤنا من أجلها ، والتي حفظها
إخواننا في الميادين الفرنسية . إنهم يريدون انتزاع حق المنصب من العمال الأمناء .
يا للجنل منهم . عار علينا جميعاً كجماعة من المغفلين إذا صوتنا لمشروع واحد
من هذه القوانين ، هذه المشروعات الخائنة التي ستخرب حكومتنا وتجلب الحزى
لمدينتنا الجميلة .. »

واستمرت المناقشة على مشروعات القوانين عدة أيام .. وناضل العمدة
في صبر للموافقة على كل قرار ، وأيده كثير من العمد السابقين ، على حين كانت
القاعة المزدحمة تصفق بشدة لكل خطبة مؤيدة أو تصويت موافق . وبعد نهاية
أسبوع صدر القرار الكبير ، وأخذت الأصوات على كل مشروع قانون على حدة ،
وعاد الجمهور إلى بيته . ولم يوافق على أي قرار .

دع عنك هذا كله ، فإن ظل هذه الشجرة بديع ، وما أمتع أن تسمع
ضحكات هؤلاء الأطفال .

الجزء الثامن

الدين : محاولة

القضيل الحارثي والعشرون

على المروج

اشخاص الحوار

أندرو : ملحد	ماتيو : كاثوليكي
أراييل : مضيعة	بول : بروتستانتى
كلارنس : لا أدري	فيليب : مؤرخ
انستر : يهودية	سيدا : هيدوكى
سير جيمس : عالم أنثروبولوجى	ثيودور : اغريقى
كونج : صينى	وليم : عالم نفسانى

تنقسم المحاوره ثلاث جلسات : على المروج ، وحول المائدة ، وفى المكتبة -

نشأة الدين

١١ - الأيمية Animism

آرييل : فلترتب أنفسنا فى حلقة حول هذا الحوض من زهر التوليب .
سنكون فرسان الحديقة المستديرة ، وقد حلقوا أن يدافعوا عن الإيمان - أو يهاجموه .
تعال يا ماتيو ، يا تابع المسيح ، وأنت يا أندرو ياملحد ، ساعدانى على نقل هذه
الأرائك . ومن يجب منكم غروب الشمس فليجلس هنا فى مواجهة الرب الأعظم .
هناك ، أبتدىء ؟

بول : كما تريدن منا ، يا آرييل ؟

آرييل : لقد طلبت منكم المحبىء والتحدث عن الدين ؛ فكم يهمنى ، وكم
يدهشنى ، ولعل بعض الناس يهمنهم ويدهشهم كذلك . يجب أن تفسروا كيف
نشأ الدين ، ومعنى صورته المختلفة وقيمتها ، وما موقفه اليوم ، وماذا سيحدث

له في أمريكا . كذلك يجب أن تخبروني عن النفس أخالدة هي ، وعن الله
أوجود هو ؟ هذا كل شيء .

كلارنس : يمكن أن نفعل ذلك بإيجاز شديد - إذا وافقت .

آريل : ولكني أسر جداً حيث أجدهم مخالفاً . لقد فنتكم بهذا المكان
لأنني أعلم أنكم جميعاً مختلفون . إنني أحب أن أراكم تتناقشون معاً في وفاق ، ولو أن
كلامكم على يقين من أن الباقيين على خطأ فظيح . كيف سنبدأ ؟

أندرو : بأن نعرف اصطلاحاتنا . ماذا تعنون بالدين ؟

آريل : أوه . . التعريفات متعبة جداً ؟

فيليب : لقد جمعت ذات مرة تعريفات الدين ، ولعلني أذكر بعضها .
يسميه شلير ماخر شعوراً بالاعتماد المطلق . ويسميه هافلوك إليس : « إحساساً
مباشراً intuition بالاتحاد مع العالم » (١) . ويقول جلبرت موراي « إنه ذلك
الذي يجعلنا نتصل بقوى العالم العظمى » (٢) . ويصفه شبنجلر بأنه « الميتافيزيقا
التي نعيشها ونجربها - أي ما لا يمكن أن نفكر فيه كيقين ، والأعلى من الطبيعة
كواقع ، والحياة كوجود في عالم ليس واقعاً ولكنه صادق » (٣) . ويعتقد البروفسور
شوتويل أنه : « ليس شيئاً سوى الاستسلام للسر mystery » (٤) . ويعرفه
إفرت دين مارتن بأنه : « التقدير الرمزي لسر الوجود في عبارات تدل على مصلحة
الإنسان كذات » (٥) ويحده ريناخ بقوله : « الدين مجموعة من الشكوك Scruples
تعوق حرية عمل ملكاتنا » (٦) .

ماتيو : هذا أكثر التعاريف سخرية وإيذاء سمعت به .

وليم : إنها جميعاً نماذج من الغموض .

Goldberg, I., Havelock Ellis, p. 138. (١)

Murray, G., Four Stages in Greek Religion, p. 95. (٢)

Decline of the West, vol. ii, p. 217. (٣)

Shorwell, J.T. The Religious Revolution of Today, p. 153. (٤)

Martin, E.D. The Mystery of Religion, p. 378. (٥)

Reinach, S., Orpheus, a History of Religion. p. 3 (٦)

فيليب : أحب أن تعريف تيلور يروقك أكثر منها ، فهو يسمى الدين بكل بساطة : « اعتقاد في كائنات روحية » ..

السير جيمس : ولكن بعض الآلهة يتصورها الناس مادية .. وليس الاعتقاد كافياً ، إذ يجب أن تضيف العبادة ..

فيليب : كيف تعرف أنت الدين ، يا سير جيمس ؟

سير جيمس : الدين استعطاف أو استرضاء لقوى أعلى من الإنسان ونعتقد أنها توجه طريق الطبيعة وحياة الإنسان أو تتحكم فيها (١) ..

آرييل : أنغى أنه عبادة كائنات علوية ؟

السير جيمس : أشكرك على هذا الدرس في الإيجاز ..

آرييل : حسناً ، كيف نشأ الدين إذن ؟

أندرو : لم يجب عن هذا السؤال أحد بأفضل مما أجاب عنه لوكريتيوس : « كان الخوف أول شيء ، خلقه الآلهة في العالم » .. فقد كانت الحياة البدائية مخوفة بآلاف المخاطر ، وقل أن كانت تنهى بالفساد الطبيعي ، إذ تحمل الشدة أو المرض بالناس فتضفيهم قبل أن يبلغوا الشيخوخة بزمان طويل . واليوم حين يعجز المتوحش عن فهم الظواهر يشخص أسبابها ، ويفترض بالقياس إلى بدن نفسه أن روحاً تسكن في كل شيء ، طبيعي ، وهي المسئولة عما يفعله هذا الشيء .. ألم تر قط الدهش والخوف في عيني كلب يرى ورقة يدفعها الريح في طريقه ؟ إنه لا يستطيع أن يرى الريح ، وإني لأراهن أنه يتخيل وجود روح في الورقة تجعلها تتحرك . إنه كلب متدين ، وأنيمي (٢) بدائي . فهذه هي كيفية نشأة الدين ..

آرييل : هل نصدقه يا سير جيمس ؟

سير جيمس : إذا شئت . إن ما يسميه أندرو المرحلة الأولى كان في

(١) Frazer, Sir J., The Golden Bough, p. 50.

(٢) اصطلاح أنيمزم animism ، وأنيمي animist ، من الاصطلاحات التي يصعب ترجمتها . لذلك آثرنا إبقائها كما هي ، فنقول : أنيمزم أو أنيمية للمذهب ، وأنيمي لصاحب المذهب أو أحد أتباعه . أما ترجمتها بحيوية ، وحيائية واستحياء وغير ذلك فلا تدل على المعنى تماماً . والاصطلاح في الأجنبية من اللفظة اللاتينية anima أي الروح أو النفس وكتاب النفس لأرسطو مشهور ، ويسمى de anima أي في النفس (المترجم) .

الأرجح مرحلة ثانية ، تصور الناس فيها أن البحر العظيم ذا الطاقة المولدة للعجائب ،
والتي عبدها أهل جزر الملايو وسموها « مانا Mana » ، وهنود أمريكا وسموها
« مانيتو manitu » ، وهي مرحلة مقسمة إلى أرواح منفصلة تسكن الأشياء الفردية .
سيديا : كان ذلك الاعتقاد المبكر شديداً العمق ، ولا يختلف كثيراً عن
آخر اعتقاد للعلم الحديث من أن كل مادة طاقة .

سير جيمس : لا يزال الاعتقاد القديم بصحبنا بأساليب كثيرة . فقد
افترضوا قديماً أن الجبال والأنهار والصخور والأشجار والنجوم والسماء صور
خارجية للأرواح ، ولا تزال حتى اليوم نحب أن نشخص هذه الأشياء الطبيعية .
وكان الإغريق يظنون أن السماء بدن الإله أورانوس ، وأن القمر هيكل الربة
سيلين ، والأرض جسم جايا ، والبحر جسد الإله بوزيدون .

تيودور : لم يكن ذلك إلا شعراً يا سيدي بالنسبة للمثقفين من الإغريق .
سير جيمس : وكان في نظر أوساط الإغريق حقيقة حرفية ، ألم يكن
كذلك ؟ ولكن جميع الناس سواء في هذه الخاصة . كانت الغابات في نظر قدماء
الألمان والنرويجيين تبدو مملوءة بالسكان من الجن ، والأقزام ، والسحرة ،
والمرردة ، والمساخيط ، والخور ، والقفاريت - ولك أن تراه في رينجولد Rheingold^(١) ،
وبيرجنت^(٢) Peer Gynt . ولا يزال بسطاء الفلاحين في أيرلندا يعتقدون في
الخور ويخشون تأثيرها . ويعزو الهنود الأمريكيون في بعض الأحيان انحطاطهم
إلى هذه الحقيقة ، وهي أن الرجل الأبيض قطع الأشجار التي كانت أرواحها
تحمي الرجل الأحمر . وفي جزائر الملوك molucca يحتفلون بالأشجار المثمرة
كما يحتفلون بالمرأة الحامل ، فلا يسمعون باقتراب أي ضجة أو أي إزعاج
منها ، لأن الشجر كالمرأة الحامل الخائفة قد تسقط ثمارها قبل الأوان . وفي أموينا
Amoyna حين تتفتح حقول الرز تحرم الأصوات العالية في جوارها خشية
قلة المحصول وضمور العيدان قشاً^(٣) . وكانت في بلاد الغال غابات مقدسة

(١) رينجولد ، أوبرا لفاجر (المترجم) .

(٢) بيرجنت اسم دراما شعرية لإبسن ، اتخذ بطلها بيرجنت وهو شخصية خرافية من الأدب

الشعبي الشمالي (المترجم) .

(٣) Frazer, pp. 112, 115.

مملوءة بأشجار مخصوصة بالعبادة . وكان الدرود (١) في إنجلترا Druids يجمعون مقاسيس شجر البلوط بطقوس دينية .

آريل : لا يزال يوجد طقوس معينة مرتبطة بالمقساس mistletoe ، أليس كذلك ؟ ولكن امض في حديثك يا سير جيمس .

سير جيمس : حسناً ، هذه الأنيمية ذاتها كانت تطبق على النجوم ، فكل نجم منها يأوى روحاً هادية . وكان البابليون يميزون سبعة كواكب إلهية ، وخلقوا أسماءها على أيام الأسبوع . ونحن لا نزال حتى الآن نوقر دون أن ندري أيام الأحد والاثنين والسبت (٢) . أما أيام الثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة فنحن نمجد آلهة أسكندناوة : تيفس Tives ، وودن Wodin ، ثور Thor ، فريجا Friga . ويؤثر الفرنسيون فيما يخص هذه الأيام ذاتها آلهة الرومان وهي مارس Mars ، ميركوري Mercury جوف Jove ، فينوس Venus . ونشأ التنجيم في بابل عن الفكرة التي تزعم أن هذه الأزواج الكوكبية تحكم مصير الإنسان . وإلى يومنا هذا تقدم الصحف جدولاً فلكياً لمعرفة الحظ والبخت كل شهر ، ونستعمل لغة تتجيمية أو فلكية حين نقول : «المجانين lunatics» ، أو المزاج «الحربي martial» ، أو «المرح jovial» . وتنتشر عند كثير من القبائل عادة إحداث ضوضاء مفرعة في أثناء خسوف القمر لطرد الشياطين التي تهاجمه (٣) . وقد نفي أهل أثينا أنكساجوراس لقوله بأن الشمس كرة من النار وليست إلهاً . وأصبحت هذه الأرواح في المسيحية ملائكة . ويبدو أن كبلر كان يعتقد أن لكل كوكب ملاكاً يرشده في مسيره . وأكبر الظن أن الهالة التي ترسم حول رؤوس القديسين بقية من عبادة الشمس (٤) . ولا يزال الميكادو معدوداً إله الشمس (٥) . أظن أننا نستطيع القول مطمئنين أن الأنيمية هي النسبج

(١) الدرود كهنة وثنيون عند قدماء الإنجليز (المترجم) .

(٢) هذه الأيام بالإنجليزية هي على التوالي sunday, saturday, monday أي

يوم الشمس ، يوم القمر ، يوم زحل - من أجل ذلك كان كلام المؤلف مفهوماً في لغته . وعلى هذا القياس فليصل القارئ بين باقي الأيام وبين الآلهة التي ذكرها المؤلف فيما بعد (المترجم) .

(٣) Reinach, pp. 39, 94

(٤) Jung, C.G., Psychology of the Unconscious, p. 173.

(٥) نحسب ان هذه العقيدة قد تغيرت بعد هزيمة اليابان واحتلالها في الحرب الأخيرة (المترجم)

الأولى للدين . ونحن نغنى بالأنيمية الاعتقاد في أن الأرواح تسكن كل شيء .
فيليب : إن عبادة عضو التناسل إحدى الصور القديمة للأنيمية ،
أليس كذلك ؟

سير جيمس : نعم ، فالهمجي لا يعرف شيئاً عن الوسائل الداخلية للتناسل ،
وهي التي كشفها لنا علم الخلايا Cytology الحديث . إنه يرى فقط الهيئات
الظاهرة . لأنه لا يفهم ، التي يوئلها ، وهذه أيضاً فيها أرواح خالقة ينبغي أن تعبد .
سيدا : إنه يبدو لي ديناً معقولاً جداً . ذلك أن معجزة الحصب والنماء
تظهر في هذه الهيئات أكثر من أى موضع آخر ، فهي الموطن المباشر للقوة
الخالقة . ولا تزال رموز التناسل - اللنجام lingam ، واليوني yoni - تعبد
حتى الآن في بلادى ، ويحملها الناس تعويذة واقية (١) .

فيليب : تشير النقوش القديمة للمصريين إلى عبادة عضو التناسل كأقدم
عبادة لهم (٢) . وكذلك كان الرومان يحملون أيقونات تناسلية كتعاويز تجلب
الحصب ، كما كانوا يحتفلون بالسر الإلهي للتناسل في أعياد الحرية « ليراليا
Liberalia » ، والحمر « بكاناليا Bacchanalia » وغيرهما من الأعياد .
ويحدثنا لوسيان Lucian (٣) عن الأعمدة العظيمة التي يكاد ارتفاعها يبلغ مائتي
قدم والتي كانت تقوم أمام معبد أفروديت في هيرابوليس رمزاً لعضو التناسل (٤) .
أندرو : أعتقد أن كل عبادة على الأقل عند النساء مرتبطة بنشوة الحب .
كانت رؤى القديسة تريزا مرتبطة ارتباطاً واضحاً بمشاعر وهلوسات شهوانية . وهذا
يصدق على كثير من الشخصيات المقدسة ، إذا كان لنا أن نؤمن برأى كرافت
إينج وهافلوك إليس . ولما كانت تجربتي مقصورة على انفعال واحد من هذه
الانفعالات المذكورة فليس في استطاعتي الإدلاء برأى أصيل في الموضوع (٥) .

(١) Sumner, Folkways, p. 546.

(٢) Howard, C., Sex-Worship, p. 63.

(٣) لوسيان (١٢٠ - ٢٠٠ بعد الميلاد) مفكر إغريقي حر عاش في ظل الامبراطورية
الرومانية ، كتب سيرا وقصصاً وشعراً ومحاورات كثيرة (المترجم) .

(٤) Encyclopaedia Britannica, 11th ed., vol. xxi, p. 345.

(٥) Krafft-Ebing, Psychopathia Sexualis, ch. i ; Ellis, H., Studies in the

Psychology of Sex, vol. i, p. 315.

سير جيمس : أكبر الظن أن دور الجنس في الشعور الديني وفي عبادة عضو التناسل عند الديانات البدائية مبالغ فيه . وتفسير عبادة الشجر والمسلات وأعمدة مايو^(١) May-poles وطقوس الختان على أنها تناسلية أمر مشكوك فيه^(٢) .

تيودور : علينا أن نذكر أن هذه الشعائر القديمة التي كانت تحتفل بالتناسل كانت دينية أكثر منها جنسية . ثم نمت ألوان من الرخص حولها ، كما كانت الحال في عيد « ثلاثاء النحر »^(٣) Mardi Gras أيام المسيحية . أما في الأصل فقد كانوا يتصورون القوة التناسلية مقدسة وجديرة بكل احترام ، وهذا أفضل من تصورها غير نظيفة .

أندرو : وكذلك غير ضرورية .

آريل : فلننتقل إلى شيء آخر يا سير جيمس . فالأنيمية أول عنصر في تكوين الدين . فما هو الثاني؟

٢ - السحر

سير جيمس : إنه السحر . فبعد أن ملأ الإنسان البدائي العالم بالأرواح ، وعجز عن التحكم فيها كما يحاول العلم ، أخذ يسترضيها ويستعين بها . والسحر كما يقول ريناخ : « فن قيادة الأرواح Strategy of animism » . وهو عبادة سحر عطوف ويعتمد على الإيحاء . كان المتدين البدائي أو الساحر الذي يستأجره لكي ينزل الغيث يصب على الأرض ماء ، والأفضل أن يكون ذلك من فوق شجرة . وفي وقتنا هذا إذا انقطع المطر فترة طويلة في البلقان وبعض جهات ألمانيا يأتون بفتاة مجردونها من ملابسها ويصبون عليها الماء في احتفال يصحبه رقص سحرية^(٤) . وعندما هدد الحذب الزولوس Kaffirs في جنوب أفريقيا

(١) أعمدة تقام للرقص حولها في أول يوم من شهر مايو (المترجم)

(٢) Smith, W.R., The Religion of The Semites, vol.i., p.437; Frazer, p.120

(٣) ثلاثاء النحر ، عيد فرنسي كان يقام يوم الثلاثاء آخر أيام الصوم ، ويسمى ثلاثاء الزفر .

وكانوا يحتفلون به في باريس بالطواف بشور سمين في شوارعها يصحبه قساوسة في هيئة ساخرة مع فرقة موسيقية تشبه بعض الأعياد الرومانية . (المترجم) .

(٤) Reinach., p. 86.

طلبوا من المبشر أن يرفع مظلمته ويمشي بين الحقول (١) . وفي سومطرة تصنع المرأة العقيم من الخشب على هيئة طفل وتضعه في حجرها ، وهي تحسب أن ذلك يشفيها من العقم . وفي جزر الأرخيبيل تصنع المرأة العقيم عروسا من القطن الأحمر وتتصنع إرضاعها وهي تتلور رُقي سحرية ، ثم يسرى الحجر في أنحاء القرية أنها أنجبت طفلا ، فيقبل أصدقاؤها بهنئونها . وبين سكان بورنيو من إذا جاء المرأة المخاض أرسلت تطلب ساحراً يخفف عنها آلام الوضع ، ويجعل الطفل يولد بسرعة ، وذلك بأن يمثل هو نفسه حركات الولادة ، وبعد بضع دقائق من آلام هستيرية يدع حجراً يسقط من حجره ويتمم بعزيمة يدعو بها الجنين إلى محاكاة الحجر . ولقد كان كثير من أشهر العلاجات وأوثقها في التاريخ سحرية . فهذا باحثكم الدكتور جيمس ج . والش قد سجلها في كتاب رائع . فإن كنت تشكو من بثور حب الشباب فارقب النجم الهاوى ، حتى إذا هوى امسح وجهك فيتساقط الطفح ، فإذا لم تنجح فذلك لأنك لم تكن سريعاً بما فيه الكفاية . ولعل الأسهم المثبتة للحيوانات في الصور الموجودة على جدران كهوف التاميرا Altamira وغيرها كان الغرض منها أن تكون سحراً موحياً . وكان الناس في العصر الوسيط يحاولون إلقاء السحر على أعدائهم بأن يجعلوا تمثالا من الشمع على صورة العدو ثم يغرزونه بالدبابيس . ولا تزال حتى اليوم تحرق صور الناس . ويسمى أهل بيرو عندما يفعلون ذلك « حرق النفس » (٢) .

أندرو : أعتقد يا سير جيمس أن إحدى نظرياتك الأثرية عندك هي أن السحر أبو العلم .

سير جيمس : الأنيمية أم الشعر ، والسحر أبو الدراما عن طريق التخيل make-believe ، وهي أبو العلم بطريق الرغبة في سياسة الأرواح ، وإذا أخفق السحر كان الساحر في بعض الأحيان يضيق ، ولو أن الناس يرسخ في أذهانهم نجاح السحر مرة واحدة أكثر من إخفاقه عشر مرات . وكان من مصلحة الساحر أن يدرس الأسباب والنتائج ويقع على الوسائل الطبيعية لتنفيذ غرضه المطلوب ؛

(١) Hoernlé, R.F.A. Studies in Contemporary Metaphysics, p. 181.

(٢) Frazer, p. 13 ; Reinach, p. 11.

فإذا استخدم هذه الوسائل مع استمراره في إجراء الأساليب السحرية ، فقد يمكنه أن ينسب نجاحه للسحر ويرفع من شهرته كشخص قادر على تسخير الآلهة . وهكذا نشأ عن الساحر البدائي ، وصانع المعجزات ، أو الكاهن ، المعالج للرجال والطبيب ، والمنجم والفلكي ، والسياسي والكيميائي . إن علماءنا في كل ميدان من البحث هم الخلفاء المباشرين لأولئك السحرة القدماء . فقد خرج من ذلك النبع الواحد كل من الدين والعلم ، والفلسفة والطب ، وهما التياران المختلفان اللذان يجريان كالنخمة الموثقة خلال تاريخ البشرية (١) .

وعظمت مهارة الساحر أو شهرة العزيمة السحرية في بعض البلاد إلى درجة أن الخيبة في كسب رضا الإله لم تكن تنسب إلى نقص العزائم بل إلى عناد الإله . وكان الشباب في اليونان يضربون أحياناً تمثال « بان Pan » بالسوط إذا لم يمنحهم صيداً موفوراً (٢) . ويلقى صيادو السمك في إيطاليا تمثال العذراء في البحر إذا كان الصيد على الرغم من صلواتهم قليلاً (٣) . وإذا لم ينجح دعاء الصينيين فقد يسحبون بوقاحة تمثال إله في الشوارع ، ويوجهون إليه عبارات اللوم قائلين : « أيها الروح يا كلب ، لقد منحناك معبداً فخماً تعيش فيه ، ومصفاك من الذهب ، وأطعمناك جيداً ، وضحينا لك ، ثم تجحدك ذلك ! » (٤) . وفي هذه المزاوولات العجيبة اقترب البدائيون اقتراباً شديداً من فكرة القضاء Moira - أو الحظ - باعتبار أن القضاء أعلى من الآلهة والبشر على السواء ، وهو ما به تتميز الديانة الإغريقية ، ويؤدي من جهة إلى التوحيد ، ومن جهة أخرى إلى العلم .

آرييل : لست أدري ما يقودنا إليه كل ذلك ، ولكني أظن أنه كله ضروري .
سير جيمس : لا ينبغي أن تتعجلي النتائج سريعاً يا سيدتي ، ففي دراسة أي ميدان من العلم أو التاريخ يحسن البدء بإغراق نفسك في الحقائق . فإذا وصلت

(١) Frazer, p. 62 ; Reinach, p. 22.

(٢) Hobhouse, L.T., *Morals in Evolution*, p. 379. (بان عند الإغريق هو

إله المراعى والأغنام - المترجم) .

(٣) Todd, op. cit., p. 414.

(٤) Nietzsche, F., *Human All Too Human*, vol. i, p. 120.

إلى النتيجة في كثير من السرعة تخيرت هذه النتيجة لك بعض الحقائق ، وحجرتك عن رؤية الباقي .

آريل : إنك على صواب ، وزجرك في موضعه ، فامض وزدنا حديثاً .

سير جيمس : حسناً ، لم يؤد السحر إلى الدين والدراما فقط بل إلى الطقوس الدينية ، والتضحية ، والصلاة . فلا يزال كثير من الصلوات جزءاً من طبيعة العزائم السحرية ، التي يتم بها المصلي ويتلوها مرة بعد أخرى وهو مؤمن بهذا التكرار . والطلاسم ، واللعنات ، والدعوات الصالحة ، هي أمور تطورت عن السحر . ولكن أكثر الصور دلالة وانتشاراً والتي تطور إليها السحر الديني هي طقوس الزراعة . كان البدائيون يشخصون قوى النمو على أنها ذكر وأنثى . ويبدو أن لفظة « مادة Matter » جاءت من لفظة « أم Mater » (١) . ذلك أن الطريقة المشخصة لرؤية الأشياء أو التفكير فيها سبقت بالطبع غير الشخصية والمجردة ، بالضبط كما أن الأنيمية سبقت الميتافيزيقا . إن إله طفل يصلح أكثر ألف مرة تحديداً ، وإن شئت فقل أكثر مادية من إله سينوزا الممزج بالله God-intoxicated . وهذه إحدى مساوئ الفلسفة ، نعى أنها تستبدل بالجزئيات المحسوسة المجردات العامة . فتأخذ منا آلهة شبابنا الخاصة والمجسمة وتعطينا بدلاً منها « المطلق absolute » الذي يكون من المضحك تصويره في هيئة إنسانية .

كيف نحصل على محصول طيب ، هذه هي المشكلة الكبرى في كل جيل وفي كل عام . ولم يفكر البدائي قط في حل المشكلة بصيغة التسميد الأزوتي أو أي صيغة علمية أخرى ، بل دخل إلى المشكلة من باب السحر - فيدعو « الأرض الأم Moher Earth » أن تلد له بطناً كبيرة من الطعام . ورتب لذلك الأعياد التناسلية زمان البذر ، فحقق بذلك لنفسه غرضين : الأول تخصيص الأرض بالإحياء عن طريق التقليد ، والثاني منح نفسه إجازة ذات مغزى . وفي بعض البلاد كان الناس ينتخبون ملكاً وملكة « لمايو May » أو عروساً وعريساً في عيد « أحد العنصرة » ، ثم يطبقون طقوس الزواج عليهم كتعويذة تفتن

(١) Jung, op. cit., p. 173.

الأرض إلى الحصب . وكثيراً ما كانت الطقوس تشمل الزواج الكامل لثلاث تجد « الطبيعة » (أى تلك التى تلد) أى عذر لسوء فهم ما يطلب منها .

إنك لا تزال تعجب أى مدخل لهذا فى الدين . ولكن صبراً ، عندما تدرس الدين المقارن سترى إيمانك ذاته فى نظرة شاملة تصحح الأوهام . فالبدائى كان يعتمد على وفرة المحاصيل أكثر منا اليوم ، لأن احتياطه من القحط والحذب كان من الضعف بحيث لم يمتنع عن عمل أى شىء يوفر له محصولاً غزيراً . فنحت له فكرة ، تكاد توجد فى جميع الأديان ، هى أن يضحي بكائن حي - بوجل أول الأمر ، ثم فى العصور المتأخرة بحيوان - لروح الأرض . ذلك أن الدم حين يغوص فى الأرض فإنه يجلب رضا الإله ويخصب الأرض . وكان الهنود فى الإكوادور يضحون بدم وقلب الإنسان عند بذر حقولهم . وكذلك كان يفعل هنود الباونى Pawnee Indians ، وكانت الطقوس فى قبائل البنغال تبلغ حداً مربعاً يجلب عن الوصف (١) . وفى بعض الأحيان كانوا يضحون بمجرم . وكان الأثينيون يحتفظون بعدد من المنبوذين لتقدمهم فى حالات الضرورة التى تقتضى ترضية الآلهة بسرعة . فإذا حل قحط أو انتشر طاعون ضحوا بمجرمين أحدهما بديل عن رجال القبيلة ، والآخر عن نساءها . فهذا هو الأصل فى نظرية القدى vicarious atonement .

آريل : ماذا تقول ؟ أتعنى أن أكثر العناصر أساسية فى اللاهوت المسيحى ترجع إلى تلك الطقوس الدموية ؟

سبر جيمس : لا بد أنها تبدو كذلك ، ولو أنى لا أسميها عنصراً أساسياً فى اللاهوت المسيحى . لقد دهشت كثيراً حين وجدت فى أمريكا أن الذين يقدرون العناصر الثانوية وغير الجوهرية فى الدين أكثر من غيرها - وهى الأمور التى تميز فرقة عن أخرى - يسمون « الأصوليين » Fundamentalists . أما أنا فأسميهم ، إذا سمحتم لزائر أن يتكلم بهذه الألفة ، « السطحين » superficialists . ولكن هل أمضى فى قصتى ؟

آريل : نعم إلى نهايتها .

(١) Frazer, p. 432.

سير جيمس : كانت تلك هي الروح ، ففي كل عام ، في العيد المسمى Thargelia في أثينا ، كانوا يأتون بكبشي فداء ، كما كانوا يسمونها ، ويرجمونها بالحجارة حتى الموت قرباناً للآلهة وفداء لذنوب الشعب (١) . والأغلب أنهم كانوا يختارون الضحية قبل ذلك بعام ، ثم يعبدونها ويكرمونها اثني عشر شهراً كملك وإله . ثم تذبح في الربيع - وفي معظم الأحوال بعد جلدتها بالسياط . ولاريب أن دوافع الشعب نحو السادية Sadism كانت تجد مخرجاً بهذه الوسيلة الدالة على التقوى ، والتي لا غبار عليها . وفي صور متأخرة عن هذه الشعيرة البدائية كانت الضحية التي يقع عليها الاختيار لتكون قرباناً في العام المقبل تعبد كبعث للضحية المذبوحة ، وذلك تشبيهاً بالربيع كإحياء لربة الأرض بعد وفاتها الظاهرة في الحريف . وأصبحت أساطير موت الإله وبعثه في هيئة إنسانية جزءاً من جميع الأديان تقريباً في غرب آسيا وشمال شرقي أفريقيا (٢) .

ويعد الانتقال من ذبح الرب إلى أكله تقدماً طبيعياً ، لأن الهمجي يعتقد أنه يكتسب قوة ما يأكله . ففي أول الأمر كان الناس يأكلون لحم الضحية ويشربون دمها ، حتى إذا تهبوا بعض الشيء أحلوا بدل الضحية الحية تماثيل تصنع من الدقيق يأكلونها بدلا عن تلك . وفي المكسيك القديمة كانوا يصنعون تماثيل الإله من الحبوب والبذور والخضر يعجنونها بدماء أطفال يضحون بها لهذا الغرض ، ويأكلها الشعب بعد الصوم احتفالاً دينياً « لأكل الإله » . ويعزم الكهنة عزائم سحرية على التماثيل فتقلب من عجين إلى آلهة (٣) .

ماتيو : من المؤكد أنك إن تصل إلى هذه النتيجة وهي بطلان عقيدتي الفداء والقربان المقدس ، لسبب واحد وهو أنك تجد شيئاً شبيهاً بهما بين الشعوب البدائية .

سير جيمس : كلا على الإطلاق ، فلا يزال من البيّن أن هاتين العقيدتين صحیحتان ، ولن أقول في هذا الأمر قولاً جازماً ، لقد ارتقت هذه الطقوس

(١) Allen, G., Evolution of the Idea of God, p. 353.

(٢) Allen, p. 246 ; Frazer, p. 337.

(٣) Sumner, p. 336 ; Frazer, p. 489.

أكثر فأكثر مع الزمن ، وكانت هيئتها القديمة تعكس صورة مجتمع يأكل لحوم البشر ، وتقوم على مبدأ أن الآلهة لها ذوق رئيس القبيلة نفسه . فلما بطلت عادة أكل لحوم البشر ، حلت الحيوانات بدل الإنسان في التضحية ، وأكبر الظن أن هذا الانتقال قد رمز إليه في قصة إبراهيم وإسحق (١) والكبش . ولكن الكاهن البدائي كان يحب اللحم كما تحبه الآلهة ، فلم يلبث أن ابتدع طرقاً يحتفظ بها بأطيب أجزاء التضحية من الحيوان لنفسه ، تاركاً للإله الأمعاء أو العظم فقط وقد موهت بما عليها من شحم (٢) .

أندرو : لم يكن الناس قد تصوروا بعد الإله علياً بكل شيء .

٣ - الطوطم والمحرم

سير جيمس : وفي أثناء ذلك أدى اعتماد الناس على الحيوانات ، وخوفهم من الوحوش الكبيرة إلى ظهور عنصر ثالث في الدين ، هو الطوطمية . والطوطم Totem لفظة هندية تدل على علامة أو أمانة . وكان الطوطم تمثالا يستخدمه هنود أمريكا لتمثيل حيوان أو نبات كانوا يعتقدون أن الروح الحارسة للقبيلة تسكن فيه (٣) . والطوطمية ، وهي عبادة الحيوانات والنباتات المقدسة ، كانت مرتبطة في الغالب بمرحلة الصيد ، ولكن كثيراً منها ظل باقياً حتى المرحلة الزراعية ، وهكذا انتقلت الحمامة والسمكة والحمل المقدسة إلى اليهودية والمسيحية .

كلارنس : نحن جميعاً طوطميون ، بعضنا غزلان من شمال أوروبا ، وبعضنا غزلان من شمال أمريكا ، بعضنا يصوت للفيل ، وبعضنا الآخر يصوت لأكل رمز ديمقراطي ، وهو الحمار . وبعضنا يدخل الحرب إلى جانب الأسد ، وبعضنا الآخر إلى جانب الصقر . إننا في حاجة إلى الحيوانات للتعبير عن ضروب ولائنا الرفيع .

فيليب : سنة ١٩٢٧ أمرت الحكومة اليابانية بهدم آلاف من المزارات الصغيرة الموقوفة على عبادة الثعالب والثعابين وغيرها من الآلهة (٤) .

(١) ذهب المفسرون في الإسلام عند تفسير هذه الآيات من سورة الصافات أن المقصود هو اسماعيل (المترجم) .

(٢) Sumner, p. 340.

(٣) Reinach, p. 15.

(٤) New York Times, July 25, 1927.

وليم : ولعل قسوة يهوه والأرباب المعاصرة بقية من عبادة الوحوش ؟
 ففي خلال مرحلة انتقالية كانوا يتصورون الإله بأن له وجه إنسان وجسم حيوان ،
 أو العكس . وأبو الهول مثال على ذلك . ولما حلت حرب الإنسان للإنسان
 محل حرب الإنسان للوحش تصوروا الإله كروب الحرب وزعيم الحنـد. لا على أنه
 حيوان . ولكنه ظل ضارياً كما كان دائماً . ويشير «تارد» إلى أن أكثر الآلهة
 استبداداً هم كذلك أكثرهم احتراماً – وهذا شيء شديد الشبه بالأزواج (١) .

آرييل : إن مقدار ما تعرفونه أيها الرجال لشيء مفزع . كيف يتسنى لنا ،
 نحن النساء ، أن نجد وقتاً بعد إرضاع الأطفال والزينة في صالون التجميل لنلتحق
 بكم ؟ والآن يا سير جيمس ، لقد عددت ثلاثة عناصر في أصل الدين : الأنيمية ،
 والسحر ، والطوطمية . أهنك غيرها ؟

سير جيمس : عنصران آخران : المحرمات ، وعبادة الأسلاف . ولفظة
 محرم « Taboo » لفظة بولينيزية ، تدل على المحرم أو الممنوع . كان تابوت العهد
 محرماً – لا يمسه إلا أفراد أسرة كهنوتية لها هذا الامتياز . ولما أراد داود أن (٢)
 يحمله إلى أورشليم وضعه على عجلة جديدة تجرها ثيران ، فتعثرت وأوشك التابوت
 أن يقع على الأرض ، فتقدم عزة : uzzah ورفعه ، وعندئذ ضربه الرب فمات
 لأنها كه الحرام (٣) . ومعظم المحرمات كانت تقاليد أخلاقية تعتبرها القبيلة من
 الأهمية بحيث تحتاج إلى عقوبة دينية من أصل إلهي ، تدعمها بالخوف والاحترام .
 والوصايا العشر مثال على ذلك . وكذلك يحكى الفرس كيف أن زرادشت كان
 يصلّي ذات يوم فوق جبل عال فظهر الله له من خلال الرعد والبرق وأنزل عليه
 « كتاب الشريعة » . وفي أسطورة كريت أن الملك مينوس تلقى من الله الشرائع
 على جبل دكتا . وفي أساطير الإغريق أن ديونيسيوس كان يسمى واهب الشريعة ،

(١) Tarde, Laws of Imitation, pp. 270, 273, 275.

(٢) انظر صموئيل الثاني ، الاصحاح السادس ١ - ٦ حيث تجد القصة كاملة : « وقام داود
 وذهب هو وجميع الشعب ... فأركبوا تابوت الله على عجلة جديدة ولما انتهوا إلى بيدرناخون
 مد عزة يده إلى تابوت الله وأمسكه لأن الثيران انشمت . فحمى غضب الرب على عزة وضره الله
 هناك لأجل غفله ، ومات هناك لدى تابوت الله » (المترجم) .

(٣) Reinach, p. 4.

وكانوا يتمثلونه بمسك في يديه لوحين من الحجر نقشت عليهما النواميس . وكان ذلك سراً بديعاً لعصا الرئيس ، ولعلنا يمكن أن نرجع إليها حق الملوك الإلهي .

كلارنس : كانت خطة نافعة في العمل ، وليست مبتذلة . وقد علمت من المشرعين الأصليين أنفسهم أن الله هو صاحب « الإصحاح الثامن عشر »

٤ - عبادة الأسلاف Ancestor-worship

أرييل : ولكن يا سير جيمس ، يبدو لي من الغريب أن تتعمق هنا التعمق في تاريخ الدين دون أن تصل إلى الله .

سير جيمس : هذه هي النقطة الأخيرة . إنك تريدني كالطفل معرفة « من الذي صنع الإله ؟ » - كيف أصبح هذا البحر من الآلهة ، وهذه الأرواح التي تملأ الحقل والغابة والسماء ، إله البشر الذي آمن به الناس أخيراً ؟ ولعلك تذكرين الأساطير القديمة عن تحول الآلهة إلى حيوانات أو بشر . والحقيقة كانت عكس ذلك تماماً ، إذ أصبح إله الغلال وإله الحيوان إلهاً نصف بشر . فحين نسمع عن زيوس ينقلب طائر البجع swan ، أو نقرأ عن « أثينة ذات عيني البومة » و« هيرا ذات عيني البقرة » ، نذهب إلى أن قبائل الإغريق كانت تخلط بآلهتها الجديدة تصورات مأخوذة عن حيوانات كانوا يعبدونها في المرحلة الطوطمية . وقد أشار وليم إلى أبي الهول كمثل مرحلة انتقال الآلهة الذين كانوا نصف حيوانات ونصف رجال أو نساء . ولم يكن في حاجة إلى الذهاب مثل هذا البعد ، فالمتحف الرائع عندكم مملوء بتمائيل كانت مقدسة قديماً نصفها بشر ونصفها حيوان . والحيوانات الخرافية كالمنطور (١) minotaur ، والقنطور centaur ، وعرائس البحر siren ، والسطير satyr ، وحوريات الماء mermaid ، وإله الحقل ، هي جزء من مرحلة الانتقال من الحيوان إلى الآلهة المشبهة (٢) . وجاءت عبادة الأسلاف فأكملت التحول .

(١) المنطور رأسه ثور وجسمه بشر ، والقنطور نصفه إنسان ونصفه حصان ، والسطير نصفه بشر ونصفه ماعز ، وحورية الماء نصفها إنسان ونصفها سمكة (المترجم) .

(٢) Reinach, p. 81 ; Murray, op. cit. p. 37.

ويبدو أن عبادة الأسلاف قد بدأت بظهور الموتى في الأحلام ، فكانت خطوة بسيطة بين الفرع من مثل هذه الرؤى وبين عبادة الموتى . وأصبح الأقوياء في حياتهم مخوفين بعد موتهم . الحق أن هذا الخوف من الموتى أصبح أعظم قوة مؤثرة في الديانة البدائية (١) . وإذا كانت الأنيمية قد خلقت السحر ، فقد خلقت عبادة الأسلاف ما ينبغي أن نسميه الدين . وتدل لفظة الإله عند بعض البدائيين الآن على « الرجل الميت » . ويدل « يهوه » على « القوى » ، ومن الواضح أنه كان زعيماً قوياً . وفي مصر وروما والمكسيك وبيرو كان الملك يعبد كإله حتى قبل وفاته . ولقد أله الإسكندر نفسه لأن الشعوب التي فتحها كانت معنادة بحكم الملوك الإلهية ، ولولا هذا التحول ما قبلته حاكماً عليها . وكان لا يبد من استرضاء أشباح مثل هؤلاء الرجال ذوي القوة الهائلة ، وأصبحت الطقوس الخنثوية الممنوحة لهم أول صور الاحتفالات الدينية لتمجيد ذكراه وشرفه وعمله . وقد أخذت جميع صور تمجيد الإله من شعيرة العبودية للرؤساء في الأرض ، مثل رفع الأيدي ، والسجود ، والركوع ، والتعظيم ، وغير ذلك . وإلى هذا اليوم لا يكمل أى مذبح كاثوليكي لا يضم رفات بعض القديسين . . . أى الأسلاف الأبطال . وبهذا المعنى بدلاً من وقف عبادة الأسلاف على الصين واليابان فإنها تمتد إلى كل مكان في العالم .

وكان الإغريق ومعظم الشعوب القديمة تتوسل إلى موتاهم كما يتوسل المسيحيون بالقديسين (٢) . وعالم الموتى عالم حقيقي واقعي إلى درجة أنه في بلاد كثيرة كانت توفد إليه الرسل بثمان عظيم : إذ يدعو الرئيس عبداً ويبلغه رسالة شفوية ، ثم يقطع رأسه . فإذا نسي الرئيس شيئاً أرسل عبداً آخر عقب الأول بعد قطع رأسه كملحق للرسالة (٣) . أما شعب الميت فكانوا يعتقدون أنه يحمل بعض تلك القوة الحارقة ، أو المانا Mana التي أصبحت مادة الحياة لجميع الآلهة فيما بعد . وهذا هو السر في العناية باسترضائه . فالدين « religio » مشتق لا من « religare » أى يربط ، بل من « religere » أى يعنى بكذا ، أو يميل -

Frazer, p. vii. (١)

Reinach, p. 80. (٢)

Allen, p. 30. (٣)

والعكس هو « neglegere » أى الإهمال (١) . فالدين مرتبط بعواطف بنوية يتحول فيها تدريجاً الخوف من الموتى إلى محبة الموتى . وحتى الشخص إذا كان متوحشاً فيمكن أن يحب حين يموت .

المرحلة التالية هي تصور الإله أو الرئيس الميت كأب . وفى الدين الحديث نجد فكرة أبوة الله فكرة هزيلة أو علاقة روحية - فنحن لا نفكر فى أن الله يلد الناس جسمانياً . أما عند الإغريق وكثير من الشعوب القديمة فقد كانت الفكرة جسمانية ومباشرة : لقد نشأت أجناس البشر عن آلهة متعددة . وإنك لتجد فى نهاية كل نسب إلهاً . أما الفكرة التى ظهرت عند الإغريق واليهود من أن الآلهة قد خلقت الناس من طين ، فهى من أصل متأخر (٢) .

وهكذا وصلت الإنسانية آخر الأمر إلى تصور إله إنسانى ، واقتضى ذلك منها زمناً طويلاً . وقبل هذا الإله ولعدة قرون كثيرة كان بحر الأرواح ثم الأرواح المنبثة فى الصخور والشجر والنجوم ، ثم الأرواح الخالقة بالتناسل وفى الأرض ، ثم الآلهة الحيوانية ، وأخيراً - عن طريق تأليه الأسلاف والملوك - الإله الإنسانى . وأنتم تعرفون أن سبنسر كان يظن أن جميع الأديان يمكن أن ترد إلى عبادة الأسلاف - وهى نظرية قديمة قدم إيوهيميروس Euhemerus الذى عاش سنة ٣٠٠ قبل الميلاد . مهما يكن من شىء فعبادة الأسلاف مرحلة متأخرة وليست الأولى ، ومرت قبلها عصور طويلة لم تكن فيها أى آلهة تشبه البشر على الإطلاق . فلما ظهرت عبادة الأسلاف أحدثت تغييراً عظيماً فى الدين : أنستته humanized ، إن صح هذا التعبير ، وأتاحت له أن يتصور الألوهية أولاً فى العبادات التى نصوغها لأقوى الناس ثم لأرقهم . لقد مهدت الطريق للعقائد المشبهة الكبرى فى أرض الميعاد واليونان وروما . والآن فليكمل أحد غيرى القصة .

٥ - الوثنية Paganism

آرييل : لقد علمتني يا سير جيمس ما لم أكن أعلم فأزعجتني إزعاجاً شديداً . إني لألاحظ كيف أنصت إليك بول وماتيو فى صبر عظيم ، وأرجو

(١) Reinach, p. 2.

(٢) Smith, W.R., op. cit., p. 42.

أن يتحدثنا قريباً بما يعرفانه . ولكن ألا تظنوا أننا يجب أن نسأل أولاً تيودور شرح ديانة الإغريق ؟ فإن يكون المرء وثنياً لا بد أنه كان شيئاً ممتعاً .

تيودور : سيدتى ، لست جديراً أن أسمى إغريقياً ؛ فالإغريق اليوم من السلاف ، فهم ليس شعباً قديماً ورث ثقافة قديمة كالصينيين ، بل شعب جديد يسعى إلى بناء حضارة جديدة كالأمريكان . ومع ذلك فقد أحببت ودرست عقيدة بلادى القديمة ، ويسرنى أن أتحدث عنها إليكم .. ولما كنت أتوقع سؤالاً فقد اصطحبت معى نصاً صغيراً من السير جلبرت موراي .

سير جيمس : إني أعرفه حق المعرفة ، فهو سيد مهذب ، أيام السلم .

تيودور : إنه يحسن الكتابة عن بلادى .. يقول سير جلبرت : « للإغريق القدماء اليد الطولى فى الدين وكل شىء آخر على السواء ، فى امتيازها الرائع بالبدء من أسفل السفوح ثم المكافحة حتى لو كانت خطيرة للصعود إلى أعلى القمم . وليس ثمة أى فرع من الحرفات البدائية لا يمكن أن نجد له أثراً بعيداً فى تراث الإغريق . وقل أن تجد فكراً روحياً بارزاً فى العالم لم يكن له نموذج أو صدى فى الأدب الإغريقى الذى تمتد رقعة من طاليس إلى القديس بولس » (١) . ولعلنى أستطيع أن أبين لكم ذلك التقدم الرائع ، وأن أوضح فى الوقت نفسه بمثال الإغريق التحليل البديع الذى قدمه لنا سير جيمس عن تطور الدين ..

لقد عبد الإغريق أول الأمر كغيرهم من الشعوب الأرواح فى الشجر والنجوم والحيوانات والنباتات . وأكبر الظن أن السماء كانت أول موضوعات العبادة . ذلك أن « زيوس Zeus » كان يعنى السماء ، كما تعنى « ديوس Deus » فى اللاتينية ، « ودى Di » فى السنسكريتية . وحتى فى أمريكا يقولون « حفظنا السماء » و « أطلب من السماء » كما لو كان الله والسماء شيئاً واحداً . ويعتقد جميع البسطاء من الناس أن الله موجود فوق السحاب . وفى القرن الثالث قبل المسيح سمى الفيلسوف الرواقى خريسيبوس Chrysippus الآلهة بأنها : « الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والقانون ، والبشر الذين استحالوا آلهة » (٢) .

Мургау, р. 15. (١)

Мургау, р. 117. (٢)

وأقدم الشعائر التي نعرفها عنهم كانت شعائر الزراعة لتخصيب الأرض .
أتعلمون قصة الأميرة دناي Danaë التي سحبت في برج وزارها زيوس في هيئة
مطر مذهب ؟ يعتقد الباحثون أن هذه القصة الخرافية نشأت عن الشعائر القديمة
التي كانوا يخصبون بها الأرض (مشخصة في دناي) بإنزال المطر الذهبي من روح
أورب السماء . وأنتم بالطبع تعرفون خرافة ديميتير Demeter وبرسيفوني Persephone ،
وأكبر الظن أنكم رأيتم ديميتير العجيب في المتحف البريطاني - وهو تمثال أحمل
بكثير من أي تمثال آخر صنعه فيدياس أو بركسيتيلس . كانت ديميتير ربة الغلال ،
وكان الرومان يسمونها سيريس Ceres ، ويسمونها الأمريكان سيريال Cereal .
وقد اختطفت ابنتها برسيفوني إلى « حادس Hades » (١) . ولكن ديميتير حزنت
حزناً شديداً فسمح لبرسيفوني بالعودة إلى الأرض زمان كل حصاد بشرط أن
تنفق الشتاء في الجحيم (حادس) .

أندرو : إذا كان لابد أن نذهب إلى الجحيم فالأفضل أن نمضي فيه الشتاء
لا الصيف .

تيودور : القصة عبارة عن دراما صغيرة ترمز إلى ازدهار الأرض السنوي
وبركتها . ذلك أن جميع الخرافات تكاد تكون جميعاً قد وضعت لتفسير ، أو كما
تقول لتأنيس humanize طقوس الزرع الأنيمية (٢) . أما أفروديت الحميلة
التي نقلتها الإغريق عن ربة بابل عشتار ، فقد نشأت من أرواح الغلال في الأيام
الحوالي . وكان عيدها يحتفل بيقظة الربيع . وأنتم تعلمون ولاريب أن عيد الفصح
كان في الأصل عيد الربيع ، وعيد عشتار .

ماتيو : إن الكنيسة بما عندها من حكمة ربانية قد اصطنعت الأعياد
الوثنية ، ولاعت بين عادات الشعب وبين ديانة المسيح .

تيودور : كانت أفروديت الرمز المحبوب للطاقة التناسلية في الطبيعة والإنسان .
ولم يكن القدماء يقدرون العفة بمقدار ما يقدرها المحدثون . . .

كلارنس : يبدو أنك لا تحسن معرفة المحدثين ، يا تيودور .

(١) أي الجحيم (المترجم) .

(٢) Allen, p. 38 ; Smith, W.R., p. 18.

تيودور : سأقول إذن ، بمقدار ما كان المسيحيون في العصر الوسيط أو البيوريتان يقدرونها . والأولى أنهم كانوا يعجبون بالأم الولود ، وعبادوا الاتصال الجنسي ، حتى إذا كان حلالاً ، كما يمكن أن يسمى بالاستهتار المتبدل . واعترفوا بقوة ومجد وحقوق أفروديت أو فينوس أو عشتار ، كما يتبين ذلك من التمثيلية العظيمة « هيبوليتوس Hippolytus » لأستاذنا العميق أوربيدس . وكانوا يظنون أن الرجل يكون ولا ريب تعيساً إذا عاش بغير أن يدفع للربة ضريبة الجنون الإلهي للحب . وفي كثير من نواحي آسيا الصغرى كان واجباً دينياً محترماً على كل سيدة أن تقف بأبواب المعبد ، وتهب نفسها لكل غريب يطلبها ، ثم تضع على مذبح الربة ما كسبته من بغائها المقدس . ألم يكن كذلك ياسير جيمس ؟

سير جيمس : بكل تأكيد . كان الفناء المقدس مزدحماً في الغالب . يتسوة ينتظرون الصلة بهن . وكان على بعضهن أن ينتظرن بضع سنين (١) .

تيودور : لقد نقلوا « أدونيس Adonis » أيضاً من بابل . وكان الساميون يسمونه « تموز Tammuz » ، وفي بعض الأحيان « أدون Adon » ، وهذا يعنى « السيد Lord » . وظن الإغريق أن هذا اللقب اسم ، وخلعوه على إلههم المسروق . وتصف أساطير بابل واليونان أدونيس بأن خنزيراً وحشياً قتله ، ولعله كان صورة إنسية للحيوان المقدس الذي عبده الساميون القدماء . وكانوا يضحون مرة كل عام بخنزير برى يأكلون لحمه في مأدبة عامة ، في الوقت الذي يناب فيه الشعب موت أدونيس . وبعد أيام قلائل يحتفلون ببعثه (٢) .

سير جيمس : أكبر الظن أن أسطورة موته وبعثه ترجع إلى طقوس الزرع التي ترمز إلى موت الأرض وبعثها (٣) . ففي كل مكان نجد القوة غير الشخصية في تطور الدين تنقلب شخصاً ، وتولد قصة خرافية .

تيودور : وهذا هو الحال تماماً في أسطورة ديونيسوس ، الذي كان يمثل الكروم ، كما كانت ديميتر تمثل الغلال . ومات كغيره من أرباب الزرع ، ثم

(١) Frazer, p. 330 ; Ellis, Studies, vol. vi, pp. 229 f.

(٢) Rainach, p. 40.

(٣) Frazer, pp. 335-7.

بعث إلى الحياة مثل الأرض في الحريف والربيع . وكان عيده يخلد كذلك بتمثيل مأساة موته وبعثه (١) . ونشأ من ذلك الاحتفال مسرح ديونيسيوس وجميع روائع أسكيلوس وسوفوكليس وأوربيدس . فهذه التمثيليات كانت جزءاً من عبادة ديونيسيوس ولا بد أن تعالج موضوعاً دينياً . ومع ذلك فقد نشأت الكوميديا من شعائر الأعياد ذاتها : رموز تناسلية تحمل في مقدمة المواكب الديونيسية . ومن هذا العيد التناسلي المسمى « كوموس Comus » ، إلى جانب السخرية والغناء الجنسي المسمى « أويدوس oidos » مما كان يجري في مصاحبته . نشأت « الكوميديا Comedy » . وأحسبكم ستغفرون بعد ذلك قلة حياء أرسطوفان (٢) ، فلم تكن أى سيدة محترمة تحضر تمثيلياته .

سير جيمس : كانت دراما stag رائعة لتمجيد رب الماعز .

تيودور : أنت على حق يا سير جيمس ، فقد حل ديونيسيوس محل الماعز المقدس كما حلت الأرباب الإنسانية محل الأرباب الحيوانية . ولم يكن الشعب يستطيع أن ينسى ماضيه ، فقد كانوا يضحون له بماعز ، وكثيراً ما كان يصور في هيئة ماعز . ومن أسمائه « الخدى » . وكان الذين يسرون في موكبه يلبسون قناعاً من وجه الماعز ، وهذا هو الأصل في تسمية « التراجيديا trag-oidos » أى غناء الماعز . وقد اختلطت الحيوانات المقدسة بجميع الآلهة كبقية من الطوطمية . وتستطيع أن تتبين عبادة الأسلاف في أشعار هوميروس التي يعرض فيها لتأنيس الآلهة . وفي نظر الإغريق لم يكن هناك حد فاصل بين الرجل والإله ، فقد يصبح الرجل العظيم إلهاً كما قد يصبح الإله رجلاً عظيماً . وكان الآلهة يتزوجون من البشر ، وكانوا يشبهون البشر في كل شيء تقريباً (حتى في الرذائل والفضائل) ما عدا أنهم لا يموتون .

فلما اتحدت الجماعات المتعددة الخاصة بعبادة الأسلاف في المدن أو الامبراطوريات ، جمعت آلهة هذه الجماعات في بانثيون عام ، يضم آلهة الطبيعة

(١) Ibid., p. 388.

(٢) أرسطوفان هو شاعر الكوميديا في اليونان بلا منازع في القرن الخامس ، وكانت تمثيلياته أخلاقية وسياسية تنتقد التقاليد الجارية نقداً لاذعاً . وطلبة الفلسفة يعرفون تمثيلية السحب التي صور فيها سقراط صاحب مدرسة يعلم المفسطة (المترجم) .

من أيام الزمن الصالح في أسرة واحدة مع الأسلاف الأبطال في العقائد المتأخرة .
وفي النهاية مجد خيال الشعراء والمنشدين الأساطير القديمة ، فولدت آلهة أوليمبوس .

أندرو : ألم تلاحظ يا تيودور إلى أي حد نسجت آلهة أوليمبوس حكومة
عالمها على منوال مجلس وزراء رئيس الولايات المتحدة ؟ ذلك أن بلاس أثينه
أو ميرفا كانت وزير الخارجية ؛ وبوزيدون أو نبتيون وزير البحرية ؛ وديميتر
أو سيرس وزير الزراعة ؛ هرمس أو مركوزي مدير البريد ؛ وآرس أو مارس
وزير الحربية ؛ وهيرا أو جونو وزير الداخلية - وهذه الآلهة مهمتها الأساسية
الإشراف على ميول الرئيس نحو زوجاته المتعددة ، وهو زيوس أو جوبيتر .

تيودور : لا ريب كانت هناك آلهة أكثر من هذه ، لأن الإغريق كانوا
يشخصون كل شيء ، حتى الحظ الذي أصبح الإلهة « تونخي Tyche » وجميع
الشعوب القديمة أحببت أن يكون لها إله لكل مظهر من مظاهر الحياة .. وحين
اضطع الرومان البانشيون الإغريقي ضعفوه .. كان هواؤهم نفسه يمجج بالآلهة
والشياطين .. كانت هناك « أبيونا Abeona » حامية الأطفال حين يرحلون بيوتهم ،
و « دومديوكا Domiduca » التي تحرسهم في أوتهم ، و « انترديوكا Interduca »
التي تعنى بهم فيما بين ذلك ، و « كبه Cuba »^(١) التي تحرسهم وهم نيام ،
و « إيدوكا Educa » التي تعلمهم الأكل ، و « فابولينوس Fabulinus »
التي تعلمهم الكلام ، و « ستاتانوس Statanus » التي تعلمهم الوقوف ، ومئات
غيرها^(٢) .. وبعد أن انتصر هانيبال في كاناي زحف على روما ، وإذا به يرى
عند أبوابها حلماً يحدثه بالرجوع عنها ، فأطاع الصوت الذي سمعه في الحلم ،
وشيد الرومان الشاكرون فوق ذلك الموضع محراباً لإله جديد سموه « رديكولوس
Ridiculus » أي الإله الذي يدفع الرجل إلى التراجع^(٣) . وكان لكل حقل
هيكله ، ولكل بيت معبده ، ولكل مفترق طرق مزاره .

(١) يذكر القراء أن من عبارات العامة عندنا ما تقوله المرأة حين تضيق بطفلها فلا ينام
« كبه تأخذك » وأكبر الظن أن لفظة « كبه » هذه ، هي الربة حارسة نوم الأطفال (المترجم) .

(٢) Shotwell, p. 30 ; Allen, p. 37.

(٣) Shotwell, p. 34

أندرو : أليست عبادة الملائكة الحارسة والقديسين المحليين ميراثاً مسيحياً
هذا الباشيون الزاخر ؟

تيودور : أظن ذلك .

أندرو : لا بد أن استرضاء جميع هذه الآلهة كل ساعة كان مهمة ثقيلة
مخيفة - كما لو كنت تعيش كل حياتك تلبس ملابس السهرة . ولقد قال
أناتول فرانس لبروسون إنه لا يحب الوصية الأولى من الوصايا العشر : « اعبد
إلهاً واحداً » ، فقد كان يرغب في عبادة « جميع الآلهة » ، وجميع الهياكل ، وجميع
الإلهات » . كان يحبها جميعاً لأنه لم يكن من واجبه أن يعبدها جميعاً . أما الإغريق
والرومان فكان عليهم أن يعبدوها .

تيودور : نعم أنت على حق ، وكان سير جيمس على حق . كان الإغريق
الساذج يؤمن بألهته إيماناً جدياً ، فهو يخشاها ، وينفق كثيراً من الوقت في استرضائها .
لم تكن الوثنية متعة خالصة . ومع ذلك فقد كان في ذلك الدين جمال عظيم وعقل
كثير . فقد كان من الخير أن تشخص وتحترم قوى الطبيعة وصورها ، التي تعبر
عنها الآلهة الكثيرة بأفضل مما يعبر إله واحد عن الصراع والتيارات المتعارضة في
العالم . وقد نشأ عن ذلك الإيمان كثير من صور الفن : نشأ النحت والبناء من
الدفن ، والدراما من المواكب الدينية ؛ والموسيقى والشعر من الترانيم التي كانت
تنشد فيها . وهدب الفن بدوره الدين ، وخلد ذكر الآلهة القديمة . فقد وهب
هوميروس وهزيود لآلهة أوليمبوس أجساداً وخصالاً ، وخلع عليهم فيدياس
عظمة وجلالا . ولك أن تقول إن آلهة هوميروس ماتت عند مولد آلهة فيدياس .
لقد صنع العامة آلهة ضارية فاسقة ، فصب الفنانون فيها أرقى المطامع الإنسانية ،
وصاغوها بحيث تعكس تطور الحضارة والثقافة عند الإغريق . وما أعظم الفرق
بين زيوس السفاك في خرافات هزيود ، وأب العالم الرائع الذي صيغ من الخيال
العالم لأسخيلوس ، واكتسى بحكمة سوفوكليس الصافية . لقد قرأت كثيراً عما يدين
به الفن للدين ، ولا يظهر أن أحداً يشعر بما يدين به الدين للفن .

ومع ذلك فلم يكن من الخير لقدماء الإغريق أن تنشأ الدراما من شعائر
ديونيسوس ، لأن الدراما أصبحت أدباً ، وأصبح الأدب فلسفة ، وأذابت الفلسفة

جميع العقائد والأفكار القديمة . ولم تكن إلا خطوة بسيرة حتى انتقل توحيد سوفوكليس الهادىء إلى شك أوربيدس ثم إلى عبارة صديقه بروتاجوراس المشهورة : « أما عن الآلهة أموجودة هي أم غير موجودة فهذا شىء لا سبيل إلى معرفته » . فأنت ترى أنك يا عزيزى كلارنس لم تكن أول لا أدرى .

كلارنس : كنت أشك فى ذلك .

تيودور : حقاً لقد ولدت الدراما فكرة حطمت فى النهاية الآلهة القديمة - « القضاء » ، القادر على كل شىء . و « القدر » الذى كان يحكم الآلهة والبشر على السواء . ومن هنا لم تبق إلا خطوة واحدة للوصول إلى فكرة القانون الطبيعى العام ، وهى الفكرة التى اضطلع بها الفلاسفة . ذلك أن نمو المعرفة أفضى بالناس إلى البحث عن تفسيرات طبيعية فى الأحداث العادية أولاً ، ثم فى الأحداث المقروضة آتيا علوية ، وأخيراً فى الكون ككل . واستبدل كبار الفلاسفة السلبين على سقراط الماء والهواء والنار بآلهة السماء . وعلم المفسطاثيون الناس فى الشك ، وقبلوا المذهب الطبيعى قضية مسلمة . فلم يلبث أن أصبح كل صبى ناشىء ملحداً ، حتى إذا كنا فى زمان أفلاطون رأينا انهيار ديانة الإغريق الأصلية (١) . يقول أفلاطون فى محاوره النواميس : « ما دام كثير من الناس قد توقفوا عن الاعتقاد فى الله ، وأصبح الحلف بالآلهة بدعة قديمة ، فليصطنع القضاء فى المحاكم مجرد الإثبات أو الإنكار » (٢) .

كلارنس : نحن فى طريقنا إلى بلوغ هذه النقطة فى الولايات المتحدة ، ومع ذلك لا يزال بعض البسطاء يتكلمون عن التقدم .

بول : لقد حذف من حديثك يا تيودور أن القديس سقراط ، كما كان إرازمس يسميه ، اقترح ديانة توحيدية ، وأعان على الأقل فى محاوره الدفاع اعتقاده الراسخ فى الله .

تيودور : نعم ، وقد كان فى فلسفة أفلاطون عنصر دينى عميق ، ولكن

(١) Murray, p. 107.

(٢) Laws, xii, 948.

إله سقراط كان « روحاً demon » (١) سلبياً فقط ؛ أما إله أرسطو فكان كما لا يتحرك مستغرقاً في النظر إلى ذاته .

كلارنس : كان فكرة مجردة ثابتة في مركزها .

تيودور : وكانت آلهة أبيقور ملوكاً لا عمل لها ، ولا تهتم بأمور البشر .

آريل : كانوا صحبة في حديقة خالدين فيها أبداً .

تيودور : ما أبرعك يا آريل في الإيجاء لي بأن أنهي الحديث . أسمحين لي بدقيقة أخرى ؟ في زمان فيرون والشكاك كان آلهة اليونان قد ماتوا اللهم إلا بالنسبة للطبقات الدنيا . وكانت الثقافة الهلينستية لا أدريه ، فانصرفت عن طلب الحقيقة ، وتعلمت الاستسلام ، ودرست لذائد الفن ، وفنون اللذة ، وتسلت بالجمال الذابل في عالم مول^٢ . على أن ذلك العصر كان من بعض الوجوه أنضج عصر في اليونان ، أشبه بالعصر الذي شاركت فيه جميع الطبقات المثقفة ثمار قوم من أمثال توماس هاردي ، وجورج مردث ، وجورج كليمنسو ، وأناطول فرانس .

بول : لقد انتصر الفلاسفة ، ولكنهم أغفلوا في انتصارهم شيئاً واحداً - أغفلوا هذا الاعتبار وهو : هل يمكن للقانون الخلقى إذا انتزعت منه العقوبات الأخروية أن يعلم الأمة ضبط النفس الضروري للاستقرار والقوة . ثم تختم الصورة بما قد تختم به صورتنا في هذا العالم الغربي : انحلال خلقى ، فوضى فردية ، فساد ، جريمة ، انتحار .

تيودور : ومع ذلك فقد أخذ الدين يولد من جديد بين طبقات الشعب . ذلك أن الوحي الذي كان يسمع في دلفي وديلوس ، والشعائر السرية في إليوسيس ، واندفاع العقائد الشرقية إلى بلاد اليونان في أعقاب عودة جيش الإسكندر ، قد جلب للطبقات الفقيرة في أمة منهزمة العزاء الذي تتعطش إليه . وازدهرت العبادات الأورفية بما أحدثته من تحول في عقيدة الجحيم القديمة ، فلا يمكن أن يتطلع

(١) من الصعب ترجمة « ديمون » فهو روح ، أو جن ، أو هاتف ، أو صوت - ولم يكن سلبياً فقط بمعنى أنه ينهى عن الفعل ، بل كان في بعض الأحيان إيجابياً يحث على العمل كما جاء في افتتاح فيلون من أن الهاتف أمر سقراط بإنشاء الشعر والموسيقى (المترجم) .

الظلام الجميع ، أما الصالحون فيذهبون إلى جنات إليزيوم Elysium السعيدة ،
وأما الطالحون فقد يمكن أن ينجوا إذا ملأ أيناؤهم أيدي الكهنة بالمال . يقول
أفلاطون : « يقف الرسل المستجدون بأبواب الأغنياء يستجدونهم ،
ويغرونهم بأن لهم قوة أودعتهم الآلهة إياها يغفرون بها ذنوبهم أو ذنوب آباؤهم
بالقرايين أو التعاويذ ، وبألوان الطرب واللعب . . . ثم يبرزون طائفة من الكتب
دونها موسى أو أورفيوس . . . يؤدون شعائرهم بحسب ما جاء فيها ، وهم لا يقنعون
الأقرباء فقط ، بل ملناً بأسرها ، بأن محو وغفران الذنوب . . . في يد الأحياء
والأموات على السواء . وهم يسمون مغفرة ذنوب الموتى بالأسرار ، التي تخلصنا
من عذاب الجحيم . أما إذا أهملناها فلن يعلم أحد ما يصيبنا » (١) .

وكانت النحلة الأورفية تعلم أن عذاب الإنسان راجع إلى جرعة قديمة
ارتكبها التيتان Titans (المردة) الذين عصوا أمر الله ، وتكفيراً عن هذا الذنب
الأصلي قيدت النفس في البدن كأنها في سجن ، ولا ينقذها منه إلا فضيلة الزهد
والصبر على أداء الشعائر . واستمع الناس الذين فقدوا الأمل في أطياب هذه الدنيا
إلى هذه العقيدة الجديدة وهم في شوق شديد إليها . وأفل نجم دين المدينة polis ،
وذلك الإخلاص القديم لدولة المدينة ، وأخذ الناس يتحدثون عن الخلاص
الشخصي في حياة آخرة ، والاستسلام لما في الدنيا من شرور . وأصبح عالم
الأرواح أكثر حقيقة من هذه المناظر الدنيوية التي تطالع الناس بالهزيمة والمجد
الزائل . وفي هذا العالم من التقوى والأمل ظهرت المسيحية ، وانتصرت روح
الشرق على الإغريق .

آرييل : شكراً لك يا تيودور . لقد بين لنا سير جيمس مولد الدين ، ثم
بينت لنا موته وبعثه . تعالوا بنا نتناول طعام الغداء ، وسننظر في مصير الآلهة
حول المائدة .

الفصل الثاني والعشرون

حول المائة

من كوتقوشوس إلى المسيح

١ - كوتقوشوس

كونج : لقد كانت النتيجة التي انتهيت إليها يا صديقي العزيز تيودور تبكيته لبلادي .. وأرجو أن تغفر لي ما أفترضه من أن تصوركم للشرق ظاهري جداً . فأنتم لا تدركون حتى حجم آسيا .. إنكم لا ترون أوروبا إلا على أنها أفضل قطعة من لحم القارة العظيمة - إن صح هذا التعبير - وهي ليست أصل أديانكم فقط ، بل لغاتكم وأجناسكم .. وإذا تذكرتم مبلغ اتساع آسيا أدركم مدى المخاطرة التي تجازفون بالتعميم عنها .. لا يمكن أن تهمو قارة ..

أرييل : هذا بديع يا كونج ، زدنا من هذا الحديث ..

كونج : الحق ليس هناك آسيا واحدة بل أربع .. آسيا الحربية في الشرق الأدنى - آسيا المسلمة ، أرض الدين الذي جاء يحمل السيف لا السلام (١) . ومع ذلك في الشرق الأدنى كم نجد من تعقيد في الجنس والحلق ؟ ... أترك عثمانيون ، أعراب ويهود ساميون (وحتى هؤلاء الإخوة مختلفون عظيم الاختلاف) فرس وأفغان ، قوقاز وأرمن . ثم هناك آسيا المتصوفة ، شبه جزيرة الهند العظيمة التي أرجو أن يتحدث لنا سيديا عنها . وهناك سيبيريا - المنغول ، والروس ، والكوريون ، واليابان ، وهذه أيضاً كتلة معقدة تتحدى أي تعبيرات

(١) يخطئ المؤلف في فهم معنى الإسلام ، فالإسلام من السلام بمقتضى اسمه ، وقد نجحت دعوة الإسلام لما فيه من مبادئ خالدة سامية . ودعوة الإسلام بالحكمة لا بالسيف ، كما قال تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » ... الخ (المترجم) .

معروفة . وهناك الصين أقدم الأمم وأحدثها مولداً في العالم . كيف ننظر إلى أمريكا نظرة جدية وعمرها قرنان من الحضارة على حين تبلغ حضارة الصين ٥٠٠٠ سنة ؟ إني أجد لذة في هذه المباينة السخيفة بين تقدم الغرب وركود الشرق . إني لأعجب كم مرة حرك التقدم الصين في تتابع حضارتها وعصورها « الوسطى » ؛ لقد جربت الصين جميع الأفكار وسئمتها . إنها أشبه بروتاجوراس الذي التزم تقاليد زمانه ، لأنه بعد أن جرب جميع البدع الدينية ورأى أنها كلها ناقصة وعرفية ، خلص إلى أن الفرق الحقيقي ضئيل جداً بين رأى وآخر ، أو بين دين وآخر ، فلا حاجة إلى اضطراب الفكر بشأنها . وإلى أن جاء الغرب فأسكرنا بنشوة الصناعة والديمقراطية والثروة كنا نحن الصينيين راضين بالعرف والسلام الحارى . فإذا كان التقدم ليس إلا مجرد تغيير سطحي كما يزعم بعض الفلاسفة ، فالصين على صواب : لأن التقاليد الحارية حسنة كأي تقاليد أخرى ، ولأن حياة الزراعة بما فيها من كدح هي وحياة الصناعة والأعمال الشاقة سواء . فالفلاح البسيط الذي يرعى أرضه ويعنى في تقوى بقبور أجداده يجد من السعادة ما يجده أي شعب على هذه الأرض الموبوءة بالإنسان .

آرييل : حدثنا عن ديانة الصين يا كونج .

كونج : ولكن يا سيدتي ، لا توجد ديانة صينية - هناك فقط أديان صينية . هناك بوذية الصين ، وإسلام الصين . ويوجد بين الشعب ديانة feichistic فتيشية تدين بالأرواح والأصنام images ، وطوطمية تعبد الحيوانات المقدسة . ولن أتحدث عن هذا لأن الخرافات تم الفلاحين في كل مكان . وهناك عبادة الأسلاف المفروضة على الجميع ما عدا « الوطنيين » الشبان ، وهي ديانة يحكم فيها الموتى الأحياء في كل عمل من أعمال الحياة تقريباً . وهناك ديانة لاوتسى ، الطاو Tao أو الطريق Way ، والتي تكاد تندمج اليوم في البوذية ، ولكنها لا تزال تخلق قديسين ينقطعون إلى التأمل وإنكار الذات . وأخيراً هناك الكونفوشيوسية ، ديانة الطبقات المثقفة في الصين مئات عدة عن السنين . ولست أعرف صفة يمكن أن تنطبق على جميع هذه الأديان معاً سوى أنها صينية . بل من الصعب حتى أن نصفها بأنها شرقية ، إلا إذا شئتم أن تصفوا المسيح أو مقراط كشرقيين .

ذلك أن ديانة لاوتسى تكاد تكون في جوهرها نفس ديانة المسيح . وديانة كونفوشيوس التي تسمى ديناً (إذ الأفضل أن توصف بأنها فلسفة) تشبه شياً غريباً فكر عظماء الإغريق . أسمحون لي بأن أتلو عليكم بعض أقوال لاوتسى ؟ :

« كافيء الإساءة بالإحسان . سأحسن إلى المحسن ، وسأحسن كذلك إلى المسيء . كني يصبح محسناً . سأكون أميناً مع الأمين ، وأميناً مع الخائن حتى يصبح أميناً . من لا يثق في الناس لن يجد من يثق به . تخلف إلى الوراء توضع في مقدمة الصفوف . تواضع تأمن . انحن تستقم . العظيم من يجعل التصاغر ديدنه . من يشعر بالقوة ويرضى بالضعف يكن سيد العالم . رأس الحكمة أن تعرف وتدعى الجهل . الحكيم من يعرف نفسه ولا يتباهى ، ويحترم نفسه ولا يطلب لها شرفاً . كل شئ في الطبيعة يجري في صمت . تظهر الأشياء إلى الوجود ولا تمتلك شيئاً ، وتؤدي وظيفتها ولا تطلب شيئاً . جميع الأشياء تعمل ثم تراهها تسكن ، فإذا فتحت وازدهرت عاد كل شئ إلى أصله . الرجوع إلى الأصل راحة أو نفوذ القضاء . وهذه الرجعة قانون أزل ، والحكمة في معرفة هذا القانون . لا تفعل شيئاً بإرادتك بل بموافقة الإرادة الأزلية . » (١) .

ماتيو : هنا كلام بديع ، ولكن الدين فيه قليل جداً .

كونج : وستجد أقل من ذلك في كلام كونفوشيوس ، لأنه لم يستعمل أي عبارات سماوية ، ولم يكن يهتم بالحياة الآخرة . سأله تلميذ عن واجب الإنسان نحو الأرواح فأجاب : « كيف يمكن أن نوّدي واجبنا نحو أرواح الموتى قبل أن نتمكن من أدائه نحو الأحياء » (٢) . فلما أُلح التلميذ في السؤال عن الموت ، أجاب الأستاذ : « قبل أن نعرف ما الحياة كيف يمكن أن نعرف ما الموت ؟ إن الحكمة هي الإخلاص في تأدية الواجب نحو الناس مع احترام الأرواح حتى نبعدها عنهم » (٣) إن دين كونفوشيوس كان بناء كبيراً من وحدة الوجود أفضل

(١) Brown, B., The Wisdom of the Chinese, pp. 85-120.

(٢) Brown., p. 31.

(٣) Thorndike, L., Short History of Civilisation. p. 254.

ما يقربه إلى أذهان الغربيين موازنته بمذهب سينوزا . تأمل هذه العبارات تر أنها تشبه بعض نصوص كتاب « الأخلاق » للفيلسوف اليهودي العظيم :

« الحق Truth قانون الله . . . ومعنى الحق تحقق وجودنا ؛ والقانون الأخلاقي هو قانون وجودنا . الحق ما به توجد الأشياء الخارجة عنا . . . هذا الحق المطلق لا يفنى . ولأنه لا يفنى فهو أزلي . ولأنه أزلي فهو موجود بذاته . ولأنه موجود بذاته فلا نهاية له . . . إنه باطن وعامل دون أن يشعر بذلك . . . ولأنه لا نهاية له وأزلي فإنه موجود في جميع الوجود » (١) .

لم يقدم كونفوشيوس للعالم لاهوتاً ، ولا عقيدة ، بل قانوناً خلقياً عظيماً وأرستقراطياً ، إنه : « طريق الإنسان الراقى » . وهو لا يشبه المسيح إلا في عبارات قليلة من مثل قوله : (قبل المسيح بخمسة قرون) « لا تفعل بالناس ما لا تحب أن يفعلوه بك » . ولكنه بسقراط وأرسطو وجيته أشبه ، إذ يوحد بين الأخلاق والعقل ، ويدعو لا إلى الخضوع والرقعة بل إلى تنمية الشخصية كاملة . وحين كنت أدرس في الصين كان عليّ أن أحفظ تعاليمه ، وأستطيع أن أتلوها عليكم ساعات وساعات :

« ماذا يكون الإنسان الراقى ؟ أن يهذب نفسه بمراعاة الاحترام . والإنسان الراقى حر الفكر وليس متعصباً ، أما الإنسان العادي فتعصب وليس حر الفكر . الإنسان الراقى يحب أن يتمهل في حديثه ، لأن هلاك الناس في لسانهم . إنه يعمل قبل أن يتكلم ، ثم يتكلم بما يتفق مع أعماله . إنه لا يجادل ، ويتوافق مع طريق الوضع . . . لانهاية للأمور التي تؤثر في الإنسان ، وعندما يخرج عن إرادته ما يحب وما يكره ، فإنه يتغير إلى طبيعة الأشياء كما تقبل عليه . الإنسان الراقى يلتمس في نفسه كل ما يريد ، والدنيء يطلب كل ما يريد من غيره . طلب الحق يشغل بال الإنسان الراقى ، ولا يخشى أن يصيبه الفقر . ويحزن لعجز قدرته لا لجهل الناس إياه . السر في امتياز الرجل الراقى هو عمله الذي لا يستطيع غيره من الناس رؤيته » (٢) .

(١) Brown, pp. 39-41.

(٢) Williams, E.T., China Yesterday and Today, p. 241; Anon, The Wisdom of Confucius, p. 132 ; Thorndike, p. 255. Brown, p. 24.

٢ - التصوف

سيدا : ولكن يا صديقي كونج ، ليست هذه ديانة . هذه أخلاق فقط .
وأسوأ من هذا أنها أخلاق للنخبة الممتازة فقط ، لأولئك السادة بالطبع الذين
لا يكاد أحدهم يحتاج إلى أخلاق أصلاً . كلا ، الدين شيء أكثر من الأخلاق .
ويغير هذه الزيادة تصبح الأخلاق ناراً من البعد بحيث لا تبعث دفناً . وليس
الدين كذلك عقيدة أو أي شيء فكري آخر . إنه شعور ، إنه غمر النفس المفاجيء
والشامل بضرب من الإحساس بالكل يحيل الأناية نكاً ، والتفرق ولاءً وجمعاً .
إني لأعجب إذا كان الغربيون قد تملكهم قط مثل هذا الشعور .

فيليب : حصل هذا الشعور ليعقوب بوهم Bohme ، والقس فرانسوا .

أندروا : كان بول بلاد Paul Blood يقول إنك تستطيع بلوغ هذا الشعور

بالأثير - بالتخدير الياطي .

سيدا : هؤلاء شواذ ، وتدل ندرتهم على ضعف سيطرة الدين على
شعوب أوربا وأمريكا . أما في الهند فن المسلم به أن هذه الوحدة بين الجزء والكل
هي جوهر الدين وليه ، فلا يسمى الرجل متديناً مجرد إيمانه بعقيدة أو أدائه
الشعائر . وكهنتنا المعروفون بالبراهمة يشتقون اسمهم من الإله براهما Brahma .
ولست تجد في هذا العالم أضيح ولا أكثر انفصلاً من الشخصية . والشخصية
اسم نكرة ، وتعني كل « الحقيقة » . وهذا يذكرنا مرة أخرى بسينوزا . وفي
مذهب البراهمة ، براهما وحده وهو الحقيقة المطلقة موجود ، وكل ما عدا ذلك ،
كل انفصال تنفرد فيه الأشخاص أو الأشياء فهو « مايا Maya » ، وهم ، فإذا
استطعت أن تشعر بشخصيتك الصغيرة قد ذابت ، وأصبحت تسبح راضياً في بحر
الوجود ، وكل شيء آخر سوى هذا الاتحاد يبدو لك حقيراً ، فقد عرفت ما الدين ،
وما الله ، وتصبح أنت نفسك جزءاً من الله ، وتغرق في بحر اللانهاية الإلهية .

آريل : أذكر عبارة لثورو (١) يقول فيها : « ألقيت بنفسي ذات يوم

(١) هنري ثورو Thoreau (١٨١٧ - ١٨٦٢) كاتب وشاعر أمريكي تأثر بفلسفة
إمرسون ، اشتهر بفرديته ، وحب الطبيعة ، وإيثاره البساطة البدائية ، ونزعتة نحو التصوف ،
وثورته على المجتمع والحكومة . له كتب كثيرة أشهرها « والدن » أو وحي الغابة ، وقد نقله إلى
العربية الأستاذ أمين مرسى قنديل ، ونشرته مكتبة الأنجلو عام ١٩٥٥ (المترجم) .

حار في مياه البحيرة الراكدة ، وكدت أغيب عن الحياة ، فأخذت أشعر بالوجود . ثم شرع يتحدث عن نفسه كجزء من « كائن واحد عظيم » مع الطيور التي كان يسمعها .

سيديا : إني أذكر هذه الفقرات يا سيدتي ، وما أحملها . ألم يبلغك أنه قرأ وأحب فلاسفة الهندوس ؟ فهو يقول : « كان من الملائم أن أعتمد على الرز في معيشتي ، أنا الذي أحببت هذا الحب فلسفة الهند » .

كلارنس : ولكن هذا الإحساس بالمجموع على الرغم من أساسه الانفعالي ليس بالضرورة دينياً . لقد رأيت مرة وأنا راكب قطاراً محلياً بسيطاً من خلال النافذة، نجماً عنبرية في سماء زرقاء تتخللها خطوط بيضاء . وانقطع مني النفس عندما غمرني جلال القبة الزرقاء . وشعرت بانجذاب قوى نحوها كأنى ذرة تافهة في محيط رائع . ومع ذلك أو كذلك أنى لست متديناً .

أندرو : ليست هذه النشوة بالاتحاد الأمر الوحيد في ديانة الهندوس . فهناك عبادة الجنس ، والتثليث ؛ والذي أعرفه أن كرشنا Krishna هو الشخص الثاني في الثالوث (١) الهندوسي ، تجسد رجلاً وخلص العالم . وهناك الآلهة المتعددة - عدد لا يحصى منهم ، ويقول ريناخ إن البانثيون الهندوسي يشبه غابة استوائية (٢) . إن ما يحبه الشعب ليس الإحساس بالكل بل قصة جيدة غير معقولة . وهذه النشوة الصوفية التي حدثنا سيديا عنها أبعد عن ذوقهم من الأسطورة القائلة بأن أحد الآلهة أغرق المحيط ، وأن إلهاً آخر تزوج عشرة آلاف عذراء في ليلة واحدة (٣) . هذا إلى لذة الشعب بأداء الشعائر - غسل أيديهم في نهر الكنجج (كما لو كان نهر الكنجج يجعل أى شىء نظيفاً) مرددين تعاويد وصلوات ، والاعتماد على القوة الإلهية الموجودة في التمام التناسلية . أليس هذا صحيحاً يا سيديا ؟

(١) الثالوث الهندوسي ، هو : براهما ، فشنو ، سيفا . أما كرشنا فهو رب النار والبرق والماء والشمس ، وفيه تجسد فشنو (المترجم) .

(٢) Reinach, p. 60.

(٣) Keyserling, Count H., Travel Diary of a Philosopher, vol., p. 100.

سيدا : كلا ، لقد أخذت القشور المبتدلة للدين على أنها روحه ، كما لو ظن فلاسفتكم اليوم أن بدن الإنسان أو جهازه المحرك له هو جوهره . وحتى الشعب البسيط الذي وصفت شعائره الصالحة كثيراً ما يصوم إلى درجة الموت جوعاً . ولست أعتقد في الشعور بلذة بديعة من الموت جوعاً ، إلا إذا كان ذلك سبيلاً إلى انعدام الشعور بالذات ، وإدماج الفرد العابر في الدنيا والأزلية . لقد رأيت منصوفة ضموا أيديهم منقبضة وظلوا كذلك زمناً حتى طالت أظافرهم وخرجت من ظهور أيديهم . لقد نسوا أنفسهم تماماً . أو تأمل بوذا : لقد حاول كالمسيح أن يظهر الدين الموروث من مفاسد الكهنة، وأن يعيد إليه صفاءه القديم . أتى أن يقتل البراغيث التي كانت تزعجه ، ولم ينطق إلا بالكلم الطيب حتى للنمور التي اعتادت التهام عدد كبير منا في الهند . ولم يكن كالمبشرين يجعل قبلته آخرة تتحقق فيها الرغبات ، بل كان يطلب الموت المطلق للشهوة ، ورفع جميع الحواجز بين شخصية الفرد وروح العالم . وهذه هي الترفانا (القناء) : أن تخلص نفسك من كل تفكير في ذاتك، فيرتفع جميع كياناتك إلى الحقيقة الأزلية . أندرو : إني أشك في أننا سنمارس جميعاً الترفانا . وما يعينني في مذهب بوذا هو إلحاده : فأنا أعتقد أنه أنشأ ديانته في غاية القوة بغير إله، أليس كذلك ؟ سيدي : إذا كنت تعني بالإله شخصاً سامياً ، فهذا صحيح . أما إذا كنت تعني روح الكل ، فلا .

أندرو : إني أفهم أن بوذا في أساطير الشرق يمثلونه على أنه ولد من عذراء، ويبدو أن كل إله لابد بمقتضى ميلاده. أن يقذف الأمم الطيبة بالمطاعن - تلك الأمم التي كانت في القديم رمز وينبوع جميع الآلهة .

سيدي : لا ينبغي أن تفهم الأساطير فهماً حرفياً ، إذ تفقد بذلك الحكمة العظيمة التي ألبستها في صورة فلسفية . وأعود مرة أخرى فأرجوكم أن تذكر أن هذه الأمور ليست ديناً .

أندرو : تعني أنها البراغيث التي تعيش على جسم الدين .

سيدي : إذا شئت ذلك . ولعلكم معشر الغربيين تتعلمون بعد جيل أو جيلين ماهية الدين . فلا سبيل إلى علمكم به اليوم لأنكم مقبورون في الآلات ،

وأفكاركم متعلقة على اللوام بالذهب . ولكن الصناعة ستخرب نفسها بالحرب ،
وتغرق سائر أوربا وأمريكا في بحر من الآلام . وعندئذ يزول الزهو بالشخصية
والثروة الفردية ، ويعود الناس في حمى العذاب إلى الشعور بالله - وهو تلك الروح
والحياة التي لا اسم لها ، والذي وصفه الحكيم الهندوسي بأنه « العدم » nothing
الذي بقي من الشجرة بعد زوال جميع أجزائها . ولا يزال الشرق يعود إليكم اليوم
كلما تبرمتم بالماديات والشهوات . إن العلم المسيحي ينمو بينكم أسرع من أي
وقت نمت فيه المسيحية . والتصوف الديني يستولى على قلوب الملايين والملايين
رجالاً ونساءً ممن يعرفون مقدار ما ينبغي أن تكون عليه الحياة المنعزلة من باطل.
ستفهمون ذات يوم الهند ، والدين .

تيودور : هذا شيء ممكن . إن تاريخ الدين صراع أبدي بين روح الشرق
وبين روح الإغريق .

٣ - اليهودية

إستر : إني أشعر مثل سيدنا بأننا أغفلنا بعض العناصر الهامة في الدين .
ونحن نتعمل هذه العبارة « إكراماً لله » ، فلا تكون في نظرنا سوى عبارة فقط .
ولكن الدين يأخذ الألفاظ مأخذاً حرفياً . الدين يدل على أداء الأفعال إكراماً لله
for God's sake ، فينكر المرء لذته الشخصية أو يتقبل العذاب العظيم في سبيل ذلك
المدبر النهائي والكلّي ، وهو الله . وأعتقد أن هذا الشيء العميق في الدين ،
هذه الرؤية vision التي بدونها تكون روح الأخلاق مجرد حساب ، هي الشيء
البارز في ديانة اليهود .

آرييل : نعم ، إني مندمسة كيف تحدثنا هذا الحديث الكثير عن الدين
دون أن نذكر شيئاً عن أعظم الأمم تديناً في التاريخ . حدثنا عن اليهودية يا إستر .
إستر : ليست القصة كلها بديعة ، ذلك أن هذا الدين الذي يعد أعمق
الأديان قد بدأ بالأنيسية والحرافة كما وصف سير جيمس . وكان أقدم من نعرفهم
من اليهود يعبدون الصخور والأغنام والماشية وأرواح الكهوف والآبار (١) . كانوا

Shotwell, p. 30. (١)

يجلون التائم feiches مثل التراقيم ، وهي أصنام كانوا يحملونها تشبه مجبودات الرومان المنزلية المسماة « لاريس Tares » ، كما كانوا يمارسون ضرباً من السحر البدائي . وكانوا يطلعون على إرادة الآلهة بإلقاء زهر من صنلوق (١) .

أندرو : ولا تزال تلعب هذه اللعبة لمعرفة إرادة الآلهة .

إستر : وكان لعبادة الأعضاء التناسلية نصيب كذلك . فالثعبان والثور كانا رمزين تناسليين ، وكانوا يتصورون الرب « بعل » Baal كبدل الذكورة الذي يخصب الأرض الأثني (٢) . وتكاد جميع الأعياد اليهودية تشتق من طقوس الزرع : المازوت Mazzoth (عيد الشعير) ، والشبوت shabuo:h (عيد الحصاد) ، والسوكوت Sukko h (عيد المظلة) ، كانت تحتفل في الأصل ببدء حصاد الشعير ، ثم نهاية حصاد القمح بعد ذلك بخمسين يوماً ، ثم قطف الكروم (٣) وكان « الفصح Passover » عيد أول نتاج القطعان : فيضحى بحمل أوجدى ويؤكل ، ويلطخ الباب يدمه ترضية للإله الجائع . وأصبح هذا العرف يفسر فيما بعد بأن الله قد ذبح أبقار المصريين ، ونجى بنى إسرائيل الذين علمت أبوابهم بدم الحمل . ولكن هذا التفسير من اختراع الكهنة . ذلك أن عيد الفصح كغيره من الأعياد مأخوذ من الكنعانيين المقهورين ، الذين كانوا يقدمون الجدى قرباناً لربهم المحلى . وكان الحمل في الأصل طوطم قبيلة كنعانية ، ثم انتقل إلى المسيحية وأصبح كـ « حمل الله Agnus de » ، رمز المسيح . وهناك بقايا طوطمية أخرى كتمثيل يهوه ثوراً ، وتحريم أكل لحم الخنزير ، ومن الظاهر أن ذلك كان يرجع إلى أن الخنزير البرى كان طوطماً لليهود الأوائل .

أندرو : ما هذا ؟ كنت أظن أن الأمر أمر صحة لا طوطمية . فى جميع

الشرق الأدنى الخنزير محرم خشية الحمى الترخينية Trichino i .

إستر : إن روبرتسون سميث وسلامان ريناخ ، وهما لا يتفقان أبداً إذا

استطاعا ، يتفقان فى رفض النظرة التقليدية . وعلى العموم فليس فى التوراة

Reinach, p. 177. (١)

Smith, W.R., p. 101. (٢)

Reinach, p. 184. (٣)

آية إشارة إلى مرض يفسر على أنه راجع إلى أكل حيوانات غير نظيفة . فالمرض يرجع إلى لعنة الأرواح ، وعلاجه الصحيح هو الرقية . أما حفظ الصحة فهي فكرة إغريقية . ستلهش يا أندرو حين تجد أن ريناخ يعد التفسير الصحي على أنه « علامة على الجهل » (١) .

أندرو : الحق لقد قرأت ذلك فيما كتبه رينان .

إستر : إن ريناخ يسخر من رينان .

أندرو : سيسخر علماء الإنسان يوماً ما من ريناخ . ولست تخفى هذه الحواجز من أسماء الثقافات . فثمة كثير جداً من العناصر الصحية في الشريعة الموسوية بحيث لا يكون من غير المعقول اعتبار تحريم الخنزير مسألة صحيحة . ومع ذلك امض في حديثك يا إستر ، فهناك على الدوام احتمال ضئيل أنتى على خطأ ..

إستر : الوصايا العشر في الشريعة المسماة بالموسوية عنصر أشرف بكثير من هذه الصحة المزعومة . ومع ذلك فهذه الوصايا أيضاً كانت بدائية ومحدودة . كانت الوصايا العشر شريعة للقبيلة لم تبلغ بعد مرتبة الإنسانية التي كان عليها انتظار إرسال الأنبياء . فالوصية القائلة : « لا تقتل » لم يكن معناها منع الحرب ، إذ أن يهوه كثيراً ما كان يأمر أو يقر الذبح بالحملة .

كلارنس : وأعلنوا الحرب على المديانيين midianetes كما أمر الرب موسى ، وقتلوا كل ذكر . . . وقال لهم موسى : « هل أبقيت كل أنثى حية ؟ .. فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال ، وكل امرأة عرفت رجلاً » (٢) .

إستر : نعم ، لقد نشأت أخيراً من تلك الوحشية أرفع مثل أخلاقية عبر عنها أي إنسان ؛ وكانت الشريعة الموسوية قوة دافعة في ذلك التقدم ، فهي التي كونت خلق اليهود القوي ، ومكنتهم بتنظيم الحياة وامتانة الفلسفة من تخطي جميع البلايا التي أنزلها هذا العالم المسيحي عليهم . كانت أول شريعة جعلت النظافة في المرتبة الثانية بعد العبادة ، واعتبرت بدن الإنسان هيكلًا تجب العناية به بنفس

Reinach, p. 18. (١)

Numbers, xxxi, p. 7, 15, 17. (٢)

الاهتمام الديني الذي نعى فيه بالنفس . وغالباً ما يصفونها بأنها لا تفضل كثيراً قانون حمورابي ، ولكنها كانت أول قانون منظم وضع أسس الرفق بالعبيد ، وكان في اصطناعهم اليوبيل الحسيني نعمة تكاد تكون اشتراكية . « والأرض لا تباع البتة لأن لي الأرض وتقدسون السنة الحسينية ، وتنادون بالعتق في الأرض لجميع سكانها . ستكون لكم يوبيلاً وترجعون ، كل إلى ملكه ، وتعودون كل إلى عشرته . » (١) . كان ذلك مثلاً أعلى لا يمارس بالفعل ، ولكن الأمم الأخرى لم تحظ حتى بالمثل الأعلى .

أما عن « السيد » السفاح يهوه الذي جاء ذكره في حليثك يا كلارنس ، فقد كان رب الحرب ، وليس إلا أحد الآلهة القبلية عند قدماء اليهود . ومن أقوال إرميا : « لأنه بعد مدتك صارت آهتك يا يهوذا » وعندما قالت نعي لراعوث : « لقد رجعت سلفتك إلى شعبها وآلهتها » أجابت راعوث : « شعبك شعبي ، وإلهك إلهي » . ذلك أن تغيير القبيلة كان يحمل معه تغيير الإله (٢) واستمر هذا التعدد في الآلهة حتى الزمان الذي دونت فيه أسفار موسى الخمسة ، لأن قصة الخلق كانت تروى أولاً منسوبة إلى يهوه ، ثم بعد ذلك منسوبة إلى «إلوهيم» (Elohim) وهو اسم جمع للآلهة . وكانت هذه الأسطورة الخاصة بالخلق وجنة عدن شائعة في شعوب آسيا الصغرى زمناً طويلاً قبل أن يدونها كهنة (بيت الرب) Temple في التوراة في القرن السابع قبل الميلاد . فهي موجودة عند الفرس ، والفينيقيين ، والكلدان ، والبابليين ، وغيرهم . وكتب هزيبود سنة ٨٠٠ قبل الميلاد بحكي الصورة الإغريقية للخرافة ، فقال : جزر السعداء ، حيث تنمو شجرة تحمل تفاحاً ذهبياً يهب الناس الخلود .

سيدا : وعند شعبنا أسطورة مماثلة . فكتب القيدا تحكي كيف أن سيفا siva أنزل شجرة تين من السماء وأغرى المرأة أن تغوى بها الرجل باعتبار أنها تكعب الخلود . وأكل الرجل ، فأنزل سيفا عليه اللعنة ، وقضى عليه بالبؤس والشقاء (٣) .

(١) سفر اللاويين - Leviticus, xxv.

(٢) Allen, p. 181 ; Smith, W.R., p. 37.

(٣) Doane, T.W., Bible Myths, p. 12.

كونج : في أحد الكتب المقدسة عند قدماء الصين ، المسمى تشي كنج ، يوجد النص الآتي : « كانت جميع الأشياء أول الأمر خاضعة للإنسان ، ولكن امرأة ألفت بنا في ذل العبودية برغبتها الطامحة في المعرفة . لم ينزل شقاؤنا علينا من السماء بل من المرأة . لقد أهلكت الجنس البشري . ألا ما أشقاك يا بوسى . لقد أشعلت النار التي تحرقنا ، والتي لا تزال كل يوم في ازدياد. » (١) .

فيليب : وراء جميع هذه الأساطير يشعر المرء بأن المرأة والمعرفة هما أصل جميع البلاء ، وهما القاتلان للحياة البريئة السعيدة . وتجد هذه النعمة تسرى في جميع صفحات التوراة حتى تبلغ التهم على المرأة في سفر الجامعة (٢) ، ثم هذه العبارة الرهيبة : « لأن في كثرة الحكمة كثرة الغم ، والذي يزيد علماً يزيد حزناً » وحتى المسيح كان يزدري الصلة الجنسية ، ومجد حكمة الأطفال .

كلارنس : حسناً ، في هذا الكلام كثير من الصواب . فهل نحن سعداء كما كنا حين كنا جهلاء ؟ ولماذا نحب وجوه أطفالنا الصريحة ؟ لعل ذلك لأننا نحسدكم على تحررهم من شهوة الجنس ومن المعرفة . ولكن لا تسمحى لنا بمقاطعة قصتك يا إستر .

إستر : لم تبقى إلا مسألتان : لقد أعطى اليهود للعالم التوحيد ، وأول تبشير بالعدالة الاجتماعية . كانت الصفة القبلية للآلهة القديمة راجعة إلى العزلة الاقتصادية واستقلال الجماعة من جهة ، ولأن كل إله متنافس كان السلف المعبود في قبيلة معينة من جهة أخرى . ثم أدى نمو التجارة وما ترتب على ذلك من نمو الترابط الاقتصادي إلى تحالف القبائل واندماج الآلهة . وأخيراً أصبح من الممكن التفكير بلغة إنسانية كلها ، وبإله واحد . وكان إشعيا Isaiah أول من عبر عن الله الأكبر ، وهو إله يكاد يكون جديراً بكوبرنيقوس : « هوذا السيد الرب من كال بكفه المياه وقاس السموات بالشبر وكال بالكيل تير الأرض ووزن الجبال بالقبان والآكام بالميزان . . . هوذا الأمم كمنقطة من دلو . . . هوذا الجزائر يرفعها كدقه » (٣) والتطور الذي جاء بعد ذلك هو تصور أيوب الله على أنه نظام

(١) Ibid., 14.

(٢) الجامعة Ecclesiastes هو ابن داود الملك في أورشليم (المترجم) .

(٣) Isaiah, xl (اشعيا - الاصحاح ٤٠) .

الكون . وهنا نجد أن ديانة اليهود بعد أن بدأت بالسحر والخرافة قد ارتفعت إلى آراء سينوزا السامية ، ومهدت الطريق للعلم الحديث . ولكن الفكرة التي كانت أعظم حتى من فكرة أحدية الله والنتيجة الطبيعية لها ، فهي فكرة وحدة الإنسانية ، ونهاية الحروب ، وانتشار العدالة الاجتماعية .

كلارنس : خروج الحرب على القانون مسألة سننظر في أمر البحث فيها .
إستر : ذهب عاموس إلى أورشليم ، و « وقف بالباب » (في جانب الشارع كما نقول اليوم) ، وأعلن دين الإنسان الجديد . « لذلك من أجل أنكم تلبسون المسكين وتأخذون منه هدية قمح بنيم بيوتاً من حجارة منحوتة ولا تسكنون فيها وغرسكم كروماً شهية ولا تشربون خمرها لأنني علمت أن ذنوبكم كثيرة ويل للمستريحين في صهيون المضطجعون على أسرة من العاج والمتمددون على فرشهم » فهذا كله لن ينفعهم في تقديم الضحايا لبيت الرب ، لأن الرب سيقول لهم : « بغضت وكرهت أعيادكم ، ولست ألتذ باعتكافاتكم . . إني إذا قدمتم لي محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضى ، وذبائح السلامة من مسمناتكم لا ألتفت لها . أبعد عني ضجة أغانيك ونغمة ربابك لا أسمع . وليجر الحق كالياه والبر كنهز دائم » (١) أو استمع إلى إشعيا يقول :

« الرب يدخل في المحاكمة مع شيوخ شعبه ورؤسائهم . . وأنتم قد أكلتم الكرم . سلب البائس في بيوتكم ؟ ويل للذين يصلون بيتاً بيتاً ويقرنون حقلاً بحقل فصرتم تسكنون وحدكم في وسط الأرض وماذا تفعلون في يوم العقاب حين تأتي الهلكة من بعيد ؟ إلى من تهربون للمعونة وأين تتركون محلكم ؟ لماذا لي كثرة ذبائحكم يقول الرب . أتخمت من محرقات كباش وشحم مسمنات أعيادكم بغضتها نفسي . صارت على ثقلاً . مللت حملها . فحين تبسطون أيديكم أستر عيني عنكم . وإن كثرة الصلاة لا أسمع . أيديكم ملآنة دماً . اغتسلوا تنقوا . اعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني . كفوا عن فعل الشر . تعلموا فعل الخير . اطلبوا الحق ، أنصفوا المظلوم ، اقصوا لليتم ، حاموا عن الأرملة » (٢) .

(١) Amos, v, 11, 21 f. ; vi, 1-4. (عاموس)

(٢) Isaiah, i, 11 f ; iii, 14 ; v, 8 ; x, 1 f.

أندرو : هذا بديع ، ما هنا الأسلوب ، وما هذه القوة .

إستر : لن تجد في تاريخ الدين أو تاريخ الأدب أبدع من ذلك . لقد منح الإغريق ، كما قال رينان ، العقل الحرية ، ولكن اليهود وهبوا الناس الأخوة . حصل الإغريق على الثقافة ، ولكن لم يكن لهم قلب ، حتى إن فلاسفتهم دافعوا عن الرق . أبدع الإغريق الفن والعلم ، ولكن بقي على اليهود أن يقدموا للعالم فكرة العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان . وبهذا الإيمان ستظفر إسرائيل الصغيرة التائهة وسط الإمبراطوريات القديمة والمتضايقة وسط الدول الحديثة بالنصر في النهاية . . . واليوم فإن الشعوب التي قهرتها أو استبدت بها تنحني لروحها ، وتتطلع إلى المثل التي وهبتها للعالم .

أندرو : من أشعياً إلى تروتسكى .

إستر : نعم ، ستكون الاشتراكية دين العالم حين تموت المسيحية .^(١)

٤ - المسيحية

آريل : إنك ملهشة يا إستر . إنك تجعليني فخورة بشعبى . والآن من يحدثنا عن المسيحية ؟ لست أنت يا أندرو الطروب ، لأنك لن تفعل أكثر من التماس عيوبها ؛ ولا أنت يا ماتيو ، لأنك تحبها كثيراً . ولعل فيليب الذى يستطيع الابتعاد عن التحيز إذا حاول ، يقدم لنا بعض الأسس التاريخية ، ثم نستطيع بعد ذلك أن ندخل في معركة حامية . أتوافقون ؟

ماتيو : لقد استنعت صابراً إلى هذا الوقت ، وأستطيع أن أستمع أكثر من ذلك . وأقرر مما سمعت أن الدين المقارن مذبذب يضحى عليه كل دين . أما فيليب فهو مخطيء دائماً ، ومع ذلك يغتفر له دائماً .

فيليب : إنك تتحدث كمسيحى يا ماتيو ، ولكنك ستندم حلالاً على شفقتك . ويسرنى أن أرى آريل تعترف بأهمية وضع المسيحية في الموضوع الصحيح من النظر الشامل . فكما يجب بعض الحاضرين معنا أن يقول : « النظر الشاملة

(١) المؤلف مسيحى ، ولكنه يحكى أحلام إسرائيل على لسان هذه اليهودية . وقد كتب هذا الكلام عام ١٩٢٩ فى الطبعة الأولى لهذا الكتاب أى قبل قيام إسرائيل بمدة طويلة (المترجم) .

هي كل شيء . لقد نشأت المسيحية من تيارين كبيرين معقدين من الظروف التاريخية : الأول نمو طبقة عاملة لا حيلة لها ولا أمل ، والاستغلال الصناعي والتجاري في بيت المقدس والإسكندرية وأنطاكية وأثينا وروما . والثاني اتصال واندماج أفكار اليهود الأخلاقية ، والتي أحسنت إستر وصفها ، بأفكار الإغريق الفلسفية والدينية .

ومن قبل أيام سليمان أدى مركز أورشليم الكائن في مفترق الطرق التجارية الكبرى التي كانت تربط بين فينيقيا والخليج الفارسي وشعوب البحر الأبيض بأشور وبابل وفارس ، إلى نمو المؤسسات والمطامع التجارية بين اليهود ، وإلى توسيع الهوة بين الأغنياء والفقراء . وكان اليهود الذين رجحوا من بابل معدمين . وقام الفاتحون من الإغريق والرومان بغارات وحشية على هذا الشعب العاجز واسترقوا منه الشباب بالآلاف . وفي طفولة المسيح باع الرومان مدناً بأسرها بالقرب من الناصرة في أسواق العيد . وفي كل مكان من ثغور البحر الأبيض الكبرى كانت تظهر طبقة من المعدمين ، وبدأت تتكون فيما بينهم نظرة دينية معادية ومضادة: لنظرة أسيادهم . أما الأغنياء فقد كانوا يؤيدون ، على الرغم من أنهم كانوا بينهم وبين أنفسهم لا أدريين ، العبادات والعقائد الموروثة . أما الفقراء فقد اصطنعوا قانوناً أخلاقياً جعل من ضعفهم وبؤسهم وفقيرهم فضائل ، واتخذوا ديناً بلغ ذروته في جنة ينعم بها العازر المعدم ، ونارٍ يشق فيها Dives الغني المليونير . ومن هنا جاء تشهير نيتشه بالمسيحية على أنها تغليب نوع أدنى من البشر على نوع أرق . وكانت الطبقة العاملة على استعداد لتقبل دين يقف إلى جانب الضعيف ، ويبشر بفضائل ذوى القلوب الوادعة المتواضعة ، ويمنح الأمل في جنة يعوض فيها صاحب الحظ السيء في الدنيا بسعادة أزلية . إن أعظم مشكلة دقيقة تواجهها المسيحية الحديثة هو التوفيق بين اعتمادها على الأغنياء وبين ولائها الطبيعي للفقراء .

وفي ضوء هذا الأساس من الظلم والفقر أرى شيوعية وأخلاق المسيح . ذلك أنه كان ولا ريب شيوعياً ، يعتقد أن جميع الأشياء الضرورية ملك للجميع ، وأن الغنى يجب أن يشارك الفقير في كل شيء ، ولو كان حياً اليوم كما قال نيتشه لكان مصيره أن يرسل إلى سيبيريا . ولكن أى إنسان ، غنياً كان أم فقيراً ،

بقراً قصته البسيطة كما يرويها الرسل الأولون لا يملك إلا أن ينجذب نحوه .
فهو أعظم الشخصيات التي لا مثيل لها في التاريخ مبعثاً على الإعجاب بها .
وللأسف أنه ارتبط بدين وكنيسة ، ولو أنى أزعج أن ذلك كان ضرورياً .
إذ حين تختفي تلك الكنيسة وذلك اللاهوت فقد تنسى البشرية معلمها العظيم .

ويمثل مذهبه الأخلاقي التصورات الأخلاقية لأشراف اليهود في صورة
مصفاة وسلمية . وقد بين كلاوسنر كيف أنه كان صورة كاملة لزمانه ، وكيف
ورث تقاليد البطولة التي عرفت عن أنبياء وحكام إسرائيل (١) . فنحن نجد أن
هليل Hillel ، وهو جد غمالاتيل Gamaliei الذي علم القديس بولس ، يتكلم
أحياناً بنفس ألفاظ المسيح قبل ظهوره بجيل ، وذلك مثل قوله : « لا تحكم على
جارك قبل أن تضع نفسك في موضعه » . « خضوعي هو محدي ، ومحدي هو
خضوعي » « لا تفعل بغيرك ما لا تحب أن يصنعوه بك ؛ هذا هو كل الشريعة -
ليس الباقي إلا شرحاً » (٢) وكما قال فلهوزن : « لم يكن المسيح مسيحياً بل
يهودياً » . وقال رينان : « المسيحية أروع ما أبدعته اليهودية » . أو هي بعبارة
هيني : بدعة يهودية (٣) .

ومع ذلك فقد أضافت المسيحية إلى اليهودية مذهباً يفسر إلى حد كبير
بجانب شخصية وأسطورة المسيح انتصارها . ولم يتكلم المسيح كثيراً في بداية
تبشيره عن عالم آخر ، بل عبر عن مملكة السماء بعبارات دنيوية ، أو كتصفية
خالصة للنفس . ولم تكن فكرة خلود النفس جزءاً من عقيدة اليهود التاريخية .
ذلك أن اليهود في أيام بأسهم وقوتهم كانوا يعلمون الفرد أن يترج نفسه بالجماعة .
وأن يكون عمله لنجاة نفسه أقل من خلاص الدولة . فجعلوا بذلك فكرة خلود
النفس تكاد تكون غير ضرورية . وكان أيوب أول نبي من شعبه أنزل خلود
الشخص منزلة الاعتبار ، لأنه لم يكن يستطيع التمسك بإيمانه في إله طيب دون
أن يفترض أن الله في العالم الآخر سيحسن جزاء من اتقى وتعذب في الدنيا .

(١) Klausner, J., Jesus of Nazareth, Book viii and passim.

(٢) Reinach, p. 204.

(٣) Klausner, p. 363 ; Renan, E. History of the People of Israel, vol. v, p. 355.

ولما فقد اليهود كل أمل في النصر في هذا العالم ، ظهرت فكرة الجنة التي يلقون فيها عوضاً في كتب الحكمة ، أخنوخ ودانيال . ولم يختلف الأمر عن ذلك مع المسيح ، ذلك أنه حين يئس من تأسيس مملكة السماء في الأرض وضعها في الجنة ، وبشر بيوم الدينونة Last Judgment الذي يقضى فيه على نصف الجنس البشري بما فيه من معظم النساء الحميلات في كل عصر بحجم أبدي لن تنطفئ ناره أو ينقطع عذابه .

ماتيو : لست أرى فيما صورتك السيد ابن الله .

فيليب : لعل صورتى وصورتك كليهما خطأ يا ماتيو . ومن يدري ؟ فهذا هو جمال الفلسفة ، أنك لا تجد فيها شيئاً يقينياً ، ولذلك لا يقتل الفلاسفة أحدهم الآخر ، ولا يزجون بالناس في الحرب . فإذا كنت أرى مرارة في المسيح في عهده الآخر فذلك لأنى أراه قائماً على أساس من مذهبه الأخلاقى نفسه ، وأحكم عليه بالكمال الذي يكاد يكون مستحيلاً والذي كان يبشر به . تلك المثالية الأخلاقية هي عندي جوهر المسيحية ، وهى ولا نزاع أعظم مساهمة في تحضير البشرية . ولا يزال عجبى قائماً كيف تولد في النهاية من القيد والغابة إنسان قادر على تصور البشرية كلها كفرد واحد ، وعلى محبتها وتحمل العذاب في سبيلها بما لا حد له .

ماتيو : ألا ترى يا فيليب أن الإرادة الإلهية وحدها هي القادرة على تحمل

مثل ذلك العذاب أو معرفة مثل ذلك الحب ؟

فيليب : ومع ذلك حتى هنا يجب أن نختلف ، لأن مذهب المسيح

الأخلاقى هنا لا يجب أن يؤخذ على إطلاقه ، إذ فيه عناصر هي موضع للتنازع مهما تكن سامية . وقليل منا هم الذين تبلغ بهم الشجاعة حد التصريح بما يعتقدونه في قلوبهم - إن شريعة المسيح إذا أخذت كاملة كانت غير عملية . فمن المستحيل أن « لا تفكر في عيشك ، ماذا تأكل أو ماذا تشرب » . فنحن لا يمكن أن نعيش كالطيور في الهواء ، بل أشبه بالزنابق في البستان . فمن العسير أن يجب أحدهنا جاره كنفسه ، ومن المستحيل أن نحب أعداءنا . إن الدعوة إلى عدم المقاومة في عالم يتكون الناس فيه بالانتخاب الطبيعى والكفاح في سبيل الحياة

هي دعوة إلى العدوان والاستعباد . وإن شعباً يحب أعداءه : فمسيره أن يمحي من على وجه الأرض .

كونج : كان لاوتسى أيضاً يعلم : « أحب أعداءك » . ولكن كونفوشيوس قال : « وبماذا إذن تكافئ الرحمة ؟ كافيء المحسن بالإحسان ، والمسيء بالعدل » .

بول : يجب أن تذكر أنه حتى إذا كان منسوب المسيح يباو مسرفاً في الكمال بالنسبة للبشر ، فقد كان ذلك هو الأمر اللائق بما يطلبه عالم بربرى . كانت وظيفة المسيحية الجوهريّة أن تهذب بفرض هذه الوداعة المتطرفة التوحش الطبيعي في جنسنا البشري . وقد أثمرت ألفا سنة من التبشير بعض الثمار الطيبة . فأننا أعتقد أننا اليوم أشفق ، وأكرم ، وأحب للسلم من الإغريق أو الرومان : فقد خففنا من وطأة الاستغلال ، وقلمنا أظافر التوحش ، وسمونا بخلق الإنسان .

فيليب : يخطر ببالى أحياناً أن المسيح حين كان يبشر بهذه الأساليب الكاملة قد كان ينظر إلى خاصة رسله وحوارييه ، وفكر أن يمنحهم نظام رهبنة قد يحصنهم من صنوف الفتن في العالم . كذلك فكر أفلاطون في حماية ملوكه الفلاسفة بنظام يكاد يكون شيوعية زاهدة . يقول المسيح لأتباعه ألا يتزوجوا ولا يفتنوا . إنه ينظر إليهم كأنهم رهبان فرنسيسكان . كان يعرف كما نعرف أن معظم الناس سيستمرون في إدمانهم الباطل على اقتناء المال والزواج من النساء . إن سوء فهم مذهبه على أنه المقصود به جميع الناس هو الذي ألقى بالمسيحية في أحضان تفاق لزيد ليس له من الوجهة العملية أثر في العالم .

أندرو : ما لا أحبه في هذا المعلم النبيل هو عداوته للحسد ، وقلة اكتراثه بالمتع البسيطة لغرائزنا الإنسانية . أحسب أنه « بيوريتاني » يهودى .

ماتيو : إنك تسيء فهمه ، فلم يحتقر أن يحيل الماء خمرأ في قانا Cana . وقد لامه خرقاء أهل زمانه لتساهله مع جامعي الضرائب المرتشين والمجذليات الخاطئات . كان يفهم خطايا الحسد في حنان كحنان الأم . لقد نسيت قصة المرأة التي اتهمت بالزنا .

فيليب : صحة الرواية موضع شك يا ماتيو . ومع ذلك فمجرد تدوينها دليل

على أن الرفق بالمرأة جزء من وصف المسيح . الحق أن يتحول في خلال قرن أو قرنين ذلك المحتقر بقلبه للأغنياء والمحب بإخلاص للفقراء إلى بطل لأسطورة لاهوتية ، لدليل على ظماً البشرية الدائم للخرافات ، وعلى قوة تأثير الأساطير القديمة في تكوين العقيدة المسيحية . ذلك أن فكرة ابن للإله ، ومخلص يولد من عذراء ، ويموت تكفيراً عن خطايا البشر ، ثم يبعث مرة أخرى من القبر ، من الأفكار الشائعة في كثير من الأديان قبل المسيحية ، أو مستقلة عنها : ففي الهند مثلاً « كرشنا » ، وفي مصر « حورس » ، وفي المكسيك « كاتسالكواتل » Quetsalcoatl (١) .

تيودور : وكان بسطاء الإغريق يتصورون أورفيوس إلهاً مات ميتة فظيعة ، ثم ذهب إلى الحجيم ، وعاد بعد ذلك إلى الحياة . وتروى القصة ذاتها عن برومئوس ، وأدونيس ، وهرقليس (٢) .

سير جيمس : يشيع في الأديان القديمة وجود آلهة يصبحون بشراً . وفي إمبراطورية الصين ، كانوا يحتفظون بسجل يكتب فيه جميع الآلهة المتجسدة ويحفظ في إدارة الأقاليم في بكين . وبلغ عدد الآلهة الذين منحوا حق الحياة على الأرض ١٦٠ . وترجع فكرة « المسيح المخلص Messiah » إلى كبش الفداء الذي كان الشعب يختاره لموت تكفيراً عن خطاياهم وترضية لآلهة الأرض والسماء كي ينمو القمح مرة أخرى . وهي فكرة تتردد عند كل شعب (٣) .

إستر : في القرن السابع عشر ادعى زياتاي زيفي أنه المسيح الذي أرسله الله لتخليص اليهود .

سير جيمس : عندنا حالة أحدث من ذلك بكثير . فحوالي عام ١٨٣٠ ظهر رجل في كنتاكي زعم أنه ابن الله ومنقذ البشرية . واعتقد فيه آلاف من الناس وشاع إنجيله ، إلى أن طلب منه أحد أتباعه أن ينزل رسالته باللغة الألمانية على التيوتون الموجودين في الإقليم ممن كانوا يجهلون اللغة الإنجليزية . وحرام أن يذهبوا

(١) Doane, op. cit., pp. III f.

(٢) Ibid.

(٣) Frazer, pp. 93, 103, 580 f.

إلى النار لذلك السبب . ولكن « المنقذ » الحديد اعترف بأنه لا يتكلم الألمانية .
عندئذ صاح أحد أتباعه متعجباً : « ماذا . أنت ابن الله ، ولا تعرف حتى الألمانية ! »
وكان ذلك خاتمة مسيح كنتاكي (١) .

فيليب : بعد أن جعل قدماء المسيحيين السيد المسيح إلهاً اضطروا إلى
استخدام بعض الحيل اللاهوتية لمواجهة مطلبين : الأول التماثل المنطقي للعهد
المقدس ثلاثة ؛ والثاني العقيدة التوحيدية . كان العرف السائد عند اليهود مؤدياً
بالطبع إلى التوحيد ، ولكن إله اليهود كان إله حرب وقوة ، وكان طعام المدن
الذين اتجهت المسيحية إليهم يطلبون إلهاً للتسامح والشفقة والمحبة . وهكذا مات
يهوه « وولد » الإله الأب . ولكي يوفقوا بين ملكه العام وبين وجود الشركاء ،
كان لابد من اختراع ، على طريقة الفرس ، إله للشر - هو الشيطان ،
أو إبليس . وفي الوقت نفسه كان لابد للعقيدة الجديدة أن تتلاءم مع العرف
الحارثي بين شعوب البحر الأبيض من عبادة ثالوث من الآلهة . فقد عبد
الهندوس ، والمصريون ، والفينيقيون ، والأشوريون ، والرومان ثلاثة آلهة على
أنها ثلاثة . ولكن النزعة إلى الوحدة وبخاصة بين اليهود تطلبت تركيب آلهة المسيحية
الثلاثة في ثالوث ، وقام فلاسفة الإسكندرية بهذه المهمة في ضوء الفلسفة
والأساطير الإغريقية . وهكذا أول المثقفون من المسيحيين الدين الجديد تأويلاً
توحيدياً ، على حين رأى العامة فيه لوناً جديداً بديعاً يختلف عن معبوداتهم المتعددة .
وحلت مريم محل فينوس ، وأفروديت ، وعشتار ، وإيزيس ، و« الأم الكبرى »
في عبادة فرجيا . وأصبح مارس ميكائيل كبير الملائكة ، ومركوري روفائيل
وجبريل . وفيما بعد ولى القديسون كورثة للآلهة الوثنية الصخرى ، فلكل أمة ،
ولكل مدينة ، ولكل طائفة قديسها الحامي ذمارها كآلهة محلية في الزمن القديم .
وهكذا تجددت نزعة البشرية الطبيعية إلى تعدد الآلهة .

وكذلك بقيت الأعياد القديمة ، واندمجت بحكمة أعياد مثل عيد الموتى
All Souls ، والقديس جورج ، والقديس يوحنا المعمدان في أعياد قبل المسيحية .

Ibid, p. 102. (١) .

و ضم عيد القيامة عيد الفصح عند اليهود ، وعيد عشتار عند البابليين ، واحتفال الإغريق ببعث أندونيس . وكان عيد الميلاد Christmas في الأصل عيداً مصرياً خاصاً بمولد الشمس ، أى عند الانقلاب الشتوى حين « يتحرك » الفلك المقدس شمالاً ، وتأخذ الأيام تطول . وكان المصريون يمثلون مولد الشمس الحديد بتمثال طفل يبرزه الكهنة ويعرضونه على المتعبدين (١) . وتعديلت في الوقت نفسه الاحتفالات القديمة لتصبح ملائمة . كان التعميد من الشعائر البدائية التي كانت تدل على تكريس الصبيان لحياة الشباب ومزاياها . وكان ذلك التكريس يتخذ هيئة غمس تام في الماء ، ثم إنقاذ مزعوم من الغرق دليلاً على ميلاد جديد .

تيودور : في عبادة ديونيسوس كانوا يسمون المكرس « المولود مرتين » (٢) .

فيليب : لقد نشأ القربان المقدس ، كما بين سير جيمس ، عن عادة أكل الإله . وقد أخذ القداس فيما عدا التدشين من الشعائر التي كانت تقام في معابد اليهود ، وكذلك الملابس والأناشيد الكهنوتية اليهودية . وكانت الكنائس في أول أمرها معابد يهودية synagogues . وجيلاً بعد جيل أصبحت هذه الشعائر أدنى إلى التعقيد ، وأصبحت العقائد أبعد عن التصديق . وأخذت طبقة الكهنوت تقوى كمتخصصين لازمين في اللاهوت والشعائر ، ووسطاء بارعين بين المذنبين من الناس وبين إله لا يمكن أن يرضى عنهم إلا بسلك طرق معينة مقدسة . وساد في القرن الثامن عشر الاعتقاد بأن الكهنة هم الذين ابتدعوا الدين . فقد تساءل فولتير : « من ذلك الذى اخترع فن التأله ؟ » ثم أجاب : « هو أول محتال قابل أول مغفل » (٣) . ومع ذلك ليس الكهنة هم الذين أبدعوا الدين ، بل الدين هو الذى خلق الكهنة . ذلك أن ما فى الإنسان من أمل وإيمان لا يمكن استئصالها هو الذى خلق الدين ، وسيخلقه على الدوام . ولكن الكهنة هم الذين خلقوا الكنيسة ، فقد نظموا أنفسهم في سلطة كهنوتية قوية تمول من أسفل وتحكم

(١) Frazer, pp., 345;60.

(٢) Kalien, Horace, Why Religion, p. 242.

(٣) Essai sur les Moeurs, in Reinach, p. 9.

من أعلى . وهم الذين نصرروا قسطنطين ، وتخلوا « الهبة Donation » (١) المشهورة ، وقبلوا وصايا غنية ، وأخيراً جعلوا كنيسة فقراء الصيادين وهم رسل المسيح أغنى وأقوى منظمة عرفها العالم . وبلغ ما تملكه الكنيسة في عصر الإصلاح الديني ثلث الأراضي المزروعة في أوروبا ، وامتلات خزائنها بالمال . فلا غرابة أن تفقد روح « مؤسسها » وأن تهوى إلى الانغماس في كل متعة دنيوية ، وأن تتجر في الرتب الكهنوتية . لقد قلبت أوروبا المسيحية فضاعت صرامة العبادة القديمة الشرقية في الوثنية المولدة في عصر النهضة . ذلك أن الأديان تولد بين الفقراء ، وتموت بين الأغنياء .

وحاول « الإصلاح الديني Reformation » أن يستعيد ذلك الزهد القديم وتلك البساطة البدائية ، فنجح وجلب معه فردية محررة للمهم ، وفي الوقت نفسه قانوناً شديداً تهذيب النفس أدى إلى بناء الخلق المستقل لم يسبق لقانون غيره أن أثمر هذه الثمار ، إذ يكاد العطاء في التاريخ السياسي والاقتصادي الحديث أن يكونوا من البروتستانت ، ولكن ثمن ما قام به الإصلاح الديني كان فادحاً إذ وضع الكتاب المعصوم محل الكنيسة المعصومة ، ولما لم يجد مثل هذه الكنيسة أباح للفرد تأويل الكتاب المقدس . وترتب على ذلك أن كل هرطيق أسس فرقة جديدة ، وانشقت البروتستانتية إلى مئات من الشيع . ثم إنها بما حاولته من تجديد المسيحية البدائية قد أعادت روح اليهودية ، وأدخلت في الأخلاق تَزَمَّتاً Puritanism شديداً وجافاً كاد أن يفسد الفن قرنين من الزمان . أعطتنا الكاثوليكية جمالا بلا حق ، وحاولت البروتستانتية أن تعطينا حقاً بلا جمال . وأحب أن الجمال سينتصر في النهاية .

٥ - الكاثوليكية والبروتستانتية

ماتيو : « الجمال والحق » . ألم تفكر يا فيليب. أبدأ أن أحدهما ليس بأكثر موضوعية من الآخر ؟ فنحن لا يمكن أن نتفق حول الله ، بأكثر مما يمكن أن نتفق حول . . .

(١) يشير المؤلف إلى هبة قسطنطين المشهورة ، والتي زيفت في القرن التاسع ، وتذهب إلى أن قسطنطين حين اعتزل في البوسفور عام ٣٣٠ تنازل عن جميع حقوقه وأملاكه كإمبراطور للغرب إلى البابا في روما وخلفائه . ويقال أن شريمان أيد هذه الهبة (المترجم) .

أندرو : الإلاهات .

ماتيو : فليكن ، يا قليل الدين . اعلم يا أندرو أنك لا يمكن أن تحس بالدين لأنك لا تستطيع أن تشعر بالجمال المنفصل عن الرغبة ، ذلك الجمال العارم الذى تلبسه الأرض أحياناً فى الحريف أو فى بعض أيام الصباح المشرقة فى الشتاء حين تنحلى كل شجرة بالثلج المتألق ، ويسطع كل سطح بالجليد . إن الحق ليبدو شيئاً هزيباً جداً إلى جانب مثل هذا الجمال . وكيف تعرفون أيها المتشككة التصاء أنكم قد حصلتم على الحق ؟ إن علمكم يتغير كل يوم ، وما يعرفه هذا العلم اليوم عن المادة أقل بكثير مما كان يظن أنه يعرفه منذ خمسين عاماً مضت . وينتقل علم الحياة من يقين إلى ضده كل ثلاثين عاماً ، فى جيل كان كل شىء يرجع إلى البيئة ، وفى الجيل التالى إلى الوراثة ، وفى الذى يليه إلى البيئة . وتسود فى جيل نظرية التغير بالمصادفة fortuitous variations ، وفى الذى بعده نظرية التحول بالطفرة mutations . ويشيع فى جيل من مذهب التكوين التناسلى pangenesis ، وفى الآخر الصبغيات والمورثات genes . وتسمع فى جيل أن القرد جدنا ، وفى الذى يليه انه ابن عمنا ، والذى بعده أنه لا تمت لنا بصلة القرابة أصلاً . إن علم النفس لا يعرف هل الشعور موجود أو لا ، والرياضة لا تعلم أيكون الخط المستقيم أقصر مسافة بين نقطتين . ثم تريد منى بعد ذلك أن أهجر كل الجمال الذى كشفت عنه نظرة المسيحية إلى العالم من أجل هذه « الحقائق » الآخذة فى الموت . ألا ترى أننا ذرات مغرورة حين نظن أننا نستطيع أبداً فهم هذا الكون ، أو إخضاع جميع أسراره وأموره المعقدة لقطعة صغيرة منه تسمى العقل البشرى ؟ وما عقلكم سوى الإيمان بالحواس وبالمنطق - الحواس التى تقطع أوصال كل ما تقرره ، والمنطق الذى يستطيع أن يجعل كل تخير يبدو معقولاً .

أما أنا فأرى مجال الاختيار قليلاً جداً بين نظريات العالم على أساس صحتها ، وإنى لراض أن أحافظ على ذلك المذهب الذى يلهمنى بالجمال ، ويشد عزمى بالأمل . وحين تمحى جميع مذاهبكم ، سيظل الإيمان الذى أتمسك به يشعل قلوب مئات الملايين من البشر . ولعل أحفادكم يهتدون إلى الإيمان من هذه

اللاأدرية الباردة التي تورثونها إياهم . ويوماً بعد يوم يشنى العالم الغربي من تلك الغلظة الشنيعة : « الإصلاح الديني » . وسيعود كثير من فرق البروتستانت إلى الحظيرة بعد أن ملت الانقسام والتنازع ، وستنحل الفرق الباقية بالتهافت على التجديد (مودرنزم) ، وتحديد النسل . إن سرطان الفردية آخذ في التهام الكنائس التي انشقت على روما . وعندما يدعى كل امرئ أنه حجة في الفلسفة واللاهوت ، يحدث في الدين ما يحدث في الديمقراطية : التمزق والفوضى . وحين يحل الفرد محل الأسرة ، وتحل الإباحية محل الزواج والأبوة ، ينحط الجنس .. ونحمد الله أن بيت الكاثوليك رجلاً ونساءً لا يزال أحدهم مالياً لصاحبه إلى النهاية ، وأن الأطفال لا يزال يتاح لهم أن يجعلوا من البيت نعمة بنموهم الرائع ولعهم السعيد .

بول : في كلامك يا ماتيو الكثير من الحق ، فنحن البروتستانت يظهر أننا نفنى أنفسنا بكثرة الشيع الطائفية ومنع الحمل .. واليوم تبلغ نسبة الكاثوليك اثني من كل خمسة مسيحيين في أمريكا .. إن معدل مواليدكم يقضى علينا ، وستكون البلاد لكم سنة ٢٠٠٠ إذا استمرت النزعات الحاضرة . سيكون ذلك خيراً من جهات كثيرة .. فأنا أسلم لك بأن ديانتك أسعد وأجمل من ديانتي .. أسلم لك بأن النظرية الكاثوليكية عن الزواج فيها كثير من الحكمة ، وفي سلطة الكنيسة عندكم كثير من النبل ، وفي قساوستكم ورهبناكم القديسين محبة بديعة ورقة رقيقة .. لقد تأثرت إلى أعماق قلبي بالسلطة التي كان من الظاهر أنها قابضة على أتباعها ، عندما رأيت المهندسين والعمال قد جاءوا زرافات من محطة بنسلفانيا الهندسية ، وركعوا في خشوع على الأرصفة يطلبون البركة من الكاردينال مرسيه .. ولئن أنسى شخصية « المحقق الكبير » التي صورها دستوفسكي . وأكبر الظن أن الحياة بما فيها من علل وحرمان وخيبة أمل لن تكون محتملة بغير الشعر الذي كان إيمان العجائز يضيفه على نثر حياتنا الاقتصادية .

اندرو : ما دام الشعب يجب أن يخدع ، فلنخدعه .

بول : ولكني أقول لك يا ماتيو بصراحة إنني أخشى مذهبك ، فلن أنسى قط أن كنيسةكم أقامت في الماضي محاكم التفتيش ، وأنها نفت كوبرنيق ،

وأخذت صوت جاليليو ، وحرقت برونو حياً مشدوداً إلى سارية في الميدان العام .
وكثيراً ما وقفت في طريق تقدم المعرفة وتحرير العقل البشرى . ولست مرتاحاً
حين أفكر أن كنيسةكم إذا لم تحدث تغييرات كبيرة في معدل المواليد فيظهر أن
مصيرها قبل نهاية هذا القرن أن تصبح العامل المسيطر على الحياة الأمريكية .
إنها اليوم أقوى أقلية منظمة ؛ فهذه بوسطن ، موطن البيوريتان (المتزمتين) مدينة
كاثوليكية ؛ وفيلادلفيا ، مقر الإخوان المهترين (١) Quakers ، مدينة
كاثوليكية ؛ ونيويورك موطن البروتستانت من الإنجليز والهولانديين هي الآن
مدينة كاثوليكية .

ماتيو : ألا تظن أن الوقت قد حان كي ننال حظنا ؟ - إنه بعد أن تحملنا
بصبر الاضطهاد والعار من رجالكم وطوائفكم ممن لا يعرفون شيئاً فيجب أن
نكافأ بالاحترام والقوة ؟ هذا وليس من الصحيح أن الكنيسة عارضت تقدم
المعرفة ، بل إنما عارضت - وذلك زمان عزها وشعبيتها - الأفكار الضالة التي
كانت ، أو ليست إلا بدعاً فكرية بنت ساعتها . لقد رفضت أن تسمح لأتباعها
بالسقوط في مهاوى فوضى العقل والنظريات التي تشيع في أوساط المفكرين
المتقدمين في زماننا . حقاً وقفت سلطة الكنيسة في بعض الأحيان إلى جانب
خطأ قديم . ولكن ماذا تريد من البشر ؟ ألم يفضل قط الحزب السياسي الذي أيده
في الانتخابات الماضية ؟ وبعد فقد كانت الكنيسة أعظم قوة خلقية وفنية وفكرية
في تاريخ ألبى العام الأخيرة . كانت محاكم التفتيش نتيجة حركة الإصلاح
الديني ، وكانت تلك المحاكم فرعاً مؤقتاً من الخوف وتأميناً للنفس . ثم من أول
من أسس حرية العبادة في أمريكا ؟ ليس هم حجاج نيو إنجلند الذين أجمعوا على
علاج الإخوان المهترين Quakers بالحديد المحمي بالنار ، بل كاثوليك
ماريلاند . أينا أكبر ذنباً في إشاعة الجهالية Obscurantism (٢) والعداوة
للعلم الحديث - أهي الكنيسة الكاثوليكية التي لم يكن سلطانها في النمسا وبفاريبا

(١) فرقة دينية ليس لها عقيدة محددة أو سلطة كهنوتية منظمة ، أسسها جورج فوكس ١٦٤٨ ،
وسمى أصحابها بالمهترين لأن القاضي بنيت في دربي ، الذي وقف أمامه فوكس سنة ١٦٥٠ كان أول
من ساهم كذلك ، حين أمر فوكس القاضي أن يهتر ويرتعد عند سماع كلمة الرب (المترجم) .

(٢) الجهالية مذهب من يعارض البحث والإصلاح (المترجم) .

وفرنسا عائقاً لحرية الفكر هناك ، أم الأصوليون (١) Fundamentalists من البروتستانت في أمريكا الذين سمحوا للمشرعين الريفين أو بسطاء الفلاحين بتقرير ما هو صحيح أو باطل في علم الحياة الحديث ؟ هل المجالس المعصومة أو الفلاحون المعصومون أفضل من الكنيسة المعصومة ؟

بول : هذه ضربة في الصميم يا ماتيو . ولا اعتذار عندي لهؤلاء القوم فهم الخندق الأخير في الدفاع عن الجهل ، وسهنتهم مدارسنا وجامعاتنا قريباً . أما بروتستانتيتي الخاصة فإنما هي ملاذ من الردة إلى الحرافات ، ولو أننا فخرنا بالإلحاد في وجه شعب كان الله في حياة أفرادها البائسة الحقيقة العليا ، وكان خلود النفس عزاء لا غنى عنه ، فإننا ندعو بذلك إلى تعصب لحماية النفس ، ونسوق الجبناء إلى ألوان من التطرف يعرضون به عما يكتف نفوسهم من وجل . وفي هذا الجو من تبادل البغض والخوف لا أجد أملاً في أن يلقي المذهب المتحرر الذي أعتقه إلا فرصة ضيقة للنمو ، فالعقل لا يجدر واجاً في أوقات الخطر . ومع ذلك فسوف ننتصر ، لأن اتساع نطاق الطبقة الوسطى مع انتشار التعليم من الأمور المعينة لنا . وأكبر الظن أن انتصار الكاثوليكية العظم سوف يؤدي بالأحرار من كل لون إلى الاتحاد في ضرب من المسيحية المعتدلة لن تطلب من أتباعها شيئاً أكثر من الإيمان بالله والتمسك بأخلاق المسيح .

كلارنس : اعلم يا بول أن بروتستانتيتك مقضى عليها . يكفي أن تنظر إلى انحلالها ، فقد انشقت إلى آلاف من القطع المتناثرة ، إلى جماعات صغيرة عنيدة يحتضن كل منها هيرطقته حتى تصبح مذهباً سلفياً لا يتحرك ، وكل منها يبغض ويزدري سائر الألوان الأخرى من فرق البروتستانت . وهذه قصاصة من جريدة نيويورك الصادرة في أول نوفمبر ١٩٢٨ ، تتحدث فيها عن البروتستانتية في الولايات المتحدة :

« من الظاهر وجود خمس جماعات من « المهديين Adventists (٢) »

(١) فرقة من البروتستانت سميت كذلك لأنها أرادت أن تتمسك بأصول الديانة المسيحية والمحافظة عليها ، ويقابلها المتحررون modernists (المترجم) .

(٢) المهديون فرق مسيحية تعتقد في ظهور المسيح مرة أخرى وقرب نهاية العالم (المترجم) .

وثماني عشرة فرقة من «التنصيرية Baptists» ، وخمس من الإخوان والألمان
التنصيريين ، وست فرق من إخوان بليموث ، وثلاث فرق من إخوان النهر ،
وثلاث فرق من الإخوان الاتحاديين ، وست فرق من أنصار الكنيسة الارثوذكسية
الشرقية ، وإحدى عشرة فرقة إنجيلية ، وأربع فرق من الأصحاب Friends ،
وثلاث وعشرين من اللوثريين ، وسبع عشرة من المينويين (١) Mennonites ،
وتسع عشرة من المهجيين (٢) Methodists ، وتسع من المشيخيين Presbyterians ،
وأربع من الكنيسة المصلحة Reformed Church ، وأصناف أخرى متعددة
كل صنف منها يبلغ من فرقة إلى ثلاث . . . مثل التنصيرية من أصحاب المبادئ
السته العامة ، والتنصيرية الاختيارية ، والتنصيرية النظامية ، والتنصيرية البدائية ،
والتنصيرية القدرية ، وتنصيرية اليوم السابع ، والمينوية الألمانية (٣) المحافظة
Conservative Amish Mennonites ، والمينويين العزل ، والمينويين المستقلين
عن الكنيسة . ونجد من المهجيين هذه الأصناف : البدائين ، والمجمعيين ،
والمقدسين ، والمصلحين . . . وهناك . . .

بول : كني يا كلارنس ، أنا مقتنع بأن البروتستانتية منقسمة ، فطريقتنا
أن نترك الفرد ، في ضميره وفي جماعته ، حراً ليكون متميزاً ومنطلقاً كما يهوى .
وهذا أفضل من إلغاء التعدد بسلطة مركزية شديدة ولا رقيب عليها .

ماتيو : السلطة هي البديل عن الفوضى .

كلارنس : ستهلك البروتستانتية بسبب فقدانها البر الذي ترسو عليه
والمركز الذي تجتمع حوله . إنها تقف في وسط الطريق بين الرومانسية والتربية .
وما ذكره فولتير عن الشعب يصح قوله على الدين : يضع حين يتجه نحو العقل .

(١) هم أتباع سيمونس مينو Simons Menno (١٤٩٢ - ١٥٥٩) ظهر في فريزلاند ،
وعدل مذهب اللاتنصيريين Anabaptists ، ولاتزال فرقته موجودة في أمريكا وهولندا وألمانيا
(المترجم) .

(٢) أتباع جون وشارلي ويسلي Wesley ، نشأت في جامعة اكسفورد عام ١٧٢٩ . وسُموا
كذلك لأن الفرقة تكونت من طلبة الجامعة ، فأطلق عليهم زملائهم هذا الاسم لاتباعهم منهجاً خاصاً
في الدراسة . ثم نمت الفرقة على مر الزمن وانشقت على الكنيسة الإنجليزية (المترجم) .

(٣) الألمانية Amish ، أتباع يعقوب أمان أو أمين Ammanu or Amen ، وهو مينوي
ظهر في سويسرا في القرن السابع عشر (المترجم) .

وقد كانت البروتستانتية تجرى في طريق الانحلال منذ أيام الإصلاح الديني . ذلك أن أعظم أعدائها هو انتشار تلك المعرفة التي يتصور بول أنها حليفته . أما تقدم العلم فلا يمس الكاثوليكية لأنها لا تخضع للعقل ، بل تقوم على الإيمان وتلعب على أوتار الحواس والخيال أكثر من الفكر ، فإذا انتشى الإحساس وتغذى الأمل ارتاح العقل وسكن ، وفي هذا سر الكاثوليكية . غير أن البروتستانتية لم تتجه قط إلى الحواس فيما عدا الأناشيد والترانيم . فهي قد قضت على الحواس لحشيتها منها ، فأغلقت أبواب المسارح وأسدلت الستار على الفن ، واستبدلت بدراما القديس منطق العظة الحاف ، وحاولت أن تضع الدين على أساس الحجج - وهو أعظم خطأ أمكنها أن تفعله . فلا غرابة أن تتضاءل كنائسها على حين ستظل الكاثوليكية قوية كما هي الآن ، وأكبر الظن أن قوتها ستزداد في مستقبل الأعوام . ستهشم البروتستانتية بين أحلام الخيالي وعقل المفكر ، وسيكون مستقبل أمريكا كحاضر فرنسا الآن : قلة مسرفة في الشك ، وقلة غارقة في التدين وتقوى الله . وسيعيش المتحررون فوق بركان من الخرافات . ولئن تكب الكاثوليكية جانب الجماهير فقط ، بل إذا حل الفقر كنتيجة للتنافس الاقتصادي المرير أو فقدان حرب كبرى فتظهر ثانية الأساطير القديمة . ولا يزال الفلاحون في كل بلد يحبون أساطير القدماء ، ولا يزال البسطاء من الدهماء يعتقدون في الأرواح والمحرمات والنذر السماوية . يقول الكمندر بركان إنه قرأ على جدران مجلس الدوما السابق في سانت بطرسبورج

أندرو : بتروجراد .

إستر : لنتجراد .

كلارنس : . . . هذه الأسطورة محفورة في الحجر : « الدين أفيون الشعب Religion Is Opium For The People » . ولكنه أضاف أنه في الكنيسة الملحقة بالمجلس كانت الصلوات مقامة ، والمكان مزدحماً بالجمهور (١) . لقد نسي الذي حفر العبارة أن الأفيون شائع في الشرق . أما في الغرب فليس الناس أفضل حالاً . إذ في الوقت الذي تنمو فيه حرية الفكر بين القلة ، تظهر عبادات

(١) The Bolshevik Myth, p. 56.

جديدة كالحشائش التي تنبت في أرض الإيمان القديم البائرة . إنه لزمن عجيب لتأسيس دين جديد . وينتشر العلم المسيحي كأنه الدواء الوحيد ، لأن الشعب عازف عن قبول المسيحية أو العلم . أما التصوف الديني Theosophy فإنه يقرب الفاشلين من الكتبة والباعة إلى فقراء الهند . وقد رأيت في صحيفة حديثة ١٥٣ إعلاناً دينياً من بينها ٥٣ كانت تتصف بهذه الاعتقادات السحرية . أعلن رجل عن محاضرة عنوانها : « هل الشيطان كائن مشخص ، وهل سيقيد ويسجن وتغلق عليه أبواب الحميم ألف عام ، وذلك في مسرح الطرب ، والدخول مجاناً ، وسيجيب المحاضر عن الأسئلة » . وهناك خرافة نرويجية قديمة تقول بأنه بعد فجر الآلهة ، أي بعد إهلاك المردة إياهم ، يظهر كون جديد ، وتبعث الآلهة إلى الحياة ثانية . وتكاد هذه الخرافة تحكى تاريخ العالم ، فالآلهة يرجعون دائماً ، ومن الشرق دائماً . فنحن نغرق في بحر من العبادات الحديدية الوافدة من الشرق كما كانت حال الإغريق والرومان في القرون الثلاثة قبل الميلاد ، أو كما غمرت أفريقيا وأسبانيا بأتباع محمد . الحق أن الجماهير ستطلب على الدوام ديناً ينثر في غلالة من الصور ، ويحاط بهالة من الغيب . إنهم لا يريدون علماً لأنهم منه في فرع مميت . ذلك أن إحدى عظمات العلم أن الحياة يأكل بعضها بعضها الآخر ، وأن مصير الحياة كافة إلى الفناء . ولن يقبل الجماهير العلم حتى يهبهم جنة أرضية . وما دام الفقر قائماً على الأرض فهناك آلهة في السماء .

الفصل الثالث والعشرون

[في المكتبة]

الله وخلود النفس

١ - خلود النفس Immortality

آريل : سنظف هنا في المكتبة. بالراحة والهدوء . فإذا كانت المناقشات قد أثقلت عليكم فيمكن أن تسروا عن أنفسكم وأن تلهو بالكتب . ولكني أرجو ألا ترحوا هذا المكان حتى تحدثوني عن مصير الإنسان بعد الموت ، وهل سنظل نعتقد في وجود الله .

بول : من الواضح أن كلارنس لا تسلّم بوجود مثل هذا الأمر الذي يسمى النفس الخالدة ، وأنا سنموت جميعاً كالكلاب .

كلارنس : نعم ، فلماذا لا يكون كلبى خالداً مثلى ؟ إني في توحشى معه كما كان يمكن أن يكون يهوه نفسه . فأنا محبة لنفسي ولا أعطيه إلا ما لا أريده . أهجره حين أحب ، ولكنه أوفى لى من هلويز لأبيلازد . وإذا فاضلت بينى وبينه كان هو أدنى منى إلى المسيحية .

سير جيمس : إن « نفسك » يا بول ترجع إلى الأرواح التي كان الإنسان البدائي يلقاها في أحلامه . فلما رأى أشباح الموتى ظاهرة الانفصال من أبدانها فقد استنتج من ذلك أنه أيضاً له شبح منفصل أو نفس منفصلة . ونحن لانزال نقول : « أسلم روحه » أو « صعدت روحه » ^(١) he gave up the ghost كناية عن الموت . وتدل لفظة « الروح spirit » كاللفظة الألمانية geist على

(١) هذا هو التعبير العربي المقابل للعبارة الإنجليزية « أسلم شبحه » (المترجم) .

النفس soul والشبح ghost معاً . وكان الإنسان في قديم الزمان يؤول الأصداء والظلال على أنها روح أو قرين أو نفس للشخص ، أو ذات صلة به . ويرفض الباسوتى Basuto أن يمشى بالقرب من مجرى الماء لئلا ينقض تمساح على ظله فيأكله . ولما كان الإنسان الهمجي يرى نفسه في النوم يصطاد ويمشى ويجرى هنا وهناك ، على حين تأكد له فيما بعد أن جسده لم يتحرك ، فقد اقتنع من ذلك أن له نفساً منفصلة (١) . وكذلك خيل إليه أن الغيبوبة والمرضى والإغماء إنما هي مجرد الروح مؤقتاً عن البدن . ويعتقد العبيد في غرب أفريقيا أن علة الصداع فقدان النفس ، فيرسلون ساحراً يبحث عنها في الغابات ، فيعود وقد قبض على النفس ووضعها في صندوق ، فينفخها من الصندوق إلى أذن المريض ، وعندئذ يشفي الصداع .

كلارنس : في إحدى قصص أناتول فرانس يقول أحد سكان بوليتيريا :
 « النفس نفخة ريح ، وعندما رأيت أنى على وشك الموت ضغطت على أنفى لأحفظ نفسى داخل بدنى . ولكنى لم أضغط ضغطاً كافياً . وها أنا ذاميت » (٢) .
 سير جيمس : في جزر السليبيز Celebes يطلقون شصوص « سناتير » صيد السمك في أنف المريض وسرته وقدميه حتى إذا حاولت نفسه الخروج اصطادها . والعطس من أخطر الأمور : إذ قد يكون من القوة بحيث يقذف بالنفس ، وهذا الشخص هو السر في أن أحدنا إذا عطس بادر أصحابه يطلبون من الله أن ينعم عليه ، والاستعانة بالله مطلوبة بوجه خاص في هذا المأزق . ويفرقع الهندوس إبهام أصابعهم عندما يتشاءب أحد أمامهم أملاً منهم أن هذا الصنيع يحفظ نفسه من الانطلاق إلى الخارج . ويرفض كثير من البدائين أخذ صورة شمسية لهم لئلا تصطبب الصورة أنفسهم معها - وفي هذه الحالة قد يأتي المصور ويلتهمهم على هواه (٣) .

إستر : لقد عرضت هنا في نيويورك حديثاً تمثيلية تسمى ديباك The Dybbuk ، وكان فيها دراسة دراماتيكية للنفس المنفصلة .

(١) Spencer, H., Principles of sociology. vol. i, p. 286.

(٢) The Garden of Epicurus, p. 197.

(٣) Allen, p. 49 ; Frazer, pp. 178 f., 193.

سير جيمس : لقد نشأ الاعتقاد في خلود النفس نشأة طبيعية من هذه الفكرة . ويقول هنود تسكارورا Tuscarora إن جميع الهنود الطيبين حين يموتون (كما لو لم يكونوا جميعاً طيبين عند موتهم) يصعدون إلى عالم من الأرواح بعيداً جداً بين النجوم حيث يجدون نساء حسناوات لا تلحقهن أبداً كهولة أو بدانة ، وأرضاً مهيبة للصيد زاخرة دائماً بالغزلان لا ينقص عددها مهما يكثر صيدها . أما الأشرار فيذهبون إلى مكان الطعام فيه نادر وغداؤهم على الثعابين . وبلغ الاعتقاد في خلود النفس عند المصريين من القوة أن البيوت التي كانوا يقيمونها لإيواء الأبدان إنما هي مجرد أكواخ بالقياس إلى « منازل الأبدية » المشيدة في أفخم حال لسكنى النفس . وفي الهند اتخذ الأمل الدائم في الخلود هيئة التناسخ الذي انتشر غرباً حتى بلغ إيطاليا حيث نجد في أقوال فيثاغورس : « لا تضرب هذا الكلب لأنى تعرفت فيه على صوت صديقي الذي توفى » . ومذهب نيتشه في زماننا هذا عن « الدورة الأبدية » eternal recurrence إنما هو مظهر آخر لنظرية التناسخ يبين إلى أى حد تشبث الفكرة بالبقاء ، حتى في فلسفة « نصف كلية » (1) medicinal . وتكاد توجد فكرة « جهنم » في كل مكان ، ولكن صورتها تختلف بالنسبة إلى ما يتحملة الناس من عذاب ، والذين يتصورونها مقراً لأعدائهم . أما نحن فقد جاءت إلينا فكرة « جهنم » عن اليهود الذين كانوا يقاسون من حرارة الصحراء ، ولكن الإسكيمو يعتقدون أن « جهنم » برد أبدي . بول : يبدو أنك تعتقد أنك بما تبينه من قدم فكرة الخلود تنكر صحتها ، ومع ذلك فأنا أقبل الفكرة لنفس الأسباب تقريباً التي دفعت الهمجي لقبولها . فأنا حين أتأمل ذاتي أجد شيئاً لا يسهل التعبير عنه في عبارات مادية . إن موت بدنى إنما سيحرر هذه الذات الجوهرية .

وليم : قد لا تكون النفس مادية يا بول ، ولكنها موقوتة ، فهي خاضعة للزمان والتغير والموت خضوع البدن . ومن الواضح أن ما نسميه « العقل Mind » مرتبط بالجسم ، والمخ ، والأعصاب . فالعقل والجسم ينموان ويفسدان معاً ،

(1) لأن مذهب نيتشه لم يكن يزدرى جميع الناس كالكلبيين ، بل العامة فقط . أما النصف الآخر من البشر ، فهو الجنس الراق ، أو السوبرمان (المترجم) .

ويتحتملان على حد سواء آثار التلف والمرض. وقد حاول ولیم جیمس تفسير هذه العلاقة المتبادلة بالقول بوظيفة المخ «المحررة» permissive function of the brain وهذه حيلة بارعة لا تليق برجل تدرب على الوضوح الفرنسي . وعلى الرغم من عجائب علم الغدد مما يقول به الهواة من أصحابه فقد بين هذا العلم أن صلة الجسم بالعقل ليست محررة بل منظمة ، ذلك أن الحقن بخلاصة الغدة الدرقية يؤدي إلى رفع البلاهة عن مناطق بأسرها .

إن ذاتي ، أو شخصيتي ، جزء منها ثمرة مبول موروثه مرتبطة بالأفعال المنعكسة العصبية ، وجزء آخر نتيجة تجارب جسمي التي تصل إلى عن طريق الحواس الجسمانية ، والتي تسجل في مخي الجسماني كعادات وذكريات . لست أقول إن العقل أو الذاكرة هو المخ بل أقول إنهما مرتبطان معاً بالجهاز العصبي ، ويعتمدان عليه ، فلا يمكن أن يعيشا بعده . ويمكن أن تمحي الذكريات بعض الوقت أو باستمرار باستعمال الأثير أو غيره من المركبات الكيميائية . فالشيخوخة تزيل بعض مناطق الذاكرة ، وتضعف الذات بما تفعله من انحلال بعض أجزاء المخ - أكبر الظن أنها ألياف الترابط الموجودة في السحاء . وحين تفسد أعصابي بعد الدفن تختفي باختلافها ذاتي الخاصة . لأن تميز ذاتي self عن ذاتك ، إنما هو نتيجة اختلاف الوراثة والتجارب التي تنقش على جسد الفاني . وحتى وحدة النفس التي يجب أن يفترضها مذهب الخلود فإنها موضع شك ، ذلك أن شخصيتي فيض دائم الحريان ، وفي كل عقد من حياتي كنت شخصاً آخر . فأراني اليوم مختلفاً اختلافاً تاماً عما كنت عليه وأنا صبي في العاشرة . فأى هذه الأنفس الكثيرة العابرة هي ، أو كانت هي « نفسي » ؟ ثم إن الشخصية قد تكون مزدوجة أو متعددة . وليست نفسي إلا مركزاً أو حزمة من الارتباطات ، وليس ثمة أي ضمان أن الحزمة التي أسميها « أنا » لن تنقسم إلى حزمتين أو أكثر ، أو إلى شخصيتين متبادلتين بالأمراض أو الصدمات . أي نفس هي الخالدة نفس جيكل أو نفس هايد ؟ وحتى إذا بقيت النفس بعد فناء البدن ، فأى نفع لها ؟ أمكن حقاً أن تتصور وجوداً لا جسمانياً ، أو تمناء راضياً ؟ كيف تجد أي لذة ، أو تعرف أي نشوة للحب بغير جسد ؟

ماتيو : اعلم يا بول أنك إذا اعتقدت في خلود النفس فينبغي أن تمضي في الشوط إلى نهايته وتسلم ببعث الأجساد .

بول : لا ، من الإسراف الافتراض بأن جسدي بعد أن تأكله الديدان ، ولا يبقى منه إلا عظام نخرة وخصلة شعر ، يعود مرة أخرى يوم الحساب أو قبل ذلك إلى هيئته الأصلية واتصاله الأول بملايين الملايين من الخلايا . وإذا لم تكن قادرين على تخيل أو تصور نفس بغير بدن ، فإنما ذلك لنقص فينا لا لعدم إمكان ذلك . وحتى في علم الطبيعة توجد مئات من الأشياء كالكهرباء تبدو لي بعيدة عن التصديق بها ، ولو أنني متأكد من أنها حقيقة واقعة . وقد أثبتت البحوث الروحانية psychical research مراراً وتكراراً أن الروح يمكن أن تعيش بالفعل بعد فناء البدن . فقد جمع باحثون لا شك في ذمتهم بأعظم عناية أدلة حاسمة اضطروا إلى التسليم بها علماء كانوا في الأصل منكرين أو متشككين مثل هيسلوب Hyslop وليم روزو وألفرد رسل ولاس . بل لقد سلم محرر « مجلة أمريكا العلمية Scientific American » بأن مرجري كراندون Margery Crandon كانت تحصل لها ظواهر روحية حقيقية ، وأنها تتصل بأخ لها مضي على موته زمن طويل .

وليم : إن فحص المجلة العلمية الأمريكية للسيدة كراندون انتهى إلى تقرير انقسم الرأي فيه قسمين : بيردو وكرانجتون مؤيدان ، وهوديني ومكدوجل معارضان . وقام أساتذة جامعة هارفارد فيما بعد بإجراء فحوص واختبارات كانت نتائجها سلبية^(١) . وزعم هوديني أنه يستطيع أن يقوم بإعادة أي ظاهرة روحية مقررة من جراب حيله . كان يتنقل من مدينة إلى أخرى ، ويعلن من فوق خشبة المسرح أسماء وعناوين مئات من الوسطاء ، واتهمهم معيماً أسماءهم بالنصب مع سبق الإصرار ، وتحداهم أن يقيموا عليه دعوى القذف . ومنح ١٠,٠٠٠ دولار مكافأة لكل من يثبت الظواهر الروحية تحت شروط علمية . ولم يقبل أحد تحديه . وزعمت منام بيبير Mrs. Piper أنها اتصلت بروح الدكتور فينويت Phinuit بعد موته ، وقام باختبارها وليم جيمس ، وسير أولفر لودج ، ومدام سدجويك - وكلهم ممن يعطفون على المباحث الروحية ، فكان تقريرهم

Cf. article by Prof. Boring, Atlantic Monthly, Jan. 1926. (١)

ضدها . وأنتم تعرفون قصة دنجلاس هوم الذي منحه براوننج - إن صح هذا القول - خلوداً مؤقتاً . وتجولت إيسايا بلادينو في أنحاء أوروبا معلنة عن مزاعم عريضة لقوى روحية . فقام باختبارها برجسون ، وكورى ومدام كورى ، وغيرهم من الذين عينهم المعهد العام الباريسي لعلم النفس . وبين النور الحسّاطف في الجلسة (التي كانت تجرى بالضرورة في الظلام) نضداً مرفوعاً في الهواء ولا يعتمد على أى دعامة مرئية سوى كلام إيسايا . وقدم العلماء المختبرون تقريرهم الذي قالوا فيه إنهم عجزوا عن كشف أى احتيال ، ولم يتمكنوا من تفسير ما قامت به السيدة من عمل . ولكنهم اختتموا التقرير باحتمال القيام بالعرض عن طريق خفة اليد أو خفة القدم . وحين جاءت مدام بلادينو إلى أمريكا سنة ١٩٠٩ فحصها منسّر برج في هارفارد ، فلما حركت قدمها لتحدث عملية الرفع أمسكها طالب بيده - مما يدل على أن الطلبة أسرع خاطر أمن الأساتذة . وفي جامعة كولومبيا اختبرها البروفسور لورد وكشف الطلبة حيلتها ، وذلك بأن التقطوا صورة فوتوغرافية على ضوء المغنيسيوم على غير توقع منها ، وبينت الصورة أن السيدة كانت ترفع المائدة بيديها . وعادت إيسايا إلى إيطاليا عام ١٩١٠ وقد انهارت دعواها تماماً (١) .

بول : نعم هناك كثير من الاحتيال . ومع ذلك فلو وجد وسيط من مائة وسيط أو مائة ألف وكان أميناً واتصل اتصالاً فعلياً بالموتى أصبحت قصص الاحتيال لا قيمة لها ، وثبت خلود النفس . لا ريب أنكم لا تزعمون أن شخصاً مثل أولفر لودج كان أفاقاً . وعليكم أن تقرأوا ما روى ، فستجدون ظواهر بينات كثيرة يدهش لها العقل ، وإذا أبيتم التسليم بها كنتم كمن يضع نفسه موضع المحافظ الوجمل مثل المعارضين لدارون . وكنت أظن أن روح العلم ستدفعكم إلى الشعور بأن أى شيء ممكن في هذا العالم المملوء بالعجائب ، وبأننا لا نملك القول كيف تحدث الأمور العجيبة البعيدة عن التصديق . ثم فلتذكروا أن معرفتنا بالعقل تكاد تبدأ .

Leuba, J.H., Belief in God and Immortality, p. 160 ; New York Times, (١)

May 12, 1910.

أندرو : إننا نعرف أكثر مما يريح بالناس . فنحن نرى أن العقل - وهو القدرة على التفكير - جزء من التطور ، كالقدرة على الحركة أو الهضم أو الإحساس . ومن الواضح جداً أن عقولنا ثمرة طبيعة كأبداننا ، وأن الفموي يتكرر عندنا في كل فرد من الجنين المضحك إلى قمة النضج العقلي . والآن عند أي نقطة من هذه العملية التطورية دخل عنصر الخلود ؟ إذا كان الإنسان خالداً ، فالقرد خالداً كذلك . وإذا كان القرد خالداً فكذلك البرغوث الموجود في ذيله ، ولكانت الدودة باقية كالعصفور الذي يأكلها . ومن الأفكار المقلقة لنا أن تلحق بنا في الجنة جميع الحشرات التي تضايقنا في وقت الفراغ . ثم تأمل هذا أيضاً : ستكون جميع الطبقات والأجناس التي نبغضها موجودة هناك في الجنة تثقل الأجواء السماوية برأئحتها . وسيلتقي الصالحون من أهل كلاتز برجال من كيلارنى Killarny وسيجد الأمريكيان الصميمون الجنة سوقاً متعددة اللهجات كنيويورك . ستكون مكاناً شديداً الزحام ولو كنا نحن أبناء هذا الجيل خالدين ، فكذلك كان أبناء سائر الأجيال . إن ألف ألف مليون من الأنفس تنتقل إلى العالم الآخر كل ثلاثين عاماً أو نحو ذلك . وما دام الناس قد وجدوا منذ بضع مئات من آلاف السنين فلا بد أن تبدو الجنة كيرودواي عند الظهر .

وليم : لاشك أن مناقشتنا عقيمة لأن الاعتقاد في الخلود متأصل في القطر الخارجة عن نطاق الحجج . وهذا الاعتقاد جزء من الدافع إلى حفظ الذات . والحياة قصيرة ، و « الأنا » حلوة . فكيف يمكن أن نفنى بهذه السرعة ؟ لقد نشأت فكرة خلود النفس في الأجواء الحارة حيث تنضج الحياة وتفسد بسرعة تجعل الاعتقاد في حياة بعد الموت يكاد يكون ضربة لازب لاحتمال هذه الحياة . وهناك نرى حياة الفرد بأوضح من أي مكان آخر قصيرة زائلة ، وذرة في تلك الخلية التي تسمى النوع الذي إنما هو موجة في بحر الحياة . ونحن أيضاً ، مع أن حياتنا تمتد إلى ضعف أعمارهم طويلاً ، لا نرضى بالسنين المقسومة لنا ، فنثور على الموت الذي لا مناص منه ، ونتطلع إلى شباب جديد وحب آخر . لقد كان الدين قائماً ذات يوم على الخوف ، والآن يعتمد على الأمل .

أندرو : إنه لا يزال قائماً على الخوف . إننا نشاق إلى الخلود لأننا نحب

الحياة بل لأننا نخشى الموت . وكثيراً ما نسأم الحياة ، ونضيق بما فيها من متاعب وعلل ، وحقائق وواجبات ، ونشعر مثل قيصر بأن حياتنا قد طالت إلى حد الكفاية . والحيوانات لا تخشى الموت لأنها ، فيما عدا لحظات عابرة تراه فيها يصيب حيواناً آخر ، لا تعرف الموت حتى يحل بها ، وعندئذ يكون وقت التفكير النظري قد فات . فعندما أصبحت الحيوانات بشراً ، ونمت الذاكرة ، وألقها إلى المستقبل ، عندئذ اكتشفت الموت ، واخترعت الخلود لترتاح عقولها . وأن نولد هو كما قال فكتور هوجو أن يحكم علينا بالموت مع تأجيل التنفيذ إلى أجل غير معين . والخوف من الموت هو بداية الدين .

فيليب : أما أنا فقد حصلت على إحساسى بالخلود من أنى جزء من الحياة . نحن بضعة من كل ، ويقوم خلودنا على ما نساهم به . فى ذلك الكل . ليس الخلود عند أفلاطون فى السماء بل فى الذكرى العطرة للناس ، وفى الكتب التى تعلم كل ساعة ألوفاً من التلاميذ أكثر مما كان مؤلفها يعلم وهو حى . إننا نعيش فى أبنائنا وفى آثارنا ، وهذه هى بعث البدن والنفس . ولا قيمة لهذا الضرب من الخلود للفرد بعد موته ، ولكن قيمته لا تقدر بالنسبة للمجتمع ، لأن الحضارة تقوم على الاحتفاظ بأعمال الموتى . وقد يكون من الخير لنا أن نعود إلى التفكير فى الخلود كما كان الإغريق وقدماء اليهود يرونه ، لا فى ضوء ذواتنا المنفصلة بل فى ضوء الجماعة أو الجنس الذى نتمى إليه .

كلارنس : أليس من الغريب أن نتناقش فى مسألة حلها لوكريتيوس منذ ألى عام ؟ انظروا ماذا وجدت هنا - إنها شرح ماللوك الشاعرى على شرح لوكريتيوس لأبيقور . استمعوا إليه :

أصبح الكون الأزلى كالعين المنفوش
ويعود إلى صفحة المجهول نسباً منسياً
وأنت أمها الواهن وكنت بالأمس شعلة
تحترق فى عزلتك خالداً وحيداً خلياً

أفى أحضان الليل هياتك هذا المصير
الطبيعة بالقوة الغاشمة والبطش الشديد

تحمل الطفل كالملاح محطم السفين
وتلقيه وهو يصبح على شطآن النور

ماذا هناك . إنها صيحة ، هذا كل ما هناك
لا تعرف أهي أعضاؤك أم أعضاء أخيك
بالأمس كان الطفل أقل من هذه الصيحة
وفي الغد سيكون الرجل أقل من هاتيك

من نسيج ألياف الوليد تبرز النفس
كوردة تفتحت ورقة ورقة في همس
تفسد أليافه .. وكما تغيب عن الماء الشمس
فينفجر فقاعه كذاك يغيب من كان بالأمس

تسكن الريشة عن الحركة فوق سطح الماء
كذاك النفس في البدن تذوب وتبهج في هناء
ذرات في ذرات ، تكل وتشتاق إلى الراحة
رماد في رماد - آمال ومخاوف تطلب السلام (١)

مايتيو : : كان ينبغي أن يكون كاثوليكيًا صالحًا ليضع هذا الشرح الرائع .
لاريب أنكم ترون الآن حجبكم كم هي قديمة ، وكم هي مهلهلة وبالية .
كلارنس : ولكني ظننت أن بول قد احتج بأنه ليس في قدم الاعتقاد
شيء ، ضد خلود النفس ؟ أما أنا فأظن أن جميع الحقائق قديمة ، وأن الشعراء
والكذابون والمجانين هم وحدهم الذين يمكن أن ينتكروا . وإني لأذكر عبارة من
أقوال أناتول فرانس ، وهو آخر تلامذة أبيقور : « إن شمسنا تحملنا نحن وجميع
توابعها إلى برج الجاثي constellation Hercules حيث نبلغه في بضعة ملايين من
القرون . وستموت الشمس في هذه الرحلة ، وتموت الأرض معها » (٢) .

(١) Mallock, W.H., Lucretius on Life and Death, pp. 19 f.

(٢) On Life and Letters, 3rd Series, p. 210.

وسنموت نحن مع موت الأرض ، إذا قدر لنا أن نعيش بعدها حتى ذلك الحين .
ألا يبدو من المضحك يا بول أن يزعم الخلود خلق مزعزع في كوكب عابر ؟
ومع ذلك فلماذا نحرمك من إيمانك البديع ؟ إني لأعرف أن مذهبنا يؤدي إلى نتيجة
كثيرة ، وأن النفس المتعطشة لن تحمد مثل هذه الفلسفة السلبية .

بول : لا تخف ؛ إنك لم تزعجني كثيراً . إن لحظة واحدة من التأمل الباطني
تهدم جميع ما خيل إلى حججك الظاهرة أنك مثبتته . إني أرى العقل (بين جنبي)
في داخلي ، وأرى أنه شيء موضوع فوق بدني يقابله وأسمى منه . وبدني أداة
مؤقتة للعقل . وأنا لا أدري شيئاً عن العالم الآخر – وفي هذا الصدد فأنا مثلك
لا أدري ، غير أنني إنما أقف من المعتقدين المتكافئين الممكنين إلى جانب أكثرهما
حناً وتشجيعاً . إني لمؤمن بأن ما أدركه وأشعر به – ولو أنني عاجز عن فهمه
وعن رسم صور مادية أو هندسية. تدركها عقولكم « المادية بالفطرة » – ليس
أقل صدقاً وحقاً مما أدركه مباشرة. بالحواس الظاهرة . فلو أن شخصاً عزيزاً عليك
ممن تحبه أصابه الموت ، لأقبلت عليك فلسفة جديدة ، إذ يبدو لك أمراً غير
معقول ، وقسوة عظيمة من « روح العالم » أن تجد وأنت إلى جوار القبر أنك
لن ترى أبداً صديقك أو ابنك مرة ثانية . أما أنا فأعتقد أنني سأراهم ، وهذا
الاعتقاد يغمر حياتي بضرب من السرور والصبر على المكروه لن يجد إلى قلوبكم
الفارغة سيلاً . إني لأشفق عليكم حين يصاب أحدكم بفقد المحبوب .

سيدا : أظن أنك على حق يا بول .

ماتيو : أعرف أنك على حق يا بول .

كلارنس : أرجو أن تكون على حق يا بول .

٢ – الإله الميت

إستر : لقد امتلأنا كآبة ، وأرجو أن توفقوا إلى شيء أكثر بهجة تقولونه

عن الله .

سير جيمس : لا ينبغي أن تدهشي يا سيدتي إذا لم نستطع أن نقدم إليك

الله الذي كنت تتوجهين إليه بصلواتك في الطفولة . ذلك أن فكرة البشرية عن الله

في تغير دائم . حقاً يمكن أن يدون تاريخ الإنسانية في صبح من تجمدات الله -
نعي الموت المتكرر لإله قديم حتى يفسح الطريق لآلهة قد تمثل أخلاقاً ومثلاً
عليها أرقى في جنس يتطور . سيبلغ منك العجب مبلغه حين تطلعين على قائمة
الآلهة المتعددة مما كان الإنسان يعبدها بين حين وآخر على أنها أبدية (١) . فالآلهة
الكبرى تبلغ المئات ، والصغرى تبلغ الملايين . ولو أمكن للأجيال الماضية
أن تعود إلى ظهر الأرض لاقتضح أمرها حين تعلم أن آلهتها حتى القادرة على
كل شيء والتي كانت تتقرب إليها بالصلاة إنما يعرفها اليوم علماء الأنثروبولوجيا
فقط . وقد أول كل شعب في كل عصر الله على هواه ، وكان راغباً في الموت
أو على الأقل في القتل للدفاع عن ذلك التصور العابر . أما المورخ فلا يخذعه
هذا القتل أو هذا الاستشهاد . فهو يعرف أنه لم تظهر فكرة سخيفة إلا وضحى
بعض الناس بأنفسهم في سبيلها ، وأنه على استعداد أن يرى الفكرة عن الله
تتغير في الحاضر والمستقبل كما تغيرت في الماضي . وبناء على ذلك فهو لا ينزعج
من التعريفات الجديدة للآلهة ، بل يرحب بمحاولة صوغ هذه الفكرة الأزلية
صياغة جديدة تتسق مع معارفنا النامية . سيعتقد الناس دائماً في الله ، لأن فكرة
القوة المرتبطة بالكمال ترضي النفس وتحركها . فمن بواعث الرضا أن تكون مع
القدرة الكلية على وفلق .

كان إله آبائنا آخر مرحلة في حياة « يهوه Jehovah or Yahveh » وإني
لأعجب في بعض الأحيان (واو أن علم اللغة لا يؤيدني كثيراً) هل « يهوه »
مثل « يوفيس Iovis » لا يرجع إلى « أبي السماء Dyaus-pitar or Sky-Father »
عند الهندوس . ونحن نعلم أن « الأب زيوس Zeus pater » عميد أوليمبوس
هو ترجمة « لدياوس بيتار Dyaus pitar » . وكذلك جوبيتر ، فهو
« يوفيس باتر Iovis pater » . وقد غالى أصحاب مذهب فرويد في بيان الدور
الذي تلعبه صورة الأب في صنع الآلهة (٢) . ولاريب أن عقل الشاب يحب

(١) لقد رتبها مستر هـ . ل . منكن ترتيباً بديعاً في أحد أجزاء كتابه الشائق المسمى « آراء

مخيزة Prejudices » .

Cf. Freud, S., Leonardo da Vinci, p. 104 ; Jung, C.G., Analytical (٢)

Psychology, p. 172. Jones, E., Papers on Psychoanalysis, p. 383.

أن يتصور العالم كبيت يرأسه أب . ولكن الأولى أن أصل فكرة الأب يرجع إلى عبادة الأسلاف ، وإلى الفكرة التي تنهب إلى أن العشائر تسلسلت عن الآلهة . وهذا التخصيص للآلهة في هيئة الذكور هو آخر إهانة على المرأة أن تنتقم لها .

وأكبر الظن أن تشبيه الإله بصورة أو شبه للإنسان راجع إلى عبادة الأسلاف . فالله كان كالإنسان ، كل ما في الأمر أنه أعظم وأقوى . وكما قال زينونان قبل ميلاد المسيح بستة قرون : « يتصور البشر الآلهة أنها تولد ، ولها كأنفسهم ثياب وأصوات وأبدان وحتى آلهة الأحباش فإنها سمر الوجوه مفرطحة الأنوف ، وآلهة تراقيا ذات شعر ذهبي وعيون زرقاء بل إن هوميروس وهزيود نسبا إلى الآلهة كل شائن ومعيب بين البشر : السرقة ، والزنا ، والغش وغير ذلك من الأفعال الخارجة على القانون وحتى الثيران والأسود والحيل لو كان لها أيد ترسم بها الصور لصاغت الآلهة على هيئتها وجعلت أبدان الآلهة كأبدانها » .

هذه الشكوى من خلود آلهة أوليمبوس تكشف عن العملية التي بها تموت الآلهة : فهي تتخلف عن نمو الإنسانية الخلقى . إنها تهلك بسبب عدم تغيرها الإلهي . إن آلهة قدماء الإغريق الفاسقة السارقة الكاذبة إنما خلقها قوم كان يبدو لهم مثل هذا السلوك مشروعا ، فقد كان العصر عصر قرصنة واغتصاب وحرب ، وكانوا يتصورون الآلهة مثال الخبيرة في هذه الأعمال القديمة . فلما تقدم الذوق الخلقى أنكر زينونان وأفلاطون هذه الآلهة الشريرة . إن الصورة التي رسمت لهم في العصور القديمة مما تسمت منها المشاعر التي أصبحت أرقى عند المفكرين فيما بعد . ومن سوء حظ كل حضارة أنها تترث آلهة الهمجية .

وينبغي أن نجعل في بالنا عند النظر في ألوهيتنا الموروثة أن يهوه ، إذا شئنا أن نفهم موته ، كان قبل كل شيء رئيس الحرب وإله الجيش ، كأى إله كانت كل أمة تعينه على جيوشها سنة ١٩١٤ . وكما أن فكرة النار كانت تعكس قسوة البدائين ورؤسائهم المتوحشين ، كذلك فكرة الله كانت تعكس قلق الحياة القبلية في عالم غير منظم يعيش فوق بركان من العداوة والأخطار في كل مكان .

فلما بما النظام الاجتماعى ، وأصبحت الحياة أكثر أمناً ، والحرب أقل شيوعاً ، وأصبح الإنسان تبعاً لذلك أقل قسوة ، أصبحت الأفكار القديمة عن إله الحرب warrior-god الذى يقضى على الملايين بدخول النار يغيضة عند ذوى العقول الناضجة . فقد تطلب التنظيم الاجتماعى من الناس وتمي فهم العادات والمثل لأخلاق تعاونية . وتفرعت بالتدريج وأكثر فأكثر عن فكرة الإله القديم فكرة ما يجب أن يكون عليه الإنسان الكامل . ولعلكم تذكرون أن جون ستوارت مل أعلن فى شىء من المفاخرة أن مثل هذه الألوهية كما صورها اللاهوت فى العصر الوسيط إذا وجدت حقاً ، فلم يكن صاحبها إلهاً ، بل شيطاناً ، وأنه « إذا استطاع مثل ذلك الموجود أن يرسلنى إلى جهنم لأنى لا أسميه إلهاً » طيباً ، « إذن فلأذهب إلى جهنم » . لقد قلب نمو الإنسان الخلقى تصوره عن الله رأساً على عقب .

وقد نشأ هذا الرقى فى الطبيعة الإنسانية من ازدياد الأمن فى التموين الاقتصادى والنظام السياسى من جهة ، ومن استمرار الأخلاق المسيحية مدى ألف وتسعمائة عام من جهة أخرى . لقد كان المسيح هو الذى قتل يهوه ، فإذا بالمسيحية تقتل الإله المفروض أنه مسيحى . ولست أعتقد أن هذه الألفى السنة من التدريب الخلقى على الرغم من نزعتنا الحربية وفسادنا السياسى لم تكن عليه الأثر فى أخلاق الإنسان . من أجل ذلك فإن ما نشهده اليوم ليس بأية حال موت المسيحية بل موت ذلك « الإله ذى اللحية القائمة » كما سماه نيتشه ، والذى نفذ إلى المسيحية من طريق غريب ، وإلى جانبه نظام خلقى فيه تمجيد للرحمة والسلام ، ولا يتفق بأى حال مع يهوه ، بل بلغ فى النهاية من القوة الحد الذى قضى عليه . وهكذا أصبحت عقول الناس اليوم حرة لتكوين إله أفضل .

أندرو : لا ريب أن أعظم مجد يبلغه الدين أن يتحطم بما يبلغه نظامه الأخلاقى من كمال . ولكن الأسباب والنتائج على حد سواء أعظم مما تصفه الآن . فنذ اللحظة التى أعلن فيها كوبرنيق أن الأرض إنما هى ذرة من تراب فى عوالم لانهاية لها ، قضى على الإيمان القديم بالإعدام . لم يعد هناك مركز ، ولا فوق أو تحت . بل فقدت الأرض كل هيبتها ، وأصبح من المستحيل الاعتقاد بأن القوة المنظمة وراء هذا الكون الشاسع إلى غير حد قد نزلت على هذا الكوكب

واتخذت صورة إنسان يتعذب ويموت من أجل خطايا لا قيمة لها لجنس لا أهمية له . فلا غرابة أن يعد أناتول فرانس هذه الثورة الفلكية : « أعظم حادث في تاريخ الفكر بأسره » (١) . ولم يتبين العالم دفعة واحدة نتائج استبدال الفضاء الخلاء بالسماء ، ورد الكرة الأرضية والإنسان الذي يعيش على ظهرها إلى مستوى لحظات في تاريخ النجوم . لقد أحرق برونو حياً لأنه أدرك هذه النتائج وأعلنها . ولكن « الإصلاح الديني » مضى في طريقه وكان كوبرنيك وجاليليو لم يعيشا قط .

ثم جاء دارون فأتم الهدم . فكما بدد الفلكي الأرض في غياهب الفضاء اللامتناهي ، كذلك ضيع عالم الحياة الإنسان في لانهاية الزمان ، في التطور الطويل الأمد للأنواع المتحولة . فقد كان يمكن أن يعتقد المرء في التدبير الإلهي بعد ظهور كوبرنيك ، ولكن كان ذلك مستحيلاً بعد دارون . فقد أفضت العناية الإلهية الطريق للانتخاب الطبيعي ، ونزل الحب الأزلي عن عرشه للصراع الأبدي ، وأصبحت الحرب مرة أخرى « أبا كل شيء » . وكان الناس زمان بالي Paley (٢) يظنون أن كل عضو قد ركب بعناية للغرض الذي يقوم على تحقيقه . وكان كل حيوان ، قبل ظهور مذهب النباتيين قد خلق ولا ريب لتحقيق حاجات الإنسان . ولكن دارون لم يبين أن كل هذا التدبير لا محل له فحسب ، بل كشف على غير رغبته تناقض الحياة السكونية والإنسانية التي تجري بلا خطة . وهل يمكن أن تجد شيئاً أسخف من الطريقة التي يكثر بها الإنسان نوعه ؟ إن وجود الله ينقضه كل من الحياة والموت ، فلا يعتقد في وجوده طبيب أو قائد . وهل يمكن لخالق عاقل أن يبدع علماً قانون الأحياء فيه كفاح لا يرحم ولا يهدأ في سبيل البقاء ، ولا يعيش فيه إلا الهمجي والمخادع والسافل ؟ إنه كفاح في كل مكان : الإنسان للإنسان ، والقبيلة للقبيلة ، والإمبراطورية للإمبراطورية ، والنوع للنوع ، — ومن يدرى لعله في المستقبل إذا تقدمنا بما فيه الكفاية ، كفاح كوكب لكوكب . بل اليوم تبدو النجوم مسوقة بعضها نحو بعضها الآخر بروح شيطاني يطرب للتخريب .

(١) On Life and Letters, 3rd Series, p. 212.

(٢) وليم بالي (١٧٤٣ - ١٨٠٥) لاهوتي وفيلسوف إنجليزي (الترجم) .

أما فيما يخص بنا ، هنا تحت موطنى قدم الإله ، وموطن ابنه المحبوب ، فإن كل اختراع تنتجه عقولنا النامية يزيد في بؤسنا ، وكل آلة تضاعف عبوديتنا . لقد تعلمنا الطيران حتى يمكن في الحرب القادمة أن نقتل غير المحاربين بالملايين . وإنك لترى يتهوفن وهو أكثر الناس حاجة إلى السمع يصاب بالصمم ؛ ونيثسه المحتاج إلى عينين يصبح أعمى ؛ والدكتور جونسون وعظمته إنما تقوم على الخطابة يفقد القدرة على الكلام ؛ ورينولدز المصور يفقد القدرة على استعمال يده . وقد رأيت ذات يوم امرأة مشلولة ترجع عنها إلى أنها منذ عشرين عاماً حين كانت في شبابها وجمالها يادرت بالعموم مباشرة بعد أن لعبت مباراة في التنس ، فانتشلت من الماء عاجزة مدى الحياة : لقد زحف سم خبيث من مفصل إلى آخر في بدنها حتى أصبحت ترقد اليوم عاجزة عن تحريك أى عضو من أطرافها . وانتفخ وجهها من المرض ، وفسد في جسمها كل عضو ما عدا عقلها الذى بقي صافياً حاداً ليزداد عنايتها . فالعالم هو ما سماه هنرى آدمز : « لوحة صورت من العذاب ، والحزن ، والموت . طاعون ، ووباء ، وقحط . فيضان ، وجذب ، وصقيع . كوارث في أنحاء العالم ، وحوادث في كل ركن . قسوة ، وشذوذ ، وغباء ، وشك ، وجنون . فضيلة تولد رذيلة ، ورذيلة تعمل للخير . سعادة بلا عقل ، وأثرة بلا كسب ، وبؤس بغير سبب ، ومخاوف لا يعرف لها أصل . وتتوج الصورة بالموت جزاء عادلاً للجميع . فالحديث عن العناية الإلهية سبة للمعذبين في الأرض (١) .

ماتيو : إنك تتحدث يا أندرو من أعماق قلبك عن الشر ، وإني لأرجو أن تستعيد يوماً ما اعتقادك الدينى . لقد اعترفت الكنيسة دائماً بحقيقة الشرارة . لقد كتب البابا إنوسنت الثانى رسالة عنوانها « فى تعاسة حظ الإنسان » On the Misery of the Human Lot . إن كل معتقد فى إيماننا يفترض أن هذا العالم مخلوق للعذاب . ألا ترى أن هذا هو السبب الذى يجب من أجله أن نؤمن ؟ كيف يمكن أن نحتمل العيش إذا عرفنا أن هذا العذاب لن تعوضه السعادة الأخروية ؟ إنك لم تتعلم بعد حتى درس قولتير : إذا لم يكن الله موجوداً فينبغى أن نتحرعه .

(١) Adams, H., Mont. St. Michel and Charters, p. 370.

أندرو : إنك يا ماتيو رجل طيب ، وعندما تتجاوز بمثل هذا الصبر عن هرطقتنا ، أكاد أسلم بكل ما تقول . ولست أفخر بمعارضتك . وهرطقتي صادرة عن شخص يرجو من صميم قلبه أن يكون خصمه على صواب . ولكن كل لاهوتك يقسوم على « خطيئة » الإنسان ، وفداء المسيح إياه . وقد جعل التطور هذه العقائد بعيدة التصديق . لقد انهار لاهوتك عندما اختفى آدم من التاريخ . الحق كاد التاريخ أن يسمي إليكم كما أساء علم الحياة ، إذ من المستحيل أن نعتبر ارتفاع الأمم وسقوطها ، وتخريب الحرب للفنون ، وانتصار اللصوص والمتعصبين والقتلة المستمر ، دون أن نستنتج مع أناتول فرانس بأن « العالم مأساة كتبها شاعر ممتاز » - أو لعلها ملهارة من قلم « أرسطوفان الإلهي » .

كلارنس : يعجبني رد ماتيو على حملتك يا أندرو . فالشر يؤدي إلى الإيمان كما يؤدي إلى الإلحاد . فكل جندي متدين حتى يرقى إلى المؤخرة . وجميع القواد ملحدون . والعذاب الذي يدل في نظرك على عدم وجود الله ، يدل على وجوده . عند صاحب النفس التي يجب أن ترتاح . وما دام الفقر أو الموت موجوداً فيكون هناك آلهة . إن ازدياد الثروة من أهم الأسباب في تدهور الدين أكثر من أي سبب آخر ذكرته . فالثروة تقبر الزهد ، وتغرق المدن بألوان الترف والخلود . وحين يلعن الدين الترف والخلود يولى كل إنسان الدين ظهره ، ما عدا الذين لم يتمكنوا من أن يكونوا أشراراً .

بول : والآلة أهم من الثروة سبباً في الإلحاد . فقد صنعت الثورة الصناعية العجائب بالآلات ، حتى أصبح الفكر الحديث لا يملك إلا أن يقرر أن الآلة هي كل شيء . لقد رأت العصور الوسطى في الطبيعة مجد الله ، ولذلك عبدوا الطبيعة ، واجتهدوا أن يبلغوا مرتبة جمالها بالفن العظيم . والروح التجديدية modernity إنما ترى في الطبيعة كثيراً من المادة الخام تصلح للأشياء النافعة ، فهي تقطع الأشجار لتصنع ورق الصحف ، وتسمم الهواء والترع بالمواد الكيميائية . إنها تحيل القرية الهادئة إلى جحيم ومدينة صناعية . إنها تصنع آلات جديدة ، وتسارع إلى التحكم في الأرض . إن فساد الاعتقاد يرجع إلى حد كبير إلى الصلف المطرد عند الإنسان مع شيء قليل من ادعاء القدرة على كل شيء ، فهو

يستطيع أن يصنع كل شيء بآلاته ، فلا حاجة له بذلك إلى الله . وحين كان الناس يزرعون الأرض كانوا أكثر تواضعاً، ولعلمهم كانوا أشد عمقاً ، فقد رأوا سر الحياة في كل ما ينمو على الأرض، ولم يخطر ببالهم قط أن يسموا أفعالهم آلاتاً .

كلارنس : كان سينر على اتفاق معك في نصف ما تقول ، فذهب إلى أن الغيبة supernaturalism أقوى ما تكون في المجتمعات الحربية السابقة على عصر الصناعة ، حيث كان لابد من بث روح الطاعة ، ثم ضعف ذلك المذهب بظهور الصناعة التي تسمى الذكاء وتعتمد عليه . وإني أفترض أيضاً أن الصناعة ترعج الدين ، لأنها تحشد الناس معاً في المدن حيث تحتك العقائد المختلفة فتأكل حتى تموت أخيراً من التحات . هذا إلى إن الصناعة تجلب الديمقراطية ، فيتنازل الإله الحاكم المطلق الذي كان يعكس نظام الملكية غير المسئولة عن عرشه لديانة إله الحكم النبوي ، ثم إلى «دين الإنسانية» الذي يجلب معه عبادة الأعداد . إنك على حق يا بول : إن في علم اعتقادنا شيئاً كثيراً من التعاضم .

أندرو : عندما تذكر أسباب إلحادنا يجب ألا تنسى التربية . إن طالب الكلية اليوم يُطرح في معامل الطبيعة والكيمياء حيث يرى العالم ينحل ثم يتركب تحت بصره . دون أن يذكر الله أممه . إنه يدرس علم الحياة ، فيتعلم أن «التدبير الإلهي» إنما هو «التغيير الملائم» favorable variation ، وأن عين الإنسان رقعة غير متقنة إلى درجة أن أي طبيب عيون ، كما زعم هلمولتز ، لن يجرم بصنع مثلها ؛ كل ذلك إذا لم يكن من سوء حظ الطالب أو من حسن حظه أن ينتمى لولاية تقرر فيها المسائل العلمية بالاقتراع أو التشريع . إنه يدرس علم الإنسان والدين المقارن ، ويقرأ كتب سير جيمس ، فيرى إيمانه وعباداته في ضوء شامل يذيب خرافاته ويضيفها إلى الآثار الباقية عن الجهل القديم . فلا غرابة أن يتهم الذين يعيشون بعقلية ما قبل الطوفان كلياتنا بأنها عش الإلحاد . نعم إنها كذلك ، ولا حيلة لهم في هذا .

وليم : لقد نسيت جميعاً الحرب . لقد كانت تعين على التدين بين الفقراء ، ولكنها ولدت بين الموسرين الشك ، إذ من العسير الاعتقاد بأن علماً يسير في طريق الانتحار كان من إبداع عقل سام خير .

فيليب : مهما تكن الأسباب فمن الواضح أن الدين قد فقد سيطرته على العالم الغربي ، وأن موجة عظيمة من التحول إلى الدنيا تجرف واحدة بعد أخرى تلك الأوجه من الحياة التي كانت تتعلق فيما مضى بالدين . هذه الكليات التي ذكرتها كانت إلى عهد قريب معاهد دينية يشرف عليها رجال الكنيسة . ولكن الصناعة وجدت أن الكليات في ظل هذا الإشراف كانت تخرج فلاسفة وشعراء وخطباء ولاهوتيين بدلا من مهندسين ومعدنين وكتبة حسابات . وارتفعت عقيرة الصناعة بالشكوى . ولما تبينت الكليات أن الشاكي صاحب مال اعترفت بعدالة شكواه ، وطردت رجال الدين ، ووضعت رجال المال في كراسي الرياسة وضيقت على معاهدهما الدينية حتى يتجه الأساتذة إلى الاشتغال بمنحة كارنيجي ، واستبدلوا الطبيعة والكيمياء بالأدب والفلسفة ، وأغرقت البلاد بالحاصلين على دبلومات في العلوم . لقد استولى العلم على الجامعات من الدين .

فهذا هو منبع اتجاهنا نحو الدنيا . ومن هنا الأصل أخذ المجرى يتسع حتى كاد أن يشمل جميع ألوان الحياة . فالأيام المقدسة أصبحت أيام راحة . وأهمل ونسى القديسون الذين كانوا يصفون على التقاويم نوراً وكأبة . كانت الزراعة عبادة وطقوساً وهي اليوم جرارات وكيمياء . والقانون الذي كان فيما سبق أمر الله هو الآن وحى أعضاء الشيوخ والعمد . والدولة التي توحدت ذات يوم مع الدين ، وتوحد رئيسها مع الله ، أخذت تفصل نفسها أكثر فأكثر حتى من النصوص الخاوية الدالة على التقوى السياسية ، بل إن الدولة لن تتنازل حتى لتستأجر الدين كرجل الأمن (١) . إن حكومتنا مسيحية في « عيد الشكر » ، ولكنها تعوض عن ذلك بقية العام . وتفصل الجمهورية التركية عن الديانة الإسلامية ، ولا تجد إلا نصف الجرائد التركية الأمر من الأهمية بحيث يستحق الذكر (٢) .

حقاً في كثير من الجماعات وفي دوائر لاشك في تحرر عقول أصحابها ، لا تزال تعيش خرافات باطلة ومعتقدات غير معقولة ، ولكنها إلى جانب الطقوس

(١) Adams, B., The Laws of Civilisation and Decay, p. 293.

(٢) New York Times, Apr. 12, 1928.

المنكرة والمعتقدات العجيبة التي سادت في الزمن القديم معقولة ولا ضرر منها ..
وازن بين أوروبا الغربية والشرق تترك مدى إقبالنا على الدنيا .. يقول جيون إن
«أوائل المسيحيين كانوا يشعرون أو كانوا يتخيلون وجود شياطين لا تنفك تهجم
عليهم ، وروى تظهروا لهم ، ونبوات تهديهم ، ثم ينجون بأعجوبة من الخطر
والمرض بل من الموت. نفسه بالتوسل بالكنيسة » (١) . فكم بقي من ذلك اليوم ؟
إن تاريخ الحضارة نفسه هو تاريخ الإقبال على الدنيا (٢) secularisation
إن العظمت التي سمعنا لم تعد تخبرنا عن رؤى وشياطين ونبوات .. وهجر الناس
الحديث عن النار والصراط بل والمعجزات .. ذلك أن كل شيء أخذ في التعقيل ،
واللاهوت وقد أخذ يفقد حرارته القديمة. أصبح مزيجاً مهذباً من الفلسفة والأخلاق.
ولكن الأخلاق التي كانت في الماضي ملك الكنيسة الخاص انحلت اليوم عن
رباط الكنيسة والدولة معاً .. واضمحت الجزاءات الأخروية القديمة ، وانعدم
الشعور بالخطيئة .. لم يعد المثل الأعلى الأخلاقي الذي كنا نعتقه في الشباب فضيلة
بل حذراً ..

أندرو : معي الآن بعض الإحصاءات تناسب المقام .. أولاً تقرير من
شارلس بوث بين أن ٧٥٪ من سكان لندن لا يحضرون أبداً في داخل الكنيسة -
ثانياً ، يقول تين إنه حتى سنة ١٨٩٠ ، في باريس ، ومن سكانها ٢.٠٠٠.٠٠٠
من الكاثوليك لا يؤتى فريضة الفصح إلا ١.٠٠٠.٠٠٠ فقط ، مع أن هذه
الفريضة أقدس الواجبات الدينية مدى العام. وأنه من بين ٣.٣٢.٠٠٠.٠٠٠ كاثوليك
في فرنسا لا يتقدم إلى الاعتراف إلا ٢.٠٠٠.٠٠٠ فقط (٣) . أصبح الدين في
الدول اللاتينية صفة جنسية ثانوية للنساء .. ولا يحتفظ بالكاتدرائيات في فرنسا
من أجل العبادة بل لاستقبال السواح ، فهم الذين يعينونها مالياً لا المصلون -
ثالثاً : تبين من استفتاء أرسل إلى قراء جريدة ديلي نيوز في لندن أن ٣٠٪ من
القراء ملحدون . وأن ٤٥٪ ينكرون ألوهية المسيح ، وأن ٦٠٪ ينكرون الصحة
التاريخية لسفر التكوين . وأرسل الاستفتاء ذاته إلى قراء جريدتي الأمة وأثينا يوم

(١) Decline and Fall of the Roman Empire, vol. i, p. 461.

(٢) Shotwell, p. 9.

(٣) The Modern Régime, vol. ii, pp. 132-3.

في لندن فاتضح أن ٥٠٪ من هؤلاء المثقفين لادينيون ، ومن بين ١٠٨٨ ر٠ من الذين أجابوا لم يؤمن بصحة الأسفار الخمسة إلا ٨٨ فقط (١) - رابعاً : إحصاء أجرته جريدة « العالم » في نيويورك تبين منه أن : ٧٥٠٠٠ متدينون ، ٢٩٢٤ لادينيون ؛ ٦٢٩٢ مؤمنون بخلود النفس ، ٣٩٥٤ غير مؤمنين بخلود النفس ؛ ٦٣٢٧ مؤمنون بالصلاة ، ٤٠٦٣ غير مؤمنين بالصلاة ؛ ٥٥٥٦ مؤمنون بنزول الإنجيل ، ٤٦١٤ غير مؤمنين ؛ ٤٩٥١ يمارسون عبادات دينية خاصة ، ٥٣٨٨ لا يمارسونها ؛ ٢٦٨٤ يتعبدون مع أسرهم في البيت ، ٧٣٢٠ لا يتعبدون مع أحد (٢) . وهذه الأرقام خاصة بمدينة نيويورك ؛ ولا ريب أن نسبة المؤمنين إلى غير المؤمنين كانت تكون أعظم إذا كان الإحصاء عاماً في جميع أنحاء البلاد ، أو كانت الإجابات من الأميين كما سئل المثقفون .

كلارنس : لقد كانت كلماتك الأخيرة القليلة أسوأ الكلمات . أما بالنسبة للمسيحية فالموقف أسوأ حتى مما تشير إليه هذه الأرقام ، لأن كثيراً من الإجابات الموافقة جاءت من فرق وشيع ليست معدودة مسيحية في العادة ، مثل (المتصوفة الدينيين) الثيوسوفست theosophists . وفي أمريكا يوجد حول أربعين مليوناً يذهبون إلى الكنيسة ، أما الباقي فلا يرحون الفراش حتى الظهر يوم الراحة كل أسبوع . وجميع الدلائل تدل على أن المسيحية تجتاز نفس الانهيار السريع الذي أصاب ديانة الإغريق القديمة بعد ظهور السفطائين و«التنوير الإغريقي» . كان فونتيير مثل بروتاجوراس ، وديدرو مثل ديمقريطس ، وكانط مثل أفلاطون ، وسبندر مثل أرسطو ، وأاناتول فرانس مثل إبيقور . إننا نعيش في عصر غروب الآلهة .

٣ - وظيفة الدين

بول : إن في صوتك يا كلارنس نغمة حزينة . إنك لا تقل تديناً عن أي واحد منا ، ولكن عقلك المفكك الذي تثق به هذه الثقة هو الذي يمنعك من الاعتقاد . أوافق أنت من أن حكم منطلقك أصح من إحساس قلبك ؟ هل علوم الفلك والطبيعة والبيولوجيا من الثقة بحيث يكون من الحكمة السماح لها بتحطيم الآمال التي أبقت على حياة الكثيرين ؟

(١) New York Sun. Sep. 13, 1926.

(٢) New York World, Dec. 16, 1926.

كلارنس : إنى أعرف مقدار ما يمكن أن يكون فى الإيمان من عزاء .
لى عم شيخ يعيش فى الجبل ويبلغ من العمر التسعين . كان يعمل فى مزرعته
حتى لم تعد قدماه تقويان على حمله . والآن يجلس إلى جوار الموقد فى المطبخ طول
النهار هادئاً مبهجاً يرقب الموت . وفى بعض الأحيان يقول : « لم أكن عبداً
سيناً ، ولو أنى ارتكبت بعض الأعمال الخسيسة مرة أو مرتين فى حياتى . فليكن ،
إن الله سيغفر لى . إنه طيب » . وتجلس إلى جواره زوجته العجوز تقرأ الكتاب
المقدس فى المساء ، وهى تلتهم بسعادة عظيمة كل كلمة للمسيح ، وكل وعد
بالنعمة المقبلة . لم يخطر ببالى أن ألقى الشكوك حول مثل هذه الآمال . لم لا يتعزيان ؟
وفى القرية عند سفح الجبل كنيسة صغيرة يذهبان إليها - كنيسة نظيفة ، بيضاء ،
كريمة . وأظن أن برجها المتواضع قد أخذ بيد مئات الألوف من الأنفس . وتقع
المدافن خلف الكنيسة حيث تجد فوق كل قبر ملاكاً لطيفاً أو صليباً مرجوياً ،
وجميع الكتابات المنقوشة تبشر الميت بقاء المسيح . انظر كيف يأمل الشعب .
إنى أسلم لك يا پول بأن العالم يكون أبدع إذا كان هؤلاء البسطاء على صواب .

أندرو : إنك عاطفى جداً يا كلارنس ، فأنت تسمح لماتيو أن يحرك
كم جلب الأمل فى السماء للناس السعادة . ولكنك لم تذكره بالرعب الذى أنزلته
الكنيسة على ملايين القلوب بتبشيرها بالعقاب الأبدى فى نار جهنم وبئس المصير
(هكذا يؤكد لنا الكتاب المقدس) . ولم تذكره بالمرارة التى جرعتها الدين
لحياة الإنسان : هذه الأسر التى مزقتها التعصب والاختلافات المؤسفة ؛ الأمم
التي سبقت إلى الحرب لنصر العقيدة ، والرجال والنساء الذين احتفل بحرقهم ،
لئلا ينكشف أمر الكتاب المنزل أو الكنيسة المعصومة بقليل من الهرطقة الخاصة .
إنك تذكرنى بعبارة قالها شبنجلر : الإلحاد متفق تماماً مع الرغبة التواقفة إلى التدين
الحقيقى - ومن هذا الوجه فهو يشبه مذهب الرومانسية الذى يستعيد كذلك
ما ذهب إلى غير رجعة (١) . وقد امتلأ العقدان الأولان من هذا القرن بكثير
من الملحددين المتدينين ، مثل أناتول فرانس ، جورج مور ، جورج سنتايانا -
النادبون الرومانتيكيون لإيمانهم الميت . كانوا عصر انتقال ، أما أبناؤهم فلا يشعرون

(١) Decline of the West, vol. i, p. 408.

بما شعروا به ، ولن يعرف أحفادهم هذا الشوق على الإطلاق . ولو أمكننا أن نعود البشرية نسيان فكرة الخلود جيلين أو ثلاثة أجيال لزالَت هذه الكآبة الشعرية .
وليم : لست أظن ذلك يا أندرو ، لأن الاعتقاد أمر طبيعي ، وهو ينشأ مباشرة من الحاجات الفطرية والعاطفية - من التعطش إلى حفظ الذات ، والثواب ، والصحة ، والأمن ، بل والخضوع . وفي بعض الأحيان يغمرنا الشكر على النعمة حتى لنود أن يكون « لروح العالم » آذان يسمع بها آيات شكرنا . ويقول نيتشه إن الطريقة التي تنقلب بها المصائب حظوظاً حسنة أغرته بالاعتقاد في الله (١) .
ولك أن تكتم أنفاس الدين قرناً من الزمان ، ثم اكشف عنه بعد ذلك الغطاء تجد الدين ينمو من جديد قبل مرور عام واحد . ذلك أن الاعتقاد طبيعي أكثر من الشك ، وهو من أجل ذلك أيسر . والشك يبعث على التوقف والضيق . والإيمان يلدغ إلى البسط ، ويحسن الشهية والدورة الدموية . وكل متشكك يشكو من معدته . ومن ثم كان التفاؤل وهو صورة من الإيمان أكثر انتشاراً وتلقائية من التشاؤم الذي هو صورة من الشك . ومعظم الكتاب المحبوبين كما قال نابليون « يباحثون في الأمل » . والشك مشغلة وعمل ، والإنسان كسول . ومن الناحية العقلية تؤدي الأقلية معظم العمل أما الجماهير فطفيليات . القوي وحده هو الذي يستطيع أن يشك ، إذ لا يجتهد أكثر من الشك .

ماتيو : هناك منبع آخر للدين نسييت أن تذكره ، وذلك هو الروح الشعري في الإنسان . فالدين لم ينزع عن الموت ما فيه من ألم فقط ، بل ملأ الحياة جمالاً بالطقوس ، والبناء ، والنحت ، والنقش ، والدراما ، والموسيقى . فقد رفع أحداث الروتين في حياة الإنسان ، من الولادة إلى الزواج ثم الموت ، إلى مستوى السر المقدس ، وجعل من هذه الأمور العادية تجارب مقدسة ، ومد جنورها في النفس بالشعور ، وخيلها للناس بالفن . لقد بدل مأساة الحياة الحقيرة إلى رحلة شاعرية يحج فيها المرء إلى نهاية شريفة . وبغير الدين تصبح الحياة سخيفة وضئيلة كبدن بغير نفس . إنى لأعجب أحياناً كيف يشعر الملحد مساء أيام الأحد عندما تدق أجراس الكنيسة - ألا يغمره شعور قوي بالوحدة ؟

إن يوم الأحد كأي يوم آخر بالنسبة إليك يا أندرو أنت وكلارنس . ومع ذلك لن تغني جميع حفلاتكم الموسيقية ومسارحكم عن القداس في كنيسة سان باتريك أو سان توماس صباح الأحد .

أندرو : مرحي مرحي يا ماتيو ، أخبرنا عن الحقيقة ، إنك تتحرق شوقاً إلى الذهاب إلى الكنيسة .

ماتيو : لعلني أحياناً . ولكنني في أوقات الصفاء أعرف أن تضيعة ساعة في الكنيسة نشد أزرى طول الأسبوع وتشع في حياتي ألواناً من البهجة . ومن ناحية أخرى ما أفرغ عيد الميلاد عنديكم . إنني لأذكر كيف كانت أسرتنا كلها في ليلة عيد الميلاد تركع أمام الكراسي في حجرة الطعام وهي تتلو جماعةً تسايح الصلاة . لازلت أسمع أبي يقول « أبانا » و « السلام لك يا مريم » بصوت رخيم وبغير تعجل . ثم صباح اليوم التالي القربان المقدس Holy Communion ، والقداس الكبير . كنت تجرد كل شخص مشرقاً ومرحاً ، والثلج ناصع البياض ، مع رنين الأجراس ، وأشجار عيد الميلاد المتلاثلة . والصغار سعداء بتلقى الهدايا ، والكبار أكثر سعادة بتقدمها . وفي عيد رأس السنة كنا نركع جميعاً أمام والدي ، الأطفال والشبان على السواء ، نطلب بركته . تلك كانت أسر في ذلك الزمان . فلا عجب أن تضمحل الأسرة . وأن تستشري الجريمة بعد أن مات التبجيل .

كلارنس : يقول أحد أصدقائي الأعزاء إن ثمة أربع مراحل من النمو لفهم الدين : الأولى يسميها الاعتقاد العاطفي ، والثانية الاعتقاد الميتافيزيقي ، والثالثة التجرد المطلق من الوهم ، والرابعة الإدراك الذوقي (١) . إنني لأود أن أكون معك يا ماتيو في هذه المرحلة الرابعة . ولكن المشكلة هي أنك تأخذ هذا كله حرفياً .

ماتيو : يجب أن نقبلها بحرفيتها وإلا بدت كتمثيلية هزلية أليمة . وكيف يمكن أن تكون جميلة إلا تكن صادقة ؟

بول : لقد بينت وجهاً واحداً فقط من وظيفة الدين الهامة يا ماتيو . لقد تحدثت عن قيمته بالنسبة للفرد ، ولكن قيمته بالنسبة للمجتمع لا تقل أهمية . إن الاحتفال الديني بالزواج لم يعظم هذا الحادث في نظر الشريكين المرتبطين

(١) Powys, J.C., The Religion of a Sceptic.

فقط ، بل ربطهما برباط وثيق من الزواج الذي يقوم على عمق العاطفة والحشية مما يضيفه الدين على ذلك الأمر الذي بغيره إنما يكون مجرد إباحة للمضاجعة . وقد أدى الدين بهذه السبل إلى استقرار الأسرة وإلى استقرار الدولة تبعاً لذلك . وأتينا وجهت نظرك في حياة الإنسان الحارثية رأيت الغرائز الفردية أقوى من الغرائز الاجتماعية . والغريزة التناسلية وهي أقوىها جميعاً لبست بالضرورة اجتماعية ، وقد توّدي إلى التفكك والفوضى كما هي الحال اليوم . ووظيفة الدين الكبرى ، بما فيه من أسرار مقدسة ، وتعاليم خلقية ، ووعد بالجنة . . .

أندرو : لا بد أن أذكرك مرة أخرى بأن تضيف الخوف من النار .

بول : . . . أن يدعم دوافع الإيثار ، أو إن شئت فقل دوافع المعاونة والتعاون ، لتقاوم دوافع الأثرة القديمة التي زببت في أحضان آلاف من السنين من الكفاح في سبيل البقاء، فيحارب ويظفر ويأكل ويسود . ولست أعتقد في وجود جهنم ، ولكي أعتقد أن الفكرة عنها قد باعدت بين كثير من الناس وبين ارتكاب الشر . والذي أراه أن الشاب حين يكتشف أن جهنم لا وجود لها فإنه لا يحفل بشيء . ووظيفة الأخلاق أن تمثل الكل في مقابل الجزء والمستقبل في مقابل الحاضر ، وهذا بالضبط ما يسعى الدين إلى عمله . الدين كما يقول هوفدنج هو الاحتفاظ بالقيم . وبغير الجزاءات الدينية تصبح الأخلاق مجرد تقدير ، فيختفي الإحساس بالواجب ، ويقف كل شاب جميع ذكائه وعلمه على التحايل على الوصايا .

فيليب : لا ريب أن الدين كان أعظم قوة في التاريخ هذبت توحش الإنسان قبل ظهور المدارس . وذهب بنيامين كيد R dd إلى أن جميع الحضارات قامت على أساس الجزاءات الأخروية التي قدمها الدين للأخلاق . وكان تارد يعتقد أن الحياة الشريفة عند بعض الملحددين ترجع إلى الأثر المستمر لتربيتهم الدينية - وهو ما سماه كارليل «النور اللاحق» Nach chein للمسيحية . وهذا هو الذي أشار إليه رينان حين كتب عبارته المشهورة : «إننا نعيش على ظل لظل . فعلى أي شيء سيعيش الناس بعدنا؟» - كيف يتحكمون في شهواتهم ، ودوافعهم إلى الكذب والسرقعة والقتل حين يختفي حتى هذا «النور اللاحق»

لعقيدة على فراش الموت ؟ . ويختتم رينان كلامه قائلاً : « الدين وهم لا غنى عنه » (١) وقد كتب دستوفسكى أعظم قصص في العالم ليبين كيف أصبح الإنسان « متلبساً » بالشياطين حين هجر الله . فلا غرابة أن الدولة حتى زمان الثورة الفرنسية والأمريكية كانت تربط نفسها دائماً بدين من الأديان ، وكانت تمنحه معونة مالية وحربية في نظير حمايته الأخلاق . ويرجع العداء الحديث بين الكنيسة والدولة إلى أن المسيحية أصبحت ديانة عالمية لا وطنية ، فأصبحت الكنيسة في علاقاتها بالحكومات سيدة لا تابعة ، واضطرت كل دولة حديثة كي توطد سيادتها إلى أن تحارب سلطة الكنيسة . هذا الانتقال في الحكم من مبدأ التأييد إلى مبدأ التذكير ظاهرة نادرة أكبر الظن أن عهداً لن يطول .

يقول فلوطارخس في بعض كتبه : « قد يكون قيام مدينة بغير أرض تملكها أيسر من قيام دولة بغير اعتماد في الله » (٢) . وزعم بيل Bayle أن قيام دولة لا دينية أمر عملي تماماً ، ولكن فولتير رأى أن بيل إذا عين حاكماً على ستمائة فلاح لبشر بينهم في الحال بالعقاب الديني (٣) . وكان نابليون يظن أن أعظم معجزات المسيحية أنها حجزت الفقراء عن قتل الأغنياء ، وفي ذلك يقول : « لو لم يوجد البابا لكنت اخترعته » (٤) . ولا نزاع في أن الدين المشترك يهب الأمة وحدة وحمية يجعلان من أهلها جنوداً أقوياء . ويكفي أن نتأمل المسلمين واليابانيين .

أندرو : في ضرورة الدين المزعومة للحكومة والأخلاق كثير من الهراء . فهذا الأسقف سويفت Dean Swift الذي لا بد أنه كان يعرف الدين معرفة جيدة يقول إن عندنا من الدين ما يكفي لجعلنا نكره ، ولكن ليس ما يكفي أن يحب أحدنا الآخر . والدين يؤدي إلى الفاقة كما يؤدي إلى الوحدة ، وما عليك إلا أن تذكر انتخابات سنة ١٩٢٨ . ولاحظ أخيراً أحد الإيرلنديين - أكبر الظن بغير رخصة من الكنيسة - بأن : « الدين علة شقائنا ، فبعضنا بروتستانتي

(١) History of the People of Israel, vol. v, p. 92.

(٢) In Bluntschli, Theory of the State, p. 287.

(٣) Lange, History of Materialism, vol. ii, p. 17.

(٤) Todd, op. cit., p. 434.

والبعض الآخر كاثوليكي . ولو كنا جميعاً لادينيين لعشنا معاً كبحين » (١) .
أما الذي تسميه وحدة ، فأنا أسميه ركوداً . فالوحدة التي يعطيها الدين للناس هي
وحدة التقاليد ، وهي طاعة لاشك فيها ، وأمثل صورة لها عبادة الأسلاف
في الشرق . أما أن الدين يهذب توحش الإنسان ويؤدى إلى بناء الأخلاق فكيف
تفسر التضحية بالإنسان في العقائد القديمة ، والدفاع عن الرق ، والأمر الواقع
status quo في الكنيسة الحديثة ؟ لقد رفض هيوم منذ زمن طويل فكرة الدين
هذه من أنها أم الأخلاق أو أساسها . فقد ظهر الدين بعد الأخلاق بزمن طويل .
فإذا كان هناك أية علاقة بينهما فذلك أن الأخلاق لأنها تهذب بالتربية والأمن
تؤثر في الدين أثراً مهنياً . لقد قالها سومر بشجاعة : « لم تكن الكنيسة قط في
مستوى التقاليد Mores الراقية في أى عصر . فكل بحث نجريه يؤدى بنا إلى
أن الكنيسة كانت الملهم والقائد بل إلى اختلاف رسل الحق ، وإلى القلب العظيم
في التقاليد Mores » (٢) .

ماتيو : ولكن أليس من الواضح لكل إنسان أن اضمحلال الاعتقاد
الدينى قد أدى إلى انهيار خطير في الأخلاق ؟ انظر إلى ما عندنا من عريضة ،
وإباحية جنسية ، وأدب مكشوف ، ومآسى العرى وحب العرض ، أجددها
بين أبناء وبنات الكنيسة المخلصين ، أم بين النفوس « المتحررة » ؟ لقد أدت
الداروينية إلى الجبرية والتشاؤم وإلى أبيقورية كئيبة . يتحدث توماس هاردى
عن « الكآبة المزمنة الآخذة في الاستيلاء على الشعوب المتحضرة مع زوال الاعتقاد
في سلطة خيرة » (٣) - فأى عالم أوثق من هذا تود سؤاله ؟ إنه جبل مكتئب ،
وما فيه من بهجة إنما هو محاولة لنسيان فراغ القلب بإطعام الفم . وأنت تعرف
القول المأثور : الدين عند مهد كل أمة ، والفلسفة عند لحدها .

فيليب : وقال نابليون : « الفيلسوف الصالح مواطن فاسد » .

ماتيو : ولا يمكن أن يكون المواطن الفاسد فيلسوفاً صالحاً ، فلا أحد
يحب وطنه لا يحرك ساكناً في الوقت الذي يحطم فيه علم سطحي وموقت الدين

(١) The Arbitrator, May, 1922.

(٢) Todd, p. 428.

(٣) Hardy, T., Tess of the d'Urbervilles, p. 133.

الذى شيد حضارتنا وأخلاقنا . إلى متى تستطيع أوروبا اللادينية الآخذة في الانحلال إلى دويلات محبة لذاتها - دويلات صغيرة ، طبقات ذات مصالح ، جشعية فردية - تستطيع أن تمالك إزاء شرق يتقوى بالصناعة أو يلهم بالاعتقاد الدينى؟ كيف تستطيع أن تمنع البؤس واليأس من أن يملأ كل قلب إذا أنكرت في تعاليمك أعز الآمال التي عرفها الإنسان؟ اسمع : هذا كتاب يكاد يرجع إلى قرن مضى - اعترافات طفل في هذا القرن ؛ وسرى في بدايته سوآلا يطرحه دى موسيه لن تجد له أى جواب :

« عندئذ قال خصوم المسيح للرجل الفقير : إنك تنتظر صابراً إلى يوم العدل : لن يكون هناك عدل . وتنتظر الحياة الآخرة لتنتقم : وليست هناك حياة أخرى . وتجمع دموعك ودموع أسرتك وصباح أبنائك وعويل نسائك وتضع هذا كله تحت أقدام الله ساعة الموت : ولا يوجد إله . »

ثم لاشك أن الرجل المسكين جفف دموعه وطلب إلى زوجته أن تكف عن نهبتها ، وأبنائه أن يلحقوا به ، ووقف على الأرض في قوة ثور ، ثم قال للغنى : « أنت يا من ظلمتني إنما أنت مجرد إنسان » وللقسيس : « أنت يا من عزيتني ، لقد كذبت » . وكان ذلك بالضبط ما أراده خصوم المسيح . لعلمهم ظنوا أن هذه هي السبيل لبلوغ الإنسان السعادة ، أن يطلقوه ليظفر بالحريه .

ولكن إذا كان الرجل المسكين قد اقتنع بأن القساوسة قد خدعوه ، وأن الأغنياء قد سرقوه ، وأن كل إنسان له حق ، وأن كل خير فهو من هذا العالم ، وأن البؤس شقاء ، وإذا اعتقد المسكين في نفسه ووثق بقوة ذراعيه فقال لنفسه ذات يوم : « الحرب على الأغنياء . أما أنا فلا أكن سعيداً هنا في هذه الحياة ما دامت الآخرة لا وجود لها . الأرض لى ، ما دامت السماء خلاء . هي لى وللجميع ما دام الجميع سواء » . وأتم أيها المفكرون الأجلاء الذين قدموه إلى هذا المصير ، ماذا أنتم قائلون له إذا انهزم ؟ (١) .

ألا ترى أن إحدى الوظائف العميقة للكنيسة هي تعزية الضعيف في خضوعه الذى لا غنى عنه للقوى؟ إنك تعلم الضعيف الثورة . أفلا تعرف أنه في صراعه

(١) Musset, A.de., Confessions of a Child of the Century, p. 21.

مع الغنى الماهر القوى المحرر من الضمير سيكون مقضياً عليه بالانهزام ؟
إنك تنزع الله من الففراء وتمنحهم الحرية ، ولكن كيف تنال الحرية بغير
معرفة وقوة ؟ ماذا أنت قائل لثولاء القوم حين ينهزمون ، وحين تلتطخ الثورة
الشوارع بدمائهم ، وحين يجلب لهم الكفاح في سبيل العيش ، وبقاء الأقوى ،
وإرادة السلطان ، طغاة جدد بدلاً من القدماء ؟

فيليب : من الممكن جداً أن ينهار المجتمع الذي نعيش فيه بانحلال
الجزءات الأخروية التي كانت مرتبطة بنظامها الأخلاقي .. وأكبر الظن أن العلم
سيكون عاجزاً عن اتخاذ مكان ما حطمه بشدة .. ولست أعرف حلاً سوى الثقة
بانتشار المعرفة ..

ماتيو : ولكن قليلاً من المعرفة شيء خطر ، وليس لدى الناس من الوقت
للا ما يكفي لهذا القليل .. أما التعليم الذي وضعت فيه ثقك فإنما هو آلة تقلب
الرجال والنساء أشراراً علمدين ..

فيليب : نعم ، نحن نجتاز الآن مرحلة المعرفة القليلة ، ولكننا سنتقدم إلى
الأمم ، وسترتفع المعرفة في المستقبل إلى حكمة ، على الأقل عند قادة الشعب ..
وعندئذ يكون سقراط على صواب : فلا أخلاق الوحيدة الثابتة ، والأخلاق
الوحيدة الآمنة من موت الأديان والعقائد المحققة ، هي أخلاق الحكمة والعقل ..
وإذا لم نستطع أن نثق بالتعليم فلن نبلغ الحق في أي شيء ..

ماتيو : سيرتفع بعضكم إلى فضائل الرواقين الوثنية ، وسيأكل معظمكم ،
ويشرب ، ويطلق زوجته . ولعل البشرية بعد جيل أو جيلين ترى المصير الذي
يقوده إليها الإلحاد ، وتمتلئ الكنائس مرة أخرى - حتى كنائسك يا بول التي
تنافس الآن نياجارا - إننا ننسى أن قلة قليلة فقط هي التي تأثرت بالإلحاد ،
فيوجد حولنا في كل مكان كثير من البسطاء الذين يعبدون الله .. وحين ينتهي
أجلكم جميعاً أيها السادة ستظل الكنيسة تقوم بعملها أقوى وأبر من أي وقت
مضى ، معلمة أبناءها الرحمة والولاء ، مقوية قلوبهم بمثل القداسة ، ومعزية
إياهم عن شرور الحياة ويقين الموت المظلم . سينساكم العالم كما نسي ديمقريطس
ونوكريتيوس ، ويرجع إلى المسيح ..

كلارنس : من الراجح جداً .

٤ - الإله الجديد

بول : عندما أصغى إليك يا ماتيو أكاد أتحول إلى كنيسة . ولكني لا أظن أن المستقبل في جانبك . فكلما رفع التعليم المستوى العقلي للجنس سيعرف الناس كيف يميزون وهم أكثر عزماً بين الجمال والحق . وإذا وجب ألا تصبح المسيحية وفقاً على تغذية الجهلاء فقط فينبغي لها أن تبنى معابدها داخل العالم الذي كشف كوبرنيك ودارون . ولعل هذه السنين من البلايا التي أصابت الدين هي أعظم نعمة له ، إذ يجب أن نعيد اليوم صياغة إيماننا في عبارات أرحب ، وأن نتصور إلهاً جديراً بالكون الحديد الذي اكتشفناه . «وسعوا الله» Elargissez Dieu هكذا قال ديدرو والملحد (١) . وقد كان على صواب ، إذ يجب أن نوسع فكرة الله .

« إن مهمة الدين العظيمة التالية » كما قال لورد مورلي « أن نخلق ديناً جديداً للإنسانية » . لن يحنى الدين ، فسنستمر في البحث عن شيء أعظم من أنفسنا يمكن أن نعبد . سيستمر الناس في البحث عن تفسير متماسك للعالم - وهذه هي الفلسفة ؛ وسيستمر في نفخ ذلك التفسير بالشعور ليعثوه حياً - وهذا هو الدين . سيستمر في التطلع إلى الاتحاد والتعاون مع الكل الذين هم منه أجزاء . تافهة منفصلة . وهذه النظرة الشاملة التي تكون فلسفة . وحقاً حين تكون فكرية فقط ، تصبح جوهر الدين وسره . حين تتغذى بعبادة الكل . وقد يمكن بمثل هذه الصياغة أن نجمع بين العلم والدين مرة أخرى في النفس الواحدة ، كما جمع بينهما ليوناردو وسبينوزا وجوته .

آرييل : أخبرنا كيف يكون ذلك يا بول .

بول : الله الذي أعتقد فيه هو أقدم الآلهة - إنه « المانا » أو « المانيتو » عند البدائيين ، ذلك البحر من الحياة أو الروح الذي منه تستمد جميع الكائنات الحية وجودها . الله حياة . الله هو الحيوية الخالقة للعالم ، أو هو بعبارة القديس توماس « فعل خالص Actus Purus » . وحيثما تعمقت في سبب هذا الأمر وقعت على هذه القوة الخافزة المولدة - « هي دائماً وعلى الدوام الدافع المولد في العالم » . وقد شعر كل مفكر عميق من هرقليطس إلى هافلوك إليس بحياة باطنة

(١) Morley, J., Diderot and the French Encyclopedists, vol. i p. 128.

حتى في أشد الكائنات غير المتحركة سكوناً . يقول إيليس : « إنه عالم مملوء بحياة لا نهاية لها . فما الذي كشف لنا عن ذلك الأمر ؟ إنه العلم . العلم الذي كنا نظن أنه سلنا كل خير وجميل - العلم هو الذي بين لنا ذلك » (١) .

نعم ، علم الطبيعة . وعلم الحياة هما اللذان سيقدمان لنا الإله الجديد . علم الطبيعة الذي يجد حيوية زاخرة في كل ذرة ، وعلم الحياة الذي بين لنا معجزة النمو الدائمة البقاء . . وبعد فقد كان الدين على حق : إن أعلى حقيقة في العالم هي القوة الخالقة ، تلك الحياة التي بدونها ، كما قال سينوزا ، لا يتصور أو يمكن أن يتصور شيء . . وكان سينوزا على حق في قوله : « كل شيء ، حتى بدرجته ما » . . وكان شوبنهاور ونيتشه على حق في قولهما : إن وراء « المادة » . توجد الإرادة . . وكان هيجل على حق : الله هو تلك العملية من النمو التي تتحول فيها كل مرحلة إلى تقيضة باطنة . - إلى انقسام فتيلي mitotic - يؤدي إلى نمو أعظم . وكان أرسطو على حق : في كل شيء ، هذا الدافع الغريب إلى النمو والكمال ، وإلى تحقيق كل إمكان ملازم . . وكان برجسون على حق : في الحياة والاختيار تتكشف سر الحقيقة الباطنة . . ولكن برجسون كان على خطأ ، إذ ليس بين المادة والحياة عداً ، وليست المادة عدو الحياة . بل صورتها وهيئة الخارجية لتلك القوة الباطنية . الحياة هي الطبيعة الخالقة *Natura naturans* التي قال بها المدرسيون وسينوزا ؛ إنها الكمال الأول كما يقول أرسطو ، والذي به يسعى إلى بلوغ تمامه الطبيعي ؛ إنها « الرغبة *Desire* » التي تخلق في فلسفة لامارك البيولوجية عضواً بعد عضو ، وتصوغ ببطء البدن في صورة الإرادة .

العلم هو الذي يخلق ديانتى ، لأن التطور هو الذي يثبت وجود إلهي . كيف يمكن أن يكون التركيب الآلي قد تطور ؟ إن صح هنا فهو أبعد مائة مرة عن التصديق من الأساطير الموجودة في الكتاب المقدس ، ولا يمكن أن نفتديه بالدلالة الرمزية والجمال الشعري مما يجعل تلك الأساطير تكاد تكون أصدق من الحق . تأمل التطور لا كما فعل دارون (إذ أي عالم من علماء الحياة يفكر فيه كما فكر دارون ؟) بل كما رآه لامارك وشوبنهاور ونيتشه . فالتطور

Goldberg, I., Havelock Ellis, p. 71. (١)

ليس تكويناً للكائنات الحية بوساطة البيئة ، بل هو تعديل الأحياء للبيئات ،
وجوهر هذه الأحياء هو الرغبة التي لا تعرف الشبع ، حسب عبارة سينوزا .
أمكنك أن تفكر في ذلك الكفاح الطويل الصاعد للحياة من الأميا حتى أينشتين
وإديسون وأناقول فرانس دون أن ترى العالم مرة أخرى كثوب الله ؟ ألامأعجبنا
من حيوانات . إننا نولد ونموت كالموج المترقق على صفحة النهر ؛ ونحارب
وندمى ونموت في معارك العالم الاقتصادية ؛ ونكذب ونسرق ونستعمر ونطغي
ونقتل ؛ ولكنتا في بعض الأحيان نصنع البارثينون وكنائس كالتى بناها البابا
سكستوس الرابع فى الفاتيكان ، ونكتب أحياناً أمثال السمفونية التاسعة لبتهوفن ؛
أو أوراق الحشيش لوالث هويتان ، ونهب أحياناً حياتنا لأبنائنا وبناتنا . ومع ذلك
غصعودنا إنما قد بدأ فقط ، فنحن فى شباب ومراهقة نمونا ، وكل شىء يبرعم
من حولنا وفى داخلنا ، وما قمنا به ليس إلا وقفة تتعدى عما بعدها . ولم يظهر
حتى الآن قانون استنفد بحثنا أو وصفنا . قد تسمى هذا شعراً أو شعوراً ، ولكنى
لا أستطيع أن أرى نبتة خضراء تنبت من الأرض دون أن أقول : هذا هو الله .
ولا أملك حين أرى طفلاً ينمو ويفنى دون أن أقول : هذا هو الله . إن كل
سيدة تحمل رضيعها تحركى ، لا على أنها صورة للعذراء أو للإيمان ، بل كأعظم
رمز لتلك القوة الخالقة التى تحتنى وراء حركة الأعضاء ، والتى تحرك كما قال
دانتي الأرض وسائر النجوم .

أندرو : لقد أخذنى العجب بعض الشىء من جنس إلهك . فأن ترد الله
لتوحد بينه وبين الحياة ، هو أن تسلبه من الشخصية وتجعله بغير جنس . ومع ذلك
فإنك تراه - أو لعلى أقول تراها - فوق كل شىء فى الأمومة . لعلك ستقبل
تحدى شو ، وتوؤول إلهك على أنه من جنس الأنثى .

بول : الجنس شىء سطحى ظهر متأخراً ، والشخصية أكثر سطحية
وتأخراً . والله من وراء الجنس والشخصية وهو بهما محيط . فأن تنسب الشخصية
لله على المعنى الذى نستعمل نحن فيه هذه اللفظة ، فهذا تشبيه وتفاجر صبيانى .
يجب أن نقرأ زينوفان مرة أخرى . والشخصية انفصال ، إنها صورة خاصة
من الإرادة والخلق . ولا يمكن أن تكون مثل هذه الذات المنفصلة والمتحيزة .

الله مجموع ومنبع هذه الحيوية أو الروح العامة التي منها تجرد وتتكاثر ذواتنا وشخصياتنا قطعاً صغيرة . والشخصية قالب صغير جداً لا يسع الله وقد تبين ذلك منذ كتب كوبرنيك ودارون . قد نتحدث عن إلهي أنه لا جنس له إذا شئت ، ولو أن ذلك يكون وصفاً سلبياً لا يليق . أما أنا فسأستمر في الحديث عنه رمزياً باستعمال ضمير المذكر كما نتحدث عن الإنسان بالمذكر بضرب من الرخصة الأبوية . وإذا كنا نتحدث عن الشمس بضمائر المذكر (١) ، فحديثنا عن الله بالمذكر أثنى من المعقول (بشرط أن نعرف حدوده) حين نأخذ في بالنا أنه الأصل الشخصي الأعلى لكل شخصية .

ومع ذلك فهناك شيء كثير يمكن أن يقال في رأي شو . فالذكر عارض وأداة . ، والأنثى حامل للجنس واستمرار له ، إنها التجسد المباشر للخلق الطبيعي . والعبقرية هي كفوها الوحيد كأوضح تجسد للإله باعتبار أنها أداة الخلق الروحي ، وخالقة المعرفة الجديدة . والقيم الجديدة ، في الأمومة وفي العبقرية ، ومن فوقهما الله . وليست الإنسانية هي الله كما ظن كومت . فلا أحد يعرف الإنسانية بحفل بعبادتها . إن معظمنا مادة خام ، ومجرد أحجار وملاط في بناء لا يمكن أن نفهم السر في تصميمه . ونحن إنما نكتشف وجود شيء يتصل بالله في لحظات نادرة أئمة من حياتنا نصعد فيها إلى مراتب الاختيار ، وفي الشقاء الخالق عند العاقرة . وهذا في صورة أخرى هو التجسد والصلب . كان نيتشه ذلك الملحد التقى يقول إنه حين كان يمشي مع فاجر كان يعرف من الله ، وكان يحس بأنفاس الألوهية تهب عليه . وحرية الإزادة والعبقرية ضربان من الوهم إذا كان الله موجوداً خارجاً وقادراً على كل شيء ، أو إذا كان العالم آلة (الميكانيكية إنما هي كلفينية Calvinism (٢) مغلقة بالثورة الصناعية) . وتتكشف لنا لحظة من حرية الإرادة ، ويصبح بعض أثر العبقرية ممكناً إذا كان الله موجوداً معنا ، وفي الحياة .

(١) الشمس مذكرة في اللغات الأجنبية . أما في العربية فالشمس مؤنثة وفي ذلك قال المتنبي
يرثي أم سيف الدولة :

فا التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال (المترجم) .

(٢) كلفن (١٥٠٩ - ١٥٦٤) مصلح ديني بروتستانتي ، يقوم مذهبه على أن إرادة الله

مطلقة ، وليست للإنسان إرادة ، وإن الخلاص بيد الله الخ (المترجم) .

الدائمة التي ترتقي من طاقة الذرة إلى فن فيدياس وروية المسيح . فإن ترى الحياة من خلال كل تنكرها المادى ؛ وأن تحس بالألوهية ، كما كان القدماء يفعلون ، فى كل شجرة ، وفى كل حيوان ، وفى كل زواج وولادة ، وفى كل عظمة للعقل والنفس حتى فى الاضمحلال والموت الذى لا يرد ؛ وأن تحكم على جميع الأشياء فى صورة خيرها لمجموع الحياة ؛ وأن « تلحق بالكل » وأن تتعاون رغباً فى النماء : هذا هو الدين . أما توقير العبقرية ، وتوقير الأمهات والأبناء وجميع الأشياء النامية ، والولاء للحياة - فهذا هو عبادة الله .

أندرو : هذا كلام شعرى ، وقصور تبنى على الماء . فلا تخدعن نفسك ، سيتم كل عالم من تأليه حياة . يمكن كما قال سنتايانا أن يوضع لها حد فى لحظة واحدة بطلقة طائشة أو ارتفاع أو انخفاض فى درجة الحرارة ، أو نقص فى أكسجين الهواء . ويضحك بمرارة كل متدين من هذا الدين الذى ينتزع الله من السماء ليضعه فى الورود والأشواك، والكلاب والبراغيث ، والأمهات البدينات ، والرضع الذين يبللون لفائفهم ، وريتشارد فاجر أكبر مهرج فى تاريخ الموسيقى .

بول : فلتنس فاجر ، ولتذكر المسيح . سيكون فى دينى هذان العنصران :
الله الحى ، والمسيح الإنسان ؛ لأن المسيح كما فهمه اللاهوت القديم فى صورة الرمز كان أعلى تجسد للإله . وليس أعظم خلق الحياة . هو الفكر بل الحب ؛ وليس أعظم نصر للعبقرية الإنسانية تمثيلات شكبير ولا رخام البارثينون ، بل أخلاق المسيح ، فهى بعد الرعاية الأبوية أبدع قوة للخير ظهرت من قبل فى العالم . إنى لأعرف يا فيليب أنك تعد مذهب المسيح الأخلاقى غير عملى . ومع ذلك فقد سمعتك تنقل مؤيداً آخر سطر من كتاب الأخلاق لسينوزا : « جميع الأشياء الممتازة صعبة كما هى نادرة » ولا اعتراض لى على القول بأن بعض الأشياء صعبة ، لأن وظيفة المثل الأعلى الأخلاقى أن يسمو بنا عن جميع الغرائز التى زاد كفاح العيش فى ضراوتها إلى آفاق من الاحترام والأدب تصبح معهما الحضارة والحياة المتعاونة ممكنة . وما دامت وصايا المسيح فى حدود طاقتنا المثالية فمن الخير أن تحتفظ لنا بالكمال الذى يجب أن نتجه إليه فى نمائنا ، والذى نستطيع أن نجعله على الدوام نصب أعيننا . ما مذهب المسيح سوى « القاعدة الذهبية » - وهل

القاعدة الذهبية متعذرة تماماً على التحقيق؟ على العكس إنها لب الحكمة في صلاتنا بالناس.. لقد اكتشفت أنني كلما دفعت العدوان بالعدوان ضاعفت المقاومة وخلقت عقبات جديدة. ضدي، وحيثما عملت حسنة جاءت مئات أمثالها. وحيثما أحببت ظفرت.. ولو كان لي أن أعرف الملحد لقلت إنه شخص غير موال للحياة ولا يحترم البناء، وكنت أعرف المسيحي بأنه ذلك الذي يقبل أخلاق المسيح ويحاول مخلصاً أن ينسج على منوالها..

فيليب: هنا رائع يا بول. سأنضم إلى كنيسة في الحال إذا لم تصر على الخلود الشخصي.

بول: لم لا تختلف على بعض الأمور ونعمل معاً حيث نستطيع؟ وبعد فاختلافنا إنما هو في ألفاظ. كانت الأجيال السابقة تعني ما نعنيه - احترام كل حي، والولاء للمجموع الأكبر.. كل ما في الأمر أن السلف كان يستعمل رموزاً وألفاظاً مختلفة. والآن وقد انتهت المعركة فإننا نرى كم كنا قريبين، وكيف أننا جميعاً لا تزال أعضاء في جسم واحد.. سرّ حب كنيسة المثالية بكل من يقبل «القاعدة الذهبية»، وليس ثمة أي اختبار آخر. كلكم مقبولون، حتى فيليب الذي يظن المسيح غير عملي، وأنדרو الذي يعد نفسه آله، وكلا رنس الذي يشك في كل شيء، ولكنه يحب كل شيء. إني لأتصور كنيسة في سعة صدرها كحبة المسيح فتضم الجميع ولا تطرد أحداً. كنيسة تكرم الحق والجمال كما تكرم الخير، فتغذي كل فن، وتجعل كل معبد وكاتدرائية حصناً لتعليم الشباب، وتقدم للكبار الذين لا يحضرون المدارس ويرغبون في التحصيل العلم والتاريخ والأدب والفلسفة والموسيقى والفن. ولكنها إذا لم ترع حق الأخوة كانت معارفها عقيمة، فيجب أن تسمح بكل انقسام، وكل شك، بشرط أن يكون الحب في النهاية هو رأس الحكمة.

آريل: فلنختم حديثنا عند هذا الحد. فهنا بين هذه الكتب التي انحدرت إلينا من عباقرة مئات من البلاد قد نسلم بأننا إخوان، وبأن الدين والأخوة يجب أن يكونا شيئاً واحداً، وأن كونفوشيوس وبوذا، إشعيا والمسيح، سينوزا وهويتان، هم أنبياء إيمان واحد. وإذا تيسر لنا أن نتفق على ما اشترك فيه هؤلاء القوم، فهذا يكفيننا.

سير جيمس : سيدتى ، إني أعرف دينك جيداً ، إذ هنا فى نسخة هويتنا
الخاصة بك أجد قصيدة أشرت إليها تصلح أن تكون المرشد لنا وشعارنا جميعاً .
إنها تسمى : « إلى ذلك الذى صلب » .

آريليل : اقرأها علينا ، فلعلها تهديء أعصابنا عقب هذه المناقشة .
(وهنا يقرأ جيمس) .

آريليل : إنها فى غاية الجمال .

ماتيو : إنها جميلة ، ولكن فيها غروراً وإلحاداً .

فيليب : إذا كانت هذه هى المسيحية ، فأنا مسيحي .

بول : لم ينفذ أحد إلى لب المسيحية بأفضل من هنا .

وليم : إنها ترضيني .

كونيج : لقد فهمت الآن مسيحكم أفضل مما كنت أفهمه .

سيديا : إني أقبله بسرور كبوذى عظيم .

إستر : إني أقبله كيهودى عظيم .

كلارنس : وكعارض تمام المعارضة للقساوسة (١)

تيودور : سأقبله إذا جعلتم «أوراق الحشائش» جزءاً من الكتاب المقدس .

سير جيمس : إنه أحب الآلهة .

أندرو : أنا واثق أنه كان موجوداً . فلنذهب إلى الفراش .

(١) برنارد شو .

الجزء التاسع

خاتمة

الفصل الرابع والعشرون

حول الحياة والموت

أمكن أن نركّز نظرة شاملة في فصل واحد موجز عن الحياة الإنسانية؟ هذا شيء مستحيل، لأن الحياة في أساسها سر، إنها نهر يتدفق من منبع مجهول، وهي في نموها ذات حيل لا حد لها يعجز الفكر لشدة تعقدها عن معرفتها، وهو في التعبير عنها بالقول أشدّ عجزاً. ومع ذلك فإن الظمأ للوحدة يدفعنا إلى هذا البحث. فأن نوضح هذه المجهل من التجارب والتاريخ، وأن تصوب إلى المستقبل نور الماضي المنحرف، وأن نكشف عن اتجاه مجرى الحياة ثم التحكم تبعاً لذلك في فيضانه ببعض التدابير: هذه الشهوة الميتافيزيقية التي لا تشبع هي مظهر من أنبل مظاهر الجنس البشري الذي هو موضع بحثنا. وهكذا سنسعى مهما يكن هذا السعي عبثاً إلى رؤية الوجود الإنساني ككل، من اللحظة التي قُذِفنا فيها إلى هذا العالم بغير اختيارنا، إلى أن تُتِمَّ العجلة التي ارتبطنا بها دورتها بالموت..

١ - الطفولة

يقول والت: « وبعد المناقشة يتدفق جماعة من الأطفال بأساليبهم وأحاديثهم كترقق الماء اللذيذ على أعصابي الثائرة وبلدي الفائر ». إننا نحب الأطفال أول كل شيء لأنهم أبناؤنا وامتداد لأنفسنا التي نرى أنها أبدع الأنفس. ولكننا نحبهم كذلك لأنهم يمثلون ما كنا نود أن نكون عليه ولم نستطع... حيوانات منسقة الترابط، تصدر عن تلقاء نفسها في بساطتها ووحدة عملها، على حين لا يبلغ الفيلسوف هذه البساطة وهذه الوحدة في العمل إلا بعد كفاح وتحكم. نحبهم بسبب هذا الذي فينا والذي نسميه الأثرة - اتجاه غرائزهم على فطرتها واستقامتها. نحب صراحتهم البعيدة عن النفاق، فهم

لا يتسمون لنا إذا لم يرغبوا في وجودنا . يقول المثل الألماني : « الأطفال والمجانين يقولون الحق » Kinder und Narren sprechen die Wahrheit ومع ذلك يشعرون بالسعادة في إخلاصهم .

انظر إليه هذا المولود : إنه قدر ولكنه رائع ، مضحك في الواقع ، لا نهائي في الإمكان ، قادر على ذلك السر الأقصى . . . النمو . أتستطيع أن تتصور أن هذه الحزمة العجيبة من الصوت والألم ستصل إلى معرفة الحب والقلق والعبادة والعذاب والحلق والفلسفة والموت ؟ إنه يصيح ، لقد طال سباته في رحم أمه الدافئ الهادئ . وفجأة إنه مضطر الآن إلى التنفس ، وهذا شيء يؤذيه ؛ مضطر أن يرى الضوء الذي يخزه ، وأن يسمع الضوضاء التي تفرعه . ويلفح البرد جلده ، فيبدو وكأنه قطعة من الألم . ولكن ليس الأمر كذلك فالطبيعة تقيه شر هذه الغارة الأولى من العالم بأن تغلفه بغلاف عام من عدم الحساسية . فهو إنما يرى الضوء باهتاً ، ويسمع الأصوات خافتة وكأنها آتية من بعيد . وينام معظم الوقت .

وتسميه أمه القرد الصغير ، وهي على صواب . فإلى أن يمشى فهو كالقرد بل أقل من ذى القدمين ، إذ أن حياته في الرحم قد أكسبت ساقيه الصغيرتين هيئة الضفدع . ولن يخلف صفة القرد وراءه حتى يتكلم ، ويشرع في النهوض مخاطراً إلى هيئة الإنسان . راقبه وانظر كيف يتعلم شيئاً فشيئاً طبائع الأشياء بحركات الاستطلاع الخزافية . العالم لغز خفي بالنسبة له ، وهذه الاستجابات العشوائية من القبض باليد ، والعض ، والرمى هي نواة المحاولة التي يقدها على نار التجربة المجهولة المحظورة . فالاستطلاع يستولى عليه ويساعد على نموه ، لأنه يهوى أن يمد يده وأن يتذوق كل شيء من « الشيخخة » إلى القمر .

وقد يمكن أن نجعل هذا الطفل بدء فلسفتنا ونهايتها . ففي استطلاع الدائم وفي نموه سر كل فلسفة . فنحن حين نتأمله في أرجوحته ، أو وهو يحبو على الأرض ، إنما نرى الحياة لا على أنها تجريد بل كحقيقة متدفقة تتخطى جميع مقولاتنا الميكانيكية وجميع قوانيننا الطبيعية . فهنا في هذه الضرورة النامية ، في هذا الجهد الصابر والبناء المثابر ، في هذا النهوض الثابت العزم من العجز إلى القوة ، ومن الطفولة إلى الشباب ، ومن الدهش إلى الحكمة . . . هنا نجد « ما لا يمكن

معرفة Unknowable « الذي قال به سبنسر ، و « الشئ بالذات Noumenon »
 في فلسفة كانط ، « والحقيقة بالذات Ens Realissimum » في شروح المدرسين ،
 و « المحرك الأول Prime Mover » في فكر أرسطو ، و « الشئ بالذات To ontos on »
 في فلسفة أفلاطون . نحن هنا أدنى إلى أساس الأشياء من ثقل المادة وصلابتها ،
 أو من عجالات الآلة وروافعها . فالحياة هي ذلك الذي لا يرضى ، والذي يكافح
 ويبحث ، والذي يحارب إلى النهاية . ولن تستطيع أي فكرة ميكانيكية أن تفسرها
 التفسير الصحيح ، أو أن تفهم نمو الشجرة الساكن وعظمتها الصامتة ، أو أن
 تقيس شوق الأطفال وحنانهم ..

٣ - الشباب

قد يمكن أن نعرف الطفولة بأنها عصر اللعب ، ولذلك فإن بعض الأطفال
 لا يبلغون أبداً مرحلة الشباب ، وبعض الشباب لا يشيخون أبداً . الشباب انتقال
 من اللعب إلى العمل ، من الاعتماد على الأسرة إلى الاعتماد على النفس . تمتاز
 هذه المرحلة بشيء من القوضى والغرور ، لأن الشاب في الأسرة كان محاب
 الرغبات والنزوات بالحب الأبوي العارم . حتى إذا نزل الشاب إلى معترك العالم ،
 وقد أصبح لأول مرة حراً بعد أن كان معزواً مدللاً سنين طويلة ، غرق في نشوة
 الحرية ، ونطق بلهجتها البربرية ، وتقدم لغزو العالم وتعديله ..

تتميز الخطابة الحسنة كما قال ديموستين بأمور ثلاثة : الأفعال ، والأفعال ،
 والأفعال . وقد كان يمكن أن يصف بها الشباب كذلك . فالشباب واثق
 بنفسه ومجازف كإله . يحب الشباب المثيرات والمغامرات أكثر مما يحب الطعام .
 إنه يحب كل بديع ، ومغالاة ، وإسراف ، لأن طاقته متدفقة وتتحرق إلى تحرير
 قوتها . يحب الشباب اقتناء كل جديد وركوب كل خطر ، ولذلك يكون الرجل
 شاباً بمقدار ما يركب من مخاطر .

ويتحمل الشباب القانون والنظام متبرماً . إننا نطلب منه الهدوء ، على حين
 أن الضوضاء هي مجاله الحيوي . نطلب منه أن يقف سلبياً مع أن رغبته في الحركة .
 نطلب منه أن يكون رزيناً عاقلاً على حين أن دمائه ذاتها تجعله « في نشوة

دائمة» (١). هذه المرحلة هي مرحلة الاندفاع والانطلاق ، وشعارها: «الإسراف سبيل النجاح» *Panta agan* . إنه لا يتعب أبداً . يعيش في الحاضر ، ولا يبتدئ على أمس ، ولا يخشى الغد . يتسلق في خفة ومرح التل الذي تحق قمته الجانب الآخر . إنه مرحلة الشعور الحاد والرغبة الجامحة ، فلم تهذب التجربة بعد بالتكرار ومواجهة الحقائق . أعظم شيء عنده أن يشبع حواسه جميعاً . كل لحظة محبوبة لذاتها ، والعالم عنده منظر جميل ، شيء يمتصه ويستمتع به ، شيء يصلح أن ينظم فيه القصائد ، وأن يشكر من أجله السماء .

والسعادة هي حرية لعب الغرائز ، وهنا هو شأن الشباب . والشباب عند معظم الناس المرحلة الوحيدة في الحياة التي يعيشون فيها . ليس أغلب الناس في الأربعين إلا ذكرى ، ورماد تلك الشعلة التي كانت متوهجة ذات يوم . إن مأساة الحياة هي أنها لا تهينا الحكمة إلا حين تسلب منا الشباب . أو كما يقول المثل الفرنسي :

«أواه لو عرف الشباب ب وآه لو قدر المشيب»

Si jeunesse savait et vieillesse pouvait.

تقوم الصحة على العمل الذي يجعل الشباب رشيقاً . فأن يشغل المرء نفسه في العمل هو سر الرشاقة ، ونصف السر في الرضا . فلنسأل الله أن يهبنا أعمالاً نوؤديها لا أملاً كما نقتنيها . وقد قال ثورو إن كل إنسان في المدينة الفاضلة هو الذي يبني بيته ، وعندئذ يعود الغناء فيغمر قلوب الناس كما يغمر العصفور بعد أن يبني عشه . فإذا لم نستطع أن نبني بيوتنا فقد يمكن على الأقل أن نمشي ونرمي ونجري ، فلا نكون من الشيوخوخة بحيث نقف لمشاهدة الألعاب بدلا من المشاركة فيها . فاللعب كالصلاة سواء في النفع ، ولكن نتائج اللعب مؤكدة .

من أجل ذلك كان الشباب حكماً في إثارة ساحات الرياضة على قاعات الدراسة ، وفي رفع منزلة لعبة «البسبول» على الفلسفة . عندما وصف طالب صيني قصر النظر الجامعات الأمريكية بأنها : «مجامع رياضية تهباً فيها بعض فرص الدراسة لضعاف الأجسام» لم تكن ملاحظته هادمة كما تصور ، بل صورت

(١) La Rochefoucauld, Reflections, No. 271.

نفسه أكثر مما صورت الجامعات . فكل فيلسوف يجب أن يكون رياضياً Athlete^(١) .
كأفلاطون ، فإذا لم يكن كذلك فلنشك في فلسفته . ولقد قال نيتشه : « إن
أول ما يحتاج إليه السيد المهذب أن يكون حيواناً كاملاً » . وعلى هذا الأساس
يجب أن تقوم التربية وتبنى ، ويجب أن يكون تعليم العناية بالبدن مكافئاً تثقيف
العقل بالعلوم .

وفي أثناء ذلك يتعلم الشباب القراءة ، وهي كل ما يتعلمه المرء في المدرسة ،
كما يتعلم أين وكيف يجد ما يمكن أن يحتاج إلى معرفته فيما بعد - وهذا أعظم فن
يكتسبه في الكلية . لا قيمة لما يتعلمه المرء من الكتب إلا إذا استعمله وتحقق
منه في الحياة ، وعندئذ فقط يبدأ هذا العلم في التأثير على السلوك والرغبة .
فالخياة هي التي تعلم ، ولعل الحب أكثر من أي شيء آخر في الحياة هو الذي
يعلمنا .

وفي أثناء ذلك تحين مرحلة المراهقة ، فإذا بالصبي يفقد فجأة المبادرة
والوحدة في أعماله الحالية من التدبير ، فيغمره ظل من صفة التفكير . وتأخذ
الفتاة تزين نفسها بعناية أكثر ، وتصف شعرها بفن أعظم . تنفق عشر ساعات
من يومها تفكر في اللبس ، وتغطي ركبها بقميصها مائة مرة في دلال علبث .
ويأخذ الصبي ينظف رقبته ويلمع حذاءه ، وينفق نصف مصروفه على الفتاة ،
والنصف الآخر على ملابسه . وتتعلم الفتاة صناعة الحياء ، أما الشاب فيخطر
في حضرة الجمال على مهل .

ثم يجيء النمو الفكري خطوة خطوة مع نمو الشعور الجنسي . فتفسح
الغريزة الطريق للفكر ، وتتحول الحركة فتصبح تفتحاً هادئاً . ويأخذ الشباب
في اختبار نفسه والعالم من حوله ، فيطرح أسئلة لا حصر لها ويفترض نظريات
ليظفر بمعنى الأشياء . إنه لا يفر من السؤال عن الشر ، وأصول الأشياء ،
والتطور ، والمصير ، والنفس ، والله . ويفوز العقل بفقاعات من الأفكار ، وكل
لفظة أو فكرة توحى بمئات غيرها . وينتقل الشباب إلى مرحلة يتلاعب فيها

(١) رياضي هنا بمعنى الرياضة البدنية ، وقد اشترط أفلاطون تعليمها في مدينته الفاضلة.
كما هو معروف ، كما اشترط تعليم الرياضة أي الحساب والهندسة (المترجم) .

الفتيان بالألفاظ والفتيات بالضحكات . ويزدهر القلب حتى الصميم بالغناء والرقص ، ويتغذى الذوق الفنى بالرغبة الفائضة ، ويتولد فيه الشعور بالموسيقى والفن .

وحين يكتشف الشباب العالم يكتشف كذلك الشر ، فيفزع حين يطلع على طبيعة الإنسان . كان مبدأ الأسرة المعونة المتبادلة ، ومساعدة القوى للضعيف ، واقتسام المنافع . أما مبدأ المجتمع الذى يكتشف الشباب أمره ، فهو التنافس ، والكفاح فى سبيل الحياة ، وإقصاء الضعيف ، والإبقاء على القوى . ويصدم الشباب فيثور ، ويطلب من العالم أن يصوغ نفسه فى هيئة الأسرة ، وأن يمنح الشباب ما كان يجده فى الأسرة من ترحاب وحماية وأخوة . وهذا هو طريق الاشتراكية . ثم ينزل الشباب رويداً رويداً إلى مقامرة هذه الحياة الفردية ، فتسرى حماسة اللعبة إلى دماثة ، ويتنبه فى نفسه حب التملك ، فيبسط كلتا يديه للظفر بالمال والسلطان . وتحمذ الثورة ، ولكن اللعبة تمضى فى طريقها .

وأخيراً يكتشف الشباب الحب . كان يعرف « حب العجل » (١) تلك المقدمة الأثرية لسمفونية الحسد والروح المقبلة . وقد عرف ألواناً من الكفاح الوحيد للرغبة الفجة الجاهلة . غير أن ما عرفه لم يكن إلا مقدمة لا ضرر منها قد تعمق الروح وتهيئها للولاء الذى بهجر فيه الإنسان نفسه . أنظر إليهما : هذا الشاب وهذه الفتاة يجبان بعضهما بعضاً ، أ يوجد أى شرف فى هذه الحياة الدنيا يمكن أن يقابل جلال هذا الخير ؟ وإذا بالفتاة تصبح فجأة هادئة منغمسة فى التفكير كلما ارتفع مجرى الحياة فى نفسها إلى مرتبة الخلق الواعى . أما الشاب فيصبح فى أدب ورقة متحمساً وقلقاً ، عارفاً بجميع ألوان الغزل ، مشرقاً بما فى دمه من جوع ومع ذلك متعالياً إلى منزلة الحنان والولاء . هنا تجد ما قامت به قرون طويلة من الحضارة والثقافة . هنا فى هذا الحب الرومانتيكى تجد ذروة ما بلغه الإنسان أكثر مما تجده فى فتوحات الفكر أو غزوات السلطان .

لو كان الشباب حكماً لأعز الحب فوق كل شىء آخر ، واحتفظ بنظافة البدن والروح لمستقبله ، وأطال أيام الخطوبة ووصلها بالشهور ، ثم يبيحها بزواج

(١) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ١٧٣ (المترجم) .

تحف به الطقوس الحليّة ، مخضعةً بعد ذلك كل شيء لهذا الزواج . ولو كانت الحكمة شابة لأعزت الحب ، مرضعة إياه بالإخلاص ، معمقة جذوره بالتضحية ، محيية إياه بالأبوة ، مخضعة له كل شيء حتى النهاية . ومع أننا نحترق في سبيل الحب الذي يغمرنا بالمآسى ، ومع أنه يكسر قلوبنا بزواله ويخني ظهورنا بهجرانه ، فليكن الحب مع ذلك في المحل الأول .

٣ - وسط العمر Middle Age

وهكذا يتزوج الشباب ، فينتهي الشباب .

إن الرجل حين يتزوج يزيد عمره في اليوم الثاني خمس سنوات ، وكذلك الحال في المرأة التي تتزوج . ومن الناحية البيولوجية يبدأ وسط العمر بالزواج الذي يجعل الحمل والمسئولية يحلان محل اللعب الحر ، ويسلم الهوى لقيود النظام الاجتماعي ، وينزل الشعر عن عرشه للثّر . إنه تغير مختلف باختلاف العادات والأجواء : فالزواج يتأخر اليوم في مدننا الحديثة ويطول عهد المراهقة . ولكن الزواج بين شعوب الجنوب والشرق يتم في ذروة الشباب وبشيخ في أعقاب الأبوة . يقول ستانلي هول : « إن شباب الشرق الذي يمارس الواجبات الزوجية في الثالثة عشرة من العمر ينهك في الثلاثين ويبلغ إلى استعمال الأدوية المقوية ... والنساء في الأجواء الحارة كثيراً ما يكهنن في الثلاثين . والراجح - بوجه عام - أن الذين يتأخر بلوغهم تتأخر شيخوختهم » . ولعلنا إذا استطنعنا أن نؤخر بلوغنا الجنسي حتى يحين بلوغنا الاقتصادي ، فقد نرتفع بإطالة فترة المراهقة والتعليم إلى مستوى أعلى من الحضارة لم يعرفه الماضي من قبل .

إن كل عمر في الحياة له فضائله وله عيوبه ، وله مهامه وله مبلهجه . وكما أن أرسطو رأى الامتياز والحكمة في الوسط الذهبي ، كذلك يمكن أن ترتب صفات الشباب والرجولة والشيخوخة ترتيباً بين وجه العدل في تقسيم الحياة الإنسانية . مثال ذلك :

الشباب	وسط العمر	الشيخوخة
الغريزة	الاستقراء	القياس
التجديد	العادة	التقاليد
الاختراع	التنفيذ	التعطيل
اللعب	العمل	الراحة
الفن	العلم	الدين
الخيال	الفكر	الذاكرة
النظرية	المعرفة	الحكمة
التساؤل	التحسين	التشاؤم
التطرف	التحرر	المحافظة
الاستغراق في المستقبل	الاستغراق في الحاضر	الاستغراق في الماضي
الثجاعة	التبصر	الحن
الحرية	النظام	السلطة
التذبذب	الاستقرار	الركود

مثل هذه القائمة يمكن أن تستمر إلى ما لا نهاية له . مهما يكن من أمر فاننا نخرج منها بهذا العزاء بالنسبة لوسط العمر وهو أنه عصر العمل والبناء . فالحياة تقدم بدلاً من ابتهاج الشباب وحماسه الأمن الهادئ والقوة العزيزة والإحساس بالأشياء لا على أنها أمل يرجى بل حقائق تحققت . وفي الخامسة والثلاثين يبلغ الرجل ذروة خطه البياني (١) ، محتفظاً بما يكفيه من أهواء السنوات الماضية ، وملطفاً إياها بالنظرة الشاملة المستمدة من التجارب الواسعة والإدراك الناضج . ولعلك تجد بعض الاتفاق في هذا الترتيب مع الدورة الجنسية التي تبلغ ذروتها في الثانية والثلاثين ، وهي الوسط بين المراهقة وسن الفضيلة . وقد بين « إيليس » أن معظم العباقره رجالاً ونساء ولدوا حين كان آباؤهم بين الثلاثين والرابعة والثلاثين (٢) .

وعندما نجد لنا مكاناً في العالم الاقتصادي تهدأ ثورة الشباب ، فنحن ننكر

(١) نقل هذا الجدول الثلاثي ، مع الكلمات الأولى من الفقرة الرابعة التالية أحد الصحفيين بعنوان : « يجب أن يموت الناس في الخامسة والثلاثين » وأرسله إلى كل فيلسوف أمريكي ليأخذ رأيه فيه ابتداء من مستر دمبسي إلى مستر كولدج .

Ellis, H., A Study in British Genius. (٢)

الزلازل حين نقف على الأرض . وعندئذ ننسى حريتنا المتطرفة radicalism في حرية liberalism معتدلة - فالحرية المعتدلة هي المتطرفة وقد هذبها الشعور بالمسئولية المالية . وكلما أصبحنا أكثر ملاءمة مع البيئة كلما ازداد خوفنا من ألم معاودة الملاءمة التي لا بد أن يحتاج إليها أي تغيير أساسي . فبعد الأربعين نؤثر أن يظل العالم كما هو ، وأن تتجمد صورة الحياة المتحركة إلى لوحة ثابتة .

ويرجع بعض المحافظين المتزايدة في وسط العمر إلى الذكاء الذي يرى تعقد النظم ونقائص الرغبة . ولكن بعضها الآخر هو ثمرة الطاقة الهابطة ، وتتفق مع الأخلاق الطاهرة عند المهوكين من الناس . ونذكر أول الأمر ، دون أن نصدق ثم بعد ذلك يائسين ، أن خزان القوة لا يمتلئ ، بعد أن تعترف منه ، أو بعبارة شوبنهاور أصبحنا نعيش على رأس المال لا على الدخل . وهذا الاكتشاف يجعل الحياة مظلمة عدة سنين ، فنندب قصر الحياة الإنسانية واستحالة الحكمة أو تحقيق الأمل في هذه الدائرة المحدودة . إننا نقف على قمة التل ، وتستطيع أن نرى الموت في أسفله دون أن نجهد أعيننا . لم نكن نسلم بوجود الموت قبل ذلك ، فهو فكرة مجردة أكاديمية لا يمكن أن يفكر فيها الرجل القوي . وفضيحة نجدها أمامنا بغير رحمة . ومهما نحاول البعد عنه فإننا نهبط التل ونقترب منه . ونتلفت إلى الوراء في صفحة الذاكرة إلى الأيام التي لم يسودها وجوده ، ونتمرح في صحبة الصغار لأنهم يصفون علينا مؤقتاً وإلى حد ما عدم مبالاتهم بالفناء .

في العمل والأبوة تجد الرجولة كمالها وسعادتها . وكلما تحول الأمل الطموح للشباب إلى عمل وصبر هادئ في وسط العمر ، تحل الحماسة للعمل المؤدى محل الحلم لغزو العالم . ذلك أن البلوغ كالحال في سانكوبانزا يؤثر جزيرة في البحر الأبيض على قارة في الطوبيا .

ووظيفة الشباب أن يكون شديد الحساسية للأفكار الجديدة . باعتبار أنها وسائل تمكنه من التقدم في غزو البيئة . ووظيفة الشيخوخة معارضة الحديد في معركة لا ترحم تمتحن فيها قوة الفكرة قبل أن يخضعها المجتمع للتجربة . ووظيفة الرجولة في وسط العمر أن تجعل الفكرة معتدلة وفي حدود الإمكان

العملى والتماس الوسائل لتحقيقها . فالشباب يقترح ، والرجولة تدبر ، والشيوخوخة تقاوم . الشباب يسود فى أزمنة الثورة ، والشيوخوخة فى عصور التقاليد ، والرجولة فى فترات التعمير . يقول نيتشه : « إن الحال مع الناس كالحال مع غابة تشتعل لتصبح فحماً . فالشباب إنما يصبح نافعاً حين تبرد حرارته ويتفحم كهذه الأكوام . وما دام يشتعل ويتصاعد منه الدخان فقد يكون أكثر متعة ولكنه فى الأغلب أقل نفعاً وأكثر تعباً » (١) .

الشباب رومانتيكى ، وهو على حق فى ذلك لأن الخيال والشعور يتحركان فيه . والشيوخوخة كلاسيكية فى أذواقها ، فهى تحب الترتيب والحواجز أكثر مما تحب الهوى والحرية . والرجولة تتأرجح بين الاثنين ، وتنسج قيمها فى صبر على أنوال العمل . إن سنوات وسط العمر تعطينا آخر الأمر إرادة منظمة ، ووضوح العقل الذى ينسق مطالب الرغبة . إن قاعدة المعرفة كما قال ديكارت هى أن تفكر بوضوح ، وما نفهمه بوضوح هو الحق فقط . وقاعدة السلوك هى فى الأغلب أن ترغب بوضوح ، وبهذا فقط تتحول الرغبات إلى خلق وإرادة .

فالاعتدال moderation هو أعظم صفات الرجولة فى وسط العمر . وأعظم خطر يهددها هو التفاهة mediocrity (٢) . فما أيسر أن يرتد المرء من مشقة المجهود إلى إلف الروتين ، من الحياة الرأسية إلى الحياة الأفقية . هذا الخطر موجود دائماً ، ومعظمنا يسلم له ، وقيلولة بعد الظهر رمز لهذا الخطر وبداية له . ومع ذلك فلا ينبغى أن يكون الاعتدال تفاهة أو توسطاً . فقد يكون الاعتدال هو قوة وعمق العقل الذى لا يضطرب بسهولة عند الظروف غير المواتية ، ويكون المرء ثابت العزم فى العمل كما هو مقتصد فى الرغبة والحديث . حتى المتطرف نيتشه كتب يقول : « أى هذين الأمرين العظيمين أفضل : التدبير أم الاعتدال ، هذا شئء بحسن ألا تجيب عنه ، فقليل هم الذين يعرفون قوة كل منهما وأهميتهما » (٣) .

(١) Human All Too Human, vol. i, § 585.

(٢) ليست Mediocrity بالضبط التفاهة ، وليست هى التوسط ، وإنما هى صفة الرجل أو الأمر دون المتوسط ، هى أقل من المتوسط . ولكنها أقرب إلى التفاهة منها إلى التوسط (المترجم) .

(٣) Ibid., vol. ii, ? 230. ٣

وبصرف النظر عن مثل هذه النماذج الفلسفية فإن المتساهل Commuter هو صورة للرجل في وسط العمر .. إنه يتناول طعام الإفطار وهو يقرأ عناوين الصحف ويقبل زوجته وأولاده مودعاً إياهم في سرعة . ثم يندفع إلى المحطة حيث يتبادل مع أمثاله أحاديث تافهة عن الجو على طول الرصيف ، ويعيد قراءة صحيفته ويدخن غليونه في القطار ، ثم يمشي في غير ثبات محتازاً الفاكهة والقاذورات في « منهاتان » ، ويتعلق كرجل غريق يحزّام من الجلد وهو يترنح في القيام بعمله دون راحة . وبدلاً من اتخاذ قرارات خطيرة يجد أمامه غالباً نوعاً من « الروتين » المنوم يشتمل على تفاصيل تافهة ليس هو فيها إلا حملاً ثقيلًا زائداً على الآلة كاتبة الاختزال . ويظل يكدح في هذا العمل مخلصاً ، ويتطلع بشغف نحو الساعة التي تحجزه عن بيته ، ويفكر كم يكون ممتعاً أن ينفق مساءه مع أسرته . وفي الساعة الخامسة يركب مرة أخرى قطاره في نشاط معطل ، ويتبادل بعض الأناخب مع أمثاله ، ويدخن ثانية في عظمة فلسفية وهو يتأمل المآسى اليومية في اللجة الوطنية . وفي السادسة يكون في بيته ، حتى إذا كانت الساعة الثامنة، تعجب لم أسرع ذلك الإسراع .

ذلك أنه كان حتى ذلك الوقت قد ارتاد خبايا الحب إلى الأعماق ، فلاكتشف ما فيه من حرب تحتى تحت قناعه اللطيف .. وقد أدى الإلف والكلال إلى تبريد حتى جسده . هذا إلى أنه كيف يمكن أن يحب الإنسان امرأة في الصباح . فامرأته لا تلبس له ، بل حين يكون قد انصرف ، ولم يعد له في ذهنها مكان . إنه يراها مهملة منكوشة الشعر على حين يلتقي طول النهار نساءً قد صنفن شعورهن ، وتعطرون ، وارتدين ملابس تلفت الأنظار ، حتى إذا وقع بصره على ركبهن المستديرة وفساتينهن المغرية وابتساماتهن المشجعة وعطرهن المحرك للشهوة ، طاف بخياله كل ساعة الانزلاق إلى مهاوى الحياة الزوجية . ولكنه يحاول جهد طاقته أن يحب زوجته ، فيقبلها بانتظام وكما ينبغي مرتين كل يوم . ويغامر مرة أو مرتين ، ثم يتبين له سخف الفسق ، ويحمد ربه أن أمره لم يكتشف ، وينصرف بعد ذلك إلى نثر الحياة .

وفيما عدا ذلك فإنه ينفق وقته يجر الحشائش في حديقته ، ويلعب البردج

والحولف ، ويثرثر هاوياً في السياسة المحلية . ولا يلبث أن يضيق بهذه التسلية الأخيرة ، إذ يكتشف أن آلة السياسة مرتبة ترتيباً يخيف كل شخص أمين فيبتعد عنها ، وأنها تقتصر من كل من يبذل جهداً صادقاً للسِر في طريق السياسة الصحيح والكفاية . وعندئذ إما أن يتلاءم عن وعى مع قواعد هذه اللعبة السخيفة ، وإما أن يعود إلى بيته يعيش فيه رجلاً أهدأ وأعمق . ويخلص في آخر الأمر إلى هذه النتيجة وهي أن أحكم ما انطلق به اللسان أو خطه القلم ما قاله الرحالة سكارمنتادو Scarmentado : « وإذ قد رأيت حتى الآن كل نادر وجميل على ظهر الأرض فقد عزمت ألا أرى شيئاً بعد ذلك إلا بيتي . فبنيت على زوجة ، ولم ألبث حتى دخلني الشك أنها تخونني . وعلى الرغم من هذا الشك فما زلت أرى أن هذه الحال أسعد ما وجدت في ظروف الحياة » (١) .

وفي خلال ذلك تكون زوجته قد تعلمت أيضاً شيئاً من الحياة . لقد كانت في السنوات الرومانتيكية ملاكاً ، أما الآن فهي مدبرة للمنزل . ويشبط هذا الاكتشاف عزيمتها . ولماذا تحتفظ بمفاتيح اللباس والزينة لرجل ينظر إليها بديلاً اقتصادياً عن خادمة ؟ أو أنها لا تطهو ولا تنظف ، بل تؤدي لها هذه الأمور والكثير من غيرها ، وتترك هي خالية حرة محترمة بلا عمل طول النهار . فتتفق أوقات الصباح تزين نفسها ، وترعى بعد الظهر شؤون الطبقة الفقيرة . تقرأ في كتب الصحة والأمومة ، وتخبر الأمهات البائسات كيف يربين أبناءهن ، وإنما تريد تلك الأمهات أن يتعلمن طريقة لمنع الحمل . وتنزل الزوجة ميادين السياسة وتوزع منشورات ، وتصوت لوغد نكابة في وغد آخر . وتحضر فصولاً دراسية عالية ، وتنظم أندية ، وتصفي في صبر مدرسي لقصاصين وفلاسفة و « إنجليز » (٢) .

ثم فجأة إذا بها تصبح أمماً . إنها تسر وتفزع . لعل حملها يؤدي إلى وفاتها . فلم تهبها لها الفرصة الكافية لأداء الواجبات الصحية التي تصلحها جسدياً هذه المغامرة الكبرى . ولكنها فخورة أيضاً ، وتحس بضرب جديد من البلوغ

(١) Voltaire, The Travels of Scarmentado.

(٢) يشير المؤلف إلى ما كان جارياً في أمريكا من حبهم لسباع الإنجليز لأن لهجتهم صحيحة

(الترجم) .

والرشد . إنها الآن امرأة لا فتاة عاطلة ، ولا قطعة من الزينة أو مجرد متعة لتأدية الغرض الجنسي . وتجتاز محنتها بشجاعة وتدعو الله أن يكون المولود ذكراً ، حتى إذا رآته أنثى بكت لحظة ، ثم تعجب لحمال طفلتها الذي ليس له مثيل .. وتحمل للمولودة في شغف تشتغل طول النهار وأطرافاً من الليل دون أن يبقى لها وقت تتطلع فيه إلى « السعادة » ومع ذلك يشع من عينيها بريق جديد من الرضا . ما أروع الطفل وهو مغمور في أشعة شمس الشتاء . وما هذا الحنان الحديد الذي يشع من عيني زوجها ! وهكذا تغزينا الطبيعة عن عبوديتنا ، وتربط بين تصحيتنا العظمى وبين سعادتنا الكبرى .

٤ - الموت

يقول صديق لا يرحم : « ينبغي أن يموت الناس في ذروة ^(١) حياتهم » . ولكنهم لا يموتون . وعندئذ يلقى كل من الشباب والموت صاحبه وهما يتجولان في الطريق .

ما الشيخوخة ؟ لا ريب أنها في أساسها شرط من شروط الجسد ، من البروتوبلازما التي تبلغ بالضرورة نهلية حياتها . إنها تراجع involution . فسيولوجي ونفسي . إنها تصلب في الشرايين وفي القوالب العقلية ، وتعطيل في الفكر والدم . يكون الرجل شيخاً بحسب شرايينه ، وشاباً بحسب أفكاره .

وتتناقص القدرة على الحفظ مع كل عقد من حياتنا ، كما لو كانت ألياف الترابط في المخ قد تكدست وثقل عليها حمل النماذج . ولا تجد فيما يظهر مكاناً لمادة جديدة ، وتزول الانطباعات الحديثة بسرعة كما تبخر وعود الساسة أو كما تمحي ذاكرة الشعب . وكلما ازداد الاضمحلال ، فقدت الحيوظ وضاعت الوحدة واضطرب التناسق ، ويقع الشيخ في نوع من الدهول العارض يضطره إلى الرجوع إلى مرضعة جوليت الثائرة ، ثم يعيش في خيال من القصص

كالتى رواها دي كوينسى ^(٢) De Quincey

(١) ذروة الحياة في نظر المؤلف عندما يبلغ الخامسة والثلاثين ، كما ذكر من قبل (المترجم) .

(٢) دي كوينسى (١٧٨٥ - ١٨٥٩) كاتب إنجليزي ، وأشهر مؤلفاته « اعترافات آكل

أفيون » (المترجم) .

ثم كما كان نمو الطفل أسرع فكان أصغر ، كذلك الحال بالشيخ تمر سنواته أسرع كل يوم . وكما كان الطفل تحميه عدم الحساسية عند دخوله إلى الدنيا كذلك الشيخوخة ييسر أمرها فتور في الإحساس والإرادة ، وتدبر الطبيعة رويداً رويداً نوعاً من التخدير العام قبل أن تسمح لمنجل الزمان بتتمة أعظم عملياته .

وكلما تناقصت حدة الإحساسات اضمحل الإحساس بالحيوية فتفصح الرغبة في الحياة الطريق لعدم الاكتراث وللانتظار الصابر . ويمتزج الخوف من الموت بالرغبة في الراحة . ولعله عندئذ إذا كان الإنسان قد عاش عيشة راضية وعرف المعنى الكامل للحب وارتشف كأس التجارب حتى الثمالة فقد يمكن أن يموت الإنسان راضياً مخلصاً مكانه في المسرح لتمثيلية أفضل .

ولكن ما الحال إذا لم تكن التمثيلية أفضل أبداً ، بل تدور على الدوام حول العذاب والموت ، وتقصى إلى غير نهاية نفس القصة السخيفة ؟ فهناك المضايقة ، والشك الذي يأكل قلب الحكمة ويسم العمر . ها هي ذى السيارة التي ذهبنا فيها في العام الماضي من ولاية كليفلند إلى إيريلا ، ألا ما أغرب أن تم هذه الرحلة حين لا نكون في حاجة إليها . سينتهي أمرها سريعاً ، ويحل محلها رحلة أخرى . ويموت الركاب ويحل محلهم آخرون . هنا باستمرار طلاب جدد ، وعربات جديدة ، والنهية واحدة . هنا فسق بلا حياء ، وقتل مدبر وحشى . نعم لقد كانوا على الدوام كذلك ، ويظهر أنهم سيظلون دائماً كذلك . هنا فيضان بحرف أمامه آلاف الأحياء وعمل أجيال . هنا ثكالى وقلوب محطمة ومرارة الحب الضائع . وهنا لا تزال توجد أثقال المنصب وإهمال القانون . رشوة في مجلس القضاء ، وعجز في كراسى الحكم . هنا العبودية ، والعمل الشاق الذي يخرج أجساماً قوية ونفوساً صغيرة . هنا وفي كل مكان كفاح في سبيل العيش بعد أن تعقدت الحياة بالحروب . هنا التاريخ الذي يبدو دائرة تافهة تتكرر إلى ما لا نهاية له . وهؤلاء الشباب ذوو العيون المتطلعة سيرتكبون نفس الأخطاء التي ارتكبتها ، ويضلون عن الطريق بنفس الأحلام . سيتعذبون ، ويدهشون ويستسلمون ، ويشيخون .

أعظم مأساة للشيخوخة أن تتلفت إلى الوراء بعين خيالية ، فلا ترى إلا عذاب البشرية . ومن العسير أن تمدح الحياة حين تهجرنا الحياة . وإذا كنا نتكلم عنها بخير حتى عند الموت ، فإنما ذلك لأننا نأمل أننا سنجد لها ثانية ، في ثوب أحمل ، وفي عالم من الأرواح غير المجسدة والباقية .

إن هذه الأبراج التي تتجه في كل مكان إلى أعلى متجاهلة الألم ومقوية الأمل ، وهذه الأبنية الشائخة في المدن أو الكنائس البسيطة في التلال - إنها ترتفع في كل خطوة من الأرض إلى السماء ، ففي كل قرية في أي أمة على ظهر الأرض تجدها تتحدى الشك وتدعو القلوب المنكسرة إلى العزاء . أهذا كله وهم باطل ؟ - ألا يوجد شيء بعد الحياة سوى الموت ، ولا شيء بعد الموت سوى الفناء ؟ لا يمكن أن ندري . ولكن ما دام الناس يتعذبون فهذه الأبراج ستظل قائمة .

ومع ذلك فما الحيلة إذا كان لابد لنا من الموت من أجل الحياة ؟ الحق أننا لسنا أفراداً ، ولأننا نظن أنفسنا كذلك يبدو الموت شيئاً لا يغتفر . نحن أعضاء مؤقتون في جسم الجنس ، وخلايا في بدن الحياة . إننا نموت ونختفي لعل الحياة تظل في شبابها وقوتها . ولو أنا عشنا إلى ما شاء الله ، لحمد النماء ولم يجد الشباب له مكاناً على ظهر الأرض . والموت كالأسلوب هو حذف النفاية واستئصال الزائد . ونحن عن طريق الحب نصوغ حيويتنا في صورة جديدة من أنفسنا قبل أن تموت الصورة القديمة . وعن طريق الأبوة نملأ الفجوة بين الأجيال ، ونهرب من عدوان الموت . وهنا ، حتى في فيضان النهر ، تولد الأطفال . وهنا ترضع الأم طفلها منعزلة في شجرة ومحوطة بالماء الفائر . في قلب الموت تجدد الحياة نفسها في خلود .

وهكذا قد تأتي الحكمة كهدية للعمر ، فترى الأشياء في مواضعها ، وترى كل جزء في صلته بالمجموع ، ولعلها تبلغ تلك النظرة الشاملة التي يغفر فيها الإدراك الحسن كل شيء . وإذا كان من وظيفة الفلسفة أن تخلع على الحياة معنى يقلل من قيمة الموت ، فستبين الحكمة أن الفساد إنما يصيب الجزء ، وأن الحياة نفسها لا تموت حين نموت .

ومنذ ثلاثة آلاف سنة مضت ظن رجل أن الإنسان قد يطير ، فصنع لنفسه أجنحة ، وثق بها ابنه إيكاروس^(١) Icarus وحاول أن يطير فسقط في البحر . وحملت الحياة هذا الحلم ببسالة . ومرت أجيال ثلاثون وجاء ليوناردو دافنشي الذي صنع الجسد بالروح ، فخطط حول رسومه (وهي رسوم تبليغ من الجمال جداً يهر الأنفاس عند رؤيتها) تصميمات وحسابات لآلة تطير ، وترك في مذكراته عبارة صغيرة يرن جرسها في صفحة الذاكرة ، وقد سمعت : « ستكون أجنحة » . وأخفق ليوناردو ومات . ولكن الحياة حملت الحلم . ومرت أجيال وقال الناس : لن يطير الإنسان أبداً ، لأن هذه ليست إرادة الله . ثم طار الإنسان . فالحياة هي تلك التي تستطيع أن تثبت بالعرض ثلاثة آلاف سنة ولا تستسلم أبداً . الفرد يخفق ولكن الحياة تتجح . الفرد يموت ولكن الحياة التي لا تكل ولا تثبط همها تمضي في سبيلها ، متعجبة ، متطلعة ، ملبرة ، محاولة ، متسلقة ، بالغة ، ثم لا تزال تتطلع .

ها هنا رجل شيخ على فراش الموت يزعه أصدقاء لا حيلة لهم ، وأقرباء يولولون . ما أفرع هذا المنظر - هذا الهيكل الرفيع وقد اكتسى بلحم رخو معروق ، هذا الفم الأورد في وجه مصفر ، هذا اللسان العاجز عن الكلام ، وهاتان العينان العاجزتان عن الإبصار . على هذا المعبر من الشباب بكل آماله ومحاولاته . وعلى هذا المعبر اجتازت الرجولة بكل عذابها وعملها . وعلى هذا المعبر مرت الصحة والقوة والمنافسة البهيجة . هذه الذراع ، لقد أنزلت ضربات عظيمة وحاربت للنصر في ألعاب كبيرة . وعلى هذا المعبر مرت المعرفة والعلم والحكمة . لقد جمع هذا الرجل المعرفة بالألم والمشقة سبعين عاماً . وأصبح مخه مخزناً لتجارب متنوعة ، ومركزاً لآلاف الحيل الفكرية والعملية . وتعلم قلبه من العذاب الرقة كما تعلم عقله الإدراك . مرت به سبعون عاماً ، فما من حيوان إلى إنسان قادر على البحث عن الحقيقة وخلق الجمال . ولكن المنية قد أنشبت فيه أظفارها ، فسممه الموت وخنقه ، وحمد دمه ، وقبض قلبه ، وفجر مخه ، وحشرج حلقه . لقد انتصر الموت .

(١) في الأسطورة الإغريقية أن إيكاروس ابن ديدالوس طار مع أبيه من جزيرة كريت ، ولكن الابن أذاب الشمع الذي يشيل أجنحته فوقع في البحر (المترجم) .

وفي الخارج تزقزق العصافير على فروع الأشجار ، ويغنى الديك للشمس
أنشودته . ويفيض النور على الحقول ، وتفتح البراعم ، وترفع سوق
النبات رءوسها في ثقة إلى أعلى . ويتصاعد العصير في الشجر . هنا أطفال :
ماذا يجعلهم بهذا المرح ، يجرون في جنون فوق الحشائش الندية : ضاحكين ،
صائحين ، مطاردين ، هاربين ، لاهثين ، لا يصيبهم كلال ؟ أي نشاط ، وأي
روح ، وأي سعادة . ماذا يعينهم من الموت ؟ سيتعلمون وينمون ويحبون
ويكافحون ويخلقون ، ولعلمهم يرفعون الحياة إلى أعلى خطوة صغيرة قبل أن
يصيبهم الموت . وحين يموتون سيخشون الموت بالأطفال ، وهذه العناية الأبوية
التي تجعل خلفهم أبداع من أنفسهم . وهناك في الحقائق يمر المحبون في غسق
الليل وهم يحسبون أن أحداً لا يراهم . إن حديثهم الخافت يختلط بهمهمة الحشرات
وهي تنادي ذكورها . إن الظمأ القديم ينطق من خلال الشغف والعيون الناعسة ،
ويتنقل جنون شريف خلال الأبدى المتعانقة والشفاه المتلامسة .

إنها الحياة تنتصر .

مراجع هذا الكتاب

Books marked with a * are recommended to the reader.

- Adams, Brooks, *The Law of Civilization and Decay*. London, 1895.
- * Adams, Henry. *The Education of Henry Adams*. Boston, 1919.
— *Mont St. Michel and Chartres*. Boston, 1926.
- Adler, Alfred. *The Neurotic Constitution*. New York, 1917.
- Allen, Grant. *Evolution of the Idea of God*. New York, 1897.
- Angell, A.R. *Psychology*. New York, 1908.
- Anon. *The Wisdom of Confucius*. Harper & Bros., no date.
- Babbitt, Irving. *Democracy and Leadership*. Boston, 1922.
- Bacon, Francis. *Philosophical works*, ed. J.M. Robertson.
London, 1905.
- Barnes, H.E. *The New History and the Social Sciences*. New
York, 1925.
- Beard, Charles. *The Economic Basis of Politics*. New York, 1923.
- * — ed. *Whither Mankind?* New York, 1928.
- Bergson, Henri. *Matter and Memory*. London, 1911.
- Berkman, A. *The Bolshevik Myth*. New York, 1925.
- * Bertaut, J. *Napoleon in His Own Words*, Chicago, 1916.
- Bluntschili, J.K. *Theory of the State*. Oxford, 1911.
- Bolsche, W. *Love-Life in Nature*. 2 vol. New York, 1926.
- Bosanquet, B. *History of Aesthetic*. London, 1904.
- Bradley, F.H. *Appearance and Healthy*. London, 1920.
— *Principles of Logic*. London, 1883.
- * Brandes, Georg. *Main Currents in Nineteenth Century Lite-
rature*. 6 vol. New York, 1905.
- Brousson, J.J. *Anatole France en Pantoufles*. Paris, 1924.
- [* — *Anatole France Himself*. New York, 1926. (Translation of
preceding).
- Brown, Brian. *The Wisdom of the Chinese*. New York, 1921.
- Buckle, H.T. *Introduction to the History of Civilization*. 4 vol.
New York, 1913.
- Burke, Edmund. *Reflections on the French Revolution*. Every-
man Library.

- Bury, J.B. *The Idea of Progress*. London, 1920.
- Carlyle, Thomas. *Chartism*, New York, 1901.
- *Heroes and Hero-Warship*. New York, 1901.
- Carpenter, E. *Towards Democracy*. London, 1911.
- Cassirer, E. *Substance and Function*. Chicago, 1923.
- Chamberlain, H.S. *The Foundations of the Nineteenth Century*.
2 vol. New York, 1912.
- Chesterton, G.K. *Short History of England*. New York, 1917.
- Clemens, S.L. ("Mark Twain"). *What is Man ?* New York,
1917.
- Condorcet, M.J.A., Marquis de. *A sketch of a Tableau of the
Progress of the Human Spirit*. New York, 1796.
- Groce, Benedetto. *History : Its Theory and Practice*. New
York, 1921.
- Crozier, J.B. *Sociology Applied to Practical Politics*. London, 1911.
- Crozier, J.B. *Sociology Applied to Practical Politics*. London, 1911.
- * Darwin, Charles. *The Descent of Man*. A.L. Burt, New York,
no date.
- Dewey, John. *Experience and Nature*. Chicago, 1925.
- Disraeli, Benjamin. *Tancred*. London, 1924.
- Doane, T.W. *Bible Myths and Their Parallels in Other Religions*.
New York, 1882.
- Drever, J. *Instinct in Man*. Cambridge University Press, 1917.
- Driesch, Hans. *Science and Philosophy or the Organism*. Uni-
versity of Edinburgh Press, 1908.
- Durant, Will. *Philosophy and the Social Problem*. New York, 1917
- * Eckermann, J. *Conversations with Goethe*. New York, 1852.
- Eddington, A.S. *The Nature of the Physical World*. New York, 1929
- Ellis, Havelock. *The Dance of Life*. Boston, 1923.
- * — *Studies in the Psychology of Sex*. 6 vol. Philadelphia, 1910-11.
- *A Study in British Genius*. London, 1904.
- Eltzbacher, Paul. *Anarchism*. New York, 1908.
- Emerson, R.W. *Representative Men*. Philadelphia (McKay), no date.
- Encyclopaedia Britannica*. 11th ed.
- Fisher, I. *National Vitality*. Government Printing Office, Washington,
1908.
- * Flaubert, Gustave. *Works*, 4th ed. New York (W.J. Black), 1923.

- * France, Anatole. *The Garden of Epicurus*. New York, 1908.
- * — *M. Bergeret in Paris*. New York, 1921.
- * — *On Life and letters*. Four series. New York, 1914-24.
- * — *Penguin Isle*. London, 1924.
- * — *Thais*. London, 1909.
- * Frazer, Sir James. *The Golden Bough*. 4th ed. New York, 1925.
- Freud, Sigmund. *Interpretation of Dreams*. New York, 1913.
- *Leonardo da Vinci*. New York, 1916.
- *Three Contributions to the Theory of Sex*. New York, 1918.
- Fuller, Sir B. *Man as He Is*. London, 1916.
- Gallichan, W.M. *The Great Unmarried*. London, no date.
- * Gibbon, Edward. *Decline and Fall of the Roman Empire*. 6 vol. Everyman Library.
- Gobineau, Count A. de. *The Inequality of Human Races*. New York, 1915.
- Godwin, W. *Political Justice*. London, 1890.
- * Goethe, J.W. von. *Faust*. Tr. Martin. New York, 1902.
- * — *Truth and Fiction*. New York, 1902.
- Goldberg, I. *Havelock Ellis*. New York, 1925.
- Gomperz, T. *Greek Thinkers*. 4 vol. New York, 1901.
- Gorki, Maxim. *Reminiscences of Tolstoi*. New York, 1920.
- Gourmont, Remy de. *The Natural Philosophy of Love*. New York, 1922.
- Grant, Madison. *The Passing of the Great Race*. New York, 1916.
- Grote, G. *History of Greece*. 12 vol. Everyman Library.
- Haldane, J.B.S., *Possible Worlds*. New York, 1928.
- Haldane, J.S. *Mechanism, Life and Personality*. London, 1921.
- Hall, G.S. *Adolescence*. 2 vol. New York, 1905.
- Hammond, J.L., and B. *The Town Labourer, 1760-1832*. London, 1917.
- * Hardy, Thomas. *Tess of the d'Urbervilles*. New York, 1892.
- *Jude the Obscure*. New York, Harper & Bros.
- Headlam, J.W. *Bismarck*. New York, 1899.
- Hegel, G.W.F. *Philosophy of History*. New York, 1910.
- Heine, Heinrich. *Memoirs*. 2 vol. London, 1910.
- Herder, J.G. von. *Outlines of a Philosophy of the History of Man*. London, 1800.
- Hobhouse, L.T. *Morals in Evolution*. London, 1915.

- Hoernle, R.F.A. *Studies in Contemporary Metaphysics*. New York, 1920.
- Holmes, S.J. *Studies in Evolution and Genetics*. New York, 1923.
- Holt, E. *The Concept of Consciousness*. London, 1912.
- Howard, C. *Sex Worship*. Chicago, 1909.
- Huxley, H.T. *Evolution and Ethics*. New York, 1886.
- * Inge, Dean R.W. *Outspoken Essays*. Second Series. New York, Longmans, no date.
- James, William. *The Meaning of Truth*. New York, 1909.
- Jennings, H.S. *Behavior of the Lower Organisms*. New York, 1923.
- Johnson, R.M. *The Corsican*. Boston, 1910.
- Jones, Sir E. *Papers on Psychoanalysis*, London, 1913.
— *Analytical Psychology*. New York, 1916.
- Jung, C.G. *Psychology of the Unconscious*. New York, 1916.
- Kallen, H. *Why Religion*. New York, 1927.
- * Kellogg, J.H. *The New Dietetics*. Battle Creek, 1927.
- * Keyserling, Count Hermann. *Europe*. New York, 1928.
- * — *Travel Diary of a Philosopher*. New York, 1925.
— *The World in the Making*. New York, 1927.
- Kisch, E.H. *The Sexual Life of Woman*. New York, 1910.
- Klausner, J. *Jesus of Nazareth*. New York, 1926.
- Kihler, W. *The Mentality of Apes*. New York, 1925.
- Krafft-Ebing, R.F. von. *Psychopathia Sexualis*. New York, 1906.
- Kropotkin, P. *Mutual Aid as a Factor in Evolution*. New York, 1902.
- Langdon-Davis, J. *The New Age of Faith*. New York, 1925.
- Lange, F. *History of Materialism*. New York, 1925.
- * La Rochefoucauld, François de. *Réflexions*. London, 1871.
- Lea, H.C. *History of the Inquisition of Spain*. 4 vol. New York, 1922.
- Le Bon, G. *The Evolution of Forces*. New York, 1914.
— *The Evolution of Matter*. New York, 1914.
- Leuba, J.H. *Belief in God and Immortality*. New York, 1916.
- Loeb, J. *Comparative Physiology of the Brain*. New York, 1900.
— *The Organism as a Whole*. New York, 1916.
- Lubbock, Sir J. (Lord Avebury). *The Origins of Civilization*. London, 1870.
- * Lucretius. *On the Nature of Things*. Tr. Munro.
- Ludovici, A.M. *A Defense of Aristocracy*. London, 1915.

- Maine, Sir. Henry. *Popular Government*. London, 1886.
- * Mallock, W.H. *Lucretius on Life and Death*. New York, 1900.
- Marshall, H.R. *Instinct and Reason*. New York, 1898.
- * Martin, E.D. *The Meaning of a Liberal Education*. New York, 1926.
— *The Mystery of Religion*. New York, 1924.
- Marx, Karl. *Critique of Political Economy*. New York, 1904.
- McCabe, J. *The Evolution of Mind*. London, 1910.
- * McCollum, E.V. *The Newer Knowledge of Nutrition*. New York, 1918.
- McDougall, W. *Social Psychology*. 13th ed.
- Mencken, H.L. *Prejudices*. Four Series. New York, 1919-24.
- Merdith, George. *Ordeal of Richard Feverel*. Boston, 1888.
- Mill, J.S. *The Subjection of Women*. London, 1911.
- Moll, A. *The Sexual Education of the Child*. New York, 1913.
- * Montesquieu, C. de. *Spirit of Laws*, 2 vol. New York, 1900.
- * Morley, J. *Diderot and the Encyclopedists*. 2 vol. London, 1923.
- * — *Voltaire*. London, 1878.
- Muirhead, J.H. *Contemporary British Philosophy*. London, 1924.
- Murray, Gilbert. *Four Stages of Greek Religion*. New York, 1912.
- Musset, Alfred de. *Confessions of a Child of the Century*. New York, 1905.
- Nietzsche, Friedrich. *Antichrist*. New York, 1915.
— *Beyond Good and Evil*. New York, 1914.
— *Dawn of Day*. London, 1911.
— *Human All Too Human*. 2 vol. London, 1911-15.
— *The Joyful Wisdom*. London, 1910.
- * — *Thus Spake Zarathustra*. New York, 1906.
— *The Will to Power*. 2 vol. London, 1913-14.
- Nordeau, Max. *The Interpretation of History*. London, 1910.
- Paine, Thomas. *The Rights of Man*.
- Pellissier, G. *Voltaire Philosophe*. Paris, 1908.
- Petrie, Flinders. *The Revolutions of Civilization*. London, no date.
- Pirandello, Luigi. *Three Plays*. New York, 1922.
- * Plato. *Works*. Tr. Jowett. 4 vol. Jefferson Press, New York, no date.
- * Plutarch. *Lives*. New York (Hurst), no date.
- Powys, J.C. *The Religion of a Sceptic*. New York, 1925.
- Pringle, H.F. *Alfred E. Smith*. New York, 1928.

- Reinach, S. *Orpheus, a History of Religions*. New York, 1909.
- Renan, E. *History of the People of Israel*. 5 vol. Boston, 1886-96.
- Ribot, T. *Psychology of the Emotions*. London, 1906.
- Ripley, W.Z. *The Races of Europe*. London (Kegan Paul), no date.
- Rivers, W.H. *Psychology of Politics*. London, 1923.
- Rockow, L. *Contemporary Political Thought*. London, 1925.
- Ross, E.A. *Changing America*. New York, 1912.
- Rousseau, J.J. *Social Contract ; Discourses*. Everyman Library.
- Royden, A.M. *Woman and the Sovereign State*. London, 1917.
- Russell, Bertrand. *Analysis of Matter*. London, 1927.
- * — *Education and the Good Life*. New York, 1926.
- *Philosophy*. New York, 1927.
- *Sceptical Essays*. New York, 1928.
- *What I believe*. New York, 1925.
- * Salter, W. *Nietzsche the Thinker*. New York, 1917.
- * Santayana, George. *Reason in Society*. New York, 1905.
- *The Sense of Beauty*. New York, 1896.
- Schopenhauer, Arthur. *The World as will and Idea*. 3 vol. London, 1883.
- Sellars, R. *The New Step in Democracy*. New York, 1916.
- Semple, E.C. *Influence of Geographic Environment*. New York, 1911.
- Shotwell, J.T. *The Religious Revolution of Today*. Boston, 1913.
- * Siegfried, A. *America Comes of Age*. New York, 1927.
- Simkhovitch, V. *Toward the Understanding of Jesus*. New York, 1921.
- Sinclair, May. *The New Idealism*. New York, 1922.
- Smith, Adam. *The Wealth of Nations*. 3 vol. Everyman Library.
- Smith, W.R. *The Religion of the Semites*. 2 vol. New York, 1889.
- Spencer, Herbert. *Principles of Biology*. 2 vol. New York, 1910.
- *Principles of Psychology*. 2 vol. New York, 1910.
- *Principles of Sociology*. 3 vol. New York, 1910.
- * Spengler, Oswald. *Decline of the West*. 2 vol. New York, 1926-8.
- * Spinoza, Benedict. *Ethics*. Everyman Library.
- Stirner, Max (Caspar Schmidt). *The Ego and His Own*. Modern Library.
- * Sumner, W.G. *Folkways*. New York, 1906.
- Sutherland, A. *Origin and Growth of the Moral Instincts*. 2 vol. London, 1898.
- * Symonds, J.A. *The Renaissance in Italy*. 7 vol. New York, 1900.

- * Taine, Hippolyte. *The French Revolution*. 3 vol. New York, 1878-85.
- * — *History of English Literature*. New York (Hurst), no date.
- * — *The Modern Regime*. 2 vol. New York, 1890.
- Tarde, G. *The Laws of Imitation*. New York, 1903.
- Thomas, W.I. *Sex and Society*. Chicago, 1907.
- Thompson, F. Shelley. Girard, Kan. Little Blue Book Series.
- Thompson, H.B. *Mental Traits of Sex*. Chicago, 1903.
- Thorndike, E.L. *Individuality*. Boston, 1911.
- *The Original Nature of Man*. New York, 1913.
- Thorndike, L.A. *Short History of Civilization*. New York, 1926.
- Todd, A.J. *Theories of Social Progress*. New York, 1922.
- Tocqueville, Alexis de. *Democracy in America*. 2 vol. New York, 1912.
- Vico, G.B. *Principi di Scienza Nuova*. Milano, 1831.
- * Voltaire, F.M.A. de. *General History (Essay on the Morals and Character of the Nations)*. St. Hubert Guild ed. 22 vol. New York, 1901.
- Walsh, J.J. *Cures*. New York, 1923.
- * Watson, J.B. *Behavior*. New York, 1914.
- Weininger, O. *Sex and Character*. New York (Putnam), no date.
- Westermarck, E. *History of Human Marriage*. London, 1894.
- Weyl, W. *The End of the War*. New York, 1918.
- Whitehead, A.N. *Science and the Modern World*. New York, 1926.
- Wilde, O. *The Soul of Man under Socialism*, in "Works", 1909.
- Williams, E.T. *China Yesterday and Today*. New York, 1927.
- Williams, H.S. *The Science of Happiness*. New York, 1909.
- Willoughby, W.W. *Social Justice*. New York, 1900.
- Xenophon. *Memorabilia*. Everyman Library.
- Zimmern, A. *The Greek Commonwealth*. Oxford, 1915.

ثبت بالمصطلحات

A

Ability ...	قدرة ...
Abiogenesis ...	التولد الذاتي ...
Abnormal ...	شاذ ...
Absolute ...	مطلق ...
Abstraction ...	تجريد ...
Academic ...	أكاديمي ...
Accident ...	عرض ...
Accidental ...	عرضي ...
Acquired ...	مكتسب ...
Acquisition ...	اكتساب ...
Adaptation ...	تكيف - ملاءمة ...
Adornment ...	زخرفة ...
Aesthetics ...	علم الجمال ...
Affinity ...	تآلف ...
Agnostic ...	لا أدري ...
Agnosticism ...	لا أدريية ...
Altruism ...	إيثار - غيرية ...
Analysis ...	تحليل ...
Analytical ...	تحليلي ...
Anarchism ...	الفوضوية ...
Ancestor-worship ...	عبادة الأسلاف ...
Animism ...	أنيمية - أنيمزم ...
Animistic ...	أنيمي ...
Anthropomorphism ...	تشبيه ...
Appearance ...	ظاهر ...
Appetite ...	شهوة ...
Apriori ...	أولي - قبل التجربة ...
Apriorism ...	أولية - المذهب الأولي ...
Appreciation ...	تقدير ...
Argument ...	حجة - دليل ...

Aristocracy ...	أرستقراطية ...
Art ...	فن ...
Artificial ...	صناعي ...
Artisan ...	صانع - صانع يدوي ...
Artist ...	فنان ...
Ascetism ...	زهد ...
Aspect ...	مظهر ...
Association ...	ترابط ...
Association of ideas	ترابط المعاني - تداعي المعاني
Associationism ...	الترابطية ...
Assumption	افتراض - زعم
Atavism ...	ارتداد - ردة ...
Atheism ...	لا دينية - إلحاد ...
Atheist	لا ديني - ملحد
Attraction ...	جاذبية - جذب ...
Attractiveness ...	جاذبية ...
Attention ...	انتباه ...
Average	متوسط
Aversion	نفور
Authority ...	سلطة ...
Axiom	بديهية ...

B

Barbarism ...	بربرية - عجمية ...
Beauty ...	جمال ...
Behaviorism	السلوكية - المذهب السلوكي
Behaviorist ...	السلوكي ...
Being	كائن
Belief ...	اعتقاد
Birth control ...	تحديد النسل ...
Blame	لوم
Brain ...	مخ

C

Category	مقولة - قالب
Cause	سبب - علة ...
Causality	سببية
Censure	ذم
Certain	يقيني ...
Certainty	يقين
Chance	صدفة - اتفاق
Change	تغيير
Character	خلق
Chastity	عفة
Chauvinism	نعرة ووطنية ...
Chronology	حوليات ...
Civilisation	حضارة ...
Clarity	وضوح
Classification	تصنيف
Code	قانون - شريعة ...
Coherence	تماسك
Cohesion	التحام
Common sense	العقل النليم ...
Commercialism	المذهب التجاري ...
Community	جماعة
Companionate marriage	زواج المتعة ...
Competition	تنافس
Composite history	التاريخ المركب ...
Concept	تصور - مفهوم ...
Conflict	صراع
Conscience	ضمير
Consciousness	شعور
Conservation of energy	بقاء الطاقة ...
Conservatism	المحافظة - التقليدية
Conservative	محافظ
Consistent	متناسك - متين ...

Consolation	عزاء
Constitution	تأمل
Contemplation	دستور ...
Continuity	اتصال
Contradiction	تناقض
Convention	اصطلاح - عرف ...
Coordination	تنسيق - توافق
Copulation	نكاح
Corporeal	جسماني
Cosmic	كوني
Cosmology	كسمولوجيا (علم الكويونات) ...
Cosmos	كون
Creation	خلق
Creative	خالق
Criterion	ميزان - معيار ...
Criticism	نقد
Cubism	التكعبية (مذهب في الفن) ...
Culture	ثقافة
Curiosity	استطلاع ...
Custom	عرف - عادة ...
Cynics	الكلية
Cynicism	الكليون

D

Decoration	زخرفة
Decorative	زخرفي
Deduction	استنباط قياسي ، استدلال قياسي
Deductive	قياسي
Deferment of marriage	تأخير الزواج
Deity	ألوهية - آلهة
Deliberation	روية
Delusion	وهم
Democracy	ديمقراطية
Destiny	مصير - قدر

Determinism حتمية
 Development نمو
 Dialectic جدل - جدلي
 Differentiation تمايز
 Discernment تمييز
 Discretion فطنة
 Disgust تقزز - نفور
 Divine إلهي
 Divine Will الإرادة الإلهية
 Divorce طلاق
 Dogma عقيدة
 Dogmatic (جازم) - دحماطيق
 Dogmatism (جزمية - قطعية)
 Doubt شك
 Doubt (Methodic doubt) شك منهجي
 Dualism ثنائية
E
 Early marriage زواج مبكر
 Ecstasy نشوة
 Education تربية
 Ego الأنا
 Egoism الأنانية - الأثرة
 Emancipation تحرير
 Emancipated woman امرأة متحررة
 Empiricism تجريبية
 Endogamy الزواج من داخل القبيلة
 Energy طاقة
 Enlightenment عصر التنوير
 Enslavement استعباد - استرقاق
 Environment بيئة
 Epiphenomenon ظاهرة ثانوية
 Epistemology إبستمولوجيا (نظرية المعرفة)
 Epistemodogs أصحاب المعارف - إبستمولوجيون
 Equality مساواة

Eros الحب (الجنسي)
 Erotic imagery تصورات شهوانية
 Essence ماهية - جوهر
 Essential جوهري
 Esoteric مستور
 Eternal أزلي - أبدي
 Eternal recurrence الدورة الأزلية (مذهب نيتشه)
 Eternity الأبدية - الأزلية
 Ethics علم الأخلاق
 Event حادثة
 Evidence النصوص
 Evolution تطور
 Existence وجود
 Exogamy الزواج من خارج القبيلة
 Exoteric منشور
 Experience تجربة
 Experiment تجربة علمية
 External world العالم الخارجي
F
 Fact واقعة - حقيقة
 Factor عامل
 Faith إيمان
 Fallible غير معصوم - قابل للخطأ
 Family أسرة
 Fatalism الجبرية - القضاء والقدر
 Freedom الحرية
 Free love للزواج الحر
 Feudalism الإقطاع
 Form صورة - شكل
 Formula صيغة - قانون
 Formulation صيغة
 Foundation أساس
G
 General عام
 Generalisation تعميم

Genius ...	عبقرية
Ghost ...	شبح
Good ...	الحير
Group ...	جماعة
Guilt	ذنب ...
Guilty ...	مذنب

H

Habit ...	عادة ...
Harmonious ...	متوافق
Harmony	اتسلاف
Heredity	وراثة ...
Heresy ...	هرطقة - زندقة ...
Homosexuality	الشذوذ الجنسي
Hypnotism ...	تنويم مغناطيسي ...
Hypothesis ...	فرض (علمي) ...
Hypothetical ...	فرضي ...

I

Idea	فكرة - المثال (الأفلاطوني) ...
Idealism ...	المثالية ...
Imagination ...	الخيال
Imaginative ...	خيالي ...
Immaterial ...	لامادي ...
Immortality ...	الخلود - خلود النفس ...
Immortal	خالد ...
Immorality ...	اللاأخلاقية ...
Impulse ...	دافع ...
Indestructivity of matter	علم فناء المادة
Individual ...	فرد ...
Individualism	الفردية
Industrialisation ...	تصنيع
Industrial Revolution ...	الثورة الصناعية - الانقلاب الصناعي
Inequality ...	تفاوت ...
Inert	خامد

Inert matter ...	مادة خامدة ...
Infallible	معصوم
Infallibility ...	عصمة
Inference	استدلال ...
Infinite ...	لانهائي ...
Infinity ...	اللانهائية ...
Initiative	المبادأة
Insecurity	قلق ...
Insight ...	استبصار
Inspiration ...	إلهام ...
Instinct	غريزة ...
Institution ...	نظام - منظمة ...
Instruction ...	تعليم ...
Instrument ...	أداة - آلة ...
Instrumentalism ...	الأداتية ...
Integration ...	توحيد ...
Intellect	عقل
Intellectual ...	فكري ...
Intellectualism ...	المذهب الفكري ...
Intelligence ...	ذكاء ...
Interpretation ...	تأويل - تفسير ...
International	دولي ...
Introspection ...	تأمل باطني - استبطان ...
Intuition	حدس - بصيرة
Intuitionism	الحدسية

J

Justice ...	العدالة
Justification ...	تبرير - تسوية ...

K

Knowledge ...	معرفة ...
---------------	-----------

L

Law ...	قانون ...
Leadership ...	قيادة - رياسة ...
Legend ...	أسطورة ...

Life	حياة
Logic	منطق
Logical	منطقي
Loyalty	ولاء

M

Machine	آلة - جهاز (معنى سياسي)
Magic	سحر
Magic formulas	عزائم سحرية
Majority	أكثرية
Manipulation	التحسس - القبض باليد
Mankind	البشرى
Marriage	الزواج
Material	مادى
Materialism	المادية
Materialist	مادى
Matter	مادة
Mechanic	ميكانيكى - آلى
Mechanism	الميكانيكية - الآلية
Mediocrity	تفاهة - توسط
Mediumistic inspiration	وساطة روحية
Mental	عقلى - ذهنى
Mental set	الهيئة الذهنية
Metaphysics	الميتافيزيقا - ما بعد الطبيعة
Method	منهج - طريقة
Scientific method	منهج علمى
Mind	عقل
Mind-matter	العقل مادة
Minority	أقلية
Modesty	العفة - التواضع
Moderation	الاعتدال
Modernism	مذهب التجديد - الروح العصرية
Modernity	التجديد
Monist	واحدى - موحد
Monism	واحدية

Monistic vitalism	الحياة الواحدية (مذهب)
Monogamy	الزواج من واحدة
Morals	الأخلاق
Morality	الأخلاقية
Moirá	القضاء
Mystery	سر - لغز
Mysticism	تصوف
Myth	قصة خرافية - خرافة

N

Nationalise	يؤم
Nationalised machines	آلات مؤتممة
Natural	طبيعى
Naturalism	المذهب الطبيعى
Nature	طبيعة
Need	حاجة
Negative	سلبى
Negativism	السلبية
Nothing	العدم
Notion	فكرة
Nominalism	الاسمية
Nominalists	الاسميون
Neutral stuff	المادة المحايدة
Nihilism	العدمية

O

Object	موضوع - شىء
Objective	موضوعى
Objectivity	موضوعية
Obsceneness	فحش
Observation	ملاحظة
Obscurantism	الجهالية (مذهب من يريد البقاء فى الجهل) - مذهب الظلام
Obscurity	الغموض
Obsession	التلبس

Omnipotence	...	القدرة على كل شيء
Omniscience	...	العلم بكل شيء
Opinion...	...	رأى
Origin	...	أصل
Order	...	ترتيب - نظام
Organisation	...	تنظيم - منظمة

P

Pagan	...	وثني
Paganism	...	الوثنية
Painting	...	النقش
Panpsychism	...	مذهب وحدة النفس
Parallelism	...	مذهب التوازي
Psychological parallelism	...	التوازي النفسى
Perception	...	إدراك حسي
Personality	...	شخصية
Personification	...	تشخيص
Perspective	...	النظرة الشاملة
Physico-chemical	...	طبعكيميائي
Perversion	...	انحراف (جنسى)
Pessimism	...	التشاؤم
Philosophy	...	فلسفة
Philosophy of history...	...	فلسفة التاريخ
Philosophy of mind	...	فلسفة العقل
Philosophy of religion	...	فلسفة الدين
Plastic	...	مجم
Plastic art	...	فن مجسم
Pleonasm	...	اللفو
Pointillism	...	النقطية (مذهب فى الفن)
Politician	...	سياسى
Politics	...	السياسة
Polygamy	...	تعدد الزواج
Polytheism	...	تعدد الآلهة
Positive	...	موجب - إيجابى

Positivism	...	الوضعية (المذهب الوضعى)
Possibility	...	امكان - احتمال
Post-marital	...	بعد الزواج
Potency	...	قوة
Potential	...	بالقوة
Power	...	سلطة - قوة
Practice	...	العمل
Pragmatism	...	البرجماتية - البراجماتزم
Praise	...	مدح
Predestination	...	العناية الأزلية
Prestablished harmony	...	التناسق الأزلى (مذهب لينتز)
Prejudice	...	تحيز
Premarital	...	قبل الزواج
Premise	...	مقدمة (فى المنطق)
Primitive	...	بدائى
Principle	...	مبدأ
Probability	...	رجحان - احتمال
Problem	...	مشكلة
Profane	...	دنيوى
Progress	...	تقدم
Progressive	...	متقدم
Proletariat	...	طبقة عاملة - بروليتاريا
Proportion	...	نسبة - تناسب
Proposition	...	قضية (فى المنطق)
Promiscuity	...	إباحية
Professional promiscuity	...	بغاء
Providence	...	العناية الإلهية
Provincialism	...	الزعة الإقليمية
Psychology	...	علم النفس
Psycho-physical	...	نفسطبى
Puritanism	...	التطهيرية (التزمت)
Puritan	...	بيوريتان (متطهر)

Q

Quantity	كم
Quality	كيف
Quantum	الكويمة - الكويمة (كوانتوم)

R

Rational animal	حيوان ناطق
Rationalisation	تعقيل
Rationalism	المذهب العقلي
Rationality	التعقل
Reaction	رد فعل
Reactionary	رجعي
Real	واقع - حقيق
Realisation	تحقيق
Realism	الواقعية
Realist	الواقعي
Reality	حقيقة - الواقع
Reason	عقل
Reasonable	عقل - معقول
Reasoning	استدلال
Reflection	تفكير - تأمل
Reformation	الإصلاح الديني
Regularity	انتظام
Relativity	النسبية
Reliability	صالح للاعتماد عليه
Religion	دين
Religious	متدين - ديني
Renaissance	عصر النهضة
Reproduction	تناسل
Restraint	حريمان
Resurrection	بعث
Response	استجابة
Rites	طقوس - شعائر
Right	حق

Rule قاعدة - حكم (في السياسة) ...

Rythm وزن

Rythmic موزون

S

Sacred	مقدس
Sanction	جزاء
Savagery	هجمية - توحش
Scarification	تنديب
Scatophilia	عشق القذارة
Sculpture	النحت
Scepticism	مذهب الشك - الشكية
Sceptic	شاك
Science	علم
Scholastic	مدوني
Scholasticism	المدرونية
Secondary	ثانوي
Sect	فرقة - شعبة
Security	أمن
Sensation	إحساس
Sense of beauty	حاسة الجمال
Separation	انفصال
Sex	جنس
Sexual	جنسي
Sensitivity	حاسة
Social order	نظام اجتماعي
Socialism	اشتراكية
Society	مجتمع
Soul	نفس
Solidarity	تضامن
Solitude	عزلة
Spatial	متحيز
Space	مكان
Space-time	زمكان
Spirit	روح

Spiritualism	الروحانية
Spontaneity	تلقائية
Speculation	النظر ...
Stage	مرحلة ...
Static	ساكن
Statesman	رجل حكم ...
Statesmanship	فن الحكم
Statistics	إحصائيات ...
Standardization	توحيد
Stimulus	مؤثر ...
Structure	تركيب - هيئة
Stock	سلالة
Stoics	الرواقيون ...
Stoicism	الرواقية ...
Subject	ذات - شخصي
Subjective	ذاتي - شخصي
Subjectivity	الذاتية - الشخصية
Sublime	رائع - جليل
Submission	خضوع
Substance	جوهر - مادة
Substantial	جوهري
Suggestion	إيحاء
Superficial	سطحي
Superfluous	زائد ...
Superman	إنسان أعلى ...
Supernatural	علوي ...
Supernaturalism	الغيبية ...
Superstitions	خرافات ...
Syllogism	قياس (في المنطق)
Symmetry	تماثل ...
Synthesis	تركيب
Synthetic	تركيبى

T

Taste	ذوق ...
--------------	---------

Taboo	محرم
Technical	فني ...
Technology	صنعة - تكنولوجيا
Temperament	مزاج ...
Tension	توتر ...
Test	مقياس - اختبار ...
Tender emotion	انفعال الحنان ...
Theology	لاهوت
Theologist	لاهوتي ...
Theory	نظرية
Theoretical	نظري ...
Thing-In-Itself	الشيء بالذات (في فلسفة كانط)
Thinker	مفكر
Thought	فكر ...
Time	الزمان
Truth	الحق ...
Total	كلي ...
Totem	طوطم ...
Traditions	التقاليد
Traditional	تقليدي
Transcendent	متعالى ...
Transcendental	أولى شرطي ...
Tyranny	استبداد

U

Ugly	قبيح ...
Ultimate	نهائي - أقصى
Ultimate good	الخير الأقصى
Unconsciousness	اللاشعور
Unknowable	ما لا يمكن معرفته (في فلسفة سبنسر)
Unit	وحدة
— Social unit	وحدة اجتماعية ...

Unity...	وحدة
Universe	كون
Universals	الكليات
Unreality	اللاحقة
Unreliability	اللاتقة
Utility	منفعة
Utopia	مدينة فاضلة - طويا

V

Vacuum	الحلاء
Validity	ثقة
Value	قيمة
Vice	رذيلة

Virtue	فضيلة
Vision	رؤية
Vitalism	الحيوية (المذهب الحيوى)
Vitality	حيوية
Veracity	صدق
Voluntary	اردى

W

Whole	كل
Will	إرادى
Wisdom	حكمة
Worship	عبادة